

كتابى
الطبعة الثانية
عن مبارك وعصره ومصره
إبراهيم عيسى
http://www.liilas.com/vb3l
مكتبة مدبولى

الكتاب : كتابى/ عن مبارك
وعصره ومصره
تأليف : إبراهيم عيسى
الطبعة الأولى: يناير ٢٠٠٨
الطبعه الثانية: أبريل ٢٠٠٨
الناشر : مكتبة مدبولى ٦ ميدان طلعت حرب _ القاهرة
ت : ٢٥٧٥٦٤٢١
ف : ٢٥٧٥٢٨٥٤
Website : www.madboulybooks.com
E_ mail : info@madboulybooks.com
رقم الايداع : ٢٠٠٧/٢٤٣٩٣
الترقيم الدولى : X - 712 -208 -977

كتابى

عن مبارك وعصره ومصره

إبراهيم عيسى

مكتبة مدبولى
٢٠٠٨

إهداء

ذهبت أزور أمى فى العناية المركزة بالقصر العينى . وجدتها نائمة (كانت ولاتزال عندى أجمل إمرأة فى الوجود) خفت أن أوقظها وقد أعياها القلق والأرق ووهن الوحدة ووحشة المستشفيات ، وخفت أن تصحو فتظن أنى لم أحضر إليها فترف منها دمعة ، ففتحت أصابع كفها المقبوضة وتركت فيها قلمى ، ومضيت ، فى الصباح قالت لى مبتسمة : عرفت إنك جيت إمبارح بالليل.

إلى هذه اللحظة أهدى هذا الكتاب

إبراهيم عيسى

مع حضرة النبى محمد

فى لحظات التوهان والارتباك، عندما تجد الواقع من حولك مضببا ملبشا، والناس مشوشة والحقيقة مداسة بنعال التسلط والتطرف والمواطن يذل من حكام ويضل من شيوخ، لا حل غيره، أنا لاجيء سياسى ودينى إليه..

لا تأشيرة ولا ختم سفر ولا سفارة ولا عمارة ولا حرس ولا عسس ولا مدير مكتب ولا دفتر مواعيد ولا غضب ولا عتب..

ذهبت إلى حضرة النبى المصطفى، نبينا العظيم محمد صلى الله عليه وسلم هو وحده الذى يحق لنا أن نسأله.

جلست هناك بين صفحات مجلدات صحيح البخارى، أسأل وأسمع وأبحث وأنصت لجواب النبى الكريم وها هو نص الحوار ملتزما بحروف النبى صلى الله عليه وسلم دون تصرف ولا تبديل وحاشا لله أن نمد سن قلم فى ألفاظ نبى مكرم.

كان لنا شرف سؤال النبى «صلى الله عليه وسلم» «متوضئين» وكان لنا اجتهاد سماع جوابه.

● سؤال كل مسلم، حلم كل مسلم، كيف يدخل الجنة؟

- من يضمن لى ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة (٢٠٣٢).

● لكن الوصول إلى الجنة يبدو صعباً شاقاً وسط زحام الدنيا بالمغريات والإغواءات ولا يستطيع الإنسان أن يعرف كيف الوصول إليها وسط كل هذا التخبط الذى نعيشه؟

- الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك. (٢٠٣٥).

● يخرج علينا شيوخ يحرمون علينا عيشتنا ويضخمون أخطاءنا ويصورون أفعالنا كلها ذنوبا وكبائر، فما الكبائر؟

- الاشراك بالله

● ثم ماذا؟

- عقوق الوالدين.

● ثم ماذا؟

- اليمين الغموس

● وما اليمين الغموس؟

- الذى يقطع مال امريء مسلم، هو فيها كاذب. (٢١٦٠).

● وما يحدث فى الوطن من فساد وإفساد سياسى واقتصادى وأخلاقى ألا يستدعى المواجهة العنيفة والحادة مع المجتمع بأسره؟

- إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله. (٢١٦٣).

● نرى جماعات من الناس أطالت ذقونها وقصرت ثيابها، يصلون فى المساجد ويعتكفون ويقولون عن أنفسهم «ملتزمين»، نشهد لهم بحفظ القرآن وتلاوته ودوام الصلاة وقيام الصيام.. لكننا نراهم منشغلين جداً فى تكفير الناس إن قالوا وإن لبسوا وإن سلكوا بطريقة تخالف رأيهم؟

- إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء به أحدهما. (١٩٢٥).

● رغم ما هم عليه من تدين وإلتزام؟

- يخرج فى هذه الأمة قوم يتقرون صلاتكم مع صلاتهم يقرؤون القرآن لا يجاوز حلوقهم أو حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، فينظر الرامى إلى سهمه، إلى نصله، إلى رصافه، فيتمارى فى الفوقة، هل علق بها من الدم شيء. (٢١٦٤).

● نحن نرى الرجل يقول عن نفسه الحاج فلان ويسبح على مسبحة ويصلى فروضه حاضراً وجماعة، بينما يقبل الرشوة ويأكل حقوق الناس!

- إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت. (١٩٢٩).

● نشاهد حكاما فى وطننا العربى وقد أثرو وتفحشوا وتوحشوا مالا وثراء

ونفوذا لا نستطيع أن نسألهم أمراء وحكاما ورؤساء ووزراء، من أين أتيتم بكل هذه الثروات والأموال، ماذا تقول لهم يا سيدى ورسولي؟

- أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقى الله يحمله يوم القيامة، فلأعرفن أحداً منكم لقى الله يحمل بعيرا له رغاء، أو بقرة لها خوار. ثم رفع نبينا الكريم يده حتى رؤى بياض إبطه.

- اللهم هل بلغت. (٢١٨٣).

● لكن هناك حكاما وامراء ومسؤولين فى كافة أقطار الوطن العربى كأنهم لم يسمعوا بلاغك النبوي؟ يحلون مال الدولة ويتربحون من بيت مال المسلمين دون حسيب أو رقيب؟

- ما من وال يلى رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة. (٢٢٣٤).

● إن حكامنا يظلمون شعوبهم؟

- الظلم ظلمات يوم القيامة. (٧٣٤).

● ويستولون على الوطن والرزق والنفس والأرض؟

- من أخذ من الأرض شيئا بغير حقه، خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين. (٧٣٥).

● نشهد هذه الأيام ظاهرة تتعاظم وتنتشر بشكل يثير التنبه وهو تحول المسلمين إلى طالبى فتاوى فى أمور واهية ويطرحون أسئلة عن كل شيء حلال هو أو حرام؟

- إن أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يُحرم فُحرم من أجل مسألته. (٢٢٧٦).

● ولكن أليس من حق الناس أن تسأل حتى فى نشأة الكون وخلق آدم وحواء والهبوط من الجنة؟

- لن يبرح الناس يتساءلون حتى يقولوا هذا الله خالق كل شيء..

فمن خلق الله.(٢٢٧٧).

• نعيش فى عصرنا هذا حالة من المناظرات بين الإسلام والمسيحية واليهودية سواء فى برامج التليفزيون أو شرائط الكاسيت وعلى الإنترنت ويتبارز الشيوخ مع القساوسة والحاخامات ويتدافع المسلمون وراء هذه المناظرات اهتماما وشغفا بتفضيل نبينا على غيره من الأنبياء؟

- لا تخيرونى على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش جانب العرش فلا أدرى أكان فيمن صعق فأفاق قبلى أو كان ممن استثنى الله. (٧١٩).

• وما علامات تراجع وطن وانحدار أمة وضعف شعب؟

- أن يقل العلم ويظهر الجهل. (٥٤).

• ولكننا نرى شيوخا ووعاظا ودعاة يملأون شاشات الفضائيات والجرائد والمساجد أليس هذا دليل انتشار علم؟

- إن الله لايقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فافتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا. (٥٩).

• وكيف نتعامل مع المنافقين المتلاعبين على كل الحبال، ينافقون السلطان ويدعون معارضته، يظهرون المودة ويغمدون الكراهية.

- تجد من شرار الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين، الذى يأتى هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه. (١٩١٣).

• وإذا أردنا التقرب لله عزوجل، فهل نجاهد بالحرب والضرب فى سبيل الله، أم ماذا نفعل بالضبط، أى العمل أفضل؟

- الصلاة على ميقاتها.

• ثم أي؟

- ثم بر الوالدين.

• ثم أي

- الجهاد فى سبيل الله. (٨٦١).

● وأى الناس أفضل؟

- مؤمن يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله. (٨٦٢).

● وإذا لم نستطع الجهاد والقتال سواء لأننا لانقدر أو أنه لا أرض للجهاد والقتال.. أى الناس أفضل بعد المجاهد.. من؟

- مؤمن فى شعب من الشعاب يتقى الله ويدع الناس من شره. (٨٦٢).

● وهل كل جهاد فى سبيل الله؟

- الله أعلم بمن يجاهد فى سبيله. (٨٩٤).

● يحدث الآن فى العراق أن جماعات تقول عن نفسها مقاومة ضد الاحتلال، لكنها تقتل العراقيين وتنسف بيوتهم وأحياءهم وتسفك دماء الصغار والكبار تحت دعوى المقاومة فإذا بها تقتل المسلمين لا المحتلين

- من حمل السلاح علينا فليس منا. (٢٢١٣).

● وماذا نقول لهم ياسيدى ورسولى الكريم؟

- لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض. (٢٢١٤).

● هناك من يزين للسلطان ظلمه وللإرهاب إرهابه وهم يرددون القرآن الكريم ويتحدثون باسم الإسلام ويحفظون أحاديثك الشريفة!

- يجاء برجل فيطرح فى النار، فيطحن فيها كطحن الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار فيقولون أى فلان الست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول إنى كنت آمر بالمعروف ولا أفعله، وأنهى عن المنكر وأفعله. (٢٢٢١).

● أخشى أن أكون قد تجاوزت فى السؤال وأخطأت فى اجتهاد الحوار

- من تعمد على كذبا فليتبوأ مقعده من النار. (٦١).

● لكل نبى دعوة مستجابة يدعو بها، فما هى دعوتك لله يا نبى الله؟

- اريد أن أختبيء دعوتى شفاعة لأمتى فى الآخرة. (١٩٨٣).

الأرقام الواردة فى الحوار هى أرقام الصفحات من كتاب البخارى.

مصر ليست أجمل بلد فى الدنيا!

لا أعرف مدى تقديرك لوطنيتى لو قلت أن مصر ليست أجمل بلد فى الدنيا، هى بالقطع ليست كذلك رغم إصرار المصريين على هذه الجملة كأنها حقيقة مقدسة لا تقبل النقاش، هى ليست أجمل بلد فى الدنيا، هى مجرد بلد قد تكون جميلة لكن أى شخص عاقل سافر إلى بلاد فى آسيا أو أوروبا أو أمريكا بل وأفريقيا لن يقول أنها أجمل بلد فى العالم، وهذا لا يمنع أننى أحبها لأنها بلدى ولو لم تكن جميلة أصلا، وأحاول أن أستمر فى وصفها بأنها جميلة متغلبا على ما فيها من تلوث الهواء وعلى السحابة السوداء وتلوث المياه وروث السياسة، (من المجنون الذى يمكن أن يردد الآن أغنية حلاوة شمسنا وخفة ظلنا الجو عندنا ربيع طول السنة) وهذا يذكرنى بدروس المدرسة حين كانت تقول لنا أن مصر تمتع بموقع جغرافى ممتاز يجعلها ممرا بين قارات العالم وهذا صحيح فعلا لكنه كان صحيحا فى زمن ماجلان وأحمد بن ماجد ورأس الرجاء الصالح، كان صحيحا قبل هذا التطور العلمى والتكنولوجى المذهل الذى لم يجعل لهذه الأوصاف أهمية أو ضرورة، تماما مثل الكلام الحالم عن أن مصر دولة رائدة فى المنطقة فهى الآن دولة يلعب نظامها دور الدولة الوسيطة وسمسارة سياسيا مهمتها إجلاس البائع مع المشترى على أن تقبض هى عمولتها السياسية، أفضل شىء نفعله لبلدنا أن نتواضع فى وصفها حتى نستطيع أن نتقدم بها ونتطور معها و ألا نصدق المعلق حين يلح فى وصفه للمباراة على أننا نلعب مباراة رائعة، لنبذل جهدا فى تغيير جذرى للحالة السياسية المزرية فى مصر وما أنتشر فيها من فساد ومحسوبية واستبداد مذهل وعبودية للحاكم وتقديس للرئيس وتحويله نبيا لا ينطق عن الهوى فهو نصف إله لا يخطئ ولا يغير ولا يتغير، نكف عن التعامل كالعبيد أمام مالك الوطن وفرعون البلد يتحكم فينا

كيفما شاء ويتمدد ويتأبد ويرث حكما فيورث وطنا..

العجيب أننا نتصور أنفسنا حماة للاسلام والعروبة بينما لا نستطيع أن نحمى مصنع قطاع عام من السرقة عينى عينك! نصرخ مواجهين الحملات الاستعمارية والصليبية بالصوت والصراخ والهتاف بينما لا نواجه تزويرا فى انتخابات دائرة فى وسط البلد!

والحقيقة أن الذى لا يستطيع مواجهة حبيب العادلى لا يستطيع مواجهة رامسفيلد والذى لا يقدر على حماية سكان القلعة لا يستطيع حماية قلعة الإسلام والذى يضطهده فتحى سرور من السهل جدا أن يضطهده تونى بلير، لكننا نحيا على أكذوبة كبرى وكلما كبرت الكذبة يصعب نفيها، أكذوبة أننا مرسلون من العناية الإلهية للدفاع عن العروبة والإسلام، جائز هذا كان ماضيا عريقا عظيما لكنه الآن ولا حاجة، فانا لا أفهم من يريد مواجهة محاولة أمريكا المتصورة والمتخيلة أن تمحو الإسلام و يدعى أنه هو الإسلام أو ممثل الإسلام، هل نصدق أننا فى الوطن العربى وفى مصر ممثلو الإسلام، يا أخى دا الإسلام يبرئ منا ومن عيشتنا، الإسلام هو الدين الذى يجعل أبناءه أحرارا ونحن لسنا كذلك، ماليزيا وأندونيسا وتركيا بل وإيران من الممكن ان يتكلموا عن الإسلام ويمثلونه أما نحن فبأى إمارة والنبى، هذه الدول ديمقراطية حرة لا تتحكم فى مواطنيها ولا تسجن نصف شعبها ولا تنتهك حقوق الإنسان، وتزرع وتصنع وتصدر وتكبر وتستكفى وتنمو وتثمر إقتصاديا وصناعيا، وتعدل فى الحكم ويذهب حكامها ويروحون ليس فيهم الآن أبدى ولا مورث ولا وارث، هم إذن الذين يملكون الكلام عن إسلام قوى ومسلمين محترمين أما نحن الذى نغطس تحت مجارى الإستبداد والفساد والعبودية فلا عين لنا لنبرق ولا لسان لدينا لنتكلم، كنت أتمنى أن أكون مناضلا كبيرا ضد أمريكا وبطلا فى مواجهة ما تفعله لكننى للأسف لن أحظى بهذا الشرف لأننى أرى أن تعبير أمركة الإسلام نفسه كاذب ومنفوخ، أوهام..

إن امريكا تريد تغيير المصحف وإلغاء آيات قرآنية فهذا كلام يفطس من الضحك (يفطسنى أنا لوحدى كى لا يغضب أحد) لا تسمعه ولا تقرأه إلا فى

الوطن العربى على ما فيه من ضعف وهشاشة، هناك ملايين المسلمين من الأمريكان والعرب الأمريكان والأمريكان السود (سبعة مليون مسلم أمريكى و١٢٠٠مسجد هناك) يمارسون شعائرهم ويقرأون قرآنهم ويبنون مساجدهم وينشئون مدارس إسلامية التى تعلم القرآن والشريعة وتتحجب البنات والستات بل إن الإسلام أسرع دين انتشارا فى العالم وفى أمريكا تحديدًا هذه السنوات ووصل عدد المسلمين حديثا فى أمريكا وحدها ١٧% من المسلمين الأمريكان دون أن يتحدث واحد منهم شاكيا من هذه الهراءات التى تجدها فقط عند سكان العالم العربى وصحفهم ومواقعهم على الانترنت!! حتى السيدة المختلة التى أمت الصلاة مع جماعة هناك فى قاعة مؤجرة من كنيسة ليست إلا شذوذا فكريا شأن عشرات من مدعى النبوة ومدعى المهدى المنتظر وقد رفضها مسلمو أمريكا قبل أى مسلمين وندرك أنها فقاعة إعلامية لهواة الطرائف أكثر منها حدث دينى أو فقهى، حتى دعوة طارق رمضان حفيد حسن البنا لتجميد تطبيق الحدود فى الشريعة الإسلامية فهى دعوة من مسلم صالح تقصد الخير حتى لو اختلفنا معها ولها أصولها الشرعية الآمنة وليست كما وصلت للعقل المصرى الذى يعانى المرض والخلل على أنها إلغاء لآيات الحدود فى القرآن (بالمناسبة القرآن لم يشمل كل الحدود أساسا!) أو أنه مطلوب تطبيق حد الحرابة عليه ومثل هذا الغث التافه الذى جهلوا الناس به، أما قصة تغيير المناهج التى تدعو إليها أمريكا فدعنى أذكركم فقط أننى لست خواجة مستشرقا بل منوفى على مذهب الامام الشافعى ومتزوج على مذهب الامام الأعظم أبى حنيفة النعمانى (أحب أبا حنيفة حبا يفيض على قلبى لأوزعه عليكم) أقول هذا واستغفر الله لى ولكم لأؤكد أنه فى مصر كنا أول من غير المناهج الدينية فى عصر عبدالناصر كى تتناسب مع الاسلام دين الاشتراكية وغيرنا المناهج فى عصر السادات حتى يصبح الاسلام دين الرأسمالية، وغيرناها فى الستينات حتى نواجه الاخوان المسلمين ووجهوا المناهج للتحفيز من أجل حرب اسرائيل ثم عدلوها وغيروها فى السبعينات من أجل مواجهة الشيوعيين والسلام مع اسرائيل، لا جديد فى تعديل المناهج، الجديد فعلا أنها فى

حاجة الى تعديل من قبل أن تطلب أمريكا ذلك بسنوات طويلة منذ صارت هذه المناهج الدينية تعلم طاعة الحاكم المخلوق فى مواجهة الخالق، باتت تعلم الناس بأسم الدين الصبر على الحاكم الظالم وعدم شق عصا الجماعة وتكفير الشيعة و المسيحيين وتكفير الغرب أيا كان ومن يكن!! المناهج الذى تزرع الطاعة بأسم الاسلام وتقتل الاجتهاد والاختلاف وتعلم أن الجهاد ضد الكفر فقط وليس ضد الظلم وليس ضد الاستبداد ولا حتى ضد المحتل!!، هذه المناهج الذى كتبها فقهاء السلطة ووعاظ السلاطين لا حاجة لنا بها، هذه المناهج يجب أن تتغير ونثور ضدها حتى لو كانت امريكا تريد ذلك فنحن لسنا هبلا وعبطا كى نصر على التخلف والتطرف من أجل معاندة أمريكا فقط فنصبح مثل الزوج الذى أراد أن يعاقب زوجته لخصى نفسه!

عمى الثلج!

لم يصدق الرئيس الراحل أنور السادات ساعتها المشهد، فقد اندفع نحوه جنود من ساحة العرض العسكرى وتوجهوا ناحية المنصة رافعين المدافع فى مواجهته، لم يصدق السادات أن هذا يمكن أن يحدث من شعبه (شعبى) وقد أدرك الرئيس السادات لحظتها أنهم لا يريدون سوى قتله، (قيل إن خالد الإسلامبولى قاتل السادات رأى حسنى مبارك وقد رفع رأسه ناظرا إلى القاتل فقال له ابعد إنت إحنا عايزينه هو بس!).

من الواضح أن الرصاصات لم تذهب إلا إليه، إلى الرئيس السادات فقط فلم يقتل أى رجل من رجالات الدولة يومها لا مبارك ولا أبو غزالة ولا غيرهما، خرج مبارك بجرح شطية فى يده (عندما حكى الواقعة فى برنامج دعائى له قبيل انتخابات الرئاسة العام الماضى نسى أى يد هى التى أصيبت) أما المشير عبدالحليم أبوغزالة فقد ظهرت بعد الحادث صور فوتوغرافية لقبعته العسكرية مخرومة من أثر رصاصة أو هكذا قيل، المهم أن السادات رحمه الله (وجاء اليوم الذى نترحم فيه أيضا على أيامه وليس عليه فقط) عرف أن القتلة لايريدون سواه فخرجت منه الجملة التى باتت بعدها مشهورة، قال: مش معقول، نعم لم يصدق السادات رحمه الله أن أحدا من شعبه قد وصل به الغضب عليه إلى حد قتله، فكان طبيعيا أن يتمتم الرئيس وهو يموت بهذه الجملة الكاشفة والصادقة تماما، مش معقول!

لا يوجد رئيس يصدق أنه مكروه ولا يوجد رئيس مصرى مستعد أن يفكر أساسا أنه مكروه من شعبه!

هذا يذكرك فورا بالطغيان والاستبداد والبقاء على العرش حتى يلتصق الحاكم

بالكرسى فلا يرى نفسه بعيدا عنه، ثم لا يرى غيره، ومهما جرى ومهما غضب الشعب عليه ومهما خرجت مظاهرات ومهما ارتفعت درجة غليان لن يصدق أى رئيس دكتاتور أنه مكروه ومغضوب عليه، إنه ما يمكن أن نسميه عمى السلطة تماما مثل عمى الثلج، فالتواجد فترة طويلة فى جبل أو غابات ثلوج تصيب البعض بعمى مؤقت من فرط النظر والتركيز على الثلج، البقاء فى السلطة مدة طويلة وبصلاحيات مطلقة غير مقيدة وبتأليه مصاحب للسلطة من منافقين وخدم المنصب والعرش يؤدى غالبا لعمى السلطة فلا يرى الحاكم سوى ما يريد أن يراه، هذا بالضبط ما جرى مع رضا بهلوى شاه إيران، يحكى الأستاذ محمد حسنين هيكل فى كتابه «مدافع آيات الله» أن الشاه لم يصدق ما كان يجرى من مظاهرات عارمة فى بلاده خلال الشهور الأخيرة من حكمه وحين قام بجولة بالطائرة الهليكوبتر ووجد فى الشوارع مظاهرات عارمة سأل طياره بدهشة (هل هؤلاء الناس يتظاهرون ضدي؟)

إلى هذا الحد ما تصنعه السلطة فى دكتاتور أنه لا يرى ولا يصدق أن عليه الرحيل عن العرش ولا يوجد على مدار التاريخ المعاصر دكتاتور فى الشرق أو الغرب، فى العالم العربى أو أى مكان صحرا إن كان أو بستان، ترك العرش بإرادته، الحالمون والسذج فقط من يظنون أن المستبد يمكن أن يترك السلطة وهو حى يرزق ولو حتى لابنه، وفى بلاد مثل مصر لا أظن أنه من الوارد إطلاقا مثل هذا الحلم العبثى الذى يراود المحكومين وهو أن الرئيس يمكن أن يجرى إصلاحا ديمقراطيا حقيقيا فهذا يعنى ببساطة شديدة انه سيبتعد عن مقعد الحكم ونفوذ السلطة، ومن ثم لن يُصلح لأنه لن يرحل، وكما يقول المفكر العظيم جمال حمدان فى الجزء الثالث من كتابه «شخصية مصر» (الديمقراطية لا تُمنح ولكن تُنتزع، لا تُستجدى من الدكتاتور وإنما تفرض عليه فرضاً بقوة الوعى وفعل القوة وبيد الشعب نفسه) ويضيف حمدان (فمكان مصر ومكانتها الدولية كقوة سياسية، انتصارها وهزيمتها عسكرياً، مصيرها وبقاؤها، إلخ، كل أولئك بين يدى شخص فرد واحد، بينما الشعب مقود غصباً ولا شيء عملياً، والنتيجة المنطقية، ولا نقول

الحتمية، هى الهزيمة والنكسة ثم الاستسلام والنكبة.. فقط انظر حولك. ومن هنا كانت الفرعونية الجديدة هى ببساطة ولكن بصرامة «الفشل فى الداخل والهزيمة فى الخارج» و«الطغيان فى الداخل والركوع فى الخارج». وفيما بين الطرفين، تظل الديمقراطية هى مشكلة مصر الأولى والأم، فهى وإن لم تكن مشكلتها الوحيدة أو الأخيرة، فإنها مفتاح جميع مشاكلها الأخرى بلا استثناء، لا شيء يسبقها، ولكنها تسبق الجميع، جميع مشاكل مصر وأزماتها وكوارثها الداخلية والخارجية، فى الإنتاج والحضارة والتقدم، مع العدو الإسرائيلى والأشقاء العرب، مع القوى العظمى والصغرى، كل انحدار أو سقوط مصر فى الحرب أو فى السلم، جميع عيوبها ونقائصها وسلبياتها ومثالبها فى المجتمع والفرد كما فى السياسة والاقتصاد مصدرها وسببها الرئيسى هو الاستبداد الداخلى الغاشم والطغيان الفرعونى المقيم المستديم.)
هل بعد هذا التشريح شرح؟

يبقى أن الإصلاح الحقيقى فى مصر يبدأ وينتهى بموقف الرئيس وبالموقف من الرئيس!

أول خطوة للإصلاح هى النزول بحاكمنا من صفة الفرعون إلى منصب الرئيس، ثم يليها خطوة ضرورية حتمية هى تحويل الرئيس من مقدس منزه إلى رئيس بشر، يصيب ويخطئ، ننصفه ونهاجمه، نمتدحه وننتقده، نحاوره ونواجهه، وهو ما ينتهى الى الخطوة الثالثة وهى تغيير الرئيس، بمعنى ألا يصبح الرئيس حاكما أبديا سرمديا، ألا تكون نهاية حكمه هى نهاية عمره، مدة رئاسته هى مدة حياته (أقصد قطعا تغيير المادة ٧٧ من الدستور وهى التى يرفض مبارك وابنه تغييرها لأنها جوهر الإصلاح السياسى وهم لا يريدان -وعائلة الحكم وحاشية الرئاسة- جوهر الإصلاح بل يريدون شكله ومظهره فقط بل ها هم يتراجعون حتى عن الشكل والمظهر فبعض المساحيق التجميلية لرداءتها تذوب سريعا من على تصريحات ومؤتمرات وقرارات حكامنا)..

إذن هناك معركة سياسية لا شك فى حدوثها بل هناك ما يشبه الحتمية فى وقوعها بين طرفين، طرف يريد إخراج الرئيس من معادلة الإصلاح والتغيير

السياسى، ومن ثم يلف ويدور ويتكاذب ويتحاذق ويتفذلك ويراوغ وكل ما يبغيه هو أن يبعد الجميع عن الرئيس (الشخص والمنصب)، وطرف لا يرى إصلاحا ولا تغييرا ولا ديمقراطية بل لا حياة من أصله إلا بمناقشة الرئيس (الشخص والمنصب) فى أول بند من بنود التغيير والإصلاح، فقد انتهت الأساطير التى يروج لها خدم السلطان وزبانيته وموتوسيكلاته الفكرية التى تسبق موكب آرائه وتصريحاته بالسارينة المفزعة والزئير المخيف حتى يلقى فى قلوب الناس الرهبة نحو هيبة صنعتها صناديق انتخاب مزورة ومزيفة، يقول المفكر والفيلسوف المصرى دكتور فؤاد زكريا فى كتابه «خطاب إلى العقل العربي» (فى بلاد العالم الثالث - حيث الحكم الفردى هو القاعدة العامة التى لا توجد لها إلا استثناءات قليلة - تنتشر أسطورة «الحاكم الذى لا يعرف»، وفى أغلب الأحيان يروجها النظام نفسه، أو المتعاطفون معه، كما أن الحاكم عينه قد يلجأ إليها فى نهاية المطاف، حين لا يعود فى الإمكان كتمان فضائح مالية، أو جرائم لا إنسانية، أو تصرفات قمعية إرهابية. عندئذ تعلو الأصوات قائلة: إن الحاكم نفسه رجل رحيم، ولكن العيب كله فى المحيطين به، وعادة يصور هؤلاء المحيطون بأنهم - فى غالبيتهم - مجموعة من الأشرار الذين لا يكتفون بارتكاب جرائمهم، بل يخفونها عن الحاكم، ويصورون له الأحوال دائماً بصورة وردية، وما داموا هم وحدهم الذين يستطيعون الوصول إلى الحاكم، فإن هذا الأخير يظل على غير علم بممارساتهم التى تشوه صورته أمام الناس دون قصد منه، وهكذا يساء إلى الحاكم الإنسان نتيجة لشرور الأعوان. وتنتشر أسطورة «الحاكم الذى لا يعرف» عندما يضطر أنصار الحاكم الفرد إلى الاعتراف بوجود تناقض صارخ فى تصرفاته، ويعجزون عن تفسير هذا التناقض. وربما حورت الأسطورة قليلاً، فلا يعود الحاكم هو الذى «لا يعرف»، بل يصبح هو الذى «لا يقدر»، وفى هذه الصيغة المعدلة، تكون رغبة الحاكم أيضاً متجهة دائماً إلى الخير، غير أن الذين يحيطون به يفرضون عليه إجراءات ظالمة لا يكون هو نفسه راضياً عنها، ولكن لا مفر من ذلك من أجل مراعاة «توازن القوي» فى الحكم، فإذا أساء أحدهم التصرف فإن الحاكم لا يمكن أن يكون مسئولاً عما فعل.

والشاهد على تأكيد صحة ما كتبه أستاذنا فؤاد زكريا هو ما يجرى كل يوم فى مصر من تسولات وتوسلات للرئيس بأن يتدخل، وكأن الرئيس ليس هو المسئول وهو المتدخل الأعظم فى كل ما يحدث فى بلدنا، لكنها الأسطورة التى تريد للنقد ألا يطول الرئيس وتبغى للمسئولية عن الفساد والإفساد الذى نعيشه أن تقف عند شارع القصر العينى حيث مجلس الوزراء (وبعده بأمتار ميدان لاظوغلى حيث وزارة الداخلية) وألا تقترب حتما من قصر العروبة فهى الساحة المحرمة على النقد والمواجهة وتحميل المسئولية، وكأن حاكما مسلما منذ ألف وخمسمائة عام لم يقل "راعونى بأبصاركم، فإن استقمت فأعينونى، وإن زغت فقومونى، وإن أطعت الله فأطيعونى، وإن عصيت الله فاعصونى"، رحم الله أبا بكر الصديق فكأن من يحيا بيننا الآن من حكام عرب ومصريين أشد ورعا منه وأكثر تقوى ودينا حتى إن أحدا منا لا يمكنه أن يراعيه ببصره أو بلسانه أو بقلمه أو بقلبه!

الرئيس فى الدستور المصرى يملك صلاحيات لم تتوفر غالبا للفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه رغم أن سيدنا عمر بن الخطاب كان يقول: «لو تعثرت بغلة فى العراق لسئل عمر عنها» بينما من يملك صلاحيات أكثر من عمر بن الخطاب لا يسائله أحد لا عن تعثر بغلة بل عن غرق مئات من بشر وحقوق بيت المال المنهوب وتعذيب وتشريد واعتقال الآلاف، سنتجاوز عن البغلة ونسأل عن مسئولية الرئيس عن تعثر وتدهور ملايين المواطنين (أصحاب البغلة)!

أعود للدكتور فؤاد زكريا الذى يقول (هل سمعتم يوماً عن حاكم لدولة ديمقراطية اعتذر عن أخطاء حدثت فى حكمه على أساس أنه لم يكن يعرف؟ وهل سمعتم عن شعب فى دولة ديمقراطية اقتنع يوماً بمثل هذا العذر؟ إن النظام الديمقراطى يفترض فى الحاكم أن يعرف، وأن يضع من ضمانات الحرية ومن نظم توصيل المعلومات ما يضمن له معرفة ما يدور حوله من إيجابيات وسلبيات، فإذا تبين يوماً ما أن تقصيره فى معرفة ما يحدث قد ترتبت عليه نتائج خطيرة وجب عليه أن يتنحى على الفور ويترك الحكم لمن هو أقدر منه).

إن السلطة فى مصر إذن لديها هذا الإحساس العاتى بالبقاء والخلود الذى لايقتنع ولا يسمح لأحد بأن يقتنع بنظرية تداول السلطة، ومن ثم فأى تعديلات أو تغييرات فى الدستور أو فى القوانين لا تستهدف سوى البقاء فى السلطة او عدم المساس بالبقاء فى السلطة وهذا أصل البلاء وأس الداء.

إن احتكار السلطة الذى يمارسه نظام مبارك السبب الفيزيقى البيولوجى (وليس السياسى فقط) للنكسات والأزمات فحين تشعر أى سلطة بأنها مخلدة وباقية وأن شيئا لا يمكن أن يمس أطرافها فإذا بهذه السلطة تنقلب إلى صراع داخلى أهلى محموم فى اقتسام كعكة الحكم (وهو ماعايشته مصر حينا) أو تأليه وتمجيد وتخليد زعيمها، ووضعه موضع الآلهة والأنبياء والحكماء (وهو مانعيشه) كما أن احتكار السلطة يزرع فى قلب وعقل الشعب يأسا من التغيير فاستسلاما مرضيا ومريضا لهذه السلطة الى حد التفويض السلبى لها بأن تفعل ما تفعله (يا عم هى بلدنا، دى بلدهم همه).

إن غياب احتمال الرحيل عن الكرسى يجعل أى سلطة فى الدنيا تتجمد وتتصلب وتتعفن أحيانا إذن لابد من إحساس قوى لدى الرئيس أن سلطته زائلة حتى تسلم سلطته من الفرعنة والعلو والتعالى واللامبالاة بالناس ورأيهم وبالشعب وغضبه،لأنه حين تصبح السلطة الحاكمة الباقية الخالدة مستغنية عن ديمقراطية تراقبها أو شعب يحاسبها أو معارضه تنتقدها أو منافسين يواجهونها ويهددون بقاءها فإنها تتوحش حتى يصير الحاكم هو الواحد الأوحد (لا منافس له ولا يجد من يخلفه ويضعه نائبا كأن الدنيا عقمت عن مثيله وكأنه لا مثيل له) والجبار المتكبر(يعرف مصلحة البلاد والخطوط الحمر والقرار الصائب والوقت المناسب)، العزيز المنتقم (طوارئ وسجن وحبس وقانون تحت يده)، العفو الكريم (فيوافق على تعديل قانون أو مسامحة مخطئين أو عفو عن منافسين)، وصار لايخطئ ولايملك أحد تخطئته و نجد أنفسنا أمام الفرعنة، وهى نتيجة وسبب، نتيجة غياب الديمقراطية واحتكار السلطة وتأليه الحاكم وسبب الهزيمة فى السلم وفى الحرب، فى السياسة والاقتصاد، فى الصيف والشتاء!

أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب قالا نفس القولة عندما توليا خلافة وإمارة الأمة، قالا (وليت عليكم ولست بخيركم....) ومفتاح التغيير والتطور والتقدم أن يدرك الرئيس وندرك جميعا أنه تولى علينا وليس بخيرنا، لكن الحاكم حين يمكث فى الحكم كل هذه السنين ووسط كل هذا التعظيم والتقديس والتنزيه عن الخطأ ويسمع ويقرأ كل يوم مديحا ونفاقا ورياء فمن الطبيعى جدا أن يؤمن داخله (وخارجه) أنه تولى علينا لأنه خيرنا!

وبينما نطالب مبارك بأن يقتدى بأسيادنا أبى بكر وعمر إذا بالذين حوله (وتحته) يطالبونه كل يوم (كل ساعة) بأن يقتدى بالحاكم الأموى عبدالملك بن مروان وهو أول حاكم عربى مسلم نهى الناس عن أن تقول له: اتق الله!

لا يعترف.. ولا يعتذر

لم يعترف حسنى مبارك خلال ست وعشرين سنة من حكمه بأى خطأ ارتكبه أو أى ذنب (سياسى) اقترفه أو بأى فشل فشاه فلم نشهد مبارك أبدا يمارس فضيلة الاعتراف بالخطأ فضلا عن الاعتذار عن هذا الخطأ للشعب فالرئيس يقدم سياسته طول الوقت على أنها عين الصواب وفصل الخطاب وهو يدأب فى كل حواراته على إعلان أنه أدرى بالتوقيت المناسب لكل تحرك جديد وهو يعلن عن عدم استعداد الوطن لهذه الخطوة أو تلك أو أنه يرى مصلحة البلد التى يتصرف وفق ما يرى هو وما يعتقد هو، والرئيس الذى لا يعترف بالخطأ هو بطبيعة الحال لن يعتذر عنه ثم إنه كذلك لن يصححه ويغيره، وقد أورث الرئيس مبارك عدم الاعتراف بالخطأ لكل رجاله ونظامه وحزبه و ابنه، فهم يرتكبون الأخطاء والخطايا والجرائم ومع ذلك فلا أحد منهم يعترف وبالطبع لا أحد منهم يعتذر، فأصبح سادة وسدنة الحكم وخدم البلاط الرئاسى كلهم من أولئك الذين ينكرون الحقيقة ويضللون الناس ويدلسون على الجماهير مقابل ألا يعترفوا بخطأهم الذى يصل لحد الجريمة أحيانا كثيرة، وصار الإنكار وعدم الاعتراف بالخطأ وغياب الاعتذار للناس من صفة رئيس إلى منهج حكم، ومن طابع شخصى إلى طابع سلطة، فى كل بلاد العالم المحترمة يقوم رئيس الحزب المهزوم بإعلان هزيمته وتهنئة الفائز وهو شرط إعلان النتيجة أن يعترف المهزوم بهزيمته، هذه فضيلة عظمى فى السياسة وهى الاعتراف وفى الغرب والبلدان المحترمة كذب المسئول يوديه فى داهية وإنكاره الحقيقة ينهى وجوده السياسى ويسحق شعبيته لكن فى مصر كل مسئوليها يحترفون الكذب والتضليل ولا أحد يحاسبهم بل تحول كذبهم فى التصريحات إلى نكت ومجال تفكه وتندر وغابت المسئولية وخابت الأمة، ثم فى

مصر كذلك الذى يتم تعذيبه من المواطنين على يد أمن الدولة أو مباحث قسم أو داخل سجن ويقيم دعوى قضائية فيكسبها يحصل على خمسة آلاف جنيه تعويضا لكن لا أحد يعتذر له ولا أحد يعترف بأنه عذبه، ولدينا أى معتقل يقيم دعوى قضائية قد يكسبها وقد يحصل على تعويض جنيين عن كل يوم سجن لكنه لا يجد مسئولا قد اعترف أو داخلية قد اعتذرت أو ضابطا قد عوقب أو وزيرا قد استقال أو أقيل، أبدا، منتهى النطاعة والتناحة السياسية وكأن هذا الوطن لا يحاسب أحدا على جرائمه ضد الإنسانية، ولم نعد نثور وننتفض ونصرخ ونستصرخ إذا اكتشفنا تعذيبا لشخص أو تلفيقا لمعارض سياسى، فماتت النخوة فخابت الأمة!

ثم نفس الشيء يحصل عندما يتم تزوير دائرة انتخابية ويقيم المتضرر دعوى قضائية فيكسبها فيحصل على خمسين ألف جنيه تعويضا لكن لا أى شئ آخر فلا الذى زور ينكشف أو ينكسف ولا الذى أقر التزوير يعترف أو يعتذر ولا أى حاجة من هذا على الإطلاق بل يقوم سيد قراره بإجرائه الحقير الشهير بإقرار هذا العوار والموافقة على وجود عضو مزور و الامتناع عن تنفيذ حق وحكم (إلا لو كان طبعا حكما ضد معارض أو نائب إخوانى) لا أحد يعتذر ولا أحد يعترف ولا أحد يعيد الأمر إلى صوابه ولا أحد ينتصر للحق ويعود عن الباطل!

هل وقف أى مسئول فى مصر من الرئيس حتى أصغر كبير فى أمانة سياسات حزبه المعتبر وأعتذر للناس عن اعتقال ٢٢ألف معتقل فى مصر بدون محاكمات ولا قضاء كل هذه السنوات فى السجون دون ذنب إلا الاشتباه، هل تجرأ واحد من مسئولى هذا الحزب الحاكم الغاشم الضال المضلل واعترف واعتذر عن قانون الطوارئ، التعذيب، البطالة، فيروس سى، الفشل الكلوى والكبدى والسرطان، والمبيدات المسرطنة، وتلوث الماء والسحابة السوداء، تراجع الجنيه المصرى وانحطاط الصادرات،، انهيار التعليم و انحدار البحث العلمى، لن تسمع واحدا منهم يعترف ولا واحدا منهم يعتذر فكلهم على دين الرئيس لا يخطئون أبدا ولا يعترفون طبعا ولا يعتذرون قطعا..

يقولون إن الانتخابات البرلمانية الأخيرة أنزه انتخابات شهدتها مصر ورغم أن هذا هراء وكذب إلا أنهم لا يعتذرون إذن عن كل الانتخابات السابقة التى لم تكن نزيهة بينما كانوا يكذبون كالآن تماما ويقولون عنها إنها نزيهة، إنهم زوروا جميع انتخابات مصر،ومع ذلك يملكون من الوقاحة ألا يعتذروا ولا يعترفون إطلاقا، لقد صدعنا صفوت الشريف بأننا نعيش أزهى عصور الديمقراطية وكان يتحدث متحمسا كأنه يصدق ما يقوله وكلنا نعرف أنه كلام غير حقيقى ينطق بالتزييف والتضليل ومع ذلك عادت نفس الحنجرة لتحكى عن خطوات الإصلاح وقرارات الرئيس التى تدفع بالديمقراطية إلى الأمام، إذن الرجل يفصح عن عوار وزيف ما كان يردده فى أوبريتات الحزب الوطنى فى السابق عن أزهى عصور الديمقراطية ومع ذلك فالرجل يتحدث ولا كأن حاجة حصلت وانكشفت ولا يزال هو وجوقة الحزب الوطنى من زكريا عزمى وكمال الشاذلى حتى جمال مبارك وأحمد عز ومحمد كمال يعزفون نفس النغم النشاز عن الديمقراطية والإصلاح وهو كلام كذوب ينز تضليلا ولا يصدقه أحد ولا يخيل على بنى آدم فى البلد ومع ذلك هم فى غيهم التصريحاتى مستمرون ويتجاهلون تماما ما جرى من هذا الحزب وذلك الحكم طيلة السنوات السابقة، طيب بلاش نحاسبكم ونحاكمكم على ما مضى لكن فقط اعترفوا اعتذروا، لكن كيف للصوص شرعية ومغتصبى حقوق وطن بالتزوير والتزييف على مدى ربع قرن أن يأتوا الآن ويدعون إصلاحا وديمقراطية وهم أنفسهم الذين استبدوا وزوروا وزيفوا، دون حتى أن يعترفوا بما مضى ويعتذروا عما جرى، يا عينك ياجبايرك ياهذا النظام المتنطع، ألا هلك المتنطعون!

هذا الحزب وذلك النظام لن يعترف بفشله الناقع فى الحياة السياسية وبمدى كراهية الناخبين لهذا الحزب مما أسقط رموزه ومرشحيه ورماهم بالبيض الفاسد فى وجوههم، لن يروا الحقيقة ولن يفهموا رسالة الناس ولن يتصوروا الحقيقة أبدا فقد انتفخت أوهامهم وبالونات ذواتهم وأصيبوا بلعنة عبادة السلطة والتشبث بالكرسى، هذا حزب ضال مضلل سقط مرشحوه حاملو الهلال والجمل فى ٧٠٪ من الدوائر التى واجهوا فيها الإخوان المسلمين (وطبعا تم تزوير كثير من الدوائر

التى كسب فيها الحزب الوطنى على طريقة آمال عثمان ومصطفى الفقى!)، أى عار أكثر من ذلك يهرب منه قيادات هذا الحزب الذى نرى على بعضها أعراض شيخوخة الوجدان من تصلب وجمود وضيق صدر وعصبية و نرى على بعضها الآخر أمراض مراهقة العقل من النزق والغطرسة والاعتداد بالجهل والفتونة والاندفاع، لكن هذا الحزب الفاشل لن يعترف بهزيمته ولن يتراجع عن خطيئة وجوده المتسلط وجريمة احتكاره للسلطة والحكم، لقد سقط فى المرحلة الأولى ٦٠% من مرشحى الحزب الوطنى حاملى الهلال والجمل، ثم انهار فى المرحلة الثانية حيث تساقط ٧٥% من هلال الحزب وجمله، ومع ذلك تخرج تصريحات جمال مبارك وعز والشريف فى منتهى التضليل وتتغنى بأغلبية زائفة ومتوهمة، ليس هناك أدنى أمل فى حزب يرفض الاعتراف بأن مرشحيه سقطوا وأن الذين حملوا رمزه واختارهم رئيس الحزب الوطنى مزكيا ومدعما تساقطوا كما لو كانوا نملا أبيض تطاردهم رشات البيرسول، مسئولو الحزب من المضللين القدامى أو من المضللين الجدد يمطرون هذا الوطن الذى أسقطهم ببيانات كذوبة يطرحونها كأنها الحقيقة ثم ينبرى فريق الدببة الموزعون على صحف الحكومة فيضعون عناوين الفوز والفخار فى عار سياسى ومهنى ودليل على شخصيات مريضة بالوهم ومدمنة للتضليل تعيش فى شرنقة وعالم افتراضى خاص بها لا علاقة له بالواقع، حزب نجح منه حتى الآن عدد من الأعضاء لا يشكلون له أغلبية أساسا لتشكيل الحكومة يتحدث كأنه حزب ساحق ماحق يرى قبلات الناس لقدمه تسولا له أن يقودها، حزب يرفع شعار «أنا مش قصير وقزعة أنا طويل وأهبل»، كأن ترديده الببغائى لأنه ناجح وساحق سوف يغير الحقيقة، ومن ثم لا أمل على الإطلاق فى هذا الحزب أن يتغير أو يغير، لا شئ ينقذ مصر سوى تفكيك هذا الحزب ونهايته، حزب السلطة الذى لا يشبع من نهمه، حزب مباحث أمن الدولة، حزب الأمن المركزى، حزب قانون الطوارئ، حزب التضليل الإعلامى، حزب رمزه الجمل وصحافته دبة تقتل صاحبها حيث تظن أنها تهش عنه الذباب.

أقول إن الضغط الداخلى الشعبى والضغط الخارجى الدولى هو أمل هذا

الوطن من أجل تحريره من قبضة الحزب الغاشم الفاشل وتخلى رجاله طوعا أو كرها عن مقاعد الحكم، والذى يدهشك حقا هو لماذا هذا الإصرار على كرسى والتشبث بمنصب حتى التماهى والتفانى فيه..

ماذا يريد الرئيس مبارك من مقعد السلطة بعد ربع قرن؟ ألا يكفى ويكتفى من سلطة ونفوذ وسيطرة وحكم وتحكم وتمجيد وتنزيه كل هذا الزمن، ألا يزال لديه حاجة فى حكم أو رغبة فى سلطة، أو طموح لدور؟ ألا تُشبع السلطة أبدا صاحبها ولا يكف عطشه عن مائها؟

ماذا يريد صفوت الشريف من الدنيا أكثر مما أخذ، ومن السياسة أكبر مما نال؟

ما الذى يتمناه زكريا عزمى بعد كل ما حصل وتحقق من نفوذ وحضور وسيطرة وسلطة؟

ما الذى يريده جمال مبارك من الحياة وقد امتلك شركة رأسمالها أكثر من ستمائة مليون جنيه، وقد أمن ماله وآمن على مستقبله المادى ومارس النفوذ والسلطة منذ كان صبيا ابن نائب الرئيس حتى صار كهلا ابن ذات الرئيس؟

ما الذى يريده كمال الشاذلى وحبيب العادلى، ألم يكتفيا مالا وبنيا وسلطة وزينة الحياة الدنيا؟ ما المغرى جدا إلى هذا الحد وبكل هذا القدر الذى يجعل صاحب المنصب والسلطة ملتصقا بهما فى عالمنا الثالث وفى مصرنا المنهوبة المذلولة على هذا النحو؟

أى شئ يريده أحمد عز من الدنيا بعد كل ما نال منها وتحصل، هل مائة مليون فوق المليار جنيه تُغري؟ هل البحر السياسى والمادى يحب الزيادة؟ متى يكتفى مما يغترف السياسى، متى يشبع مما شرب الرأسمالي؟

لكننى أجد الإجابة الشافية الوافية على هذه التساؤلات التى تبدو كما هو واضح أسئلة حاقدة من وجهة نظر هؤلاء أو علىَ أفضل تقدير أسئلة ساذجة، أجد إجابتها فى حوار صحفى أدلت به السيدة سوزان مبارك منذ فترة لمجلة مصرية نسائية، اشتكت فيه سوزان مبارك من تركيز الصحف القومية على ذكر

السلبيات فيما تفعله الدولة وما تفعله الحكومة بينما تتجاهل هذه الصحف الإيجابيات ولا تعرضها للشعب...آه والله العظيم تلاتة قالت كده..!

مصر عيانة!

عندما يجلس رجل أمام طبيب فى عيادة نفسية ويقول له هذا الكلام:

يا دكتور أنا متأكد أن الرئيس جورج بوش خطط كى يتخلص منى والموساد بتطاردنى والمخابرات المركزية الأمريكية تضع لى أجهزة تنصت فى طبق الشوربة وأن الرقع الحمراء على جسد طفلى ليست مرضا بالحصبة ولكنها آثار إشعاعات نووية تجربها فرنسا عن عائلتى وأن إنجلترا سلطت امرأة شقراء من أجل أن تقنع ابنتى بالردة على الإسلام.

ساعتها ومن أول ثانية سوف يعرف الطبيب النفسى أن الرجل مريض بفصام الشخصية وأنه يعانى من هزاء «اسمه كده فى الطب» هزاء من جنون العظمة وجنون الاضطهاد الذى يجعله يفكر فى مثل هذه الهزاءات ويرددها ويراها فى صور وشخصيات وضلالات ويقتنع لحد الهوس والعقيدة بأنها حقيقة مؤكدة لا لبس فيها، طيب هذا مجرد رجل عيان تعبان الله يعينه ويشفيه ويصبر أهله، ما بالك بقى أن مصر كلها تقول مثل هذا الكلام وتردد هذه الهزاءات ليل نهار فى التليفزيون والجرائد والمساجد والمدارس والأتوبيسات والميكروباصات، مصر كلها حكومة وشعبا تعيش حالة من الفصام تحكى وتشكو من أن العالم كله ضدنا ويتآمر علينا ويريد تغيير القرآن وتغيير الحزب الوطنى ويلغى مناهج التعليم الإسلامية ويدمر قيمنا وأخلاقنا ويضع لنا الفيروسات ويسمم الهواء ويقطع علينا نهر النيل، والمذهل أنك تسمع هذا الهزاء الهراء من الحكومة ورجالها «إذا كنتم بتعتبرهم رجالة» حين يطق لهم عرق وهم يشيحون ويصرخون ويحلفون بالطلاق تلاتة أن هناك مؤامرات من الغرب والأمريكان لتركيع مصر «أساسا هو حكم سجد منذ زمن للغرب والأمريكان!!» وتدخلات أجنبية من أجل هز استقرار مصر «نحن نعرف

طبعا أن الشيء الوحيد الذى نسمح له بالهز فى بلدنا هو هز الوسط!!» بينما نشهد التيار الإسلامى بفصائله يسم على المصحف والسيف أن هناك مؤامرة صليبية ضد الإسلام وضد مصر وتجزم الأحزاب القومية والفصائل اليسارية أن هناك مؤامرة استعمارية إمبريالية ضد مصر، وكلهم على بعضهم يرددون كأنه شريط بيسف أن مصر مستهدفة، وهو ما يجعل الشعب الذى يرى أنه لا يمكن أن ينهزم أبدا إلا بسبب الرطوبة والأمطار وصعوبة المواصلات ونقص الأوكسجين وتحيز الحكام ومؤامرة الاتحاد الأفريقى وألاعيب الفيفا القذرة، يجعل هذا الشعب المخدوع بتاريخه يعيش الدور أنه ضحية ومضطهد ومستهدف وأن الكون كله لا شغلة عنده إلا العكننة على أم هذا الوطن وتغيير دينه وملته وأرضه وهتك عرضه وهذا كله كما هو واضح مرض فى حاجة فورية للذهاب به لطبيب نفسى شاطر يعطى مصر حقنتين تلاتة على كام قرص فى جرعة مكثفة ستة شهور كى يضبط حالة الفصام بل وربما نحتاج إلى علاج بالصدمات الكهربائية كى نعقل ونفيق وندرك الحقيقة.

إصحوا يا جدعان نحن لا نمثل أى شيء فى ميزان الأمم الآن كى يستهدفنا العالم بأسره، نحن لا ننتج ولا نصنع ولا نصدر ولا نأكل من زرعنا ولا نلبس من قماشنا، نحن لا نكتشف ولا نخترع ولا نقدم للدنيا كل يوم علما وطبا واختراعا، نحن لا نملك قوة مالية ولا سياسية ولا اقتصادية تهز أحدا أو تزعج فرداً، نحن نهتف كل يوم أننا لن نحارب ومن ثم لا أحد يخاف من حربنا فضلا عن أننا حاربنا أربعة حروب أنهزمنا فى ثلاثة منهم فبالراحة على نفسنا قليلا، نحن لا نحتكر أى مادة خام وليس لدينا أى ثروة تجذب الاستعمار ويحكمنا ناس حليفة صديقة لأمريكا والغرب فهل تظن أن أمريكا اتهبلت وقررت تتآمر على حليفها وصديقها من أجل الطمع فى أربعة مليار دولار نصدرهم كل سنة بينما نستورد بواحد وعشرين مليار دولار، بالذمة بلد مثلنا هذا حالها هل ممكن حد يستهدفه خوفا من قوته أو من نفوذه أو طمعا فى فلوسه، يا أخى لقد وصلنا إلى درجة من الخراب الصحى فى أجسادنا كمصريين من سرطان وسكر وكبد وفشل كلوى

وضغط وانحدرنا إلى حال تعليمى فاشل ساحق فما الذى يجعلنا نظن أننا سبع البرمبة وأجدع وأحسن ناس فى الدنيا وكل شعوب العالم بتتمنى رضانا نرضى وكل حكومات العالم بتتآمر علينا، بأمارة إيه!! أنا أفهم العالم يتآمر على الصين، اليابان مثلا، ماليزيا، كوريا، لكن احنا ليه؟

أبطال وعماليق ومخترعون يقول أنا جدع وأشرب المحيط وأبيت الحارة دى كلها فى جحورها هم السكارى والمخمورين الذين ذهب عقلهم تحت تأثير المخدر، فهل نفيق ونستيقظ «اللهم اجعله خيرا»، لنتفهم أننا فى أمس الحاجة إلى أن نعرف ضعفنا وقلة حيلتنا حتى نتمكن من النهوض والتقدم وأرجوك إذا اعتبرت هذا الكلام جلدا للذات راجع نفسك فورا فالحقيقة إننى لا أريد جلد ذاتنا بل أريد ضرب ذاتنا المريضة العليلة بالجزمة حتى ننتبه، يجب أن ندرك أن الإصلاح السياسى الذى يدعونا إليه الغرب الآن ليس مؤامرة لأننا أقوياء عليه يريد أن يضعفنا بل لأننا ضعفاء جدا ويائسون للغاية فنشكل خطرا عليه كما يشكل المحرومون والجوعى خطرا على قصور البكوات والباشوات، نعم الغرب يسعى لمصلحته والذى يتخيل غير كده أهبل وابن أهبل، فالمفروض أن يسعى الجميع نحن وهم وأنتم والناس الحلوة اللى منورانا فى الفرح ده، إلى مصلحتها وليس هناك كائن فى الأرض مفروض أن يسعى ضد مصلحته أو أن تسعى دولة لغير مصلحتها!!

الأمر كله يلخصه أنه لو أن جارا فى أمريكا خرج إلى البلكونة يتمطع الصبح فرأى والدا فى البلكونة الأخرى يضرب طفله ويعدمه العافية ركلا ولكما والولد ينزف منه الدم ويسيل على وجهه، سيتصل هذا الجار فورا بالشرطة لتخليص الطفل من والده المتوحش المؤذى الذى قد يصيبه بعاهة أو يقتله من فرط الضرب والاعتداء البدنى، وسوف تخلص الشرطة الطفل من والده الغريب وربما تعاقبه كذلك على إيذاء ابنه، أما لو حصل عندنا نفس المشهد فإننا سنقول لأى شخص يريد التدخل من أجل إنقاذ الطفل المضروب والمسفوك دمه: يا عم سيبه يربى ابنه، هيه العيال متترباش غير كده «بارتجاج فى المخ!!» بل والمذهل أنه لو

ذهب أحدنا متحمسا منفعلا ليفصل الوالد عن ابنه كى يوقف ضربه فالوالد نفسه سيصرخ سيبوه أبويا يضربنى وبيربينى أنت مال أهلك، يقول هذا الكلام بكل حماس وإخلاص وأبوه نازل على قفاه ضربا وصفعا!! هذا بالضبط هو الفارق الحضارى بيننا وبين الغرب هم يريدون تخليصنا من حكام يضربوننا بالكرباج ويحطمون ضلوعنا ويشوهون وجوهنا ضربا وصفعا واعتداءا وتعذيبا بينما نحن نصرخ ودمنا سايح: سيبوهم حكامنا وبيربونا ، مال أهلكم أنتم!

قضاء مصر.. وقدرها

. ما فعله القضاء يعطى أكثر من دلالة ويلقن النظام أكثر من درس.. فهاهم القضاة يسحبون من النظام المصرى شرعيته القانونية تماماً، هذا النظام - وهواه - الذى طنطن كثيراً باستقلال القضاء وفى عصره وتمادى فى الأساطير والخرافات التى يروجها وزعم أنه لا سلطان للحكومة والدولة على القضاة والقضاء، تصفعه تصريحات وتأكيدات وتحذيرات القضاة أنفسهم الذين أعلنوا - بجرأة وشجاعة ورجولة سياسية منقطعة النظير - أن القضاء ليس مستقلا وأن النظام - وهواه - يتدخل فى السلطة القضائية.

هل كنا نحلم بأن يأتى اليوم الذى نقرأ فيه هذا الكلام جهاراً نهاراً فى مصر ليعرى ويكشف عورات وأباطيل نظام عاش و - سيموت - الأكاذيب.

ثم يأتى القضاة ليعلنوا سحب شرعية قانونية أخرى على الانتخابات التى شهدناها فى عهد هذا النظام كله؟ فهم يؤكدون أن الانتخابات كلها على بعضها مزورة، ويتدخل فيها البوليس والشرطة والأوامر السياسية.. ومن ثم تنهار دعايات النظام الهشة والمحجومة التى قزفنا بها سنوات عن أن الانتخابات تتم تحت الإشراف القضائى الكامل، فإذا بالقضاة هم أنفسهم يعلنون حكما هو عنوان الحقيقة، أن الانتخابات كلها مزورة وأن القضاء بريء منها. ليتضح لنا أن الانتخابات لم تنعقد يوماً تحت إشراف القضاء ولكن تحت إشراف القضاء.. والقدر إن أكبر ضربة موجعة للنظام.. الذى يتداعى سياسياً ويتوحش أمنيا - جاءت من المنطقة التى تصور أنه قد أمنها بالإغراءات والترهيبات والمكافآت والفيللات والمكالمات التليفونية الأمرة الناهية!!

إن الدرس الذى يجب أن يستوعبه الجميع أن القضاة استيقظوا فإن مصر كلها

ستصحو وتصح عن قريب.

بقى أن نشير إلى الدور الذى لعبه وزير العدل الأسبق فاروق سيف النصر فى كل ما أعلنه وكشفه وعراه وفضحه كلام قضاة مصر العوادل هذا الوزير الذى ستتوقف مصر كلها عن دوره الذى لا يقل فداحة ومصيبة عما فعله د. يوسف والى فى وزارة الزراعة ونحن نعلم يقينا أن قضاة مصر أهم من قطنها؛ وعدل مصر أهم من زرعها مما يحتم فتح الملفات المغلقة وملاحقة الذين أفسدوا مصر وعدلها وعقلها ولو إلى القبر.

منذ سنوات خرج قاض واحد فى إيطاليا ليقول إن المافيا تحكم إيطاليا، وأنه آن لقضاة إيطاليا أن يحرروا بلدهم من الفساد والطغيان، وبدأت أشهر محاكمات فى تاريخ إيطاليا أوصلت رئيس إيطاليا يوما إلى السجن قضاة مصر الآن يتحدثون بالإيطالية!

الثمـــــن

كان المشهد مذهلا ومدويا، وقف صديقى فى شرفة الفندق لا يصدق نفسه، تطل غرفته على الميدان الرئيسى للعاصمة الرومانية «بوخارست»، فى هذا الصباح الشتوى الذى وضع نوره فى خلايا ذاكراته للأبد، رأى آلافا من المواطنين فى مظاهرة عارمة هادرة فى صفوف منتظمة وطوابير متراصة يمشون فى إتجاه قصر الرئاسة القريب حيث يسكن ويحكم رومانيا الدكتاتور الأشهر «شاوشيسكو»، وقد وقفت أمامهم جدران بشرية من جنود وعساكر من أجهزة الأمن الرومانية مجهزة بالمدافع والبنادق متأهبة لإطلاق الرصاص إذا صممت الحشود على استكمال الطريق إلى القصر، كانت مخابرات رومانيا وشرطتها مشهورة بسفك الدماء وتعذيب المعارضين وكان «شاوشيسكو» من المستبدين الذين حولوا شعوبهم إلى مجموعات من العبيد وقطعان من الأنعام، فى هذا الصباح الشتوى من عام ١٩٨٩ كان الناس هناك قد اتفلقوا وضجوا من القمع والقهر، وكانوا قد كفروا بالصمت والاستسلام، وخرجت الملايين تنادى بالحرية والديمقراطية، وكانت المظاهرة التى يتابعها صاحبى هى الأولى التى فجرت أنهار الثورة والتغيير، وقفت المظاهرة فى وضع تحدى سافر صامد أمام أجهزة الأمن وواصلت السير فى طريقها أطلق رجال الشرطة تحذيرهم للذى سيقترب خطوة أخرى سوف يضربونه بالرصاص، أنذروا وحذروا، لكن الحشود واصلت المسيرة فأطلقت قوات مكافحة الشغب الرصاص على المتظاهرين، مئات البنادق تضرب آلافا من الرصاصات، سقط الصف الأول من المتظاهرين ميتا نازفا دماءه غارقا فى بحر من الدم، الغريب والمذهل كما يحكى صديقى أن المتظاهرين لم يهربوا، لم ينفضوا، لم يجروا ويبعدوا، العكس هو ما جرى، واصلوا السير نحو قصر الرئاسة فإذا بالأمن

يطلق دفعات جديدة من الرصاص فيسقط العشرات من القتلى فى دمائهم فلا يتراجع المتظاهرون يعبرون جثث زملائهم ويواصلون التقدم فى المظاهرة فيطلق رجال الأمن الرصاص على الصف الثالث فيسقط العشرات موتى وجرحى لكن زملاءهم يواصلون السير يعبرون الجثث ويمضون نحو القصر الرئاسى، بعد دقائق كان الميدان قد تحول إلى أعظم مشهد إنسانى تعبيرا عن طلب الديمقراطية والرغبة فى الحرية، أسقط رجال الأمن بنادقهم وأدركوا أن الشعب قادم وقادر وأن الحشود المتظاهرة مستعدة أن تموت من أجل حريتها، فاستسلمت الشرطة ووصل الشعب إلى قصر الرئاسة وأسقطوا الدكتاتور «شاوشيسكو» من على مقعد الرئاسة وأعادوا رومانيا للرومانيين!

التفت صديقى لى بعد أن أنهى حكايته وسألنى : تفتكر هل عندنا مواطن واحد مستعد أن يموت من أجل الديمقراطية؟ رددت عليه بأننى لا أعرف، لكن من المؤكد أن لدينا من هو مستعد ليقتل من أجل الدكتاتورية!

الفراعنـــــة

دخلنا أربع حروب وانهزمنا فى ثلاث ومع ذلك نصر أننا الأقوى والأعظم والأبسل والأفضل وفى رباط ليوم الدين (كمان).

نؤكد دائما أننا حاربنا من أجل فلسطين وضيعنا أولادنا وثرواتنا من أجل فلسطين والحقيقة أننا بعون الله ضيعنا أنفسنا فعلا وضيعنا فلسطين نفسها ففى حرب ١٩٤٨والتى سميناها النكبة كنا نزعم أننا أقوى جيش عربى فى المنطقة ومع ذلك ضيعنا نصف فلسطين بعد هزيمة أمام جرابيع وعصابات إرهابية صهيونية، وفى حرب ١٩٦٧والتى سميناها نكسة وهى البنت الصغرى للنكبة وكنا نتوهم أننا أقوى جيش عربى وضيعنا نصف فلسطين الباقية وهى قطاع غزة الذى كان تحت أيدينا وضيعنا بالمرة سيناء التى كانت قد ضاعت فى حرب ١٩٥٦والتى سميناها انتصارا، هل هناك ضحك على الذات أكثر من ذلك، هل هناك نفخ فى قدراتنا وقوتنا لأكثر من هذا!

هنا بالضبط تكمن مشكلتنا كشعب ينافق نفسه ويتعايش على الوهم وينسى ثغراته وعيوبه وهزائمه فلا يناقشها ولا يغيرها ولا يتمرد عليها ولا يثور ضدها بل نحن نتحايل على الواقع بأن نؤلف واقعا آخر فى أذهاننا ونهرب بخيالنا بعيدا عن الحقيقة ثم نصدق الجنون على أنه عقل والهبل على أنه لؤم والهزيمة على أنها نصر!

هذا لا يعنى أبدا أننا شعب بلا مميزات أو أننا أمة بلا قوة هو فقط يعنى أننا شعب من المنافقين، فنحن الأمة الوحيدة التى حكمها عبيد ومماليك عشرات السنين ثم لا يشعر بالخجل ولا العار أبدا من يعين ألبانيا أجنبيا ليحكم مصر ثم يقول عنه إنه بانى مصر الحديثة ثم يتجاهل هذا العار كله وكأنه لم يحدث ويستمر الشعب فى نفاق لا يتوقف منذ قرون فنحن ننافق مديرنا وننافق حاكمنا وننافق

أنفسنا وننافق على روحنا ونؤله رئيسنا ونمجد ذواتنا فنسقط فى الضعف والهوان وقلة القيمة وقلة الحيلة ونضرب على قفانا ومؤخراتنا من القريب والغريب فلا نتحرك ولا نرفض ونتعامل مع هذا الواقع على طريقة الذى طفحت المجارى أمام بيته وامتلأت بالقرف والبرك فبدلا من أن يطلب من المسؤولين القيام بدورهم وتنظيف المنطقة من المخلفات والفضلات وبدلا من أن يثور على القذارة وبدلا من أن يجمع سكان الحى كله للمظاهرة ضد التسيب والإهمال فإنه يلجأ إلى التعايش مع القبح والدمامة والقمامة، يضع قوالب طوب على مياه المجارى كى يعبر فوقها من بيته لقلب الشارع وخلاص تمضى الحياة المعفنة طبيعية حيث يتعود عليها ولا يتذمر ضدها، هذا هو ما يحدث كل يوم فى مصر من مجارى السياسة والاقتصاد وتزوير الانتخابات والبطالة والطوارئ والفساد وفشل التعليم وانهيار الصحة، يمشى المواطن المصرى على قوالب الطوب فوقها ليعبر إلى طريقه بلا تذمر ولا تمرد ولا رفض ولا معارضة بل رضا بالمقسوم وانحناء بالظهر لأى سيد أو مسؤول ليركب!

نقول على أنفسنا إننا شعب مسالم بينما كل يوم ابن يقتل والده وزوج يقتل أطفاله وزوجة تسلق زوجها بالاتفاق مع عشيقها، من يتأمل معارك الشوارع اليومية فى المرور ويرى صراعات وخناقات سائقى السيارات بما فيها سيارات بمليون جنيه يدرك أننا لا مسالمين ولا نيلة بل نجرح ونضرب ونسب ونلعن، بل نحن الشعب الوحيد فى العالم تقريبا الذى يفسر عبارة فلان رجل طيب بمعنى أن فلانا رجل أهبل!! فمن أين جاءت إشاعة أننا شعب مسالم، جائز تكون حقيقة فى حياة وتاريخ سابق لكن الآن نحن لا مسالمين ولا هباب، حتى شحاتين إشارات المرور أو بائعى الحاجات الساقعة على الكورنيش وموظفى شبابيك تذاكر السينما كلهم يتميزون بخشونة فظة وغريبة، ولن أتحدث عن ضباط التعذيب وما يحدث فى السجون والمعتقلات بل وأقسام البوليس من معاملة حقيرة للمواطن بكل عنف وقلة أدب فهل هناك ضابط من شعب طبيعى عندما ينتزع اعترافا من متهم يقوم ينفخه من فتحة شرجه، وتقول لى مسالم!! ثم كيف نكون شعبا مسالما

ونحن نعيش بقانون طوارئ من أربع وعشرين سنة متتالية بل ومن ثلاثة وخمسين عاما (باستثناء شهور!!) نحن لسنا شعبا مسالما بل شعب خانع خاضع للرئيس، شعب محمته أن يتذلل لرئيسه ويعبد حاكمه ويفرعن فى فرعون حتى لا يجد فرعون المتفرعن من يرده عن فرعنته!! بل تمادى الشعب المصرى بمسالمته (التى هى خنوع) ففرعن فرعونا فرعنة لم يتفرعنها فرعون من قبل ولا بعد!

لكن هذا كله لا يعنى أبدا أننا شعب خامل أو محزوم بطبيعته بل يعنى أننا لابد أن نقوى ونتقوى ونعالج أخطاءنا ونتجاوز أمراضنا كى نكبر ونعلو ونأخذ دورنا فى طابور الحضارة، لقد قدمت مصر تاريخا عظيما من الانتصارات والانكسارات، وكنا دولة رائدة ودولة كبرى فى المنطقة وها نحن صغرنا وتضاءلنا وتراجعنا بفعل وفضل استبداد رؤسائنا من ١٩٥٢ وحتى الآن وتغير شعبنا من حيث جيناته الوراثية وكبده وكليته وعقله ووعيه متأثرا بالاستبداد والديكتاتورية والفساد المستمرين حتى اليوم، وخرج من المواطن المصرى بفعل وبفضل الرؤساء المتألهين والحكام المقدسين أسوأ ما فيه من طباع ذل وخوف ونفاق وقد آن الآوان لجيل جديد أن يتمرد على ما وجد عليه آباءه حيث يعبدون فرعونهم من دون الله ومن تملق ونفاق وكذب على النفس الى حياة حقيقية نعرف فيها مشاكلنا كى نحلها وليس كى نضحك على أنفسنا بأن العدو الإسرائيلى هزمنا فى ستة أيام بينما نحن هزمناه فى ست ساعات، يا كذابين يا ضلالية، حتى نصر أكتوبر الرائع عايزين تقلبوه نفاقا فى الذات ونفخا كذوبا فى الحقيقة على طريقة أن الحرب التى استمرت ١٦يوما وأعادت جزءا من أرضنا المحتلة استمرت ست ساعات فقط خلصنا فيها على إسرائيل بل وحاربت معنا الملائكة!!

وهو بالضبط ما تجد صداه فى الكلام الفارغ الذى يشيعه دكتور زغلول النجار عن الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم لمجرد أن يخدع النفس المسلمة بقوة زائفة تواجه قوة العدو الحقيقية، وقوة الغرب المهيمنة، والحقيقة أن المسلمين الأوائل لم يخترعوا الأسلحة الحربية عن طريق آيات قرآنية تقدم معادلات رياضية، ولم يتوصلوا للتقدم فى العلم والطب عن طريق سور وآيات فى الكيمياء، بل نفذوا ما

حرضهم عليه القرآن الكريم وأمرهم به وهو تشغيل العقل والعمل وليس الجلوس أمام كاميرات التليفزيون والاستهبال الفكرى بادعاء أن كل تقدم علمى أحرزه الغرب موجود عندنا فى القرآن، طيب لو موجود يا فالح لماذا لم تكتشفه أنت بسلامة عقلك، إذا القرآن الكريم يحتوى إعجازا علميا فممكن تطلع لنا من آياته كيفية صناعة قنبلة نووية أو وسيلة طبية لمعالجة فيروس سى!!

هذه كلها صور من الضحك على النفس ونفاق الذات وتنيم الناس حتى يستمروا فى تخلفهم وضعفهم يمشون على قوالب طوب وسط المجارى!! إف!!

يستاهلوا

أول ما اسمع كلمة مبايعة أو أقرأها فى يافتة فى شارع أو جورنال أو تصريح مسؤول حكومى أشعر أننا أمام وطن أهبل، يبيع نفسه وشرفه وضميره مبايعة لحاكمه ورئيسه كمن يوقع على عقد مبايعة طرف أول للطرف الثانى (الرئيس) أن يأخذ الوطن بما فيه تحت أمره وتحت إبطه!!

وعندما تكتشف أننا آخر عبيد وأرقاء وجوارى على الأرض يملكنا حكامنا ويملكوا أن يفعلوا فينا ما يشاءون، وأننا فى مصر مثلا الشعب الوحيد على الكرة الأرضية الذى يهتف لرئيسه بالروح والدم نفديك، بينما فى كل الدنيا الرئيس هو الذى يفدى الشعب لكن تعمل إيه بقى فى شعب متربى على العبودية ومتعلم على قفاه من الطغيان، أكاد أرى وزراء ونوابا ورؤساء تحرير الصحف الحكومية كأنهم يخرجون كل يوم الصبح من معبد كهنة فرعون ليسجدوا له من دون الله باعتباره ربهم الأعلى، ومهمتهم بعد السجود للحاكم هو الركوب على الناس بالنفاق والانتهازية والنهب والتهليب! ولايمكن أن نبرأ شعبنا مما وصلنا إليه من مأساة ومسخرة.

فهذا الشخص التعبان العيان بفيروس سى الذى يشتريه الحزب الوطنى بعشرين جنيها كى يهتف بروح أمه ودمه للمبايعة يستحق فعلا ألا يجد قوت يومه ويصرف على عياله من بيع نفسه أو بيع عياله طالما ارتضى أن يؤجر ضميره ووعيه، إنهم يقفون فى المظاهرات متحمسين جدا وملهوفين وعرقانين يهتفون للرئيس ويشتمون فى المتظاهرين ضد التجديد والتوريث وهم لا يجدون ثمن كيلو اللحمة فى الشهر ولا يملكون ثمن جزمة لعيل من عيالهم فى المدرسة ومع ذلك فإنهم يتصلبون بمنتهى القوة والبلطجة ضد من يريد تغيير حياتهم إلى الأفضل، أليس هؤلاء الموظفون الأغبياء الذين يندفعون وراء ضابط المباحث يلبون نداءه

أو يلتفون حول الصراف الذى سيصرف لكل واحد فيهم العشرين جنيها آخر المظاهرة؟! ألا يستحق هؤلاء أن يقبضوا آخر الشهر مرتبا لا يكفى لشراء بامبرز رخيص لطفلته الرضيعة؟! والستات التخينة التى تمسك بالحلل وتؤجر المرأة منهن صوتها للمخبر أو الأفندى بتاع الحزب تستحق فعلا ألا تقدر على سداد أجر الدرس الخصوصى لبنتها فى سنة أولى إعدادى، الموضوع ليس جهل هؤلاء بمصلحتهم بل الأصل أن هؤلاء البسطاء والمهمشين يحملون نفسية خدم السلطان ويمتلئون حتى خياشيمهم بروح العبيد وهو الذى يجعل من تنظيف مخهم مسألة عسيرة حيث يقفون طول الوقت ضد مصلحتهم ويدافعون طول الوقت عن الذين يستعبدونهم ويذلونهم ويفقرونهم، تماما مثل عساكر الأمن المركزى الذى لا يكاد يعرفون شكل اللحمة ويعانون هم وأهلهم من فقر مدقع ومع ذلك فالبيه الضابط بالنسبة لهم النبى المفدى وسيدهم وإلاههم ومستعد أى عسكرى منهم أن يضرب مواطنة حامل فى التاسع تقف بين المتظاهرات لو أمره البيه الضابط، البيه الضابط نفسه الذى لا يستطيع أن يتزوج إلا لو دفع له أبوه ثمن الشبكة والشقة هو نفسه الذى يرى أن المتظاهرين شوية كلاب وعملاء بتوع سياسة ولازم يتربوا ويضربوا، مازلت أذكر عددا من زملائنا فى مؤسسة صحفية رسمية وقد احتشدوا فى قاعة نقابة الصحفيين للاعتداء والتحرش وضرب أى زميل يطالب برحيل رئيسهم الذى يجلس على مقعده من خمس وعشرين سنة ويتعامل معهم كما يتعامل الباشا مع العبيد وحول نفسه إلى حاكم بأمر الله ويعصف بهم ويحاسبهم حتى على أحلامهم، هؤلاء أنفسهم يدافعون عن المكافأة التى يقدمها لهم مثل الفتات على مائدة بدلاته ومكافآته وعمولاته، فإذا بهؤلاء هم الذين يخوضون حربا دفاعا عمن يسرقهم ويذلهم ضد من يحاول أن يرفع عنهم الخراء، ماذا تقول فى هذه الفئة وذلك القطاع (القطيع) الذى يرفع شعار اللى تعرفه أحسن من اللى متعرفوش (الحرامى اللى تعرفه أحسن من اللى متعرفوش) أو وهوه مين ح يجى غيره وياعم دول ناس واصلة وقادرة وبالروح والزفت نفديك يا فلان!!

نحن مسؤولون عن ضياع بلدنا تحت قهر حكامها وليس فى هذا أى تعسف

ولا جلد ذات ولا صدمة لمشاعر أحد بل هو كلام يستند إلى العلم الصريح الفصيح، يكفى أن أقتبس من دراسة عن سيكولوجية الاستبداد للدكتور محمد المهدى أستاذ الطب النفسى بالأزهر الذى يقول: (أما المستبد بهم (المقهورين) فيمكن أن يكونوا أناساً ذوى سمات متباينة ولكن يغلب أن يكون لديهم سمات ماسوشيه -التلذذ بتعذيب النفس - بمعنى أن لديهم ميلا لأن يتحكم فيهم أحد وأن يخضعوا له ويسلموا له إرادتهم ويستشعروا الراحة وربما المتعة فى إيذائه لهم و إذلاله إياهم، فلديهم مشاعر دفينة بالذنب لا يخففها إلا قهر المستبد وإذلاله لهم على الرغم مما يعلنون من رفضهم لاستبداده، وهؤلاء المستعبدين ربما يكون لديهم معتقدات دينية أو ثقافية تدعوهم إلى كبت دوافع العنف وتقرن بين العنف والظلم وتعلى من قيمة المظلوم وتدعو إلى التسامح مع الظالم والصبر عليه وترى فى ذلك تطهيراً لنفس المظلوم من آثامه.

والشخصيات المستعبدة لديها شعور بالخوف وشعور بالوحدة لذلك يلجأون إلى صنع مستبد ليحتموا به ويسيروا خلفه ويعتبرونه أباً لهم يسلمون له قيادتهم وإرادتهم ويتخلصون من أية مسؤولية تناط بهم فالمستبد قادر على فعل كل شيء فى نظرهم، وفى مقابل ذلك يتحملون تحكمه وقهره وإذلاله ويستمتعون بذلك أحياناً.

إذن فالمستبد ليس وحده المسؤول عن نشأة منظومة الإستبداد ولكن المستعبدين (المستبد بهم) أيضاً يشاركون بوعى وبغير وعى فى هذا على الرغم من رفضهم الظاهرى للاستبداد وصراخهم منه أحياناً. ولا تزول ظاهرة الاستبداد عملياً فى الواقع إلا حين تزول نفسياً من نفوس المستعبدين حين يتحرروا نفسياً ويرغبون فى استرداد وعيهم وكرامتهم وإرادتهم التى سلموها طوعاً أو كرهاً للمستبد، حينئذ فقط تضعف منظومة الاستبداد حتى تنطفئ، وليس هناك طريق غير هذا إذ لا يعقل أن يتخلى المستبد طواعية عن مكاسبه من الاستبداد وبخاصة وأن نمط شخصيته يدفعه دفعاً قوياً للمحافظة على تلك المكاسب الهائلة. وإذا رأينا المستعبدين (المستبد بهم) ينتظرون منحهم الحرية من المستبد فهذه علامة

سذاجة، فقد أثبتت خبرات التاريخ أن الحرية لا تمنح وإنما تسترد وتكتسب.)
انتهى كلام دكتور محمد المهدى الذى يشير كعالم إلى أن المستبد لن يتخلى طواعية عن مكاسبه من الاستبداد ومن ثم نرى ما يحيط بنا فى الوطن العربى كله يسكعنا بهذه الحقيقة فى وجهنا فعندك مثلا الرئيس السودانى الذى قرر إلغاء تحديد مدة الرئاسة التى كانت مدتين فقط (عشر سنوات!!) لتصبح بعد استفتاء من إياهم مفتوحة للأبد (ربما حتى يكبر نجل الرئيس!!) وكان الرئيس التونسى «زين العابدين بن علي» الذى وضع فى دستور بلاده نصا بتحديد مدة الرئاسة بثلاث فترات فقط ومنع أى مرشح فوق السبعين من عمره من تولى الرئاسة عاد و قرر إجراء استفتاء (من اللى وصى عليه قراقوش!) يفتح توليه منصب الرئيس للأبد (لغاية ابنه ما يكبر يمكن!!) وينكص على عقبيه من أى التزامات سابقة، وكان الرئيس الراحل أنور السادات هو أول من بدع فتح مدد الرئاسة فى استفتاءات نبوية (نسبة الى السيد النبوى إسماعيل!) ولم يكتب له القدر التمتع بدكتاتورية مقننة ومستفتى عليها فالواقع أن فتح مدة تولى الرئاسة ضد كل الأعراف والمواثيق والدساتير الديمقراطية بل هى فى الحقيقة استفتاء على جعل رئيسك أبديا ومن ثم دكتاتورا محتكرا لمقعده ومنصبه ثم يحتقر (بعد ناصيتين ثلاثة من مشواره فى الحكم!) جمهوره ومواطنيه وشعبه، ويصبح رئيسا إلاهيا وليس حاكما بشريا! وها نحن نرى إصرار الرئيس على عدم تعديل المادة ٧٧ فى الدستور التى تسمح بأبدية الحكم مدى الحياة وحياة الأنجال كذلك!

وهناك نموذج الرئيس السورى الراحل «حافظ الأسد» الذى جلس على العرش ثلاثين عاما حتى مات (هو وليس العرش) وترك الرئاسة لولده (كأن سوريا شركة أقمشة أو محل خردوات!!) مع تغيير الدستور فى ربع ساعة أى فى خمس عشرة دقيقة بل ربما نافس الأمر هدهد سليمان الذى جاءه بعرش بلقيس قبل أن يرتد رمشه!

أما الرئيس الليبى معمر القذافى فقد عمر فى الحكم حتى أوشكت ليبيا أن تعود مملكة وهو ما يجعل أسرة الملك المخلوع السنوسى أولى بعودتها إلى عرش ليبيا

فهى الأسرة المالكة وهى أحق وأحكم من الأسرة الحاكمة!!

ثم خذ عندك احتفالات الرئيس العراقى الراحل الذى لو كانت هناك مدة محددة لحكمه وانتخابات نزيهة للرئاسة واحترام للدستور لمضى غير مأسوف عليه بدون غزو ولا حرب ولا عدوان، كان صدام حسين يحتفل بعيد ميلاده (وهو غير عيد توليه العرش الذى هو عيد ميلاد الوطن طبعا!!) وذلك فى عز أزمة وحصار وخناق الشعب العراقى تنتصب التماثيل وتفرد الصور وتعلق الأهازيج وتنزل إعلانات التهانى والمبايعة وتكتب افتتاحيات الصحف عن عيد ميلاد القائد وإنجازاته ومعجزاته فى الحرب والسلام! (ألا تلاحظ معى أن كل حكامنا العرب أبطال فى الحرب والسلام؟!) وكان يمهد لولديه حكم العراق حتى جاء حكم القدر!

ولم أتحدث عن اليمن من باب هيه جت عليهم وهاهو الوطن العربى يستبدل الأسرات المالكة بأسر أيضا ولكنها الأسرات الحاكمة حيث يحكم الآباء والزوجات والأبناء وقريبا الأحفاد (وربنا يقصف عمرى قبل أن أرى الأحفاد!!) يحكمون البلاد فى ظل استفتاءات مزورة وانتخابات وهمية ومجالس نيابية منافقة وكاذبة وأحزاب عميلة ومباحثية وقوانين خادعة وصحافة قوادة وعاهرة وشيخوخة حاكمة فاسدة!

نعم لن يستغنى المستبدون عن مقاعدهم أبدا إلا للمستبدين الصغار من عيالهم فالحاكم يصاب بفعل نفاق من حوله وخوف من تحته بحالة من جنون العظمة بحيث لا يتصور أنه يخطئ أبدا ويرى فى نفسه من أثر نفاق الصحافة ونفخ الإعلام وتذلل الساسة وتعبد المسؤولين، أنه إله ونبى ملهم ويوحى إليه و الحاكم يخشى إذا ما رحل عن مقعده أن يحاسبه من يخلفه أو يحاسبه شعبه على فساده هو وأسرته وأولاده (وربما جيرانه!!) ويخرج من القصر إلى السجن..ومن كرسى الحكم إلى حبل المشنقة! ثم إن الحكام السابقين له فعلوا ذلك وبقوا فى الحكم حتى ماتوا وهو ليس أقل منهم بل هو كما يقرأ فى افتتاحيات صحف بلاده كل صباح وتلك التى تهنئه بعيد ميلاده! أعظم وأحكم!! وشمس لا تغيب ونور لا ينطفئ وخالد لا يموت... توت توت!

كرهتونا فى القضية!

اضطجع عمرو موسى وقال لا فض فوه فى مواجهة لورا بوش فى المنتدى الاقتصادى بالأردن هذا الأسبوع إنه لن يوجد فى الوطن العربى ربيع ولا خريف ديمقراطية لو لم تحل القضية الفلسطينية، فصفق الحاضرون العرب ومن المؤكد أن عمرو موسى فرح خالص بنفسه واطمأن على استقرار مكانته فى قلب شعبان عبدالرحيم لكن المؤسف أن هذا الرجل نفسه كان وزير خارجية مصر سنينا ثم لا يزال أمينا عاما لجامعة الدول العربية بينما لم نره يحل هو بقوته وقدرته البلاغية القضية الفسلطينية، بل هو يطالب الأمريكان أيضا بأن يحلوا القضية الفلسطنية، كويس والله، وحضرتك بتعمل إيه؟ بقى أنت والزعامات التى تمثلها والدول التى تترأس جامعتها، ما توورنا شطارتكم، يعنى القصة كلها خلصت بأنك تطالب أمريكا بحل مشكلة فلسطين، طيب ما أنا وعم صاوى بواب العمارة عندى ممكن نطالب أمريكا بكده، إيه بقى الذى أضافه تدخل سعادتك، الحقيقة يا سيادة الأمين أن ربيع الديمقراطية فى الوطن العربى موجود فعلا وظهر حقا وكونك موظفاً رسمياً وتتقاضى مرتبك من دول ديكتاتورية وزعماء مستبدين طبيعى ألا ترى هذا الربيع الذى يصنعه مناضلو العرب وليس بتعليمات الأمريكان فتعليمات الأمريكان تمشى على حكام جامعتك لا علينا، ثم نحن لم نسمع منك كلمة ولم نر لك موقفا تواجه فيه حاكما من الذين تعمل معهم مطالبا بحل قضية الاستبداد والفساد فى وطنه ولم نجدك يوما معبرا عن آمال الناس فى ديمقراطية حقيقية وانتخابات نزيهة ووطن غير منافق وحكم غير أبدى، لم نعهدك يوما أو حتى ساعة منتصرا لسجين رأى فى السعودية ولا مدافعا عن حقوق إنسان للمعتقلين من الإخوان فى مصر ولا شفنا عليك ملامح غضب لسراديب سجون ممتلئة بالمعتقلين فى سوريا، وجامعة الدول

العربية أساسا شيطان أخرس وشاهد متواطئ على كل ما يحدث من استبداد وقمع وكأن المواطن العربى ليس من مهمة جامعة الدول العربية ونحن نعرف أنها كيان شكلى وهى صنعه الاستعمار و أنها هيئة دبلوماسية منتمية للحكومات وليس للشعوب ومع ذلك كنا نظن أنك سوف تكتفى بالعرض المسرحى المعتاد فى الدفاع عن سياسة حكام جامعتك بعيدا عن تعليق حدوث ديمقراطية فى الوطن العربى بحل القضية الفلسطينية، يا أخى كرهتوا أهلنا فى القضية الفلسطينية فأنتم لم تحلوها بل ضيعتموها ودمرتموها وبعدين نيجى نقول إصلاح وديمقراطية تقول حل قضية فلسطين، هوه فيه حد قال لحضرتك إننا اللى محتلين فلسطين، أنا هنا جنبك فى الجيزة!!

مع مصطفى النحاس!

هل كان أحد من الحكومة ستهتز شعرة فى رأسه أو يتحرك سنتيمتر واحد من ضميره ضد انتهاك حرمات المواطنات والضرب والاعتداء على المتظاهرين فى شوارع القاهرة لو لم يكن سيدهم وسر بقائهم على مقاعدهم جورج بوش قد أعلن غضبا على ما فعله الحزب الوطنى وقواده (جمع قائد) وضباطه ووزير داخليته الهمام فى مصر تلك، التى يموت فى سجونها المتهمون وتغتصب أمام ضباطها النساء، أمام العالم كله وفى مؤتمر صحفى مخصص للقضية الفلسطينية، غضب جورج بوش من صديقه الرئيس المصرى على ماجرى للمتظاهرين وللديمقراطية وحرية الرأى فى يوم اسم الله عليه الاستفتاء التاريخى والجغرافى بتاع أنس الفقى وسمير رجب، واحتج البيت الأبيض ووزارة الخارجية الأمريكية على انتهاك الحزب الوطنى وحكامه لحقوق الإنسان (بالمناسبة لماذا لم تسمعنا أمانة السياسات الصلاة على النبى فى هذا الموقف وهؤلاء ثقال الظل الذين صدعونا بالكلام عن حقوق المواطنة، أم أنها حقوق الموافقة؟!!) لقد رفض المجتمع الدولى -حتى التوبيخ والتعنيف- ما أقدمت عليه أجهزة أمن الغباء السياسى فى مصر وصارت الفضيحة معرضة للتصاعد مع مطالبات من منظمات عالمية بمحاكمة وزير الداخلية والتحقيق مع مسؤولى الحزب الوطنى المتورطين فى هذا الانتهاك!

فؤجئنا بأن الحكومة ترد وتتلعثم فى النفى واللف والدوران والملاوعة والتلاعب كالعادة ومحاولة التكتيم والتقفيل وتلبيس المعارضين تهمة ضرب أنفسهم، وتأمر جهات التحقيق بالتثبت من الواقعة واستدعاء الشهود، إذن لم تتحرك الدولة وتعير مواطنيها المضروبين والمنتهكين أى اهتمام باعتبار أنهم كلاب يرفضون سيدهم وتاج راسهم وزعيمهم وصاحب الطلعة الجوية، إلا حينما نطق جورج بوش

وأدان أمر وتأمر..

هل معنى ذلك أن نخرج نحن ونطالب بوش بعدم التدخل حتى يترك للسادة الحكام حرية ضربنا بالجزمة ضربا وطنيا سياديا بدون تدخل أجنبى!!؟

هل معنى ذلك أن ندين تدخل بوش وأمريكا وأوروبا ونقولهم ابعدوا أنتم حكامنا وبيغتصبونا، مال أهل اللى خلفوكم؟!

الحقيقة أن رفض تدخل المجتمع الدولى فى مهزلة انتهاك الحرية والديمقراطية فى مصر ووقائع الاستبداد والديكتاتورية وأبدية الحكم وتوريث الرئاسة، ورفض التدخل الإنسانى والسياسى والدولى هو مراهقة سياسية كاملة ورعب أرعن من فكرة الاتهام بالموالاة أو العمالة للغرب، فالمؤكد أن قوى المعارضة فى مصر تطالب بالديمقراطية الحقيقية من قبل أن ترفع أمريكا يدها أو تزعم ذلك عن المتبدين العرب والذى لاشك فيه ولا لبس حوله أننا نعارض هذا الحكم الفاسد من قبل جورج بوش والمحافظين الجدد ما نسمع عنهم أساسا، والحاصل أن معظم معارضى الحكم فى مصر من اليسار والاخوان المسلمين وهؤلاء لم يكونوا فى يوم من الأيام من طائفة الموالين لأمريكا على الإطلاق!!بل إن اتهامات العمالة لأمريكا لاحقت حتى ثورة يولية وترددت هذه التهم فى كل كتب التاريخ الحديث طعنا فى ثورة يولية ورجالها، ثم التصقت التهمة بنظام الرئيس أنور السادات رحمه الله وثم باتت واضحة كالشمس منذ السفر السنوى للبيت الأبيض فى رحلات الإيلاف فى الشتاء والصيف لطرق وخبط الأبواب!!

إذن نحن لا نستجيب لأمريكا حين نطالب بحرية وديمقراطية بلدنا والتنازل عن الحكم الأبدى والوراثى، بينما حكامنا هم الذين يستجيبون لأمريكا ليل نهار، بل لم ينطق واحد منهم كلمة الإصلاح السياسى ولم تلمس طرف شفتيه قبل أن يقولها جورج بوش!! وكانت الاسطوانة الصفيقة بتاعة أزهى عصور الديمقراطية ولم يقصف قلم ولم تصادر صحيفة والإشراف الكامل (بالذمة كامل يا فسدة!!) هى السائدة فى الخطاب الرئاسى والوزارى والصحفى والحكومى!! ثم تراجعوا وبدأوا يتحدثون عن الإصلاح التدريجى والنضج التدريجى والألاعيب المعروفة التى

يرددونها أمام الأمريكان تنازلا وتراجعا أمام الضغط الأمريكى!!

ثم لو جاءت الولايات المتحدة غدا وأعلنت رضاها عن مبارك وحبها المتفانى له ولنظامه وتحالفت مع الحكم المستبد ورضيت به ودعمته ساعتها لن يتخلى المعارضون عن معارضتهم للنظام ولن يتحول المعارضون لزفة تأييد ومبايعة، إذن الموقف الأمريكى ليس هو الدافع كى نعارض حكم الاستبداد بدليل أننا نعارضه قبل أن يزعم الأمريكان غضبهم عليه، والموقف الأمريكى ليس شرطا كى نستمر فى معارضة حكم التأبيد والتوريث بدليل أن الأمريكان لو عادوا وتحالفوا مع استبداد الحكم فى مصر فلن تصمت معارضتنا ولن نمشى فى موكب النفاق والمبايعة!

إذن يصبح توافق الغرب مع المطالب الوطنية المصرية أمرا لا يضير ولا يهين ولا يلوث المعارضة والمعارضين على الإطلاق، وهو يشبه فى المنهج والنظرة العامة موقف ٤فبراير ١٩٤٢وهنا سأعود الى سطور كتبتها عام ١٩٩٧فى الإصدار الأول لجريدة الدستور (ولم يكن جورج بوش الابن موجودا على الساحة أساسا وكانت أمريكا واخدة النظام المصرى فى حضنها أخذ العشيق، لاداعى للعشيق، أخذ الرضيع) كتبت وقلت:

لم يكن مصطفى النحاس يدرى وهو يضع سماعة التليفون يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ وينهى مكالمة مع السفير البريطانى فى القاهرة، أنه يضع علامة استفهام سوف تصادفنا وتلاحقنا أينما كنا فى أى زمن أو تاريخ. لقد حاصرت القوات الإنجليزية قصر عابدين وأطبقت على صدر الملك فاروق وخيرته بين أن يوافق على تكليف حزب الوفد بزعامة مصطفى النحاس بتشكيل الوزارة وإدارة البلاد أو أن يتنازل الملك عن العرش وانقبضت قلوب كثير من المصريين الذين اعتبروا حصار الملك بالدبابات الإنجليزية اعتداء على كرامة وسيادة مصر ثم رفع كثيرون كذلك سيوفهم وسهامهم ضد مصطفى النحاس الذى قبل أن يأتى على مقعد الوزارة بهذه الطريقة الاستعمارية الغاشمة التى داست بالأحذية العسكرية الثقيلة على كرامة وسيادة هذا البلد وتدور عجلة التاريخ ويستمر الجدل دائما بين الذين دافعوا عن مصطفى النحاس وقبوله الوزارة والذين اتهموه وطعنوا فى وطنيته أثير

ويثار حوله وسأفكر ماذا لو حدث اليوم؟ ماذا سيكون موقفنا؟ بمعنى أوسع (لأن المعنى الأضيق خطر) ماذا لو تدخلت قوى أجنبية أو دولية للضغط على زعيم عربى من أجل فرض الديمقراطية فى وطنه واحترام رأى الأغلبية يعنى يفرض قوى الديمقراطية فى وطنه واحترام رأى الأغلبية يعنى تفرض قوى دولية عقوبات دولية على سين من الزعماء لأنه يزور الانتخابات أو تقطع عنة المعونة لأنه ينتهك حقوق الإنسان أو أن تحاصر البوارج والقطع الحربية سواحل دولة ما من أجل أن تفرج عن المعتقلين ظلما وبهتانا الذين ألقاهم ديكتاتور فى السجون؟ سوف نواجه نفس أسئلة ١٩٤٢ وسيعتبر البعض أن مصطفى النحاس قدوة حسنة حيث قبل أن تساعده دولة أجنبية فى مواجهة ملك فاسد غاشم تجرأ على أمته وأسقط حزب الأغلبية الكاسحة وسيقبل أن يتولى الوزارة لأن الديمقراطية والحرية واحترام وإرادة الشعوب أهم من بعثرة كرامة ملك أو حاكم ديكتاتور يستخف بأمته وشعبه وأن الحصول على حق الأمة بمساعدة الشيطان أمر أعظم كثيرا من التمسك بسيادة الديكتاتور على أرضه وسيرفض الكثيرون أى تدخل أجنبى لصالح فرض الديمقراطية فى وطن،........ طيب ماذا لو تطابقت رغبة القوى الدولية مع رغبة القوى الوطنية فى الإطاحة بديكتاتور أو فرض الديمقراطية على حاكم معين هل تتحالف القوى الوطنية مع الدولية من أجل ذلك دون النظر لأوهام السيادة الوطنية؟. مصطفى النحاس قال آه.. حضرتك تقول إيه؟، انتهت الفقرة والفكرة التى كتبتها منذ ثمانى سنوات وأزيد، ودعونا الآن وقد استحضرنا الموقف فى ٤فبراير ١٩٤٢نسمع ماذا قال الزعيم النحاس (أين نحاس هذا الزمان يارب؟)

يروى النحاس باشا فى شهادته التى نشرها الصحفى صبرى أبوالمجد فى موسوعته مصر سنوات ما قبل الثورة، كيف ألح عليه الزعماء، مجتمعين فى سراى عابدين، ليقبل وزارة ائتلافية كنوع من التضحية، وكيف رفض تأليف تلك الوزارة؟

ويرد النحاس على قول بعض الزعماء: "إن الإنجليز يريدون وزارة فيها النحاس، إننى أرفض ذلك".

فقلت لجلالته: "يجب أن أصارحكم بحاجة وهى أن الاحتجاج (ضد الإنجليز) كويس ولكن يمكن يؤذى البلد، والعرش، ويمكن أن يكون نكبة على العرش، وعلى شخص جلالتكم".

فقال: " أنا كل شيء".

فقلت لجلالته: "أنت فى مقتبل العمر، ونحن إلى الفناء وبقاؤكم، على رأس الدولة يفيد البلد كثيرا".

فقال جلالته: "أنا مآيس ولا أسأل عن نفسى" وأخذ الاحتجاج، وقال لحسين باشا: "بلغ الاحتجاج" وقال لنا: "ابقوا هنا إلى أن يصل الرد" فبقينا فى حرج.

وقالوا: "اقبل أن تكون معنا واختار من تختار" فقلت: "لا أقبل ذلك لأن النتيجة أن هذا قبول لرأى الإنجليز، وتنفيذ لأمرهم".

فقالوا: "مادام معنا كلنا لا يعتبر تنفيذا لأمرهم".

فقلت: "اشمعنى لا يكون النحاس مع غيره لا يكون بأمر الإنجليز ولما يكون وحده يكون تنفيذا لأمر الإنجليز".

وأردت الانصراف فقالوا: "إن جلالة الملك أمرنا بالانتظار فانتظرت".

وجاء الرد خطيرا، وهو أن يبلغ جلالة الملك أن السفير البريطانى سيحضر حوالى التاسعة والنصف إذا لم يعدل رأيه.

وبلغنا حسنين باشا هذا الرد.

وبعد ذلك طلبت مرة ثانية للسراى فى نفس المساء، حوالى الساعة التاسعة والنصف كنت مستعدا، ورحنا ولم أجد الدبابات ولا حاجة فى ساحة السراى والحالة طبيعية.

ولما دخلت وجدتهم مجتمعين وعليهم وجوم فقلت: "ماذا جرى"؟

قالوا: "جاءت الدبابات ثم انصرفت والحالة خطيرة".

فقلت: "هذا نتيجة عملكم لأن هذا كان اندفاعا بدون حكمة".

وشرف الملك، وقال: "اعتبروا أنه لم يحصل شيء فى هذا اليوم وأن كل ما حصل كأنه لم يكن أو هو لم يكن وأنا، أعهد إليك يا نحاس بتأليف الوزارة، ووطنيتك تقتضى أن تستعمل الحكمة فيها".

فقلت لجلالته: "اسمحوا لى أن أقول إنى لا أستطيع تأليفها بحال من الأحوال".

فقال: "أمرتك أنا الملك، وآمرك، أن تقبلها".

قلت: "لا أستطيع يا جلالة الملك".

قال: "أنت تستطيع، وتعتبر أنه لم يحصل شيء".

فقلت: "ما هى الظروف التى دعت إلى تغيير الموقف"؟

قال: "آمرك".

قلت: "اسمح لى جلالتك ألا أقبل وعلى الخصوص فقد تعهدنا أنه إذا دعى أحدنا إلى تأليف الوزارة لا يقبل، ولو كان ذلك من جلالة الملك".

وقال الملك: "أنا صاحب الشأن آمرك"!

قلت لجلالته: "لا أقبل وطلبت معرفة الظروف".

وقال الملك: "لازم تقبل وتؤلف الوزارة الليلة".

وقلت لجلالته: "لا أقدر يا مولاى، أمهلنى للغد أفكر".

فقال جلالته: "لابد أن تقبل، وتذهب الليلة إلى السفير".

قلت: "مستحيل الليلة"، وكنت أريد أن أستريح لأنى متعب!

وقال الملك: لازم تقبل!

وقال أحمد ماهر باشا: إن قبل يكون على أسنة رماح الإنجليز!

قلت: اخرس، أنتم الذين جئتم على أسنة رماح الإنجليز ووصلتم بالبلد إلى هذه الحالة والنحاس أشرف منكم كلكم.

تصدير واستيراد الديمقراطية....!

ولكن هذا يطرح السؤال الكبير: ماهى مصلحة إنجلترا أقصد أمريكا فى أن تقوم ديمقراطية حقيقية فى مصر مثلا؟

أول: لابد من التأكيد على مشابهة مشهد الحرب العالمية فى ١٩٤٢والخطر الذى كان يهدد إنجلترا بخطر إرهاب دينى مسلح يعادى أمريكا والغرب (الكافر من وجهة نظرهم وليس الاستعمارى فقط) وأن وصول الأغلبية الديمقراطية لمصر والوطن العربى ضمانة لأمنهم مثلما كان حال وصول مصطفى النحاس والأغلبية الوفدية الديمقراطية ضمانة لإنقاذ أمن وحياة الإمبراطورية البريطانية، ثانيا: أنا سأفترض أن مصلحة الغرب فى نشر الديمقراطية فى الوطن العربى هو التحكم فى البترول وأنا أسألكم بالله عليكم أليسوا متحكمين فيه الآن مائة فى المائة وهل يستطيع حاكم فى السعودية أو مصر مخالفة أمر لهم فى هذا الموضوع أو غيره؟ ثم سأفترض أن مصلحة الغرب هى ضمانة أمن وآمان إسرائيل، والسؤال ومين فى هؤلاء الحكام البغاة الطغاة يستطيع أذى طرف فستان إسرائيل؟ إن بعض حكوماتنا تعمل وسيطا وسمسارا سياسيا بين إسرائيل والفلسطينيين ونظامنا المصرى الاستبدادى يحلف يمينا ثلاثة فى كل تصريحاته أنه يقف على الحياد بين فلسطين وإسرائيل، هل هناك ضمانة لأمن إسرائيل أكثر من هذا وأكثر من أن حكامنا يعلنون ثقتهم فى اريل شارون، أكثر من كده إيه؟

إذن مصلحة أمريكا والغرب (البترول وإسرائيل مأمونة ومتأمنة تماما) فما الذى يريدونه من ديمقراطية العالم العربي؟ لنسمعهم لأول مرة، يكتب مارجوت لايت فى كتاب الأخلاق والسياسة فصلا عن تصدير الديمقراطية يقول فيه :

تقوم الحكومات الغربية بتصدير الديمقراطية، لأنها مؤمنة بأنه من الأسهل التعامل مع الحكومات الأجنبية التى تتقاسم القيم نفسها. من المسلم به أن الدول تتشاطر المصالح جنبا إلى جنب مع القيم. من شأن "نشر قيمنا أن يجعلنا أكثر أمنا، برأى تونى بلير، ومن أجل التأهيل لعضوية بعض المنظمات الدولية، يتعين على الدول التى تنشد مثل هذه العضوية أن تكون ديمقراطية. تبقى الديمقراطية أحد شروط عضوية المجلس الأوروبى، مثلا. والدول الأعضاء فى منظمة الدول الأمريكية اتفقت فى ١٩٩٣ على "ضرورة تدعيم البنى والأجهزة الديمقراطية، كجزء من الهوية الثقافية لكل من الدول فى نصف الكرة الغربى". وقبل أن تتمكن الدول

الجديدة الطامحة إلى اكتساب العضوية من الالتحاق بركب الاتحاد الأوروبى يجب عليها أن تبرهن على أنها نجحت فى بلوغ مستوى معايير كوبنهاغن التى تتضمن "استقرار مؤسسات ضامنة للديمقراطية، لسيادة القانون، ولحقوق الإنسان ولاحترام الأقليات وحمايتها".

تعد القيم الديمقراطية المشتركة بالغة الأهمية، لأن الاعتقاد السائد: هو أن الكيانات الديمقراطية شريكات أفضل. إنها متألفة مع العلاقات القائمة على سيادة القانون، فضلا عن أن انفتاحها على الصعيد الداخلى ييسر على الشركاء المحتملين مهمة اكتشاف مدى وفائها بالالتزامات. برأى تونى بلير، مثلا، "من الأفضل الاستثمار فى بلدان متوفرة على الانفتاح، على البنوك المركزية المستقلة، وعلى أجهزة مالية عاملة على أسس سليمة وعلى محاكم مستقلة". وكان الرئيس كلينتون يؤمن بأن البلدان الديمقراطية "شركاء تجاريون أفضل وشركاء فى الدبلوماسية". أضف إلى ذلك أن الديمقراطية تشكل قيدا يحول دون حصول التغييرات المباغتة فى السياسة والتخطيط.......

ترغب الحكومات فى تصدير الديمقراطية، لأنها تعتقد أن الدول الديمقراطية مسالمة أكثر من نظيرتها اللاديمقراطية. وإلى نهاية الحرب الباردة، ظل الاهتمام بالغياب الواضح للحرب فيما بين الدول الديمقراطية الليبرالية محصوراً فى المقام الأول بأوساط الباحثين الأكاديميين. ثم ما لبث صانعو القرار السياسى أن بدأوا يهتدون إلى أطروحة السلام الديمقراطى حيث بدت عملية إشاعة الديمقراطية فى الدول الاشتراكية السابقة موحية بإمكانية قيام نظام دولى ليبرالى جديد تكون فيه الديمقراطية داخل الدول مصحوبة بالسلم فيما بينها.

ثمة سبب ثالث يدفع الحكومات إلى تشجيع الديمقراطية فى الخارج: وتعتقد أن المجتمعات الديمقراطية تكون اقتصاديا أكثر كفاءة من الدول اللاديمقراطية.

وينتهى إلى أنه يتعين على أولئك الذين يستهدفون تصدير الديمقراطية أن يكونوا أقل تناقضاً وتأرجحاً، مثلا، إزاء أولوياتهم. لا بد للديمقراطية من أن تكون متقدمة على أدوات التخطيط والسياسة الأخرى. إذا كان نمط معين من أنماط

الإصلاح الاقتصادى يؤدى، مثلا، إلى تقويض أسس الديمقراطية، فإنه من الضرورى المسارعة إلى تعديله وتكييفه، لأن الإصلاح الاقتصادى ليس غاية بذاته، بل هو وسيلة لتأمين مستوى أفضل من الحياة وتنمية ديمقراطية مستقرة.

يجب قبل كل شيء، أن يتجنب أولئك الذين يرغبون فى تصدير الديمقراطية جميع أنماط الحيل والألاعيب الانتخابية الزائفة. لا بد لهم من أن يبقوا منسجمين مع أنفسهم على صعيد تطبيق المعايير الديمقراطية بعيدا عن المعايير المزدوجة، عليهم ألا يتساهلوا مع التجاوزات، كما عليهم أن يبقوا حريصين على عدم قبول أى شيء على أنه ديمقراطى إلا إذا ارتقى إلى المستوى الديمقراطى الذى يقبلون به لأنفسهم.

متى يتولى وزارة الداخلية رجل يفهم فى السياسة؟

لماذا لا يتولى منصب وزير الداخلية فى مصر طبيب أو مدرس أو مهندس أو فنان تشكيلى، لا أعرف بلدا فى العالم يشترط على الإطلاق أن يكون وزير داخليته ضابط شرطة حالى أو سابق، فالدول المتقدمة كلها تخلو من هذا المبدأ المزرى والمستغرب، بل إن هذه الوزارة تحديدا مجال دائم لاختيار رجال سياسيين لتولى مهمتها ومسؤوليتها فأسوأ ما يمكن أن نشهده فى حياتنا أن تكون مهمة أمن المواطن وحريته وحقوقه الإنسانية مرهونة بتصرفات ضابط تعلم طيلة حياته مناكفة اللصوص ومطاردة المتهمين وملاحقة المشتبه فيهم فصار سقف تفكيره ومدى تصوره هو أن الجميع متهمون وعليه إثبات ذلك، كما أصبح قاموس أفكاره وحياته هو مفردات التعامل مع القتلة واللصوص ومن ثم يفتقد حس السياسى المنضبط وروح رجل السياسة المرن واللين والمتفاهم، كما أن الضابط عاش حياته كلها يسمع الأوامر وينفذها ويطيع رؤساءه ولا يناقشهم وغير مسموح بديمقراطية حوار حقيقى فى شؤون الأمن والضبط والربط، فالضابط حين يصبح مسؤولا ومحافظا ووزيرا يكون ملتزما دائما بروح تلقى التعليمات من القيادة العليا وتنفيذها ولا يعرف مفاهيم الحوار والأخذ والرد والاختلاف والمعارضة، وليس تأكيدا كما أنه ليس صحيحا أن التربية الأمنية تربية سياسية وديمقراطية بل هى بعيدة كل البعد عن ذلك، فهى تربية خشنة وفظة وآمرة ناهية وغير مثقفة على الإطلاق، ومن الصعب للغاية قطعا أن تجد فى مصر مسؤولا مثقفا وقارئا وملما وعارفا بالفكر والإبداع، لكن يبدو مستحيلا أن نرى ضابطا ووزيرا للداخلية على هذا النحو ففى الأغلب ضباط الشرطة ووزراها خصوصا من تربى فى حضن أجهزة تتعامل مع المثقف والأديب على أنه ابن كلب معارض وملحد وشيوعى يظنون أن الثقافة تهمة ويخشونها وينزعجون منها تماما وهذا يفسر حالة العداء الكمهووس من الضباط للمعارضين من أساتذة الجامعة ومن المفكرين والطلبة

فضلا عن توترهم الشديد من وجود سيدات معارضات والشرطة أميل على طول الخط لاتهام الستات المثقفات بالاسترجال وأنهن لا يجدن رجلا يلمهن وما إلى ذلك من سخافات سمعتها المعارضات المصريات على مدى تاريخ العمل النضالى بعد يولية ١٩٥٢، ثم الجانب الأهم أن فكرة اعتراف الضابط بالذنب أو استقالته ساعة ارتكابه خطأ فادحا ليست واردة فى عالم الضباط الذين يعتقدون ذلك هروبا من الميدان أو تخليا عن المسؤولية ولا يمضون ويرحلون ويتحركون إلا بأوامر القيادات العليا ومن ثم إحساسه بالخطأ شبه معدوم فهو دائما مخلص فى تنفيذ التعليمات فكيف لنا أن نحاسبه على إخلاصه ونعاقبه عليه بدلا من أن نحييه ونشكره، وهو ما يجعل الحاصل دائما هو إقالة وزير الداخلية وليس استقالته؟

المؤكد لدينا أنه عندما تولى الضباط منصب وزير الداخلية بدأت فى مصر أشرس وأسوأ حالات انتهاك حقوق الإنسان ومنهج التعذيب فى السجون والمعتقلات وموت المتهمين أثناء الاستجوابات والاعتداء البدنى واللفظى على المحتجزين فى الأقسام، ونعتقد أن جزءا أصيلا من الإصلاح السياسى والديمقراطى أن تتوقف مصر عن إسناد وزارة الداخلية لضابط بل تكون مسؤوليتها لرجل قانون وحقوق إنسان أو طبيب سياسى أو أى من الشخصيات السياسية البعيدة عن العمل البوليسى أو الأمنى، وهذه ليست بدعة فى مصر بل إن كل من تولى وزارة الداخلية فى عصر ما قبل ثورة يولية لم يكونوا ضباطا على الإطلاق بل كان منهم مدرسى رياضيات ومحامين، بل أن فؤاد سراج الدين وهو من أهم السياسيين المصريين كان وزيرا للداخلية فى قمة عصرها الوطنى (وصاحب ذكرى احتفالات عيد الشرطة) فضلا عن أن المجتمعات الديمقراطية كفيلة بمراقبة حقوق الإنسان واحترام قواعدها ومحاسبة ومعاقبة وزير داخليتها أو غيره!

مصر ستصبح بلدا محترما حين تحترم حقوق مواطنيها وحين تحاسب المسؤولين عن انتهاك حقوق الانسان وحين يكون لدينا حقوق......ولدينا إنسان!

على سبيل المثال لماذا لا يكون صفوت الشريف أو مفيد شهاب وزيرا للداخلية؟

عنـــــــــه

كنا معا فى الجامعة ولم نشاهده فى يوم من الأيام وهو يشترك فى ندوة سياسية، ولم يظهر فى معرض كتب فى الكلية أبدا، ولم يقترب من مجلة حائط ليقرأها أو يأخذ فكرة سريعة عنها وقطعا لم يكتب فى مجلة يوما حرفا ولا لفظا، ولم يصادفه واحد منا فى مظاهرة على باب الجامعة أو أمام الحرم الجامعى حتى على سبيل الفرجة، كان ينظر للطلبة والأساتذة الذين يتكلمون ويعملون فى السياسة ويناقشون أحوال البلد بأنهم عالم فاضية وعيانة، كان يذاكر حتى يتم تعيينه معيدا، ويخاف حتى من خياله فلا يرفع نظره فى وجه العسكرى ويمشى مطأطئ الرأس إذا عبر من أمامه ضابط من حرس الجامعة، لم يدخل فى نشاط طلابى أو سياسى ولم يخرج فى رحلة جامعية ولم يتقدم إلى الترشيح على الإطلاق فى اتحاد الطلبة بل لم يصوت فى أى انتخاب، وتمر السنوات وإذا به الآن فى موقع سياسى وحزبى يتشرط ويقرر ويعلن ويصرح ويأمر وينهى ويتحدث عن الإصلاح والتغيير والتعديل ويقترب من صاحب السلطة والسلطان ويتحدث باسمه ويحاور ويناور ويفصل تشريعات!!

هذا بالضبط ما جاء بمصر إلى الأرض، إلى الدرك الأسفل من النار الذى نعيش فيه، هؤلاء الأساتذة الذين مشوا جنب الحائط وعملوا موظفين لدى الأمن وخدما لدى الحكومة واللى تقول عليه يا أفندم واللى تأمر بيه يا سيادة العميد، هؤلاء الأساتذة الذين تربوا فى أحضان حرس الجامعة وأجهزة الأمن هم الذين يديرون شؤون مصر السياسية والاقتصادية هذه الأيام فى واحدة من أسوأ فتراتها عندما يتحول أستاذ الجامعة إلى بلطجى سياسى وترزى قوانين ومخبر أمنى ومنظر للصوص ومحام للحرامية وميكروفون للاستبداد وذراع للفساد، هؤلاء

الذين ابتلى الله بهم مصر وصاروا قادة فى البلاد بينما لم يفكروا يوما فى السياسة بل كل همهم هو رضا أمن الجامعة عليهم ولم يهتموا أبدا بصلاح الوطن بل كان كل طموحهم الترقية فى الوظيفة ولم يعملوا من أجل الناس بل عملوا من أجل الإعارة أو الشاليه فى الساحل الشمالى ولم يخدموا العلم بل خدموا حذاء السلطة، ها هم الآن يديرون كل موقع ووصلوا إلى أعلى الأماكن نفوذا فى مصر، وها هى مصر بفضل دكاترة الحرس الجامعى تهبط إلى قعر الحضارة وتتخلف فى الاقتصاد والسياسة والنظافة كمان!!

آل باتشينو حين يحكم وطنا!

ديمقراطية الأطر المحددة أطلق هذا المصطلح صحفى سويسرى على نظام الحكم "الرئاسى الوراثى"، الذى تمثل سوريا نموذجه الوحيد فى العالم العربى حتى الآن ويرى هذا الصحفى السويسرى أنه لا فرق بين دولة خليجية وراثية أو نظام رئاسى جمهورى بالوراثة، طبعا ديمقراطية الأطر المحددة تعنى بالبلدى ديمقراطية الهوامش أو ديمقراطية تفييش الهوامش، أى الديمقراطية الشكلية اللى كده وكده، عموما الصحفى السويسرى فيكتور كوخر، مراسل صحيفة NZZ السويسرية الناطقة باللغة الألمانية فى الشرق الأوسط منذ أكثر من ١٠ سنوات، هو صاحب وجهة نظر ضّمنها فى بحث كتبه منذ سنوات بعنوان "الابن يخلف أبيه كرئيس للدولة: السلالات وتكوينها فى العالم العربى" التى يرى فيها أن مكونات النظامين الخليجى الملكى والرئاسى (الوراثى) متشابهة ولا فرق بينهما. ويقول فيكتور كوخر: "يقوم النظامان على شخصية عليا ضامنة للاستقرار، قد تكون ملكاً أو أميراً أو رئيساً، وهى شخصية تحصل على السلطة عن طريق غير ديمقراطى، إما بالوراثة أو التعيين أو إرادة إلهية" وبجانب قمة الهرم الحاكمة، يوجد جهازان رئيسيان: الأول، حكومى تنفيذى، والثانى برلمانى أو استشارى وبتمثيل منتخب أو مُعين أو خليط من الأثنين. وقد يقوم هذا الأخير بمهام رقابية على عمل الأول، لكن قمة الهيكل، (أى الملك أو الأمير أو الرئيس)، " لا تُمس، لأنها تضمن الاستقرار، ويجب أن تكون فوق كل القوانين والرقابة".

التوصيف النظرى الذى حدده فيكتور كوخر يمكن شرحه بلغة سياسية عربية بسيطة. هناك اتجاه فى العالم العربى، على حد قناعة كوخر، يسعى لتوريث أبناء الرؤساء السلطة من بعد آبائهم. ورغم أن تولى بشار الأسد الحكم من بعد أبيه

حافظ يظل النموذج الأوحد الذى تم حتى الآن فى العالم العربى، إلا أن تكهنات عديدة تشير كما كتب إلى احتمال وإمكانية تكرار التجربة فى كل من: مصر واليمن وليبيا. مرد هذا الاتجاه، فى رأى كوخر، هو أن الدول العربية ذات الأنظمة الجمهورية دخلت مرحلة أكثر استقرارا ونظاماً إثر فترة من الانقلابات العسكرية، وهيأت نفسها وشعبها يأسا واستسلاما لتفضيل تداول السلطة (طبعا أصبح هنا تناول السلطة وليس تداول) فى صورته الوراثية.

انتقال السلطة وتوريثها برضا وتوافق بين مراكز القوى حيث يتم الاتفاق بين رموز المؤسسات العسكرية والاقتصادية وجماعات النفوذ على تأمين مواقعها والحفاظ على ثرواتها والتمسك بنفوذها بل وانتقال النفوذ والفلوس الى الأبناء كذلك مما يجعل الجميع متواطئا ومشاركا ومتورطا فى توريث السلطة بحيث يتم التوريث الجماعى من الآباء للأولاد تحت لافتة تقبل الوريث الجديد.

إن ما يجرى إذن فى المشهد السياسى كله يشبه اجتماعا فى فيلم الأب الروحى حيث تتراضى عائلات المافيا بتوزيع السلطات وتقسيم التجارة ودوائر النفوذ ومناطق النشاط مع الاعتراف بقيادة ابن (وليكن آل باتشينو) وريثا للأب الروحى، هذا المشهد يصبح سياسيا وفى الصميم عربيا وهو ما يفسر لماذا تقبل مراكز الصراع السياسى فى البلد بفكرة التوريث لأنه يضمن استقرار النفوذ وتوريثه فى كل المجالات كعملية الأوانى المستطرقة (هل تذكر دروس الفيزياء فى الإعدادية ؟)

لكن كل هذا يجب أن يتم تحت مظلة ومن وراء مكياج سياسى هنا تخرج البدع والإبداعات بتاعة الإصلاح التدريجى وقيمنا الخاصة وهذه الهرتلة التى تروج لها كل عائلات فيلم الأب الروحى، ولأن الأف بى آى تلعب دورا رئيسيا فى الفيلم فلابد من شرائها وضمان مشاركتها القسمة وأسوأ ما يصادفه كاتب فيلم الأب الروحى بنسخته العربية هو الضابط الجديد الذى يظهر فى مشاهد الفيلم محاولا إثبات أنه يحارب فساد المافيا، هنا يظهر دور المحامين، سواء من الكتاب أو الصحفيين أو رؤساء احزاب عجائز يعملون لحساب الأب الروحى ثم يتوسطون

مع الأف بى أى، من هنا تجد مجموعة داخل النظام المصرى ومن قوى أخرى محسوبة على المعارضة تذهب وتروح وتجئ على الأمريكان سواء فى مصر أو واشنطن بقصة التحذير من الديمقراطية المفتوحة التى قد تأتى بالإخوان المسلمين وأنا أعلم يقينا أن هناك شرائحا فكرية وسياسية فى مصر وغيرها أهون عليها أن تظل فلسطين محتلة من أن تحكمها حماس وأبرد على قلبها أن يحكم مصر فسدة ومستبدون من أن يشارك فى حكمها إخوان مسلمون، وهذا ما يصك تعبيرات من النوع المتدرج مثل خصوصية مصرية والوقت المناسب وحكمة الرئيس وفترة انتقالية وديمقراطية تناسب الظروف المصرية أو كما قال وزير خارجية مصر وعدد من ألسنة النظام الطويلة أن كل بلد تطبق الديمقراطية بطريقتها ووفق مجتمعها وهو نوع من الملاوعة والسهوكة السياسية ربما ردت عليها الأف بى أى فى الفيلم أو كونديزا رايس فى الواقع إذ قالت قبل زيارتها المرتقبة للعاصمة العاصية القاهرة إن الدول التى تحكم بشكل ديمقراطى هى تلك التى تسمح للمعارضة السياسية بالتعبير عن وجهة نظرها علانية وبحرية دون أن تتعرض لأى شكل من أشكال التخويف أوالترهيب. وكانت الوزيرة تتحدث خلال مؤتمر صحفى عقدته أمام الصحفيين الأجانب وقالت رايس إن فكرتها - التى تقول إن الزعماء الذين يتم انتخابهم بطريقة ديمقراطية تقع على عاتقهم مسؤولية حكم بلدانهم بشكل ديمقراطى - تعنى " أنه لا يحق لأحد ترويع المعارضة وتخويفها"، وأنه يتحتم منح المعارضة السياسية الفرصة لطرح وجهات نظرها فى وسائل الإعلام الجماهيرية دون خوف من التعرض لأى إجراء انتقامى وقالت رايس "لا أعتقد أن هناك أنواعا مختلفة من الديمقراطية. إذ أن كلمة ديمقراطية قد استخدمت "بشكل يثير السخرية" من قبل البعض للترويج للمفهوم القائل بأن الديمقراطية يمكن أن تتواجد على أشكال مختلفة. وأضافت رايس أنها عندما تولت منصبا سابقا كمستشارة لشؤون الاتحاد السوفيتى السابق، كان الناس يطلقون على ألمانيا الشرقية التى كان يحكمها الشيوعيون "جمهورية ألمانيا الديمقراطية". وأردفت تقول: "فهل كان أحد يصدق أن ألمانيا الشرقية كانت دولة ديمقراطية؟ إنها لم تكن كذلك. ولذا فإن الناس

عندما يتحدثون عن أنواع مختلفة من الديمقراطية، فإنى أقول لهم دعونا نعود إلى أسس الديمقراطية ومبادئها." واستطردت رايس وهى تتحدث عن الموضوع نفسه، فقالت "إن الديمقراطية تعنى أن بإمكان الشعوب أن تقول ما تكون هى مقتنعة به، وأن تكون حرة فى تعليم أطفالها بالطريقة التى تريدها، وبإمكانها ممارسة عباداتها كما يطيب لها، وأن المواطنين فيها محميون من المداهمات التعسفية الليلية من قبل الشرطة السرية بفضل استقلالية النظام القضائى." وأضافت الوزيرة "أن الديمقراطية تعنى أيضاً أنه يسمح للناس بتشكيل منظمات سياسية (أحزاب) تمثل المعارضة أمام الحكومة الحالية."وقالت رايس: "فهذه هى أسس الديمقراطية الحقة وأنا لا أعتقد بأننا نحتاج إلى تعريف جديد للديمقراطية. إذ إننا نعرفها حينما نراها، الديمقراطية. تبدأ من أن يصبح الشعب قادرا على اختيار زعمائه. وتبدأ من أن يصبح الشعب قادرا على مساءلة حكامه."

طبعا من الممكن أن تسب ملة خاش اللى جابو كونداليزا رايس وأنت حر لكن المشكلة أنها تقول الحقيقة أحيانا ومنها هذه المرة، لكن المشكلة الأكبر هى عند عائلة الأب الروحى فى الفيلم وشركائهم ومحاميهم ووسطائهم عند الأف بى أى، فمعنى ذلك أنهم مطالبون بما يشبه التحركات الحقيقية والفعلية لإثبات أنهم أبطال الفيلم أمام الأمريكان وهو ما يفسر التوتر العصبى والارتباك والكذب وعمليات شد الوجه ونفخ الشفتين وسيلكون الصدر للقرارات السياسية التى تمثل التلفيق بعينه فى المش

فقد اختلف أهل التأويل فى تأويل هذه الآية وقد روى عن سلمان الفارسى أنه كان يقول: لم يجيء هؤلاء بعد. (أى أنهم لم يظهروا فى عهود الإسلام الأولى) عن سلمان، قال: ما جاء هؤلاء بعد، الذين وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون.وهو ما يجعل كاتبا مثلى يجتهد (وقد يكون خطأ محضا) فى أن الآية الكريمة تظهر فى إرشادها وهدايتها منطبقة على وقتنا الحالى وهؤلاء الأشخاص الذين لم يظهروا من قبل كما قال سلمان الفارسى رضى الله عنه هم الذين يعيشون بيننا الآن، بل وبفرض خطأ الفارسى وخطيئة تأويلى فإن الآية

تنطبق فصلا ونصا على واقعنا الحالى طبقا لتفسير سيد قطب فى كتابه الأغر فى ظلال القرآن الكريم (وإذا قيل لهم:لا تفسدوا فى الأرض، قالوا: إنما نحن مصلحون. إنهم لا يقفون عند حد الكذب والخداع، بل يضيفون إليهما السفه والادعاء: وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض.. لم يكتفوا بأن ينفوا عن أنفسهم الإفساد، بل تجاوزوه إلى التبجح والتبرير: قالوا:إنما نحن مصلحون.. والذين يفسدون أشنع الفساد، ويقولون:إنهم مصلحون، كثيرون جدا فى كل زمان. يقولونها لأن الموازين مختلة فى أيديهم. ومتى اختل ميزان الإخلاص والتجرد فى النفس اختلت سائر الموازين والقيم. والذين لا يخلصون سريرتهم لله يتعذر أن يشعروا بفساد أعمالهم، لأن ميزان الخير والشر والصلاح والفساد فى نفوسهم يتأرجح مع الأهواء الذاتية، ولا يثوب إلى قاعدة ربانية.. ومن ثم يجيء التعقيب الحاسم والتقرير الصادق: ألا إنهم هم المفسدون، ولكن لا يشعرون).. صدقتنى!!

ابنــــه

يتحدث البعض أنه وإذا كان ولابد لهذا النظام أن يحكمنا ولهذه الوجوه أن تقود البلد وطالما نحن مرغمون وخانعون ولا شيء فى يدنا والذى ينجح فى الانتخابات الرئاسية القادمة هو من ستزور له وزارة الداخلية ويرشحه الحزب الحاكم وتموله ميزانية الدولة ويروج له الجهاز الإعلامى الحكومى من تليفزيون وضيع سياسيا وجرائد وصحف حكومية ورسمية وموافقة ومنافقة حتى النخاع، إذا كان هكذا كذلك وهلبت حتما طيب ما يبقى جمال مبارك باعتباره الشاب فى الثالثة والأربعين من عمره وهو مدنى وليس عسكريا أفضل من استمرار والده وهو الذى تجاوز التاسعة والسبعين، وإذا كان لابد وأن يحكمنا مبارك فليحكمنا الابن وليس الأب.

والحقيقة هذه وجهة نظر أسمعها من كثيرين فى دوائر السياسة والثقافة وهى نظرية يائسة طالعة من ناس تعبانة جدا ومهزومة تحس أنه مفيش فايدة وأن الشعب عاجز عن التغيير وقاصر عن الفعل ولا يستطيع أن يأتى برئيس جديد يرضون عنه ويحبونه ويجبرونه على عدم البقاء للأبد فى الحكم ومن ثم فهم يختارون ما يظنونه الأفضل وهو الابن الذى يمكن أن يتنازل للشعب قليلا ويجرى بعض الإصلاحات السياسية من أجل كسب الشعبية وتخفيف حدة رفضه ورفض التوريث ومن ثم يمكن أن تكسب مصر منه على طريقة اللى يجى من المنايفة فايدة (بالمناسبة أنا منوفى من قويسنا).

هذه هى وجهة نظر الذين يفضلون مبارك الابن خصوصا وأنه سوف يخلص مصر من وجوه كريهة ومكروهة ومسنة وعجوزة تتحكم فى كل شئ فى البلد ليس من باب أنه سوف يأتى بأفضل منهم بل كل المرشحين لخلافتهم أسوأ منهم بكل

المقاييس ويا زين ما اختار، لكن الابن سوف يبدل دورية الحراسة ويأتى بالفشلة الجدد مكان الفسدة القدامى وفى ظنى أن هذه النظرية كلها تتم عن يأس يؤس و هى محزنة وساذجة كذلك فإذا كان ولابد من اختيار (أنا عموما أبطل صوتى لو هذا هو سباق التنافس!!) فإن اختيار الابن محفوف بمخاطر كارثية على البلد، لماذا؟

تعال أقولك..

من المؤكد أن هناك وزراء ومسؤولين كانوا يعرفون جمال مبارك منذ طفولته حين تولى والده منصب نائب الرئيس وجمال فى أولى أو ثانية إعدادى ومن الطبيعى أن بعضهم كان يقول له مداعبة أو تدليلا: يا جيمى، فلما كبر منصب والده وكبر هو صاروا يقولون له يا جمال، وها هم يطلقون عليه الآن جمال بيه أو الأخ جمال، بل يقفون أمامه صفا ينتظرون طلعته وقدوم سيادته، ليلقى فيهم خطبا ويطرح عليهم سياسات!!

وهذه التربية فى قصور الحكم لمدة ثلاثين عاما جعلت جمال مبارك لا يسمع كلمة «لا» أبدا ولم يسمع أحدا ينقده ولا يهاجم أفكاره شخص ولا يجرؤ واحد على أن يقول له كلمة تجرحه أو تقلل من معرفته وثقافته فكان طبيعيا أن يسمع ممن حوله سواء فى بلاط الحكم أو مقربى النفوذ والسياسة مدحا فوق ما يتوقع وأكثر مما يستحق، و مثل أية كهنة فى معبد فرعونى حولوا ما يقوله الوالد إلى حكمة مقطرة وآيات بينات فى السياسة وغيرها ووصلوا بمدحهم ونفاقهم إلى حد يلامس التقديس فإنهم كذلك تعاملوا مع الابن على أنه فارس السياسة وقلب الحزب النابض والأمر كله لايعدو تصادم أكتاف على مدخل بهو فرعونى، وهو ما يجعل ما يردد والده أنه تعرض لضغوط من أجل أن يشركه معه فى العمل السياسى منطقيا رغم أننا لم نسمع يوما من أيهما (الرئيس أو الابن)؟ من أين جاءت هذه الضغوط؟ ومن هو القوى جدا والشديد قوى فى بلدنا الذى يقدر على الضغط على الرئيس؟!

هذه هى أولى مخاطر صعود جمال مبارك فهو لم يسمع أبدا كلمة «لا» وربما لم

يسمع الحقيقة فى حياته أبدا ولم يعتاد على المعارضة ولم يكن له مدير فى الشغل مكدره أو رئيس فى التنظيم يأمره، بل هو مولود سياسى وفى فمه ملعقة من ذهب.

عموما قفز الابن فجأة من مقعد على مائدة العشاء فى بيت الرئيس إلى المقاعد الأولى فى الحزب الحاكم بل ويصبح رئيسا مرة واحدة للجنة حزبية نختار مع تسمياتهم لها شوية لجنة.. وشوية مجلس أعلى، وفى زحمة الترقى والصعود المسنود على منصب السيد الوالد صار الجميع يتحدث عنه باعتباره مجدد الحزب ويبدو أنه صدق فأخذ يخطب ويخطب عن الجماهير والشعب، والشعب هو ثانى مشكلة عند جمال مبارك، فهو الذى لم ير الشعب تقريبا إلا فى مواكب الترحيب وسرادقات الاحتفالات والزحام فى مكتب السيد الوزير المحافظ فى استقباله أثناء زيارته لمحافظة تتحول أثناءها إلى ثكنة حربية عند تشريفه لها بحراسة تحول بينه وبين رؤية أى مواطن عادى (المسحوق العادى) أظن أن الشعب الذى رآه جمال مبارك غالبا شعب مصر الجديدة الذى يختفى ويتبخر لحظة مرور مواكب أمين السياسات، وشعب قصور وبيوت الأصدقاء والمعارف واستراحات شرم الشيخ وبرج العرب، رجل تجاوز الأربعين ولم يقف فى شارع ينادى على تاكسى أو يتشاحن مع سواق تاكسى على أجرة المشوار، لم يركب يوما أتوبيسا مزدحما رايح شبرا وعطل فى الخلفاوى أو ميكروباص يخشى سائقه من أمين شرطة غتت، من أين يشعر إذن بوجدان الناس ومعاناتهم وهو الذى يمشى فى موكب حراسة منذ نعومة أظافره، وهو الذى لم يقف فى إشارة مرور منذ ثلاثين عاما تقريبا؟!

الميزة الوحيدة التى يتمتع بها جمال مبارك هى والده، والصفة الوحيدة التى تؤهله لما هو فيه من ركوب حصان حزبه هو والده، فهذه هى المشكلة الثالثة لدى جمال مبارك، فهو كان مثله مثل أى شاب فى مصر لكان موقعه فى أبعد مقعد فى أبعد صف فى آخر القاعة، ثم هو فى النهاية حصيلة سياسية التكتم والسرية وغياب الشفافية السياسية العائلية التى لا يعلم الشعب عنها شيئا، فمن حق الناس (فى بلد لايعرف أن للناس حقوقا!) أن تعرف من الذى يدير شؤون حزبها الحاكم

ويتحكم فى سياسات ومقدرات ليس له أن يتحكم فيها فلم ينتخبه أحد أساسا ولم نعرفه يوما سياسيا حتى ولو فى اتحاد طلبة!! وإن كان من الطبيعى أن يكون جمال مبارك قد أدى الخدمة العسكرية الوطنية، وإن كنا لا نعرف هل أداها فعلا أم أنه قد أعفى منها؟ وإذا كان قد أعفى منها فلماذا؟ أليس من حق الناس بعدما صار الموقف من الخدمة العسكرية شرطا لعضوية برلمان وربما لممارسة العمل السياسى أن تعرف هل جمال مبارك لبس مرة الأفرول، وعلى ذكر الأفرول فأنا لا سمح الله لا أريد أن أعرف من أين يشترى جمال مبارك هذه البدل الأنيقة التى يظهر بها؟ فأنا لا أنوى شراء مثلها، لكننى فقط أريد أن أسأل شأنى شأن المصريين كلهم إنما جمال مبارك بيشتغل إيه صحيح؟ من أين يرتزق ويحصل على دخله الشهرى والسنوي؟ خصوصا وقد صارت الشفافية مطلبا عالميا ودوليا (سيبك من حق الناس، تغور الناس!)، البعض يقول لنا إنه بيشتغل رجل أعمال، فهل يا ترى مكتوب فى جواز سفره المهنة: رجل أعمال؟ وإذا كان رجل أعمال فعلا فأى أعمال يا ترى التى يعمل بها وفيها جمال مبارك؟ فمصر كلها تعرف ما هى أعمال رجل الأعمال؟ أحمد عز وأعمال ساويرس ونصير وغيرهم فما هى أعمال رجل الأعمال جمال مبارك يا ترى يا هل تري؟ هل مثلا فى الاستيراد والتصدير أم أنه يملك مصانع؟! طيب مصانع إيه؟! أم مقاولات وشركات؟ ثم هل له شركاء مثلا؟

ثم نحن نعرف حجم ثروته من الصحف والمجلات الأجنبية وعرفنا أن الشركة التى يدرها وصل رأسمالها فى وقت ما إلى فوق السبعمائة مليون جنيه مصرى وهذه هى مشكلة جمال مبارك الحقيقية أنه مليونير غنى يريد أن يحكم شعبا مش لاقى ياكل!

ستين فى سبعين

أكيد خبط فى وشك الكلمتين دول من قبل، أى شخص تعرفه قابلك وسمم بدنك بحكاية أن الديمقراطية والكلام الفاضى ده مش مهم، المهم هو أكل العيش، عندما تسمع ذلك منه أرجوك أرفق به فهو ليس حمارا حصاويا، أبدا إنه رجل فاضل، فاضل بس يفهم، لأن الديمقراطية هى السبيل الوحيد لضمان أكل العيش وتوفر اللقمة، يعنى لو فيه ديمقراطية يا حاج لم يكن هناك حرامية مثلا يفصلون قوانين التجارة والاقتصاد على مزاج أهلهم فيكسبون من وراء هذه القوانين الملايين وإذا كان هناك ديمقراطية ما كان واحدا من المسئولين يحتكر تجارة أو صناعة ويرفع سعرها فى السما كى يكسب ساعتها الديمقراطية تقصف رقبة اللى خلفوه، الديمقراطية هى التى تجعل ابنك يشتغل من غير واسطة ولا تجعل المقاول يرشو مهندس التنظيم عشان تهد بيتك، الديمقراطية هى التى تكشف ملايين القروض التى نهبها من فلوسى وفلوسك المسئولون الحرامية، الديمقراطية هى التى تمنع السرطان، عندما تمنع مسئولا من استيراد مبيدات مسرطنة حتى يكسب منها الملايين ونحن نموت بالسرطان فى معهد الأورام، الديمقراطية هى التى تجعل هذا البلد بلدنا مش بلد أبوهم، ولا تصدق أن هناك أنواعا من الديمقراطية إيشى لارج وإيشى إكس لارج أو حجم عائلى لديمقراطية واحدة وجاهزة ومش تفصيل، لقد ضحكوا علينا منذ يولية ١٩٥٢ حين قالوا إن من ضمن أهدافها الستة (كان آخر الأهداف) إقامة حياة ديمقراطية سليمة! وكأن هناك حياة ديمقراطية مكسورة ومريضة وأخرى سليمة معافاة! وكانت هذه هى الكذبة الكبرى التى زرعها نظام يوليو واستمرت حتى الآن، أصبح الحكام هم الذين يقررون ما هى الديمقراطية السليمة والمريضة؟! وجعلوا أنفسهم أوصياء على الشعب والمواطنين

فهذا معارض عذب فرات وهذا ملح أجاج، هذا سليم وذلك مكسور، هذا الأخ ديمقراطى سليم وهذا ديمقراطى مريض! كأن الحكام يمنعون أبناء الوطن من مسك سلك الكهرباء أو اللعب فى الفيشة السياسية، كأننا وطن من الأطفال أو المتخلفين عقليا فى حاجة إلى شرب اللبن قبل أن ننام!

أرجو ألا تفهمنى خطأ وتتصور أننى أعتقد أن الديمقراطية هى هدف حياتنا فالحقيقة أن الديمقراطية هى وسيلة وأداة لتحقيق التقدم والتطور، يعنى لا مؤاخذة أن التقدم هو الهدف، الديمقراطية هى مجرد قواعد بين الشعوب حتى تتمكن من اختيار الشخصيات الصالحة لتحقيق أهدافها، ثم قدرة الشعوب على محاسبة ومساءلة وطرد هذه الشخصيات لو طلعت فاسدة أو فاشلة، وإذا كان حد فهمك غير كده يبقى ابن ستين فى سبعين.

لحم أكتاف مصر

لحم أكتاف مصر وحكومة مصر وحكامها من خير العاملين المصريين بالخارج الذين وصل عددهم إلى مليونى مصرى (هجرة مؤقتة) وتحديدا ١,٩مليون طبقا لأرقام مركز معلومات مجلس الوزراء ومصريو الخارج أهم مصادر العملة الصعبة والدولار للحكومة من خلال تحويلاتهم التى تصل إلى ٢٩٩٩,٦ مليون دولار أى حوالى ثلاثة مليارات دولار أو قرابة ١٨مليار جنيه مصرى طبقا لمركز معلومات مجلس الوزراء ذات نفسه أى أنها حصيلة تنافس حصيلة الصادرات المصرية الكسيحة وجملة دخل قناة السويس أو حتى دخل السياحة فإذا بهذه الحكومة البغيضة وخدم الفراعين وسادتهم الفراعنة يعاقبون المصريين المغتربين على نعمتهم وفضلهم على هذه الحكومة وذلك الحكم، ويضعون موادا تحظر وتمنع تصويت المصريين فى الخارج فى انتخابات الرئاسة، لا توجد دولة فى العالم تعامل مواطنيها بهذه الدرجة من الإهانة والمهانة مثل مصر، كأنه من جينات أى حاكم مصرى أن يفكر ويقول ويتصرف على طريقة إن أنتم إلا عبيد إحساناتنا، فالذى تابع القانون حقير السمعة أو ما سمى رسميا بقانون انتخابات رئيس الجمهورية يكتشف مسخرة ومأساة تعامل الحكم مع المواطنين المصريين المقيمين والمهاجرين فى الخارج، ففى كل بلدان العالم من حق المواطن المغترب عن وطنه أن يدلى بصوته الانتخابى فى بلد الاغتراب أو الهجرة مادام يحمل جنسية هذا الوطن الأم، لكن مصر وطن أم قويق، فهى تلفظ أبناءها المقيمين فى الخارج والمغتربين والمهاجرين، وتمنعهم من التصويت والمشاركة السياسية والانتخابية، وتبدو الأسباب واضحة تماما..

أولا: التصويت فى انتخابات الرئاسة فى الخارج خصوصا الدول الأوربية

والأمريكية وغير العربية ستكون إجراءات التزوير فيها صعبة لا أقول إنها مستحيلة على حكومة مصرية دينها الحقيقى هو التزوير لكن المسألة ستكون صعبة ومرهقة وفى حاجة لخيال جديد ومختلف.

ثانيا: إدلاء المصريين بأصواتهم خارج مصر سيسمح برقابة دولية فعلية وحقيقية على إجراءات التصويت وربما الفرز مما يجعل التزوير معرضا للجرسة والفضيحة خصوصا مع استطلاعات رأى من الممكن أن تجرى أمام مراكز الاقتراع فتحرج النظام عندما يزور النتيجة على هوى الحكومة كما أن المصريين فى الخارج مدربون على الديمقراطية الغربية ويعيشونها مما قد يحرج النظام ويجيبه الأرض.

ثالثا: المصريون المقيمون فى الدول العربية ورغم أنهم لا يعرفون شيئا عن الانتخابات فى تلك الدول وأغلبها مستبد وديكتاتورى إلا أنهم ناقمون وغاضبون من الحكومات المصرية عموما فهى من وجهة نظرهم حكومات جباية وضرائب ورسوم كل ما تريده وتفعله قسرا وغصبا هو استنزاف المصريين فى الخليج والسعودية من أول تصاريح العمل وانتهاء بالجمارك وخلافه دون الحصول على أية خدمات حقيقية فى المقابل، ثم إن المصريين فى الخليج والسعودية يعانون الأمرين من السفارات المصرية وقناصلها مما قد يجعل جزءا من رغبتهم فى معارضة الحكم وعدم انتخاب مرشح الحكومة هو النكاية فى السفارة والسفير.

لكننى أظن أن التخوف الذى يصل لحد الهلع والفزع من أقباط المهجر هو الذى جعل الحكومة ترفض إدلاء المصريين المغتربين بأصواتهم فى الانتخابات الماضية تحديدا فهم يرتجفون من أقباط المهجر ونشاطهم ويهاجمونهم بشكل سافر وسافل فى كل تصريحاتهم أو من خلال الكتبة والسياسيين الفسدة الذين يعملون عند أو مع النظام، حتى إن المواطن المصرى العادى صارت لديه الآن صورة سيئة عن أقباط المهجر وأصبح العقل المصرى المسلم تحديدا يراهم عملاء وخونة بينما يقع القبطى فى اضطراب بين مشاعره المتضامنة مع أبناء دينه وبين غيرته على بلدته واعتزازه بوطنه، وهذه الصورة التى عملت على رسمها وإذاعتها ونشرها والإلحاح بها طول الوقت حكومتنا وظنى أنها نجحت أو شارفت وأوشكت،

ولازمها كذلك التهكم والتهجم على مزدوجى الجنسية كأنهم جواسيس لا سمح الله وليسوا مواطنين ناجحين ونشطين ومكافحين استطاعوا الجمع بين موطن ووطن، بين نشأة وشباب وبين رزق وعمل، ربما يكون هناك من مزدوجى الجنسية مثل ما هو موجود فى أصحاب الجنسية الواحدة ناس معفنة وانتهازية وأفاقة، طبيعى لكن ازدواج الجنسية فى الحقيقة دليل على نجاح صاحبها وانتمائه الذى يصر على الاحتفاظ بجنسية وطنيين!

أعود إلى أقباط المهجر الذى يتوفر فيهم التهمتين الحكوميتين والشعبيتين أنهما أقباط مهجر ومزدوجو جنسية وأحب هنا أن أنقل عن بحث أو ورقة كتبتها فى أحد المؤتمرات الخاصة بحقوق الإنسان وربما أكون قد نشرت بعض سطور وأجزاء منها من قبل لكن هنا أريد أن أعيد نشر نص ما كتبته تحديدا حتى تتضح رؤيتى وتكتمل أمامكم.

لاشك عندى أن عددا من أقباط مصر فى المهجر قد زودها أحيانا ، فقد غالى هؤلاء فى تطرفهم من المعارضة للسياسة الحكومية إلى معارضة الثقافة الوطنية فى مبالغة لا ينفع فى الحقيقة الرد عليها بالبلاغة التى احترفها سياسيونا فى رغى ولغو وثرثرة عمرها ما أثرت فى أحد أو طالت على شخص؛ لكن هذا لا ينفى أن بعض أقباط مصر فى المهجر فعلا قد تحول تعصبه ضد الحكومة المصرية إلى عصاب فيه خليط من الهوس، المرض وجنون الاضطهاد. يحسب المرء أن من طبائع الأمور وطبيعة الحال أن يكون بعضهم قد تحول - درى أو لم يدر-إلى غياب بصيرة أو انفلات رؤية. لكن فى حمى الأقلام الموجهة كالصواريخ المضادة تطعن، وتلعن فى أقباط مصر فى المهجر حتى صار تعبير أقباط المهجر كأنه سبه أو لعنه وبات من المصطلحات سيئة السمعة السياسية فى حياتنا اليومية فى حمى كالعمى، بتنا نقرأ ونسمع ونرى اتهامات لأقباط المهجر عيانا بيانا بالخيانة، الخيانة لوطنهم مصر، العمالة لجهات أجنبية، اتهامات لهم بفقد الانتماء وضياع الوطنية وهو اتهام يعود فيتكرر كثيرا على أيدى مباحث هذا الوطن فى الأمن والصحافة والسياسة، تضخم الاتجاه إلى اتهام الآخرين بالخيانة كأن من حق واحد أن يتهم آخر بالخيانة

وصار هذا الاتهام متداولا بل وشائعا والأكثر أسفا أنه صار سهلا على الأقلام أن تخطه، على الأفواه أن تقوله، والأفدح أنه صار سهلا على الأذان أن تسمعه وهذا - وأيم الله - كارثة تكاد أن تلحق بنا وأظن أننى قلت وسأقول إنه من غير المسموح أبدا ودائما أن يوجه أحدنا تهمة لمواطن من بلده وأهله تحمل إما التخوين أو التكفير. وإن الخيانة تصير حين تحكم محكمة حكما نهائيا على شخص بأنه جاسوس هكذا بوضوح العبارة وصريح الكلمة وإن الكفر لا يتم إلا إذا وقف رجل وقال عن نفسه إنه كافر؛ غير كده لا يمكن أن يكون هناك اتهام بالكفر أو الخيانة. من حظ هذا الوطن العثر الحظ والوطن معا أنه مع انحسار وتراجع نسبى لتهمة التكفير التى راجت وروجت فى الأعوام الماضية من اندفاع المد الإرهابى ظهرت على السطح تهمة التخوين والخيانة كأنه لا ينفع أن نعيش دون أن نلقى اتهام الخيانة على غيرنا أو نكفر بعضنا وقد زادت اتهامات التخوين عن حدها وتم استخدامها ضد معارضى الدولة حينا ومن معارضى الدولة حينا آخر فصارت كالنار تلسع الجميع وأخشى أن النار بعد أن تلسع قد تحرق كما أنها - أى النار - متى سارت فى حقل قصب حولته إلى هشيم، حطام، فحم ودخان ؛ والحاصل أن مصر - للأسف - لا ينقصها الهشيم والحطام ؛ فنحن نرى هشيم أحزاب، حطام أفكار، أشخاص، آراء وصحف، لا ينقصها إلا الفحم والدخان.

إذن مع انفجار عدوى الاتهام بالخيانة فى الحياة السياسية المصرية ظهر متهم جاهز وخصم نموذجى يلقى عليه الرايح والجاى مثل هذه التهمة دون أن يوخزه ضميره، دون أن يرمش لقلمه أو للسانه رمش ولا جفن. فكلما فتحت صحيفة أو صادفت قناة تليفزيونية أو تعثرت فى تصريح رجل سياسة أو تكعبلت فى مؤتمر وجدتهم جميعا يعزفون نفس اللحن الرديء على واحدة ونص باتهام أقباط المهجر بالخيانة وهو يصنع ضبابا أمام الرؤية السليمة لحقيقة هؤلاء الناس المصريين الوطنيين. نعم أقول إن أقباط المهجر وطنيون مصريون ومنهم الغارقون حبا فى وطنهم مش عارف على إيه. لنضع أمامنا حقائق تالية نعنيها فعلا ولا نعيها تماما حتى تكون الصورة صادقة أو كاملة:

١- أساسا الجرى وراء اتهام أقباط المهجر بكل التهم الممكنة والطعن فيهم، فى وطنيتهم واللعن فى ممارستهم وتصرفاتهم يشعل ضرره ويفجر أضراره على الصعيد الداخلى والمحلى فى مصر نفسها، فهؤلاء أقباط المهجر ليسوا إلا أبناء وأخوة أو حتى معارف أقباط الداخل. أقباط المهجر لم يهبطوا من السماء كائنات فضائية على أمريكا، كندا، بل جاءوا من أحضان وطنهم مصر ومن أحضان آبائهم، أبنائهم وأمحاتهم فى شبرا، أو أسيوط أو الإسكندرية.. فما الذى يمكن أن يشعر به مصرى قبطى فى شارع شبرا مثلا وهو يقرأ اتهامات لأقباط المهجر ومنهم صموئيل ابن عمته من درنكة فى الصعيد ومايكل خال مراته من العطارين فى إسكندرية وجورج صاحبه وجاره فى الترعة البولاقية. إن هذا الاتهام المثير للضغينة وللغيظ وربما للعند يشمل فى أضراره ضرره المباشر على أبناء وطننا وليس الأمر بعيدا عنا وعن حوارينا. لا أظن أن أقباطنا هنا سوف يسرون ويسعدون أو يوافقون على اتهام أخوة لهم ولنا بالخيانة ليل نهار كدهه عمال على بطال وفى الفاضية والمليانة وعلى الكبيرة والصغيرة.

٢- ألم يفكر أى منا أن هؤلاء الأقباط الذين سافروا إلى أمريكا وكندا بينهم العلماء العظام، الأطباء الكبار والأساتذة الخبراء؟ وإلا كيف استقبلهم العالم الغربى الذى لا يسمح بالعيش فيه حياة كريمة أو محتملة إلا للموهوب أو الثرى أو صاحب الكفاءة أو صاحب العمل أو الريادة. إن كندا عامرة بأساتذة مصريين فى علم الهندسة؛ بينهم أقباط كثيرون يتولون رئاسة كليات الهندسة هناك، أساتذة لأدق التخصصات وكذلك فى أمريكا أطباء مصريون أقباط عباقرة، هائلو المكانة. فكيف نغفل عن هؤلاء وهم الغالبية؟ ومن أقباط المهجر التجار، رجال الأعمال، أصحاب الشركات، الدكاترة، الأساتذة والعلماء. لابد أن نشعر فى الحقيقة بالفخر بهؤلاء؛ بل ونسعد أن أرضنا أنبتت شخصيات تكافح فى عملها هناك، تساهم فى حضارة العالم المتقدم، تعطى للإنسانية الكثير وهؤلاء لا ينتظرون منا أبدا أن نلعن فيهم أو نسئ إليهم أو لسمعتهم ولذويهم وأهليهم هناك

٣- معنى أن أقباط المهجر يتحدثون عن أحوال أقباط مصر أو أحوال مصر

عموما فذلك معناه - واصبر معى فى هذه النقطة قليلا - أنهم يشعرون بالانتماء إلى هذا الوطن والاهتمام بقضاياه ؛ يتابعون أحواله وأحوال ناسه، يقرأون أخباره، يسمعون نشراته، يدققون فى المعلومات، يتصلون بالأهل والمعارف لتبيان الحقائق، يقرأون الجرائد ويضعون آذانهم على الحوادث والمشاكل فى بلدهم ؛ بل وتتحرك مشاعرهم وتستثار عواطفهم فيما يخص وطنهم. يتابعون تحركات حكامه ومحمة حكوماته ونتائج انتخاباته وهذا فى ظنى عين الانتماء. كان لهؤلاء أن يعتبروا أنفسهم أمريكان أو خواجات خلاص، كان لهؤلاء أن يتمتعوا بالحياة الرغدة الفخمة والهنيهة هناك، كان لهؤلاء أن يعتبروا أمريكا أو كندا أو أستراليا وطنهم، دولتهم وأهلهم.. لكنهم لم يفعلوا ذلك، ولا فكروا فيه. بل صار كل اهتمامهم بل ونشاطهم مركزا على مصر، أهل مصر. بماذا تسمى ذلك؟! أنهم لم يقتلعوا جذورهم، لم ينزعوا فروعهم من مصر، لم يتخلصوا من ذاكرتهم وذكرياتهم، لم يفقدوا تواصلهم واتصالهم ببلدهم. ماذا يمكن أن يكون هذا إلا انتماء يا سادة؟! بل لعلهم يبالغون دون قصد أو دون معرفة فى انتمائهم. فبالله عليك لو أنت فى أمريكا ولو تلفت حولك قد يضيع شغلك أو يفصلونك من وظيفتك ؛ حيث لغة العمل والمال هى اللغة الرسمية هناك، ومع ذلك تجد وقتا لتفكر فى بلدك أو حتى تمشى فى مظاهرة من أجلها أو من أجل تغيير ما فيها أو تسمع أو تتسمع الأخبار، تهتم بالحياة السياسية، تعرف آخر أخبار حادثة ثأر فى الصعيد.. أنا عن نفسى لو كنت فى واشنطن وعشت هناك بدل السنة عشرة فإننى لن أحرص أبدا على متابعة أخبار إنجازات الحكومة بل لعلى أسأل بين الحين والآخر هو مين دلوقت رئيس الوزراء فى مصر؟ (...) على اعتبار أننى أعرف أن رئيس مصر لا يتغير!. وهاهم أقباط المهجر يعرفون كل صغيرة وكبيرة، يتصدرون فى الهايفة والكبيرة. أليس هذا انتماء؟ انتماء ولا إيه يا بتوع المنطق؟!

٤- من الواضح أن أقباط المهجر قد استفادوا من التواجد فى المجتمع الأمريكى أو الغربى فخبروا طرق التأثير فيه، اختبروا قدرة التأثير عليه ووصلوا إلى مناطق نفوذه، جماعات ضغطه وأعضاء إدارات حكومته، كما أنهم استفادوا من الحرية

التى تعلموها هناك طبعا فقد كان عندهم مثلنا أمية، حرية، وجهل ديمقراطى لكنهم تعلموا وتشجعوا فى نشر البيانات، توزيع الاحتجاجات، التجرؤ على من يعتبرهم البعض عندنا فى مواضع القداسة ومواضيع الخطورة.. وهذا كله يفيد أكثر مما يضر.. نعم يفيد قضايا مصر والوطن العربى كله إذا استطعنا أن نجعل من هؤلاء الأقباط المصريين المهمومين بنا والمهتمين بوطنهم حتى الآن قوة ضغط لصالحنا على المجتمع الغربى الأمريكى. أن نجعل من نفوذهم وعلمهم وأعمالهم وفلوسهم وتنظيمهم جماعة ضغط ولوبى مصرى عربى داخل الولايات المتحدة الأمريكية وإداراتها المختلفة ونتعلم من الصهاينة اليهود (...). لكن طول ما إحنا شغالين فى الاتهامات الخيانة والعمالة فطبعا لا أمل ولا عمر.

إن ما فعله الحكم فى مصر من استبعاد ملايين المصريين فى الخارج من حق التصويت هو محاولة رخيصة ومبتذلة لمزيد من التزوير ولضمان التدليس لفوز مرشح الحكم لكنه فى الحقيقة قرار غبى كأنه يفصل المصريين عن وطنهم وكأن الحكومة تقول للملايين من أبناء مصر: غوروا فى داهية اللى ما يرجعكم.... وأظن أن المصرى العاقل الذى سافر سيتمسك بعقله وسيظل مسافرا وقولوا لعين الشمس ما تحماشى أحسن حبيب القلب صابح ماشى!

حكومة لها شعب

كلما سألنى واحد يا أستاذ قل لنا الحل؟ أرد وأقول لا يوجد لدى حل إلا لما أعرفك ما هى المشكلة؟

مشكلة مصر أنها لا تعرف مشكلتها وليس أنها تجهل طريق الحل، ؟

إذا صبرت معى قليلا سوف تعرف الحل ولكن لو تعبت معى أكثر سوف تعرف وهذا هو الأهم مشكلتنا نحن المصريين، أريد فقط أن يكون الهادى المرشد فى هذه السطور هو كتاب شخصية مصر للدكتور جمال حمدان ومن المؤكد أنك سمعت بهذا الأسم هنا أو هنا، فى مكان ما ومن شخص ما، خصوصا وأن كل من يحبون الحديث عن عبقرية مصر وما إلى ذلك من وصفات التفخيم والتبخير لمصر يتحدث عن هذا الكتاب وهو بالمناسبة كتاب لم يقرأه أحد كاملا تقريبا فهو يقع فى أربعة آلاف صفحة لكننا سنتوقف معا عند وصف وتحليل الشخصية المصرية كما كتب عنها هذا العالم الذى اعتزل الحياة ثلاثين عاما عاكفا فى منزله على كتابة أبحاثه وكتبه، يقول مثلا جمال حمدان عن أن مقولة روح السماحة والدماثة عند المصريين والتى سمعتها أنت مليون مرة منذ طفولتك حتى حفظتها صما وصدقتها، روح السماحة هذه من وجهة نظر حمدان (هى المسئولة الأولى عن واحد من أخطر عيوب مصر وهى أنها تسمح للرجل العادى المتوسط بل "للرجل الصغير بأكثر مما ينبغى وتفسح له مكانا أكبر مما يستحق، الأمر الذى يؤدى -خاصة على مستوى النظام الحاكم حيث تحكم التفاهة حينئذ وتسود- يؤدى الى الركود والتخلف وأحيانا العجز والفشل و الإحباط، فى الوقت نفسه، كأنما لتضيف الإهانة الى الجرح كما يقال، ففى حين يتسع صدر مصر برحابة للرجل الصغير الى القميء، فإنها على العكس تضيق أشد الضيق بالرجل الممتاز، اذ لامكان له فى

توسطها ووسطيتها، وأفضل مكان له خارجها (تذكر نجاح المصريين مؤخرا فى المهجر) فشرط النجاح والبقاء فى مصر أن تكون اتباعيا لا ابتداعيا، تابعا لا رائدا، محافظا لاثوريا، تقليديا لا مخالفا، ومواليا لا معارضا، ولذلك فإن مصر ليست ولا يمكن أن تكون ثورية حقا، وبالتالى غير خالقة ولا قائدة جدا.

هل توقفت معى عند مفهوم جمال حمدان أن الرجل الصغير بمعنى التفاهة والضآلة هو من يتمكن من السيطرة والحكم فى مصر ومن ثم يسود العجز والفشل، الله الله، هذا ما يكتبه حمدان عن مصر عام ١٩٨٢تاريخ نهاية كتابة هذا الكتاب، تعالى نكمل بحثا عن الإجابة عن سؤال ما هى مشكلة مصر..

يقول حمدان أما رضا الشعب المصرى بالقليل فهو (أساس التخلف، والرضا بالواقع عجز عن تغيير الواقع وخضوع له. بالمثل صرفتنا القناعة عن الطموح الكبير، القنوع هو زهد العاجز وفلسفة "الفضيلة عجز" وهو ضمان بالخنوع والخضوع. والصبرهو الآخر، بديل عن الإصرار الطموح وتواكلية لا توكل وقعود لاصمود. إنه تبرير للعجز وحلم بغير اقتدار..من نتائج ذلك، مثلا، أن المصريين إذ تركوا الحكم والسيادة وكل "الأعمال المشرفة" كالحرب والسيطرة للأجانب، راحوا يبررون ذلك "بزهدهم" فيها وانصرافهم إلى بناء الحضارة والعمل المنتج الدءوب، ولكن الذى حدث بالفعل أنهم أصبحوا رعايا للرعاة بل عبيدا للأجنبى. ومن نتائج هذا له وأمثاله أن مصر عموما لم تكن صانعة التاريخ أو سيدته دائما، وإنما خامته فى كثير من الأحيان، ولا نقول خادمته أو "سندريللاه" أحيانا ...فالشعب المصرى طيب لابأس به أصلا كخامة، إلا أنه طيب أكثر من اللازم، طيب بدرجة ساذج أحيانا، وساذج بدرجة عاجز نوعا، وعاجز بدرجة مسالم نسبيا، ومسالم بدرجة خاضع الى حد ما.

من المفيد أن تقرأ لعالما ومفكرا وهو يحلل شخصيتنا المصرية لأن واحدة من آفاتنا الشخصية أننا كسرنا المرايات ولم نعد نرى أنفسنا على حقيقتها بل كما نريد ونهوى ونتخيل ثم نصدق الكذبة وهو ما أدى الى ما يكتبه جمال حمدان: (إن سلبية المواطن إزاء الحكم جعلت الحكومة هى كل شيء فى مصر والمواطن نفسه

لاشيء، فكانت مصر دائما هى حاكمها. وهذا أس وأصل الطغيان الفرعونى والاستبداد الشرقى المزمن حتى اليوم أكثر مما هو نتيجة له. فهو بفرط الاعتدال مواطن سلس ذلول، بل رعية ومطية لينة، لايحسن إلا الرضوخ للحكم والحاكم ولا يجيد سوى نفاق السلطة والعبودية للقوة وما أسهل حينئذ أن يتحول من مواطن ذلول إلى عبد ذليل.) ومن الذل الى النفاق ينتقل حمدان كاتبا). المؤسف أن النفاق إن لم يكن الوجه الأخر لأسود صفة وأسوأ سبة وهى الجبن، فإنه تعبير عن انتهازية "الفهلوة" والوصولية الزاحفة، لا غرابة إذن فى أن تكون السلطة والحكم والنظام فى مصر دائما وأبدا هى أكبر دعاة الاعتدال المصرى المزعوم وأشد المهللين المحبذين المزينين له ومحترفى التغنى المخادع الماكر به. ذلك لأن هذا الاعتدال المرضى ليس فقط ضمان البقاء المطلق لهم، ولكن أيضا ضمان التسلط والسيطرة المطلقة. فمجتمع هذا النوع من الاعتدال العاجز هو مجتمع بلا صراع، ومجتمع بلا صراع هو مجتمع من العبيد أو قطيع من الأقنان.

وإذا كان النظام الحاكم يباهى دائما بما يسميه "الاستقرار" فى المجتمع المصرى، إنما هو استقرار الجسد الميت والجثة الهامدة. فإن ما تعانى منه مصر حقيقة إنما هو فرط الاستقرار.

هل شكك فى قلبك كلام دكتور جمال حمدان، هل نخز ضميرك، هل وخز عينك ؟ أنا أوافقه على كل حرف قاله بل لقد وجدت فيه ما كنت أكتبه وأعلنه قبل أن أقرأه فيرفضنى الناس متهمين قلمى بتعذيب الذات وجلد النفس، فى تلك اللحظة التى نعيشها فى مصر، لحظة الرغبة الحارقة للتغيير من الممكن أن نقرأ فى وجوه حاكمنا وكهنته ووزرائه وقيادات حزبه نفس الحقائق التى كتبها عنا جمال حمدان من ثلاثة وعشرين عاما، كتب يقول فى دقة رؤية كأنما العلماء يبرزون كورثة الأنبياء أمامنا (مأساة مصر فى أنها لا هى تنهار قط ولاهى تثور أبدا ولا هى تموت أبدا ولا هى تعيش تماما إنما،هى فى وجه الأزمات والضربات المتلاحقة تظل فقط تنحدر تتدهور تطفو وتتعثر دون حسم أو مواجهة حاسمة تقطع الموت بالحياة أو حتى الحياة بالموت منزلقة أثناء هذا كله من القوة إلى الضعف ومن الصحة إلى

المرض ومن الكيف إلى الكم وأخيراً من القمة إلى القاع بل ولعلها ما عاشت آلاف السنين دون أن تموت إلا أنها استبدلت المرض المزمن بحياة الصحة وحيوية الحياة أى استبدلت طول العمر والحياة الطويلة بالقوة والحياة العزيزة الكريمة وهوما يسميه البعض " معجزة مصرية فى التاريخ فهى معجزة العجز تلك).

بالضبط ما يغمز به البعض أحيانا من أن خير ما فى المصريين أنهم يملكون مصر، بينما أن أضعف ما فى مصر هو المصريون..

وإذا كان بعض المصريين، فضلا عن غير المصريين بالطبع، لا يرى مبررا قويا ومقنعا لأن يردد مع مصطفى كامل مقولته الشهيرة "لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا"، فليس هناك مبرر بالتأكيد لأن يقول ذلك ولعله فى هذا السياق أن تساءل بعض المثقفين المصريين عما أعجب مصطفى كامل من الصفات "لحرص على أن يختار مرة أخرى أن يكون مصريا، بعد أن وجد نفسه مصريا".. ثم أردف التساؤل مفسرا أكثر مما يبدو مستفسرا: "هل أعجبه من المصريين أنهم يحبون الكلام والخطب والهتافات والشعارات مثل: لو لم أكن مصريا.. إلخ؟".

ثم ينتقل جمال حمدان للتحدث عما فعلته الأنظمة الحاكمة فى الشعب المصرى فيقول عن نظام يولية ٥٢ (من المؤسف أن النظام الذى ما قام إلا ليحقق للشعب العزة والكرامة التى حرم منها طوال تاريخه، وكان شعاره التقليدى "إرفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعباد". لم يحقق إلا عكس الشعار تماما من الناحية العملية.. إذ لم يلبث أن إنحرف ودخل فى "عهد إرهاب" حقيقى، فتورط فى المصادرات والحراسات والاعتقالات بل والتعذيب بالجملة، وتحول بالتدريج إلى القهر والكبت والقمع وتميط وقولبة الفكر والعمل السياسى ووأد الرأى الحر أو المعارض..

وفى إطار "أم إسار؟" هذا القفص الحديدى الذى لم يسمح قط بالرأى الآخر أو المعارضة، ثم "تعقيم" الشعب سياسيا.. فبينما لم يكن للشعب أى حق - رغم الشكل البرلمانى الزائف - فى النظام الإقطاعى قبل "الثورة" إلا حق المتفرج، أصبح للشعب فى ظل هذه "الثورة" الحق فى أن يقول "نعم".. وهكذا تلخص

التحول الجديد فى معادلة محددة ولكنها محزنة وهى: من دولة بوليسية "وسيطة" تحكمها الشرطة إلى دولة بوليسية "عصرية" يحكمها الجيش، أو من ملكية بوليسية إلى جمهورية عسكرية، أو أخيرا من إقطاع مدنى إلى إقطاع عسكرى، وبعبارة أخرى.. فكما شخص بعض منظرى العهد فيما بعد، انتقلت مصر إلى مزيج من الفرعونية الجديدة والمملوكية الجديدة).

ثم يضرب جمال حمدان ضربته الكبرى فى كتابه الضخم المذهل حين يتحدث ولاحظ أنه كتب هذا الكتاب مع نهاية السبعينات وحتى ١٩٨٢، كتب عن الجمهورية الملكية، حلاوتك يا حمدان ألهذا قالوا عنك مجنونا، كتب يقول:

(سرعان ما ظهرت أعراض عريضة وميول جامحة جانحة من مظاهر الملكية بل والإمبراطورية، كأنما هى ملكية مؤقتة غير وراثية غير مدنية، أى باختصار ملكية مقنعة فهذا، مثلا، تكاد تقول أول "إمبراطور جمهورى"، وهذا أول "ملك جمهورى"، وهذا وهذا إلى آخره، وتلك جمعيا هى بكل وضوح أعراض وأمراض الحكم المطلق وحكم الفرد......وفى هذا بالدقة تكمن جذور المأساة العظمى. فمكان مصر ومكانتها الدولية كقوة سياسية، انتصارها وهزيمتها عسكريا، مصيرها وبقاؤها.. إلخ، كل أولئك بين يدى شخص فرد واحد، بينما الشعب مقود غصبا ولا شيء عمليا.. والنتيجة المنطقية، ولا نقول الحتمية، هى الهزيمة والنكسة ثم الاستسلام والنكبة.. ومن هنا كانت الفرعونية الجديدة هى ببساطة ولكن بصرامة "الفشل فى الداخل والهزيمة فى الخارج"، "الطغيان فى الداخل والركوع فى الخارج". ومن الصعب أن نحدد من السبب وما النتيجة: هل الهزيمة العسكرية فى الخارج نتيجة عقابية للاستبداد الانقلابى الجبان فى الداخل، أم أن الاستبداد الداخلى هو تعويض مريض عن العجز والانكسار المشين فى الخارج؟

ثم يرد جمال حمدان على كل ما سمعناه عن الخصوصية المصرية فى الديمقراطية وقيمنا وكل هذا الخرف الذى يردده الأفاقون والكهنة حين يفصح عن ضمير الحقيقة فيكتب (مجرد الحديث عن الديمقراطية فى ظل "ما يحدث" إنما هو امتهان للعقل البشرى وإهانة للإنسان المصرى.

حسنا "أم أسفا؟"، فتلك على أية حال هى فى جوهرها "ديمقراطيتنا" أو "الديمقراطية على الطريقة المصرية"، والتى نسرف فى الحديث عنها والتغنى بها...فالديوقراطية الجديدة فى مصر، ديمقراطية الإذعان والموافقة، إنما هى تفويض من الشعب، وباختيار الشعب، أى ديكتاتورية باسم الشعب، أو هى الديكتاتورية بيد الديمقراطية وتحت قفازها، أو بصيغة مباشرة أكثر هى وأد وقتل الديمقراطية بيد الديمقراطية ذاتها.. باختصار، هى مسخ للديمقراطية بقدر ما هى سخرية منها هل نضيف (أبنا حاجة؟) وكم ذا بمصر من الديكتاتورية ترتكب باسم الديمقراطية؟

من هنا جميعا فرغم أن الشكل النيابى البرلمانى الأوروبى الصورة فى مصر متخلف عنه فى بلد كبريطانيا مثلا بنحو ١٠٠ سنة فقط، فإن مصر موضوعا ومن حيث الحكم والحاكمية قد تكون متخلفة عن بريطانيا ١٠٠٠ سنة على الأقل. أى أن مصر اليوم قد تكون فى مرحلة بريطانيا الملك جون "وميثاقه" الشهير ما تزال، ذلك أن الفرعونية السياسية والطغيان الفرعونى مازالت معششة متغلغلة فى نظام الحكم خلف واجهة أو قناع الديمقراطية العصرية).

ويشرح ويجرح حمدان حين يقول:(والحقيقة أن الحكومة هى كل شئ فى مصر، تحكم كل شئ، ووحدها تملك كل شئ بما فى ذلك الحكمة والرأى والصواب وفصل الخطاب. وما كانت الحكومة ملك الحاكم، والوطن ملك الحكومة، فإن مصر فى النهاية ليست شعبا له حكومة بقدر ما هى حكومة لها شعب)..

هل عرفتم مشكلة مصر كما يتصورها جمال حمدان وكما أوافقه أنا العبد الفقير المعترف بالتقصير، المدهش (هل أخذت حقك من الدهشة أم لازلت فى حاجة الى زيادة؟). إن مشكلة مصر هى حلها، إزاى إنشاء الله، هى كده بالضبط والله العظيم، يقول حمدان:

(تظل الديمقراطية هى مشكلة مصر الأولى فهى وإن لم تكن مشكلتها الوحيدة أو الأخيرة، فإنها مفتاح جميع مشاكلها الأخرى بلا استثناء لا شئ يسبقها، ولكنها تسبق الجميع. جميع مشاكل مصر وأزماتها وكوارثها الداخلية والخارجية، فى الإنتاج

والحضارة والتقدم، مع العدو الإسرائيلى والأشقاء العرب، مع القوى العظمى والصغرى، كل انحدار أو سقوط مصر فى الحرب أو فى السلم، كافة عيوبها ونقائصها وسلبياتها ومثالبها فى المجتمع والفرد كما فى السياسة والاقتصاد مصدرها وسببها الرئيسى هو الاستبداد الداخلى الغاشم والطغيان الفرعونى المقيم المستديم.

لا السكان ولا الفقر، ولا حتى الاستعمار فى الماضى أو إسرائيل أو البترول العربى فى الحاضر، هى المشكلة الأم فى كيان مصر، وإنما مشكلة المشاكل وقضية القضايا هى قضية الديمقراطية الديكتاتورية أو نظام الحكم المطلق.. إنها هى أصل مشكلة مصر كلها، شخصية مصر، مصير مصر، رخاء مصر، بل وبقاء مصر، شخصية المصرى، كرامة المواطن المصرى، نفسية الإنسان المصرى، إعادة بناء الإنسان المصرى والشخصية القومية.. إلخ، فى كل هذا وغيره "فتش عن الديمقراطية أو غيابها"، فإنها هى حاكمها ومقرها وضابط ايقاعها مثلما هى مفتاح حلها جميعا.

لكن المعضلة العويصة هنا هى مأزق الحلقة المفرغة المعهودة، فإلى أن تتحقق الديمقراطية لن تتغير الشخصية المصرية، ولكن إلى أن تتغير الشخصية المصرية فلن تتحقق الديمقراطية! كسر هذه الحلقة، مع ذلك، فى يد الشعب، وذلك بأن يأخذ أمره فى يده مرة واحدة فى التاريخ، مرة واحدة وإلى الأبد، وهذا يتم بتصفية الديكتاتورية السائدة السارية أولا ثم إقامة الحكم الديمقراطى الشعبى المدنى.. وحين تتم هذه الفورة الشعبية فسيكون قد تم كسر حلقة الطغيان - الذلة المفرغة البغيضة ويكون قد أعيد تلقائيا بناء الشخصية والإنسان المصريين المفترى عليهما.

الديمقراطية لا تمنح ولكن تنتزع، لا تستجدى من الديكتاتور وإنما تفرض عليه فرضا بقوة الوعى وفعل القوة وبيد الشعب نفسه...

ومصر، التى كانت ومازالت هى حاكمها، لن تتطور وتصبح شعبا حرا إلى أن تصبح هى شعبها لا حاكمها. وإلى أن تصبح ملكا لشعبها لا لحاكمها، فستظل أمة من أشباه العبيد فى الداخل وأشباه التابعين فى الخارج لن تصبح مصر شعبا حقيقيا راقيا أبيا عزيزا فى دولة حقيقية متقدمة متطورة إلا إذا صار الشعب هو

الحاكم والحاكم هو المحكوم.. فى كلمة واحدة: لن تتغير مصر، ولا مستقبل لمصر، إلا حين يتم دفن آخر بقايا الفرعونية السياسية والطغيان الفرعونى).

لن أضيف حرفا

خلاص سكت الكلام وعدم!

تمام يا أفندم

تمتع الحياة السياسية المصرية بميزة لا تمتع بها معظم بلدان العالم المتقدم، فالساحة السياسية المصرية تضم بين صفوفها عددا مدهشا من حيث الكثرة والإخلاص من المتعاونين والمتعاملين والعملاء لجهاز أمن الدولة!

وجهاز أمن الدولة للذى لا يعرف هو الجهاز السياسى والأمنى الأهم فى هذا البلد بل هو الذى يحكم من خلاله الرئيس كل مناحى ونواحى الحياة فى مصر فلا يمكن تعيين عمدة فى كفر ولا رئيس وحدة محلية فى قرية ولا معيد فى كلية ولا عميد فى جامعة ولا رئيس تحرير فى صحيفة حكومية ولا عامل فى مطبعة ولا خطيب فى جامع ولا مذيع فى تليفزيون أو إذاعة ولا أحد فى أى وظيفة فى مصر لها علاقة بالناس أو الدولة إلا ولابد من موافقة أو استئذان أو ممالأة أو منافقة جهاز أمن الدولة، بل يمكن أن تكون أجهزة أخرى كالرقابة الإدارية أو جهاز الكسب غير المشروع معترضة على تولى شخص ما مسئولية فى مكان ما ولكن أمن الدولة موافق إذن يتعين وأكبر تخين فى البلد يبقى يفتح بقه بكلمة!!

طبعا لا أنوى أن أحكى عن مسئولية أمن الدولة عن جرائم الاعتقال والتعذيب والتى تكفى لمحاسبة أى مسئول أو ضابط فى هذا الجهاز منذ عصر عبدالناصر وحتى فترة مبارك الحالية أمام محاكم جنائية دولية، فهذا أمر يطول شرحه ويتسع جرحه وفيه من المآسى الإنسانية والضعة البشرية والوضاعة الآدمية ما لا يحصى ولا يعد من تعدى وضرب وسحل ونفخ وخوزقة وحرق وتحرش ودناءات لا تطيقها نفس وتعف عنها حتى الحيوانات فى الغابة، لكن ما هو مؤكد أن نظام مبارك مدين لهذا الجهاز بتأمين استقراره واستمرار بقائه، فقد تمكن هذا الجهاز عبر عمل دؤوب من تجنيد عدد كبير من العاملين بالحقل السياسى

والإعلامى ليصبحوا أتباعا له أو متعاونين معه، واستطاع الجهاز نفسه ترهيب وتهديد كثيرين من المشتغلين بالإعلام و المهمومن بالسياسة والوطنيين فى الجامعة حتى خفت صوتهم وانحسر وجودهم، وكذلك أفلح الجهاز فى مكافأة رجاله وعملائه وتصعيدهم والعلو بهم إلى مناصب صارت المتحكمة فى عصب وأعصاب البلد كلها وصار الجهاز الآن فى أزهى عصوره انتشارا وانتشاء وقد تمكن من بسط نفوذه على جميع منافذ وثغور وثغرات الحياة السياسية فى مصر، ورغم أن هذا الجهاز هو أحد فروع وإدارات وزارة الداخلية إلا أنه بمثابة القلب من الجسد فى الوزارة فهو المنوط به كفالة استقرار الحكم وقد توحش الجهاز تنظيميا وتسرطن فى وجوده فى الجسد المصرى خصوصا مع نمو الإرهاب المسلح فى البلد والمذهل حقيقة أن جهاز أمن الدولة ـ كما أجمعت كل الشهادات التاريخية ـ هو المسئول عن إنشاء فصائل وجماعات التطرف الأولى فى مطالع السبيعينات لمحاربة التيار اليسارى فى الجامعة والساحة الجماهيرية بل وتؤكد مصادر مطلعة لا سبيل للشك فيها أن ضباطا من أمن الدولة تنكروا فى هيئة طلبة جامعيين إسلاميين ومارسوا التجنيد للشباب وضمهم للجماعات الإسلامية وكانت هناك قيادات فى التطرف ليست صنيعة أمن الدولة فقط بل ضباطا فيها بواقع الرتبة وسجل الخدمة، ثم وكما هو متوقع تماما عندما تربى أسدا فى بيتك فهو فى الغالب إذا لم يفترسك سوف يهرب من البيت وهو ما جرى، وساعتها تحولت صناعة الأمن للجماعات الإسلامية والتحالف بينهما إلى صراع دموى رهيب بين الطرفين رغم ما بذله جهاز أمن الدولة من تيسير تسفير آلاف من الشبان إلى أفغانستان حين كان مطلوبا من جهاز الأمن المصرى إمداد الساحة الأفغانية بالرجال وكان الأمن السعودى مسئولا عن إمداد الساحة نفسها بالمال (من أعجب ما تقرأ رسالة كتبها مدير أمنى سعودى لأسامة بن لادن بعد ١١سبتمبر يلومه على هذه الجريمة بعد سنوات الجهاد فى أفغانستان التى عاشاها معا!!) ولعل من المهم أن نذكر هنا بأن أكثر ضحايا أفراد الشرطة الذين كانوا مستهدفين من الجماعات الإرهابية فى التسعينات هم من ضباط أمن الدولة ومن ضباط السجون والسبب هنا أوضح من أن يوضح،

فهؤلاء الضباط هم الذين صنعوا أو دبروا أو طاردوا أو عذبوا، ويبدو أن الدولة بعد كل هذا العك الأمنى والسياسى قد استمرأت وفرحت بتعامل أمن الدولة مع الإرهابيين والمتطرفين والمشتبه فيهم واعتمدت سياسة المواجهة الأمنية مع التطرف فانتهى الأمر إلى مسخرة من شقين، الأول هو ٢٢ ألف معتقل فى السجون تحت دعاوى التطرف فأخذوا البرئ بالمتهم، والأخ بأخيه والابن بأبيه، فصارت مصر معتقلا كبيرا لسجناء الرأى بدون محاكمات وبلا أى سند قانونى غير قانون الطوارئ الذى فقد معنى اسمه تماما فكيف يكون طوارئ وهو موجود ومطبق منذ أربع وعشرين سنة لقد صار قانون الثوابت مش «الطوارئ»، أما الشق الثانى من المسخرة أن التطرف الدينى لم ينته أبدا وعلى الإطلاق ثم تصاعد الأمر إلى حد أن العمليات الإرهابية باتت أخطر فى نتائجها وأسهل فى تدبيرها!

ثم كان من مهام هذا الجهاز كذلك هو التعامل مع الأقباط فى مصر فالحوادث التى شهدت احتقانا بين المسلمين والمسيحيين صارت من مسئوليات وتكليفات جهاز أمن الدولة فلا يوجد ولد مسلم بيحب بنتا قبطية أو بنت مسلمة ماشية مع واد قبطى إلا وصارت تلك قضية لا تحلها عقول ناضجة فى عائلة ولا وعى شيخ وفطنة قسيس بل يحلها ضابط أمن الدولة، وعندما يشكو أى جار مسلم جاره القبطى مثلا لأن كليهما جاران فى الرخامة والرزالة فتكون هذه الشكوى مهمة أمن الدولة وليس شيخ الحارة، ثم بات إسلام البنات المسيحيات هو قضية أمن الدولة الأثيرة والتى لا نراها تدافع عن حرية العقيدة والتفكير إلا لو كانت حرية مطلقة قبطية فى اعتناق الإسلام، وكل يوم تتفاقم الاحتقانات و الاضطرابات بين المسلمين والمسيحيين (دعك من الخطب الفارغة التى يدعى فيها كل طرف السماحة والاعتدال) بفضل وبفعل أن أمن الدولة هو المنوط به حل ومتابعة ومسئولية هذه العلاقة الشائكة!

ولكن يبدو أخطر دور يلعبه جهاز أمن الدولة واضحا فى الصحافة والأحزاب السياسية، فقد اخترق أمن الدولة الصحافة ومؤسساتها وصحفييها تماما، سواء الاختراق المباشر عبر تجنيد أو تعامل أو تعاون عاملين بالحقل الصحفى مع

الجهازالأمنى واستخدامهم فى كل المهام المطلوبة أو عن طريق التنصت والتجسس والتلصص، أو عن طريق التحكم فى تصعيد الصحفيين للمناصب والذى يبدو أن رضا الأمن وصداقة الصحفى للأجهزة (مشيها صداقة) هى الشرط الأول للترقى وتولى أعلى المناصب، ومن قمامة القول أن يعتبر البعض الولاء لجهاز أمن الدولة والعلاقة الوطيدة والوتيدة معه أمرا عاديا لاينتقص من الشرف ولا يلوث السمعة! وبالإضافة إلى اختراق وتحكم وحصار أمن الدولة للصحفى فهى كذلك تحاصر المهنة سواء بالتحكم المريع فى المطابع أو وسائل التوزيع أو المكتبات وباعة الكتب والصحف!

أما الأحزاب المصرية فهى خاضعة تماما لسيطرة واختراق جهاز أمن الدولة فلا يمكن خروج حزب أساسا إلا عن طريق موافقة الجهاز واتفاقه مع رجال الحزب ورؤسائه ثم هناك عدد كبير من مخبرى الأمن ورجال الجهاز أعضاء فى هذه الأحزاب، ثم هناك قيادات أحزاب تحت إشراف وتعليمات مباشرة من جهاز الأمن، كما أن هناك قيادات حزبية فى هيئات ولجان كل حزب منتمية بالعمالة أو بالتوافق لجهاز أمن الدولة ويحركهم الضابط المسئول كيفما شاء وبما أراد فى أى وقت ولحظة وليس بعيدا عنا حقيقة أن كل انشقاق داخل حزب (من أول حزب العمل ومرورا بكل الأحزاب المجمدة وحتى المسرحيات التى نشاهدها من آن لآخر) هو انشقاق صنعه جهاز أمن الدولة عبر رجاله فى كل حزب لتجميد الحزب أو تأديبه أو تهذيبه، وكنت أعتقد منذ فترة أنه لو شخط أمين شرطة فى رئيس حزب من إياهم لتبول رئيس الحزب على نفسه خوفا ولكننى بت أعتقد فى خطأ ذلك تماما فالمؤكد أنه لو شخط مخبر أو فراش مكتب ملازم شرطة فى وجه رئيس حزب لتبرز رئيس الحزب على نفسه فرقا وفزعا واستجاب لما يأمره به سيده!

ليست لدى معلومات دقيقة حول ميزانية جهاز أمن الدولة لكن ميزانية وزارة الداخلية بلغت أربعة مليار جنية وهو أمر يسمح لك بتقدير ميزانية أهم أضلاعها لكن الأخطر من حديث المال والأرقام هو حديث الضمير خصوصا الضمير المستتر (تقديره هو!) فالحاصل أن ضباط أمن الدولة يخلطون تماما بين أمن

الدولة وأمن الرئيس، فليس كل معارض لمبارك أو رافض لسياسته أو طامح لتغييره هو عدو للدولة بل هو مجرد خصم سياسى للرئيس وحزبه وحكومته، لكن جهاز أمن الدولة لا يرى أمامه ولا يعرف سوى الذين يحبون ويركعون أمام النظام ولا يعتقد أن مسئولية الأمن هى حماية الوطن والمواطن بل هى حماية بقاء الرئيس أو الحاكم على عرشه، خصوصا أن هناك أجهزة فى الدولة منوط بها المسئولية الأمنية عن حماية حياة الرئيس لكن أمن الدولة يصر على حماية حياة الرئيس من النقد والمعارضة، ولهذا يجمد أحزابا ويغلق صحفا ويعتدى على صحفيين ويتجسس على مقرات الأحزاب ويثير القلاقل والانشقاقات فى تيارات معارضة ويصادر كتبا ويقبض على متظاهرين ويشهر بخصوم الحكم ويدنس سيرة وسمعة المعارضين ويقبض على بعضهم بتهم العمالة (القضاء ينسف هذه الافتراءات والبلاءات) كل هذا لأن جهاز أمن الدولة يفقد الرشد السياسى الذى يحتم عليه فهم أن معارضة الرئيس ليست ضد الوطنية ولا انتقاصا من ولاء الشخص لوطنه وأن الإنسان يمكن أن يكون محترما وآمنا ومعارضا كذلك لحسنى مبارك وهيه فيها إيه دا حتى الملحدين المعارضين لربنا عايشين فى أمان!

أعرف أن وجود جهاز أمن الدولة مع غياب الشفافية الكاملة لأعماله ومع غياب المحاسبة التامة على أفعاله ومع استخدامه لحراسة النظام وحماية استقرار الرئيس على الحكم وإضعاف وتكسير عظام المعارضة وتدمير دوائر الرفض السياسية، وجوده بكل هذا دليل على نظام يدير الوطن كله بالأمن وخصوصا أمن الدولة...وصنع من جهاز أمن الدولة أكبر حزب سياسى فى البلد هو الذى يحمل على عاتقه إنهاء حياة أى معارضة والتنكيل بأى خصم والتشهير بأى معارض عن طريق الغلق والضرب والمصادرة والتعذيب والتجسس و كذلك استخدام الصحافة والإعلام فى حروب قذرة واتهامات فاجرة.

لا يوجد فى أى دولة محترمة جهاز أمن مخصص لمحاربة المعارضين ومطاردة الخصوم السياسيين، هذا فقط موجود فى مصر وليبيا وسوريا والعراق والسودان واليمن وتونس وكل الدول العربية الشقيقة التى تعانى

من التخلف والاستبداد والفساد!!

لكن المشكلة الفادحة هى تظل تحول جهاز أمن الدولة إلى جهاز لأمن الحاكم والدمج بين الإخلاص للرئيس والإخلاص للوطن فلايمكن أن تكون وطنيا محبا لمصر من وجهة نظر أمن الدولة إذا كنت كارها للرئيس أو معارضا واضحا وحادا له، لا يرضى جهاز أمن الدولة بغير الموالين له وللنظام الحاكم وهو يتخير عملاءه فى عالم الصحافة تحديدا من ذوى الموهبة المتوسطة والضحلة الذين يدركون أنهم لن يصعدوا ويترقوا إلا بمساعدة ودفع من جهات وأجهزة لهم، وإلى جانب ضعاف الموهبة هناك أصحاب النفوس الرعديدة والذين يخافون من ظلهم وتربوا على قمع وقهر من المجتمع أو العائلة فيلجأون للعمالة مع الأجهزة للاستقواء والحماية، وهناك كذلك نوعية من المتعاونين مع الأمن الذين يأتون من أسر غير كريمة القيم ولا أصيلة الجذور وهؤلاء يتنصلون من أصولهم بالانتماء إلى دوائر تصنع لهم أصلا جديدا وتاريخا بديلا عن تاريخهم الشخصى الوضيع، ثم هناك المتعاون والمتعامل مع أجهزة الأمن نتيجة كسر عينه وابتزازه إما بقضية تلبس أخلاقية أو شذوذ وعوار أخلاقى أو فساد مالى، ثم على الطرف الآخر هناك الضابط ذاته والذى يتصور نفسه بحكم الموقع والتعود حامى مصر من أعدائها وحارس الوطن الأمين والمخلص من المعارضة والمعارضين، ويتماهى الضابط مع مهمته إلى حد أن معظمهم يتحولون إلى خصومة شخصية عميقة وعصبية مع معارضى النظام وكذلك يضمرون حقدا شخصيا معلنا ومكتوما ضد المعارضين، وفضلا عن أن ثقافة الضابط محدودة وقشرية تعتمد على المحفوظات والأناشيد الوطنية المدرسية الساذجة ويرون الحياة كلها حتى فى بيوتهم ومع أولادهم على نحو من التعليمات والأوامر والزواجر وتقديس الرتب الأعلى وتنفيذ الفرمانات حتى لو كانت ظالمة، بينما السياسة والثقافة عكس ذلك كلية ونقيض هذا تماما فهى بالضرورة محاورات ومناورات وجدل وتمرد ومناظرات ولذلك تتضح كراهية الضابط للمثقف والسياسى المعارض فهم يضمرون كراهية واحتقارا للمثقفين، وللثقافة، أحد الضباط قال لى (فى مقابلة تشبه مشهدا جمع آل باتشينو مع روبرت دينيرو فى فيلم "heat" إن المثقف فى

مفهومه هو الرجل الذى يلبس «صندل» فى الشتا وأسنانه سوداء من السجائر وأظافر أصابعه وسخة)

الحقيقة أن أسوأ ما فى الساحة السياسية المصرية أننا فقدنا الدهشة فلم نعد مندهشين من تعامل وعمالة أطراف سياسية وحزبية وصحفية مع المباحث ولم يصبح الأمر مستغربا أو مستنكرا أو مرفوضا ومذموما، الكل استسلم لسيطرة ونفوذ وهيمنة أمن الدولة على الجسد السياسى (نعم أقصد الإيحاء بالاغتصاب!)

ما الحل ؟

كلما عرضت وحللت مشهدا فى حياتنا المصرية سألنى كثيرون وما الحل ؟

أظن أن تفكيك جهاز أمن الدولة هو الحل، فلا يمكن أن تتقدم مصر وتتحضر ويصبح هناك حراك سياسى أو حيوية أمة أو يقظة شعب وانتخابات حقيقية وأحزاب قوية وهناك من يراقب كل معارض ويعد عليه خطواته ويتجسس عليه ويفتح له ملفات ويسجل عليه أنفاسه، إذا كان المطلوب هو مواجهة الإرهاب فليتم استحداث جهاز أمنى لمكافحة الإرهاب وإذا كان المستهدف منع الأيدى الأجنبية من اللعب فى أحشاء العمل السياسى والإعلامى فهناك أجهزة المخابرات والأمن القومى، لكن أن يكون فى مصر جهاز مهمته مطاردة المصريين والتحكم فى وجهات نظر المعارضين ومصادرة الكتب وإغلاق الصحف وضرب الأحزاب وتدميرها وتعيين أساتذة الجامعات والسيطرة على العمد والعمداء فهذا معناه أننا نعيش فى نظام بوليسى فاشٍ.. وغير كده يفتح الله!

مجرد رئيس

أسوأ ما حدث لمصر فى الخمسة وعشرين سنة الماضية أن تحول الرئيس إلى نبى أو ولى لا يجوز نقد سياسته ولا محاجمة قراراته ولا الطعن فى صوابها ولا انتقاد مواقفه ولا تفنيد تصريحاته ولا كشف تناقضات كلامه ولا المواجهة والمكاشفة مع أى من قراراته ولا مواقفه، استطاعت الجوقة الحاكمة بقيادة صفوت الشريف وزكريا عزمى فى تكوين سحاب وحجاب حول الرجل وقراراته بحيث يتحول الرئيس عند الجميع إلى كائن مقدس، منزل من السماء ومنزه عن الهوى، وصار مبارك محصنا عن أى نقد أو نقاش أو رفض أو جدل وهو ما لايوجد فى أى مكان فى العالم سوى فى الدول الديكتاتورية، فالولايات المتحدة الأمريكية نقد ومعارضة بل والهجوم على الرئيس الأمريكى بشخصه وبصفته متاحا مباحا فى المقالات والتليفزيونات والكتب فضلا عن مجالس النواب والشيوخ والأحزاب، الأمر نفسه وعينه فى فرنسا وألمانيا وإنجلترا وحتى روسيا على مافيها من مخابرات تحكم، كل العالم المتقدم والمتطور من حقه أن ينقد ويهاجم رئيسه بسياساته أو تصرفاته وتصريحاته ولهذا يتقدم العالم بينما نتأخر نحن، فيما عدا الصين وهى تقول عن نفسها ديكتاتورية، دلنى على دولة واحدة مستبدة ورئيسها فوق النقد قد وصلت لتقدم اقتصادى أو رفاهية مجتمع أو معيشة كريمة لمواطنيها، العكس تماما الدول الصناعية التى تتصدر العالم فى التصنيع والتصدير والتكنولوجيا وفى القوة العسكرية والاقتصادية هى الدول التى يتمتع فيها المواطن والصحفى والسياسى بحق مواجهة الرئيس ونقده والهجوم على أفكاره وآرائه، أما الدول التى تجعل رئيسها مفديا ومعظما وملهما وفوق النقد والحساب فهى موجودة فقط فى العالم المتخلف ولا تتقدم سياسيا ولا اقتصاديا وتتصدر دول العالم فى الفساد!

وبالذات فى كوريا الشمالية وروسيا البيضاء وعراق صدام وليبيا القذافى وسوريا الأسد وعندنا فى مصر وقد شاركت المعارضة فى هذه التمثيلية ببطولة رئيسية، فالذين هاجموا الرئيس الراحل أنور السادات وعايروه بلونه وزبيبة جبهته (وهى أمور مشرفة فى الحقيقة) والذين كتبوا فى مجلات السعودية والعراق ومنظمة التحرير وليبيا يلعنون السادات ويتهمونه بالخيانة (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولوا إلا كذبا فلا أحد يملك اتهام أى مصرى أيا كان بالخيانة) عاد هؤلاء لمصر بنفس سياستها السقيمة ونفس استبدادها الملعون ونفس تطبيعها مع العدو الصهيونى ومع ذلك صاروا رجال عهد مبارك وكبروا وهللوا له ولسعة صدره ولديمقراطيته، رغم أن شيئا لم يتغير بمليم عن سابقه اللهم أنهم صاروا رؤساء أحزاب وصحف وأعضاء فى مجالس عليا وكتبة فى صحف الدولة وشعراء فى معارض الكتاب، أى تقاسموا التورتة ونالوا نصيبهم من الغنيمة مصر (للصدفة كان الخليج والعراق وليبيا ومنظمة التحرير قد توقفوا عن تمويل المعارضة المصرية وتصالحوا مع مبارك ومنعوا الهجوم عليه وعلى سياسته واختفت الدولارات والدينارات والريالات فأصبح الولاء لمبارك ضرورة سياسية وأكل عيش أيضا).

من يومها بتخطيط من صفوت الشريف وبفجاجة مذهلة من سمير رجب الذى كنت تخلط حين تقرأه هل هو يقصد النبى محمدا أم الرئيس محمد حسني؟ وبعزف مشترك من رموز الحكم والمعارضة خرج الرئيس من المعادلة وأصبح فوق النقد والمساءلة والمحاسبة المعنوية والأدبية والسياسية وصار لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يرد أحد على قراره ولا يمل أحد من الكلام عن حكمته، وصار التفخيم والتعظيم فى مبارك هو الشرع والمنهج، والاحتفاء بعيد ميلاده وعيد توليه الحكم واجبا وطنيا «مطلوب من كل مصرى ومن كل مصرية على رأى الأغنية» وأسبغ عليه الإعلام صفات الزعامة والبطولة وصار كل ما يقوله تاريخيا وكل ما ينطق به صوابا ولأن الجميع يخطئ إلا الرئيس والجميع يتم نقده إلا الرئيس، وكان وزير الإعلام يقول لرؤساء التحرير فى الحكومة والمعارضة معا: قولوا ما شئتم فنحن فى عصر الحرية لكن لا تقتربوا من الرئيس وأسرته.. وبالزمن

أضيف صفوت الشريف وزكريا عزمى على قائمة المحرمات، وحين يكون المعارض شديدا غليظا فإنه لا يهاجم الرئيس أبدا بل يهاجم اللى حواليه، كأنه لا يمكن أن يخطئ "الرئيس هوه بس ما حدش قاله الحقيقة"، ثم يلتمس المعارضون الأشداء التدخل من السيد الرئيس الذى لن يرضيه هذا القانون أو ذاك، وإذا تدخل الرئيس فتبدأ آيات الشكر والحمد من المعارضين ثم تراتيل وترانيم وصف الحكمة والعظمة الرئاسية من هؤلاء أنفسهم الذين أصدروا القرار الذى ألغاه الرئيس، ورغم ما فى هذا الأمر من طرافة خطرة حين نرتضى أن نشكو للرئيس كأنه لا يعرف ماذا فعل رجاله وهو ما يشير للبيب أنه والحال هكذا لا يدرى بما يجرى حوله أو أن من حوله قادرون على تنفيذ أمور من ورائه أو بغير علمه وهو ما يتنافى مع أوصاف الاكتمال والاشتمال اللذين يلحون عليهما فى مدح الرئيس، ومع ذلك فإنه لايدرى بما يجرى كان أفضل عند مؤلفى هذه المسرحية من أن يتم نقد قراره مباشرة!!

وكنا فى معركة قانون الصحافة الغاشم والغبى الذى ثار ضده الصحفيون عام (١٩٩٥ فجاء قانون أغبى منه وأكثر غشما) نسمع الشيوخ والعقلاء إياهم من أهل مهنتنا يقولون: يا جماعة بلاش ضغط لازم برضه نسيب مسافة ولا نحرج الرئيس ونقول إنه هو الذى أصدر القانون، إحنا نقول أعداء الحرية والصحافة ونلجأ له فيصبح هو المنقذ وكأنه ليس صاحب القانون أصلا، وتم هذا السيناريو الرديء على مدى سنة كاملة حتى ألغوا القانون ولكنهم جاءوا بقانون يحبس الصحفيين وحبسهم فعلا.. وهو ما يسعى العقلاء والشيوخ وحكماء الخيبة بنفس السيناريو للالتماس من السيد الرئيس لإلغاء القانون الذى يوم أقره الرئيس شكرناه كلنا ورقصنا فرحا به واعتبر الصحفيون أنفسهم قد كسبوا!، شفتم إلى أى مدى من المأساة يمكن أن نصل بسياسة اللف والدوران وتقديس الرئيس وتنزيهه عن أى خطأ!

ويجد المرء نفسه أمام أزمة ضمير حقيقية حينما نصرخ مطالبين بمحاكمة يوسف والى على سياسته الزراعية التى أدت بنا فى داهية وجعلتنا نعيش أزهى عصور

السرطان والمبيدات، وأجد كتابا وصحفيين يطق لهم عرق وهم ينتفضون مطالبين بمحاكمته بينما لم يسأل أحد نفسه، طيب والذى عين يوسف والى والذى أبقاه فى الوزارة كل هذه السنوات والذى كان يمتدحه ويشكره والذى كان يدافع عنه أمام أى هجوم والذى صدرت فى عهده أحكام حبس الصحفيين الذين انتقدوا يوسف والى والذى كان يرفض رحيل والى مترا عن الوزارة والذى والذى والذى.. لماذا لا نسأله ولماذا لا نسائله؟ كأن يوسف والى كان خاطفا لوزارة الزراعة ومعلنا استقلالها عن مصر ورئاسة مصر!!

وحينما نتحدث عن نهب القطاع العام ونهاجم عاطف عبيد ونقول: إنه خرب مصر.. ألا يستحق الأمر أن نسأل ومن الذى جاء بعاطف عبيد وأجلسه على أنفاسنا ومنحه مصر خضراء مقشرة؟!

وعندما نتكلم عن أحمد نظيف وسذاجته السياسية وانعدام شعبيته والأوهام التى يقولها وانحيازه السافر للأغنياء وعن طوله الفارع باعتباره الميزة الوحيدة الظاهرة له، ننسى أن نسأل وهل فرض نظيف نفسه علينا وهل هبط بالبراشوت من كندا؟ لماذا لا نسأل ونسائل الذى عينه ووضعه على هذا الكرسي؟

إن أهم الدروس التى كان عليه أن يتعلمها خلال انتخابات الرئاسة الماضية هو نزع القداسة عن الرئيس والتعامل معه على أنه بشر مثلنا، يصيب ويخطئ وليس ملهما ولا ربانيا، وأننا يمكن أن نقول له لا وأنك أخطأت وصحح خطأك أو أننا غير راضين عنك أو أننا نصوت لغيرك فهو أفضل منك من وجهة نظرنا، ليس مهما من يكسب، مبارك أو غيره، المهم أن تكسب مصر نزول رئيسها من مصاف الفراعنة والأنبياء إلى مصاف البشر فلا يوجد نبى منتخب ولا يوجد فرعون نصوت له فى صندوق الانتخاب، أصل الداء فى مصر هو تقديس الرئيس وهو ما سيحاسب الله عليه كل يد وفم ولسان شارك ويشارك فى تقديس الرئيس وسوف يلقى كل آثم غمسا وغرسا فى نار جهنم من رب منتقم جبار، وأصل الدواء فى مصر هو بشرية الرئيس وعاديته، إنه مواطن بصلاحيات رئيس جمهورية وليس ملاكا خطف رجله من السماء لزيارة أهل الأرض، أعرف أن هذا حصل مع

عبدالناصر والسادات قبل مبارك لكن الوقت طول قوى مع الأخير إلى حد أن صدق الناس أنه لا يمكن أن يتم نقده ولا ترد إرادته ولا تنفض دورته، وأعلم أنه لا معنى فى مصر التى تعبد حكامها وتفرعنهم لانتخابات رئيس بدون تحديد مدة الرئاسة حتى لا يصبح حاكما للأبد فوحدهم الأنبياء الذين لا تنتهى مدتهم أبدا!!

قرنـــــى

لماذا يصر الشعب المصرى على التعامل مع مبارك على طريقة اللى يجوز أمى أقوله يا عمي؟

لماذا يبدو الشعب مستسلما رخوا ومائعا أمام حكم مبارك الأبدى الذى أوصل المواطن المصرى إلى ما هو فيه من ضنك وفقر وضيق ذات اليد؟ ومع ذلك هذا المواطن اللى طالع دينه وروحه لا يطلع فى المظاهرات ولا ينوى فى الغالب أن يطلع للجان الانتخابية ليقول لا لمبارك وينتخب أيا غيره!

أنا مستعد أسمع أغانى عن أصالة الشعب المصرى وتحمله وقدرته على الصبر وكل هذه الحجج البالية الرقيقة التى نسمعها مثل الشريط السافف، ومتأهب تماما للإنصات لنظريات يتكرم بها البعض علينا ويقول إن السبب فى استسلام وعبودية المصريين لحاكمهم هى سنوات البطش والقهر والقمع والخوف الذى صار طبيعيا وجزءا من جينات المواطن المصرى!

لكننى لا أظن أن هذا العبث النظرى له قيمة حقيقية الآن، فهذا الضغط الرهيب الذى يعانيه المجتمع وتلك الظروف الاقتصادية المروعة وهذه العيشة الزفت التى يحياها والبطالة المريعة التى يعيشها كل شباب مصر تقريبا والفساد الذى نراه ونشمه ونتحسسه عند كبار المسئولين وعيالهم وتلك الأمراض الغريبة المنتشرة فى البلد الذى جعلت صحته معتلة مختلة، وتلك المبيدات التى أكلناها والتلوث الذى تتعفن معه مياه الشرب وكل هذا السواد إذا لم يحرك الملايين من أجل أكل عيشهم وصحتهم وحياة عيالهم فمتى بروح أمهم يتحركون؟!

الشعب المصرى مسئول قطعا عما آلت إليه مصر فالحقيقة أنك عندما تذهب للإبلاغ عن سرقة حدثت فى بيتك فسوف يسألك الضابط أول سؤال: هل

نسيت شباك المطبخ مفتوحا؟ هل أضعت مفاتيح الشقة من قبل؟

لابد إذن من ثقب فى الصالة تدخل منه الفئران.

لا شك عندى إذن أن هناك سببا آخر عميقا وقويا هو الذى يجعل من المجتمع المصرى شياطين خرسا، ساكتين عن الحق، معميين عن النظر للظلم، مشلولين شللا رباعيا عن الحركة، وهذا المجتمع يحب أن يظهر يائسا كى يبرر عجزه ويتظاهر بالسماحة كى يخفى جبنه ويتطرف فى التدين كى يدارى انحرافه!

الحقيقة أن حكم مبارك منذ اللحظة الأولى لتوحشه الناعم فى منتصف الثمانينات تحول إلى ما أسماه دكتور جمال حمدان فى كتابه الأخطر (شخصية مصر) بالعصابة الحاكمة، يقول حمدان (لسوء الحظ أكثر عرفت مصر غالبا العصابة الحاكمة - ولا نقول أحيانا الحثالة الحاكمة - بمعنى عصبة مغتصبة تستمد شرعيتها من القوة غير الشرعية، ومن هنا فلئن كانت مصر الطبيعية حديقة لا غابة فقد كانت على العكس بشريا غابة لا حديقة، وإن كانت زراعيا مزرعة لا مرعى، فقد كانت سياسيا مرعى لامزرعة للأسف، وبالتالى فكثيرا ما كانت مصر إلى حد بعيد حكومة بلا شعب سياسيا وشعبا با لا حكومة اقتصادية).

هذه اللحظة التى وصلت فيها مصر إلى المنحدر الكبير وهو تحويل مبارك من رئيس فوجئ برئاسته إلى زعيم مدشن من منافقيه ومؤلّه من المنتفعين بفرعنة الحاكم ثم بدأ تخلى مبارك عن شعوره ببشرية الرئيس إلى استمراء واستمرار واستقرار إحساسه بقدسية الرئيس وهو ما تراه مكتوبا على مصر كما يشرح جمال حمدان (وهذا ما يصل بنا فى النهاية الى ذروة النظام وذروة المأساة أيضا، لقد كانت مصر أبدا هى حاكمها وحاكمها هو عادة أكبر أعدائها وأحيانا أشر أبنائها، وهو على أية حال يتصرف على أنه "صاحب مصر" و"ولى النعم" أو" الوصى على الشعب القاصر الذى هو عبيد إحساناته " وظيفته أن يحكم، ووظيفة الشعب أن يحكم بضم الياء، وأن الشعب الأمين هو شعب آمين، والمصرى الطيب هو وحده المصرى التابع الخاضع، إن لم يعتقد حقا أن المصرى لا يكون مصريا إلا إذا كان عبدا أو كاد.. شخصية مصر صفحة ٥٧٧الجزء الرابع).

لكن جمال حمدان لم يصل إلى ما وصلت إليه العقلية الحاكمة منذ منتصف الثمانينات فلم يكن كافيا أن يكون الشعب خاضعا وعبدا، والرئيس فرعونا بل أدرك النظام أنه لا يمكن أن يستكين شعب ولا تخضع أمة لحاكم إلا حين تشارك الناس فعليا فى فساد الحكم، فالشرفاء - حتى لوكانوا عبيدا - لا يمكن أن يتحملوا فساد رؤسائهم، والمحترمون -مهما كانوا جبناء - لا يمكن أن يتحملوا انحراف حكامهم، فكان لابد من جعل الشعب مكسورة عينه وممسوكاً عليه ذلة، وفى الوقت الذى انفتح فيه فساد الدولة على مصراعيه تركوا باب فساد وإفساد الشعب مواربا، فلا يمكن لمرؤوس أو موظف يرى مديره مرتشيا ويسكت فإما ينضحه أو يرتشى مثله أو يقسم معاه، وبذمتك ودينك كم مرة رحت تخلص حاجة فى مصلحة حكومية ورفض الموظف أن يرتشى منك «بخمسة جنيه» فقط وقال لك: هى دى فلوس، ثم دى مش لى لوحدى، إحنا كله بيقسم هنا واللقمة واكلها كتير!

هنا تتجلى عبقرية إفساد الشعب من أجل إسكاته عن فساد الحكم!

قرر الحكم أن يتغاضى عن الفساد والرشوة حتى صار قاعدة حياة ومنهج بلد بكامله، فلا يمكن أن تفعل شيئا فى مصر بدون رشوة، بل و أطلق المواطن المنافق على الرشوة كلمات بديلة مثل الحلاوة بتاعتنا، وإحنا فين عرقنا يا بيه؟ وفين الشاى يا باشا؟ (أقترح أن نحرم الشاى دينيا من كثرة ما أصبح مرادفا للرشوة)، ليست الرشوة فى المصالح الحكومية الصغيرة فقط بل فى كل مراكز الدولة من العدالة (ويالهوى على بلد يدخل أهل تطبيق العدالة السجن بتهمة الرشوة!) وحتى الجامعات والمدارس وكليات الشرطة وغيرها وطلبات التوظيف، بل والتوزير أيضا!

كل شيء طالته الرشوة ووصلت إليه إتاوات الفساد والإثراء غير المشروع، وصار كل هذا عاديا وغير مستغرب ولا مستنكر، ألا تتذكر معى خطبة لمبارك قال فيها: «إن عساكر المرور بياخدوا فلوس من أصحاب العربيات أصلهم غلابة ح يعملوا إيه؟ تخيل لما حاكم الدولة فى خطبة يقول غلابة ح يعملوا إيه؟!».

وخذ عندك خطة مدبرة ومنظمة ومافياوية تماما لإفساد الشعب نفسه، تركوا الناس تحل مشاكلها المالية باللف والدوران والسرقة الناعمة والرشوة المقننة والمقنعة، وتركوا أساتذة الجامعات والدكاترة والموظفين الكبار يورثون أولادهم حتى لا يملك أحد شجاعة رفض التوريث بل ويكون القبول به طبيعيا، ثم أغرقوا الأحزاب فى الفساد وتركوا زعاماتها تغرق فى الإغراءات والهبات حتى إن الدولة تعرف كل حزب وكل زعيم وكل صحفى قبض من العراق أو ليبيا أو السعودية ولم تقترب منهم بإصبع لأن فساد هؤلاء يقوى فساد الحكم ويقتسم معه اللعبة، حسيبك تقبض من صدام أو القذافى بس ما لكش دعوة بما أفعله أنا فى البلد، حتى إن دولا نفطية كانت ترشو رجال الحكم والمعارضة فى نفس واحد، وأصبح الشعار ما تعمل قرشين لعيالك أحسن، وتحولت مصر إلى أكبر منطقة تواطؤ بين الشعب والحكم، كل طرف سايب التانى يسرق بمعرفته وكل واحد وشطارته وكل برغوت على قد دمه.

كل مصلحة حكومية الرشوة تتقسم فيها من المدير وحتى الفراش، ولا يقدر نشال على أن يعترض على فتاح خزن ولا يستطيع أمين مخزن مختلس أن يفتح عينه فى مدير مشتريات حرامى، كل مدرسة الدروس الخصوصية تتظبط فيها بين المدرسين وكل واحد يا خد نصيبه، الجامعة قتة محلولة تتفتح أمام الأساتذة أبواب الدروس الخصوصية والكتب الجامعية والأقسام اللى بفلوس ومراكز الأبحاث الممولة والمكافآت المفتوحة والرشاوى المباشرة، وكل مؤسسة صحفية متروكة ميغة وفتة كوارع لرئيسها ورجاله ونسوانه وملايين تبعثر وعمولات تتلم وبدلات ومكافآت وبلاوى سودة ما يعلم بيها إلا ربنا، وأحزاب تنطلق تحت رعاية الدولة فى التمويل من الدول النفطية والثورية والتهليب الحزبى بل والتجارة فى فيزات الحج (أكثر من كده إيه!) وضباط البوليس يتحصلون على إتاوات ويشاركون بنفوذهم فى مشروعات تجارية أو نصيب من السرقات الكبرى ولا أحد يسأل ضابط بوليس فى قسم جايب حضرتك كل ده منين؟، ثم لن أضيف كلمة عما تعرفه عن جهات مفترض أنها رفيعة وحساسة، وماذا جرى فيها لإخماد جذوة

الشرف والغضب فى عروقها؟، وطبعا حضرتك عرفت بنفسك ما جرى فى ساحات العدالة من أمور كفيلة بضياع وطن! وبدا الحكم قد نجح تماما فى جعل الشعب فى نفس قيم وأخلاقيات وسكون وتواطؤ ونعومة قرنى!!

طبعا تعرفون قرنى!

هنا جوهر الأزمة فكيف تطلب من شعب امتلأت بطنه بالمال الحرام أن يحاسب حكما على فساده وماله الحرام؟

وكيف نطلب من متولى أن يغسل عاره ويقتل أخته شفيقة بينما متولى يعمل فى نفس الكباريه؟

ولأن قرنى هو قرنى فهو لا يستطيع أن يغضب من أجل شرفه فساعتها سوف يصرخ فيه الحكام: جرى إيه إنت نسيت نفسك يا قرنى!

خطورة أن تكون مصر under control

كم مرة حدث لك هذا الموقف؟

تقترب من قفص عصافير، تفتح باب القفص، تنتظر أن تطير العصافير، فلا تطير، تمهل قليلاً تتنهد لحظة، ثم تستغرب أنها لا تطير خارجة من حبسها، فتهزها فى القفص حتى تخرج، فلا تتحرك، قد تنتقل من زاوية فى القفص إلى أخرى، لكن العصافير لا تخرج، لا تستطيع أم أنها لا تريد أن تخرج من حبسها؟ من زنزانتها؟ ساعتها سوف تبدأ أنت فى الضيق والنرفزة، فتدخل بيدك وتضرب بأصابعك العصافير لعلها تحس على دمها وتطير خارجة من باب القفص، لكنها سوف تنكمش وتتراجع وترفض أن تطير..

بعد دقائق سوف تزهق، وتجلس فى ركن الغرفة وأنت تحملق فى باب القفص المفتوح معتقداً أن العصافير حين تشعر بالأمان ستطير حرة طليقة، لكن الملل سوف يقتلك وأنت ترى العصافير ساكنة مكموشة فى القفص.. لا تخرج.. ولا تستطيع أن تطير هاربة أو حرة، ولا تريد أن تحلق خارج الحبس والسجن.. كثيرون من مروا بهذا الموقف، وصل بهم الغضب والحنق على العصافير التى ترفض الحرية، مبلغ أن قاموا من مقاعدهم واتجهوا سراعا خفافاً وأغلقوا بأنفسهم القفص مرة أخرى بالضبة والمفتاح ولعنوا سنسفيل العصافير..

هذا الموقف ليس حكاية للأطفال «وإن كان يمكن أن يكون كذلك فعلاً!» ولكنه رد - واقعى ويومى وبديهى - على الذين يقولون إن الناس سوف تنتخب مبارك رئيساً وأنها ترفض الديمقراطية -بشكلها الغربي- وتأبى الضغط الدولى على رئيسها وحزبه وحكمه من أجل حرية هذا الشعب وديمقراطية هذا الوطن..

الحاصل الآن أننا أمام فرعون يحكم وأذاتيه قارون وهامان، انظر ماذا فعل

المليونيرات وأصحاب المال والفلوس ورجال الأعمال لحسنى مبارك من مبايعات وتمويل وإعلانات ودعايات.. لتعرف أنه لا يوجد فرعون فى العالم بدون قارون، الممول والمستفيد من نفوذ فرعون «وقراراته وقوانينه وتسهيلاته وقروضه..» قارون العصرى الذى يشتد وجوده ويرتفع حضوره فى عالم السياسة والانتخابات الرئاسية، قارون وقد تم فكه بقارونات صغيرة، يدعمون حكم الرجل الذى يمكن إذا سقط أن تسقط معه دولتهم المالية وثراؤهم المتضخم واستقلالهم المتوحش واحتكارهم المنتفخ، ومن ثم فإن «قارونات» الاقتصاد المصرى هم أكثر الناس مصلحة فى إمداد مبارك بالمال والدعم والتبرع حتى تبقى هذه الدولة الفاسدة التى يرتع فيها أصحاب المال وحزب الساحل الشمالى ونادى المليارديرات.. إن الفساد - كما يعرف خبراء الاقتصاد- طارد للرأسمالية الحقيقية وجاذب ومرتع خصب للرأسمالية الفاسدة المتسلقة المنتفعة بالرشوة والسمسرة والتلاعب بالقوانين والتقسيم مع الساسة ورجال الدولة، انظر كم ابن مسئول، رئيس أو وزير يعمل شريكاً أو وسيطا لملياردير أو رجل أعمال؟!.. تأمل تحالفات المال والسياسة فى مصر لتثق أن قارون هو ذراع فرعون اليمنى.

ثم لابد لفرعون من هامان، الكاهن الذى يتاجر بالدين والمعرفة والكلمة حتى يستمر حكم فرعون أبدياً ونهائياً وسرمديا ووراثياً، وهامان عصر الفرعون المباركى، هم رجال الدين والإعلام والثقافة، والحقيقة أن مبارك نجح بالفعل - عبر ٢٦ عاماً - من إدخال كثير من المثقفين إلى حظيرته «النهيق والنعيق، الرائحة العطنة أقل سوءات هذه الحظيرة» فضلاً عن اختراق جهاز أمن الدولة للعمل الصحفى بشكل مروع ومذهل، فعلى مدى عمرى الصحفى «٢١ عاماً» شاهدت وشهدت على أكبر عملية اختراق مباحثى وأمنى للصحافة المصرية، نجح خلالها جهاز أمن الدولة فى السيطرة على مقاليد الصحافة فى معظم مؤسسات الصحف الحكومية وغير الحكومية، وصار اتهام الصحفى بأنه مباحث شرفا يقربه من المسئولين ويصعد به إلى قمة قيادة المؤسسات الصحفية، ولاشك عندى أن حالات التجسس وكتابة التقارير والتنصت على الصحفيين من زملائهم كانت

الأوسع والأفدح فى الستة وعشرين عاماً الأخيرة، وتمكن فرع الصحافة بجهاز أمن الدولة من اختراق الصحافة تماما ونجحوا فى وضع رجالهم -وهم كثيرون- فى مقاعد السلطة والنفوذ وأداروا من خلالهم أبشع عملية غسيل مخ للمواطن المصرى وزيفوا الرأى العام ودنسوا هذه المهنة بالعمالة الواضحة الفاضحة لأهداف ومؤامرات ومخططات أجهزة الشرطة والتى تركت معظم هؤلاء الصحفيين يفسدون ويرتشون ويغتنون بشكل غير شرعى، حيث يكمل فسادهم عمالتهم..

نجح النظام إذن فى عصر مبارك فى تجنيد كلاب حراسة من كل صنف وشكل، لكن نجاحه الأكيد -والمبهر- فى ضم مجتمع المال والصحافة إلى الفريق الأمنى لحراسة السلطة.

وكنت قد بحثت على مواقع الإنترنت عن كلمة «كلاب الحراسة».. فى محاولة تأصيل جذورها وفهم منشأها ففوجئت أن هذا التعبير منتشر انتشاراً مذهلاً على ألسنة العرب خصوصا المثقفين المعارضين والمحبوسين والمنفيين فى ومن أوطانهم، الأمر يشى بما يجرى فى الوطن العربى -عموماً- من إحكام السلطات لقبضتها على عنق الناس من خلال مندوبيها وموظفيها ورجالها من كلاب الحراسة، تلك التى يتم تربيتها فى القصور أو شراؤها من الحظائر لحراسة الأملاك ودوائر النفوذ بالنباح والعض وافتراس أى شخص يفكر فى اقتحام الخصوصية وإسقاط الهيبة.

لكن أخطر كلاب الحراسة هى الكلاب المخلصة أو المصدقة لنفسها -ولنباحها- والتى تظن أنها تؤدى مهمة مقدسة حتى إن بعضهم يتصور نفسه ليس كلب حراسة بقدر ما هو كلب أهل الكهف(!!)

ولم أتحدث عن رجال الدين فى مصر كجزء من المشهد «الهاماني» المحيط بمبارك، فيكفى أن نعرف مدى التورط -المزري- للشيوخ فى قصص انحرافات شركات توظيف الأموال، ثم هذه التورطات الأخلاقية لكثير من شيوخ التليفزيون والفضائيات وهو ما يذكرك بفضائح قساوسة الشذوذ فى الكنيسة الغربية الكاثوليكية لكنهم -هناك- يتحدثون عنها ويواجهونها ويحرمون القساوسة

ويغيرون القوانين، لكننا هنا نكتم هذه الفضائح، كثير منها مدون فى محاضر رسمية حتى يحكموا السيطرة على هؤلاء الشيوخ بل وبعضهم مدان بشرائط فيديو سجلت الدقائق والتفاصيل المخزية وهم فى العادة نجوم الفتاوى المسموح لهم بالظهور والذيوع، فضلاً عن شيوخ آخرين داخل المؤسسة الرسمية للدولة محكومين بولاءاتهم للأجهزة الأمنية «نعم والله العظيم» أو مربوطين بنهمهم المالى والمادى وشرائهم الدنيا بالدين.. فالحاصل أنك قد تعثر على رجل دين مستقل ومحترم بصعوبة تجعل النكتة الشهيرة بأن رجلاً أراد الزواج بامرأة فى الجنة فقضوا شهراً للبحث داخل الجنة عن شيخ يعقد قرآنهم، نكتة معبرة ومنطقية (..)

ويبدو أن الشعب المصرى يفهم منذ قديم الزمن رجل الدين وعلاقته الوطيدة والمتينة بالسلطة وخدمتها فجعل لقب الشيخ متاحا مباحا لاستخدامه مع رجالات الموسيقى والطرب والمهن والحرف(!!)

اكتملت الحلقة التى تمكن نظام مبارك عبرها وبها من السيطرة على البلد حتى أن الناس وصلت إلى مرحلة الرضا بالديكتاتورية والقبول بالاستبداد والوقوف مع مستغليهم والدفاع عن مصاصى دمائهم، وهو ما يجعل نجاح مبارك فى انتخابات الرئاسة القادمة «وهى على كل حال مسرحية فارغة وهزيلة كلنا نعلم مدى رداءة تأليفها وسذاجة إخراجها» أمراً قائما واحتمالاً مؤكداً، ورغم الولع الطفولى الذى ينتاب كثيراً من أمانة السياسات بالحزب الوطنى بهذه المسرحية وروح الكرنفال الذى اخترعه جمال مبارك وشركاه، فإنهم يغضبون كثيرا على من يفسد عليهم الـ«بارتي» فقد تعودوا -حتى وهم يمثلون الديمقراطية- أن يخضع لهم الناس ويمشى وراءهم جميع القطيع، فمصر كلها -من وجهة نظرهم- تحت السيطرة أو under control هكذا يحب نطقها رجال النظام المصرى، وإذا لم يكن بالولاء المالى والمادى يكون بالتورط فى الفساد والرشوة، إذا لم يكن بالطموح للمناصب والرغبة فى الصعود الوظيفى يبقى بالرعدة والرجفة من سلطة النظام وغشومة الحكومة، يفتخر رجالات حكم مبارك بأن البلد كلها under control ليس أدل على ذلك من الصمت الشعبى والخرس الجماهيرى أمام الفساد والاستبداد

والبطالة والفقر بل ودليل تحشيد الجميع ضد الضغط الدولى من أجل الديمقراطية، وأيضا تعبئة قيادات الأحزاب الواطئة للترشيح فى انتخابات الرئاسة، وثم زفات المبايعة وزفاف الفساد الذى نراه كل يوم على السلطة ورجالها، ومن هنا يأتى الفزع الأمنى والغريب والاستنفار الحاد لهمة -وهبهبة- كلاب الحراسة كلما اكتشف النظام أن هناك شخصا يقول ربى الله ويقاوم الباطل، من هنا تجد الحرقة الساخنة من كلاب الحراسة ضد حركة كفاية، ضد تيار الإخوان المسلمين، ضد التجمع من أجل الديمقراطية، ضد أى سياسى أو كاتب أو مفكر يقول لا لمبارك حادة وواضحة وجارحة.

والمخجل أن الفرح الحكومى الذى يتخلله رقص شرقى ملتهب فى الصحف الحكومية والإعلام الموالى «إعلام الجواري» بمبارك وانتخاباته «وليس انتخابه» يكشف عن قصور شديد فى الوعى السياسى «وحتى فى الوعى الانتهازي» لرجال الحكم من فرعون وهامان وقارون وكلاب حراستهم وحراس كلابهم، فالنجاح -القادم- لمبارك سوف ينتهى بمأساة سياسية للوطن.

كيف ؟

هكذا..

١- سينتهى أمل قطاع مهم من المجتمع المصرى «ولو كان ضئيلاً.. ولو كان ضعيفاً» فى قدرة الديمقراطية على التغيير السلمى، وسوف يكفر الناس بالديمقراطية ويعتبرونها فيلماً ومسرحية وضحكا على الذقون.. ومن ثم يتم استبعاد الحلم الديمقراطى من الوعى الوطنى.

٢- سيبرز إحساس هائل باليأس عند أفراد وتيارات وجماعات «ليست بالضرورة» جماعات دينية - بأن العنف هو البديل وأن مواجهة هذا النظام الغاشم الذى يسعى للتأبيد فى الحكم عبر مبارك أو توريث الحكم -عبر ابنه جمال- لا يمكن مقاومته بالديمقراطية السلمية بل لابد من السلاح السرى ويشرع البعض فى حفر «أقبية» للعمل السياسى تحت الأرض وكل ما هو تحت الأرض يلجأ دائما إلى العنف والدم.

٣- مع انسحاب الأمل فى التغيير السلمى الديمقراطى سيتجه الكثيرون من راغبى التغيير إلى الرهان على التيار الإسلامى والذى ستكون ساعتها جماعة الإخوان المسلمين هى أخف الأضرار وأقل الخسائر تحول دون اللجوء إلى جماعات التكفير الدينى والتخوين السياسى والاغتيال الدموى.. ومن ثم يكون النظام -الذى عاش للحرب ضد الإخوان- هو أقوى مورد للجماعة من كوادر وأنصار ولاجئين يائسين.

٤- سينتصر الشكل على المضمون، سيفوز ديكور الديمقراطية ويتراجع مضمون الحرية والديمقراطية الحقيقى وهذا سيجعل الوطن -أكثر مما هو فيه- ينتصر للشكل على المضمون، ويتفوق المظهر على الجوهر، سواء فى الدين حيث المظاهر والطقوس أهم -عند المصريين- من التدين الحقيقى، أو فى السياسة والاقتصاد وشتى شئون الحياة، سيكون عندنا شكل برلمان لكن ليس برلمانا، شكل أحزاب لكن ليست أحزابا، شكل حكومة لكن ليست كذلك، شكل صحافة لكن ليست صحافة، شكل شرطة، شكل تعليم، شكل اقتصاد، شكل جنود، شكل رجالة، شكل وطنى.. لكنه ليس كذلك!!

مبـــــــــارك بشــــــــــر!

هل يبدو واضحا لكم أننى أكره الرئيس مبارك؟

غريبة جدا، لقد واجهت على مدى الشهور الماضية سؤالا ملحا ومكررا: لماذا تكره الرئيس مبارك بهذا الشكل الذى يبدو شخصيا؟

وقد فوجئت بالسؤال كما فوجئ كل من جاوبتهم، أنا لا أكره الرئيس مبارك إطلاقا، لا بشكل شخصى ولا بشكل غير شخصى، أولا هو أكبر سنا من والدى فلا شئ يجوز شخصيا أبدا فضلا عن أننى لم أعرفه عن قرب (وأكتفى بالبعد) وليس من طموحاتى أن أتعرف على سيادته شخصيا ومؤكد أنه ليس من اهتماماته قطعا، ثم ثانيا لقد دربت نفسى (وهو أمر لو تعلمون عظيم) على ألا أكره أو أحب فى السياسة، فالمشاعر العاطفية فى العمل والبحث والكتابة السياسية ترهق وتضعف (شأن كل العواطف!) كما أن الحب مثل الكراهية تماما يعمى ويصم، فأنا لا أكره الرئيس مبارك ولا الرئيس عبدالناصر ولا الرئيس أنور السادات ومع ذلك فأنا لا أحبهم أيضا فأنا لا أحب الفراعنة وإن كنت أحب آثارهم!!

المحصلة أن المعارضة الحادة الجادة التى نخوضها ضد مبارك ظنها البعض كرها شخصيا (صادر نظام مبارك لى روايتين وكتابا وأغلق جريدة الدستور فى إصدارها الأول وتسع جرائد أخرى لى لم يسمع عنها أحد ولكنه هو الذى عين حراسة أمنية على شخصى المتواضع لمدة أربع سنوات نتيجة وضع اسمى فى قائمة الكتاب المطلوب اغتيالهم من الجماعات الإرهابية..ولكن الحقيقة أن معارضتنا موقف وحكم على سياسة ومنهج وممارسات مبارك لرئاسة مصر ونحن نظن أن رحيل مبارك عن حكم مصر هو أفضل ما يمكن أن يقدمه مبارك لمصر وربما لنفسه، ويبدو السؤال

التالى حاضرا فى مواجهتى دائما: ألا ترى أى شئ إيجابى وميزة حقيقية للرئيس مبارك طوال الستة وعشرين سنة الماضية؟ وأنا أرد أن مجرد ذكر ست وعشرين سنة يهدم أى إيجابية فالحكم الأبدى الطويل كارثة على أى وطن ولا يوجد فى أى مجتمع أو دولة محترمة (أكرر محترمة!) رئيس مدى الحياة، إن استمرار مبارك على مقعد الحكم أربع دورات وعازما على الخامسة هو ما يجعل ومن اللحظة الأولى مبارك فى مصاف الحكام الأبديين من أمثال كيم سونج وولده وكاسترو والقذافى وحافظ الأسد، ولاشئ فى الدنيا يقتل وطنا ويجعل من شعب عبيدا وأقنانا قدر بقاء الحاكم للأبد فالبقاء للأبد بحكم الإنسانية والبشرية (ومبارك بشر رغم تأليه من حوله لشخصه!) ينمى الفساد والاستبداد ويجعل الحاكم فوق مستوى المساءلة والمحاسبة ويزرع اليأس فى قلوب الناس والعجز فى عقولهم ويصيب الأمة بالجمود والتصلب، فالخلود على العرش لله وحده والفرعون القديم والحديث ينازع الله فى خلوده، لكن دعنا نتوقف عند ما يظنه البعض مميزات لمبارك، مثلا: إنه رئيس غير دموى لم يلجأ لتصفية معارضيه وقتلهم كما يفعل الحكام الأشقاء الذين يحكمون الوطن العربى من المشارق للمغارب والحقيقة أن مصر نفسها ليست دموية فنحن شعب خنوع لسنا فى حاجة إلى سيف كى نخضع بل يكفى مجرد كرباج، وفينا بعض من جبن ورضاء وطاعة للحاكم واللى يتجوز أم المصريين فالمصريون لا يتورعون عن مناداته يا عمى، فنحن إذن لسنا دمويين ليحكمنا دموى، لكن كذلك إذا نظرنا للحكام المصريين منذ ثورة يوليه فلن ترى منهم دمويا لكن سترى ديكتاتورا، عبدالناصر أعدم معارضيه (خميس والبقرى وعودة وقطب ومات فى السجن شهدى عطية) وكذلك سجن وعذب، والسادات أعدم معارضيه المسلحين من جماعة انقلاب الفنية العسكرية و التكفير والهجرة لكنه سجن كذلك واعتقل، ومبارك حكم بقانون الطوارئ طيلة سنواته و فى سجونه عشرات الآلاف من المعتقلين فضلا عن إعدام العشرات بأحكام عسكرية غير قابلة للاستئناف بل هو صاحب أعلى رقم فى عدد المعتقلين وأكبر عدد فى الشخصيات التى أعدمها!! فضلا عن كثيرين ممن ماتوا قتلا على أيدى الشرطة سواء فى اقتحامات أو قبض أو

تحت التعذيب فى الأقسام والمعتقلات، وبالإضافة إلى ممارسة التعذيب بشكل منظم و يومى وعادى فى السجون والأقسام، من هذه الزاوية قد يرى بعضنا أنه رئيس غير دموى ولكن سياسته دموية!

وقد يتصور فريق من الناس أن أهم مزايا مبارك أنه لم يدخل بمصر إلى مغامرة عسكرية وسياسية ضاع فيها مصريون وأزهقت فيها ثروات؟

وهنا يجب أن نلفت الانتباه إلى أن الرئيس مبارك حين كان نائبا للرئيس كان هو المسئول السياسى عن ملف أفغانستان بمعنى أن ترتيب التحالف الأمريكى السعودى المصرى لتوريد وجلب الشباب ودعمهم ودفعهم للسفر إلى جبال أفغانستان كان مبارك فى قلبه تماما، ثم إن سفر الشباب المصرى زاد وتضاعف مع وصول مبارك للحكم وشهدت بداية الثمانينات وحتى ما بعد منتصفها أكبر نزوح شباب مصرى إلى معركة ليست معركته وإلى أرض حولته إلى شباب إرهابى مفخخ نفسيا وفكريا (وعددهم يصل فى بعض التقديرات والاجتهادات إلى عشرة آلاف شاب نصفهم تقريبا ذهب للموت وللسجن وللجوء سياسيا والتشرد الدولى) والحقيقة أنه يكفى حاكما واحدا مغامرة مثل هذه لتكون هديته المأساوية لشعبه والأمر يشبه حربا وتورطا لا لبس فيه عانت منه مصر إلى درجة مذهلة مع بدايات التسعينات بل وعانى منه العالم بأسره حتى الآن، ثم لا يجب أن ننسى مشاركة مصر فى الحرب على العراق ١٩٩١وشبابنا الذى ذهب لحفر الباطن وقد كانت مغامرة كاملة بهؤلاء الرجال والشبان لولا ستر ربنا الذى أنقذنا بغباء صدام حسين!

لكن أكثر ما يقدمه أنصار الرئيس مبارك ميزة له هو إنجازاته على مدى الستة وعشرين عاما وهو أمر يستدعى الدهشة فعلا فهل كان مفروضا أن يستمر الرئيس لستة وعشرين عاما ولا ينجز، وسبق وقلت إن صدام حسين أنجز وهتلر أنجز وكاسترو أنجز وكيم سونج وبنوشيه أنجز وقراقوش أنجز والحاكم بأمر الله أنجز!

المدهش أكثر أننى أقيس الإنجازات بطريقة أخرى وهى عدد الذين أصيبوا

بمرض الفيروس سى فى البلد، وأمراض السرطان والكبد والسكر والقلب والضغط ومواليد الأطفال المبتسرين والمشوهين، هل هذا العدد فى ارتفاع وتزايد محزن ومخجل أم فى انحدار وتراجع؟ قياس الإنجازات بصحة المصريين وكذلك بما يتعرضون له من تلوث فى الغذاء والماء والهواء (نحن من أعلى البلاد فى العالم فى نسبة التلوث) لقد زاد فعلا عمر المصريين كما يقول البعض فى عصر مبارك ولكن ما زاد من عمرهم قضوه فى مستشفيات الحميات والأورام وعند أجهزة الغسيل الكلوى، ثم هل زادت نسبة البطالة وهل ارتفعت نسب الانتحار؟، هذا هو مقياس الإنجازات عندى، ثم بفرض أن مبارك قدم إنجازات لم يقدمها إنس من قبله ولا جان فهذا لا يعنى بقاءه على الحكم كل هذه السنوات ففى أوروبا والدول المتقدمة أنجز ما شئت فإنك راحل عن الحكم بعد دورتين ويمكن دورة فقط بإرادة الشعب والناس والديمقراطية ومفيش فى الدنيا رئيس يقول: أنا قاعد على قلب البلد عشان إنجازاتى ولا فيه شعب عنده إحساس يهتف لحاكم «اقعد للأبد والنبى أحسن إحنا نضيع من غيرك» فهذا يبقى شعبا من التافهين والعيال والأرامل!

ثم تجد أهم أسباب التمسك بمبارك لدى البعض هو أننا عرفناه ومن ثم فاللى تعرفه أحسن من اللى متعرفوش وهى حكمة تليق فعلا بشعبنا الكريم وتضعها إلى جانب درره الميمونة من عينة ضل راجل ولا ضل حيطة، لكن المشكلة هنا أننا لا نعرف مبارك حتى نقول إنه أحسن ممن لا نعرفه، فهل تعرفون مثلا ثروة مبارك وحجم أمواله وممتلكاته وعقاراته وهل تعرفون ماذا يعمل أولاده علاء وجمال وفى أى وظيفة أو شغلانة وما هى حقيقة ثروتهما من بيوت وقصور وشركات؟ هل تعرفون كيف يتخذ مبارك قراراته ومن هم مستشاروه وهل تعرفون كيف يعيش؟ (وماذا يفعل فى الإجازة وهل هو زملكاوى أم أهلاوي؟) هل رأيتم طائرته من الداخل، بيته وسكنه؟ هل تعرفون أصدقاءه المقربين وأصحابه المفضلين ومن هم الذين كان يلعب معهم اسكواش وهل كان من الممكن أن ينهزم فى مباراة اسكواش يلعبها؟، هل تعرفون دخله السنوي؟ هل تعرفون حالته الصحية بالضبط؟ فى أصول الديمقراطية والشفافية من المفترض أن يعرف الشعب كل

هذه الأمور عن رئيسه حتى يقضى الرئيس مدته القانونية ويرحل ليصبح شخصا عاديا لا يجب أن ندقق فى حياته الأقل خصوصية، لذلك نحن لا نعرف الرئيس مبارك حق المعرفة، ومن ثم يسقط تماما المبرر المصرى الأصيل «اللى تعرفه أحسن من اللى متعرفوش».

أما الشعار الذى يرفعه مؤيدو مبارك أنه هو الأكثر خبرة فى الحكم من أى مرشح منافس له! فهذا كلام يودى أى بلد فى ستين داهية، فالحقيقة أن مبارك حين صار نائبا للرئيس لم يكن يملك خبرة سياسية على الإطلاق بل كما قال السادات إنه اختاره لأنه لا يملك أى خبرة سياسية أساسا، وقد كان مبارك نفسه يقول بصراحة فى بداية عهده إنه حين استدعاه الرئيس السادات تخيل أنه سيعرض عليه منصب سفير مصر فى لندن أو رئيس شركة مصر للطيران ويبدو أنه فوجئ بأن مصر كلها البلد وليست الشركة قد عرضت عليه، لم يكن مبارك يملك خبرة ثم إنه صار موظفا كبيرا فى الدولة وليس سياسيا رهيبا ولا مفكرا داهية بل مارس صلاحيات ثم تحول إلى صلاحيات رئيس الجمهورية بعدها، ومن هنا فليس مطلوبا من الرجل الذى سيصبح رئيسا لمصر أن يكون فى خبرة رئيس منذ أربع وعشرين سنة خصوصا أن الدول المتقدمة (وأنا آسف أننى مشغول جدا بمقارنتنا بالدول المتقدمة) أى رئيس ممكن يقعد أربع سنين أو ست أو ثمان وهذا بالقياس لخبرة حكام عرب فى الحكم منذ ٣٥ و٣٠ و٢٠ سنة تلامذة طبعا، ثم ألا نقول طول الوقت إننا دولة مؤسسات معنى ذلك أن فرد الرئيس ليس نبيا كى نختاره بمواصفات الأنبياء فهناك مؤسسات تدير البلد وتلجم سلطات الرئيس وتقومها، ثم لنفترض أن الرئيس بشر (وهو افتراض يغضب زملائى رؤساء تحرير الصحف الحكومية جدا ومع ذلك فأنا محرج أن أقول لهم إنها الحقيقة!) وإنه ميت وإنكم ميتون (شأن البشر) فماذا ستفعل البلد من غير الخبرة بتاعته!!

ثم مصر نفسها بلد مطواعة وطيبة بمجرد ما يمسك أى شخص الحكم سوف يجد شعبا طيب الأعراق فى النفاق وقيادات دولة طيعة مداهنة مهادنة وصحفا ترفع من شأنه وتمجد من قدره وفى ظنى أن مصر هى أسهل بلد يمكن أن يحكمها

أى شخص لو لديه قوى عقلية متوسطة فشعبها منقاد ونخبتها رخوة وموظفونها عبد المأمور وأى أستاذ حقوق أو نائب برلمان يمكنه أن يدير مصر فى ٢٤ ساعة وسوف تتغير فى ثوان يفط الجزارين والفاكهانية ومحلات السوبر ماركت ومحطات البنزين وغربيات الكشرى التى تؤيد الرئيس لتبارك لغيره!

ما أريد أن أقوله إن المصريين الذين سيؤيدون الرئيس مبارك لن يؤيدوه لأنه مبارك بل لأنه الرئيس.... وبمجرد أن يصبح فى مصر رئيس آخر سوف يؤيده المصريون فورا بالروح والدم، فقد علمتنا الحياة أن روح المصريين طلعت من زمان وصعدت إلى بارئها..وأن المصرى فى الغالب لا يحس على دمه!

القابلية للاستحمار!

نجح مبارك فى انتخابات الرئاسة الأخيرة بعدد أصوات أقل من عدد اللافتات التى كانت معلقة فى شوارع مدن وقرى مصر؟

هل يعنى ذلك لك شيئا؟

نعم يعنى أن مصر لم تعد بلد شهادات بل صارت بلد لافتات! وها هى مصر تتحدث عن نفسها فتكذب كالعادة وتدعى أن هذه انتخابات تاريخية وأن مصر تبدأ عهدا جديدا، ولا أعرف كيف يمكن أن تبدأ مصر عهدا جديدا برئيس قديم!

عموما الأمر كله يذكرنى بتلك الحكاية عن رجل سأل صاحبه: هل ينفع أصلى من غير وضوء؟، فرد صاحبه مستنكرا نافيا: لا طبعا فرد عليه الرجل: طيب إيه رأيك إنى عملتها ونفعت!

شئ من هذا حدث بالتفصيل فى مصر الشهور الماضية كل ما كان يهم مبارك الأب والابن (من غير روح قدس) أن تجرى انتخابات شكلها تنافسى تعددى..وتنفع، سيبك بقى من أى وضوء فى الموضوع كله، فالوضوء ليس شرطا كى تصلى بل شرطاً أمام ضميرك فقط كى يتقبل الله الصلاة، والعدالة والرقابة والحرية والمساواة والشفافية وعدم ابتزاز الناخبين ولا الضغط عليهم وتكافؤ الفرص ومثل هذه الأمور شرط كى تكون الانتخابات صحيحة ولم يفعل مبارك وحزبه وولده أى شئ من ذلك ومع هذا نفعت الانتخابات...لم يكن المهم أن تكون أمينة وكاملة وصحيحة وشريفة المهم أن تتم فقط، إنها انتخابات تحريك وليست انتخابات تحرير، المطلوب منها أن تعطى مبارك فرصة البقاء فى الحكم وتمنح ابنه فرصة القفز على الحكم، انتخابات تحريك تهدف إلى رفع الضغط الأمريكى والأوروبى عن نظام مبارك والتوقف عن اتهامه بالديكتاتورية والاستبداد، ومبارك عارف أن أمريكا

عارفة أنه عارف أنها عارفة أن الانتخابات تمثيلية حسب الصداق المسمى بينهما، النظام المصرى يمثل والحكومة الأمريكية تصفق، وهى الصفقة التى عقد بعضا من أطرافها مسئولون ومبعوثون مصريون لأمريكا، مؤداها: دعوا الرئيس يستمر فى الحكم وسوف نسمح بإجراءات وخطوات ديمقراطية تستجيب للضغوط وتفك القيود عن الساحة السياسية المصرية، وافق الأمريكان على التفويت لمبارك انتخابات الرئاسة مقابل الحزم والحسم فى التزامه بالقواعد الديمقراطية فى انتخابات البرلمان، لاحظ أن مكالمة بوش الهاتفية التى هللت لها الصحف الحكومية علامة الرضا والاعتماد الأمريكى ضمت مع ما أغفلته دوائر النفاق وهى توصية (مشيها توصية) بوش بالتزام قواعد انتخابات جدية فى انتخابات مجلس الشعب الأخيرة، كأن الكل يعرف ويتواطؤ على عدم جدية انتخابات الرئاسة ومن ثم الطناش الجماعى على عوارها وعوراتها وتزويرها، كل خيوط القصة أن أمريكا وجدت المجتمع المصرى غاضبا ومنفجرا من الفساد والاستبداد ومصدرا للإرهابيين ومع ذلك فهو مجتمع قادر على التعايش مع الفساد والاستبداد وغير متمرد وغير قادر على مواجهة حاكمه الديكتاتورى، من هنا اعتمدت الرؤية الأوروبية فى التعامل مع النظام المصرى، وملخصها أن شعبنا عبيد وأقنان ولا فائدة منه ترتجى ويمكن أن يظل راضيا بحسنى مبارك وعائلته حتى حفيده دون أن يثور أو يعترض، لكن هذا الوضع المستقر قد ينفجر فى أى لحظة ومن ثم لابد من عوامل إنقاذ مبكرة تتمثل فى ديمقراطية حقيقية والديمقراطية عايزة فرخة والفرخة عايزة قمحة ورغم إدراكنا أنه فى مصر ليس أكثر من الفراخ والدواجن إلا أن لا أحد سوف يبيض الديمقراطية فى مصر سوى النظام نفسه فمصر تعبد حاكمها وتمشى وراءه (غالبا إلى أى داهية ٦٧مثلا، تطبيع يجوز، فقر وتوريث ممكن جدا) فالمطلوب هو الضغط على الحاكم، والتنازل الطوعى عن ديكتاتوريته، ومن هنا بدأ الحوار الدولى مع مبارك يأخذ شكل التعليمات الهادئة والصبر الطيب وطول النفس وبدأ مبارك سعيا لإقناع الغرب وأمريكا بابنه يفك قبضته ويعفو ضباطه عن قفا الشعب، وبدأت خطوات المكياج والتمثيل بتعديل المادة ٧٦ ثم السيرك الانتخابى الذى

«وضعوا أيديهم على صدر مصر تنور، على بطن مصر تنور، على فخذ مصر تنور»، وانتهى السيرك بالنجاح الأكروباتى لمرشح الحكومة.. للرئيس الممتد الأبدى...وصلوا بدون وضوء ونفعت!!

فى هذه اللحظة حد يسألنى تفتكر لماذا نجح مبارك؟

أجيبه فورا: وهوه فيه حد ابن مجنونة كان فاكر أنه ح يسقط؟ لقد كان مبارك أوضح مما ينبغى حين قال بعد تعديل المادة ٧٦: (وهى تستحق أن نطلق عليها كما قلت قبلا نكسة ٧٦) أنا عدلت المادة مش عشانى ده عشان الأجيال الجاية (لاحظ أنه قال الأجيال الجاية وليس الجيل القادم واخد بالك) لكن السؤال الحقيقى هو كيف نجح مبارك؟

نجح مبارك (وربما ينجح ابنه كذلك) لأننا فى مصر منذ يوليو ٥٢ (والله يجازى اللى كان السبب!) ومنذ خرج الأحرار (متأخرين ساعة) وسيطروا على الحكم فلم يرجع الجيش إلى ثكناته حتى الآن، بمعنى سيطرة نظام مستبد فاش فاشل على الحكم فى مصر حتى أيامنا الكحلى الحالية، ومنذ ٢٥ عاما تحديدا مصر تحيا فى بيئتين، بيئة فاسدة وبيئة منافقة (من هنا الأصل العلمى لكلمة ناس بيئة التى اشتهرت على ألسنة الشباب اليومين دول) ونجاح النظام الحالى فى البقاء ربع قرن «كابس» كأنه مصارع سومو على أنفاسنا بسبب خلق ثم استثمار البيئة الفاسدة والمنافقة، لم يعد أحد يستغرب الفساد ولا يندهش منه بل يتعامل معه على أنه أمر واقع وحقيقة لا مفر منها وأصبح النفاق موضع قبول ورضا وتسليم وأطلقوا على النفاق (إمعانا فى الاستهبال) وجهة نظر، يقول لكم أحدهم: أنا باحب مبارك يا أخى ورأيى أن جمال ابنه أحسن واحد يحكم بعده وجهة نظرى يا أخى وأنا حر فيها إنت كمان ح تعترض على أنه يكون لى وجهة نظر!! وحين يصبح المجتمع المصرى قابلا للتعايش مع الفساد والنفاق فينافق كى نتركه يفسد على حريته فهذا يجعل وطنا مثلنا تنطبق عليه نظرية مالك بن نبى المفكر الجزائرى الراحل صاحب نظرية (القابلية للاستعمار) بمعنى أن هناك مجتمعات بعينها عندها نقط ضعف وثغرات نفسية وثقافية وضعف مناعة تجعلها عرضة لمجئ الدول الاستعمارية

وغزوها واستعمارها (مصر تعرضت للاستعمار طول تاريخها) هذه النظرية تنطبق على مصر حتى ١٩٥٢لكن بعدها تبدأ نظرية أخرى فى الانطباق على مصر و ماحدث فيها وهى نظرية(القابلية للإستحمار)، فمصر (وهى عموما فى خاطرى وفى فمى زى ما أوصتنى السيدة أم كلثوم) تعانى من القابلية للإستحمار، فحكامنا يستحمرون الشعب ويقودونه كالقطيع ويأمرونه فيطيع...ويضيع!

هذا المناخ الذى نحياه هو الذى يجعل فرصة أى رئيس يحكمنا أن يحكمنا إلى الأبد فرصة سعيدة..وسهلة..مباحة..ومتاحة!

ولذلك فلاشيء يفاجئ عاقلا فى بلدنا حتى لو نجح مبارك بـ ٨٨.٥ % وإنشالله ما حد حوش، وهى نسبة تدل على حكم متغرطس ومغرور ولا يقبل أن ينافسه أحد ولا يطول قامته شخص ومن ثم يخسف الأرض بنسب منافسيه ويرفع من أرقامه ويزيف فى نسبه حتى يبدو فوق الجميع ومتفق عليه من عموم الشعب ولهذا تأتى نسبة نجاح مبارك فى الانتخابات أقرب الى أى استفتاء فالمطلوب أن يشعر الرئيس أنه فى السما عالى وأنا فى الأرض مش طايلك على رأى محمد عبدالوهاب، كما يدل قبول البعض هذه النسبة كأنها حقيقية عن وقوع المخطوف فى هوى خاطفه وهى مسألة علمية مؤكدة حيث حدث فى بعض حالات الاختطاف أن أحبت المخطوفة رجل العصابة الذى خطفها كما تحب المريضة الدكتور وكما تهوى ضحية الاعتصاب أحيانا مغتصبها، وهو المعروف علمياً «بالتقمص مع المعتدي» فبدلاً من أن يبقى المخطوف ضحية يتحول إلى شبيه المعتدى ويتماثل مع آرائه وأفكاره وسلوكياته هنا الذى يقبل أن مصر تريد مبارك بنسبة ٨٨،٥% ومن لا يقبل غير مبارك حاكما (انظر حالات الفقراء والأقباط والموظفين) هو بالضرورة العلمية مريض بحب خاطفه!

والمدهش فى الذين يطلبون من مبارك تنفيذ وعوده (وهى التى لم يضع لها أى جدول زمنى ولا توقيتات على الإطلاق) لكن أخشى ما أخشاه أن ينفذ الرئيس وعوده فعلا، فستأتى كلها على شاكلة تعديل المادة ٧٦ فقانون الطوارئ يتم إلغاؤه وتعديله بقانون أوسخ منه، ولجنة الأحزاب تبقى أسود مما هى موجودة، وإلغاء

قانون حبس الصحفيين يتم بقانون جديد يضع السيخ المحمى فى صرصور ودن الصحفى، هذه هى الكارثة أن البيئة الفاسدة والبيئة المنافقة صنعت نخبة تعتمد منطق التسول والتوسل للحاكم من أجل أى إجراء إصلاحى وهى كذلك ترضى بأقل القليل وبالمقسوم وطموحها لا يتجاوز كعب رجلها، ثم إن منهج النظام هو الإصلاح الشكلى والتجميلى فلا أكثر من سليكون سياسى لثدى الأمة (الأمة مؤنث!) بلا أى مضمون أو جوهر حقيقى المهم هو المظهر والتغليف ومن هنا أشك أن مبارك سوف يقدم إصلاحات سياسية حقيقية فإذا كان الحزب الوطنى بيعمل زفة بلدى فرحا بنجاح وهمى وإذا كان جمال مبارك وزع شيكولاتة وإذا كانت الصحف الحكومية تصنع من انتخابات هزلية حدثا أسطوريا وإذا كانت أمانة السياسات تجتمع فيما تظنه دار الأرقم ابن أبى الأرقم وإذا كان أى معارض مثلنا فى نظرهم مجنونا أو موتورا أو عميلا..فكيف تأتمن هؤلاء على أى إصلاح أو تغيير حقيقى إلا إذا كان تغيير دمك؟!

الحكم البائس والشعب اليائس!

وصل اليأس والإحباط بأحد المواطنين من كثرة ما شهد من ظلم وجبروت إسرائيل ضد الفلسطينيين أن أرسل يوما للشيخ القرضاوى سؤالا يقول فيه: لماذا لا يرسل الله طيرا أبابيل إلى إسرائيل لترميهم بحجارة من سجيل وتحمى المسلمين والعرب هناك وتقضى على الإسرائيليين؟

وقد كان السؤال وجيها رغم عبطه، صحيح لماذا لا تتدخل قوى خارقة مارقة يرسلها الله عز وجل كى ينقذنا من البلاء والبلاوى التى نحيا فيها؟ وقد كشف السؤال (أو الأمنية أو الدعاء!) عن العقل العربى الموكوس هذه الأيام بالتسليم للتخلف والاستسلام للهزيمة والقناعة بالبلوى والتعايش مع إهدار الكرامة والكبرياء والخضوع للاستبداد سواء من رؤساء وحكام عرب أو من محتلين أعداء أجانب!!

المواطن المصرى مثلا تحت بير السلم خائف من أمريكا وإسرائيل وتحت السرير مرعوب من الرئيس وأمن الدولة، فيلجأ إلى الحل العبقرى الذى ينقذه من صراع الضمير، وهو إليأس، ولليأس حلاوة وطراوة وطلاوة، فهو يوفر عليك عناء المحاولة ومشقة الجهد ويبرر لك عجزك واستسلامك، هو يبرر لنفسه ثم لزوجته ثم لأولادهما ثم للجيران ثم للتلاميذ فى المدرسة وللزملاء فى الوظيفة وللعابرين فى الشارع موقفه بأنه مفيش فايدة، وأخطر ما فى إليأس أن يتحول من صفة جبن وضعف إلى وجهة نظر، فالمصريون يائسون من أى تغيير أو تقدم أو تطوير ومن ثم تكون حيلته الوحيدة التى يرفعها فى مواجهة من يطالبه بالتحرك بالرفض بالتمرد بالثورة (من غير ضباط وعساكر أرجوكم ومش فى شهر يولية أنا اتعقدت) هو أنه البلد كده ومفيش فايدة فيها ومتحاولش، ثم ينتقل الأمر من

التطبع إلى الطبع إلى الاقتناع بما هو فيه، طيب وإحنا مالنا ما أحنا عايشين أهوه، ناقصنا إيه، ثم يصدق ويؤمن تماما بما ظل يحكيه طول عمره من مبررات للضعف والتسليم بل وصل الأمر بمجتمعاتنا بعد ثلاث وخمسين سنة من حكم العسكر والكاكى إلى أمرين، الأمر الأول أننا نكاكى!! كتاكيت مذعورة فى عشة الوطن الضيقة؟ والأمر الثانى أن قطاعا واسعا (ويتسع على الرتق) بات يؤمن ويطبق نظرية جحا الشهيرة، ومؤداها أن الناس قالت لجحا إن التتار وصلوا حتى حدود بلدك فرد مش مهم طالما لم يأتوا حتى بلدى، فلما وصل التتار للبلد قالوا له وصلوا ياجحا البلد رد مش مهم طالما لم يصلوا حتى مدينتى فلما وصل التتار قطعا لمدينته قال مش مهم طالما لم يصلوا حتى شارعى فلما وصلوا لشارعه قال مش مهم طالما لم يصلوا حتى بيتى فلما وصلوا حتى بيته قال مش مهم طالما لم يصلوا حتى سريرى فلما وصلوا حتى سريره قال مش مهم طالما لم يصلوا حتى...ولا بلاش حتى ظهرى فلما وصلوا حتى ظهره تردد فى رواية أن جحا هتف الحمدلله إنها جت على قد كده، وفى رواية أخرى أنه قال إنه كان فاكرهم أرجل من كده!!

نظرية جحا الذى يدفس رأسه فى الرمال ويحدث ما يحدث لظهره المكشوف هى السائدة عموما فى الوطن العربى على المحورين الخارجى والداخلى، فنحن لا نملك أمام التحدى الحضارى الذى يمثله تقدم وتطور وغنى وثراء الغرب العلمى والمادى والثقافى سوى أن نتشفى فيه إذا ألمت به مصيبة، أو ندعو عليه إن طغى وبغى علينا!

وعلى المحور الداخلى (وأنا لا أقصد هنا محور ٢٦ يوليه رغم أهميته السياسية!!) فإننا نكتفى أمام الظلم والاستبداد السياسى الذى يمارسه علينا حكم مبارك بأحد حلين، حل الـ ٨٨,٥ % أو حل الـ ٧٧ %

لكن ما معنى هذين الحلين؟

أما حل الـ ٨٨,٥ % فهم الذين انتخبوا وصوتوا لمبارك (بفرض عدم تزوير النسبة) من منطلق التسليم بفوزه أو اللى عرفته أحسن من إللى ما تهببتش عرفته أو بمنطق أننا سنضيع ونموت ونروح فى ستين داهية لو غيرنا الرئيس أو

عن قناعة بأنه ليست مشكلة على الإطلاق أن يحكمنا شخص ثلاثين سنة وفيها إيه أو بنظرية أنه إللى سرقوا وشبعوا أحسن من إللى لسه ما سرقوش وعلى ما يشبعوا ح ينهبوا البلد، وكل هذه التشعبات والحوارى الفكرية التى تؤدى لنتيجة واحدة وهى رضا الشعب الذى يعانى من القهر والفقر والاستبداد بما يحصل فيه وعبودية العبيد لسيدهم كما يحب الخادم النوبى فى فيلم الماضى المجهول سيده أحمد بيه بالضبط!!

أما حل ال٧٧% فهو حل الاعتزال والسلبية وإليأس والتيقن من أن هذه بلد أبوهم مش بلدنا وشراء الدماغ وأنه مفيش فايدة..وجملة ما تسمعه من ٧٧% من الشعب المصرى فعلا وهو بالضبط ما يريده الرئيس مبارك ونظامه عن قصد أو عن دهاء فطرى لنظام لديه غريزة حب البقاء والخلود على الكرسى مستيقظة مستنفرة تلتقط أى خطر، والخطر الحقيقى على هذا الحكم الذى عاث فى مصر فسادا واستبدادا هو أن يتخلى الناس عن الرضا بالأمر الواقع، إليأس، انظر إلى ما كتبه دكتور أحمد زويل فى كتابه عصر العلم عن فكرة راحة إليأس فيقول عن فكرة عدم إمكانية تقدم الشعوب العربية أنها (رؤية تآمرية محدودة وقاصرة تؤدى إلى راحة إليأس) ويتحدث دكتور زويل عن الدول التى لم يبث حكامها فيها راحة إليأس قائلا (ثمة أسطورة أخرى حول أن التقدم العلمى يحتاج إلى قرون وهى أسطورة لا تحتاج إلى جهد كبير للمناقشة فالكثير من دول العالم المتقدم قد حققت انطلاقتها الراهنة فى غضون سنوات أو عقود...إن التجربة المإليزية هى نتاج حوإلى عشر سنوات لا عقود طوال، كما أن التجربة الصينية نفسها لايزيد عمر تألقها وامتيازها على العشرين عاما، وكوريا الجنوبية قد صعدت من التخلف إلى صدارة الصناعات فى آسيا وإلى موقع بارز فى العالم فى غضون سنوات وفى الهند يندهش المرء من القلاع الصناعية العملاقة التى تنتج السوفت وير فى بنجالور وفى سنغافورة التى تخطو إلى أفق غير منظور ومثل هذه التجارب المضيئة تشكلت فى سنوات وأيضا عندما ننظر إلى تجربة أيرلندا الحإلية نجد نهضة وتقدما ففى عشر سنوات أصبحت أيرلندا من أكبر بلاد العالم تصديرا للتكنولوجيا

الحديثة....) إذن تخلف مصر ياجماعة ليس قدرا وما نحن فى عزه وزهوه مع أزهى عصور الرئيس مبارك يثير الخجل إذا قارناه مع الدول الأخرى وإذا كنت من المعجبين بالدكتور زويل فاسمح لى أن أنقل لك مقولة أخرى (شئ لزوم الشئ) من كتابه حيث كتب : (وأخيرا الديمقراطية وهى كلمة غربية والمهم بالنسبة لى ليس كونها مفهوما غربيا وإنما ما تحتويه من معنى والشروط الأساسية لها، المعنى الحقيقى هنا هو حرية الفرد والمشاركة الفعالة فى الحكم، أما الشروط الأساسية فهى مسئولية ومحاسبة الشعب للحكومة، الشفافية وهى الإطار الأساسى لمحاربة الفساد والحكم بالقانون العادل أما بالنسبة للإبداع فلايمكن أن يبدع الخائفون) اسأل نفسك بعد كلام زويل هل هذا يتوفر فى مصر مبارك على الإطلاق؟ وهل رد فعلك لغياب كل هذا هو إليأس أيضا وحلاوته وراحته والرضا بالمكتوب على جبين البلد ونشكر مبارك على اللقمة والهدمة!!إلى هذا الحد وبكل هذا القدر بلغ بنا اليأس حافة الموت أحياء

إذن نحن لانواجه نحن نهرب، فنطلب من ربنا أن يرسل طيرا أبابيل أما نحن فمشغولون بالطير المسافر للسعودية وعقد عمل للخليج، ندعو على أمريكا ونشمت فى الأعاصير التى تهب عليها بينما لا نستطيع نحن مواجهة سحابة سوداء فى السماء وليس إعصارا بل شوية ميه فى الشتا قادرة على إغراق شوارع مصر فى وحلة فظيعة وقطع الكهرباء فى الريف وغياب العيال عن المدارس!

ومع حكامنا نحن لا نقاوم ولا نرفض ولا نعترض بل نرضى ونسلم ونستسلم وننافق ونوافق ثم نكره من يحذرنا ومن ينبهنا إلى كارثة الاستسلام للرئيس ولتقديس الرئيس وهو ما تفسره كلمات دكتور جمال حمدان فى كتابه العملاق شخصية مصر حين يقول: المثير والمؤسف أكثر أن على رأس هؤلاء الأعداء لمصر بالجهل والجهالة وضيق الأفق يأتى غالبا ولا نقول دائما الحكم والحاكم فالسياسى الذى بالتعريف يبيع الوطنية للمواطن لا يملك إلا أن يقدم الأوهام الوطنية والمخدرات التاريخية للجماهير فمصر أم الدنيا، أم الاختراع، أم الحضارة، فاتحة التاريخ، فوق الجميع، خير أمة أخرجت للناس وأم العرب أيضا إلخ والحاكم فى

الوقت الذى قد يكون أكثر من يسوم الشعب العسف والخسف والهوان والذلة والقهر الجسدى أو المعنوى أو كليهما....والقاعدة تقريبا عند كل حاكم أننا بزعمه نعيش دائما فى عصره أروع وأمجد فترة فى تاريخنا وحياتنا بلا استثناء، كل عصر عند صاحبه هو، هو وحده، عصر مصر الذهبى، تلك نغمة أزلية وبضاعة مزجاة يكررها كل حاكم منذ الفراعنة فى نقوشهم وسجلاتهم الهيروغليفية على جدران الآثار وحتى إليوم فى أبواق الدعاية ووسائل الإعلام العميلة التى لا تتحرج ولا تخجل، ومن يتأمل المشهد المصرى بعد أكثر من عشرين عاما على كتابة جمال حمدان لكتابه يدرك أن الرجل شرح وحلل وتوقع تماما ما يجرى لهذا الشعب الذى يعيش فى أوهامه الخاصة عن ذاته بينما يقدس حاكمه ويسلم نفسه وضميره ومستقبله لرئيسه نفاقا أو تسليما أو يأسا ويرفض أن نوقظه على حقيقة استسلام الشعب وطغيان الحاكم وكما يضيف جمال حمدان أيضا فى كتابه : الغريب أن الشعب المخدوع الساذج نصف الجاهل قد يستأسد ويبطش بإنه ناقده الوطنى الذى يريد له الخير والسيادة فيدينه ويسلمه تسليما لسوط الحكم وذلك بالقدر نفسه الذى يخنع فيه ويخضع ويستكين تحت هذا السوط، وهكذا للغرابة والدهشة قد نجد الشعب المسكين المضلل (ولا نقول الخائف المروع) يتبادل مع قيادته العاجزة الفاشلة الباطشة غالبا وجلاده الغاشم الخائن أحيانا خداع النفس وعبادة الذات، الأول يتغابى عن عيوبه الجسيمة بل ويتغنى بها، والثانى يلهيه ويخدره عن استبداده وقهره أو خيانته وغدره بأحاديث المجد والوطنية والأصالة إلخ، ويضيف جمال حمدان كأنما يشرح بالضبط (أى والله) ما نتعرض له، فيكتب قائلا : ولقد يشارك بعض زواحف الكتاب الانتهازيين والمأجورين والعلماء العملاء فى هذه المحاورة المخزية أو الديالوج المدمر فتمجد كل سلبياتنا ومثالبنا بأى منطق بل وقد تزين لنا العبودية فى الداخل أو فى الخارج، أى للحكم الغاشم أو للعدو الغاصب على الترتيب ولئن كان منطق عملاء الطغاة الزائف ليس إلا منطق العبيد إلا أن الناقد المثقف المفكر الوطنى الحق يجد نفسه هكذا فى النهاية محاصرا -للغرابة والدهشة أكثر - بين قوسين من الإرهاب والترويع الفكرى والجسدى، الحاكم

الطاغية المغتر من جهة والشعب المكبل المقهور المغلوب على أمره من الجهة الأخرى وهكذا يعود الناقد الوطنى مرغما مرة أخرى إلى المنطق المعكوس المرفوض منطق " عيوب هذا الشعب وأمراضه ومآسيه ومآله ومصيره هى جميعا عقابه الطبيعى المستحق "

ولكننى - مع إيمانى بقواعد جمال حمدان ونتائجه - مازلت أشعر أن مصر بخير طول ما فيه ناس تدعو بحرارة قلبها (ربنا على الظالم والمفترى وابن الحرام) هذا الدعاء الذى أكثر أهله النساء هو ما يشعرنى أنه لاتزال هناك جذوة مشتعلة من النار والنور داخل ضمير المواطن ووعيه، فها هو المواطن يحس على الأقل بالظلم وهو ضد المنكر بأضعف الإيمان وهو القلب لكن على الأقل لايزال القلب فيه نبض ولم يتوقف طنين جهاز رسم القلب وعمل الخط الأخضر المستقيم الذى يعنى أن تقرأ فورا الفاتحة على روح المرحومة مصر، الوعى الكامن لدى المواطن يريد من يحركه فيجد من يخمده، بنفاق الصحافة والساسة وقيئ النفاق الذى يشهده فى التليفزيون والجرائد الحكومية، باختراق المباحث وأمن الدولة لأعز ما يملك المواطن المصرى شرفه..(السياسى)، بالقبض والترويع والاعتقال للمشتغلين بالسياسة أو مجال حقوق الإنسان أو سجن أعضاء التيارات الإسلامية واليسارية، بتعيين ضباط الشرطة فى سلك القضاء، فى تحول حرس الجامعة إلى أساتذة فى كلية الحقوق (آه والله العظيم) فى تعيين الفاسدين عمداء للكليات فى تولى الفسدة والفشلة أهم مقاليد الدولة، فى استشراء فيروس سى الذى ضرب أكباد المصريين، فى هواء البلد الملوث الذى خنق صدورنا وأفكارنا وتعودنا معه على رائحة الشياط والحريق فى الجو كأنها رائحة الوطن ولم نعد نستغرب ولا نستنكر فضلا عما نراه جميعا من المداود التى جلس عليها شر البقر!

توكيل مصر

مصر كلها، كبارها وعيالها، بل وحتى عصافير وقرود حديقة حيوان الجيزة تعرف أن أولاد الرئيس مبارك علاء وجمال يعملان بالبزنس والتجارة (والتجارة شطارة كما نعرف) ورغم أننا كلنا (بما فينا أفيال وأسود حديقة حيوان الجيزة) نجهل ماهى طبيعة شغلهما بالضبط إلا أننا ندرك أنهما رجلا أعمال، لكن أعمال إيه ؟، الله أعلم وشركاهم، فنحن لا نعرف هل مثلا حصل أحدهما أو كلاهما على قروض من بنوك؟ وهل اشتريا مثلا نصيبا وأسهما من شركات القطاع العام التى تم خصصتها، هل هما شركاء لآخرين اشتروا مصانع ملك للدولة، هل يستوردان من الخارج، طيب إيه ومن أى دولة؟ لا شئ نعرف عنهما أكثر من كونهما رجلى أعمال ومن ثم تحتشد مصر منذ سنوات بنكت توضح وتشى وتشير على مظنة الناس فى حجم ومجال عملهما وتكون بمثابة المقاومة المصرية الصامتة لتغلغل نشاط وأعمال أبناء الرئيس والمسئولين الكبار فتنكل بهم عن طريق السخرية الحادة والعاجزة عن شئ أكثر من تلطيخ السيرة بالضحكات وكذلك بالشائعات التى تجهد أى جهاز أمنى من كثرة ملاحقتها وحصرها وحصارها وكلها شائعات دخانية (ولا دخان بغير نار) على مشاركة علاء ثم بعد ذلك جمال مع رجال أعمال بدأت الشائعات بوجيه أباظة صاحب توكيل بيجو وانتهت بأحمد عز صاحب توكيل مصر (أقصد حديد مصر)، وقد طبق الابنان أعلى درجة من درجات الشفافية (وهى ليست مثل الشفافية الديمقراطية بل هى شفافية تقفيل مصرى) فلم يتحدثا أبدا للشعب عن مجال نشاطهما وظل حجم التعاملات وأنواع الشغل وطبيعة الشركاء طى الكتمان المخفى الذى إذا حاول أحدنا الكلام عنه وصل السيخ المحمى فورا لصرصور ودنه (وياريت تيجى على قد صرصور ودنه) والذى يدهشك فعلا أن ابنى الرئيس ومعظم - إن لم يكن كل - أبناء المسئولين الكبار والوزراء المعمرين فى مصر

يعملون بالتجارة والتى هى شطارة كما نعرف، ليس من بينهم واحد عرفناه يشتغل بالعلم والأكاديمية ولا واحد منهم يقف فى معمل أو أمام سبورة أو غرفة عمليات أو على بريمة بترول، ولا أى من تلك الأعمال التى يمكن اعتبارها انتصارا للعلم والجهد والفكر بل معظمهم إن لم يكن كلهم رجال أعمال وأهل بيزنس وتوكيلات وسمسرة (مالية) وما إلى ذلك وذلك نفسه! هل يدلك ذلك على شئ؟

الحقيقة أن بطن النظام المصرى منذ حمل بثورة يوليه وهو يجرى نحو علاقة المصاهرة بين هيمنة السلطة وسطوة الثروة (بعضها لم يكن مصاهرة بقدر ما كان زواج متعة أو زنا لم تتوفر له شروط الشهود الأربعة) ولكن لم تشهد السلطة فى مصر كل هذا التحالف الوثيق اللصيق بين المال والسلطة بقدر ما تشهده منذ مطالع التسعينات، والغريب وعكس كل خلق الله فإنه كلما زادت واتسعت الطبقة الرأسمالية وتنامى دور رجال الأعمال كلما زاد استبداد الدولة وغشومة الحكومة وغطرسة الحزب الحاكم! وهى حقيقة عكس كل الدنيا ففى الدول المتقدمة المواطنون الذين يدفعون الضرائب هم الطرف الأقوى فى اختيار حكامهم، فالمواطن يدفع من دم قلبه ضرائب للبلد ومن ثم حقه أن يحاسب الحكومة على السحتوت ويبيع ويشترى فى السياسيين ويختار من يشاء ويحاسبهم فى كل انتخابات فيمنح هذا الرضا ويمنعه عن آخرين، ففى تلك المجتمعات المواطن مالك هذا الوطن ونصيبه يدفعه بالعمل والضريبة والخدمة العسكرية يبقى مفيش حاكم له ميزة على أى مواطن والكل سواسية فيختار الناخب بحقه وفلوسه وعمله وعرقه فى البلد رئيس فرنسا أو مستشار ألمانيا أو غيرهما، لكن فى مصر هنا ورغم أن خمسة مليون موظف مصرى هم مجموع العاملين فى وزارات وأجهزة الدولة يدفعون الضرائب من المنبع وكفرانين خصومات ورسوم وتمغات إلا أن الدولة لا تعبرهم ولا تعبر إللى خلفوهم فى أى قرار كما أن المواطنين من دافعى الضرائب لا يستطيعون اختيار رئيسهم ولا محاسبته ولا مساءلته ولا يمكنهم تغيير وزير ولا تحريك مؤخرة مسئول عن مقعده!! بل إن المصريين العاملون بالخارج الذين يصرفون تقريبا على الحكومة فى مصر ولحم أكتاف الدولة من خير تحويلات المصريين العاملين فى

الخارج (للمفارقة أكثر العائدات قادمة من المصريين فى أمريكا وأغلبهم أقباط ومن المصريين فى الخليج وأغلبهم غلابة) هؤلاء ممنوعون من الإدلاء بأصواتهم فى انتخابات الرئاسة ولا كأنهم موجودون أساسا، ورغم أن القاعدة الذهبية فى الاقتصاد والسياسة أنه لا ضرائب بدون تمثيل سياسى، أى لن يدفع مواطن ضرائب بدون أن يشارك فى صرفها عبر اختياره للرئيس وللحكومة ومحاسبتهم على كل فلس ومليم فيها إلا أن مصر لها قاعدة مختلفة وهى (أيها المواطن ح تدفع ح تدفع والجزمة فوق دماغك وقابلنى لو حاسبت الرئيس أو حكومته أو حزبه على تصرفهم، تجى إيه إنت يا مملوك صعلوك أمام صلعة يوسف بطرس غالى الذكية ونظارة محمود محيى الدين الثاقبة ووقفة جمال مبارك الواثقة الساندة على صورة والده؟، هؤلاء يتصرفون فى الاقتصاد كما يحلو لهم) وكما يقول دكتور سامر سليمان فى كتابه القيم (النظام القوى والدولة الضعيفة) عن المجتمعات التى تنفق على دولها فإن الدولة فيها تحتاج للمجتمع من أجل تمويل نفقاتها لذلك فالمجتمع يقف من الدولة موقف الندية ويكون محموما بالرقابة والإشراف عليها والمسألة بسيطة من يعطى له سلطان على من يأخذ، ورغم هذه الحقيقة البينة التى يقولها د.سامر سليمان فالمدهش أن الدولة فى مصر كاسرة عين مواطنها ومجتمعها، على إيه مش عارف؟ تقولش بيجمعوا الغلة من قصر القبة وبيأكلوا الشعب منها! ورغم أن المواطن الذى يجند فى الخدمة الإجبارية ويدفع الضرائب وكافة رسوم وتمغات وجمارك جباية الحكومة فإنه لا يملك أن يحاسب بواب وزارة الزراعة وليس وزيرها الأسبق، المواطن الذى غرس إصبعه فى الحبر الفوسفورى كان عليه أن يغرس نفس الإصبع فى عين حكومته مطالبا بحقه فى الرقابة والمساءلة والمحاسبة لكنه لا يفعل ذلك لتآمر الثالوث الوحشى فى مصر، أمن الدولة وتعليم الدولة وإعلام الدولة، الذى يجعل من المواطن مثل الكتكوت المبلول أمام قطط الدولة التى تأكل خير البلد وتتعفف عن أكل فئرانها ولو على سبيل الزكاة عن النفس، المهم إذا كان هذا وضع المواطن فما الذى يجعل رجال الأعمال أصحاب الملايين راضين عن الحكومة والحاكم وهم يرون الاستبداد والفساد رأى العين، حسب

المنطق الطبيعى فى كل أنحاء المعمورة (والعجمى) ومن المحيط الهادى وحتى المحيط القلق، هناك قاعدة تقول إن الرأسمالية والاقتصاد الحر لا ينجحان إلا فى دولة تحكمها الديمقراطية ومن ثم تصبح مصلحة رجال المال والأعمال فى نظام ديمقراطى قائم على تعدد المصالح وقدرة الشعب على تغيير الرئيس ومحاسبته، لذلك تجد من الطبيعى جدا أن يكرس ملياردير أمريكى اسمه بيرو منذ سنوات ملايين الدولارات لإسقاط مرشح للرئاسة الأمريكى ثم للترشح ضده ونفس الشئ فعله الملياردير سورس فى انتخابات الولايات المتحدة الأمريكية الأخيرة حيث رصد مليارات لإسقاط جورج بوش، وفى أوروبا واليابان وكوريا الجنوبية وماليزا وحتى الهند يلعب رجال الأعمال دورا هائلا فى التحريك السياسى والتغيير الديمقراطى على الأقل لضمان مصالحهم وصيانة مشروعاتهم، فى مصر إذن لماذا لا يختار رجال الأعمال رئيس مصر أو حكومة مصر لسبب جوهرى أن الرئيس ورجال الحكومة هم الذين اختاروا رجال الأعمال وليس العكس، فى مصر رجال الأعمال أبناء النظام المستبد الفاسد وحلفاؤه لأكثر من سبب:

١- معظم رجال الأعمال شركاء لكبار رجال الدولة وأبنائهم فى المشروعات والصفقات ومن ثم فالمصلحة تقتضى التحالف والتعاون.

٢- معظم رجال الأعمال يعتمدون على قروض من البنوك (وهذا شئ طبيعى تماما ولا استنكار له ولا استغراب منه) لكن الدولة هى المتحكمة فى منح القروض نتيجة سيطرتها المباشرة على البنوك وتعيين رؤسائها (حسب ما يذكره د.سامر سليمان فى كتابه النظام القوى والدولة الضعيفة فالحكومة تملك ٦٠%من الودائع فى الجهاز المصرفى و٥٤,٦% من قروضه) وهى بهذا الحال تملك إسعاد رجل أعمال بقروض بلا حساب وبلا ضمانات ويمكنها قصم وسط إللى خلفوه بإشارة من أصغر إصبع لأصغر عيل من عيال رجال الحكم.

٣- الدولة فى مصر متحكمة فى كل شئ وأينما تذهب بقفاك فثمة كف الحكومة سواء بالقوانين المكبلة المقيدة أو الضرائب والرسوم المستنزفة أو فى جهاز بيروقراطى مرتشٍ وفاتح بطنه للأكل الحرام أو إتاوات لكبار قيادات الجهاز

البيروقراطى ولا يملك أى رجل أعمال لو حاول الفلفصة من الدولة إلا أن يدخل السجن أو يخرج من البلد.

٤- لاتزال الدولة ـ وأنا هنا أعتمد على معلومات د.سامر سليمان فى كتابه ـ تسيطر على منظمات رجال الأعمال سواء اتحاد الصناعات المصرية (أؤكد أن الفساد فيه ليس للركب بل للترقوة) والاتحاد العام للغرف التجارية فلايزال وزير الصناعة يتدخل بتعيين ثلث أعضاء مجلس إدارة اتحاد الصناعات ورئيس الاتحاد (وهو فى الوقت الحالى صديق جمال مبارك المقرب والحميم سياسيا واقتصاديا الأخ الكويزى الكبير (نسبة إلى اتفاقية الكويز) جلال الزوربا وهو قطعا غير زوربا اليونانى ومن قاصرها زوربا اليونانى أفضل عندى) ومازال وزير التموين يعين نصف مجلس إدارة اتحاد الغرف التجارية وهو ما يعنى أن مصر كلها بالتعيين حتى وددت لو قررت الحكومة تعيين الشعب كمان ونخلص، والأمر كله يعنى من الآخر أن قبضة الدولة تمسك منظمات رجال الأعمال من لغلوغها!

٥- إن مجموعة رجال الأعمال الموجودين فى مصر الآن والفاعلين لم يتربوا على الإطلاق فى أجواء ديمقراطية ولم يؤمنوا بالديمقراطية شأن كل أجيال يوليه التى ولدت وتربت فى عصر عبدالناصر وعندما دخلت مجال المال والأعمال دخلته برعاية ومشاركة وإتاوة من الدولة ورجالها فهم أقرب إلى موظفين فى الدولة بدرجة رجل أعمال وليس أدل على ذلك من رجال الأعمال الذين صاروا موظفين فى الدولة بدرجة وزراء.

٦- إن جميع خبرات رجال الأعمال فى الاختلاف مع الدولة منيلة بستين نيلة، أحد رجال الأعمال حين فتح قناته التليفزيونية للراء الحرة وللتعبير الجرئ غير المنافق، ضغطت عليه الدولة حتى كادت أن تدهسه ولولا ستر ربه لكان فى السجن الآن، ودكتور رجل الأعمال من مؤسسى حركة كفاية خسر أو أخسرته الدولة الملايين بهذا الموقف، وأى رجل أعمال يفكر فى التبرع لمنظمة حقوق إنسان أو جماعة للدفاع عن سجناء الرأى أو حتى ينشر إعلانا فى جريدة معارضة، سوف يزور مفتشو الصحة مشروعاته ومندوبو الدفاع المدنى ومحصلو الضرائب والتهرب

الجمركى والمصنفات الفنية، بل ولو فكر ليس فى التنافس السياسى مع الدولة بل التنافس التجارى مع رجال الدولة فسوف يزور البوليس فيللته وينزل لقبو تخزين الخمور ويلاقوا بالصدفة سى دى مع راقصة وبالصدفة سوف يتسرب من أيدى البوليس لأيدى جماهير مصر الوفية، وسوف يعصفون به وبسمعته وباللى يتشدد له، لهذا كله لن يقترب رجل أعمال من معارضة النظام ولن يساهم فى بناء حركة ديمقراطية إلا طبعا المؤمنون حقا بالديمقراطية وحق هذا الشعب فى اختيار رئيسه ومراقبته ومحاسبته هو ومحاسيبه، فيما عدا ذلك سيظل هذا التحالف بين رجال الأعمال ورجال السلطة حتى إنك لم تعد تستطيع أن تفرق بينهم وإذا اشتكى عضو فى اتحاد الصناعات اشتكى له سائر أعضاء الحكومة بالسهر والحمى، حمى تاخدهم يا قادر ياكريم!

ولكن التاريخ والجغرافيا والمنطق وحساب المثلثات علمونا أنه لا يمكن أن تنشأ حركة ثورية إلا بمولين (حتى الحزب الشيوعى يحتاج إلى ممول وحتى ماركس كان إنجلز بيصرف عليه) ولا تغيير سياسى ولا تيار إصلاحى ولا دعوة سياسية إلا بمشاركة فاعلة من طبقة الرأسمالية أو التجار أو أصحاب المال والأعمال ولذا تبدو الدعوة للديمقراطية السياسية فى مصر فى حاجة ماسة لأن يعزها الله برجال أعمال ورأسماليين إصلاحيين يعودون بنا إلى مجد عبدالرحمن بن عوف رضى الله عنه، ملياردير الإسلام الذى كان يمول حروب جيوش النبى عليه الصلاة والسلام وكان واحدا من ممولى حركة الإسلام فى الانتشار والانتصار وحيث كانت تجارته تنمو وتزداد وأصبحت قوافله ذاهبة رائحة من المدينة حاملة القمح والدقيق والدهن (الزيت) والثياب والأوانى وكل ما يحتاج إليه أهل المدينة وفى يوم من الأيام قدمت قوافل عبد الرحمن بن عوف على المدينة وكانت مؤلفة من ٧٠٠ راحلة فقد كان ابن عوف التاجر والمستورد الأول فى المدينة. فهو الثرى الغنى التاجر الملياردير الذى يكفل المدينة والجزيرة العربية والمنطقة كلها بالاحتياجات من أول الكسوة والطعام وحتى الأدوات والمعدات. ودخلت تلك القافلة المكونة من ٧٠٠ راحلة حتى رجت الأرض بها رجا فقالت

عائشة رضوان الله عليها " ما هذه الرجة؟" فقيل لها " قافلة عبد الرحمن بن عوف بـ٧٠٠ دابة تحمل البر والطعام والدقيق " فقالت عائشة رضوان الله عليها " بارك الله فيما أعطاه فى الدنيا ولثواب الآخرة أعظم ". عندما بلغ هذا القول عبد الرحمن بن عوف حتى طار مسرعا قبل أن تبرك النوق إلى السيدة عائشة وقال لها: أشهدك الله يا أم المؤمنين أن هذه القوافل جميعها بأحمالها ورحالها فى سبيل الله "تبرع عبد الرحمن بن عوف بالسبعمائة ناقة فى سبيل الله. وهذا المشهد الذى ينقل لك صورة حقيقية عن الغنى أو الملياردير المسلم أو الرأسمالى المسلم. لقد حمل مجاهدين فى سبيل الله على ٥٠٠ فرس يملكها وفى مرة أخرى ١٥٠٠ راحلة، لقد ترك ابن عوف لورثته من كتل الذهب والفضة ما قسم بينهم بالفئوس حتى أدمت أيدى الرجال من تقطيع الذهب، هذا النموذج هو ما تبحث عنه أى حركة أو دعوة للتقدم وللتغيير ولتنوير الجماهير وإنقاذهم من الاستبداد والفساد، وقد يبدو عبدالرحمن بن عوف حلما لكن وقائع الواقع تقول إننا فى حاجة إلى خطوات يمكنها أن تنجب لمصر رجال أعمال ينقذون البلد مع مثقفيها وسياسيها وشبابها وطلابها من براثن النظام الفاسد والمفسد ولا حل ومن ثم لا أمل من وجهة نظرى إلا عبر خصخصة البنوك وتفكيك ملكية الدولة لمصادر التمويل والإمداد والإفساد لرجال الأعمال بحيث تكون جدية المشروعات هى أساس الإقراض وليس عن طريق التليفونات من زيد أو عبيد (مقصدش عاطف عبيد) ولا برضا سامى من الأسرة الحاكمة والوزارة المالكة، ثم كذلك خصخصة المؤسسات الصحفية التى ترتع فى فساد رائحته أنتن من رائحة خنازير عزبة الزبالين وتعيش على تقديس الرئيس ونفاق الحاكم والعُهر السياسى، ثم كذلك تفكيك ملكية الدولة لأجهزة الإعلام بحيث يلعب الوعى الحر عزفا جديدا لمصر ينقذها من نشاز الشواذ (سياسيا أو غير ذلك) ثم فى الأول والآخر تفكيك جهاز أمن الدولة و إنهائه تماما حتى يتمكن المواطن المصرى من رفع رأسه فقد مضى عهد الاستعمار وجثم بعده عهد الاستحمار ولا تحرير رقبة شعب ذى مسغبة إلا بإلغاء جهاز أمن الدولة الذى تتحكم تقاريره فى كل أنفاس ولهاث مواطن عادى أو سياسى أو

مثقف أو رجل أعمال، ثم قبل هذا كله وبعده تعديل الدستور الذى تحول من عقد اجتماعى بين الشعب والحكومة إلى عقد شقة مفروشة أجرها الشعب الغلبان للنظام الفلتان وبينما يشترط كل مالك شقة على الشخص الذى يؤجرها له مفروشة أن يمتنع عن العبث بمحتوياتها وألا يجلب لها ستات لأن هذه العمارة تسكنها عائلات فإن الشعب المصرى أجر شقته لنظام فاسد وأجر معها ضميره!!

مصلحة مصر

هل مصلحة مصر هى مصلحة الرئيس شخصيا، والذى يراه حسنى مبارك مصلحة نعتبره فورا مصلحة مصر، وهل مصلحة مصر فى أى موقف أو تصرف هى ما يقول صفوت الشريف أو حبيب العادلى أو أنس الفقى إنه مصلحة مصر؟

المذهل المبؤس أن جماعة الحكم فى مصر حرسه القديم والجديد ومراكز القوى فى القصر الجمهورى أو فى البيت الحاكم أو فى شارع القصر العينى (حيث يقع مبنى مجلس الوزراء) أو فى لاظوغلى (وزارة الداخلية) تتصور هذه الجماعات (والذين تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) أنها تمتلك حق تحديد ما فيه مصلحة البلد وما فيه ضدها، فإذا أردنا أن نتحدث عن الفتنة الطائفية نطوا فى كرشك: بس هس مصلحة البلد، وإذا أردت أن تطالب برقابة دولية على الانتخابات كتفوك وألجموك وصرخوا فيك: أسكت اصمت، مصلحة البلد؟ وإذا رأيت أن التطبيع جريمة قالوا لك مصلحة مصر وإذا عارضت مشاركة مصر (أو تواطؤها) فى حرب مع الأمريكان ضد العراق قالوا لك أصلها مصلحة مصر، وإذا وصفت أن ما يحدث من مصر وحكومتها فى القضية الفلسطينية بالسمسرة السياسية غنوا علينا بأغنيتهم الشهيرة مصلحة مصر؟

والواحد يسأل نفسه أحيانا أين هى مصر تلك الطيبة العبيطة التى تسلم نفسها ومصلحتها لمستبدين فسدة لم ينجحوا إلا فى شئ واحد وهو الفشل؟ فنحن فى قاع قوائم الدول فى العالم من حيث درجة الشفافية فى سياستنا وتصرفاتنا السياسية والاقتصادية ونحن فى قعر دول العالم من حيث التصدير ونحن من بلداء الفصل (بل والمدرسة) فى مكافحة الفساد ثم كذلك نحن دولة غير مصنفة دوليا فى التكنولوجيا وكمان عشان الواحد يقول للأعور إنت أعور فى عينه نحن

فى ذيل الدول فيما يخص حرية الصحافة وحريات التعبير فضلا عن موقعنا المتدنى فى قائمة ترتيب الفيفا، فإذا بمصر هذه الغفلانة الشقيانة التى تركت مصلحتها فى أيدى دبة سياسيين جابوها الأرض لا تزال تعتقد أن مصلحة مصر هى تلك التى يحددها ويقررها شركة فساد استبداد ليمتد التى يعرفها الناس إختصارا باسم الحكومة، فكلما أرادت الحكومة أن تكتم الأفواه وتلجم الألسنة وتصادر رأينا (وربما صحفنا) تكلمت فورا عن مصلحة البلد وتحججت فى كل ما تفعله من قرارات غاشمة وإجراءات قمعية بأن هذا ما تمليه مصلحة مصر (يا حبيبتى يا مصر أو يا حبيبة شادية يا مصر).

لقد أدخل مبارك الآلاف إلى المعتقلات والسجون تحت دعوى أن هذا لمصلحة مصر وغير وبدل وشال وحط ومد فى قانون طوارئ ووقف أمام أى إصلاح حقيقى وأية تغييرات جوهرية جذرية فى الدستور بدعوى أن هذه مصلحة مصر وعشرات الأمور على مدى ستة وعشرين عاما يمشى فيها الشعب وراء الرئيس باعتباره هو وحده إللى عارف مصلحة مصر ومصلحتنا، أما نحن فأشبه بجنان ترك فى مسلسل سارة لا نملك إلا أن نتهته (أيزة أروح لحسن)، ثم إن كل السياسيين والموظفين المحيطين بمبارك يعتبرون أن مصلحة مصر هى مصلحة الرئيس طبعا وإللى فيه خير للرئيس فيه خير للبلد والعكس ليس بالضرورة صحيحا لأن خير مصر أن يكون رئيسها محدد المدة بفترتين على حد أقصى كما فى كل أنحاء العالم المحترم والمتقدم، فمن مصلحة مصر أن يتم التعامل مع رئيسها بإعتباره بشرا سويا وليس نصف إله ونبيا يجلس على مقعد الرئاسة مدى الحياة ولا راد لقضائه ولا نص فى الدستور أساسا لمحاكمته (على سبيل الفرض الجدلى النظرى السفسطائى أن لو ارتكب رئيس الجمهورية جرما أو جريمة كالقتل أو السرقة مثلا فإنه لا يوجد مادة فى الدستور تنص على كيفية محاكمته..!)، فضلا عن أن مصر خرجت من نظام ملكى استبدادى يحدد فيه مولانا مصلحة البلد حيث نحن مجرد كنب ومصاطب ورعايا لجلالته إلى حكم جمهورى فاشستى ناصرى ساداتى مباركى كلهم ضباط تعودوا على لغة الأوامر والتعليمات وتمام يا

أفندم "وعلم وينفذ " "ودور نفسك مكتب" و"نفذ واتظلم" ومن ثم لم يكن هناك أصالة ديمقراطية فى فكر أى رئيس! بل تراتبية عسكرية والتزام بقرار القائد ولو خطأ ولو كارثة، فضلا عن أن السخف الذى يردده منافقو النظام حول أننا دولة مؤسسات فربما يكون حقيقيا لو أضفنا فقط أننا دولة مؤسسات معينة، فكيف نتعامل مع مؤسسة القضاء على أنها مستقلة والرئيس يعين رئيس المجلس الأعلى للقضاء ورئيس المحكمة الدستورية ووزير العدل يفعل ما يشاء فى حركة القضاة وكيف نتصور أن مجلس الشعب المزور بالضرورة والذى يسيطر عليه حزب غاشم بتزوير فاضح مؤسسة مستقلة عن الرئيس وهو الذى لا يملك أن يقول للرئيس بم، ويفوض الرئيس فى سلطات الأمة حول التسليح والصفقات والمعاهدات وغيرها من أمور سيادة الشعب التى ذهبت لسيادة الرئيس، فضلا عن مجلس الشورى الذى يعين نصفه الرئيس وكذلك رؤساء الجامعات وعمداء الكليات وعمد القرى ومحافظى المحافظات ورؤساء الصحف الحكومية ومديرى المحطات التليفزيونية الرسمية وكلهم على بعضهم معينون بقرار من الرئيس أو من ينوبه، وباقون برضا الرئيس (من غير من ينوبه) إذن لا أحد من هذه المؤسسات يشارك فى تحديد مصلحة مصر بل هى تعليمات من رئيس مصر فيها شفاء للناس!!
وهو نفس ما نشهده فى الدول العربية التى تعانى من الاحتلال المباشر أو الضغط المباشر (هم السابقون ونحن اللاحقون) حيث مصلحة العراق كان يحددها صدام حسين ومصلحة سوريا يحددها بشار وحزبه وعائلته ومصلحة ليبيا يحددها آل القذافى الأب والابن والابنة، ومصلحة تونس يحددها زين العابدين، ومصلحة السودان يحددها البشير ومصلحة اليمن عند رئيس اليمن وهم جميعا قادرون على اعتبار العداء لأمريكا مصلحة لبلدهم ثم العودة للتنازل لأمريكا مصلحة لبلدهم وهم جميعا (ونحن فى مقدمة الصف باعتبارنا دولة رائدة وعقيدة وعميدة) يحددون مصلحتهم بالقدرة على البقاء على مقاعدهم أو توريث أبنائهم (للغرابة ولا اسم من الذين سردتهم لديهم فترات محددة للبقاء فى الحكم)، وتتجلى فى المشهد المصرى آفة التعامل مع الرئيس باعتباره كبير العائلة والوالد والأب وهو الذى ينزع من

مصر صفة الدولة ويتحدر وينحدر بها إلى حالة القبيلة، فالوصاية الأبوية التى يفرضها الرئيس ومنافقوه على الشعب هى التى تسحب من الشعب حق تحديد مصلحته وتمنحها كالابنة البتول العذراء والقطة المغمضة لوالدها، ويتحول الرئيس من رجل منتخب لمدة محددة لتمثيل الشعب وتنفيذ إرادته إلى ولى أمر الطالبة مصر التى لا تعرف مصلحتها كما يعرفها باباها!! بل وإذا حاولت أن تناقش وتختلف يصكعها والدها على وجهها قلما ويتبارى الناس فى الدفاع عنه باعتباره بيربيها!!

الروح العسكرية والسلطة الأبوية هما اللذان جعلا هذا البلد تحت وصاية رئيسه وحاكمه ولا يتردد مبارك عن التصريح فى حوارات كثيرة عن أن مصلحة البلد لا تسمح بتغييرات جذرية أو إصلاحات شاملة ومن المفروض أن يسلم الناس ويوافقوا الرئيس على اعتبار أنه عارف مصلحة البلد أكثر مننا بل وتتخذ الدولة عندنا حكاية مصلحة مصر وسيلة كى ترهب المختلفين معها ومعارضيها وتعبء وتحشد جنودها فى الأحزاب ومخبريها فى الصحافة وأراجوزاتها فى الإعلام كى يهددوا أى واحد منا يتجرأ ويتصور (ثكلته أمه) أنه يتصرف وفق إيمانه بمصلحة مصر، فمصلحة مصر مثل حديد مصر يحتكرها الأعز والأقرب للسلطة ولا يصح أبدا أن نقول إن من مصلحة مصر أن يترك مبارك مقعد الرئاسة ويمضى للاعتزال لأسباب صحية وسياسية لا لبس فيها ساعتها هذا يضر بمصلحة مصر من وجهة نظر السادة الحكام (وحاملى الراية)، ونحن نظن أن مصلحة مصر فى إلغاء قانون الطوارئ وتغيير الدستور بينما السادة فساد ليمتد يجدون هذا الإجراء ضد مصلحة مصر، ويكاد رجال الحكم يبكون وتنزل الدموع حارقة من عيونهم دفاعا عن مصلحة مصر، وتطلع أنت قدامهم العميل أو الخائن السافل أو المعارض الموتور الذى لا يهمه مصلحة مصر، ولأن مصر لا تنطق وإنما ينطق الرجال (وأشباه الرجال) فإن مماليك الدولة يخلطون دائما بين مصلحة مصر ومصلحة سجون مصر فالثانية هى التى من مصلحتها أن يخرس الناس ويسمعوا الكلام ويمشوا على عجين ما يلخبطوش من أجل زنازين أقل وعمل أريح، أما مصر نفسها

فلا نظن أن من مصلحتها أن يقول الناس كلهم رأيا واحدا وكلاما واحدا ويتخذون موقفا وسلوكا موحدا (طبعا هو موقف الحكومة وحسب أوامرها وتعليماتها)؟ بل مصلحة مصر الحقيقية فى تعدد الأفكار والآراء بل وتعارضها وتطاحنها؟

لكن كيف أعرف أنا مصلحة مصر إذن؟ وكيف أنزع عن الحكم ورجاله فضيلة قراءة الودع ومعرفة مصلحة مصر بينما أنسبها لشخصى المتواضع الذى لا يعرف مصلحته أصلا وإلا ما كان الآن فيما فيه الآن؟ هذا سؤال ذكى ووجيه مع ملاحظة أننى الذى أسأله لنفسى!

حسنا مصلحة مصر أو أى دولة محترمة يقررها عنصران.

الأول المؤسسات المنتخبة وهى هنا فى مصر غير موجودة وغير فاعلة وكلها مزورة ومحتكرة من حزب واحد ومن ثم فلا يمكن أن أقطع بأن البرلمان أو قصر العروبة أو غيرهما معبر عن الشعب المصرى بل هم مختطفو الشرعية ومغتصبوها ويسحب عنهم أى مراقب موضوعى صفة وسمة التعبير الحقيقى عن الشعب.

العنصر الثانى هو الرأى العام الذى تكونه الصحف والمطبوعات والمحطات التليفزيونية والبرامج ومؤسسات البحث واستطلاعات الرأى، ومن الطبيعى البديهى أن نقول إن مصر خالية تقريبا من أى صحف قومية مستقلة بل هى صحف حكومية تعبر عن الحزب الحاكم بل ويتوزع ولاؤها بين أجهزة مباحث أو أفراد البيت الحاكم أو الحرس القديم، فضلا عن احتكار كامل ومطلق من الدولة للتليفزيون وغياب تام لأجهزة الاستطلاعات المستقلة حتى لو افترضنا أن كل هذه العناصر والأطراف اجتمعت على أن مصلحة البلد فى شيئ أو قرار معين فليس معنى هذا أبدا أن نمنع أحدا أو صحفا أو حزبا أو غيرهم من رفض هذا الاجماع والتنديد به ومعارضته، فالأغلبية (غير المزورة طبعا وغير المطعون فيها) من حقها إصدار القرار الذى تراه ولكن هذا لايمنع أبدا صوتا مخالفا وأصوات معارضة من الوجود والتواجد على الساحة (ومن يعرف فقد تكون الأقلية على حق بعد اتخاذ القرار وانكشاف الحال!).

إذن فى مصر (وعلى ما أظن) ليس هناك طرف الآن مؤهل أن يدعى وحده

أنه يمثل مصلحة مصر (بما فيهم أنا طبعا العبد الفقير المعترف بالتقصير) ولهذا فكثير من البلاوى والمصايب تجرى فى حياتنا السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية نتيجة احتكار مجموعة محدودة (العدد والعقل) لحق تحديد مصلحة مصر، وأظن أن تحديد ما هى مصلحة مصر يتطلب منا أن نحدد أولا من هى مصر، هل مصر دولة ديمقراطية أم أنها دولة يحكمها رئيس وإبنه وعائلته؟ هل مصر دولة كل مواطنيها أم دولة رجال أعمالها؟ هل مصر دولة مدنية أم عسكرية؟ هل هى دولة أساسا أم قبيلة وعائلة؟

إن مصلحة مصر الحقيقية أن نتوقف جميعا عن ربط الحمار مطرح ما صاحبه عايزه، لأن مصلحة الوطن ليست حمارا يتم ركوبه لكن ربما يكون بقرة بدليل أنهم بيحلبوها!

أعز ما تملك

خلا برنامج مبارك للترشيح للرئاسة من أى كلمة أو سطر عن الثقافة أو الفن لا شئ فى برنامجه ولا شئ كذلك فى تفكيره تجاه الفن والثقافة بشكل جدى وحقيقى.. دعك من الثقافة الآن، سأتحدث عن الفن وهو الذى لا يعتبره رجال الحكم فى مصر شيئا ذا بال، فقط شاهدت بنفسى مدى ولع رجال دولة كبار بمعرفة أخبار الفنانات والزيجات والطلاقات، وكم كان مسئول كبير متخصصا فى السؤال لبعض زملائنا المحررين الفنيين عن آخر رفقات ومرافقات فنانة بعينها (إن شئت الدقة لم يكن معنيا بعينها بل بمناطق أخرى) أو غيرها، ثم لك أن تلاحظ بدون بذل مجهود كبير أن استخدام أجهزة خاصة الفنانات فى فترة الستينات لأدوار غير أخلاقية فى أفلام غير سينمائية يدلك على نمط التفكير الذى ظل يحكم نظرة الدولة (وإعلامها) فى الفن والفنانين بعد ذلك، الدولة غير منشغلة بالفن ولا تتعامل مع مشاكله وقضاياه (وهى مكررة ومحفوظة) باهتمام ولا أهمية فالفن لديها هو مجرد شغل عوالم ومشخصاتية رغم أن أحدا من كبارات الدولة لا يمتنع عن تلبية دعوة على عرض خاص لفيلم أو مشاركة فنان فى مؤتمر سياسى أو استخدام فنانين فى مواجهة حمى تطرف وإرهاب لكن كل هذا يظل محاصرا بحالة من الفصام بين النظرة الدونية للفن والفنانين، وبين الشغف بسيرتهم والجلوس معهم، ولعل الوسط السياسى كله يتذكر مرابطة سياسى كبير ظل لفترة محل احترام أكبر مما يستحق لفنانة وجلساتها وأمسياتها بل وطنطنت قصص كثيرة عن زيجات وعلاقات بين رجال دولة وفنانات على مدى العشرين عاما الماضية تتقارب كثيرا مع حالات عرفناها فى منتصف الستينات فى مصاحبة ومزاوجة بين فنانات ورجال دولة، ربما الذى جد فعلا هو دخول عالم المذيعات إلى دوائر التشابك بين

الساسة والغرام بالمشاهير (الشهيرات تحديدا) فى هذا العالم المنتفخ بالمغريات!
على الجانب نفسه تكتمل الصورة بتلك الزيجات (أو أشبه بذلك) التى انعقدت (ما هو مؤكد وما هو مشاع) بين رجال نفط السياسة وأمراء مشايخ وقبائل فى الجزيرة والخليج مع فنانات مما جعل الأمر كله يبدو مشبعا بالرؤية السقيمة لدور الفن والفنانين حيث هم مجال تسرية (بمعناها الحسى ومعناها النفسى الشريف) وتسلية (بمعناها الراقى المتحضر وبمعناها البهلوانى المستخف) بل ليس قليلا فى العدد داخل الوسط من يعرف تلك الدعوات التى كان يدعى لها فنانون كوميديون وأولاد نكتة على غذاء أو عشاء مع الشخصيات ذات المقام.

فى سياق السياسة المصرية القائمة على فصام الشخصية التى تقدم وجها ملتزما وصارما أمام الجماهير ثم تعبث (ككل رجال الدولة فى العالم) وتلعب بذيلها مع جوارى السلطة وفى جوار النفوذ والشهرة، يبدو طبيعيا أن تجد صناعة الفن (سينما ومسرح ودراما تليفزيونية وغناء وموسيقى) وقد تراجعت وانهارت لصالح صالح كامل (وهو رجل أعمال سعودى نابه ولا انتقاد له عندى) أو لصالح هذا أو ذاك من الرأسمال العربى أو الخليجى!

وليس غريبا أننا عشنا طول السنوات الماضية بكائيات على احتكار صالح كامل ثم علاء الخواجة ثم الوليد بن طلال للسينما المصرية ولم تتحرك شعرة فى رأس النظام ولم يسأل واحد من سادة مصر الكرام عما يحدث ولم يجفل أو يخجل، هذا كذلك فى الموسيقى والغناء.. ثم يتفشى واضحا فاضحا فى الدراما التليفزيونية كما نلاحظ (وكنا قد لاحظنا من قبل) فى شهر رمضان الحالى.

و قبل أن نفتح فمنا عن دراما المسلسلات المصرية ونموذج ما تم تقديمه فى شهر رمضان الماضى علينا أولا أن نؤكد على عدة حقائق:

١- أن الفن أكبر وأهم من أن يتكلم عنه الفنانون فقط.

٢- أننى لست مغرما بالشوفينية الحمقاء التى تثرثر عن أن مصر رائدة ولا يجب أن يسحب السوريون البساط من تحت قدميها وهذا الكلام الخائب فالحقيقة أن الشوام هم الذين أدخلوا المسرح بشكله الغربى الحديث إلى مصر

وأنشأوه وأسسوه ونشروه وأنجحوه فهم رواد لنا وعلينا فى فروع من الفن بل ساهم كثيرون منهم فى إنهاض فن الغناء والموسيقى لدينا، وقبل هذا فالشوام هم الذين أدخلوا مصر عالم صناعة الصحف وفن الصحافة عن حق وكبريات المؤسسات المصرية الصحفية المؤممة والمملوكة للدولة الآن هى من إنشاء وتأسيس وملكية شوام من رواد الصحافة العربية التى أنبتوها من القاهرة وقد كانت عدما فيها (الأهرام - دار الهلال - روزاليوسف غير عشرات الصحف والمؤسسات التى أفنتها مصر إهدارا أو إهمالا) ومن ثم فأنا لا أجد ضرا ولا ضرارا أن يعود الشوام ويحملون راية الدراما التليفزيونية بعدما ترهلت مصر واتبهدلت، حلال عليهم خصوصا فى وقت عصيب تقبض أصابع ميليس والأمم المتحدة على نظام تعس فعلى الأقل يسعد فنانوه وجمهوره بنجاح فنهم وإبداعهم.

٣- أن الفن فى مصر عانى المرين الأمرين من التحقير والتكفير، تحقير الدولة التى لاترى فى صناعة الفن إلا تحصيل الضرائب والرسوم وقصم ظهر المستثمرين شأنهم شأن بقية المقصومى ظهورهم فى مصر، وأيضا تكفير المتطرفين والغلاة والمتعصبين للفن وللإبداع حتى صار لدينا نجوم وكتاب على قوائم المستباحة دماؤهم من الإرهابيين ولعلنا فى السياق نفسه نذكر أن مسرحية فى أسيوط شهدت هجوما من المتطرفين ثم مسرحية مسيحية شهدت تفجيرا لفتنة وبينهما مسرحية شهدت إهمالا وجرما حكوميا انتهى بحريق أودى بحياة زهرة وخيرة مسرحيى مصر، ألا ينتبه عاقل رشيد أو حتى غادة رشيد إلى أن مصر لم تشهد مظاهرات بالآلاف المؤلفة ضد شئ غير إسرائيل وأمريكا إلا رواية «وليمة لأعشاب البحر» ومسرحية «كنت أعمى والآن أبصر»، ومع ذلك لم يلتفت ملتفت واحد من حكام مصر أو من بقالة الأمانة التى تحكم مصر لدور الفن والإبداع وأهميته لدى الناس سواء لإشعال قنابل الفتنة أو إشعال شموع التنوير.

٤- أن حجم الأموال الدائرة فى عالم الفن (سينما ودراما تليفزيونية وغناء وموسيقى) لا يصل أساسا لحجم الأموال فى صناعة شكاير البلاستيك فى مصر، الفن صناعة ذات رأسمال محدود مقارنة بأية صناعات أخرى ولكن أهميتها أكبر من

صناعة السلاح حتى، لماذا؟.

أ - لأن ضعف حجم الأموال وقلتها دليل على فقدان استراتيجية وخطة والاعتماد على الارتجال والاستهبال فى هذه الصناعة وذلك السوق الذى يمكن أن يتحول للمليارات لو توفر العقل النابه والضمير الصاحى.

ب - أنها صناعة أفكار ومشاعر ووجدان ومن ثم تأثيرها أوسع وأكبر وأشد عمقا من أى صناعة أخرى، ليست صناعة عقول فقط بل قلوب أيضا.

ج- أنها كانت الدخل الثانى من العملة الصعبة لمصر حتى ثورة يوليه ومن ثم التدهور فيها ليس مسئوليتها فقط وليست إمكانياتها بل المسئولية عن ذلك تبعد عنها أكثر مما تقترب منها.

د- أنها صناعة متميزة لدينا ونحن لسنا متميزين فى صناعات كثيرة فى الحقيقة ربما تكون هى الصناعة الوحيدة التى تنفرد مصر بجودتها دونا عن كل الدول المحيطة (أقصد هنا السينما فقط).

هـ- ثم هى صناعة نادرة وليست متاحة كثيرا فى أنحاء أخرى من الشرق الأوسط كما أنها تمتلك تميزا عن آخرين، تلك الجذور الصناعية والتربة الخصبة التى لا تقدر بثمن، لكن مرة أخرى الدولة لا تفهم هذا ولا تعرفه ولا تحرك ساكنا لأنها لا تفهم سوى أنهم شوية فنانين ومشخصاتية وعوالم ومن ثم فالفن فى مصر صناعة وتجارة عشوائية ولا يحكمها منطق ولا خطة ولا استراتيجية، لا أعنى من ذلك رغبة فى أن تدخل الدولة مجال الصناعة الفنية فهى أردأ من أن تفعل شيئا جيدا ولكن ذلك يعنى خطة دولة ومشروع أمة متكامل وليس فوضويا عشوائيا وهو ما جعل الفن المصرى (دون مواربة) يفقد بريقه وجوهره ومن ثم تفقد مصر أعز ما تملك وهو الفن بترولها الثقافى والوجدانى!

نأتى إذن للدراما التليفزيونية التى هى نتيجة وليست سببا، التى هى العرض وليس المرض وقد تابعت الصيحة الصادقة والمخلصة لنجم الإعلام المصرى الصحفى الكبير المحترم محمود سعد حين حذر وأنذر ووصف وكشف وفضح وأفصح أن الدراما التاريخية التى تنتجها سوريا تجاوزت الدراما المصرية تماما وأننا

تراجعنا إلى حد مؤسف ومؤلم، وهو صواب دقيق أعلنه محمود سعد خصوصا عندما ترى مسلسل «ملوك الطوائف» وهو عمل قل أن يجود الزمان بمثاله بل لعله أعظم عمل درامى منذ عرف العرب الكتابة الدرامية وفن التشخيص ثم ترى ما وصل إليه (أى عمل مصرى) من تواضع وضيع يخجلك أنه حتى إتقان الصنعة بات شيئا من حفريات الماضى، والحقيقة أن ما أصاب التليفزيون هو نفس الفيروس الذى أصاب السينما قبله، أخطر ما تعرضت له صناعة الدراما السينمائية والتليفزيونية فى مصر هو وقوعها فى يد القطاع العام الفاسد ثم التهاوى فى يد القطاع الخاص الجاهل، فهناك أربعة منتجين أو أكثر قليلا يتحكمون فى صناعة السينما المصرية فحطموا فنها ورفعوا قدر هزلها وهزالها ثم استداروا على التليفزيون وها هم يمارسون نفس الجريمة (الذين قرأوا كتاب من يدفع للزمار وهو يحكى عن دور المخابرات الأمريكية فى نشر أنواع معينة من الفنون فى العالم لمواجهة الفن الواقعى الاشتراكى لا يستبعد دورا خفيا فيما يجرى فى السينما والتليفزيون وإن كنت لست من أنصار هذا التفسير - التبرير فلا أستبعد دورا نفطيا وهابيا منذ السبعينات هدفه أن تسود سينما اللمبى على سينما سواق الأتوبيس والبرئ وسوبر ماركت) هؤلاء المنتجون بهذه الحالة العقلية التى لا تحمل ثقافة ولا تملك دراية ولا تنشغل بما انشغل به حتى رجل صناعة محترف مثل رمسيس نجيب زمان، هم الذين بالوا على الفن بشيئين، الأول هو تحويل العمل الفنى إلى صفقة مثل رجل الأعمال الذى يتعاقد على صفقة لحوم بشكل عاجل لأن البلد شاحة لحوم فتنزل السوق وتخلص فى أسبوع ويلم خمسة ملايين جنيه مكسب ثم يبحث عن صفقة بلح عشان رمضان أو صفقة أساتيك عشان موسم الدراسة، هذا النوع من رجال الأعمال الذين هم ليسوا صناعا ولا خبراء ولا أولاد كار ولا محبى فن هم الذين يسيطرون على كل شئ كما المافيا تماما فى عالم السينما الآن، ورغم أن أحمد عز يحتكر الحديد ولا أحد يردعه إلا أننا نهاجمه ليل نهار بينما نترك من يحتكر وجدان مصر وليس حديدها لا نقترب منه لأننا (حكومة وشعبا) شايفين أنها سينما وكلام فارغ وهايف فلا نقترب ولا نستغرب!

الشئ الثانى الذى بلينا وبلانا به هؤلاء المنتجون إضافة لاحتكار الصناعة فإنهم احتكروا كذلك الذوق وأمموه بتوحيد شكل الفيلم وهو الكوميدى، كل الأفلام كوميدية لأنها الأكثر طلبا وربحا فصارت صناعة السينما مثل صناعة البالونات والبمب تزدهر فى الأعياد، ومثل صناعة اللب والسوداني والذرة تزدهر فى الصيف، وبتنا نشاهد أفلاما كالسمنة نفس النكهة والطعم مع تغيير الاسم! ثم فعلوا فينا ما هو أفدح فاحتكروا لنا من نحب، فصارت هناك أسماء تعلو و تبرز وأخرى يتم طردها ونبذها من السوق، وصارت أفلام السينما رهن إشارة النجوم الهزليين الذين لم نضبط منهم شخصا واحدا يمتلك عقل فريد شوقى ولا وعى أنور وجدى ولا موهبة أحمد زكى ولا عبقرية عادل إمام، بل منتجين بلا وعى ينتجون لنجوم بلا ثقافة أفلاما بلا فن لجمهور بلا إرادة، وإذا بهؤلاء المنتجون يمارسون نفس الهراء المربح فى التليفزيون، نجوم معينون مفروضون ومعرضون وحدهم مثل عصا العسلية ثم تلف حولها العسلية، وقصص تافهة ومملة وسخيفة وبلا أى خيال، كله فى المكرور والمعاد، وهدر مذهل لطاقة فنانين عظام من الجرم أن نتركهم يفكرون لأنفسهم فيبددون الطاقة واللياقة الذهنية لديهم، ثم الشره المتوحش للربح الذى يجعل المسلسل فى خدمة الصابون والشامبو وكأنها إعلانات طالع لها مسلسل وليس مسلسلا طالع فيه إعلانات، المحصلة، منتج بلا ثقافة ولا أفق مع نجوم بلا وعى ولا خطط تجمعهم رغبة الربح السريع الشره المتوحش مع إدارة إنتاج تليفزيونى ليست فوق مستوى الشبهات، وجهات متواطئة مع محطات عربية تحب أن يفشل الفن المصرى (على سبيل المنافسة التجارية قبل السياسية) فتنعم على هؤلاء بأموال طائلة تشبه جر قدم مدمن للإدمان، فتتهاوى أعمدة صناعة تليفزيونية مدهشة وناجحة جرت فى مصر على سبيل الصدفة ومن حسن الحظ رغم العشوائية، حين خرج علينا سيد الدراما التليفزيونية الأساتذة (فهو فى هذه المهنة ليس أستاذا واحدا ولا يصح أن يكون كذلك) أسامة أنور عكاشة وفى صحبته عطاءات وفيوضات محسن زايد وعاصم توفيق ولينين الرملى، والأفذاذ وحيد حامد ومحفوظ عبدالرحمن ثم مبدعو الإخراج الأكابر الأفاضل محمد فاضل

ويحيى العلمى وإسماعيل عبدالحافظ وإنعام محمد على، هؤلاء الذين وضعوا الأسس والأساسات إذا بالأبناء قد جاءوا مثل العيال المدللة محمتها تبديد ثروة العائلة، يساعدها مناخ عام فى مصر تسيطر عليه شراهة الربح واقتناص الفرص وحصد المغانم وفهلوة العمل وكروتة التشطيب وقرطسة الزبون وصارت قواعد السمسرة والعمولات والرشاوى تحت الترابيزة والهدايا من فوقها هى التى تصنع دراما مصر بل هى فى الحقيقة تصنع الآن مصر كلها.

منذ سنوات كنا ننتقد فوازير رمضان ووجودها المفروض علينا تكرارا وتشابها ومللا ثم تراجع مستواها وانطفأ نجومها وتضاءلت جماهيرتها ثم اختفت، وأظن أن المسلسلات تمشى على نفس تلك الخطوات، والمؤكد أن مصر لم تعد تنفرد بإنتاج الدراما ولا بجودتها ودخلت أقطاب أخرى تلك الصناعة والتجارة مثل سوريا والأردن وقطر ودبى، ثم لم يعد النجم المصرى هو سيد الموقف بل توزعت الأمزجة وتعددت مراكز القوى وكما صار هناك نجوم غناء غير مصريين ملء السمع والبصر ونجوم برامج تليفزيونية وإعلاميين غير مصريين كذلك صار هناك نجوم تليفزيون ربما لم يزروا مصر حتى، والذى لا يتنبه لهذه الحقائق جهول أو غشوم، فلم تعد تنطبق من زمن على مصر المقولة الأشهر فى عالم الثقافة (مصر تكتب وبيروت تطبع والعراق تقرأ)، لم يعد هذا سائدا نتيجة تطور وتقدم الآخرين وتخلفنا وتراجعنا نحن، وليس هناك أبلغ من أن نذكر أن فى شهر رمضان هذا العام لم تعرض محطات تونس والمغرب لأول مرة مسلسلا مصريا فهل يكفى هذا للتدليل والتعليل، مع ثقة مطلقة لدى أن أحدا من المسئولين سوف يتحرك فالكثيرون داخل مبنى الإعلام المصرى متورطون أو متواطئون، والآن أنزل بأغنية تتر النهاية لهذا المقال من كلمات العظيم أحمد فؤاد نجم ومن تلحين حضرتك حسب ما تغنيها..

مر الكلام
زى الحسام
يقطع مكان ما يمر

أما المديح
سهل ومريح
يخدع صحيح ويغر
والكلمة دين
من غير يدين
بس الوفا
على الحر..

حـــــزب عبادة سيادة الرئيس!

سقط حزب البعث العراقى الذى كان يحكم العراق بأغلبية مزورة وإجماع زائف عن طريق غزو عسكرى أنهى عصرا حين أنهى حزبا، وأسقط أمة حين أسقط وطنا، وها هو حزب البعث السورى الذى يحكم سوريا بأغلبية مزورة وإجماع زائف يسقط ويتهادى نحو الهاوية عن طريق ضغط دولى وحصار سياسى وقانونى عالمى، فهل يمكن أن يسقط الحزب الوطنى الذى يحكم مصر بأغلبية مزورة وإجماع زائف عن طريق الإرادة الشعبية من جموع المصريين أم أن انهيار الأحزاب الغاشمة الباطشة التى تزور إرادة الناس وتزيف كل الانتخابات وتتحكم فى أكثر من تسعين فى المائة من مقاعد البرلمان لا يمكن أن تسقط فى أوطاننا عبر حرية المواطن بل باحتلال الوطن.

البعث العراقى والسورى صورة طبق الأصل من الحزب الوطنى الذى يحكم مصر منذ أكثر من ربع قرن بانتخابات باطلة مزورة ومزيفة وبلا شرعية بل باغتصاب وطن والركوب على أنفاسه بالطغيان وكلها أحزاب يرأسها الرئيس الطاغية نفسه صدام /عدى، حافظ / بشار، مبارك/ جمال، توضع صورهم فى كل ثقب فى البلد وعلى كل حائط ويقال عنهم الزعماء الحكماء القادة الأبطال، يحتكرون السلطة رغم أنهم يقومون بإجراء انتخابات وكلهم يدعون أنها انتخابات حرة نزيهة تعبر عن إرادة الناس، نفس الشبه والشبهة، نفس الملامح والقواسم، نفس الوجوه والأقفية، فهل ينتظر المصريون صاعقة من السماء لتخلصنا من الحزب الوطنى أو ضغط دولى سافر أو احتلال أجنبى سافل، أم يثبت المصريون خطأ من ادعى أنهم خاضعون خانعون عبيد وحفدة عبيد،

ويقومون ليسحقوا هذا الحزب الفاشل والفاشى من على صدر مصر التى كتم عليها بفساده وإفساده وباستبداده!

إن الحزب الوطنى من لحظة نشأته الأولى منبت سوء سياسى حيث هرول إليه انتهازيون وأفاقون يسعون للجلوس على حجر الحكم وتحت أقدام الحاكم فتكرس منذ ولادته سوء أصله وقلة أصالته، وبدا من يوم ميلاده حزب الفرعون، وهو ما يتكرر ويتأكد منذ أن ترأسه مبارك الذى شارك فى تأسيسه وكان نائبا له باعتباره حزب السلطة والدولة فلم يكن مبارك يوما رجل أحزاب ولم يعرف له مواطن واحد قابله أو تعرف عليه حتى يوم توليه منصب نائب الرئيس اهتماما بالسياسة أو بالعمل الحزبى، ومنذ تولى رئاسة مصر صار الحزب هو حزب عبادة سيادة الرئيس فلم نشهد يوما عضوا واحدا ناقش مبارك واختلف معه فى شأن سياسى أو قرار حزبى، ولم نر حوارا حادا ولا حرا بينه وبين قياداته ولا نازعه أحد فى صلاحية ولا صارعه أحد على مقعد رئاسته للحزب بل هو الحزب الوحيد ربما فى العالم (ومعه البعثان العراقى والسورى) الذى يقوم فيه عضو حزبى بالهتاف بالروح والدم لرئيس الحزب كأنهم أنفار فى عزبة وليسوا أعضاء محترمين فى حزب سياسى، ولعل الحزب الوطنى أيضا كاشف تماما لتفاهته الحزبية وركاكته السياسية حين نرى الحزب كله بالتعيين، كل مناصبه يعينها رئيس الحزب الذى لم يترشح ضده فى منصب الرئاسة أى عضو فى الحزب أبدا وإطلاقا والبتة، فهل يمكن أن يترشح شخص من الكهنة والرعية ضد الفرعون أبدا؟!، ثم هو نفسه الرئيس الأول والآخر والظاهر والباطن فى الحزب الوطنى الذى يعين نوابه وأمناء الحزب وكل كرسى فى الحزب صغر أم كبر عن طريق التعيين، ثم أى حزب هذا الذى لا يرى رئيسه فرقا بين الجمود والاستقرار، بين الركود والاستمرار، بين الثبات والتصلب!

كان طبيعيا إذن أن يكون حزب عبادة سيادة الرئيس حزب المصفقين والمنتفعين والمطففين فى الميزان، ركوعاً سجوداً أمام حاكمهم ثم يلتفتون فينهشون ثروات البلد بالاحتكار والرشاوى والفساد والقروض، كان بديهيا أن يصبح حزب

السوء والسوءة، حزب السوق والسوقة حزب السرطان والفيروس سى والسحابة السوداء والفشل السياسى والكلوى، حزب البطالة والرطانة، حزب نواب المخدرات والقروض والهاربين من التجنيد والذين لم يصبهم الدور ونواب سميحة!

حزب قام على تزوير الانتخابات (كل الانتخابات التى خاضها مزورة بأحكام قضائية و بقضاء الشعب) فكيف يمكن أن يملك ماءً فى وجهه وحياءً فى خلقته ودماءً فى عروقه ويستمر فى حكم بلد زور إرادتها وحكمها بسيد قراره (الذى هو نائب السيدة) وبنطاعة حزب يعترف أنه زور بينما يطنطن بنزاهته، ومع ذلك فهو يملك من البلادة السياسية ما يجعله يطالب المصريين بانتخابه، أى بعدما نصب على البلد بالتزييف وبعدما ضرب الوطن على قفاه وخطف شرعية حكم بالتزوير وأمن الدولة والأمن المركزى وقانون الطوارئ وسيد قراره ورمى الأحكام القضائية من بلكونة البرلمان يعود وبمنتهى السخافة والسماجة كأنه لم يرتكب ذنبا ولم يجن إثما ولم يجرم فى حق أحد ويتقدم إلى الانتخابات طامعا فى فوز يضمن له ثلثى المقاعد وهو أمر سيتحقق (فى ظنى) بالتزوير العنيف الفاضح والحريرى الخفى وبعشرين فى المائة من الناخبين الذين يذهبون لصناديق الانتخابات وبهؤلاء الذين ترشحوا تحت لافتة الحزب الوطنى أو سينضمون له بعد نجاحهم وقد قدموا الملايين من الجنيهات من أجل مئات الأصوات، لقد انتشرت الاتهامات للمرشحين بشراء الأصوات وبإنفاق الملايين من أجل الحصانة ولم لا فقد انتشرت الرشوة فى مصر حتى صارت القاعدة اليومية للتعامل فى أى مصلحة أو هيئة ومقابل الحصول على حقك القانونى والرسمى لابد أن ترشو المدير والموظف فإذا كان المواطن المصرى يرتشى ويرشو، فها هو فى الانتخابات على نفس الخط وفى نفس السياق يرتشى ويدس له المرشح عشرة أو عشرين أو مائة جنيه فى جيبه من أجل توقيعه على اسمه فى ورقة الانتخابات كأنها استمارة حكومية تماما كما تدس أنت فى درج الموظف حلاوته أو الشاى بتاعه مقابل ختم النسر، وكما يلجأ المصريون إلى العنف والبلطجة ووضع اليد على الشقة أو الأرض فإن المرشح يلجأ إلى نفس

الأسلوب فى البلطجة ووضع اليد للحصول على مقعد البرلمان، لقد صارت الانتخابات مرتعا لأصحاب الملايين الراشين ولآلاف المواطنين المرتشين وإلا بماذا تسمى مرشحا ينزل قرية فيمنح أهلها تبرعات ولعائلاتها هدايا وهذا المرشح الذى يوزع ثلاجات وغسالات وآخر يوزع أسمدة وآخر يمشى يرمى عشرات الأوراق النقدية لكل من يصافحه، بماذا تسميهم؟ ثم بماذا تسمى الذين يقبلون ويمدون اليد ويرتشون مبتسمين شاكرين؟!، لقد نجح حزب الفساد فى إفساد الحكم والشعب، فكان طبيعيا أن يكون حزب السلطة والتسلط، حزب الأوامر والتعليمات، حزب التمديد والتوريث وعبادة الرئيس فصار الرئيس هو الفرض والابن هو النفل. وكما جاء مبارك على رأس الحزب بلا خبرة سياسية ولا سابقة أعمال حزبية جاء ابنه راكبا على حصان أبيض منذ دخل الحزب وحصانه يرتع فى المرعى وينعم بحظوة الراعى، لم يكن جمال مبارك يوما طالبا مشتغلا بالسياسة ولم يكن عضوا فى اتحاد ولا رابطة ولم يخض انتخابات أبدا ولم يقل له رئيس أو مدير «أف» ولم ينهره زعيم فوقه ولا رئيس قبله ولا زميل منافس ولا خصم معاند، بل ولد وفى فمه ملعقة حزبية من ذهب، ودخل والكل يفتح له الأذرع والأحضان والبساط والسجاد والمدح والتمجيد، فكان أشبه بولى عهد فى بلاط قصر وليس مجرد مواطن يدخل السياسة من أبوابها ويصعد السلالم من أولها، بل قفز مثل قفزة الزانة وصعود مثل صعود كبسول فضائى، ليحتل مقعد الوريث وتفتح له أمانة يترأسها ويحكم الحزب ومصر من خلالها فتصبح من طبائع الأشياء أن يتخيل ولى العهد أنه الأجدر والأولى والأقرب، وصار له رجاله وحلفاؤه والناطقون باسمه والعاملون برهن إشارته من وزراء ورجال دولة وكتبة وعرضحالجية من أجراء الصحفيين ومخبرى الصحافة، وصار مبارك الابن فى موقعه وسلطته لم يسمع فى يوم جدلا حولها فى الحزب ولم يصادمه قيادة حزبية ولا وزير فى وزارة ولا رجل دولة ولا شاب نزق مغامر من أبناء المسئولين فى بلاط الحكم بل تمسح بقميصه السياسى الجميع وطلبوا رضاءه ونعمته وتجنبوا مخالفة ولائه ونقمته، فصار جمال مبارك نتيجة كل هذا لا يطيق معارضته ولا يتحمل نقده بل صار أضيق صدرا

من والده الذى قد تبرر سنوات عمره وعمر حكمه الطويل أن يقول كلاما غضوبا أو يأمر أمرا عجولا، لكن صاحب أمانة السياسة لا يتحمل نقدا ولا شدة فيطلق تصريحات أو بيانات تخلط بين الحماس والعصبية، بين الثقة والغطرسة، بين التنديد والتهديد، بين السلطة والسطوة، بين أمين لجنة فى الحزب وبين ابن رئيس الحزب، لكن هل معنى هذا كله وهو مرير ومؤلم أن الحزب الوطنى حزب المضللين يخلو من المحترمين ؟ قطعا لا، فى الحزب الوطنى محترمون ومخلصون يفعلون ما يصدقون ويصدقون ما يفعلون، لكنهم فى هذا الحزب الغاشم الفاسد المفسد شأنهم شأن منافع الخمر، ألم يقل لنا الله عز وجل إن فى الخمر منافع للناس لكن إثمها أكبر من نفعها؟، فها هم محترمون وأفاضل وأجلاء وشخوص راقية وشخصيات نبيلة فى الحزب الوطنى لكنها لا تجعله حزبا محترما سياسيا أو تنزع عنه استبداده وفساده وعبادته للحاكم وكهونته للفرعون، فلم تجعل منافع الخمر يوما الخمر شرابا حلالا طهورا..

هذا الحزب ينهى مستقبل مصر، يدفع الناس إلى يأس مقيم، واليأس باب الإحباط و الإحباط يقود للغضب والغضب يولد الانفجار، وليست المشكلة أبدا فى شريحة من المثقفين والسياسيين المعارضين أو فى جرائد مستقلة سوف تشعر أنها تحرث فى البحر فليس هناك واحد منا (على الأقل) ينتظر انتخابات حرة كاملة تنتهى نهاية سعيدة فأى شخص حصل على شهادة محو أمية سياسية يعرف أن هذه الانتخابات متى تمت بطريقة المقعد الفردى وتحت ولاية حكومة حزب وطنى وبامرة شرطة حبيب العادلى وبطموحات جمال مبارك وتخطيطات أحمد عز وبآخر أمتار فى مشوار كمال الشاذلى وصفوت الشريف وفتحى سرور فلن تحقق إلا ما توافق عليه هذه العصبة وتقسم عليه هذه الضغمة، لكن المشكلة فى هؤلاء المواطنين الذين تضللهم وعود حزب كذوبة وإعلام حكومة مضلل وصحف دولة منافقة، هؤلاء المواطنون الذين يتراوح عمرهم بين اليأس والأمل، وتضغط عليهم ظروف الحياة وصنوف الفقر، سيجدون أن شيئا لم يحدث وأن جديدا لم يجد واختلافا لم يأت فستتراكم طبقات الغضب واليأس والقنوط فسيطرقون باب

الجهل والتطرف الدينى، أو النهب والرشوة، أو البلطجة واللصوصية، أو حين يشتعلون فى شغب وغضب مثلما جرى فى انتفاضة عساكر الأمن المركزى عام ١٩٨٦أو كما جرى فى شهر أكتوبر الماضى فى محرم بك بالإسكندرية وهى لحظة مرعبة نتمنى أن يجنبها الله مصر بينما يقودنا لها الحزب الذى يصر على أن يحكم مصر!

ما جرى فى دول صربيا وجورجيا وأوكرانيا من ثورات ديمقراطية لشعوبها قامت لترفض الاستبداد والديكتاتورية وتطيح بنظم فاسدة وقيادات غاشمة جرت كل هذه الحركات والثورات بعد انتخابات رئاسية أو برلمانية وليس قبلها، بل الانتخابات المزورة المطعون فى شرعيتها هى التى فجرت بركان الغضب فى أوروبا وغيرت الحكومات وطردت الحكام، ولا أقول إن هذا سوف يحدث فى مصر بعد تزوير الانتخابات البرلمانية القادمة...لكننى أقول إن النمل قد أكل عصا سليمان ومع ذلك لانزال نخاف منها!!

جمال سر أبيه!

أثبتت انتخابات مجلس التصفيق الأخيرة (المعروف نظريا باسم مجلس الشعب) أن الولد فعلا ابن ابيه، وأن جمال مبارك هو ابن حسنى مبارك بالدم وبالسياسة، وأنه فعلا وريثه فى الأسرة وفى الحكم، فالرئيس مبارك حين جلس على عرش الحزب الحاكم اعتمد على كمال الشاذلى وصفوت الشريف وبينما كانت مصر كلها تشعر بالكراهية (السياسية ولا أملك ولا أقدر أن أؤكد على الكراهية الإنسانية لهما) فقد كانا الأقرب لعقل وقلب رئيس الحزب الحاكم الذى جعل للأول مهمة العضوية وتضبيط الأعضاء وتصريف الانتخابات والتربيط والصفقات وتوزيع الغنائم والمغانم السياسية، أما صفوت الشريف فقد كانت مهمته الإعلام المطنطن والمطبل والمضلل الذى كان يغنى عن نزاهة الانتخابات وروعتها وديمقراطيتها وكان يأمر وينهى فى رؤساء تحرير الصحف ونشرات الأخبار والضيوف وهيئة الاستعلامات والمراسلين وكله على كله، ثم كان هناك وزير الداخلية أيا كان الذى يزور ويزيِّف ويقفِّل ويسوِّد ويعلن النتيجة التى يخرج فيها الحزب الوطنى مكتسحا كاسحا للشعب وللأمة، نفس ما فعله الأب يفعله الابن بالسنتى والملى وكأنه حتى لم يدرس فى الجامعة الأمريكية أو قضى أعواما فى لندن، بل هى نفس تربية القصر وبلاط الحكم ونمط تفكير ولى العهد الذى يطبق ما رآه وتعلمه من حكمة السيد الوالد، فها هو جمال مبارك بعدما مكنه الرئيس الوالد من الحزب الحاكم يعتمد على نفس الضلعين لذات المهمتين، أحمد عز للعضوية واختيار الأعضاء والإشراف على تصريف الانتخابات والتضبيط والتربيط وإخراج النتائج والصفقات وتوزيع الغنائم والمغانم وكأنه لا فرق بين محام قديم ريفى مسن قضى شبابه كله فى الباجور كالشاذلى وبين أحمد عز الملياردير ابن المليونير زميل جمال

مبارك فى المدرسة وفى الحزب وفى القصر! ثم الضلع الآخر محمد كمال الذى يلعب نفس دور صفوت الشريف من حيث السيطرة على إعلام مطنطن ومطبل ومضلل يغني(بتعليماته وأوامره وسعيا لرضاه ومكالماته التليفونية) عن نزاهة الانتخابات وروعتها وديمقراطيتها، وهى أكاذيب وأضاليل لا يصدقها سوى موظفى محمد كمال فى الحزب وخارجه، وكأنه لا فرق بين ضابط سابق مثل صفوت الشريف بنى نفسه بعد نكسة وطنية وشخصية وبين شاب بورسعيدى انطلق من مذاكرته فى المدينة الجامعية إلى الدكتوراة من أمريكا، لا فرق بل نفس الإعلام الموجه، نفس التصريحات والغمغمات والدعاية التى يرددها ببغاوات المنافقين والمضللين وراء محمد كمال وتعليماته، وهما ضلعا الابن أمام الرأى العام ومصر كلها تشعر تجاهها بالكراهية السياسية(ولا أملك ولا أقدر أن أؤكد على الكراهية الإنسانية) ويتكرر دور وزير الداخلية أيا كان اسمه وتحول وزارة الداخلية سلاحها فى التزوير من طريقة السونكى الغليظ والعصا الكهربائية إلى التزوير بالسم السياسى وبتزوير الآلة الحاسبة وتغيير الصناديق و بدلا من ضرب الناخبين لجأت إلى ضرب الأصوات، ولأن الابن سر أبيه، فقد كان الرئيس الوالد قد أبقى رؤساء تحرير صحف يدينون له بالولاء على مدى خمس وعشرين سنة ينافقون فيه كل يوم ويجعلون منه قديسا وحكيما ونصف إله ولم ينقدوه فى همزة لمزة ولم يسمحوا بأن تعفر جاكتته ذرة من نقد ولا شئ من هجوم، وها هو جمال مبارك ابن أبيه تماما حين يعين بنفسه وبأمانة سياساته رؤساء تحرير اختارهم بنفس الهمة ولنفس المهمة، وكما كان الأولون رجال الأب جاء التابعون رجال الابن يجمعون بين ولاء عساكر الأمن المركزى مع ضآلة الموهبة وغياب المصداقية ونهم النفاق كأنهم أرقاء جدد انضموا إلى مماليك القلعة فيقدمون أخلص ما لديهم لسيدهم ردا للجميل وطلبا للعطايا، ويجمع منهج الابن ووالده نفس الإصرار على الاستحواذ على السلطة كاملة ومطلقة، فتتجلى غطرسة قيادات الحزب الجدد الذين لا يطيقون منافسة ولا يرون خصوما، مغترون ومعتزون بقوتهم وأنهم يقولون لأى شئ فى البلد كن فيكون وهم يتصرفون كأولاد الأعيان الذين يعملون

مع ولى عهد، يكفى أن تشاهد أحدهم فى التليفزيون لترى إلى أى درجة بلغ فرحه الغشيم بسلطته وتباهيه الفج بقوته ويكفى أن تشاهدهم فى مؤتمر انتخابى طواويس صنعها الكبر لا الكبرياء، الاعتزار بالنفوذ والسلطة والمنعة والنعمة التى جاءت من الآباء أو من القرب من الابن أو رضا القصر، شاهد م-م وهو يتحدث عشية الانتخابات كأنما يا أرض اتهدى ما عليكى قدى، تأمل م-ك وكأنه يصدق أن الجماهير تقبل ظهر كف حزبه أن يتكرم فيحكمهم، أمعن البصر فى ي-غ متعاليا على أى نقد كأنما فعلا أصوات الوزارة التى أنجحته هى أصوات حقيقية تحبه أو تريده، تأمل لغة الجسد وإيماءات وحركات أ-ع وهو يتابع نتائج الانتخابات وكأنه فى مخيم فلوريدا كأنما يظن أن مصر عند أطراف أصابعه وأن مواطنى البلد هم فقط أولئك الذين يلتقى بهم من قيادات حزبه أو مصانعه أو صحفيين دعايته أو زملائه من رجال الأعمال، أما جمال مبارك فهو يقف فى مؤتمراته الانتخابية يقول نفس الحروف والألفاظ، نفس الكلمات والأرقام، نفس ما يقوله والده والذى يعتقد أنها إنجازات تبرر أبدية حكمه ووراثة نجله لنفس مقعده فى قصر العروبة، إن أفضل ما جرى الأيام الفائتة أن الذين راهنوا على أوهام الحرس الجديد وعلى أن جمال مبارك يختلف عن والده وأنه شاب مدنى غير عسكرى يسعى للإصلاح وكل هذه الخرافات التى حاول أن يروجها الكثيرون تبريرا لسعيهم خلف أطراف بدلة جمال مبارك قد انكشفت كالبدر فى ليلة تمامه، فالابن سر أبيه وتوأم سياسته، وذات المنهج المستبد المتغطرس القاتم القائم، لعل الذين راهنوا على جمال مبارك قد انسحبت حجتهم وتداعت دعاياتهم وانهارت مبررات المنافقين والمتوافقين والموائمين والمتوائمين والمشتاقين والموالسين لجمال مبارك الذين كانوا ينتظرون لحظة انتقال السلطة له بنفاقه وترويج وتسويق دعاياته عن أوهام إصلاح أو إصلاح أوهام، حتى الذين لاكت أقلامهم وتوجعت أسنانهم وهم يبررون لجمال مبارك وأمانة سياساته العجز عن إقناع الناس بصدق النية فى زعمهم الإصلاح بأن هذا سببه الحرس القديم فقد خابت حجتهم فما فعله عز لا يختلف فى حرف عما فعله الشاذلى بل لعل الشاذلى أوضح، وما قدمه محمد كمال لا يفرق عما قدمه

الشريف بل لعل الشريف أرق وأفطن، وما ظهر من صحف الحكومة الذى عين رؤساءها جمال مبارك لا يختلف فى الغوغائية والدعاية الفجة القميئة عما فعلته صحف الحكومة فى السابق بل لعل رؤساء تحريرها السابقين كانوا أعقل وأحرف، إن الرهان على جمال مبارك لم يعد الآن سوى محض نفاق من منافقين أو خيبة وسذاجة من آخرين، يحكى لنا التاريخ الحديث أنه لم يمنع النظام الوراثى الملكى فى البلاد العربية كما يذكر ملف هام لمركز أبحاث قناة الجزيرة على النت من حدوث حالات عزل وعنف وقوة رافقت انتقال السلطة كما حدث فى الأردن عام ١٩٥٢ عندما أعفى الملك طلال من منصبه، وفى السعودية عام ١٩٦٤ عندما عزل الملك فيصل أخاه الملك سعود وفى عمان عام ١٩٧٠ عندما عزل السلطان قابوس أباه سعيد، وفى قطر عام ١٩٧٢ عندما عزل الشيخ خليفة بن حمد سلفه وابن عمه الشيخ أحمد بن على وفى عام ١٩٩٥ عندما عزل الشيخ حمد بن خليفة أباه، وفى حالات السعودية وقطر وعمان كان ولى العهد هو الذى يقود عملية العزل أو الانقلاب السياسى، وأخشى أن لهفة البعض من مريدى أمانة السياسات قد تجعل الوراثة الحزبية لا تقل تعجلا عن الوراثة الملكية مما جعل صعود جمال ورجاله فى الانتخابات الحالية متعجلا ومتغطرسا ومفضوحا من حيث اختيار الأسماء وتحديد الناجحين وقوائم المطلوب اسقاطهم والتليفونات التى تلقى التعليمات لرؤساء اللجان فى اللحظات الأخيرة وعدم إعلان أى نتيجة لوطنى أو إخوانى أو معارض إلا بعد إبلاغ أمانة السياسات أولا، وهو ما يؤكد ما تذهب إليه نفس الدراسة السابقة التى تشير من وجهة نظرى إلى مكمن الخطر حيث إنه فى الدول التى حكمها حزب واحد كما فى العراق وسورية ومصر وتونس لعبت الصراعات الداخلية بين مراكز القوى فى الحزب أو مؤسسات الحكم دورا فى انتقال السلطة أو التوازن بين مراكز القوى، ولكن الأحزاب تحولت أيضا(الآن وكما نرى ونتابع ونتتبع فى مصر جمال مبارك وفى العراق كان عدى صدام وفى سوريا شفنا باسل ثم بشار) إلى مؤسسة فرد واحد وانتهى صراع مراكز القوى لأنها لم تعد موجودة، ولم تعد الأحزاب القائمة حتى وهى أحزاب حاكمة تؤدى دورا

حقيقيا فى تنظيم انتقال السلطة. وإذا بقيت هذه الحالة قائمة فى دول الحزب والجمهوريات فإنها ستؤسس لعائلات حاكمة تتحول إلى ملكية، وهكذا فإن الدول العربية تتجه إلى الحالة السابقة للجمهوريات لتعود ملكية من جديد، والواقع أن تجربة الجمهوريات فى تطبيقها الفعلى فى الدول العربية جعلت تهمة الرجعية والاستبداد التى كانت تطلق على الدول الملكية تبدو مضحكة وغير واقعية.

هذا ما تذهب إليه دراسة موقع الجزيرة لكنى أريد أن أذهب لأبعد من ذلك، فالواقع أن صراع الأجنحة يصبح خيرا وبركة لو كان على مبادئ ومن أجل غايات و أفكار لكن الصراع فى الغالب داخل الأحزاب التى تحكم الوطن العربي(حزب البعث والحزب الوطنى) ليسا كذلك إطلاقا بل هو فى مصر تحديدا صراع بين رجال الرئيس الوالد الذى يتحدث الجميع على أن هذه هى مدته الأخيرة فى الحكم وبين رجال الابن الذى يتحفز للقفز على مقعد الرئاسة الملكية ومن هنا يبدو الصراع شخصيا وما يؤكد ذلك أن طرفى الصراع متشابهين تماما فى كل شئ من الاستبداد والغطرسة والاستحواذ واحتكار السلطة واحتقار المعارضة والانتصار لقانون الطوارئ وللحد من الحريات وللاستخدام الفاشى لقوى الأمن وتجاهل أحكام القضاء والتحايل عليها باستشكالات تعطل وتعوق لتفرض حكم سيد قراره الذى يرسخ التزييف والتزوير ثم هذا الكذب الإعلامى والتضليل بل و إنكار الاختلاف بينها وبدا مدى التشابه المذهل والتوأمة السياسية والنفسية والسلطوية فى هذه الانتخابات غير المحترمة والتى صنعت عارا مشتركا للطرفين ومزقت قناع أمانة السياسات نهائيا بعدما تمزق ونسل وبره فى انتخابات الرئاسة ذات ال٨٨.٥%، لقد تشابهوا علينا ولا خلاف ولا اختلاف بينهم سوى هذا الصراع حول البقاء فى المقعد فى الكراسى الموسيقية التى يلعب فيها وبها رجال الحرسين القديم والجديد(وكلاهما حرس) كان(وربما لايزال) هناك فريق من المثقفين والمنتفعين الذين يشبهون الموتسيكلات التى تسبق مواكب المسئولين يزعمون فى زفة زار دعائى أن جمال مبارك هو البديل المدنى الذى يسعى للإصلاح بل كانت هناك(ولا أظن إنه يزال) دوائر أمريكية وغربية تتصور أنه

يمكن التفاهم مع الابن حول إصلاحات حقيقية، لكن يشاء السميع العليم أن الابن سر أبيه فعلا وملتصقاً بسياسة ومنهج السيد الرئيس الوالد فى الحكم، وما كنا نحاول أن نشرحه للكافة من خطيئة الرهان على جمال مبارك بدا واضحا تماما بعد انتخابات الرئاسة التى خطط لها النجل وأدارها لصالح الأب وخالفت كل القواعد الديمقراطية وانتهت إلى استفتاء مقنع، ثم هاهى انتخابات البرلمان التى يقدم جمال مبارك فيها نفسه باعتباره (ورجاله) مخ وعصب الحزب فإذا به لم يفرض التزاما على أحد من أعضائه ثم اختار من الثمر الطالح أعطنه ثم أدار مع حزبه عمليات أقل مايقال عنها إنها تزوير يماثل تزوير حزب الشريف والشاذلى، سقطت كل دعوى ودعايات الترويج لجمال المدنى الإصلاحى و الشخص الذى لا يرى ذلك إما غافل أو متغافل ضرير الضمير، يبحث لهاثا عن مصلحته وليس عن مصلحة وطن، المشتاقون والمتشبثون بحلم القفز فى مركب الابن المبحرة(فى زعمهم) نحو شاطئ قصر العروبة هم وحدهم الذين لم يروا أوراق التوت الساقطة من جسد حزب سياسى سلطوى مزور ومزيف، تحطمت دعاوى الرهان على الابن مع تحطم زجاج صناديق الانتخابات مع البلطجة وتزوير الآلة الحاسبة وجدول الضرب، والسؤال فعلا ومن أين تعلم جمال مبارك الديمقراطية وهو ابن رئيس يحكم بلدا منذ أربعة وعشرين عاما ولمدة خامسة بدون انتخابات حقيقية؟ ومن أين يعرف الديمقراطية وتداول السلطة وهو فى حزب يحتكر السلطة ولم يتزحزح عن أغلبيته المزورة منذ حوالى ثلاثين عاما؟ هل عرف الديمقراطية من أصدقائه فى جمعيات رجال الأعمال والغرفة التجارية الذين يصيفون فى أسبانيا ويملك أقل واحد فيهم يخوتا للويك إند؟ هل من الصبية والشباب الذى يلتقى بهم فى جمعية شباب المستقبل يصفقون ويهللون له أم من جموع الموظفين الذين يجمعهم له حزبه فى المؤتمرات الحزبية ويهتفون له بحثا عن منفعة؟! لقد أثبتت الأحداث والحوادث حقيقة الوهم الذى حاول المغرضون والمنتفعون(وبعض من أبرياء طيبين) ترويجه وتلبيسه وتبليعه للمصريين، ساحت مساحيق المكياج وبانت الملامح الحقيقية ولم يعد ينفع فيها سيلكون ولا نفخ ولا عمليات تجميل،

ويا أيها المروجون والتابعون لجمال مبارك والملتفون حوله والواقفون وراءه، سمعونا صلاة النبى!

هواء «الوطن» ملوث!

كأنه لا يكفينا التلوث السياسى الذى نعيشه من سياسة الحكومة بالتزوير والتعذيب والبطالة والنطاعة السياسية حتى تأتينا موجات التلوث البيئى على يد حكم وحكومة هذا الحزب الملوث سياسيا بسنوات الاستبداد والفساد..

مش معقولة.. هواء القاهرة ومصر الذى امتلأ منذ الأحد الماضى بالغبار الأسود والدخان الثقيل الذى يجثم على الصدور ويفسد الرئة ويخنق التنفس ويثير الكآبة والاكتئاب ويعصف بصحة عيالنا وأطفالنا ويرمى بهم للاعتلال والمستشفيات، فنقف نتفرج على عجز الحكم عن تنقية سماء مصر وهوائها من التلوث المدمر للصحة وكأن هذا الحكم متواطئ بجهله وإهماله وفساده مع السرطان والفشل الكلوى والضغط والسكر وكمان مع الأمراض الصدرية ضد شعب مصر الذى يقف بصحة معتلة وإرادة مسروقة أمام هذا الحكم عاجزا عن طرده خارج سلطته بل ومحاكمته على جرائمه فى حق ثروة مصر وصحتها!

شعب مصر المسلوبة والمسروقة ها نحن نرى صحتنا تنسل منا تدريجيا، ها نحن نرى الحزب الوطنى الحاكم الذى لا يرى سوى هواء شرم الشيخ وهو يعجز عن حماية حدودنا من التلوث، فى ماء النيل وهواء البلد، فماذا ننتظر؟.. أن يردوا لنا صحتنا.. أم يردوا لنا وطننا..

أم نرد لهم الصاع صاعين!

اشبعوا بيها!

إذا كانت أغلبية ثلثى أعضاء مجلس الشعب هى التى ستريح قيادات الحزب الوطنى وتبرد نارهم، خلاص يا سيدى، اشبعوا بيها، مطرح ما يسرى يهرى!

نحن نعلم طبعا أن الغرض الأساسى من هذا السعى المحموم والمهووس من قيادات الوطنى، قديمه وجديده، لنسبة الثلثين فى مجلس الشعب هوإطلاق يد الرئيس وتفويضه فى عقد صفقات واتفاقيات لا يجرؤ أحد على سؤاله عنها ولا مناقشته فيها ولا معرفة أية تفاصيل لها لتظل سرا مخبوءا فى قصر العروبة لا يطلع عليه أحد ولا يقدر ممثل للأمة أن يسائل فيه وعنه رئيس الأمة وهى تلك الصفقات التى يفوضه فيها المجلس بأغلبية الثلثين تحت شعار لا يسأل عما يفعل وهم يسألون!

الحزب الوطنى يريد أن يفوض سيد الحزب فى عقد تلك الصفقات منفردا ومنزها عن السؤال والمساءلة كأنه تفويض للرئيس بالفرعنة، أن يكون فرعونا فى قراراته فوق المحاسبة، سواء من الكهنة أومن الرعية، وهوأمر لا شبيه له ولا نظير سوى فى البلاد الديكتاتورية المستبدة ومصر والحمد لله تاج على رأس دول الاستبداد ونظم الطغاة!

ليكن، ليوقع الرئيس ما يوقعه وليفعل ما يفعله وحده دون سؤال ولا استفسار ولا معرفة ولا اطلاع من ممثلى الأمة، فلتنسحق الأمة كلها إذن تحت وطأة التزوير والبلطجة وإرهاب الدولة حتى يتم هذا التفويض ليرتاح ويهنأ النظام فى مصر وينام قرير التفويض!

لكن أسوأ ما يكشف عنه هذا الإجرام السياسى الذى يمارسه الحزب الوطنى من تزوير وتضليل وكذب وعنف وترويع وتهديد الناس والصحف المستقلة ومنع

الناخبين عن الوصول للجان الانتخابات، أسوأ من هذا كله أنه يكشف من حزب فاشل منقوع فى الفشل، هو فاشل لأنه للدورة التالية على التوالى يضرع ويركع للمستقلين مطاريد الوطنى كى ينقذوه ويحموه من فقدان أغلبية الثلثين، هذا ما حدث فى انتخابات قادها الحرس القديم عام ٢٠٠٠ وهومنقوع فى الفشل لأن ها هو حدث بحذافيره مكررا فى ٢٠٠٥حين قاد المسيرة التى تحولت إلى مسخرة الحرس الجديد بنفسه، فإذا لم يكن هذا هوالفشل، فما هو تعريف الحزب الوطنى وتابعيه وأتباعه للفشل ؟

الجانب القاتم فى مشهد الحزب الوطنى هو حصوله على ٦٨مقعدا فى المرحلة الأولى ثم ٣٤فقط فى الثانية ثم ٤فقط فى الجولة الأولى من المرحلة الثالثة، هذا ما حصل عليه الهلال والجمل وهو كما ترى سيادتك تعبير عن هزال الحزب وهزله، أما هزاله ففى هذا العدد الضئيل الذى لا يوفر له (بفرض نجاح حتى الستين هلال وجمل الذين يدخلون إعادة المرحلة الثالثة) أغلبية نصف مجلس الشعب وليس ثلثيه أساسا، أما هزل الحزب فهو هذا الإصرار الذى يشبه إصرار وحماس المذيع الكبير أحمد سعيد فى البيانات الكذوبة التى كان يلقيها فى إذاعة صوت العرب أثناء نكسة يونيو ٦٧عن مئات الطائرات التى كانت مصر تسقطها للعدوالإسرائيلى، ها هم قيادات الحزب الوطنى فى حالة هزلية مشابهة يتحدثون عن أغلبية الثلثين التى حصلوا عليها وهومحض كذب بائن فاضح فاجر!

ومع ذلك اشبعوا بيها!

فهى تكشف لنا أيضا عن حزب تتحكم فيه عقلية الإكتساح، فهويتصور أن الانتخابات كده والسياسة كده، اكتساح وفرم وسحق للمنافسين والخصوم، و نهم أكول شره يريد أن يستحوذ على كل شيء ومن كل جوانبه حتى يشبع، حتى يهجع، وهذا بالضبط ما يؤكد على خراب ديمقراطى بين جدران هذا الحزب وفى الخراب لا تسمع سوى عويل الرياح وعواء الذئاب فضلا عن الروائح التى لا مبرر لوصفها!!

كذلك يبدو هذا الاستبحس الذى أصاب الحزب الوطنى بعقدة الثلثين أقرب

إلى تعرية ضعفهم الفكرى وتهاوى منطقهم السياسى فهم لا يملكون قدرة على إقناع أى معارض أوخصم تحت قبة البرلمان برأيهم ومشروع قانونهم ويعلمون يقينا أن ما يقدمونه لن يستطيعوا إقناع عاقل به ومن ثم لابد من الأغلبية الساحقة الماحقة الاستحواذية التى تقول للمعارضين اللى مش عاجبه يضرب دماغه فى الحيط، لا مناقشة ولا مناهدة ولا وجع دماغ، إنهم يسعون إلى قوانين يتم تفصيلها وسلقها وطبخها فى ليلة وهوب عينك ما تشوف إلا النور موافقون ومصفقون أينما كان زكريا عزمى والشاذلى نكون!!

وفى سعى الحزب الوطنى لتلك الأغلبية الكاسحة الماسحة لأى معارضة حقيقية يفقد أعز ما يملكه أى حزب حاكم فى أى دولة ديمقراطية، يفقد السلطة الأخلاقية!!

نعم هناك سلطة سياسية وقانونية لكن هناك شرعية وراء كل هذا فى السلطة الأخلاقية!

كيف؟(كويس إنك سألت!) هل تتذكر السيد أحمد عبدالجواد (سى السيد) عندما رآه ابنه الكبير ياسين (أرجوان تكون قد أخذت بالك انا أتحدث عن ثلاثية العظيم نجيب محفوظ بين القصرين) عندما رآه ابنه فى عوامة العوالم يرقص ويسكر ويميل على زنوبة العالمة فى موقف مسخرة وقلة أدب، هنا فقد سى السيد السلطة الأخلاقية على إبنه، نعم سقط فى نظر ولده، يظل الوالد له سلطة الأبوة وسلطة المال الذى ينفقه على ابنه لكن الأخطر هو سلطة القدوة والمثل وتلك هى السلطة الأخلاقية!

ولأن سى السيد هو أب ووالد فلا يستطيع الابن أن يحاسبه على سقوط سلطته الأخلاقية ولكن فى الدول ومع الرؤساء هم ليسوا آباء ولسنا عائلة بل مجتمعا وشعبا يمكن أن يحاسب بل مفروض أن يحاسب الحكام والحكومات حين يرى سقوط سلطتهم الأخلاقية.

ينطبق هذا تماما على الدول والحكومات والرؤساء المحترمين، حين أجبر الأمريكان نيكسون على الاستقالة لأن سلطته الأخلاقية انهارت مع تورط إدارته

فى التجسس على الحزب المنافس، وحين كذب كلينتون على الشعب الأمريكى حاسبه الجميع على كذبه وانهيار السلطة الأخلاقية للرئيس الأمريكى ليس لأنه داعب فتاة فى مكتبه بل لأنه كذب على شعبه!، كذلك جورج بوش اهتزت شرعيته فى مدة ولايته الأولى لأنه جاء بانتخابات مشكوك فيها مما جعله لوقت طويل عاجزا عن ادعاء تفويض الشعب له. الأمر هنا واضح تماما مع الحزب الوطنى الذى يعتز ويغتر بحكمه وسلطانه بينما النظام كله فقد سلطته الأخلاقية على المصريين فكيف له أن يطالب الشعب بعدم تلقى الرشوة وهو حزب يرشو من أجل فوزه، وكيف يجرؤ على محاسبة الناس على العنف والبلطجة وهم يمارسها دون أن يرمش له جفن أو تهتز له شعرة فى صدره، كيف يملك أن يقول للناس لا تزوروا وهو المزور الأعظم، لا تنتزعوا وتغتصبوا حقوقا وهو مغتصب سياسى منتزع سلطة؟ كيف يواجه من يضع يده على أرض دون وجه حق أو قانون بينما هو يحكم مصر وضع يد؟ كيف يقول عن جماعة الإخوان المسلمين إنها محظورة غير شرعية وهونفسه غير شرعي؟ صحيح من الذى حظر جماعة الإخوان؟ ومن ذلك الذى يمكن أن يمنحها أو يمنعها الشرعية؟

هل يمكن أن يمنح أو يمنع نظام فاقد لشرعيته شرعية لأى أحد فنحن نعلم أن فاقد الشئ لا يعطيه؟!

ثورة يوليو التى كانت يوم قامت انقلابا عسكريا انتزع السلطة من الملك، كانت نظاما يفتقد الشرعية فسحبها عن الأحزاب السياسية وجماعة الإخوان، فمن ذا الذى يمنح ويمنع؟ سلطة انقلابية وحكم ديكتاتوري؟ تماما مثل الآن حين يتحدث حكام النظام وببغاواته عن عدم شرعية الإخوان، انظر من المتكلم؟ هؤلاء الذين حكموا مصر بانتخابات مزورة ومزيفة طيلة كل هذه السنوات وباعترافهم وبأفواههم التى ستأكلها الديدان فى قبر لا أحد منا سينجو منه، هل يعتقدون أنهم سلطة شرعية إلا إذا كان اغتصاب صناديق الانتخاب بالتزوير والتزييف شرعية؟ إن الحزب الوطنى يحكم مصر طبقا لنظرية المماليك القديمة «الحكم لمن غلب» فتونة وفرد صدر ووضع يد ومن يقدر بمماليكه على الصعود

للقلعة يصبح هو الحاكم ويعترف به الجميع فالحكم لمن غلب، والشعب المصرى يتعامل مع حكم الحزب الوطنى وحكامه تماما كما كان يتعامل مع المماليك والطغاة على طريقة بيعة المكره، أى المغصوب على فعل شئ، المجبور على الاستسلام، (وبالمناسبة فى أصول الشرع لا بيعة لمكره مستكره!) فكيف يأتى هذا الحزب ويدعى أنه يملك شرعية لسحب شرعية الإخوان المسلمين أوأى جماعة كالشيوعيين أوأى حزب وتيار؟ هل لجنة الأحزاب السقيمة الحكومية عبدة المأمور هى التى تملك منح الأحزاب الشرعية وإذا كانت هى نفسها غير شرعية فماذا نفعل؟ هل هؤلاء الحكام الذين يحكمون وطنا بلا انتخابات حقيقية ولا نزاهة ولا قانون إلا البلطجة واللى مش عاجبه يضرب دماغه فى الحيط، هؤلاء هم الذين يحددون الشرعية؟ يا نهار أسود، إنهم يشبهون الإدارات الهندسية فى الأحياء داخل القاهرة التى تمنح الرخص بالرشوة العلنية والفاضحة فهل إدارة هندسية مرتشية أومهندس تنظيم هوالذى يحدد شرعية بناء من عدمه وهو فاسد فى أصل وشه!

لهذا أقول إن جماعة الإخوان شرعية أوغير شرعية حين تكون هناك ديمقراطية فى البلد تأتى بحاكم منتخب بنزاهة وحكومة معبرة عن أغلبية الشعب ساعتها يمكن أن تقول شرعية أم غير شرعية، لكن أن يتولى ذلك من لا شرعية له فيتحكم فى أعناق التيارات السياسية وأعماق ضمائر الناس فهذه والله لمسخرة تمسخرنا عليها الأمم!

ما حدث من الحكم والنظام والحزب الوطنى فى هذه الانتخابات لم يكن سقوطا سياسيا أوقانونيا فقط حين زور وزيف ودلس وضلل وحاصر وقتل وكذب وبلطج ليغتصب سلطة وينتزع حكما بل كذلك سقط أخلاقيا، سيظل هؤلاء يحكمون مصر كما حكمها المماليك ولكن من قال إن من يحكم الأجساد يملك القلوب والعقول والأرواح، ولكى تتأكد من أن هذا الحكم لا يملك قلب أحد ولا عقل مواطن انظر لهذه الحشود من قوات الأمن التى تشبه قوات الاحتلال تماما وهى تمنع مواطنين من عبور الحواجز للوصول إلى الإدلاء بأصواتهم فى الانتخابات

تأمل الصورالتى التقطت فى المحطات الفضائية أوفى الصحف (انظر إلى أى صورة جيدا) سوف يتشابه عليك الأمر لحظات ودقائق هل ما تراه من جنود وخوذات وبنادق ومتاريس هو حاجز أمنى محصن فى غزة أم فى المنصورة؟ هل هؤلاء جنود يعتدون على مواطنين متظاهرين فى رام الله أم فى الزقازيق؟

هل هذه العربات المصفحة تمشى فى المنطقة الخضراء ببغداد أم فى ميدان الكباس بدمياط؟!

هل تيقنت؟، هل تأكدت؟

أليست قوات احتلال!

انتهى الدرس يا وطنى!

أى مواطن منحه الله نعمة العقل ونقمة الضمير الصاحى وقف بين اختيارين فى انتخابات مجلس الشعب الأخيرة، الحزب الوطنى وجماعة الإخوان المسلمين وقد اختار فعلا و بلا تردد الإخوان المسلمين.

أنا أصدق مبدئيا أن كل صوت حصل عليه مرشح الإخوان هو صوت حقيقى لمواطن خرج من داره متغلبا على السلبية و متحملا ضغط الدولة وعسس أمن الدولة وصنوف الإرهاب الأمنى والترويع وسنج البلطجية وسيوف المسجلين خطراً و إمكانية تزوير صوته وتزييف إرادته وراح إلى صندوق الانتخابات وأعطى صوته لمرشح الإخوان!

وأنا لا أصدق أن أى صوت حصل عليه مرشح الوطنى ليس مزورا ولا مزيفا ولا محسوبا بطريقة حسابات لجنة آمال عثمان!

لكن لماذا اختار المواطن مرشح الإخوان ؟

ولماذا انتصر المصريون للإخوان المسلمين فى هذه الانتخابات ؟

انتخب المواطن الإخوان لأنهم لم يرشحوا فاسدا ولا ناهبا للبنوك ولا سارقا لقوت الناس ولا ضباط أمن دولة متهمين بتعذيب المواطنين.

لم يرشحوا محتكرا لسلعة أو صناعة ولا تجار مخدرات ولا مزورا ولا شخصا شارك فى بيع ثروة مصر ولا ناهبا قطاعها العام ولا مستبدا عابدا للرئيس ولا منافقا مصفقا مطبلا مزمرا ولا مفصلا لقوانين ولا ترزيا للتشريعات ولا مطبعا مع إسرائيل ولا متعاملا مع منح الأمريكان ولا شريكا فى الكويز ولا أفاقا ولا نصابا ولا مدلسا!

اختار المواطن جماعة الإخوان المسلمين دون تردد ودون شك عندما يكون

منافسها حزبا فاسدا مستبدا أو حزب المسجلين خطراً، خطر على مستقبل مصر وماضيها و حاضرها، مسجلون فى تاريخ مصر السياسى باحتكار الحكم وأبدية السلطة وتوريث الوطن، مسجلون خطراً باستخدام الطوارئ فى قمع الناس وكبت الحريات، حزب المحاكم العسكرية واثنين وعشرين ألف معتقل، حزب أسقط مصر فى قاع الدول اقتصاديا وسياسيا وثقافيا وعلميا وتعليميا، حزب البطالة وقطع أرزاق الناس.

اختار المواطن جماعة الإخوان التى تمسك أعضاؤها رغم السجن والاعتقال والتعذيب والموت فى سيارات الحجز ورغم محاكم أمن الدولة العليا والمطاردات فى الرزق، تمسكوا بأفكارهم ومبادئهم (أيا كانت ومهما اختلفنا معها أو عليها) فى مواجهة النصابين السياسيين والمخبرين وعبدة السلطة وماسحى الجوخ ومنافقى السلطان ومصفقى قوانين سرقة البلد وأفراد عصبة سياسية تآمرت على وطنها ببيع ثرواته واستنزاف موارده والإثراء الشخصى على حساب جوع الناس وبطالة ملايين الشباب!

اختار المواطن الإخوان المسلمين لأنهم رجال تضحية وبذل من أجل فكرتهم ومشروعهم الفكرى والسياسى (أيا ما كان الاختلاف معه أو حوله) فى مواجهة بائعى ضمائر وحرباءات نفعية تتلون بالاشتراكية حينا وبالرأسمالية حينا، تفدى زعيمها أيا كان بالروح والدم ثم تنهش فى سيرته وسمعته بعد أن يموت ثم تسلم ضميرها مؤجرا مفروشا أو تمليكا لرئيس جديد يقبلون أعتابه ويتمرغون فى نفاقه ثم يرفعون رئيسهم لمصاف الأنبياء والآلهة لا يسائلونه ولا يحاسبونه، يتلونون مع كل نظام و يتشكلون مع كل مرحلة، انتهازيون فى السياسة نهازون للفرص، مع معاداة إسرائيل إن قال الرئيس، ومع الصلح معها لو أمر، ومع الشراكة التجارية والصناعية معها لو أشار.

اختار المواطن الإخوان المسلمين لأنهم لم يمسكوا سلطة ذات يوم فأذلوا الناس ولا صادروا الروح ولا اعتقلوا ولا قتلوا ولا عذبوا ولا نهبوا ولا بددوا ولا مرمغوا بسمعة بلدهم فى الوحل ولا انهزموا فى كل موقعة ولا نالوا صفرا فى كل

محفل، فى مواجهة من خيب الأرض فبورها بقوانينه وتواطؤه ومن نحر النهر فلوثه بإهماله وتورطه ومن نشر السحابة السوداء بغبائه وقلة حيلته ومن بث السرطان فى النفوس بتلويثه الزرع والسماد ولا نشر فيروس سى فى أكباد وكلى المصريين بتلويث مائه وعطانة هوائه.

اختار المواطن جماعة الإخوان لأنهم أغنياء من الحلال لا ضبطوا منهم أحدا يتاجر فى ممنوعات ولا مهربات ولا يحتكر سلعا ولا مصانع بل تقفل لهم عيادات وصيدليات ومحلات وورش ومصانع نتيجة الاعتقال والمطاردة فى مواجهة مليونيرات حزب وحزب مليارديرات كسبوا بالحصانة والصفقات المشبوهة والقوانين المفصلة لهم وبالمصاهرة مع رجال السلطة وبالمشاركة مع أولاد النظام، يصرف الإخوان من أموالهم ويصرف منافسوهم من أموال الناس الغلابة!

إن أى انتخابات فى الدنيا هى بين اختيارات، ليست اختيارا لنموذج المثالية ولا للأروع والأبدع والأكمل بل اختيارا للأفضل بين متبارين ومتنافسين، ومن هنا فاختيار الناس للإخوان هو ليس اختيارا للإخوان فى المطلق بل اختيارا للإخوان فى مواجهة منافس معين وهو هنا حزب السلطة المحتكر المستبد المتهم طول الوقت بالفساد وتبديد ثروة البلد، إذن الذى يريد أن يفهم لماذا يحوز الإخوان هذا الإقبال الشعبى المدهش (أدهشنى أنا على الأقل) لابد أن يعى من هو منافس الإخوان، وهذا الحزب الفاشى الفاشل الذى يطلق كلاب حراسته تعوى على الإخوان وتنهش فى أعراضهم ودينهم لا يدرك أن هذا التوحش الضارى والعداء الهستيرى والهوس المرضى بمعاداة الإخوان هو واحد من أهم الميزات التى يضيفونها إلى الإخوان المسلمين، ولأن الحزب الوطنى أفشل من أن يعرف فشله فقد تصور أنه بمجموعة قوات مخبرينه المحمولة للتليفزيون أو المرمية على صفحات الصحف سوف يواجه الإخوان والحقيقة أن أى عاقل يجد نفسه تحت قذف موعظة من منافق للسلطة أو مخبر صحفى يثرثر فى مهاجمة الإخوان سوف يجد نفسه دونما أى حاجة للتردد ميالا للإخوان فمتى صدق الناس الانتهازيين والمخبرين ؟!

هذه هى حملة تضليل تمارسها الدولة فى جنون يستأهل الشفقة على حال مصر التى تسلمت قيادتها ضغمة مستبدة فاشلة محتكرة للسلطة أبدية الجلوس على الحكم مورثة سلطانها وجاهها لأولادها متوسطى الموهبة الذين جمعوا وشغلوا مأجورين و أجراء من الساسة وأساتذة الجامعة وصحفيين لا يقدرون على المواجهة لأنهم احترفوا كتابة التقارير الأمنية والسرية فى زملائهم حتى يصعدوا فى الترقية ويجلسوا على المناصب و أجروا ضمائرهم لأول ضابط أمن دولة كلمهم فى التليفون سواء فى الجامعة أو فى المؤسسات الصحفية أو غيرها، تحاول حملة التضليل ضد الإخوان أن تصم الإخوان بصفات وممارسات الجماعات الإرهابية والفرق كبير والفارق هائل.

ليس من مصلحة هذا الوطن الدمج فى النظرة (اللهم إلا إذا كانت نظرة وزارة الداخلية) بين الإخوان المسلمين وجماعات الإرهاب المسلحة، فالإخوان تيار سياسى سلمى له برنامجه الواضح وحضوره المدنى الواسع وانصهاره فى الحياة العامة والنقابات والبرلمان والصحف، أما الجماعات المسلحة فهى سرية تحتية تكفيرية إرهابية.

الإخوان لم يكفروا فى يوم أحدا، ولم يرفعوا سلاحا فى وجه أحد ويعلنون ليل نهار قبولهم بالحكم المدنى والاحتكام لصناديق الاقتراع بل ولم يلبس مرشدهم جلبابا ولا نراهم إلا بملابس عادية وبكلامنا اليومى لا تقعروا ولا ترمزوا بأسماء مثل أبى مصعب أو القعقاع!

الإخوان أبناء العصر بينما الجماعات الإرهابية منفصلة عن العصر فى الزى والفكر، فى المظهر والجوهر. جماعة الإخوان كائن يتطور وينضج سياسيا ويدخل حلبة المنافسة المدنية الديمقراطية ويتسع جمهوره وأنصاره بينما الجماعات الإرهابية لا تعترف بالحكم المدنى ولا بالديمقراطية والبرلمان وتكفر الجميع وتقتل الجميع!

من مصلحة هذا الوطن أن يكون هناك تيار إسلامى سلمى ديمقراطى ينافس الجميع على السبق بالفوز فى الانتخابات مثلما جرى فى تركيا أو فى ماليزيا، ولا أفهم من يهمهم مصير هذا الوطن وتلك الأمة، ما هى مصلحتهم فى نفى الإخوان

المسلمين من الساحة السياسية والجماهيرية؟، إذا كان البعض يخشى ويخاف من أن الإخوان سينقلبون على الديمقراطية فهذا تفتيش فى الضمائر فالإخوان قالوا وأقسموا أنهم لن يفعلوا. فلماذا نصر ونصمم على العبث داخل قلوبهم والحكم على النوايا وتلك الروح البوليسية الغثة التى يمارسها حتى عقلاء كثيرون فى الوسط السياسى واليساري؟!

الحقيقة أن الذى يحتكر الدين والدنيا هو الحزب الوطنى والذى يحكم بالكاكى والأمن المركزى هو الحزب الوطنى والذى يمارس الاستبداد هو الحزب الوطنى و الذى يصادر الرأى هو الحزب الوطنى والذى يمنع الأحزاب هو الحزب الوطنى، و الذى يفرض الطوارئ هو الحزب الوطنى فلماذا نهاجم الإخوان على ما نعتقد أنهم سيفعلونه بينما لا نقاوم الحزب الوطنى على ما يفعله؟!

من حق الناس أن ترى تجربة الإخوان فى البرلمان بشكل أوسع و أدق، فإن كانت خيرا أيدهم من أيدهم وإن كانت شرا وخيبة سحبوا تأييدهم وبحثوا عن غيرهم شأن كل الديمقراطيات فى العالم.

أما السحق الذى يريده الحزب الوطنى ومخبروه للإخوان وهذا الذعر من المثقفين واليسار تجاه الإخوان فهو محض ضعف عن المواجهة والمنافسة واحتكار مضاد للحقيقة ورفض عميق للآخر واستسهال مزر للفشل.

أما التلويح والتهديد بأن وصول الإخوان لمجلس الشعب قد يدفع الأقباط للفزع وربما الهجرة فالمؤكد أولا: أن الأقباط هم أكثر شرائح مصر هجرة قبل صعود الإخوان بل فى قلب فترة اعتقال الإخوان أيام عبدالناصر، هذه واحدة، أما الثانية: أن الأقباط يعلنون كل يوم عن اضطهادهم فى عصر مبارك وكثير من هذا حقيقى وله منطقه وبعضه مبالغة مبررة وهذا كله فى ظل فترة ليس للإخوان فيها شيء لا فى المعارضة ولا فى الحكم، ثم من الذى تجاهل ترشيح الأقباط وأبعدهم عن السياسة؟، هل هم الإخوان؟ ثم أخيرا يجب أن يتوقف الأقباط فى الحقيقة عن التصرف كأقلية مذعورة فهم مواطنون فى هذا البلد لهم حقوق كما لأكبر رأس فيها ومصر وطنهم قبل أن تكون وطن أحد آخر، مجمل الأمر أننى لا أتصور أن

الأقباط يمكن أن يشكلوا حق فيتو على اختيار الشعب الديمقراطى ولا أظن أن عقلاء الأقباط يسمحون لعواطف متوهمة أن تجعلهم فى موقع مضاد لاختيار المصريين، مع ظنى أن كثيرا من الأقباط قد منحوا أصواتهم للإخوان من باب النكاية فى الحزب الذى تجاهلهم واستبعدهم!

إذا كان الاختيار بين جمال مبارك وعصام العريان فمن حق الناس أن تختار عصام العريان، وإن كان السجال بين أحمد عز وعبدالمنعم أبو الفتوح فطبيعى أن يختار الناس عبدالمنعم أبو الفتوح، وإذا كانت المنافسة بين كمال الشاذلى ودكتور محمد حبيب فالاختيار الأكيد لمحمد حبيب!

الجرى نص الجدعنة!

لا يوجد شخص واحد فى الوطن العربى كله اتخبط فى دماغه وطلب من الرئيس مبارك أن يحارب!

ولا بنى آدم صغير أو كبير، وزير أو خفير، عاقل أو أهبل طلب من الرئيس مبارك أن يحارب إسرائيل، ومع ذلك فالنظام المصرى لا يتوقف عن الصياح والنواح يوميا بأن مصر لن تحارب، يا سيدى فهمنا، ده مفيش عيل من اليمن حتى موريتانيا إلا وعرف، خلاص!

هل النظام المصرى سمعه تقيل للدرجة التى لم ينتبه فيها للسيد حسن نصر الله زعيم المقاومة وهو يقول إننا لا نراهن على الحكام العرب، بل وكررها وأكدها لا نريد سيوفكم ولا قلوبكم، حلوا وفكوا عنا، حد جاب سيرتكم ساعتها، هل طلب منكم أحد شيئا غير الصمت بدلا من التواطؤ السافر والتحالف الرخيص مع إسرائيل ضد المقاومة والتغطية على العدوان الإسرائيلى جهارا نهارا وتكرار التصريحات التى لا تتوقف كجلمود صخر حطه السيل من عل لتبرر لإسرائيل وحشيتها وجرائمها وتحمل حزب الله الذى أسر أسيرين فى موقع حربى جريرة العدوان الإسرائيلى على المدنيين والأطفال والبيوت والأنهار والأشجار وارتكاب المذابح الدموية فى الوقت الذى لا يملك فيه نظام مصر سوى أن يصف مذبحة قانا بأنها عمل غير مسئول؟! بخ بخ، ما كل هذا الوضوح الأخلاقى والشجاعة السياسية الدولية، فهمنا والله العظيم تلاتة أن مصر وهذا حالها وذلك رئيسها لن تحارب لنصرة العرب رغم أنها حاربت ضد العراق لتحرير الكويت ورغم أنها أرسلت أبناءها الذين يخاف عليهم الرئيس كأبنائه تماما إلى حفر الباطن لمشاركة أمريكا حربها ضد العراق ولم يخش عليهم ساعتها من صاروخ كيماوى ولا مدفع ولا

رصاصة، فقط أخرج الرئيس أبناءه وشعبه عندما كانت أمريكا فى تحالف دولى معه وحين كانت أمريكا تريد لكن عندما لا تريد أمريكا فإن الرئيس يخاف على أبنائه وشعبه جدا فلا يحارب (بالمناسبة أنا أحب الكويت وأراها من أكثر الدول العربية ديمقراطية وتحضرا وأرى أن أم جرائم صدام حسين هى غزوه للكويت) وسيقول البعض منا إن مصر حصلت على جائزة المشاركة فى الحرب ضد العراق بإسقاط ديونها وهذا كلام حقير لا يعنى سوى أن مصر تقاتل بأجر وبمقابل وكأن مصر هانت ليصبح شبابها مرتزقة حروب!

عموما وبمناسبة الإلحاح الرسمى المصرى على أنه لن يحارب رغم أن أحدا لم يطلبها منه ولم يفكر أن يطلبها منه أساسا، أصبح كل ما يرجوه الجميع والحال كذلك أن تتوقف قيادات مصر السياسية عن الإعلان اليومى أن الجرى نص الجدعنة!

فالمسئولون المصريون وكتائب الحراسة الإعلامية والمنافقون والطبالون وراكبو موتسيكلات المواكب أمام الرئيس وعازفو الإيقاع وراقصو التنورة السياسية أظن أن عليهم التوقف فورا عن ترديد أغنية أننا دولة رائدة للوطن العربى أو عميدة للأمة العربية، فلا يمكن أن يتحفنا هؤلاء بالعزف المنفرد على الرق بأن مصر دولة رائدة بينما كلما اتزنق المجتمع العربى سأل أين مصر فإذا بمصر تخلع!!

لا يمكن أن نزايد على العرب فى الرايحة والجاية ونعمل فيها زعماء ورجالة وريادة طول عمرك يا بلدنا ريادة، بينما ساعة الجد نقول إحنا ملناش دعوة والجرى نصف الجدعنة وشوف مصلحتك وإن جالك الطوفان حط العراق وفلسطين ولبنان تحت رجليك!!

من المذهل ومن المخزى فى الوقت ذاته أن تتبدل كل يوم نغمة التصريحات السياسية المصرية فتارة تتحدث عن ريادتها للأمة العربية فإذا كان هذا حقيقيا فمن الطبيعى أن يسأل المواطن العربى فى أى بلد غير رائد: أين هى الدولة اسم الله عليها الرائدة؟

الريادة ليست كلمات تافهة تتردد فى أفواه منافقة أو ميكرفونات كاذبة وخلاص!!

الريادة موقف وفعل ورجولة سياسية وليست سياسة مائعة خوافة تتطوع بنشر اليأس والفزع والتخويف من العدو والتهويل من قدراته وتحميل رجال المقاومة المسئولية عن وحشية الاحتلال والعدوان والريادة بالقطع ليست تصريحات منكفئة تتطوع بتبرير العدوان الإسرائيلى وتخلق له أعذارا، إذن نظام مصر منذ ٢٥عاما قرر يخلع ويتخلى عن الريادة وهذا حقه تماما حيث يحفظ دور الوكيل والوسيط وحامل الحقيبة وموفق الرءوس فى الحلال نظام مصر من أى خطر أمريكى أو غضب إسرائيلى، لكن كل المطلوب أن تتوقف قيادات الحكومة المصرية عن تصريحات الريادة والزعامة والمكانة وتريح وتستريح، ساعتها سوف يفيق المجتمع العربى الذى سيقطع لسانه من لغلوغه لو قال مرة أخرى أين مصر؟

أما حكاية الزج بمصر فى حرب فهى أسطورة أخرى علينا أن نناقشها كمصريين بتواضع وموضوعية ومع كل احترامنا لشهدائنا العظام وأبطالنا البواسل فهى تستحق أن نتخلى عن أى غرور أوادعاءات فارغة أننا حاربنا من أجل العرب وليس من أجل أنفسنا!

أكرر كما كتبت من قبل أنه لمعلوماتكم مصر لم تطلق رصاصة من ماسورة بندقية من أجل فلسطين (ولا حتى من أجل مصر) منذ ٢٢ أكتوبر عام ١٩٧٣ مع قرار وقف إطلاق النار، أى منذ ثلاثة وثلاثين عاما، ولو جئنا لنرى الحروب المصرية من أجل فلسطين والعرب فسوف ينتهى البعض إلى ياريتها ما حاربت، ففى ١٩٤٨ فى عهد الملك البائد كنا أكبر جيش وأكبر دولة ومع ذلك ضاع نصف فلسطين وانهزمنا ؛ طبعا هناك ظروف وعوامل وأسباب لكن النتيجة أن فلسطين ضاعت أو على الأقل ضاع نصفها، لندخل بعدها فى عصر يوليو فإذا بمصر وهى الدولة الأكبر والجيش الأكبر تنهزم فى يونيه ١٩٦٧ شر هزيمة ويضيع نصف فلسطين الآخر ومن ثم فلسطين كلها (ومعها سيناء بالمرة)، أما فى عام ١٩٧٣ فقد انتصرنا انتصارا مجيدا وعبرنا القناة ثم حصلنا على جزء من سيناء

بالتفاوض ومع معاهدة السلام مع إسرائيل استرددنا ما تبقى من سيناء لكننا لم نطلق فى ١٩٧٣ ولا ما قبلها رصاصة واحدة على تل أبيب ولم نصل حتى حدودنا مع فلسطين وحاربنا فقط من أجل استرداد سيناء التى أضعناها (نحن مش حد غريب) ثم يأتى هذا النظام وأزلامه وأذنامه ويملكون من الوقاحة الادعاء أنهم أفنوا أعمار وثروات شعوبهم فى الحرب من أجل فلسطين وهى كلها حروب ضيعت فلسطين وانهزمنا فيها عارا وشنارا بل إن الحرب الوحيدة التى انتصرنا فيها فى أكتوبر ١٩٧٣كانت (أكرر لأؤكد) من أجل استعادة سيناء (استغرق الأمر عشر سنوات تقريبا كى تعود سيناء!) ومن ساعتها فنحن نعيش عصر السلام والنيام وملناش دعوة بحد وخلينا فى نفسنا وإحنا مش قدهم يابا ولما تتزنق اقلع أو اخلع.

ثم يشتغل الحكم فى الأسطوانة اليومية بتاعة مصلحة مصر وإن تصرفات الرئيس وتصريحاته تجاه العدوان الأمريكى الإسرائيلى على لبنان(أو أى دولة عربية) قال إيه تنبع من مصلحة مصر ولا نعرف هل هى مصلحة مصر أم مصلحة الحكم فى طول البقاء والجلوس على الكراسى أبد الدهر وحتى الموت، هل مثلا يعنى مصلحة مصر أن تصبح دولة مرتشية من أجل قروض (تبددها الدولة كالعادة وتفلسنا كالمعتاد وتسرق منها طبعا وتفسد من خلالها وشيء لزوم الشيء وأبجنى تجدنى وما إلى ذلك ثم ذلك نفسه؟!) أم مصلحة مصر أن ترى الفلسطينيين واللبنانيين قتلى ومذبوحين وليس عليها سوى إرسال بطاطين، كأن بطاطين مصر تحيي الموتى!، ثم يقولون إن مصر لن تجازف ولن تحارب، حد جاب سيرة الحرب؟

طيب بالذمة تسمى هذا الموقف وذلك التصرف إيه فى عالم السياسة، بلاش السياسة، فى عالم الأخلاق والكرامة، ثم مصلحة مصر يا حبايب مصر حبايبنا، ليست أبدا فى تلقى أموال ومنح أجنبية أو بقاء رئيس على مقعده أبد الدهر أو توريث النجل مقابل تواطؤ سياسى وصمت مريع ومخز وتواطؤ مع تل أبيب وتعاون سرى وعلنى مع أمريكا، هذه ليست مصلحة شعب وبلد هذه مصلحة حاكم

البلد، الحاكم العربى لا يرى إلا عرشه أو وراثة أبنائه لعرشه ومن ثم فكل ما يفعله على كرسى الحكم هو للبقاء الأبدى على هذا الكرسى، لا شعبه يساوى عنده مثقال حبة من خردل، فالحاكم الديكتاتور فقط هو من يصف الرأى العام فى بلده بأنه عاطفى وغير عقلانى، هو الذى لا يعير الرأى العام فى بلده هما ولا اهتماما، الحاكم الديكتاتور فقط الذى لا يمشى وراء إرادة شعبه بل يسوق الشعب بقراراته كأنه شعب نعاج، الحاكم الديكتاتور هو الذى يقمع مظاهرات التعبير عن الرأى ويضرب المعارضة ويسحل المعارضين ويسحق أى مطالب شعبية ويترفع ويحتقر عواطف وأفكار جماهيره، ويضرب بأغلبية الشعب عرض الحائط، الحاكم الديكتاتور هو الذى يقود البلد ومواقفه لمصلحته وهواه وليس لمصلحة وإرادة الناس!

لقد فقد النظام المصرى أى شرعية فهو نظام يحكم ويستمر فى الحكم وهو فاقد الشرعية تماما كأنه خطف هذا الوطن، فقد شرعية الانتخابات فهى مزورة ومزيفة، فقد الشرعية الدستورية فهو ينتهك الدستور ويتلاعب به ويخالفه ويتعامل معه كأنه ورقة كلينكس، فقد الشرعية الثورية التى ادعى أنه سليلها فمبادئ ثورة يوليه تحت حذاء هذا النظام وقد خالفها ومزقها وقضى عليها! فقد شرعية العروبة والريادة فقد تنصل منها وانعزل واعتزل وقال عن نفسه وسيطا محايدا (إيه ده سويسرا بتتكلم عربى).

لقد نجحت سنوات حكم مبارك أن تزرع فى هذا الشعب جينات الخنوع والخضوع وإهدار الكرامة والكبرياء من على حدود رفح حيث يقتلون جنودنا ونسكت وحتى داخل قسم قصر النيل حيث يضرب الضباط أبناءنا وينتهكون أعراضنا ونسكت، نضع جزمة فى فمنا ونخرس أمام عدو يقتل إخوتنا وبنى جنسنا وديننا وعروبتنا فى لبنان وفلسطين، ونضع نفس الجزمة فى نفس الفم ونخرس أمام مليونيرات فسدة يحكموننا فينهبون ثروتنا وثروة بلدنا!

هذا النظام المصرى الحاكم يحكم ويعيش فقط لأننا متنا!

ظهر الفساد فى البر والبحر!

فى كل مصيبة تحدث للبلد يكون همهم الأول هو نفاق حسنى مبارك قبل أى شئ آخر، عقب كارثة غرق الباخرة هلل وكبر ويكاد زغرد المنافقون لأن الرئيس مبارك قد أمر بتحقيق فورى، فورا قرروا تبرئة الرئيس من المسئولية تنزيها له عن الخطأ وتقديسا له من توجيه النقد والاتهام لسياسة حكمه ومنهج نظامه وانحيازه للأغنياء والمليونيرات على حساب فقراء البلد، وكأن التحقيق الفورى الذى أمر به الرئيس لا يشمل الرئيس نفسه، عن شعبه كيف تركه للإهمال والاحتقار، عن فقراء بلده كيف تركهم للعوز والحاجة، عن رجال أعماله الذين منحهم الحصانة وعن رجال حكمه الذين تواطأوا وتشاركوا مع رجال أعمال فى نهب البلد ومص دم الفقراء؟

كأننا لا نستطيع أن نرفع أيدينا (دعك من رؤوسنا) لنواجه رئيسنا بالمسئولية أو نوجه له إصبع المساءلة!

عندما حدثت كارثة طبيعية هى إعصار كاترينا فى أمريكا وتعامل المسئولون هناك بإهمال يصل لحد الجريمة قال الجميع إن المسئول هو جورج بوش، ووضعوا الاتهام على كتف رئيس الجمهورية شخصيا، أما هنا فالرئيس منزه منزل، فرعون الإله، لا يقترب منه إنس ولاجان، حتى والناس غرقى أو حرقى، كأنه ليس مسئولا بحكم منصبه عنهم، كأن الناس كلهم محل مساءلة إلاه، إلا هو، وكأن مبارك لو لم يأمر بتحقيق فورى ما كان يمكن أن يحدث تحقيق فورى (أو غير فورى)، سبحان الله وهل هو نصر مؤزر وحكمة مصفاة ورؤية ثاقبة وعقل راجح أن يأمر الرئيس بتحقيق فى كارثة مثل هذه؟! ثم سارع المنافقون والأفاقون والركع السجود إلى الإشادة الملحاحة السمجة بذهاب الرئيس إلى زيارة الناجين والمصابين

فى مستشفى الغردقة إلى درجة أن أحد المسئولين قال بمنتهى الوقاحة للإذاعة المصرية إن الناجين استعادوا قوتهم وفرحتهم لما رأوا الرئيس مبارك، بينما تجاهل الجميع أن الرئيس مبارك لم يذهب لسفاجا ولم ينزل لرؤية أهالى الضحايا وهم محتشدون بالآلاف ملهوفين ومحزونين وملتاعين بينما رجال أمن مبارك وقوات داخلية مبارك وجنود وعساكر وزير داخلية مبارك يضربونهم ويعتدون عليهم ويقذفونهم بالقنابل المسيلة للدموع ليس لأى سبب -لاسمح الله- سوى أنهم يريدون معرفة مصير أهاليهم الغرقى الحرقى، يا ساتر يارب ألهذا الحد رق قلب نظام الرئيس وحكومته للضحايا؟ ما كل هذه الرقة وما كل هذا التعاطف والتضامن الذى يستخدم فيه الدروع والبنادق والرشاشات والمدرعات والهراوات والقنابل والعصى الكهربائية؟!

لم يذهب مبارك لسفاجا ولم يلتق أهل الضحايا ولم ينزل لهم ولم يصادفهم حتى، دائما مصحوبا ببطانته ودروعه البشرية عن الناس! ومن ثم جرى كل الوزراء والمسئولين الى الغردقة فى صحبة وركب الرئيس العظيم حتى يطمئنوا قلبه ويجيبوا أسئلته ويبرئوا ساحتهم وساحته ويتلقفون أوامره ويلقمهم حكمته بينما تركوا آلاف الأهالى لعساكر مكافحة الشغب، المعذبين والملتاعين الباحثين عن جواب واحد فقط يطفئ نار قلوبهم، ماذا حدث لابنى أو لأبى وأمي؟ ما أخبار الغرقى أو الناجين؟ فلا إجابة سوى الضرب والإهانة! ألا سحقا لهذا النظام الذى تحجر قلبه بعد أن تصلب عقله بعد أن تجمد بدنه على العرش!

المؤكد أن كارثة غرق الباخرة التى تحمل للمفارقة اسم السلام، هى نموذج للإفساد السياسى فى مصر فصاحب هذه البواخر التى تكاد تكون محتكرة رحلات البحر الأحمر كلها هو رجل أعمال وعضو مجلس شورى معين، أى أن الذى عينه هو الرئيس مبارك لا أحد آخر بناء على تقارير مرفوعة أو تزكيات مقدمة أو معرفة شخصية، ومن ثم فقد حصل على الحصانة التى تمنع عنه وعن أعماله الرقابة والمحاسبة ثم هو شخصيا تربطه علاقة متينة ببعض القريبين يقولون إنها ليست صداقة فقط بل شراكة بينه وبين مسئول قريب جدا من الرئيس

ونجله بل لعله أقرب المسئولين مكانا ومكانة لدى الرئيس ونجله وهذا ما وفر لرجل الأعمال حصانة مضاعفة ولكى تكتمل الدائرة الجهنمية فصاحب الشركة قيادى فى الحزب الوطنى يتولى أمانة دائرة الرئيس تلك التى تم تزويرها بمنتهى الفجر وقلة الأدب ضد السيدة مكارم الديرى مرشحة الإخوان المسلمين فى الانتخابات البرلمانية الأخيرة، إذاً هذا هو الثالوث المقدس لأى رجل أعمال يريد أن يفعل ما يريد فى هذا الوطن، من أول احتكار الحقيقة إلى احتكار الملاحة مرورا باحتكار الحديد، أن يجمع مالا لبدا ثم يبنى علاقة متينة وثيقة مع رجال الحكم، الأهم والأكثر نفوذا هو أن تكون قريبا من قصر العروبة سواء ساكنيه أو موظفيه أومسئوليه، والعلاقة تبدأ بالمصاحبة وربما تتحول للمصاهرة لكن المشاركة المالية والتجارية أصدق أنباء من الكتب، ثم توفر لك هذه الصداقة الفرع الثانى من الثالوث وهو الحصانة إما بتعيينك فى الشورى أو ترشيحك فى مجلس الشعب ومن ثم تفرض سياجا على أعمالك وتوسعها وتتوسع فى المخالفات والانتهاكات مدعوما بصداقة الكبار وحصانة البرلمان لكن الثالوث لابد أن يكتمل بالولاء الحزبى وهو الانضمام إلى الحزب الوطنى الذى يمثل لدى رجال الحكم شركة العلاقات العامة التى تسمح لهم بالظهور ولعب الدور الإعلامى والتواجد فى ساحة الاهتمام الصحفى والحزب-الشركة فى حاجة إلى تمويل والتمويل فى حاجة إلى رجال أعمال ورجال الأعمال فى حاجة إلى حماية ورعاية فيدفعون ويمولون وهم مطالبون كذلك بإبداء فروض الولاء والطاعة ورد الجمايل للسادة ومن ثم ينضمون ويتبرعون ويمولون، نحن نعيش إذاً داخل هذه الدائرة الجهنمية وفى قلب هذا الثالوث الذى ينتهى بمصر إلى فيضان الفساد الذى نراه ونعانى منه فيكاد يغرقنا إن لم يكن قد أغرقنا (ونحن جميعا نتنفس تحت الماء).

أغرقنا نهب رجال الأعمال المحتكرين لكل شئ فى حياتنا، بل احتكروا حياتنا، شركاء رجال الحكم الذين يتحدون القانون بصلافة شراكتهم بالمسئولين وأولادهم وأى كاتب على الآلة الكاتبة فى أى جهاز رقابى أو ناسخ على مكنة تصوير فوتوكوبى يدرى تماما وهو ينسخ التقارير الرقابية السرية كم أن مصر منهوبة من مسئوليها

وأولاد مسئوليها وأن الفساد ظهر فى البر والبحر (والنهر) كذلك، من المؤكد أن هناك رجال أعمال محترمين وشرفاء لكن الحقيقة أن منهج العمل فى مصر لا يمكن أن يترك شريفا على شرفه فلا يستطيع رجل أعمال (وإن أراد) مواجهة نظام فاسد ومرتش حتى النخاع ومن ثم يبحث كل رجل أعمال عن كفيل له فى الحكم وحليف له فى الحكومة وشريك له من الأنجال حتى ينجو من مصير المليونير حسام أبو الفتوح ومن سبقه من الذين صاروا عبرة لمن لا يعتبر، رجل الأعمال الذى يريد أن يبقى ويستمر فى السوق (والسوء) لابد أن يكون محصنا ومقربا من منطقة النفوذ الحزبى والرئاسى والسياسى، عندها تتأمل تفسير الآية الكريمة فى سورة الروم الآية (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)، ٤١ تكتشف ساعتها أننا نحيا هذه الآية تحديدا وتفصيلا، ففى تفسير القرطبى أن فَسَاد الْبَرّ هو قَتْل اِبْن آدَم أَخَاهُ؛ وهذا ما ينطبق كذلك على التعذيب والتنكيل وظلم الاعتقال. وَفساد الْبَحْر هو الملك الَّذِي كَانَ يَأْخُذ كُلّ سَفِينَة غَصْبًا وهو ما نظنه قائما مع حالة الاحتكار للبواخر وضرب المنافسين وشراكة وتجارة رجال الملك. وَقِيلَ إن الْفَسَاد هو الْقَحْط وَقِلَّة النَّبَات وَذَهَاب الْبَرَكَة وهُوَ نُقْصَان الْبَرَكَة بِأَعْمَالِ الْعِبَاد كَي يَتُوبُوا وَقِيلَ : الْفَسَاد كَسَاد الْأَسْعَار وَقِلَّة الْمَعَاش. وَقِيلَ : الْفَسَاد الْمَعَاصِي وَقَطْع السَّبِيل وَالظُّلْم؛ أَي صَارَ هَذَا الْعَمَل مَانِعًا مِنْ الزَّرْع وَالْعِمَارَات وَالتِّجَارَات، وَالْمَعْنَى كُلّه مُتَقَارِب كما يقول القرطبى أى ظَهَرَ قِلَّة الْغَيْث وغلاء السِّعْر. وَالْقَوْل الْآخَر أَنَّهُ ظَهَرَتْ الْمَعَاصِي مِنْ قَطْع السَّبِيل وَالظُّلْم، فَهَذَا هُوَ الْفَسَاد عَلَى الْحَقِيقَة فى الآية وفى واقعنا المصرى تماما. فلم يعد ممكنا أن تتحدث الآن عن فساد فى الإدارة (إدارة مصر من القاع إلى القمة) بل المؤكد أنه يمكنك أن تتحدث عن إدارة فساد فى مصر، لم يعد الفساد عشوائيا أو جزئيا أو فرعيا، بل صار الفساد منهجا لحكم البلد وصارت الإدارة الحاكمة هى التى تدير الفساد وتنظمه وتضع ضوابطه الداخلية وقواعده الشخصية كما يحدث تماما فى القواعد المرعية بين العصابات وقبضايات الكباريهات، لا نشال يسرق فى منطقة غيره ولا حرامى هجام ينط على منطقة هجام آخر، ولا بتوع مخدرات يشتغلوا

من غير ما يستأذنوا، وكما ترى زعيم عصابة يقول لغريمه أو زميله دى مش أصول يا معلم ولا تصرفات يرضاها الكبار، هى هكذا بالضبط فى قواعد الفساد السياسى الذى يدير الحياة فى مصر من كافة جوانبها استيرادا وتصديرا وزراعة وتجارة وإسكانا وتقسيم أراض وساحل شمالى وجنوبى وفى البر والبحر والنهر، وصار المشهد السينمائى التقليدى الذى يجلس فيه الراجل الكبير معطيا ظهره للشاشة لا يظهر منه سوى السيجار فى فمه والخاتم فى يده ويقف أمامه زعيم العصابة يطلب أوامره ونواهيه وتعليماته وحمايته، هذا المشهد لم يعد سينمائيا بل حقيقيا يوميا، ولم نصبح فى حاجة لانتظار نهاية الفيلم لنعرف وجه الرجل فقد صارت وجوها تملأ واقعنا المصرى، كل رجل أعمال نتكشف فساده أو نتعرف على نفوذه وراءه سيجار وخاتم رجل من ذوى الشأن والشأو فى السلطة يحميه ويشاركه، وليس بعيدا عن أى منا هذا العدد الهائل من الحكايات والروايات وحتى النكت التى تحكى عن أن رجل الأعمال فلانا شريك فلان بن فلان أو علان بن علان، حتى بات الأمر مثيلا وشبيها ومشبوها تماما كما خرج ذات صباح من يولية الحار منذ ٥٤سنة رجل يقول فى الإذاعة: «اجتازت مصر فترة عصيبة فى تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم.....وتسبب المرتشون والمغرضون فى هزيمتنا فى حرب فلسطين، وأما فترة ما بعد الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد...... وتولى أمرنا إما جاهل أو فاسد»..

إما جاهل أو فاسد!!

وكأن ٥٤عاما لم تمر!

مبارك لن يغير ثم أنه لن يتغير!

لن يتغير حسنى مبارك ثم أنه وهذا هو الأهم لن يغير. لا شئ غير أفكار الرئيس وسياسته وطريقته نفسها منذ ثلاثين عاما، يا للهول شخص لا يتغير ثلاثين عاما هو بالتأكيد شخص لا يمكن أن يغير وطنا، مفهوم مبارك عن الثبات هو فهمنا عن الجمود، تصوره عن الاستقرار هو تصورنا عن الركود، ومن ثم لا شئ يفاجئنا ولا يدهشنا أنه يعلن أن لا أحد يعرف متى التغيير الوزارى، والحقيقة أن التغيير الوزارى نفسه كلام لا يودى ولا يجيب فمن هم هؤلاء الذين سيأتى بهم مبارك غير من أتوا وكلهم صنف واحد ولا بضاعة غيرهم فى سوق الحكومة والحكم المصرى، الوزارة فى مصر هى سكرتارية للرئيس وهى مجرد حشم فى بلاط الرئاسة، موظفون لا يعرفون من السياسة شيئا ولم يمارسوا منها أمرا بل ظلوا حياتهم كلها فى خدمة أوامر الأمن وحرس الجامعة فمعظمهم أساتذة جامعة لم يدخلوا يوما انتخابات نادى أعضاء هيئة التدريس ولم ينبسوا بكلمة فى السياسة ومستمعون مأمورون من السيد مدير الحرس الجامعى أو مدير فرع الجامعة فى مباحث أمن الدولة بشارع جابر بن حيان فى الدقى، وللإنسان أن يتعجب ممن يتحدث عن التغيير الوزارى كأن شيئا يمكن أن يكون، فلا هذه وزارة حقيقية ولا هؤلاء رجال سياسة حقا ولا يملكون شيئا سوى تنفيذ تعليمات وطبقا لتوجيهات السيد الرئيس، وتغرق مصر بالتوجيهات نفسها فى نسبة بطالة مروعة وديون متضخمة وفساد منتفخ وعشرات الألوف من المعتقلين وتلفيق لقضايا واعتداء على صحفيين وانتهاك لاستقلال القضاء والجامعة والإعلام، ومع ذلك يجد الرئيس من يفرعنه ويتحدث عنه ومعه كأنه ولى النعم فى القرون الوسطى أو لعله فرعون مصر فى القرون الأولى، ومن هنا تواطؤ الصمت المزرى فى الحديث عن مسئولية رئيس الحزب الوطنى السيد محمد حسنى مبارك عن مصاب ومصيبة

الحزب فى الانتخابات الأخيرة، فقد فشل الحزب فى الحصول على أكثر من ٣٢% من مقاعد البرلمان ومع ذلك لم يوجه إصبع واحد ولا سبابة كف فى هذا البلد ليلوم رئيس الحزب على نتيجة حزبه، كل هذا الجاه والسلطان والصولجان والإعلام الطاغى وصحافة وتليفزيون الطغيان وكل هذه الأجهزة الإدارية والمحلية الغاطسة فى النفاق والموالسة والمداهنة للحزب الوطنى وهذا العدد الهائل من الموظفين المرتجفين والمرتعبين والجالسين على حجر السلطة أو تحت نعل أحذية الحكم ينفذون أوامره ويعبدون أسيادهم ومع ذلك لم ينجح الحزب الوطنى فى الحصول على ٦٨%من مقاعد مجلس الشعب فمن الذى نحاسبه؟ أهو الحرس القديم الذى يلصق به أصحاب جمال مبارك السبب أم هو الحرس الجديد الذى يرمى عليه رجال صفوت الشريف السبب، أم قبل هذا وذلك رئيس هذا الحزب نفسه؟ أليس كل رئيس مسئولا بالضرورة عن حزبه ورجاله ونجاحه وفشله؟يلف الجميع ويدور ولا يقترب أحد من رئيس الحزب، فإذا كنا نطالب نعمان جمعة رئيس حزب الوفد بالاستقالة لنتيجة حزبه وكذلك نطالب رفعت السعيد رئيس حزب التجمع بالاستقالة إزاء انهيار نتيجة حزبه فمالنا لا نطالب مبارك رئيس الحزب الحاكم بالاستقالة نظرا لفشل حزبه فى الحفاظ على أغلبيته بل ولحصوله على نسبة لا تؤهله لتشكيل حكومة محترمة. لقد وقع مبارك بأصابع يده على قائمة مرشحى الحزب الوطنى ولف ودار ابنه ورجاله ومسئولوه فى المؤتمرات يتحدثون عن أن الحزب ومرشحيه ملتزمون ببرنامج مبارك الانتخابى فإذا بالشعب يقول بمنتهى الوضوح لا لمرشحى مبارك ولا لحزبه ولا أضخم وأكبر لبرنامجه فقد أسقط الناخبون ٢٨٧مرشحا لمبارك من أصل ٤٣٢مرشحا، فمن هو الذى يخرج علينا بعد ذلك ليدعى أن الناس قد اختارت مبارك وبرنامجه الانتخابى الذى صمت عن الحديث عنه كل رجاله فى المرحلة الثالثة حين خرست السياسة وانكتمت وتكلمت المدافع والرشاشات والقناصة والعربات المصفحة وقوات احتلال الحزب الوطنى لمصر؟! إذا أردنا أن نطبق الديمقراطية على أصولها، بل هى فى الحقيقة أصول الأخلاق قبل أصول السياسة فليتحمل من يفشل مسئولية فشله وعندما يفشل حزب

حاكم فى أن يحكم، ثم يتلقى صفعة مهينة أقرب إلى الركلة القوية من الشعب ولا يحظى مرشحوه سوى بحوالى ثلث مقاعد البرلمان فعليه أن يتوكل -الحزب- على الله ويتكل خارج الحلبة أو على أقل الأحوال أن يعلن رئيس الحزب عن مسئوليته ويمضى خارج مقعده وأنا هنا لا أطلب من مبارك الاستقالة من منصب رئيس الجمهورية فهذا أمر لا يرقى إليه خيالى ولا تصل إليه حماقتى، ولكننى وهذا عين المنطق وأنفه أيضا أطالبه كما أطالب كل رؤساء الأحزاب الذين فشلوا بالانسحاب من رئاسة الأحزاب التى فشلوا معها أو أفشلوها!

ومع ذلك أعلم يقينا أن الرئيس لن يستقيل فلا هو ولا أى مواطن فى مصر يصدق أننا نعيش ديمقراطية أساسا وأن كل هذا فض مجالس وطق حنك، ثم أننا كلنا نعرف أنه منذ أطلق سيدنا عثمان بن عفان صيحته الشهيرة رافضا خلع نفسه من الخلافة قائلا (لا أخلع قميصا ألبسه الله لى) ولا يوجد لدينا حاكم عربى خلع بدلة الحكم والخلع عندنا بالموت أو بالانقلاب أو بالغزاة!!

إذن لن يستقيل مبارك لأن الناس رفضوا مرشحيه وأن برنامج حزبه الذى هو برنامجه لم يحصل على الأغلبية، ورضى الناس جميعا بالتلفيق والتضليل الذى أداره قادة الحزب الوطنى باغتصاب السلطة وانتزاع الشرعية بضم مستقلين ومنشقين فى واقعة لا تحدث فى أى بلد محترم ديمقراطيا ونحن لسنا كذلك بالقطع، لكننا أيضا لم نشهد الرئيس مبارك وهو يقول لنا إنه مهتم بالقتلى الذين راحوا شهداء الانتخابات الأخيرة، كما لم يتحدث مفسرا أو شارحا (لن أقول معتذرا فهو لا يخطئ كى يعتذر كما هو واضح) عن العربات المصفحة وموقف الأمن المزرى الذى جعل من مصر فضيحة بين كافة دول العالم وعن الاعتداء على القضاة وانتهاك هيبتهم ومكانتهم وعن ضرب ضياء الدين داود رئيس الحزب الناصرى وهو فى الثمانين من عمره وعن وقائع التزوير الفاجر التى كشفتها تقارير القضاة، لم يتحدث ولن يتحدث مبارك عن هذا كله، وهو فى قلب مسئوليته، وسيدعى من يدعى أن الرئيس لا يعرف تفاصيل ما جرى والرد أنه لو كان يعلم فهى مصيبة ولو كان لا يعلم فالمصيبة أعظم، ألا يقرأ التقارير الدولية؟! ألا يطلع على تقارير منظمات

حقوق الإنسان ومراقبة الانتخابات وبيانات القضاة وتقارير الفضائيات والصور والشهود والشهادات بل وتصريحات المجتمع الدولى أم أن الرئيس اكتفى بتصريحات صفوت الشريف فى البيت بيتك وبتصريحات محمود أبو الليل فى صباح الخير يا مصر؟ الأغرب أننى أؤكد أنه فى الأغلب الرئيس مبارك يعرف بل ومعجب بما فعله حبيب العادلى إلى حد يمكننى أن أراهن عنده على أن العادلى باق فى التشكيل الوزارى القادم فهو موضع ثقة الرئيس وإعجابه، وأنا كذلك يعجبنى جدا الوزير العادلى لأنه لا يهمه سوى إعجاب الرئيس مبارك!

لا تغيير وإن جرى، فالتغيير الحقيقى والجذرى هو رحيل هذا الحكم عن مقاعد السلطة، والسؤال القائم القائم: وكيف يحدث هذا مع ما جرى فى الانتخابات الأخيرة والذى أظهر أن هذا الحكم الغاصب للشرعية والمغتصب للسلطة لن يقبل أن يترك الحكم بالديمقراطية أبدا؟ الإجابة تستلزم منى العودة إلى العلامة العظيم الدكتور جمال حمدان وكتابه شخصية مصر (الجزء الرابع الفصل الثانى والأربعون) الذى وضع نظرية علمية لإمكانية حدوث تغيير فى مصر كأنها ضوابط ومحددات وثوابت لا فصال عنها ولا فكاك منها كى نشهد تغييرا فى هذا الوطن المبتلى بالجمود والطغيان. قدم جمال حمدان قواعد ستا للتغيير حين تقرأها تجدها متحققة الآن ومؤشرة ومنذرة ومؤملة بتغيير حقيقى جذرى قادم حتى ولو وقفت أمامه جحافل أمن الدولة وحرس الحزب الوطنى وجنود الاستبداد فى السياسة والصحافة ومفاصل الدولة فى المحليات والجامعات.

القاعدة الأولى التى يضعها جمال حمدان بكل المباشرة والوضوح أن مصر قلما تتغير بإرادتها فى العادة وإنما هى بالرغم من إرادتها تتغير.. وتغيرها بالقسر أكثر منه بالاختيار نسبيا، واختيارها يتم بصعوبة وتردد، والأصل بعد هذا أن الأشياء فى مصر تميل إلى أن تبقى على ثباتها وفى خطها إلى أن تواجه قوة مضادة لها فى الاتجاه مساوية أو فائقة لها فى القوة، فتفرض التغير فرضا.

هذه إذن القاعدة الأولى للتغيير فى مصر وإذا طبقناها مع ما يحدث فى مصر الآن لوجدناه فيما تعرض للضغط من أجل التغيير الذى يصل إلى فرضه عليها من

القوى الدولية رغما وإرغاما.

ننتقل إلى القاعدة الثانية التى يؤكد حمدان أنه كنتيجة للصراع بين القوة الخارجية ومقاومة التغيير الداخلية فقد يأتى التغير بالضرورة بطيئا تدريجيا منذ البداية منضبطا ومحكوما جزئيا أكثر منه جذريا فى نهاية المطاف.وهذا معناه بالتطبيق على الواقع الحالى أن التغيير بطئ وجزئى لكن القاعدة الثالثة تكمل وتوضح فيقول فيها إن مصر لا تتغير بسهولة بإرادتها فإنها تتغير فى الأغلب بفعل قوى من الخارج أكثر منها بقوى الداخل، وهذه بديهية كامنة فى تحول مصر الحضارى.

التغيير من الداخل إذن غير مطروح بقوة ثم أنه بطئ ولذلك فالتغيير من الخارج أقوى وأغلب ويشرح حمدان قائلا «إذا كان قرن الاستعمار قد ولى، ولكن إيقاع التغير فى مصر قد زاد وتسارع وتصاعد فى العقود الأخيرة، فهذا إنما يرجع فى معظمه إلى نبض العصر نفسه، عصر العلم والتكنولوجيا الباهرة والتغير والمتغيرات بامتياز وثورة المواصلات والاتصالات المذهلة وثورة الآمال العالية والتطلعات المعدية». ثم يطلق تفسيره وتحليله وحكمه المتنبئ المبشر قائلا «إذا كانت جمهرة المصريين فى الداخل قد عجزت حتى الآن عن تغيير مصر سياسيا من الداخل بسبب الإرهاب والطغيان المحلى، فإن حفنة ملايين المغتربين والعاملين فى الخارج قد تكون خميرة التغيير وجرثومة فناء الفرعونية الجديدة -القديمة، وبالتالى أداة تحرير مصر داخليا، أى أن ما عجزت مصر بأسرها عن تحقيقه من الداخل قد تنجح فيه قلة أبنائها من الخارج».

إذن قواعد حمدان للتغيير تشمل وتعتمد على الخارج بما فيه وربما أوله المصريون المغتربون ولاحظ هنا كم كانت الدكتاتورية واضحة فاضحة فى حرمان العاملين المصريين فى الخارج من حق انتخاب رئيس الجمهورية فضلا عن الاتهامات الفجة السمجة لهم سواء الأقباط أو الإسلاميون أو غيرهم بالخيانة والعمالة وهذه الاتهامات يؤججها سفهاء الحزب الوطنى من الساسة وبوق ونوق الصحافة الحكومى.

ثم نأتى للقاعدة الرابعة الحمدانية للتغيير فى المسألة المصرية فيقول «ولأنه تغيير انتخابى (انتقائى) جزئيا فإن التغير أساسا غير متساو أو متساوق السرعة والمدى فى مختلف خطوط الحياة من بيئة ومجتمع.وعلى أية حال والكلام لحمدان -فإن السياسة على القمة هى آخر وأقل ما يتغير فى مصر ولن تتغير مصر حقا وجوهريا إلا بعد أن تتغير سياسيا، والواقع أن الحكم والنظام الحاكم فى مصر كان دائما هو أكبر وأعند موانع وعوائق التغيير على مستوى الحياة السياسية والنيابية والديمقراطية وكان تقليديا أعتى وأغبى قوة تقليدية محافظة بل رجعية».

ثم يفتح لنا جمال حمدان بقاعدته الخامسة أملا مذهلا خصوصا أنه يكاد يتطابق كل ما يضعه من قواعد وخطوات مع ما يجرى فى حياتنا فى ذات اللحظة الراهنة، تقول القاعدة الخامسة «لأن التغير المصرى الحضارى تغير تدريجى، تراكمى، تصاعدى، فإنه فى المحصلة النهائية ونهاية المطاف أقرب فى طبيعته إلى ما يعرف فى قوانين التطور بالتطور الانفجارى، ففى التاريخ كما فى الجيولوجيا والبيولوجيا، أن مسار التطور يظل عادة رتيبا تقليديا كالخط المستقيم أو كالمنحنى الانسيابى، ثم إذا به يتفجر فجأة فى ثوران بركانى قصير ولكنه عنيف يغير تضاريس الوجود ومعالم الزمان ويضع ملامح العصر وتوازناته ويحددها لأمد بعيد، حينئذ يكتسح التغير أمامه آخر معاقل الدكتاتورية ومعوقات التقدم والتنمية، ليصحح بذلك كل أخطاء وخطايا الماضى وأوزار وآثام الحاضر بضربة واحدة وإلى الأبد، وليفتح أخيرا آفاق التطور المستقبلى البكر، ولكن أساسا لشعب حر، بلا قيود ولا حدود، وستكون علامة البدء وإشارته ودالة التطور وقمته هى بالتحديد والدقة دفن آخر بقايا الفرعونية القاتلة إلى الأبد، ولا شك بعد هذا أن من معجلات هذه المرحلة النهائية تلك الضغوط الرهيبة التى تجمعت علينا فى وقت واحد كأنها على ميعاد».

ويضيف حمدان «وما من شك أيضا -وما تخفى النذر- أن مصر المأزومة المهزومة المحرومة -الجريحة الكسيرة الأسيرة- ليست بعيدة جدا عن تلك المرحلة، مرحلة حتمية الانفجار، فلقد أصبحت من قبل بمثابة مرجل ضخم يغلى ويفور

ويمور بعشرات التيارات العاتية والتقلبات العارمة والتفجرات المكبوتة المكتومة ولأن التغيير هكذا أصبح شرط البقاء، والاختيار الأخير صار بين التغير والموت، فإذا تلك المرحلة هى بلا ريب مرحلة الخلاص».

القاعدة السادسة وأخيرا سؤال الجميع، تغيير لماذا ؟، فى نهاية المطاف إلى أين؟ وجهة التغير كما تؤكد مقولة وقاعدة حمدان الحاسمة هى مصر فى إتجاه «أوروبا المسلمة» أى باعتبارها «أوروبا الإسلامية»، هذه ولا سواها، هى وصفة كما هى بوصلة المستقبل، المستقبل المصرى.(القصد هنا هو المزج بين هوية عربية مسلمة والديمقراطية والتفكير العلمى).

تعالوا نطبق القواعد الست على ما يحدث الآن فإذا بكل ما يشرحه ويضعه حمدان ظواهر ومظاهر وخطوات التغيير هى بالفعل واضحة أمامنا تشى وتشير إلى أن التغيير لن يتم إلا هكذا وإلا بهذا، ونحو شيء وحيد لا آخر له وهو تحول مصر وتغيرها إلى أوروبا الإسلامية. ألا تشعر معى شيئا غريبا قريبا لماليزيا وتركيا...ووصول تيار سياسى للحكم هو رافض للاستبداد ومقاوم للطغيان ومتفتح غربيا مستنير دينيا ومتماسك أخلاقيا ومتحرر فكريا ومتقدم ديمقراطيا؟.. ليه لأ؟!.

أحمد وفاروق ورشدى

قال الدكتور فاروق الباز العالم الكبير والشهير إن ماضى مصر مشرق أما مستقبل مصر فهو مظلم، والحقيقة أن أحدا غير جمال مبارك وأحمد عز وأسامة الباز شقيق فاروق الباز وضباط أمن الدولة وخدمهم فى الصحافة والسياسة هم فقط الذين يظنون أن حاضر مصر ومستقبلها مشرق بناء على تعليمات السيد الرئيس.! بطبيعة الحال فإن فاروق الباز كان يقصد مستقبل مصر بمفهومه الشامل من الطبيعة والجغرافيا وحتى الأكل والشرب، وقد شرح الباز وجهة نظره فى ندوة له بدار الأوبرا، فأشار «إلى أن مصر فى الماضى كانت عظيمة ومزدهرة بعشرات العلماء والمبدعين، وأنجبت أحمد زويل، ومجدى يعقوب، وأم كلثوم، وعبدالوهاب وعشرات المبدعين فى كل المجالات، أما الآن فالإبداع قليل، والمواهب ندرت واختفت. فلماذا قل الإبداع؟! لأن الحياة أصبحت صعبة ونحن مكدسون فوق بعضنا.. الناس فى مصر يشعرون بحزن.. لم تعد هناك ابتسامات لأنه ببساطة لا توجد آفاق جديدة للعمل أو الترقى فى العمل.. الناس تشعر أنه بدون واسطة لن يكون هناك فرصة للعمل أو الترقى، والمفروض أن يكون واقعنا أفضل من ذلك لأن لدينا طاقات ولدينا إمكانيات.. ولكن للأسف الشديد نحن فى قاع السلم أمام العالم.. العالم كله ينتج أما نحن فلا يوجد لدينا إنتاج، ولا توجد أفكار جديدة، وأشار الباز على سبيل المثال إلى أن كوريا الجنوبية قبل عشرين عاماً عندما خصصت كل إنفاقها لمدة ٧ سنوات للتعليم فقط تمكنت من امتلاك ١٦٣٨٠ براءة اختراع فى المجال الصناعى والتكنولوجى فقط فى مقابل أن العالم العربى لم يحقق على مدى العشرين عاماً الماضية سوى ١٧٠ براءة اختراع فقط. وكانت العبارة الحازمة التى يؤسفنى أنها تصدم بتوع أزهى عصور الديمقراطية وتلطم الذين

يدقون طبول النفاق الذين يكذبون طول الوقت ويقولون إن مبارك بانى مصر الحديثة (طلع الأسمنت مغشوش) كانت الجملة التى قالها الباز: « إن ماضى مصر عظيم ولكن للأسف المستقبل أسود فهل يمكن أن تعود مصر عظيمة مرة أخري ؟ ».

السؤال الآن: هل يمكن أن يكون فاروق الباز حاقدا جاحدا ومن الحاقدين على مصر مبارك أو من أولئك الذين يريدون أن يعكننوا على مصر وشعبها العظيم فرحة الفوز بكأس أفريقيا ؟

عموما مستقبل مصر أسود من وجهة نظر دكتور فاروق الباز لأن حاضرها من وجهة نظرنا زى النيلة!، ولكن هذا لايعنى أن نرمى أنفسنا من فوق برج الجزيرة أو نولع فى روحنا بجاز بل المطلوب أبسط من ذلك جداً، فقط أن نستطيع تغيير الرئيس حسنى مبارك ونظامه!

أكاد أسمع من يقول «نولع بجاز أسهل»، لكن الحقيقة أن مصر فى حاجة إلى شعبها وشبابها بالذات، بينما لم تعد فى حاجة إلى سنوات جديدة ممدودة للرئيس مبارك ولا نظامه، فضلاً عن حزبه وابنه قطعا، فهذا البلد لم يعد يحتمل شيخوخة القرارات واستبداد السياسات واحتكار الحزب الفاشى والفاشل للحكم، مصر تعانى مما فعلوه بها طيلة السنوات السابقة وأول شفائها هو تغيير طبيبها، وبمناسبة الطبيب تعالوا نتأمل التشخيص، تشخيص حالة مصر «العيانة»باستبداد حاكمها واستسلام شعبها!

سألنى الدكتور أحمد زويل العالم العظيم: هل تظن أن هناك أملاً ؟.. أوشكت أن أقول له إننى قبلت دعوته على الغداء ليس طمعا فى السمك بل طمعا فى الأمل؟ لكننى أجبته: لقد تحدثت مصر كلها يا دكتور حول الجماهير التى تدفقت على مباريات منتخب مصر فى كأس أفريقيا رغم أننى لم أستغرب إقبالها فهو عادٍ ومكرر وطبيعى للغاية، لكن أحدا لم يلتفت لحضور حوالى أربعة آلاف شاب جاءوا لك فى محاضرتك بدار الأوبرا حتى ملأوا القاعات كلها والساحات المكشوفة والممرات الخالية، فى نفس توقيت مباريات المنتخب، ثم تكرر وجود الآلاف فى

محاضرتك بالجامعة الأمريكية، هؤلاء الذين قدموا لى الأمل يا دكتور، أن يذهبوا لعالم وأن يحتشدوا لعالم وأن يستمعوا لعالم!

دكتور أحمد زويل يعمل الآن فى مركز علمى تم تأسيسه حديثا وخصيصاً بعد أن نشر عدة أوراق بحثية هامة عن الخلايا البشرية، هذا المركز الذى بلغت ميزانيته أربعين مليون دولار يقوده زويل وفريقه العلمى لدراسة الخلية البشرية للتحكم فيها والسيطرة على الجينات، هذه الدراسات سوف تغير شكل الدنيا بعد عدة أعوام وقد يكون لها آثار مدوية على التغلب على الأمراض وبدء مرحلة مذهلة من الاستنساخ البشرى بل وكما فهمت سوف تنتهى معها الحروب بالسلاح والصواريخ لتنتقل لحروب بالميكروبات والفيروسات فمن يتحكم فى الخلية ومن يسيطر على الجينات ويغيرها ويعدلها ويطورها سوف يملك العالم، طلبت من الدكتور زويل أن يخصص فى مركزه غرفة لا يدخلها سواه تكون مهمتها تغيير جينات العرب وتعديل خلاياهم كى يتطوروا ويتقدموا، ضحكات دكتور زويل جلجلت وقال لى: ليست مسألة جينات إطلاقا، القضية أبسط من ذلك، ثم بدأ يعقدها لى تماما حين بسطها، أول شيء طرحه دكتور زويل كى نتقدم أن نتمقرط، أى أن نكون بلدا ديمقراطيا يتمتع بحرية الرأى والتعبير وتداول السلطة ونزاهة الانتخابات، عندها ظننت لوهلة أننى لا أقل عبقرية فى الكيمياء عن دكتور زويل فأنا وغيرى يطالبون بهذا منذ بدء (....الخليفة)، لكن كما قال زويل: إن هذه شروط إنسانية مبدئية لأى تطور، ثم تقدم د. زويل وحكى: وفقا لمعهد المعلومات العلمية بلغ مجموع الأوراق العلمية التى نشرت فى كافة أنحاء العالم خلال السنوات الخمس الأخيرة ٣,٥ مليون ورقة كان توزيعها بالنسب المئوية كما يلى: الاتحاد الأوروبى ٣٧% فى المائة والولايات المتحدة ٣٤% ودول آسيا على المحيط الهادى ٢١% والهند ٢,٢% وإسرائيل ١,٣% أما مساهمة العالم العربى كله فهى أقل من مساهمة إسرائيل إذ تتراوح مساهمة كل من الدول العربية بين صفر فى المائة (اليمن) و٠.٣% (مصر) و٠.٣% فى معظم البلدان! أى أن العربى ينتج بين ٢.١ فى المائة مما ينتجه الإسرائيلى (استعنت بندوته فى الأوبرا وكتابه "عصر

العلم" لتوثيق كلماته على الغذاء): هل معنى ذلك يا دكتور هو اليأس؟

الإجابة فورا: بل هى العمل، وأخذ دكتور زويل يشرح مشروعه الذى كان قد قدمه وتم إجهاضه (تفاصيل ما حكاه زويل ومنعنى من حكيه مذهلة) وحصل زويل على موافقة مكتوبة من عشرة علماء حاصلين على نوبل فى العلوم للعمل فى هذا المركز العلمى المصرى الذى كان بمثابة القاعدة الحقيقية لبناء عقل وعلم واقتصاد مصر.

قلت لدكتور زويل إن الدولة تسوق للناس الإصلاح الاقتصادى وأقول دائما إذا كان إصلاح الاقتصاد الذى أفسدوه هم أنفسهم فى حاجة إلى ربع قرن فمتى يتم إصلاح الوطن، أجاب زويل مطمئنا..

ثمة أسطورة حول أن التقدم يحتاج إلى قرون، وهى أسطورة لا تحتاج إلى جهد كبير للمناقشة، فالكثير من دول العالم المتقدم قد حققت انطلاقتها الراهنة فى غضون سنوات أو عقود، إن التجربة الماليزية هى نتاج حوالى عشر سنوات لا عقود طوال كما أن التجربة الصينية نفسها لا يزيد عمر تألقها وامتيازها على العشرين عاما وكوريا الجنوبية قد صعدت من التخلف إلى صدارة الصناعات فى آسيا وإلى موقع بارز فى العالم فى غضون سنوات، واليوم يعمل معهد كوريا للعلوم والتكنولوجيا (كايست) فى تطوير صناعة الإنسان الآلى ليسبق العالم.

وفى الهند الآن يندهش المرء من القلاع الصناعية العملاقة التى تنتج (السوفت ووير) فى بنجالور وفى سنغافورة والتى تخطو إلى أفق غير منظور. وأيضا عندما ننظر إلى تجربة أيرلندا الحالية نجد نهضة وتقدما ففى حوالى عشر سنوات أصبحت أيرلندا من أكبر بلاد العالم تصديرا للتكنولوجيا الحديثة. وقد حدث هذا برؤية واضحة وأعود الآن لكتاب دكتور زويل وأنقل نصا:

(إنه لمن المدهش أن ينسب البعض أسباب ذلك التخلف الشديد إلى نقص الموارد فى العالم العربى، والأكثر إثارة للدهشة أن المرء يسمع ذلك فى مصر، كما يسمعه فى دول الخليج البالغة الثراء. ولا يستطيع أن يفهم كيف يرى ذلك الثراء فى الحياة اليومية للناس من سيارات فاخرة ومنتجعات وشواطئ وقصور ومن

استخدام للسلع الاستهلاكية الحديثة تكنولوجياً... ثم يجد ذلك الحديث الأيديولوجى الثابت حول نقص الموارد. والمؤكد أن العالم العربى يصنف من بين مناطق العالم الثرية أو غير الفقيرة، كما أن هناك دولا تفتقد الموارد إلى حد كبير، وبعضها يفتقدها تماما ولكنها أنجزت وتجاوزت ولعل المثال الصينى واليابانى والكورى والماليزى هو الأكثر حضورا فى هذا السياق، مما يجعل الحديث عن أسطورة نقص الموارد ضربا من الاسترخاء.) وأضيف أنا (وضربا من الاستهبال)، فكان لمصر أن تتقدم علميا بميزانية قريتين فى الساحل الشمالى أو بجملة ما نهبه بيزنس أولاد الكبار!

ومن المعلومات التى تعرفها من دكتور زويل تكتشف إلى أين تذهب مصر، إلى التقدم والتطور أم إلى مزيد من إهدار قيمة روح وكرامة المواطن وانحدار قيمة العلم والعلماء؟ مثلا هناك مجلتان عالميتان مرموقتان Science - Nature يعد النشر بهما دليلا على الأهمية القصوى للمكتشفات العلمية مثلما حدث فى إعلان أبحاث الاستنساخ وأبحاث الفيمتو وأبحاث الدى إن ايه وغيرها، الخمسين سنة الماضية لم تشهد نشر بحث علمى من مصر والعالم العربى فى أى من هاتين المجلتين، طبعا فنحن خبراء فى البحث الجنائى وليس البحث العلمى، نحن لا نخترع سوى النفاق والتأليه للحاكم وليست لدينا سوى عبقريات فى تفصيل القوانين لصالح نظام مبارك وحزبه وابنه وتفصيل قصائد المديح والرياء فى افتتاحيات الصحف الحكومية، عبقرية مصر مبارك تتجلى فى قدرة جهاز أمن الدولة على تجنيد عملائها فى السياسة والأحزاب والصحافة والجامعات والجوامع فيتحول المصريون إلى مخبرين وخدم فى خدمة رئيس مصر!

ما المطلوب من شعب وأمة لا مهمة لها سوى نفاق الرئيس! فهو الزعيم الملهم أيام عبدالناصر وهو الرئيس المؤمن وقت السادات وهو بانى مصر الحديثة وصاحب أول وآخر طلعة فى عصر مبارك!

ليقل لنا فاروق الباز إن مستقبل مصر أسود..

وليشرح لنا دكتور زويل طريق الحل:

لكن الحقيقة أن مصر ليست زويل والباز بل هى مصر مبارك وفى أكثر الأحوال تواضعا هى مصر جمال وعز!

كنت فى جلسة مع العالم المصرى العظيم دكتور رشدى سعيد، سألته: ما هو شعورك الآن وقد خضت حربا وحدك منذ سنوات ضد جدوى مشروع توشكى باعتبارك خبير النيل والجغرافيا الأول فى عالمنا وكانوا ينبذونك ويرفضون آراءك ويسخفون مواقفك ويستخفون بعلمك ويحولون توشكى إلى بقرة مقدسة لا يريدون حتى أن يسمعوا (مجرد أن يسمعوا) كلمة نقد عنها ومن يقترب فيمسها بسوء خرج عليه النباح والعواء من كل صوب، الآن ولم يبق من توشكى سوى خسارة مليارات الدولارات وأوبريت غنائى فاشل وسجائر توقف خط إنتاجها، ما هو شعورك يا دكتور رشدي؟

أجاب الرجل بحكمة وعلم وزهد السادسة والثمانين من العمر:

- حزين ليس لأنهم فعلوا ذلك معى بل لأنهم فعلوا ذلك بمصر!

حـــــش واديلـــــه!

تدور مصر فى دوائر من الكذب السياسى المقيت والسقيم، يتحدثون عن دولة مؤسسات والبلد يحكمه حاكم فرد واحد أحد لا يناقشه شخص ولا تراجعه مؤسسة ولا تعرف قراراته جهة ولا يرفض له وزير ولا غفير أمرا ويركع أمام قراراته الساسة والسادة، وتتوسل إليه أحزاب دار المسنين التى تحكمها هشاشة العظام والأفكار وأحزاب أمناء الشرطة التى يقودها مخبرون لجهاز أمن الدولة وتتسول منه نقابات رخوة، لا معقب على حكمه ولا راد لقراره ولا مناقش لكلمته ولا مجادل لرؤيته ولا معارض لسيادته ولا مستفهم ولا مستغرب ولا مستنكر، ثم هو يعد وعودا موعودة فى الإصلاح ثم يعيد وعده بوعوده ثم يضيف وعودا على وعود ثم يعد أن الوعود الأخيرة سوف تلحق بالوعود الثانية مع الوعود الموعودة من الأول، والأدهى من ذلك كله أنه عندما يعد الوعد الأولانى يهلل له الجميع ثم عندما يعد نفس الوعد يصفق له الكافة ثم عندما يعد وعودا هى ذات نفسها الوعود اللى كان وعدها يرجع الكل ويحيوا الوعود الموعودة ثم ينتظرون وعده بتنفيذ الوعود اللى كان وعد إنه ينفذ وعده بتنفيذها! حتى إننى أقترح أن نغير النشيد الوطنى من بلادى بلادى إلى أغنية موعود لعبدالحليم حافظ، موعود يا قلبى (يا شعبى) بالإصلاح، موعود بالديمقراطية!

ومن المؤسفات المخجلات المذلات المذهلات أننا قد نرى البعض يصرخ ويسأل الله عز وجل لماذا نحن وحدنا ياالله دونا عن بقية الأمم والشعوب الذين لا نرى رؤساء يتغيرون بدون أن يموتوا، ويأتى رؤساء غيرهم سلطاتهم ليست سلطات مطلقة أشبه بالإله، ووزراء يسقطون وحكومات تتبدل وسلطة يتداولها الجميع وانتخابات حرة بلا تزوير ورؤساء بغير انتخابات مزيفة بل عبر انتخابات

حرة (مش كده وكده) بين مرشحين ؟

لماذا نحن يارب وحدنا دون العالم كله الذين نعيش تحت حكم حكومات أبدية وعروش مسنة ومسنونة علينا خالدة على مقاعدها وجامدة على أفكارها، حكام لا يتركون مقاعدهم ولو انطبقت السماء على الأرض، يرثون أمتنا ويورثونها لأبنائهم من بعدهم ؟

لماذا نحن وحدنا دونا عن بقية شعوب السنغال وجنوب إفريقيا وكينيا ومالطة التى لا يسمع فيها أحد الأذان وقبرص واليونان وكوستاريكا وماليزيا وتركيا ونيكارجوا وفنزويلا (مش ح أقولك ألمانيا ولا فرنسا وأمريكا) الذين نعيش فى استبداد بلا نهاية وطغيان بلا توقف وحياة بلا ديمقراطية ويتحكم فينا شرار الناس والحكام وأبناء الحكام وبطانة الحكام ورعاع الساسة وفسدة المسئولين ؟

وأكاد أقول للداعى : انزل يدك وخلى عندك دم فلن يستجيب الله لك مهما دعيت، فالحرية والديمقراطية ليستا صلاة استسقاء ولا مطرا يهبط بالدعاء على أرض جفت، الحرية يكافح من أجلها الشعب والحرية تبذل الشعوب دمها فداء لها، وهى لا تأتى بالدعاء مهما كان حارا ومهما بللته الدموع! فالبلد ملآن بهؤلاء الأغوات والمماليك والخصيان الذين يطبلون ويزمرون للحاكم ويسبحون بحمده ويقدسونه كأنه الولى الصالح أو النبى العادل ويبيعون ضمائرهم وأوطانهم مقابل البقاء فى المقاعد والحصول على الفوائد واكتناز الذهب والفضة والفيلات والشاليهات، فمن الطبيعى إذن أن يبلغ مسئولون مبلغ الشعور بالعظمة وعرض مرض السلطة وشهوة الحكم وشراهة الفساد فيتخيلون أنفسهم أنصاف آلهة وأنبياء ويضعون لحذاء أولادهم مكانا على رقبة الوطن يرثون العواصم والخزائن والفساد والاستبداد من بعدهم، والمضحك المبكى أنهم (هم وأبناؤهم) يتحدثون طول الوقت عن ديمقراطيتهم وحريتهم وحرية مواطنيهم فى كذب مريع وفصام فكرى ونفاق سياسى مذهل، والأدهى من ذلك كله هو ما نشهده من الاستسلام الرخو والسكوت المتواطئ والتخنث الذى نتعامل به مع طغيان الحكم والحاكم الذى يحدد مصير ومصائر البلد ويحركها كما يهوى ونحن نتفرج بل ونتحمل بل ونرفع شعارنا المصرى

الصميم (إذا لقيتهم بيعبدوا العجل حش برسيم واديله) يدهشنى الصبر إذا تحول إلى تناحة! المسالمة حين تصير استسلاما، السماحة حين تتبدل إلى نطاعة، وتخيل أن جمال الدين الأفغانى قال منذ حوالى مائتى عام هذا الكلام لنا نحن المصريين، قال :إنكم معشر المصريين قد نشأتم على الاستعباد وربيتم فى حجر الاستبداد وتوالت عليكم قرون من زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين وتعانون لوطأة الغزاة الظالمين تسومكم حكوماتكم الحيف والجور وتنزل بكم الخسف والذل وأنتم صابرون بل وراضون، ويقول العلامة العبقرى الدكتور جمال حمدان: إن آفة مصر اثنتان:الطغاة فى الداخل والغزاة من الخارج، الدكتاتورية فى الداخل والاستعمار من الخارج، هاتان هما نقطتا الضعف الأساسيتان فى شخصية مصر وهما قد تبدوان للوهلة الأولى شيئين منفصلين، ولكن الحقيقة أنهما جانبان لشيء واحد، والعلاقة بينهما مباشرة هى علاقة السبب والنتيجة، فنحن كشعب نخضع بانتظام لحكامنا الطغاة، وحكامنا يركعون بسهولة للأجانب الغزاة. ويضيف حمدان : لقد تعودنا على أن نبرئ ساحتنا كشعب من مسئولية هذا الثنائى المزدوج القاصم لظهورنا بمقولة إننا ببساطة شعب مغلوب على أمره مفترى عليه، وإن الفاعل المباشر هو الطغيان والمجرم الأكبر هو الاستعمار، ومن جانبه، فإن الطغيان الداخلى بدوره يزيح المسئولية عن كاهله مسارعا بكل ترحيب إلى إلقائها على عاتق الاستعمار الآثم الزنيم.. إلخ. والاستعمار ولاشك آفة وأفعى إلا أنه ليس رأس الأفعى ولا الآفة الوحيدة، كما يروج بعض السطحيين ومنظرى عملاء الطغيان، والحقيقة أننا أسرفنا على أنفسنا فى اتخاذ الاستعمار "كمشجب" نعلق عليه كل مآسينا وعيوبناومشاكلنا، سياسية وغير سياسية، أولا: لأنه هدف سهل مباشر مشروع لا شبهة فى عدائه وعدوانيته، وثانيا: لأننا لا نكاد نجسر على أن نعلق الجريمة والعقاب فى رقبة الطغيان المحلى لأنه الحاكم المالك وظل الله فى أرضه أرض مصر..إلخ، وبهذا وبذلك اصطنعنا لأنفسنا سلما مريحا ومرضيا، غير أن الحقيقة التاريخية التى تثبتها مرارا وتكرارا تجربة ألفى سنة مازالت مستمرة معنا حتى اليوم،الحقيقة التاريخية هى أن كبرى الآفتين ليست الاستعمار الأجنبى ولكن

الطغيان المحلى، الحكم المطلق الداخلى بعجزه عن حماية الوطن فعلا أو بخيانته له علنا ومساومته وتواطئه مع المستعمر ليحفظ على نفسه عرشه أو مركزه. إن الذى أتاح للاستعمارالخارجى أن يدخل ويبقى فى كثير من الحالات بصورة غير مباشرة دائما وبصورة مباشرة أحيانا هو الطغيان الداخلى وهو لا سواه، إنه فى كثير من الأحيان "وجه مصر القبيح" فى الخارج كما فى الداخل.

هكذا تكلم جمال حمدان فى كتابه الفذ «شخصية مصر» (أربعة أجزاء فى ألفى وستمائة صفحة، وما اقتبسه هنا هو من المجلد الثانى باب الطغيان الشرقى) لكنه لا يتوقف عند تحميل الطاغية مسئولية الظلم والاستبداد بل كذلك يصل بها إلى المسئول الأول الحقيقى كما يكتب تحت عنوان رائع وهو سلم المسئولية، يقول حمدان :إنما الحقيقة بعد هذا أن مسئولية الطغيان الحاكم تتضاءل بدورها أمام مسئولية الشعب نفسه،الشعب -ولا أوهام فى هذا-هو المسئول الأول والأخير، الأصلى والأصيل، حتما وبالضرورة، فإذا كان الحكم فى مصر مأساة أو ملهاة، كارثة أو مهزلة، فإن سببها الشعب وحده نظريا وعمليا،وكم كان الكواكبى (يقصد عبدالرحمن الكواكبى مؤلف الكتاب الأشهر «طبائع الاستبداد») صحيحا صادقا حين قال إن مبعث الاستبداد هو غفلة الأمة، ومرفوض مرفوض هو المنطق الانهزامى المعكوس الذى يعتذر للشعب أو عنه بأنه مغلوب على أمره لا قدرة له على الثورة، مكبل أعزل من السلاح....إلخ، فالطغيان لا يصنعه الطاغية، وإنما الشعب هو الذى يصنع الطاغية والطغيان معا، والشعب مسئول عن الطغيان مسئولية الطاغية نفسه وزيادة،المثل الشعبى المصرى نفسه يقول "قال يا فرعون من الذى فرعنك؟ قال:لم أجد من يمنعنى" ومن هذه الزاوية فإن الشعب لا يعفى من اللوم، وليس له إلا أن يلوم نفسه أساسا، فهو الجانى مثلما هو المجنى عليه، الفاعل والضحية، ظالم لنفسه كما هو مظلوم بحاكمه. بل لعل الأوضاع السيئة التى يتردى فيها وإليها كل يوم تكون العقاب الطبيعى المستحق لتفريطه فى حق نفسه وتهاونه فى الدفاع عن حريته وكرامته وعزته وسيادته، فالحاكم الرديء الطاغية إنما هو عقاب تلقائى وذاتى لشعبه الذى سمح له بأن يكون ويبقى حاكما،إن خير

عقاب لمصر دائما على ما هى فيه،هو ما هى فيه بالفعل.

انتهى الاقتباس من جمال حمدان.

وقد يصف الكثيرون ما قاله حمدان بأنه ظلم، بل لعلهم يقولون إن هذا ما جعل حمدان يموت (يقتل) وحيدا معزولا (منبوذا من الدولة والحكم) أو يتقول البعض فى أن هذا كلام الغرض منه إشعار الشعب باليأس وبث روح الإحباط فيه والتعطل عن أى حركة وفعل، والحقيقة كما أظنها أن مكاشفة المريض بمرضه العضال والخطير أفضل مائة مرة من الضحك عليه بأنه شوية برد ويخف بكوباية شاى وليمون وحبة أسبرين، ثم إن هذا تشخيص الغرض منه أن يستيقظ الناس ويفيق المواطن ويشارك بالقلب واللسان واليد فى تغيير المنكر، وهل هناك أكثر من طغيان رئيس واستبداد نظام وفساد حكم، منكر؟ بل هذا منكر كل المنكرات ومبعث كل البلاوى والمصائب، وأصل الداء وفيروس تخلف مصر وتراجعها. أقول هذا وأنا وأنت والناس كلها شهدت شهداء الانتخابات البرلمانية الأخيرة الذين قتلتهم قوى الطغيان الأمنى وهم يمارسون حقهم الانتخابى لتغيير المنكر، وكلنا رأينا زملاء صحفيين مناضلين ورائعين يتم ضربهم والاعتداء عليهم وهم يتابعون الأحداث لكشف وتعرية المنكر وفساد واستبداد الطغاة، وكان مشهد الستات المحجبات فى مظاهرات أمام اللجان فى انتخابات مجلس الشعب الأخيرة بحثا عن ممارسة حقهن السياسى مشهدا معبرا ورائعا، كذلك صعود سيدة على سلم خشبى لتتجاوز حصار الأمن كى تدلى بصوتها كان علامة على صحة المجتمع المصرى وأنه لا يزال يحمل شيئا من كرامة وبعضا من نخوة، كل هذا صحيح تمام الصحة، لكن المؤسف الذى يؤكد أن شعبنا سر بلائنا بالطغيان هو أن الذين خرجوا للإدلاء بأصواتهم لا يتجاوزون فى النسبة ١٥إلى ٢٠% من الذين لهم حق الانتخاب فى الوقت الذى خرج فيه أكثر من ٧٠%من العراقيين ليدلوا بأصواتهم فى الانتخابات البرلمانية الأخيرة هناك، ثم هذا الكم السخيف السمج من الابتذال الثقافى حين يتهكم مثقفون ركع سجود للنظام أو مقعدون فى اليسار والعلمانية على اختيار الناس فى الانتخابات وكأنهم يطمئنون لطغيان هذا النظام

ويفرحون به لأنه يوفر لهم زجاجتى بيرة فى بار آمن، ويأنفون من الشعب الذى اختار ٨٨ إخوانيا فى المعارضة، هناك تحالف من أحزاب الشيخوخة وقيادات دار المسنين السياسية مع الطغيان وهناك تواطؤ بين مثقفى حظائر الطغاة وهناك خدم وحشم ومخبرون يديرون الإعلام المصرى لخدمة الطغيان وتجميل وجهه وهناك جهاز أمنى قاهر قامع ينتهك الآدمية ويحتقر القانون ولا يتوانى عن ضرب القضاة أنفسهم، هناك آلة من الفساد فى أرض النفاق هى التى تتحالف وتدعم الاستبداد.

إن المشكلة الجذرية فى شعب مسالم حتى الاستسلام، يوطى للحاكم حتى التواطؤ، ونخبة رخوة وطليعة خائبة ترتجف من سيرة أمن الدولة وتبول على روحها فرحا لو عرضوا عليها منصبا ولو ضئيلا حقيرا، وتبول على روحها فزعا لو قيل لها إن النظام زعلان منك....مشكلة مصر فى الحقيقة هى التبول اللاإرادى!

إشـــــــــــــربــــــــــــوه..!

لعله النظام السياسى الوحيد فى العالم الذى يعاير مواطنيه على البيبى أو الكاكا بتاعتهم، نعم فالنظام المصرى على لسان رئيسه أو رئيس وزرائه أو وزرائه أو رجال سيادته من منافقيه ومرافقيه يتحدثون على سبيل الفخر والتباهى فى كل مناسبة بأنهم أقاموا بنية أساسية (فيما بعد سنكتشف أن كله ملعوب فى أساسه) ووفروا للمصريين مكانا آمنا لقضاء حاجتهم، وكأن مصر لم تكن قبل ١٩٨١بتعمل البيبى خالص، عموما لا توجد خطبة ولا بيان ولا برنامج ولا وثيقة من الحزب العائلى الوطنى إلا وقدمت المجارى والكبارى باعتبارهما أهم إنجازات عصر السيد الرئيس ومن المفترض أن نشكر نحن هذا النظام على كباريه ومجاريه وكلما دخلنا الحمام نتذكر فضل الحزب الوطنى علينا وكلما صعدنا كوبرى نشكر السادة المسئولين فى المطلع والمنزل، وكنت والله أوشك على تصديق أن إنجاز أى نظام على مدى ربع قرن يتم حسابه بمدى حرصه على مسالك الشعب البولية لكن الحقيقة أنه إذا كانت لهذا النظام من كوارث سجن واعتقال وتعذيب وقتل آلاف المصريين وجرائم فساد وإفساد وإفقار للمصريين فإنها تتضاءل كلها على ضخامتها أمام ما فعله بماء المصريين سواء الذى يدخل من الجوف أو يخرج من الجسد!

مهم أن نعرف قبل أى كلام نقوله أن مصر طبقا للأمم المتحدة احتلت المرتبة الـ ١١٩ من بين دول العالم فى تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٥، والمعايير الثلاثة التى تحكم هذا الترتيب هى حياة مديدة وصحية للمواطن (مصر من أهم دول العالم غنى بالفيروس سى) ثم المعرفة(وتشمل التعليم والثقافة والإعلام) وأخيرا مستوى معيشى لائق للمواطن، وكما ترى حضرتك تتذيل مصر قائمة العالم بجدارة وهو

ترتيب لو حصلنا عليه فى ترتيب الفيفا لأكل المصريون عظم ولحم حسن شحاتة واتحاد الكرة، لكن عندما نحصل عليه فى السياسة والاقتصاد والمعيشة لا يمد بنى آدم بإصبع محملا رئيسه على مدى ربع قرن مسئولية هذا التدهور المخيف!، فمصر فى ظل أزهى عصور الرئيس مبارك تتعصر تقدما ونموا زى ما أنت شايف بنفسك لدرجة باسم الله ما شاء الله وكما أعلن برنامج الأمم المتحدة الإنمائى قد جاءت فى الترتيب الـ٥٥ بين ١٠٣ دول نامية فقيرة، يعنى إحنا بعون الله أحسن من ناس كتير، أفضل مثلا من ٤٨دولة نامية من بعدنا لكننا للأسف أقل من ٥٤دولة نامية برضه قبلنا، تخيلوا مصر بكل إنجازات الرئيس مبارك وبالـ ٨٨,٥% التى حصل عليها فى الانتخابات الرئاسية المزعومة مؤخرا وبعطاء وحكمة سيادته وبنشاط نجله (ألف مبروك على فكرة) وبنظافة رئيس وزرائها تقف فى الترتيب الخامس والخمسين من بين دول العالم الثالث النامى الفقير، المأساة ليست فى هذا الترتيب المزرى والكاشف الفاضح للحالة الاقتصادية التعبانة والكحيانة التى يعيش فيها المواطن المصرى (كون المواطن مش واخد باله يتفلق أحسن!) المأساة لا تقف عند هذا الحد بل إن الخيبة التى لم ترد على أحد هى أنه طبقا للقائمة ذاتها وللتقرير ذات نفسه فإن الأراضى الفلسطينية المحتلة (غزة ورام الله ونابلس وغيرها) حصلت على الأداء الأفضل بين البلدان العربية واحتلت المركز السابع بين الدول الـ١٠٣ النامية، ماذا أقول؟ أقولك سوف أخرس تماما وقل أنت! بذمتك ودينك لما يبقى المواطن الفلسطينى المحتل والذى لا يجد قوت يومه والمحاصر من الإسرائيليين وممنوعة عنه المعونات ويتم حرق حدائق زيتونه وبرتقاله أحسن منا اقتصاديا وأى مصرى فى أسيوط وقنا أو المنصورة والمنوفية أفقر من الفلسطينى فى غزة ولا جنين ورام الله، تقول إيه؟!

لكن الأمر لا ينتهى عند ذلك بل هنالك كذلك نفسه حين نتأمل البنية لا مؤاخذة الأساسية فيما يتعلق بالمياه خصوصا وقد هزتنى جدا مشاعر الملايين من المصريين الذين فزعوا تماما واستبد بهم الجزع وأحسوا بالخطر حين انتشرت شائعة (مشيها شائعة) تلوث ماء النيل بفيروس أنفلونزا الطيور نتيجة إلقاء الطيور الميتة فى النهر،

والمفارقة أن المصريين أظهروا فى هذه الساعات العصيبة حرصا رائعا على أن يشربوا ماء نظيفا غير ملوث وبدت لأول مرة مظاهر وعى مصرى شعبى بخطورة تلوث المياه على صحة الناس، وهذا مؤشر مهم على حالة فوقان جديدة على المصريين تماما مثلما يؤشر تجمع أصحاب مزارع الفراخ وتربية الدواجن وتجار وباعة الطيور فى مظاهرات أمام قصر عابدين (مع أن الرئيس لم يذهب لقصر عابدين منذ سنوات لكن تعود الجميع على أن كل عرابى مصرى - من غير حصان- يذهب إلى قصر عابدين لكل خديو مصرى -من غير ما يعمل فيها ولدتنا أمهاتنا أحرارا -) ومظاهراتهم كذلك أمام مجلس الشعب توحى بنمو وعى عند الناس بأهمية التجمع والتوحد والتظاهر من أجل رفع الصوت بالمطالبة بحقوقهم ولو فعلت كل فئة متضررة ذلك فسيقدر هذا الشعب على استرداد حقوقه من الفسدة الفشلة!

لكن المؤسف فى الواقع ويعر ويكسف ويوكس أن المصريين لا يعرفون الحقيقة المؤكدة أنهم يشربون منذ سنوات مياها ملوثة بما هو أخطر من هذا الفيروس الغلبان بتاع الفراخ (الذى لا يصيب إلا الكتاكيتو بونى فقط!)، المياه فى مصر ملوثة وها هو تقرير التنمية البشرية الذى جلس رئيس وزراء مصر فاردا طوله ورافعا رأسه وهو يقدمه فى حفل رسمى فإذا بهذا التقرير الذى تتشارك فيه الحكومة مع الأمم المتحدة يضع الجلاجل على فضيحة الحكومة فهو يقول «يعتبر تدهور نوعية المياه قضية بالغة الأهمية فى مصر. وتختلف شدة هذا التدهور بين مختلف المصادر المائية حسب حجم تدفق المياه الملوثة وهناك العديد من العوامل التى توثر على نوعية المياه مثل تصريف مياه الصرف الصحى الخاصة بالمصانع أو المنازل التى لا تتم معالجتها أو التى تعالج جزئيا، وتسرب المبيدات ومتبقيات الأسمدة ومخلفات النقل النهري». ويشير التقرير إلى أن أقل من نصف تدفقات مياه الصرف الصحى فى المحافظات تتم معالجتها، ويعنى ذلك بوضوح أن أكثر من النصف الذى يذهب لمياه الشرب من الصرف الصحى بلا معالجة! ويقول التقرير فى موقع آخر «وهناك تدهور ملحوظ فى نوعية المياه فى فرعى النيل وقنوات

الرى والمصارف بإقليم الدلتا نتيجة إلقاء مخلفات المنازل والمؤسسات والمخلفات الصناعية والزراعية ويؤدى تكرار إعادة استخدام مياه الصرف الزراعى إلى زيادة كثافة الملوحة إلى ٣٠٠٠ مليجرام للتر أو أكثر من ذلك وقد نشأت الملوحة وتراكمت فى كل الأراضى القديمة بالدلتا حيث ترشح متبقيات الأسمدة والتربة فى طبقات الأرض لانعدام نظم الصرف الزراعى الجيدة. ويبلغ حجم الصرف الزراعى الذى يصب فى مياه النيل حوالى ٦٠٠٠ مليون متر مكعب سنويا محملا بالمواد الصلبة الذائبة التى نتجت عن غسيل التربة فى الأراضى الزراعية ومن متبقيات المبيدات والأسمدة». ووفقا لتقرير البنك الدولى تقدر التكاليف المترتبة على الإصابة بالإسهال أو الوفاة نتيجة تلوث المياه بحوالى ٨٠٠ مليون دولار سنويا. وبطبيعة الحال يعد السكان الفقراء أكثر الفئات تضررا، خصوصا وتقرير الحكومة والأمم المتحدة يشير إلى أن ٢٥% من السكان تصلهم المياه لساعات قليلة يوميا أو حتى ساعات قليلة كل أسبوع، أى ربع الشعب المصرى لا تصل إليه مياه الشرب منتظمة كل يوم مع ملاحظة انهيار مستوى جودة المياه، (سلم لى سيادتك على البنية الأساسية). هنا نتوقف عند فقرة قاسية ومؤلمة وإذا كان لدى المسئولين نقطة دم لاعترفوا بالذنب والتقصير ونشوف عرض أكتافهم وهم يرحلون عنا بعد قراءة هذه الفقرة من تقرير التنمية البشرية «ويمكن القول بأن هذا الوضع يمثل كارثة نتيجة تضاعف الأخطار والمخاطر البيئية التى يتعرض لها المصريون، خاصة الأطفال، فى حياتهم اليومية، وكذلك نتيجة التدهور الذى يتزايد بمعدلات سوف تعجز أمامها تقريبا أى تدخلات للعلاج فى البيئة والموارد الطبيعية. وسيترتب على الفشل فى مواجهة هذه المشكلة بصورة كافية تراجع آمال ملايين المصريين فى التحرر من الدائرة المفرغة للفقر والمرض.وتبدو جسامة هذا الوضع فيما تترتب عليه من آثار متوسطة وطويلة الأمد على تكوين رأس المال البشرى، أى على أطفال مصر، فقد ثبت أن الفقر مع تدنى أساليب رعاية الأطفال والإسهال المتكرر وسوء التغذية، كل هذه العوامل مجتمعة، تؤثر على المخ وعلى الجهاز العصبى. وقد أوضحت نتائج الدراسات التى أجريت خلال العقد الماضى عن النمو

النفسى والاجتماعى للأطفال المصريين وعن قدراتهم على الإدراك أن هؤلاء الأطفال يعانون من قصور فى قوى الإدراك والتحصيل الدراسى وأن أطفال الريف الفقراء أكثر تأثرا». ها.. ما رأى تعليمات وتوجيهات السيد الرئيس التى يعمل بها رجاله وسدنته منذ ربع قرن؟ إلى أى درجة وصلت بنا هذه التعليمات؟ هل هناك حكم فى العالم وصل بشعبه إلى هذا الحد وعايز يقعد كمان ويورث ابنه وحزبه؟ لقد دمروا صحة المصريين إهمالا وتقصيرا وفسادا واستبدادا، ووصل الأمر إلى كارثة هم أنفسهم يعرفونها وقد شاركوا فى صناعتها بل وصنعوها ومع ذلك لا يزالون على مقاعدهم ملزوقين بغراء رغم ما وصل إليه تحليل البنك الدولى من أن تدنى نوعية المياه يؤثر على صحة الأفراد وعلى إنتاجية الأرض. وقد قدرت تكلفة هذا التدهور بحوالى ٥.٣٥ مليار جنيه، وإذا لم يتم اتخاذ أى تدخلات لتحسين نوعية المياه، فإن تكلفة التدهور سوف تزيد إلى ٩.٥ مليار جنيه،لا أعرف إذن من أين يأتى الرئيس مبارك بكل هذه الثقة وهو يخطب فى الشعب معددا إنجازاته على مدى ربع قرن بينما البلد فى ظل ربع قرنه الحاكم يشرب ماء ملوثا ممرضا بل ولا يشرب من فضلة خير هذا الوطن بل يشرب من فضلاته، دعك من البطالة وملايين الشباب الذين لا يجدون وظيفة، وسيبك من المعاش المبكر نتيجة بيع القطاع العام الغالى بالرخيص، ودعك من تلوث الهواء والأسعار المرتفعة والغلاء الذى نحياه وسيبك من آلاف المعتقلين والتعذيب فى السجون والأقسام ودعك من الفساد الذى يسرى فى البلد مسرى الدم فى العروق وسيبك من تزوير كل انتخابات مرت بمصر، دعك من كل هذا الفشل الواضح الفاضح لنظام مبارك وحزب ابنه، ولنتوقف عند هذا الحكم الذى عاش على عرش مصر ربع قرن فلم يوفر لشعبه سوى الماء الملوث، ولم ينجح فى شيء سوى أن يضع مخلفات المصانع وفضلات الشعب فى ماء الشرب فيعود المواطن ليشرب سما وبولا فى جوفه طيلة خمسة وعشرين عاما والناس ساكتة سواء لأنها لا تعرف فلا تفهم فلا تتحرك أو لأنها تعرف ولا تقدر على أن تتحرك، لكنها حقيقة ثابتة لا ذرة شك فيها ومع ذلك يملك حزب الرئيس وابنه جرأة تصل لدرجة الوقاحة حين يعايرون الناس

بإنجازاتهم ويتحدثون بمنتهى السماجة عن مستقبل مصر!

من المسئول عن هذا السم الذى نشربه؟

ستجد طبعا منافقين ولاد هررة يقولون إن الشعب السبب على اعتبار أنه شعب مش متربى مبيتمرش فيه وبيرمى كاكا فى النيل وهى النظرية السائدة فى مفهوم رجال مبارك وابنه وعصره أن مبارك حاكم عظيم لكن الشعب هوه اللى مبيعرفش يتحكم، ويعرف القاصى والدانى والدنئ أن هناك مواطنين ومصانع يلقون بالمخلفات فى النيل لكن الدولة فضلا عن أنها تتفرج وتتواطؤ فهى كذلك تلقى بالمخلفات والفضلات فى النيل وتصرف المجارى فى النهر وتفتح النهر على المجارى..

وتمارس أبشع عملية تسميم مباشرة وغير مباشرة للناس!

استمر حسنى مبارك فى الحكم ربع قرن ويريد أكثر له ولابنه من بعده وهو يقول للناس إنه عمل معجزة حيث أقام بنية أساسية هى كل دعايته عن نفسه ومع ذلك فإن ٦٣%من أسر الدلتا و٦٧% من أسر الصعيد تعيش بدون سيفون طبقا للمسح السكانى والصحى لمصر نعم إذا كانت الحكاية لا ديمقراطية ولا خوتة دماغ تعالى نحسبها بالسيفون باعتبار السيفون دليل تقدم «وراحة» الشعوب، هناك ٥٤% من المصريين يعيشون بمرحاض بلدى بدون سيفون.. ما رأيكم؟

إف يا وطن!

حكومة مبارك الأخيرة!

حسنى مبارك من عائلة بسيطة لم تشتهر بالمال ولا النفوذ ولا السياسة ولا الأطيان ولم يكن أحد خارج قريتها يعرف شيئا عنها ولا يشغل باله بها حتى وصل مبارك إلى ما وصل إليه من مقعد حكم مصر، وقد نجح مبارك فى الصعود السياسى عبر الالتزام الوظيفى شأنه شأن الضباط المنايفة الذين صعد بهم التزامهم و إخلاصهم للميرى إلى أعلى المراتب وكثيرون منهم ذهب إلى مرتبته فى البلد يقضى ما تبقى له من حياة فى الزراعة وتربية المواشى.

مبارك لم يقل كلمة واحدة فى السياسة ولا فى أى شأن يخصها قبل أن يصبح واحدا من المتحكمين فيها وهو أمر من مفارقات الأقدار أن يصنع السياسة من لم يعرفها أو من لم يشتغل بها أبدا ومن لم يرشح نفسه فى انتخابات طلبة مدرسة ولا كلية ولا ظهر فى مؤتمر ولا شارك فى مظاهرة ولم يقترب يوما من ندوة ولا عدى على كاتب ولا كتاب فإذا بهذا النموذج تحديدا يا سبحان الله هو الذى يحكم مصر الآن سواء من حسنى مبارك الأب أو جمال ابنه أو نظيف وزيرهم الأول، عموما مبارك الذى يتشارك مع الرؤساء الراحلين محمد نجيب وجمال عبد الناصر وأنور السادات فى أن عائلاتهم جميعا متوسطة اقتصاديا أو أقل قليلا، لا تشتهر بالمال ولا الأطيان ولا تشتغل بالسياسة، إذا به هو تحديدا، الرئيس مبارك، تضم أسرته الصغيرة اثنين من أهم وأشهر رجال أعمال مصر وهما علاء وجمال مبارك وليصبح حسنى مبارك الذى لا يملك أكثر مما وفره له مرتبه عبر سنين طويلة من الخدمة أبا رئاسيا لنجل يملك شركة وثروة تساوى كما قال هو للصحف الأجنبية ٧٠٠مليون جنيه أى ما لا تملكه محافظة المنوفية طولا وعرضا تلك التى ينتمى لها الابن والتى خرجت منها العائلة البسيطة!

ومن هنا صار منطقيا وطبيعيا أن يرى رئيس مصر، الذى لا يرى أحد غيره فى هذا البلد، أن رجال الأعمال هم القادرون على إنقاذ البلد (ودعنا نسأل ومن الذى هوى بالبلد إلى حد أنها تحتاج من ينقذها ؟) وأن تصبح ثقة الرئيس كاملة فى مجموعة من ملاك ومستثمرين نموا وترعرعوا فى ظل حكمه وتلاقت علاقاتهم بنجله وربما بنجليه فقد التقوا فى محافل الغرفة التجارية الأمريكية ومؤتمرات البيزنس ومحافل المليونيرات وأن يتم تسليم هؤلاء الذين لم يتحدثوا فى السياسة ربما حتى لزوجاتهم فى يوم من الأيام ولم يشاهدوا سوى شاشات البورصة ويتحدثون مع بعضهم البعض ومع أبنائهم باللغة الانجليزية، هؤلاء جاء بهم مبارك ليحكموا البلد كما يحكمون شركاتهم ومؤسساتهم باعتبار أن المصريين موظفون عندهم وأن مصر نفسها موظفة فى خدمة رئيسها اللى يؤمر بيه الباشا تحت أمره!

منذ صعود رجال يوليو ١٩٥٢، وغالبيتهم كانوا أبناء طبقات بسيطة ومتوسطة، بدأ المال يتحالف مع السلطة، رجال الثروة القدامى خافوا من ضياع ما تبقى فتصاهروا مع شوية ضباط وأقاربهم، وبعض الضباط طمعوا فى الثروة والمال بجوار النفوذ والسلطة فسهلوا وتساهلوا واشتبكت العلاقات ثم اندمجت عندما ظهر رجال الإدارة فى القطاع العام والمصالح الحكومية الذين كان فى أيديهم أذون التوريد والتخصيص والاحتياجات فصاروا شركاء فى الظل ثم فى العلن، وعندما جاءت السبعينيات كانت هناك طبقتان اندمجتا، طبقة قادمة من ثراء ما قبل الثروة، وطبقة من ضباط ومديرى ورؤساء مجالس إدارات حكومية ووزراء، ثم انضمت لهم فورا طبقة ثالثة وهى أغنياء الثراء الانفتاحى السريع الذى أنتج مليونيرات فى شهور لخط هذا فلوسه مع الأصل الاجتماعى لهذا والنفوذ السياسى لذاك وبقوا دوكهم مع دلهم طبقة جديدة تحالف معها فورا مليونيرات الثمانينيات الذين جاءوا برعاية من الدولة وبقروض مسيسة منها وضم هؤلاء القادمون الجدد معهم أبناء المسئولين والوزراء والكبار الذين تخرجوا من الجامعات فتلقفتهم شركات الأغنياء الجدد الذين بنوا معهم وباسمهم وبمشاركاتهم صروحا من الغنى التى وصلت بنا إلى وجود الفحش والتوحش المالى الذى نعيشه وصارت كل هذه الفروع

المحمية بمقولة حسنى مبارك (احنا بندى ونسهل وبنقوى الأغنياء عشان يفتحوا فرص عمل ويشغلوا ويدوا الفقراء) هى التى تسيطر على اقتصاد مصر تالت ومتلت فضلا عن أنها صارت طبقة متسعة تتخللها فروقات وتباينات لكن تجمعها مصلحة واحدة مندمجة على نفسها ومعزولة عن المجتمع كله فإذا كان رجل يدخن سيجارا واحدا يساوى مرتب شهر لموظف شغال منذ عشر سنوات فهل تنتظر أنه يشعر بمعاناة الناس؟! ثم تفاقم الوضع حين قررت هذه الطبقة المعزولة ماليا والمنفجرة نفوذا أن تحكم البلد فعليا ومباشرة عبر البرلمان أو الوزارة لتنفيذ مصالح مباشرة، وأنا أعلم يقينا أن هناك فى هذه الطبقة رجالا محترمين كثيرين لكنهم جميعا مربوطون بمصالح وعلاقات وفلوس وملايين بشركات خارجية وداخلية وبنوك واستثمارات وروابط وهو أمر يجعلك رجل أعمال كبيرا لكن لا يجعلك إطلاقا سياسيا ووزيرا، فالدكتور نظيف قال إن رجال الأعمال الذين انضموا للوزارة سوف يجعلون آخرين يديرون أعمالهم الخاصة (ألن تظل شركاتهم وفلوسهم يا دكتور نظيف!!وهل سيفرطون فيها وفى ربحها؟ وهل سيمنعونها من الدخول فى المناقصات والممارسات؟!! قل كلاما نصدقه يا رجل!) إنه دليل مزر على محزلة أن يتولى هؤلاء مهاماً لها علاقة بسياسة الدولة فضلا عن أننا لم نسمع أن رجال الصناعة والتجارة العظام فى العالم كله يحملون حقائب وزارية فضلا عن وزراء مصر قبل الثورة وفى عز ما سمى بسيطرة رأس المال على الحكم كانوا مدرسين ثانوى ومحامين (معظمهم كانوا محامين) ومشتغلين بمهن ووظائف وليسوا أصحاب مصانع أو شركات وظل طلعت حرب وعبود باشا وأبورجيلة وياسين والنابلسى شاهين وعمر أفندى وصيدناوى وغيرهم رجال مال وتجارة وصناعة وليسوا رجال وزارة!

لكن الجديد الآن أن المال لم يعد يستفيد من السياسيين فقط بل قرر هو الآخر أن يحكم ويتسيس، وهذا البروز المحموم لرجال الأعمال فى الانتخابات البرلمانية والسعى المهووس للحصول على مقعد برلمانى عبر الرشوة والفساد دليل على دخول المال مرحلة أخرى هى ذات نفسها المرحلة التى شقها وقعد فيها جمال

مبارك فهو نموذج صارخ لدخول المال عالم السياسة ولوصول السياسة إلى عرش المال!

جمال مبارك ابن موظف يشغل منصب رئيس الجمهورية بدأ العمل فى البيزنس كما شقيقه علاء مبارك، ها نحن أمام شابين لا يشتغلان فى العلم أو المعمل، فى المصنع أو الجامعة، بل هما بحكم التكوين الجديد لطبيعة الحكم فى مصر يذهبان مباشرة إلى الهدف، ويبدأ حاملا اسم أبيه فى التجارة كما فعل ابن صفوت الشريف وكافة أبناء النظام، حتى هذه اللحظة كان هناك بعد واضح وهو حالة الرغبة لدى السلطة فى عمل أبنائها بالبيزنس وهذا يتماشى مع المصاهرات التى عقدها رجال الحكم منذ السبعينيات مع رجال المال وعائلات الثروة ومن المؤكد أنك لو فحصت الآن خريطة العلاقات العائلية لأدركت فورا أن فلانا ابن الوزير علان واخد بنت فلان صاحب شركة كذا أو أن علانا ابن فلان المليونير متزوج من فلانة بنت وزير اللى مش عارف إيه، خريطة المصاهرة فى مصر بين الحكم والمال كاشفة بغلظة مدى التحالف السياسى المالى بين الطرفين وهذا كفيل بتوضيح الاعتماد المتبادل بينهما على أدوار بعض فى المساندة أو المساهلة. نعود إلى نموذج جمال مبارك وهو نفس الطموح الذى راود رفاق المال والثروة بعد ذلك، إذا كان هو يعمل فى البيزنس (وبالمناسبة البيزنس حاجة غير الاقتصاد!) ويرى قرارات يتخذها شوية أساتذة جامعة مش عارفين حاجة عن شغل البيزنس وقاعدين ينفذوا تعليمات مش فاهمينها، طيب ما أقول، طيب ما أتدخل، طيب ما ادخل، وهى درجات السلم التى يصعد عليها رجل الأعمال إلى الحكم، فهو يكتفى أولا بالامتعاض أو الإشارة أو الإشاحة، ثم يبدأ يقترح ويطلب ويطالب، ثم يدخل بنفسه ليخطط وينفذ!

فقرر الرجل أن يدخل اللعبة ويلعب وباعتباره ابن الرئيس فقد تحول البحر أمامه إلى طحينة ولأول مرة يدخل نموذج رجال الأعمال الجدد عالم السياسة الصرف الواضح حين دخل جمال مبارك ومعه الرفيق أحمد عز الذى لم يكن قد عرفه شخص واحد كشاب مهتم بالسياسة أو الأحزاب أو اسمه إيه ده الإصلاح

سوى عندما وجد نفسه مع رفيقه ابن الرئيس قد صارا فجأة فى قلب الحزب فقلبوه!

ومع استشراء وجود جمال مبارك رجل البيزنس الذى لا يملك مصانع ولا يلتقى بعمال ولا يعرف التزامات مع بشر بقدر التزاماته مع أوراق فى بورصات وأسواق مالية، ثم أحمد عز الذى كلما زاد دوره فى الحزب زاد عدد مصانعه ونمت ثروته وزادت أرباحه وتجاوز الجميع عن أى ثرثرة حاقدة (!!) عن احتكاراته!!، مع كل هذا انتفخ دور رجال الأعمال وأبناء البيزنس وتحولت مصر إلى محمية طبيعية لرحلات ونزوات هؤلاء فى السياسة وهم الذين لا يملكون أولياتها ولا مبادئها ولا نظرياتها ولا يعرفون منها سوى السلطة، بل وعلى قناعة أبرزها نظيف تامة مكملة وهى أن الشعب المصرى ليس ناضجا للديمقراطية ثم يلحون طول الوقت على أن الإصلاح السياسى بتعليمات الرئيس أى أنهم ليسوا بتوع سياسة ولا إصلاح وتغور هى وأصحابها أمام الإصلاح الاقتصادى الذى لا يعنى لديهم سوى فتح الأسواق وتحرير الخدمات (بتعبير نظيف)، وحين صار جمال مبارك بفعل دعم الأسرة غير المحدود فى مواجهة أى ممن يواجهه أو يؤذى مشاعره من داخل النظام أو خارجه، وعبر دخول الأب إلى سن تقتضى الراحة من التعب ومن المناقشة والمناهدة (حكى رجل أعمال أن الدكتور زكريا عزمى دخل عليهم قبل بدء اجتماعهم مع الرئيس فى عيد الإعلاميين وقال لهم الريس جاى ومش عايزين حد يقوله كلام يزعله، فاهمين!) فإذا كان المحيطون بالرئيس لا يريدونه أن يسمع كلاما يزعله (تخيل أنت أن كلاما يقوله وزراء أو رجال أعمال أو المحسوبون على الدولة ورجال الإعلام المنافقون للرئيس يمكن أن يزعله فما بالك بما يقوله المعارضون) بدأ الابن إذن يكسب امتيازات غياب الوالد رغم أنه يثبت طول الوقت عدم كفاءة فى إدارة المواقف سواء داخل الحزب وانشقاقاته التى تحسمها قرارات الرئيس المنحازة له بإزاحة من يريد من أمامه، أو فى الانتخابات والتى جاءت فى شقها الرئاسى مسرحية هزلية لم يفرح لها سواه ومعاونوه على طريقة مفيش داعى يسمع كلام يزعله، أو فى شقها البرلمانى الذى جاء فضيحة ومهزلة غير مسبوقة، وسواء

فى الشق الذى بدا أمام والده خير من يمثله وهو شق الإعلام الخارجى فإذا به يحول مصر إلى مسخة ومسخرة من سوءات ما يفعل نظام مبارك و ابنه أو على الصعيد الاقتصادى الذى كلما أخذ جرعة من أوهام الإصلاح «البيزنسي» لرجالة جمال ولم يشعر الناس به زادوهم بجرعات أخرى حتى سينفجر الناس فى اللحظة التى يتصور فيها رجالة جمال أنهم على وشك انفجار الشامبين فى حب مصر!

وقد أكد نظيف أن الرئيس مبارك لم يتدخل فى التشكيل الوزارى الأخير سواء فى اختيار أو استبعاد أى وزير وأنا لا أصدق نظيف ولا تصريحه ولا أصدق أى فتحة صدر من أى مسئول مصرى يزعم أنه يتنفس سياسيا قبل أن يعطيه الرئيس مبارك تعليماته بالتنفس ومع ذلك قد يكون نظيف على حق فى تصريحه الذى لا يخلو من تكرار ممل لجملة ما يقوله كل مرة فربما لا يكون مبارك قد تدخل لأن جمال مبارك قد اختار!

فكر جمال مبارك كرجل أعمال يخلو من السياسة رغم أنه يبذل مجهودا كى يبدو سياسيا وهو غير لائق فكريا ولا جماهيريا عليها إطلاقا ربما لعدم دراسته أو ممارسته أو اشتغاله الحقيقى بالسياسة أو لأن والده ليس سياسيا ومع ذلك يحكم فلم لا يحكم هو مثله وربما بسبب أنه يعتقد أنه يفهم فى السياسة جدا فلا يمنح نفسه فرصة للتعلم، ربما لأنه يريد أن يشتغل بالسياسة فى بلد لم ينزل يوما فى شارعها بدون موكب ولم يقف فى إشارة مرور ينتظر أن تفتح ولا اتخانق مع سواق تاكسى على الأجرة ولا شم رائحة العرق فى مترو الأنفاق والناس راجعة من الشغل ولا ركب ميكروباص ولقى السواق بيسب أم الواد اللى بيلم الأجرة ولا وقف فى مظاهرة تهاجم الحكومة ولا سمع كلمتين يسمموا البدن فى ندوة عن سياسة والده ولا أى شيء فهو شاب ولد فى كنف النظام وتربى بجوار كرسى العرش رأى مصر بالألوان وشاف الفقر فى التليفزيون والأفلام فمن أين له أن يفهم فى السياسة وهو لا يفهم شعبه؟! هو فقط يصدق الحاشية التى تتجمع دائما حول من تراه ولى العهد فتبث فيه ما ليس فيه ولا فيها!

ما يهمنى الآن هو أن وزيرا فى حكومة نظيف انضم إليه ابن خالته ليصبح

وزيرا معه فى الحكومة والمشكلة التى تشغلنى هى مشاعر ابن عمته الذى تجاهلته الحكومة فى الاختيار فكيف يكون معه ابن خالته فى الوزارة بينما خارجها ابن عمته؟ إشمعنى ابن عمته؟.. هل يرضاها أى واحد فينا على ابن عمته ؟

أيحسب أن لن يقدر عليه أحد؟!

ليست هناك صفة واضحة عند الرئيس مبارك أكثر من العناد، فالرجل عنيد بشهادة من حوله وبدليل ما يفعله من سياسات وتصرفات وقرارات وبشهادته شخصيا حيث لا يتورع البعض عن الفخر بعناده، والحقيقة أن أى شخص حر تماما فى أن يكون عنيدا فى بيته أو أسرته بل وفى شغله وحياته لكن عندما يكون من يشغل موقع الرئيس والمسئول عن دولة ووطن هو نفسه عنيدا ويتجاور العناد مع طول البقاء فى الحكم والمنصب ومقتضيات السن وطبيعة العمر فهذا ما يجعل البلد يدفع ثمن عناد شخص ساقه الله لموقع كل صفة شخصية فى صاحبه تؤثر فى حياة كل بنى آدم يعيش على أرض مصر، وهناك من يفخر بعناد الرئيس كأنه شيء يستحق الفخار، وهناك من يستسلم له ومن يتعامل مع هذا العناد كأمر واقع وقضاء نازل، وهنا مكمن خطر وفخ انهيار أمة وتداعى دولة فليس هناك أصعب وأشق وأفدح من رئيس عنيد لوطن مستسلم وشعب يائس خنوع، والتأمل الموضوعى لقرارات مبارك لا يمكن أن ينتهى بك إلا إلى حقيقة واحدة هى أن مصر تدفع كثيرا ثمنا لعناد رئيسها. لم نجد الرئيس مبارك يوما يستجيب للرأى العام ولا يستسلم لإرادة الناس ولا يعير اهتماما لمطالب القوى السياسية ولا يرجع لاستطلاعات رأى ولا يبدى قبولا وموافقة على مطالب نقابات أو هيئات، بل هو يظل يرفض تماما الاستجابة ويعلن أن أى تعديل أو تغيير فى الوقت المناسب وهو الوقت الذى يناسبه هو وليس بالضرورة يناسب الناس أو الوطن أو ضرورات الواقع وتطورات الأحداث، فهو يرفض منذ سنوات أى مطلب للإصلاح السياسى بل ويتهكم عليه بل ويتهم المطالبين بالإصلاح بأنهم يلعبون بمقادير البلد ويصف تغيير أو تعديل الدستور بالخطر الذى يمكن أن يثير فوضى

ثم يعود هو فى الوقت الذى يريده هو وبالطريقة التى توافقه هو ويتراجع عن كل هذا الكلام ويقرر على مضض أن يعدل ويغير شيئا طفيفا و مطفيا وبشكل ممجوج وسخيف هو المادة ٧٦ فى الدستور وبطريقة مفصلة عبر أردأ وأسوأ وأبشع ترزية قوانين يقبلون حذاء النظام ويبوسون الأرض التى يمشى عليها المسئولون فيفصلون تعديلا على مقاس أسيادهم وأبناء أسيادهم، المهم عند الرئيس أن يقرر هو ليس بناء على مطلب من الشعب ولا إلحاح من المعارضة ولا استجابة لقوى سياسية أو مهنية، بل يقرر هو وحده وبنفسه وفى الوقت والزمان الذى يحدده ما يريد أن يفعله، أما الناس فتضج بالشكوى وترفع صوتها بالمطالب وتستغيث أو تلح أو تصرخ أو تضرب دماغها فى الحائط دون أن يستجيب الرئيس فلا أحد يفرض رأيه على مبارك حتى لو الرأى العام ولا أحد يضغط على مبارك ولو كانت جماهير الأمة ومواطنى البلد، وهذا بالضبط وبالتحديد نموذج الدولة الشمولية التى يحكمها رئيس فرد لا يسائله أحد ولا يراجعه شخص ولا تملك جهة أو هيئة أن تحاسبه أو تراقب تصرفاته أو تنتقد قراراته أو تعارض سياساته، هذا بالضبط نموذج حكم الفرد الفرعون الذى يأمر ولا يتلقى أمرا من شعبه أو مواطنيه، هذه دولة حكم الفرد وليست دولة مؤسسات فالمؤسسات كلها فى هذا البلد خدامة لبلاط قصر الرئيس، موظفون يعملون فى خدمة الفرعون يطيعونه ويعبدونه من دون الله (مثلما كان يفعل اليهود مع أحبارهم)، ومن هنا تفهم مثلا لماذا يصر الرئيس مبارك على ألا يستجيب لمطالب نادى القضاة وأنه لن يسمح لمطالبهم وحقوقهم بالتحقق بل هو لن يمرر (إن مرر) سوى مشروع المجلس الأعلى للقضاء وليس مطالب ومشروع نادى القضاة فالسياسة العنيدة التى ترفع شعار أن أحدا لن يلوى ذراعى هى التى تتحكم وتحكم وتدير حياتنا السياسية وكأن العناد مع القضاة هو دليل سيادة رئيس أو سلطة حاكم، وكأن الاستجابة لمطالب مشروعة لفئة محترمة فى مصر هى بمثابة ضعف من الدولة (النهارده تستجيب للقضاة وغدا تفعل ما يريده الأطباء وبعده ما تنادى به منظمات حقوق الإنسان متبقاش دولة دى تبقى فوضى!)، نعم هذا هو السائد السارى فى بلدنا ولعل معاندة النظام فى

إلغاء قانون سجن الصحفيين الذى تجاوز وعد مبارك بتنفيذه (والذى أخلفه) أكثر من عامين ولم يتحقق فيه شيء للصحفيين ليست سوى مثال على حالة العند مع هيئات المجتمع فالذى يطلب لا يأخذ بل وحتى الذى يتوسل ويتسول عليه أن يقبل حقيقة أن الرئيس سوف يستجيب فى وقت يحدده هو بالطريقة التى يريدها هو وبالشكل الذى يوافق عليه هو وليس ما يريده ويطلبه أصحاب الحقوق!

لقد طالبت مصر كلها بتغيير الوجوه الكالحة التى شاركت مبارك حكمه وعملت أدوات لرئاسته فلم يقرر مبارك تنحيتهم إلا بعد ٢٤عاما سواء من كان فى الوزارة أو من كان يدير المؤسسات الصحفية، وهذا هو وقت مبارك المناسب الذى يحكى عنه دائما، لا يأتى إلا بعد أربع وعشرين سنة، وأبلغ دليل على سياسة وسيادة العند فى اتخاذ القرار المباركى هو رفض إلغاء قانون الطوارئ رغم أن إلغاءه مطلب شعبى إجماعى لكن الرئيس لا يلغيه ولن يلغيه إلا حين يقرر هو وليس حين نطلب نحن، فمن نحن كى نطلب ونقرر، نحن رعايا للرئيس ولسنا مواطنين فى بلد لنا حق أن نطالبه بل وأن نفرض عليه أن يستجيب لنا عبر مجالس الشعب وأحزاب المعارضة والنقابات والجمعيات الأهلية والنقابات واتحادات الطلاب والصحف الحرة، لكن أين كل هؤلاء صحيح ؟

لقد ألغى مبارك كل شيء فى هذا الوطن وحوله بنظامه وجهاز أمن الدولة إلى مسوخ وأشباح، فالبرلمان مزور وسيد قراره وقرار سيده، والأحزاب تحولت إلى أحزاب دار مسنين ومشفى للشيخوخة أو أحزاب أمناء الشرطة الذين يديرون هذه الأحزاب التى جاءت بموافقة أمن الدولة ومصنعية على يديها، والنقابات مفروض عليها الحراسة أو موءودة ومصر كلها بالتعيين فقد ألغى الرئيس الانتخابات حتى عمداء ورؤساء الجامعات وعمد القرى، أما الصحف الحكومية فهى نوق يركبها السادة وبوق ينافق الحاكم، لقد أخرست سنوات حكم مبارك حنجرة مصر فصارت بكماء بل ولا تجيد حتى لغة الإشارة ومع ذلك فإن الشعب المصرى لا يزال يملك قلبا يحب ويكره وعقلا يرفض ويوافق ولا يزال هناك من يعى مصلحته

ومن يطالب بها وهؤلاء لا يعتبر لهم الرئيس ولا يضعهم فى اهتمامه وهمومه!

ولعل التعديل الوزارى الأخير صورة من صور العناد الواضح والمعروف فالرئيس ينفيه لأن الناس تتحدث عنه أو تطلبه ثم يخبر الجميع أنه سيجرى تغييرا بعد فترة ثم يعلنه بعد ساعات وهكذا تعودت مصر طيلة سنوات حكم مبارك بل إن الثابت لدينا أن كل وزير يتصور الناس أنه سوف يرحل وتكتب الصحف مبشرة بذلك إذا به يبقى لأن الرئيس لا يرضخ للناس بل وكانت نصيحة تتردد فى دوائر الإعلام والبرلمان بأن الوزير الذى تكرهه لا تهاجمه فهذا الهجوم سيكون مبرر إبقاء الرئيس عليه وها هو فى التعديل الأخير وزير الداخلية الذى تورط رجاله فى اعتداء على المواطنين والقضاة والذى شارك فى تزوير الانتخابات والذى قتلت قواته مواطنين أبرياء وفحتت عيونهم فى المظاهرات والذى طالب القضاة بتنحيته والذى كشفت منظمة العفو الدولية ومنظمات حقوق الإنسان العالمية والمحلية تورط وزارته فى التعذيب البشع والمنظم للسجناء والمعتقلين، هذا الوزير الذى انتظرت مصر كلها أن يرحل (ما عدا أنا وكنت قد كتبت أنه لن يرحل) فإذا بالرئيس مبارك يجدد فيه الثقة ويصر عليه ويلقى بكل هذه الاتهامات القانونية والسياسية الموجهة إليه عرض الحائط ولنذهب نحن جميعا للجحيم ما دام مبارك راضيا عن تنفيذ وزيره لتعليماته وتطبيق توجيهاته، ونفس الشئ مع وزير الثقافة الذى بقى كثيرا على مقعده وتجمعت ضده دوائر من الرفض خصوصا بعد حادث حريق مسرح بنى سويف ولم يكن مفجعا للوزير نفسه أن يرحل بعد ١٨ سنة من جلوسه على مقعد الوزارة ومع ذلك فالعناد أبقى عليه فلا يصح أن يرحل من يطالب الناس برحيله، وهو ما تكرر فى الإصرار على إبقاء وزير العدل السابق على مقعده الذى لا يوجد أى منطق فى الإبقاء عليه سوى عناد الرئيس.

وقد فرد العناد ظله على الوطن كله فصار هذا النظام السياسى وإدارته الحكومية على درجة من العناد ضد إرادة الناس واستخفافا واستهتارا بمطالب الرأى العام وترفعا عن الاستجابة له وبات الحكم الفردى الاستبدادى سمة وطن من الرئيس الحاكم إلى أحزابه المحكومة إلى إداراته الحكومية وجامعاته وكلياته ومؤسساته فالناس على عناد ملوكهم!

لكن المشكلة الأفدح تظهر عند الاقتراب من سمات وصفات هذا النظام من قمته إلى قاعدة حكمه والتى تتبدى معها مسوغات تراجع مصر وتدهورها على أصعدة السياسة والاقتصاد فالنظام لدينا يتصف ويوصف بـ:

١ - البطء الذى يصل إلى حد الجمود، فكل قراراتنا بطيئة وئيدة تأتى على محل فالإصلاح السياسى يعانى من واقع التفكير الجامد الذى يقودنا فيأتى مترددا وبطيئا ومتأخرا وتدريجيا ووهميا ومملا، يوضع مشروع القانون فى الأدراج شهورا وسنين وقد يصدر وقد لا يصدر وإن صدر فبتشويه مواده وتفريغ معناه وتفصيل مغزاه، والوجوه النافذة والمتنفذة فى البلد هى ذاتها على درجة من الجمود الذى لا يجد مبررا للحركة بل يرى الحركة فوضى ولا يحب التغيير بل يظنه خطرا ومن ثم ترى نظاما سياسيا هو فى ذاته آية من آيات البطء والجمود فينشر بطأه وجموده على كل مناحى الحياة من تغيير القيادات إلى تعديل الحكومات وتبديل السياسات إلى تطوير التعليم كله يغطس فى جبل الجليد، كما أن قوانين الحريات مدفونة فى قاع التفكير، ونحن أمة ابتدعت فكرة تحويل أى موضوع للجنة لتبحثه كى يموت ثم تحولت الظاهرة الجديدة إلى قتل أى قضية بتحويلها للنائب العام وإفشال أى قانون ودفنه بإحالته إلى لجنة استماع، إيقاع البلد إذن رتيب وبائس ومصاب بروح شيخوخة تيبست معها عضلات البلد وتصلبت دماؤها فى شرايين متجمدة وإذا كان من وصف حقيقى دقيق لحالنا السياسى الراهن فهو البطء والملل والجمود على صعيد الدولة كما

على صعيد المعارضة!

٢- الغطرسة والاستخفاف فلدى هذا النظام قدر هائل من الغطرسة التى توهمه بأنه لن يقدر عليه أحد، متعاظم ومنتفخ باستقراره واستمراره وتضخم قواته وقدراته البوليسية وإحساسه العميق بأنه مسيطر على مقاليد الأمور ومنافذ ونوافذ التغيير ومالى يده جدا من إحكام قبضته على أعناق الناس وقد ساهم البقاء الطويل فى السلطة فى امتلاء بالونة النظام بالثقة فى البقاء التى أنتجت غرورا وأودت إلى الاستخفاف بالجميع، فهو يظن أن حركة كفاية وغيرها لا تقدر على مواجهته وأن أحزاب المعارضة تحت نعله وأنه فرم التيار الإرهابى المسلح وأنه ألجم المعارضين الإسلاميين المتطرفين باعتقال اثنين وعشرين ألفا منهم وأنه قادر على اللعب (والتلاعب) بالإخوان المسلمين بالقبض والاعتقال أو الحصار والإعلام الحكومى والترويع والصفقات مع الأمريكان، كما يستخف بمنظمات حقوق الإنسان والمجتمع المدنى ويظن أنه متمكن فى فن محاورة ومناورة المنظمات الدولية ومستوعب احتواء أو انطواء الضغوط الأمريكية والأوروبية، هو بالقطع نظام متغطرس مغرور فضلا عن أنه فرعونى تماما استخف بقومه فأطاعوه فلم يعد يرى رجلا يواجهه ولا تنظيما يقاومه ولا تيارا يعارضه ولا شعبا يغيره.

٣- البلادة والجلد التخين، طبيعى أن النظام الذى يتصف بالبطء والجمود ثم بالغرور والاستخفاف ينتهى به مقامه إلى البلادة والجلد التخين فهو لم يعد يهتز أمام الكوارث ولا تهزه المآسى فحين يضرب متظاهرين ويقتلهم لا ترتعش يده ولا ترتجف رموشه وحين يقتل لاجئين سودانيين لا يتحرك ضميره ولا يتأسى فؤاده ولما يرى ملايين الشباب العاطل لا يشعر بمسئولية ولا يحس بذنب ولما تفضحه شهادات القضاة وتصمه بالتزوير لإرادة المواطنين لا يرجع ولا يتراجع وخذ عندك ملايين المصريين تحت خط الفقر ومحدودى الدخل بعجزهم عن توفير لقمة العيش

للأبنـاء ومـشردى الـشوارع وضحـايا المستـشفيات، كل هـذا يـذهب هبـاء منبثا ويقـترب الحـال إلى مـشهد مأسـاوى شـبيه بمـارى انطوانـت الـتى طلبـت مـن الجـوعى الذيـن لا يجـدون الخـبز أكل الجـاتوه، نظـام مـصر الآن انطـوانيتى النزعـة مـن جـراء تـلك الـبلادة وسماكـة الجـلد ومـوات القلـب الذى صـار عليـه مـسئولون يعتقـدون - بعـد حـكم طويـل مديـد ممتـد - أن شـعوبهم لا تـستحق حكمـتهم ولا تمـر فـيهم نعمـة حـاكمهم، ومـن ثم فالرهـان عـلى إنـسانية النظـام رهـان أهطـل والظـن بـأن التغيـير وارد (فـضلا عـن كونـه قادمـا) مـن هـذه الوشوش أمر يدخل فى بند المستحيل أو كونه فى النهاية هرتلة سياسية!

إذن ما العمل ؟

مبدئيا العمل عمل ربنا، ثم على هذا الشعب أن يعمل شيئا!

لكن هذا كلام آخر يتسع جرحه ويطول شرحه!

اندهشى يا مصر!

فى أمريكا كانوا يطالبون بعزل جورج بوش الرئيس الأمريكى عن منصبه لأنه تجرأ وقرر وأقر قيام حكومته بالتجسس والتنصت على مكالمات مواطنين أمريكان، ياللهول، أن يجلس مواطن فى بيته أو سيارته يتحدث فى التليفون فيتجسس عليه ضابط أو مخبر جالس وراء ماكينات تنصت ويتلصص على خصوصيته وحقه، يا واقعة سوداء، أمريكا تهتز وترتج، والدنيا تقوم وتقعد، ومطالبة داخل مجلس النواب بعزل أهم رئيس فى الكون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ذات نفسه وذات نفسها..

تعالى عندنا إحنا يا حبيبى، نظام وحكومات ووزراء داخلية الرئيس حسنى مبارك يتجسسون على المواطنين ويتصنتون على تليفوناته ويضعون أجهزة تجسس فى مقرات أحزاب المعارضة والإخوان المسلمين والجوامع والصحف المستقلة ويراقبون ليل نهار المعارضين ويسجلون جميع مكالماتهم بل ويتصنتون على بعض الشخصيات ويصورنهم بالفيديو ويوزعون أحيانا أسطوانات وسى دى لإثارة فضائح وتصفية حسابات وابتزاز رجال سياسة أو أعمال، بل ووزير الداخلية حبيب العادلى الذى يحظى بثقة أسطورية من رئيسه مبارك يعلن فى تليفزيون الحكومة (مش عند حد غريب) أنهم يتجسسون على التليفونات فعلا واللى يخاف ميتكلمش، ومع ذلك وبرغم كل ذلك لا يوجد رجل واحد فى مصر رضع من صدر أمه ولا نائب فى برلمان مصر يملك من جسارة الضمير، أو حزب معارض أو شخص محترم، زعل وتأثر وغضب وتمر فطالب بعزل حسنى مبارك أو حتى على اعتبار أن الجبن سيد الأخلاق طالب بعزل حبيب العادلى لأن الحكومة تجرأت وراقبت وتصنتت على المواطنين واعترفت بذلك فى بجاحة تشبه

بجاحة جورج بوش التى لم يغفرها الأمريكان بل يطالبون بعزله وتنحيته ويخوضون حربا سياسية و إعلامية ضده وضد حكومته دفاعا عن حق المواطن الأمريكى فى خصوصية واحترام حياته الخاصة وأفكاره وتصرفاته السياسية والشخصية، إنما فى مجتمعنا المصرى فلا ترى سوى النطاعة العامة كأن من حق مباحث دولة مبارك أن تراقبنا وتتجسس علينا ولا حق لنا ولا احترام ولا يسألون فينا ولا فى اللى خلفونا، والمسألة عادى جدا، فيها إيه يعنى، ما طول عمرهم بيتجسسوا وبيراقبوا وبيتصنتوا، إلى هذا الحد من الهوان والمهانة وصل المواطن فى مصر أن تنتهك حياته وخصوصيته ثم لا يغضب، وبهذا القدر من الرعونة والاستخفاف يواجه رجال السياسة والمعارضة فى مصر هذه الجريمة البشعة من حكم مبارك دونما أن نحس على دمنا أو يهتز الضمير الضرير!

يا الله... ويسألون ليه البنى آدم رخيص قوى فى بلدنا ؟ ليه كل حاجة بتغلى إلا المصرى وروح المصرى بترخص ؟

لقد أوجعنى شاب مصرى قابلته فى الخليج وكان مفصولا من شغلته و"متفنش" من ساعات قال لى وهو يبكى على رصيف التقينا عليه صدفة أن رئيسه فى العمل قرر ترحيله فطالبه الشاب بحقه فرد عليه: لما تاخد حقك من النيل تعالى خده من البترول ؟

انظر للذين يهاجمون الإدارة الأمريكية على جريمتها البشعة بتعذيب سجناء ومعتقلى سجن أبو غريب فى العراق أو سجناء جوانتانامو وهم يسكتون على جرائم نظام مبارك المدان بتعذيب مئات وربما آلاف المواطنين إذا احتسبنا ما يجرى فى أقسام الشرطة فى مصر وليس فقط فى معتقلاتها وسجونها، بل إن فى أمريكا التعذيب تم خارج حدود ومدن الولايات المتحدة وفى سجون حربية تقريبا ومع أجانب وليس ضد أمريكان على الإطلاق، ثم كذلك فإن الذى كشف التعذيب هم مواطنون وضباط أمريكان ارتاعوا مما وصلت إليه حكومتهم وكشفوا وفضحوا ما يجرى سواء فى سجن أبو غريب أو جوانتانامو ثم إن الصحافة الأمريكية والإعلام الأمريكى نفسه وليس أى كائن آخر هو الذى أذاع ونشر هذه

الفضيحة وحوّل أيام بوش إلى جحيم من جراء هذه الانتهاكات التى صارت موضع تحقيق فى الكونجرس جلس أمامه أكبر رؤوس فى حكومة أمريكا، أمام ممثلى الشعب الأمريكى، كل هذا لأن الأمريكان عذبوا وليس لأنه قد تم تعذيبهم فما بالك بنا فى مصر (والوطن العربى كذلك كله) الذين يأكلون عيشهم ويتعاطون رزقهم من شتيمة أمريكا نسوا أن هناك مجتمعا أمريكيا محترما وقادرا على محاسبة حكامه بينما نحن لم نواجه رئيسنا ولا حكوماته بجرائم التعذيب التى يمارسها ضباط مصريون ضد مواطنين مصريين، أبناء شعب واحد ووطن واحد ومع ذلك جرائم تعذيب حقيرة ومنظمة ويومية يرتكبها رجال النظام المصرى وزادت إلى حد مرعب فى الأربعة وعشرين عاما الأخيرة ولم يتحمل مسئول واحد لدينا المسئولية ولم نحاكم كبيرا أمر أو وزيرا أشرف أو حكومة تورطت أو حاكما يحدث كل هذا فى عصره وعهده!وكأنه من الطبيعى أن يمارس الحكام المصريون التعذيب ضد المواطنين المصريين، ولم نجد أحدا من حكام مصر أو مسئوليها أو وزرائها ملتاعا مفزوعا مما سمع أو عرف أو نشر أو قيل أو ثبت من تقارير حقوق إنسان ومنظمات محلية أو دولية، مرة أخرى النطاعة الكاملة وكأن التعذيب قدر وفيها إيه ما طول عمرنا بنعذب ونتعذب، بل ويتعامل المواطن مع فكرة التعذيب كأنها مسألة طبيعية، كذلك يرتكب ضباط مصر هذه الجريمة ويذهبون بعدها للصلاة والحج كأنهم لم يرتكبوا إثما ولم يقترفوا ذنبا، ويسمع حكام مصر هذه الحقائق فينكرونها ولا يعيرونها اهتماما ولا يسألون فيها أو على أقل تقدير يوجهون توجيهاتهم ويعلمون تعليماتهم بالتحقيق فورا ثم تحفظ القضايا عند النائب العام أو لدى أجهزة الدولة أو يتم عقاب ضابط صغير ككبش فداء مثل صبية المعلم أو الجزار الذين يشيلون عنه قضية التموين مقابل أن يتكفل بعائلاتهم وهم فى الحبسة.

أظن أن كارثة مصر أنها فقدت الدهشة وصار كل ما نراه من جرائم عاديا لا يحرك أحدا وطبيعيا لا يثير غضبا وبديهيا لا يهز قلبا، ومع ذلك فأنا أدعوكم جميعا للدهشة إزاء حقيقة أن جميع الضباط الذين حوكموا بتهمة التعذيب ذرا للرماد فى

العيون كانوا فقط ضباطا فى أقسام شرطة عذبوا متهمين جنائيين أو مشتبها بهم فى سرقة أو قتل بينما لم يتم إلا نادرا جدا (إن تم) محاكمة متهمين بتعذيب معارضين سياسيين أو معتقلين من التيار الدينى، إطلاقا، فالدولة تكتفى بتعويض مالى تافه هزيل مقابل انكشاف التعذيب وثبوته (للمفارقة أمين عام المنظمة المصرية لحقوق الإنسان حاصل على حكم بالتعويض نتيجة تعذيبه فى السجن!!)..

وبعيدا أو قريبا من هذا (محدش عارف) نرمى عدوتنا إسرائيل بكل الموبقات والجرائم التى تستحقها قطعا ولكننا ننسى أن نتعلم من العدو كى ننتصر عليه، فها هى ديمقراطية إسرائيل التى تسمح لأى رجل سياسى وحزبى بالتمرد على حزبه وتشكيل حزب جديد فى ٤٨ساعة كما حدث مع شارون حين خرج من حزب الليكود وأسس فى بضعة ساعات حزبا جديدا، بينما فى مصر هذا القانون الوضيع المسمى قانون الأحزاب وهذه اللجنة الفاشية البوليسية التى تسمى لجنة الأحزاب تمنع الأحزاب عن الظهور والتشكيل، و تسمح فقط للأحزاب التى يعمل أصحابها ويتعامل رجالها مع جهاز أمن الدولة هكذا بمنتهى الوضوح والسفور فلا يوجد حزب ظهر من لجنة الأحزاب بل ومن محكمة الأحزاب إلا بموافقة ورعاية من وزارة الداخلية وأمن الدولة، وباستثناء أحزاب الوفد والتجمع والناصرى والغد، فمعظم مسئولى الأحزاب الأخرى رهن إشارة وتحت أمر الدولة وأجهزة الأمن والوقائع التى يملكها المرء أمرّ بل وأكثر مرارة من أن نحكيها فحقيقة الوضع أن جهاز أمن الدولة هو الذى يدير أحزاب مصر كلها إما مباشرة وعبر مسئولى هذه الأحزاب من كبيرها لصغيرها والذين لا يفعلون أمرا إلا بأمر الضابط المسئول فى إدارة الأحزاب بأمن الدولة ولا يمشون مترا إلا بموافقة تليفونية من الجهاز اللى مشغلهم وإذا بحثت عن مواقف هذه الأحزاب فهى كلها مواقف لاظوغلى ومن الصعب بل من المستحيل أن تجد أحدا منهم خارج منظومة أمن الدولة وأوامرها أو تليفونات ضباطها، ثم كذلك يخترق جهاز أمن الدولة عبر عملاء مباشرين له حتى الأحزاب الأربعة وفد وتجمع وناصرى وغد، وهذا الجهاز قادر على تحريك ودفع رجاله فى الوقت المناسب وهم معروفون يكاد يكون بالاسم للجميع فى مشهد

هزلى لا تجده إلا فى مصر أن يتفاخر رجال الأحزاب بعلاقتهم برجال أمن الدولة أو ضباط الداخلية ويمطرونك لغوا ورغيا حول مصلحة البلد وكأن مصلحة البلد هى مصلحة مدير إدارة الأحزاب فى جهاز أمن الدولة، وهكذا فلا يستطيع أن يقوم أى مختلف مع رئيس حزبه أو رئيس حزب منقلب عليه بالخروج من الحزب وتشكيل حزب جديد فى ساعات أو أيام، فالموافقة على حزب جديد وإجراءاته تستغرق سنينا إن وافقوا عليه أساسا، ومن ثم تنحصر اللعبة داخل كل حزب إلى درجة تقطع الناس نفسها وتحارب بعضها من أجل الوجود والسيطرة على الحزب بينما لن يحدث ذلك أبدا لو كانت هناك حرية تشكيل أحزاب بلاش زى إسرائيل ياسيدى ولا حتى العراق ولا داعى للطموح أن نكون مثل إيطاليا أو اليونان، بل لنكن مثل مصر نفسها فى عصر ما قبل يوليه ١٩٥٢ التى كان تشكيل الأحزاب فيها بالإخطار وليس بأمن الدولة!

يواجه النظام فى مصر كل هذه الحقائق بحجج خائبة وبليدة ومش مبذول فيها جهد حتى لصياغة جديدة عاقلة، يقول جهابذة الحزب الوطنى و«مطبلاتيتهم» فى الصحف اللاظوغلية كالأسطوانة المشروخة أن الضغط الخارجى من أجل الإصلاح مؤامرة ضد مصر، وأنا أسأل مؤامرة على إيه ياحسرة؟!، لا نهدد أحدا ولا ننافس دولة ولا نرفض أمرا من أمريكا، سماسرة ووسطاء ووكلاء فى المنطقة نوفق رؤوسا فى الحلال (إن كان حلالا) بين إسرائيل وسلطة فلسطينية، بين أمريكا وسوريا، بين لبنان وسوريا، بين ليبيا وأمريكا، بين السودان والعالم، نحن لا نقدر أن نهش ذبابا عن وجوهنا فكيف نهدد أمريكا أو إسرائيل كى تتآمر علينا، ومن أعلى الألبومات الحكومية مبيعا هو أغنية أن الإصلاح يجب أن يكون تدريجيا وهو ما يعنى والحال هكذا أنه لن يوجد إصلاح أساسا وأنه عبارة عن قرارات لا تغنى ولا تسمن من جوع، قرارات على الورق لا تساوى الحبر الذى كتبت به، لا هدف لها سوى تلميع سريع لسياسة نظام فاسد مضغوط عليه من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبى ومحاولة لتصوير أن الحكم يستجيب للعالم المتقدم الذى يطالبه بالتخلى عن الشمولية وعبادة الفرد،

الإصلاح التدريجى معناه بالبلدى سيبونا نحكم ثلاثين سنة أخرى أنا والورثة!

أو تسمع من الحكومة ومن سذج طيبين أو متواطئين أو متورطين معها يقولون إننا لابد وأن نرفض أى صيغة أمريكية للديمقراطية ونتصدى لأى شكل ديمقراطى لا يتناسب مع قيمنا وثقافتنا تريد أمريكا فرضه علينا، وأنا أريد من أى مسئول رسمى أو مثقف متحمس ممن يردد هذا الهراء أن يقول لنا مثلا واحدا لأى إجراء ديمقراطى مطلوب منا أو مفروض علينا وتأباه وترفضه ثقافتنا العظيمة العميقة العريقة، أكرر، أؤكد، أتحدى، نريد أن نعرف ما هو هذا الشئ الديمقراطى الفظيع الرهيب المريع الخطير الذى يريد الغرب المتوحش أن يفرضه علينا، هل التوقف عن التزوير العلنى الفاضح فى الانتخابات؟، هل إطلاق حرية تكوين الأحزاب وإصدار الصحف؟، هل وقف أبدية الحكم أو توريثه؟، نريد أن نعرف بشكل واضح محدد وليس فيه تعويم ولف ودوران وكلام بلا معنى عن فرض شكل ديمقراطى معين على مصر، (اللى هوه إيه ولا مؤاخذة؟!)، ففى العالم الأوروبى والأمريكى الديمقراطى أكثر من شكل لنظام حكم، ملكى ورئاسى وبرلمانى، وأشكال متعددة من نظم الانتخابات، لكن هناك ثوابت ديمقراطية من الهند والسند وحتى بحر الظلمات، تداول السلطة وحرية إصدار الصحف وتكوين الأحزاب ومحاسبة الحكام ومراقبة الحكم.. إيه اللى لا يعجبك فى هذا الشكل؟

المحصلة أن مصر فقدت الدهشة أمام أسوأ جرائم يرتكبها النظام ضد إنسانية وحقوق المصريين، لا نرد ولا نصد، وأسوأ من وقوع الظلم ألا نحس أنه وقع علينا فعلا، لكن هذه هى مصر مبارك التى تعيش أزهى عصور الديمقراطية والأمانة والنظافة، ديمقراطية تصنت وتعذيب العادلى وأمانة جمال مبارك ونظافة نظيف طبعا!!

الفراعنة لا يتعلمون إلا بالغرق فى النهر!

دعنى ألخص لك الدروس العشرة التى أتصور أننا لابد أن نتعلمها من انتصار حماس الساحق فى الانتخابات الفلسطينية الأخيرة.

الدرس الأول: هذه ثانى انتخابات عربية تحت الاحتلال ومع ذلك تخرج أكثر شفافية واحتراما وديمقراطية من الانتخابات التى تجريها مصر الدولة المستقلة المستقرة، الدرس الثانى: نتيجة انتخابات فلسطين تؤكد أن بقاء سلطة مستبدة فاسدة حتى التعفن فى الحكم هو أمر مرفوض شعبيا وجماهيريا تماما، وهو نفس مصير الحكم المصرى الذى يغطس حتى أنفه فى ذات فساد واستبداد السلطة الفلسطينية، الدرس الثالث: الناس احترمت حماس وصوتت لها لأنهم وجدوا قيادات حماس معهم فى الشارع والحى، متسقين مع أنفسهم مؤمنين بما يفعلون ويفعلون ما يؤمنون، من هنا منحهم الشعب الأغلبية أمام المستبدين الفسدة، الدرس الرابع: نضوج التيار الإسلامى العربى وقبوله بالديمقراطية منهجا ونهجا فى التعامل مع السياسة، انتهت حالة التردد والتوتر بين أفكار التيار الإسلامى والديمقراطية فهناك قبول بالاحتكام إلى الانتخابات والبرلمان والديمقراطية، الدرس الخامس: إن أمريكا والغرب مهما بدا من تخوفها لوصول التيار الإسلامى للحكم إلا أنها على استعداد تماما لقبول إرادة الجماهير وديمقراطية الانتخابات مادام جاء التيار الإسلامى بالانتخابات وصناديق الاقتراع، الدرس السادس: سقطت فزاعة الإسلاميين التى كان يرفعها الطغاة العرب أمام الغرب، وصار رحيل الحكام المستبدين مقبولا حتى لو كان بديلهم الإسلاميون، الدرس السابع: القوى اليسارية والليبرالية التى رضيت بالانضواء تحت جناح الاستبداد والفساد وتحالفت مع رئيس أو زعيم دكتاتورى باءت بالخيبة والهزيمة الوضيعة سواء فى فلسطين أو فى

مصر فى الانتخابات البرلمانية الماضية. الدرس الثامن: يمكن أن تدعم حماس الديمقراطية فى مصر بأن تكف عن منح النظام المصرى الفتحاوى أوراقا للعب بها مع الأمريكان والأوروبيين. الدرس التاسع: نجاح حماس وما يجبره ذلك على الحكم فى مصر من تعامل معها وثيق وشبه يومى يفضح حين يكشف فصام هذا النظام وازدواج شخصيته حيث يفاوض ويجالس ويحاور منظمة حماس بينما فى مصر يرفض أن يحاور نفس النظام ويناقش ويفاوض «ليه لأ؟» جماعة الإخوان المسلمين أما الدرس العاشر فهو الأهم: لا شيء يقف فى طريق الشعوب، فالديمقراطية هى طريق الخلاص من حكام مستبدين ونظم فاسدة.

السؤال: هل ستصل هذه النتيجة بهذه الطريقة لنظام مبارك ورجاله وهل سيتعلم ابنه ورجال ابنه من هذه الدروس؟

المشكلة أن أحدا فى مصر لن يتعلم شيئا من سقوط حكم وحكومة فتح فى الانتخابات الفلسطينية بعد فساد وجمود وشيخوخة، فهم لم يتعلموا كذلك من سقوط حكم حزب البعث العراقى ذليلا مهانا جبانا بعد استبداد ودكتاتورية، ولا من تهاوى حزبهم الوطنى الساقط فى الانتخابات البرلمانية الأخيرة، لا أحد فى مصر سيتعلم شيئا فنحن أعصى على التعلم، نحن أوطان لا أمل أن يتعلم فيها ومنها حكامنا، قلوبهم غلف عليها أقفالها صم بكم لا يفقهون، فالمستبدون المصريون لن يتعلموا شيئا أبدا من سقوط مذل لحكم دكتاتورى عربى «بالشعب والانتخابات كما فى فلسطين ولبنان أو بالاحتلال كما فى العراق» فالنظام المصرى الاستبدادى يظن نفسه أذكى وأنبه وأعظم وأفكه وأفقه من أى حاكم أو حكومة عربية انهزمت وانحدرت، هنا فى مصر داخل دوائر الحكم والسيادة وأمانة الحزب الحاكم بالعجائز القدامى والأشبال الجدد فاكرين أنفسهم قادرين على اللعب ببيضة الشعوب وحجر الأمريكان ويقدر كل واحد منهم على تلبيس طاقية هذا لذلك ويلاعب الأمريكان ويصبر على بوش «السو إما يمشى أو تيجى مصيبة تاخده» كما يتلاعبون برجال المعارضة فيسجنون الزعيم الجماهيرى الشاب ويجمدون الحزب التاريخى التقليدى ويؤجرون قيادات الحزب النضالى ويظن النظام المصرى الحاكم أنه سيخرج من كل

هذا منتصرا مزهوا بنفسه راكبا حصان شعبه، قاهرا معارضى حكمه، ضاحكا على الأمريكان، ساخرا من دعوات الإصلاح والديمقراطية، كل طقم الاستبداد فى بلدنا يرون صدام دكتاتوراً غبياً وعبيطاً ومعترضين على غبائه وليس على دكتاتوريته، وبشار لا يملك حكمة وذكاوة كالتى نملكها فى مصر، ويرون أن حركة فتح لم تلعب صح وأن أبومازن ضعيف بينما رئيسنا قوى وحكمنا تليد عتيد.

إن الحكم المصرى الذى يقمع شعبه ويرتع فسادا فى بلده يعتقد رجاله من أكبر إلى أصغر رأس أنهم يستطيعون مواكبة الرياح والانحناء أمام العواصف والمهادنة مع الأمريكان وتطبيب العلاقات مع تل أبيب فيعيشون أكثر ويحكمون أطول! ويضللون الداخل والخارج مقابل البقاء فى الحكم لطولون، فلا يوجد لهذا النظام الذى يحكمنا وصف دقيق ووافٍ وشافٍ سوى أنه نظام كذاب، هذا النظام يكذب كما يتنفس، بل هو يكذب كلما تنفس، ليس الأمر أن النظام يعد للداخل والخارج وعودا ويخلفها ويخالفها فقط بل إنه يكذب ويتصور نفسه نظاما من الأنظمة السياسية الخضرا الشريفة!، حزب حاكم سقيم حصل فى انتخابين متلاحقين على ٣٨%من أصوات الناخبين بعد التزوير والتزييف ثم فى الانتخابات البرلمانية الأخيرة على ٣٤% من أصوات الناخبين بعد تدخلات التزوير على يد بلطجية الحزب والدولة وتزييف وتضليل اللجنة الحكومية المعينة للإشراف على تزوير الانتخابات، هذا الحزب الذى يحكم مصر بدون شرعية مغتصبا السلطة هو ورجاله وحكامه والذى لا يمكن أن يبقى فى الحكم ساعة واحدة لو أجريت انتخابات نزيهة حقيقية يشرف عليها القضاء والرقابة الدولية، بل هذا الحزب الساقط تصويتيا وانتخابيا وسياسيا تمتع زعاماته الورقية المعزولة والمنفصلة تماما عن الجماهير بأنها أكثر وجوه رسمية مكروهة جماهيريا فى مصر طولا وعرضا سواء الوجوه المسنة العجوز أو الوجوه المراهقة الجديدة، هذه الزعامات المتعجرفة التى تعودت السير فى مواكب الحراسة وفى طائرات خاصة وتمتلك مئات الملايين لا تملك حتى القدرة على التعلم من دروس الشعوب والاعتراف بخطأها أو فشلها بعكس وجوه حركة فتح الفلسطينية التى خرجت

تعترف بالهزيمة فى انتخابات فلسطين النزيهة الأخيرة التى أجريت فى دولة محتلة وتحت إشراف دولى ولم تمحك القيادة الخاسرة ولم تتشبث بالسلطة ولم تستنكف أن تقول إنها فاشلة وفشلت، بينما لدينا حزب كذاب يخرج من أزمته بشراء نواب مستقلين تحت الإغراء والإغواء فى فضيحة سياسية تتكرر دون حياء ولا خجل وينكر تماما أنه فاشل بل يثرثر الكشافة التى تتحكم فيه أو الشيخوخة التى تحكمه بأنهم حزب الأغلبية، يكذبون على الداخل والخارج حين يرددون هذا الكلام الأهبل بأن الإصلاح الاقتصادى هو الأولوية للبلاد ويسافرون ويحضرون مؤتمرات ويخاطبون العالم بهذا الكلام الفارغ الذى يظن كبراؤهم الذين علموهم السحر أن تلك الحجج تنطلى على الغرب والأمريكان، يزعمون ـ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولوا إلا كذبا ـ أن الشعب المصرى لا يهتم سوى بالوظائف والمرتبات ولقمة العيش ومن ثم فإن جهد الحكومة هو للإصلاح الاقتصادى، وهذا تدليس يقوله ويدعيه ويردده ويوافق عليه كما قلت دوما المستفيدون والمرتشون والأفاقون والمنافقون والجامدون والمستهبلون والنهابون والحكوميون والمشتاقون أو الركع السجود للحكم والحكومة، والحقيقة المؤكدة أننا نسمع ونرى ونقرأ ونشم ونلمس منذ عام ١٩٨٢ فى مصر مثلا هذا الكلام الهرائى عن الإصلاح الاقتصادى منذ ٢٤عاما ولم ولن يحدث هذا الزفت الإصلاح الاقتصادى، إن الإصلاح الاقتصادى يعنى فى الأصل والجذر قدرة الشعب المصرى على محاسبة بل ومحاكمة الأنجال وأصدقاء الأنجال الذين يحتكرون السلع ويرفعون أسعارها لأنهم يديرون الحكم وحزب الحكومة ويقررون السياسات ويضعون القوانين التى تحمى احتكارات وتسهل امتيازات وتثرى السادة وعيال السادة، ما فائدة أى قرار اقتصادى للناس إذا كان الهدف منه هو إثراء شوية رجال أعمال يعملون خدما لدى الدولة والحكم؟ دعنى أقول للجميع حقيقة واقعة لا تقبل الشك ولا التشكيك حيث اجتمع الرئيس مبارك فى قصر الرئاسة بعد نجاحه «المفترض» فى انتخابات الرئاسة الأخيرة بعدد من رجال الأعمال والمليارديرات المصريين كى يشكرهم على مواقفهم العظيمة الداعمة لحملته الانتخابية وتأييدهم له

بقوة وبقدرة، وقد سمع منهم الرئيس يوما كلاما قريبا من لحم أكتافنا من خيرك يا ريس «أو من خير نظامك»، دعنا هنا من سؤال كيف دعم وأيد رجال الأعمال الرئيس فى حملته الانتخابية ومن يعرف هذا وما هى حدوده وماذا أخذوا مقابل ذلك أو سيأخذون؟ دعك من كل هذا فأنت تعرف إجابته. السؤال هنا: ماذا تكشف لك هذه الواقعة سوى أن ما يسمى الإصلاح الاقتصادى أو مثل هذه القرارات التى تصدر والقوانين التى يتم تفصيلها تمضى نحو هدف واحد هو خدمة متبادلة بين النظام ومليونيرات النظام الذين يعملون معه أو عنده؟ ولعل ما كشفه رجل أعمال هارب خارج مصر من أنه كان يوظف عنده عددا من أبناء المسئولين فى وظائف شبه وهمية مقابل مرتب بالآلاف يظهر عينة من التحالف بين المال والسياسة لا حس فيه ولا خبر عن رغبة أى من الطرفين خير مصر ورفاهية شعبها، وأضف إلى ذلك حجم رجال الأعمال الذين يحكمون مفاصل مصر الاقتصادية الآن ويتحكمون فى قوانينها وقراراتها الاقتصادية والاجتماعية وهذه الشراكة بين حزب ساقط وفاشل يحكم البلد عنوة وغصبا وبين رجال أعمال لا ينتمون إلا إليه ولا يشتغلون بالسياسة إلا فيه، ويكمل هذا المشهد الرديء وجود مجموعة من أبناء المسئولين الكبار يملكون شركات وأعمالا بعشرات الملايين من الجنيهات، الحقيقة أن أية محاولة لإصلاح الاقتصاد إن كانت موجودة فعلا لا يمكن أن تحقق شيئا طالما غابت الرقابة والمحاسبة والشفافية والديمقراطية فنحن لا نعرف لماذا تبيع الدولة شركات قطاع أعمال ومصانع وبنوكا ناجحة وبكام ومن حدد سعرها ومن مسئول عن هذا السعر ولمين باعها وبسرعة قوى كده ليه وأين تذهب أموالها وفى أى شيء تصرف وعلى أى شيء تنفق؟ وكيف تسحب الدولة أو بالأدق تسطو على معاشات وتأمينات المصريين ومن قرر هذا ومن يراقبه؟ بل ولا نعرف شيئا عن منح أوروبية وأمريكية غير منظورة ولا حكومية تقدر بمليار جنيه وأكثر تحصل عليها جهات فى الدولة دون أن تعلن ذلك أو تكشف فيما أنفقتها ولمن؟ وحياة ربنا ولا إصلاح اقتصاد العالم كله سوف يفعل معنا شيئا إلا لو كانت هناك انتخابات حرة حقيقية مش كده وكده، وقدرة على محاسبة الرئيس

ومساءلته وتحويل رئيسنا من فرعون إلى حاكم بالكتير يقعد دورتين ويمضى، ولابد من تداول للحكم واستقلال قضائى كامل ومطلق وحرية تكوين الأحزاب، وحرية إصدار صحف، بعد هذا كله أقول وأنا مستريح الضمير: إن النظام المصرى ورجاله وأولاده لن يتعلموا من سقوط حركة فتح فى الانتخابات وانتصار حماس المدوى فهذا نظام خرب مصمم أن يقودنا للخراب السياسى!

أما الشعوب فأتمنى أن تتعلم درس الشجاعة من مشاهدة دكتاتورية فاسدة مذلولة ومرفوضة جماهيريا أو حزب عربى حاكم مهزوما ساقطا، فقد عاش الناس فى مصر وهم لا يعتقدون أبدا أن الطغاة يمكن الثورة عليهم بالديمقراطية والانتخابات، بل ويتعامل المصريون مع استمرار مبارك فى الحكم كأنه قدر منزل من السماء وأن توريث ابنه قضاء ولا راد لقضائه وأن المقاومة الوحيدة لفساد الحكم هى أن نفسد مثله، لم يعتقد المواطنون أن من حقهم وواجبهم تعرية فساد حكام مصر ووزرائها وعيالهم وملاحقة أبنائهم أو طردهم من الحكم أو إجبارهم على التنحى والاعتزال، أما المنافقون فى مصر وهم أكثر من الهم على القلب فلا يوجد راشد عاقل فيهم يدرك أن أسياده إنما هم أقزام «ساعة الحقيقة» لن ينفعونه بشيء، وأن النفاق مفسدة للأمة وللضمير وللدين، سيواصل المنافقون نفاقهم بنفس الحرارة والحماس، يتحدثون عن حكمة الحاكم وعبقرية الرئيس والسادة والساسة، ويلحسون الأحذية ويلعقون النعال ويكنزون المال ويؤجرون الضمير ويبيعون القلم والكلمة...... وسحقا «بالفصحى الأصيلة» أو طز «بالمصرية الصميمة» فى القيم والمبادئ والوطن والوطنية والديمقراطية، طز عميقة وفخيمة وعريضة وبليغة وسافرة وسافلة!!

أما المعارضون فى مصر من أحزاب الشيخوخة أو أحزاب أمناء الشرطة ومخبرى مباحث أمن الدولة فلن يتعلموا الدرس أبدا وسيسعون طول الوقت للتحالف مع حكوماتهم وحكامهم ضد أى ضغوط أو تعرية سياسية دولية، من أجل فتات المكاسب وبقايا موائد ومآدب السلطان وسيدعون زاعمين وطنية زائفة فى الدفاع عن الطغاة والمستبدين، وسيدعمون الطغاة فى مواجهة الأوروبيين

والأمريكان، سيختارون الطغيان فى مواجهة الأمريكان، رغم أن الطغاة أنفسهم إما متعاونون أو متعاملون أو معاونون أو عملاء للأمريكان أنفسهم، بدلا من أن يرفض الجميع الطغيان والأمريكان معا، إذا بهم يضعون أيديهم فى أيدى الطغاة الذين كانوا يعذبون المواطن ولا يزالون، الذين كانوا يذلون الشعب ولا يزالون، الذين كانوا يزورون انتخابات الوطن ولا يزالون!!

لا أحد سيتعلم من درس سقوط الحزب الحاكم فى فلسطين.. فالنظام فى مصر لم يتعلم أبدا من نكساته ولا هزائمه، الفراعنة لا يتعلمون إلا بالغرق فى النهر.. هذا إن تعلموا!!

صعيدك يا مصر

أظن أننا نهمل الصعيد وننساه وننكت عليه لأن الصعايدة يملكون كبرياء لا نملكه وكرامة لا نقدرها ونخوة لم نعد نحتملها ويجرى فى عروقهم دم حام وقد برد دمنا وتثلج ولأن الصعايدة يتميزون بخشونة نعيبها لأننا نعمنا حتى تخنثت الضمائر، فقلنا عليهم مخهم ضيق لأن ذمتنا واسعة، ووصفناهم فى النكت بالغباء لأنهم لا يعرفون لوعنا ومراوغتنا ولفنا ودوراننا، لذلك حين أجرم هذا النظام اقتصاديا واجتماعيا فى حق الصعايدة تواطأنا مع ظلم وجرم النظام بالصمت والرعونة والمياعة السياسية، تركنا الصعيد وحيدا ومنسيا ومهملا ومظلوما، حتى حين انفجر الصعيد فى غضب الإرهاب الغليظ سكتنا على قمع الدولة الأمنى والمدوى لهذا الإرهاب بإحراق حقول القصب والاعتقال العشوائى وابتزاز المواطنين وخطف الرهائن من الناس وتطليع روح فقراء الصعيد وتفشى ظاهرة المرشدين الذين عاثوا فسادا وابتزازا، وسكتنا تماما، لم نمد يدا للصعيد ولم تسمع آذان ولم تتفتح قلوب ولم تتفهم عقول، توحشت الدولة فى الصعيد فخمدت غضبته دون أن تزول أسبابها!

ظنى أن النظام فى مصر لا يقوم بتقسيم البلد إلى شمال وجنوب أو إلى صعيد ودلتا ولا حتى مسلمين ومسيحيين، هو بيقسمها أغنياء وفقراء، ونظام مبارك وحكومته من رجال جمال رجال الأعمال ينظر للمواطن الفقير كما ينظر للشغالة بتاعته فهى من وجهة نظره تتقاضى أجرا ممتازا ويتعاملون معها بتحضر وتصحبهم إلى المصايف والمشاتى رغم أنها لا تعمل من وجهة نظرهم بكفاءة وتترك ترابا تحت السجادة وتتكاسل عن إزالة الأتربة فوق الرسيفير، ومن ثم فالقوانين يتم تفصيلها للكبار ووضعها موضع التنفيذ لخدمة أقرب الأقربين والخلصاء والشركاء، والقرارات والصفقات وبيع القطاع العام وشركات ومصانع الدولة وبنوكها كل هذا لخدمة الغنى

الثرى ويروح فى ستين داهية الفقير الذى يجب أن يحمد الله على أنهم مستحملين قرفه وبلاويه، الفقراء فى مصر كومبارس فى فيلم الأغنياء حيث من المستحيل أن يظهر فيلم من غير كومبارس لكن لا يمكن كتابة سيناريو من أجل هؤلاء الكومبارس!

لكن هل يضطهد النظام الصعايدة، هل يضطهد الأقباط؟، أبدا هو يضطهد الفقراء سواء مسلمين أو أقباطا، بحاروة أو صعايدة، ويرفع قدر ومكان ومكانة الأغنياء مسلمين أو أقباطا، صعايدة أو بحاروة، لكن المشكلة العميقة أن الفقراء فى الصعيد أكثر فقرا، ومنسيون أكثر، ومهملون جدا، وبعيدون للغاية، فالصعيد يتم إهماله وإفقاره عبر اضطهاد مزدوج، لأنه فقير من فقراء الوطن، ثم لأنه صعيد أساسا!

المشكلة أن الصعيد ٣٠٪ من سكان مصر و٧٠٪ من أحزان مصر!

آثار مصر فى الصعيد يزورها السياح الأجانب وآثار القهر والقمع هناك كذلك يندد بها المراقبون الأجانب!

فى الصعيد المعابد القديمة العظيمة لملوك التاريخ والميادين الجديدة للمواطنين العبيد العصريين!

٦٠٪ من أقباط مصر يعيشون فى الصعيد وتتعايش معهم الفتنة الطائفية أيضا.

هناك النيل يجرى...والدماء كذلك.

الأديرة ذات الهيبة والرهبة والرهبان والسلام والأمان، والسجون أيضا ذات القسوة الأسطورية التى تضم مشتبها فيهم مضوا سنوات دون سؤال بل ويسجنون أطفالا يكبرون داخل أسوار الظلم الكريهة ومظاليم دون تحقق ومساجين دون إنسانية وزحاما وتكدسا دون التصور!

نكبات مصر فى السنوات الأخيرة تتوزع جغرافيا وسكانيا على الصعايدة فقط، كيف؟ ثم لماذا؟ يبقى السؤال.

رأس النظام من ربع قرن هو حسنى مبارك (هل لاحظ أحد أنه سلم كأس

أفريقيا فى ١٩٨٦ ثم عاد وسلمها ٢٠٠٦ فى سابقة لم يفعلها رئيس فى تاريخ البشرية لا ينافسه فيها سوى حسام حسن؟!).

خدم الرئيس كقائد قاعدة فى بنى سويف فى منتصف الستينيات ويبدو أنه من يومها يرى الصعيد من وراء أسوار وحواجز ومن موقع الطيار الطائر، والمواطن الصعيدى الوحيد الذى نعرف أن الرئيس التقى به هو المخبر فى وزارة الداخلية الذى قابله مبارك فى المنيا على أنه مواطن فى عشة صادفه (يا جمالات الصدف) فى جولاته الدعائية لانتخابات الرئاسة، غير كده، لا صعيد لدى مبارك سوى زياراته التى ينزل فيها أرض الصعيد بالهيلكوبتر ليفتتح كوبرى ويعود، لم نشهده خلال ربع قرن أقام ليلتين أو ثلاثا فى مدينة بالصعيد أو حتى فى أسوان، يلتقى برجال دولة ويصحب رجال نظامه فى رحلاته المحمولة جوا إلى مدن الصعيد فلا يرى من المواطنين الصعايدة سوى الذين يلوحون ويهتفون ونصفهم مخبرون والباقى أعضاء مجالس محلية وموظفون تم جمعهم لتمثيل المشهد، ثم يذهب الصعيد إلى مبارك أرقاما وبيانات فى أوراق أو على أفواه مسئولين منتهى أملهم أن يرضى عنهم الرئيس فيرضونه بالأرقام الملعوب فيها بينما الرئيس نفسه راض جدا عن سياسته ومؤمن تماما بحكمته ولا يمكن أن يتصور لوهلة أو لحظة أنه أخطأ (لم يرد على لسانه أبدا ذكر لشيء أو قرار أو قانون أخطأ فيه) فى حق صعيد ولا بحرى بل هو فى قرارة نفسه كرئيس منذ ربع قرن يثق أن هذا الوطن لم يكن له ليحيا ولم نكن لنأكل أو نشرب أو نتنفس لو لم يكن هو رئيسنا، ومن ثم فلا الصور التى يراها مبارك ولا الأرقام التى يقولها أو تقال له معبرة عن صعيد حقيقى بل هو عالم افتراضى متخيل سياسيا يعيش فيه مسئولو النظام ورجاله لسنا فيه بصدد الحقيقة بقدر ما يريد أن يتصور النظام أنه الحقيقة، ولهذا فلم يعترف مبارك أبدا وهو الرئيس المسئول (لا أقول المنتخب) بمسئوليته عن قطار الصعيد ومئات الصعايدة الذين ماتوا فيه ولا كارثة غرق الباخرة والمئات الذين ماتوا فيها بل حتى لم يتضامن الرئيس بحداد عام على الموتى أو بابتعاد محسوب وحكيم عن مظاهر الفرح والتهليل!

لا القوانين أنصفت الصعيد ولا الاقتصاد ولا الرئيس ولا المشاعر ولا العواطف.

ظل الصعيد كما كان دوما الضحية التى نحب ألا نراها والنموذج الذى نفضل أن ننكت عليه والمكان الذى نعتبره منفى للموظفين والضباط والأطباء..يقول جمال حمدان فى كتابه شخصية مصر: (الصعيد الضحية الأولى والكبرى، وبهذا التخلف ـ مع الموقف المتخلف ـ أصبح الصعيد بحق هو الإقليم الخلفى فى مصر من كل معنى جغرافيا وحضاريا وماديا وبشريا، اقتصاديا واجتماعيا).

الواقع أن النظام فى مصر لا يهمه لا صعيد ولا بحرى ولا الجن الأزرق، هو نظام فاسد مستبد كل همه أن يثرى رجاله ويغتنى أفراده ويبقى على الحكم دون تهديد ولا قلق، وليس غريبا والحال هكذا أن تنمو وزارة الداخلية مثلا فى عهد مبارك نموا سرطانيا يعطى صورة عن الهوس البوليسى الذى أصاب حكام البلد، وصارت مصر دولة بوليسية محكومة بهراوات الأمن وتقارير أمن الدولة وعساكر الأمن المركزى فقد زاد عدد أفراد الشرطة من ١٥٠ ألفا عام ١٩٧٤ إلى أكثر من مليون عام ٢٠٠٢ ومن ٩% من العاملين فى الدولة إلى ٢١% فى نفس الفترة، وباعتبارات التطور المستمر فى العدد نكتشف أن ربع العاملين بالدولة ضباط وعساكر ومخبرون، ألا تكون هذه دولة أمنية مرعبة ومريعة؟!

لا أتجاوز إن قلت إن زيادة عدد المخبرين والعساكر والضباط سببها فى الغالب الصعيد وأهل الصعيد!

لم يعد أحد فى مصر تخفى عليه حقيقة أن الصعيد أفقر مناطق مصر، على سبيل المثال النيل قادم من الصعيد (يا أهلا وسهلا) ومع ذلك آخر إحصائيات متاحة تحكى عن وجود أسر لا تحصل على مياه نقية بنسبة ١١% فى القاهرة و٣٥% فى السويس و٨٨% فى بنى سويف والفيوم والمنيا وقنا رغم أن النيل مازال يجرى هناك ولم يخلف وعده!

مثلا أكثر المناطق تخلفا اقتصاديا وتأخرا فى التنمية فى مصر حسب كتاب دكتور سامر سليمان (النظام القوى والدولة الضعيفة) هى على الترتيب: دار

السلام بسوهاج ومركز طمية بالفيوم ومدينة ناصر ببنى سويف وأبنوب بأسيوط وأبشواى بالفيوم وملوى بالمنيا وطمية بالفيوم (غير المركز) والغنايم بأسيوط والمنشاة بسوهاج والبلينا بسوهاج، أى أن العشرة الأوائل فى التأخر والتخلف فى مصر صعايدة، أظن أن الأمر ليس فى حاجة لشرح كبير فمصر كعادتها تتحدث عن نفسها!

فى تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٥ والذى صدر منذ ساعات تكتشف أنه من الطبيعى جدا أن يعانى الصعيد من الحرق والغرق فهذه نسب الفقر فى مصر تلكم أنوفنا كالفضيحة فمحافظة أسيوط ٦١% من سكانها فقراء لكن الأفظع أن من بين هؤلاء أشد فقرا يصلون إلى نسبة ٢٤.٩%، إذا ترجمت لك هذه النسب فمعناها أن ربع سكان وأسر أسيوط يعيشون على أقل من خمسة جنيهات فى اليوم بينما حوالى نصف أسيوط تعيش على أقل من عشرة جنيهات فى اليوم أما سوهاج فـ ٤٥.٨% من أهلها يعانون الفقر و٤٣% من الفيوم فقراء (أعلى نسبة فقر فى بحرى فى محافظة الشرقية ٢٨% وأقل نسبة فقر هى القاهرة ٤.٣%) ومع اعتبار أن هذه هى أرقام الحكومة مش حد غريب لا أجنبى ولا هندى، ومع اعتبار أن الحكومة تكذب كما تتنفس فهى تخفف من الأرقام وتقلل من جريمتها فى حق الشعب فالمؤكد ـ خذها منى ثقة ـ أن الأرقام أكبر والفقراء أكثر (نسبة الفقراء فى مصر على كلامهم ٤٤% يعنى حوالى نصف مصر فقراء فى عصر مبارك الذى إن طال أكثر من ذلك ستصبح النسبة أنيل من ذلك!).

ألا تشعر معى بالعار؟! لم يكن آلاف الصعايدة وحدهم هم الذين يركبون قطار النار رقم ٣٨٢ المتوجه إلى الصعيد ولم يكن ألف من الموتى حرقا هم فقط موتى هذا القطار بل كنا جميعا فيه ولم يكن مئات الصعايدة والفقراء وحدهم هم الذين يركبون باخرة السلام ٩٨ التى غرقت إجراما وفسادا وإهمالا، بل نحن جميعا مواطنو الصعيد الصامت والبحرى الساكت، مواطنو الجنوب الخانع والشمال الخاضع، كنا نحن جميعا نجلس فى هذا القطار وننتظر الحرق.. نقعد على سطح هذه الباخرة وننتظر الغرق وقد جاء الحرق والغرق!

مصر تعانى الآن من تشوهات حريق الفساد الاقتصادى واسفكسيا الغرق السياسى بينما القبطان يمضى فى زورقه مع بطانته يلوح لنا بالتحية!

يا خسارة على الرجالة!

حين قال الرئيس مبارك ذات مرة إنه لم يعين نائبا لرئيس الجمهورية لأنه لم يجد شخصا مناسبا، وقال إن السادات كان محظوظا أن وجده بينما هو ليس محظوظا بدليل أنه لم يقابل أحدا مثله، صمت رجال مصر عن التعليق، لم يرد أى واحد ممن يتمسحون ببلاط قصر الرئاسة، ولم يلفظ بحرف معترض أى رجل طويل عريض ممن يلوثون مصر بوجودهم، ولم يحس أى مسئول أو وزير على دمه فانتفض لرجال مصر الذين اتهمهم الرئيس مبارك بأن أيا منهم لا يصل إلى مكانته ومميزاته وصفاته، خرس الرجالة فى البلد حتى شنبات المعارضة من المسنين تحملوا الإهانة وربما لم يشعروا بها أصلا!

وعندما يسرب مبارك عبر مندوبيه وحراس نظامه وخدم بلاط عرشه كلاما من قبيل أنه لا يوجد بديل لمبارك كأن مصر الشامخة السامقة عقمت أن تنجب مثل الرئيس كأنه الفرد الصمد الواحد الأحد، فهذا يعنى أنه لا يصلح أن يصير فرعونا إلا ابن فرعون شخصيا، أظن أن مبارك فعلا لا يرى رجالا حوله وأمامه خصوصا بعد سنوات طويلة من الحكم الذى بدا أبديا سرمديا لا ينتهى وليس له أن ينتهى، لم ير فيه داخل الوسط السياسى رجلا يقول له لا، ولا رجلا ينافسه ولا رجلا يقاومه ولا رجلا يعارضه ولا رجلا يهاجمه ولا رجلا من أقصى المدينة يسعى يرفض ما يفعله مبارك ويدينه فصار مبارك مصدقا مؤمنا أنه ولا واحد فيكى يا بلد يملأ عين رئيسها ولا يخشاه حاكمها وأنه ولا واحد فيكى يا بلد إلا ويقدر هذا النظام على أن يفعصه فى لحظة إذا فكر أو حاول أو انتوى!

لهذا يمكن أن أزعم باطمئنان شديد أن مشكلة مصر ليست مشكلة فى السياسة ولكن مشكلة فى الرجولة، نعم البلد مبقاش فيها رجالة، هل تتذكر محمد

أبوسويلم فى حواره الرائع فى فيلم الأرض بأداء الفذ محمود المليجى، حين كان يشرح كيف قاوموا الاحتلال زمان، كيف؟ لأنهم كانوا رجالة ووقفوا وقفة رجالة، ويلح المليجى فى الحوار (الذى كتباه الراحلان العظيمان عبدالرحمن الشرقاوى وحسن فؤاد) عشان كنا رجالة ووقفنا وقفة رجالة، فى عصر مبارك لم نر (ربما حتى سنة مضت أو أكثر قليلا) رجالة ووقفوا وقفة رجالة، بل مجموعات من الخرفان والنعاج تمشى زرافات زرافات فى الساحة السياسية (حكومة ومعارضة) يتوسلون من مبارك الرضا ويتسولون من مبارك النعمة، فقد نجح عصر مبارك ونظامه فى نزع الرجولة من رجال السياسة، أما من واجه من خارج الحقل السياسى فكان النظام بقمعه وفاشيته وقهره وجهاز أمنه الغاشم كفيلاً بتوجيه حملات تشويه سمعة ضده واغتيال شخصية معنوية وانتهاك خصوصية من خلال مخبرى الصحافة الحكومية وأمناء الشرطة وصحفيى المباحث وعملاء الأمن والمنافقين الأفاقين وبرعاية من المسئولين الذين يوجهون الأوامر «هشك عليه» أو بتلفيق التهم لهذا الرجل أو ذاك ومطاردته فى المحاكم وزجه فى السجون والمعتقلات، أو بالقبض على عشرات ومئات أساتذة الجامعة والدكاترة والمهندسين من زعامات الإخوان المسلمين حيث استخدم النظام ضدهم المحاكم العسكرية لاستنزاف قواهم وهد حيلهم وتعطيل مسيرتهم ولا يخلو سجن لمبارك منذ تولى الحكم حتى الآن من سجناء ومعتقلى الإخوان، أو يلجأ النظام إلى اتهام المتمردين عليه بالجنون أو الخبل أو يرمى هذا النظام الدكتاتورى الفاسد الرجال المعارضين له بتهم العمالة للغرب والأمريكان، وهى صفاقة لا تجدها إلا فى هذا العصر الذى يتميز بأن حكامه ومسئوليه وأحفاد مسئوليه أمريكان بالجنسية أو بالولاء السياسى والعقائدى أو بالبيزنس والمصلحة ومع ذلك فهو لا يكف عن اتهام أى معارض له بالعمالة لأمريكا على طريقة راقصات شارع محمد على اللى فيها تجيبه فيك!!

نجح نظام مبارك فى قمع وقهر الرجال، فلم يعد على الساحة إلا أشباه الرجال الذين لا يتعب هذا النظام فى التعامل معهم أبدا، فكل رجل فى هذا البلد سواء

فى الجامعة أو أجهزة الحكومة أو مؤسسات البحث أو هيئات الإعلام أو أحزاب المعارضة له ثمن وسعر، ويبدو أن أحدا لم يخب ظن النظام فلم يقاوم ولم يفاصل حتى فى السعر إلى حد أن النظام بات على قناعة راسخة بأنه فعلا مفيش رجالة، فهؤلاء يركعون أمام الضابط ويسجدون أمام الحاكم، ومجرد أن يكلم مبارك واحدا منهم فى التليفون يتحولون إلى عبيد إحسانات نظامه فورا ويشتريهم الحكم بمنصب وزارى أو حكومى أو بحصانة شعب أو شورى أو بعمادة كلية أو بلجنة أو سفرية أو حتى علاج على نفقة الدولة (وهذا حق للمواطن كان معارضا أو منافقا) أو حتى تعيين زوجة فى شركة أو تخصيص نسبة من الأسهم باسم المدام أو الأولاد فى شركة أو أبناء فى بنك وهناك من يشترونه بتركه يفسد وتشجيعه على الفساد والتربح والعبث بالمال العام، وحين يجد الجد لا تجد رجلا واحدا يقول لا أو يعارض أو يواجه أو ينافس!

الأمر كله يشرحه تشريحا فائق الروعة جليل المعنى أستاذنا العبقرى الراحل يوسف إدريس فى قصة قصيرة صغيرة للمفارقة هى آخر قصة كتبها قبل وفاته، كأنها الرؤيا أو كأنها البوصلة أو كأنها الخريطة والشفرة لفهم ما جرى لهذا البلد!
القصة التى تكشف كيف سقط الرجال فى مصر تحمل للمفارقة أيضا عنوان «أبوالرجال» ونشرت فى مجموعة قصصية لم يلتفت لها كثيرون وعنوانها للغرابة «العتب على النظر» يحكى يوسف إدريس فى قصته عن رجل اسمه سلطان، أصبح سلطان زعيما ويسرد حياته التى تشبه آلاف الرجال المتعلمين والمثقفين الذين بدأوا هكذا حياتهم فى مصر «قضى سنة الجامعة الأولى ومسكنه ومأواه وملاذه بيت، بالأصح عشة تقع فى الطرف القصى لسور الجامعة كان يحمل مسئولية أن يتعلم وأن ينبغ وأن ينجح بحيث يحظى بالاثنى عشر جنيها شهريا مكافأة النابغين، كان يحيا منها بستة ويرسل لأهله ستة، عليهم وبعائد إخوته الأصغر من أعمال أصغر، أن يدبروا وجودهم بها».ثم يبزغ سلطان «وعضوا فى الاتحاد صار، وأوتادا للثقة به أخذت تندق، وخيمة هيمنته تتسع، واسمه وجرائد حيطانه، وخطبه واعتقالاته تصبح حديث الكلية، ثم حديث الجامعة، بل وأيضا

حديث المدينة الجامعية». ها نحن أمام رحلة حياة «لا أقول كفاح» كل من يحكم الحياة المصرية غالبا منذ سنوات طويلة الذين تحولوا كما يقول يوسف إدريس فى قصته من «الصبى النكرة المصفر الوجه بالأنيميا ونقص الغذاء، إلى الحاصل على درجتين، واحدة فى الاقتصاد والأخرى فى التاريخ، مفخرة جيله وكل ما تلاه من أجيال، بل مفخرة من مفاخر مصر ووثبتها التى نقلتها من مجرد دولة محتلة فى عالم قديم قبيح إلى دولة قائدة تحرر وزعيمة شعوب ومفجرة انتفاضات وثورات». حتى أصبح سلطان سلطانا فعلا. «وكان أول زعيم شاب يقابله الرئيس الزعيم، ويصافحه، بل ويمنحه وساما وتصبح له حظوة، وجاه، وصاحب مدرسة واتجاه، حوله ومعه جيش صغير تابع من النوابغ والمعجبين وتابعى التابعين». يضع إدريس مشرط الجراح على الورم الذى نشب فى مجتمعنا السياسى والثقافى حين تحول الرجال من ثائرين مناضلين إلى مدلسين موالسين، من أشداء إلى مائعين، من مستقيمين إلى منحرفين، من مرفوعى الهامة إلى منبطحى الظهر بالمعنى النفسى والبيولوجى، ويمهد يوسف إدريس لهذا الانحناء والتخنث وفقدان الرجولة بفقرة فى قصته يقول فيها «الرجل ليس بكثافة شاربه وشدة طغيانه ولكن الرجل رجل لأنه شهم وكريم وشجاع ومضحٍ ومغيث للملهوف وواقف بجوار المظلوم، مع الضعيف حتى يقوى، وضد القوى حتى يعدل ويعتدل، وتصبح قوته فى خدمة العدل والحق. والمرأة امرأة لا بحسبها ودلالها وأنوثتها وإنما بعملها الأعظم فى أن تكون الأم الأعظم لبشرية أرقى، فالأمومة كالرجولة ليست صفة، ولكنها قيم، درجات عليا من السلوك البشرى العاطفى والعقلى وحتى الجسدى، بها تفرد الإنسان وعلى هديها وصل إلى قمة التطور التى جعلته أسمى حى فى الوجود...» ولهذا نرى سلطان المثقف السياسى الزعيم الشاب وهو يتحول إلى كائن آخر، يحكى إدريس أن سلطان بمرور الوقت يضعف أمام المواجهات، يتراجع أمام الإغراءات، يتهاوى أمام التحديات «وجد الرجل داخله ينكمش، والخوف وإجراء الحسابات داخله يتكاثر، وطال سكوته أو طال تردده...ونحيلا خرج صوته وكأنه صوته حينما كان صبيا لم يراهق أو يخشوشن صوته، وكأنه صوت عيل أو رجل

آثر أن يكون قراره قرارا عياليا، وصوته ينطق به وكأنه صوت خنثى: أنا رأيى إننا نفوتها عليهم المرة دى ونرضخ، ونختار نحن بعد هذا الوقت المواجهة ومكانها....

وساعة طويلة ظل يحدثهم عن أهمية الوقت المناسب والمكان المناسب واحتمال الهزيمة المؤكدة إذا لم يتم هذا بدقة. وانصرف بعضهم وهو لا يزال يتكلم، مع أن شيئا كهذا أبدا ما حدث، ولا أحد يتصور حدوثه، فالحديث تام الوضوح أنه تبرير فى تبرير، وأنه فى داخله خائف يرتعش، وأنه فى هذه المرة ليس بسلطان وإنما هو إلى بهلوان السلطان ومضحكه أقرب...». يواصل إدريس فى قصته يحكى «زعيم صار، صاحب الرأى والكلمة المسموعة والقرار. حين جاء وقت الجد والقرار يتحداه فى عقر داره وعقر مذهبه تحول إلى صعلوك من البشر، فولى الأدبار، وإن حاول أن يبدو قراره قرار حكمة وروية، وهرولته الداخلية يفعلها بتؤدة ووقار......ولو كان قد أطلق العنان لما كان يحسبه حقيقة ويود حقيقة فعله، لوضع ثوبه فى أسنانه، وانطلق يجرى جرى الأرنب المذعور. كيف يتمطى الجبل ويلد فى النهاية فأرا، أم أن الفأر فيه كان هناك طول الوقت إنما كان ينفش نفسه ويضخم صوته وغلظة جسده وحديثه ليخفى نفسه وحقيقته؟... أيام وليال وبضع سنين ظل يحلل ويفتش خبايا نفسه، ويخبث يستدرج محدثيه وندمائه ليعرف لماذا فى رأيهم فعل ما فعل، لماذا خاف وارتعش وولى الأدبار، وفى معظم الأحيان كان يسكت بكل ما يملك بقوة الرغبة السؤال والإجابة عن التساؤل إذا يكاد يواجه ما يشبهه مر الحقيقة العلقم.. إنه أبدا لم يكن ذلك الجبار الذى صنعوا حوله الهالة، ولا ذلك الشجاع الذى ترتعش لمرآه النفوس، إن الخارج فقط هو ما يظهره هكذا أما الداخل فكأنه كان طول الوقت أجوف فارغاً». ثم بدأ فقدان الرجولة يتحول من فقدان فكرى وسياسى يداريه إلى فقدان بيولوجى يتمنى ألا يداريه ويخفيه، نمت داخل سلطان مشاعر شاذة تجاه الرجال فعلا «و فعلا يحس، حتى بجسده قد بدأ يتغير، حريص ألا يكشفه أمام أولاده الشباب الكبار حتى لاحظ أن شعر ساقيه وصدره قد بدأ يقل ويمحى تماما من أجزاء، ويحس كلما نظر إليه شاب أو أطال النظر، أنه يرى فيه ما يخجل، فيخجل خجلا ليس

مثلما كان يخجل حينما كان السلطان ولكنه خجل الخجلان من نفسه فعلا، الخائف على نفسه من الآخرين فعلا، الموشك أن يخفى كل قطعة من لحمه أو عضلاته كأنما ستفضح خجله، أو تفضح أنه لم يعد أبدا ذلك الرجل الذى كانه. استغرب المشاعر ثم حاول أن يقاومها بالسخرية من ابن شقيق رجل اشتهر باللواط فى قرية سلطان الأصلية، استفز سلطان بكل ما فى داخله من صراع بين الرجولة والخنوثة الولد الذى قتل عمه غسلا للعار وفى لحظة مواجهة خطرة «فجأة ألقى الولد بحزمة البرسيم جانبا، وقفز على السلطان، واضعا عليا ساقه خلف ساقيه، فتهاوى السلطان على الأرض كالشجرة الفارهة، وانقض الولد عليه وهو عليه وفى يمناه (الشرشرة) التى (يحشون) بها البرسيم وفى عينيه نار من قرر أن يذبح الرجل ليقتله فورا.

اندفع أكثر من رجل ناحية الراقد والراقد فوقه فإذا بالولد يزأر:

- والله اللى حيخطى ناحيتى لجازر رقبة الـ.......دهه..

وتجمد الكل فى مكانه.. فالتفت إلى السلطان وطرف الشرشرة مغروز فى أيمن عنقه، ما هى إلا جرة واحدة حتى يذبحه ذبح الشاة، والنار لا تزال تتلظى من عينيه وقال: مش حسيبك إلا لما تقول أنا مَرة، قول..

تعالت أصوات الاحتجاجات من خلف الولد وأمامه وقد أصبح هو والسلطان وسط حلقة لا نهاية لها ولكن الولد صرخ كالوحش الجريح:

- اللى عنده كلمة يوفرها والله إن ما قالها، حالا لدابحه، انطق..قول أنا مَرة.

كان صعبا تماما أن يقولها أو يتلفظ بها، لكن الموت أمامه ويا روح ما بعدك روح، حاول أن يستجمع رجولته أو يزأر أو حتى يسكت ولو جزت الشرشرة رقبته ولكن إرادته التى كانت قد تفتت منذ موقفه المتردد الأول، وتتابع تردداته، أبت أن تتجمع أو تقاوم أو حتى تأخذ قرارا بالمقاومة.

وأشد ما أذهله أنه لم يقلها بتسليم أو خضوع للأمر الواقع ولكنه قالها وكأنه يتنفس الصعداء راحة: أنا مَره.

وتهدجت صدور الجماعة الملتفة وكأن السماء انطبقت على الأرض أو كأن الأسد قد تحول أمام أعينهم إلى لبؤة، تهدج وأصوات همهمة قطعها الولد بجبروت المنتصر قائلا:

ـ اتفو عليك..».

«سيد الرجال قالها وأعلن أنه امرأة، حتى ولو كان إعلانه إنقاذا للحياة، فهو إعلان قد تم وحدث، غيره يموتون فعلا من أجل مواقف أقل، غيره لا يزعمون أنهم أسياد الرجال أو أصحاب سطوة أو زعماء، أناس عاديون يقتل الواحد فيهم أو يقتل لسبب أقل، يَقتل أو يقتل ولا ينطقها.

تحييه ـ ذلك الإنسان ـ كلمة، وتميته كلمة، إرادته هى الأخرى تصلبها كلمة وترخيها كلمة، ولا تتراخى الإرادة مرة، وإنما، إذا هى بدأت الطريق إلى التراخى، لا تتوقف، فكل تراخ يقود إلى تراخ أكبر».

ها هو السياسى المثقف الراجل الذى كان موضع احترام وهيبة ورهبة تحول بتردده وخنوعه وخضوعه للإغراءات وضعفه أمام القوة والسلطة والنفوذ، إلى رجل يعترف بكل راحة بأنه امرأة، ليس فقط تقبل الإهانة بل تلذذ بها، بل افتخر بها، ها هم رجال الوطن الذين كانوا وقد تحولوا وتبدلوا وخانوا رجولتهم جعلوا هذا النظام يفاخر ويتفاخر بأنه مش لاقى رجالة، ها هم الذين باعوا رجولتهم ومواقفهم فجعلوا النظام يدعى أنه يعدم البديل ولا يعترضون ولا يعارضون بل هم مثل وشأن أبوالرجال بطل قصة يوسف إدريس، فلا يستحق أحدهم سوى ما فعله هذا الشاب فى سلطان أبوالرجال، بعد أن انتزع اعترافه بأنه مَرة، قال: اتفوا عليك، بصق عليه.. وعليهم!

فلا سهرت أعين الرؤساء!

مصر لا ينطبق عليها سوى النظرية الاقتصادية الخطيرة كلشنكان (كل شيء إن كان) فالأوضاع السياسية والاقتصادية فى بلدنا على درجة من العشوائية والخلطبيطة والفخفخينا، وإلا كيف تجد تفسيرا لأن دستورنا ينص فى المادة الأولى له على أن «جمهورية مصر العربية دولة نظامها اشتراكى ديمقراطى يقوم على تحالف قوى الشعب العاملة». أى والله العظيم هذه هى المادة الأولى لدستور مصر أن نظامنا اشتراكى ديمقراطى وكما ترى حضرتك فلا هو اشتراكى طبعا ولا هو ديمقراطى قطعا، بل وفى المادة الثالثة يرزعك الدستور بالمفاجأة التى تستحق جردل ميه ساقعة كى تفوق بعدها حيث تنص على أن «الأساس الاقتصادى لجمهورية مصر العربية هو النظام الاشتراكى الديمقراطى القائم على الكفاية والعدل، بما يحول دون الاستغلال ويؤدى الى تقريب الفوارق بين الدخول، ويحمى الكسب المشروع، ويكفل عدالة توزيع الأعباء والتكاليف العامة» ولأنك قارئ طيب لن أسرد عليك المادة التى تنص على أنه» يسيطر الشعب على كل أدوات الإنتاج، وعلى توجيه فائضها وفقا لخطة التنمية التى تضعها الدولة. أو مادة من نوع «الملكية الخاصة تتمثل فى رأس المال غير المستغل» (خدت بالك من حكاية غير المستغل) وينظم القانون أداء وظيفتها الاجتماعية، دون انحراف أو استغلال، ولا يجوز أن تتعارض فى طرق استخدامها مع الخير العام للشعب (كتر خيركم)..

ثم ووسط حالات بيع القطاع العام أحب أسمع أحلى صلاة على النبى (عليه الصلاة والسلام) عندما تقرأ هذه المادة فى الدستور المصرى «مادة٣٣: للملكية العامة حرمة، وحمايتها ودعمها واجب على كل مواطن وفقا للقانون، باعتبارها سندا بقوة الوطن وأساسا للنظام الاشتراكى ومصدرا لرفاهية الشعب»، إذا كان

هذا دستور مصر فلا أنا ولا أنت ولا أعبقرنن (الأكثر عبقرية) مفكر اقتصادى فى العالم يمكن أن يحدد لنا الصنف الاقتصادى الذى نتعاطاه فى بلدنا فلا هو اشتراكية ولا هو رأسمالية ولا تفهم رأسه من رجله، وجهه من قفاه، ومع ذلك سأعتبر بما أن رجال الأعمال هم الذين يحكمون مصر الآن وحيث أن كل المسئولين فى حزبهم الوطنى وحكومتهم الرشيدة (التفيدة) رجال أعمال أو أصحاب شركات يبقى نظام مبارك عايزها رأسمالية واقتصاد حر، وليس مهما هنا ماذا يقول الدستور فالدستور يقول اللى يقوله ويبقى يقابلنى لو حد عبره، المهم ماذا يريد الرئيس مبارك ونظامه، لكن الذى يدهش أنه حتى فى الدول الرأسمالية والتى تتبع الاقتصاد الحر لايوجد هذا الفارق الوحشى والرهيب بين الطبقات مثل الذى نراه فى مصر فى وقتنا المبارك، أنوه فقط بأن أحدا ليس ضد الغنى بل كلنا نتمناه من الله غنى النفس وغنى المال، المهم يكون بالحلال ومن غير استغلال، فضلا عن وجود عشرات ومئات من رجال الأعمال والرأسمالية على قدر رائع من الاحترام والشرف والنبالة يجب ألا نعمم معه أبدا صورة الرأسمالى أو رجل الأعمال السلبى، لكننا هنا نتحدث عن منهج عام وعن حركة طبقة وليس مجرد أشخاص نكن لبعضهم احتراما بلا شك، المشكلة أنه قد تمكنت طبقة محدودة عددها بين ألفين وثلاثة آلاف أسرة من امتلاك مصر تقريبا، معظم الشركات، التوكيلات التجارية، المقاولات والسياحة، قطاع الاستيراد وصناعة السيارات، كما اشترت معظم ما تم بيعه من قطاع عام، وتدير استثمارات فى التعليم والصحة، هذه الأسر تتصاهر مع بعض وتتزوج من بعض وتتشارك مع بعض وتبيع وتشترى لبعض، وتسافر وتتفسح مع بعض، وتشتى وتصيف مع بعض، ونشأ من هنا عالم الغردقة والجونة والقرى الخاصة واليخوت والسياج الذى تلفه هذه الطبقة حول نفسها تماما كما أماكن التجمع الخامس وبيفرلى هيلز فى القاهرة الجديدة وكذلك الساحل الشمالى ومارينا تحديدا باعتبار هذه الأماكن بطاقة هوية وكارت تعريف لهذه الطبقة (هناك قطعا فضوليون ومتسلقون وطموحون فى الدخول لعالم هؤلاء من أفراد الطبقة المتوسطة الذين يقاتلون

للانضمام للأغنياء ويتلزق البعض بأغنياء مارينا أو غيرها) هذه الأعداد من الأسر تتشكل خريطتهم من بقايا العائلات القديمة ذات جذور ما قبل يوليو ١٩٥٢ثم من رجال دولة يوليو أنفسهم الذين استثمروا نفوذهم فى التجارة وأثروا من خلال مناصبهم وتصاهروا واندمجوا مع هذه العائلات ثم مجموعات أغنياء الانفتاح الاقتصادى المبكرين وأغلبهم من الصاعدين بقوة من قاع المجتمع إلى أعلاه ومعهم رجال الأعمال الذين نشأوا فى أحضان الدولة منذ الثمانينيات حيث تقاسموا مع موظفى الحكم والبنوك والمسئولين وأولاد المسئولين الثروة والمال المنهوب والموهوب من خزائن الدولة وفى قلب هؤلاء جميعا يتربع رجال دولة مبارك الذين لعبوا فى البيزنس وشاركوا رجال الأعمال ونمت ثرواتهم بشكل جنونى مع امتداد نفوذهم وقيام أولاد المسئولين الكبار لا نستثنى منهم أحدا باللعب مع عناصر الثراء والمال الموجودين على الساحة فكونوا الشركات وامتلكوا السوق ثم نجحوا فى ركوب العمل السياسى وإدارة مشروعاتهم وهم يديرون الدولة ذات نفسها ولينتهى الأمر إلى سيطرة رأس المال على الحكم الذى إن كنت ناسى أفكرك أنه كان أحد أهداف ثورة يوليو طيب الله ثراها القضاء على سيطرة رأس المال على الحكم فإذا بعد ٥٤سنة من قيامها يسيطر رأس المال بجلالة قدره ورجال أعماله وأصحاب بنوكه وشركاته على الحكم وقد يقف على قبر عبد الناصر أحدهم ذات يوم ليقول له «لقد عدنا يا أبو خالد حتى اسأل خالد» لكن مرة أخرى الذى يدهش أن هذه المرة ورأس المال يعود للسيطرة على الحكم فإنه لا يستفيد إطلاقا من خبرات وخيبات التاريخ فها هو مزاد قرية مارينا فى الأسبوع الماضى يكشف لنا ما لم نكن فى حاجة لنكتشفه أن هوة ساحقة ومرعبة وتفاوتا هائلا ورهيبا بين الأغنياء والفقراء فى مصر قد بانت واستبانت واستحكمت تماما حيث أكد تقرير التنمية البشرية عام٢٠٠٥ أن هناك هوة ضخمة بين الطبقات فى مصر الأمر الذى أدى إلى تفاوت كبير فى توزيع الدخل بين الطبقات حيث أوضح التقرير أن أغنى ٢٠% من السكان يحصلون على ٤٣.٦% من الدخل القومى بينما أفقر ٢٠% لا يتحصلون سوى على ٨.٦% من الدخل القومى وإذا بمزاد على شراء ٩ فيلات

و٦٥ شاليها فى مارينا ينتهى عمليا إلى فضح هذا التفاوت الطبقى الذى يصل إلى حد العار على المجتمع المصرى، فقد دخل المزاد ٨٠٠ شخص انتهى المزاد إلى بيع الفيلا بأربعة ملايين و٨٠٠ ألف جنيه، هناك تسعة أشخاص كل منهم مواطن مصرى حى يرزق دفع كل واحد منهم من ثلاثة ونصف إلى خمسة ملايين جنيه فى فيلا لمصيف يعيش فيها أو يسكنها ثلاثة شهور فى السنة فإذا كان هؤلاء قد اشتروا فيلا المصيف بخمسة ملايين جنيه فكم ثمن فيلا الشتاء التى يعيشون فيها وإذا كانت هناك أسرة تستطيع فى مصر دفع خمسة ملايين جنيه فى مكان ليس أساسيا فى حياتها فكم تملك هذه الأسرة من أموال وملايين إذن؟! والأكثر مدعاة للسؤال من أين أتت هذه الأسرة بأموالها حتى تنفقها هكذا؟ وهل هى أموال من مصادر معلومة وشفافة؟ وهل يدفعون للدولة حقوقها؟ وقبل هذا كله من هو القادر على استفزاز شعبه ووطنه بمنتهى السفور حين يشترى فيلا مصيف بخمسة ملايين جنيه فى وطن يعانى ٤٤٪منه من الفقر؟ والمزاد ذات نفسه شهد مشترين لشاليه، مجرد شاليه مصيف ١٦٥مترا، بسعر وصل ما بين مليون ومليون ونصف.

تقول إحدى الصحف اليومية فى وصف المزاد «قد بدأ بأفخر أنواع الفيلات المسمى سوسن بسعر أساسى ٧٠٠ ألف جنيه، انتهى ليصل إلى ٤.١٠٦ مليون، وتلا ذلك عرض فيلا ذات نموذج خاص بمنطقة نادى السيارات ـ كانت استراحة الوزارة ـ ورست المزايدة على من دفع ٤.٨٢٦ مليون جنيه، (سعر المتر يزيد على ١٩ ألف جنيه) وعندما دخل المزاد على النماذج الأصغر بيع نموذج الزمردة بسبعة أضعاف سعره فى زمن التخصيص، حيث كان ٥٦٤ ألف جنيه، وصلت فى المزاد إلى ٣.٥٥ مليون جنيه. وبعد انتهاء المزايدة على الفيلات التسع، جاء الدور على الشاليهات، وبالطبع وصل سعر الشاليه دور أرضى مساحة ١٦٥ مترا إلى مليون ونصف المليون بالتمام، وصل سعر أرخص شاليه إلى ٨٤٠ ألف جنيه». سعر أرخص شاليه بحوالى مليون جنيه، هذا بالضبط ما يشير إلى زلزال اجتماعى يمكن أن يحدث فى أى لحظة فى هذا الوطن الذى صار

وطنين، وطن يشترى فيلا فى الساحل الشمالى بخمسة ملايين جنيه والشاليه بمليون، وطن حجم ثروة مسئول ابن مسئول ستمائة مليون جنيه ووزراء فيه يشترون حصصا فى بنوك بمئات الملايين ورجال سياسة يعملون بالبيزنس يحتكرون صناعات بالمليارات، ووطن آخر مش لاقى ياكل، كما يؤكد تقرير التنمية البشرية وتقديرات البنك الدولى أن الأشخاص الأشد فقرا الذين يقل دخلهم اليومى عن ١دولار (٥.٨ جنيه يوميا أى ١٧٤ جنيها شهرياً) يقدر عددهم بنحو ٢.١ مليون شخص وقد ارتفع عددهم بحوالى ٢٠٥ آلاف شخص تدهورت دخولهم خلال الفترة الماضية. وبالنسبة للفقراء ممن يقل دخلهم اليومى عن ٢ دولار (١١.٦ جنيه يومياً أى ٣٤٨ جنيها شهرياً) فيقدر عددهم بنحو ٣٥.٨ مليون شخص وأنه خلال الفترة الماضية تدهورت أوضاع ٧.٨ مليون انخفضت دخولهم الحقيقية إلى مستوى أقل من دولارين يومياً. نحن نتحدث إذن عن حوالى أربعين مليون مصرى يعانون من الفقر الشديد والأشد ثم نرى بين عشرة آلاف وعشرين ألفا يملكون المليارات والملايين من الجنيهات، ثم نلاحظ أن الأربعين مليونا الفقراء والثلاثين مليونا الآخرين من محدودى الدخل لا يملكون دخلا فى سياسة بلدهم كذلك، فالنظام يحكمه بلاط الرئيس من ابنه ورجال ابنه وساسة الحزب الأغنياء فاحشى الثروة، بينما الفقراء ومحدودو الدخل ممنوعون حتى من التصويت الحر، وهؤلاء الذين كان يقيم رجال حبيب العادلى الدشم والمتاريس والكمائن حتى لا يصلوا إلى اللجان الانتخابية ويدلوا بأصواتهم فى الصندوق الانتخابى، وهؤلاء أيضا الذين باع بعضهم أصواتهم الانتخابية للأغنياء فى انتخابات مجلس الشعب، ليست المشكلة أبدا فى الفقر والغنى بل المشكلة الجذرية فى شدة الفقر وشدة الغنى، وفى هذا التفاوت المذهل والفارق المتوحش بين الفقراء والأغنياء، ثم فى مصادر ثروة هؤلاء الأغنياء هل بالحلال أم بالحرام؟ باستخدام النفوذ واستغلال الفقراء أم بالعدل والعدالة؟ ثم هل هناك عدالة اجتماعية فى الموضوع كله على بعضه؟ والعدالة الاجتماعية ليست مفهوما اشتراكيا على الإطلاق بل هى فى قلب الحديث عن أى رأسمالية، يقول الراحل العظيم

الدكتور سعيد النجار وهو مفكر ليبرالى بارز فى كتابه تجديد النظام السياسى والاقتصادى فى مصر «تقوم العدالة الاجتماعية فى ظل الاقتصاد الحر على خمس ركائز أساسية:

١- المساواة بين جميع الأفراد أمام القانون وحرية التعبير والعقيدة والمشاركة فى صنع القرار وتغيير الحكومة بالطرق السلمية (وها هى أول ركيزة غائبة ومضروبة ستين قفا فى مصر فلا مساواة فالباشا وابن الباشا غير الناس البيئة زينا والمشاركة الوحيدة المسموح بها فى صنع القرار هى المشاركة بالتصفيق وفى مصر لا يستطيع المواطن تغيير الحكومة بالطرق السلمية ولا حتى بالطرق الصوفية، فلا عدالة إذن ومع ذلك نكمل!).

٢- حق كل فرد فى ثمار عمله وثروته طالما كانت مكتسبة بالطرق المشروعة وبعبارة أخرى لا تستقيم العدالة مع وجود فوارق فى الدخول والثروات (وهنا أيضا تختفى ركيزة العدالة الاجتماعية فنحن نرى الطرق غير المشروعة والدائرى والمحور ممهدة ومعبدة والفوارق بين الدخول والثروات واضحة للأعمى ومع ذلك لا ينشغل أحد بها ولا ينزعج فالبعض دخله ألف جنيه وثروته مليون، منين معرفش).

٣- حق الفقراء فى شبكة أمان اجتماعى (وشبكة الفقراء الوحيدة فى مصر هى شبكة الشباب والرياضة فى الإذاعة).

٤- تقدم الفرد فى الحياة لابد أن يعتمد على جده واجتهاده وليس على الامتيازات الطبقية أو الأسرية أو الانتماءات أو الأصول العرقية أو الصلات بأصحاب السلطة (حلوة قوى حكاية الصلات بأصحاب السلطة آديك شايف بنفسك..!).

٥- الأهمية الخاصة لنظام الضرائب والنفقات العامة من أجل تضييق الفوارق بين الدخول والثروات (الفوارق تتسع لمرور أفيال!)».

هذه هى ركائز العدالة الاجتماعية فى الاقتصاد الحر فهل تعتقد أن شيئا منها متوافر فى النظام الذى يحكمنا؟ وهل تعتقد أنه اقتصاد حر أم أنه اقتصاد حر..امي ؟!

تقول المادة(٧٣) فى الدستور المصرى: رئيس الدولة هو رئيس الجمهورية ويسهر (بالمناسبة كل الرؤساء المصريين بيناموا بدرى ومع ذلك فالدستور ينص على أنه يسهر) على تأكيد سيادة الشعب وعلى احترام الدستور وسيادة القانون وحماية الوحدة الوطنية والمكاسب الاشتراكية، آه وحياة ربنا مكتوب كده....والمكاسب الاشتراكية!!

وقد يسألنى سائل: وماذا يقصدون بتعبير مكاسب اشتراكية؟ أقول له احتمال قصدهم اشتراك الأيه آر تى!

يا عمال مصر اتحدوا.. أو.. وحدوه!

أين عمال مصر؟
عايز منهم إيه؟!
أبدا بأسأل.. هوه السؤال حُرم؟

أين عمال مصر؟..أقولك، إنهم في مصر، لكن ليسوا عمالا، ربما عاطلون أو معاش مبكر أو مفصولون، أو منفصلون عن واقع البلد الآن.. استبدلوا شعار الاشتراكية القديم المطرقة والمنجل بالمطرقة والمندل!

العامل المصرى الذى كان يخشى منه الحكام وتهتز له أجهزة الأمن ويعمل له المجتمع ألف حساب، إذا به يستسلم فى رخاوة ورخامة مذهلة لتفتت مصانعه وشركاته وبيعها بل وبمنتهى الغرابة التى يمكن أن أقول إنها جزء من بلادة ونطاعة المجتمع بأسره، استسلم العامل لطرده هو شخصيا من العمل والرزق، فإذا بالعامل المصرى بصمته وسكوته الذى وصل إلى حد الخرس يشارك متواطئا أو متورطا فى عملية الفساد الاقتصادى والسياسى فى مصر وشوه وشوش وأهدر عمال هذه الأيام كفاح ونضال عمال مصر على مدى التاريخ، فقد تحول عامل المصنع ورئيس الوردية وفنى مكنة النسيج وأسطى الصيانة، تحول كل واحد من هؤلاء فى مصانعهم لموظف مطأطئ الرأس محنى الظهر، ثم لم يحصدوا من ذلك كله للأسف إلا الضرب على قفا الوطن والطرد من العمل على هيئة هذا الكائن السرطانى الخبيث الذى أطلقوا عليه المعاش المبكر، وهو جزء من سياسة تعطيل الرجولة فى مصر، فقد صارت البطالة التى يعانى منها جيل كامل (بين ٢٢ و٣٢سنة) ثم البطالة المصنوعة للرجال (٤٥-٥٠سنة) تعطيلا لكل ملكات وقدرات وعطاء أى رجل، هى فى الحقيقة ضرب للرجولة وللذكورة فى مقتل،

حيث يفقد الرجل مع البطالة والعطالة جزءا من كبريائه ثم جزءا من كرامته ثم كثيرا من مكانته، فينتهى الأمر إلى تغييب دوره وانحسار وجوده فتضيع الرجولة كما ضاعت أشياء كثيرة فى هذا الوطن (لا أتحدث عن الرجولة هنا بمعناها الحسى والجسدى، رغم أن تهريب طن و ٧٠٠ ألف قرص فياجرا منذ فترة يوحى بأن مصر تعطلت فعلا!وليس للأمر علاقة بقدرات جهاز تنظيم الأسرة على إقناع الناس فلعلها مقتنعة جاهز!!).

لقد بحثت عن عمال مصر فى مظاهرات واحتجاجات الشعب ضد الاستبداد والدكتاتورية فلم أجد عمال مصر، اختفوا أو استخبوا أو تبخروا أو ضاعوا أو صاعوا أو باعوا، عمال مصر الذين كانوا قادة حركات الوطن العظيمة ضد كل العسف والظلم منذ سنوات الاستعمار والاحتلال إلى أيام قهر وقمع المواطن وبيع الوطن، عمال مصر الذين كانوا زينة الضمير السياسى ومنار الشجاعة والجرأة والجسارة فى مواجهة الحكومات والأنظمة المستبدة والذين عانوا بالرفت والفصل والسجن وضياع الرزق وأكل العيش ومع ذلك كانت مواقفهم ناصعة وبطولاتهم رائعة ورموزهم منارات فى الحياة السياسية وفنارات فى الواقع المعتم والمظلم، كانت هناك حركات عمالية وحركة وطنية وسياسية بقيادة العمال إلى أن اختفوا منذ سنوات ولم نعد نسمع لهم حسا ولا صوتا ؛ رغم بقاء الأحوال على سوء مضاعف وتراجع مخيف اقتصادى وسياسى وحرية تتآكل وديمقراطية تنهار، سبق وقلت أو كتبت هذا الكلام، وكلما كررته وأكدته طلع أصدقاء يدافعون ويفندون كلامى فأعود وأقول احتمال يا واد عندهم حق وإنت غلطان فخفف الوطأة على عمال مصر الذين تنتقدهم وتراهم قد حولوا ضمائرهم لمعاش مبكر يمكن أبكر شوية من المعاش المبكر الذى خرجوا به من المصانع والشركات فحصل بعضهم على تلاتين ألف جنيه أو أزيد قليلا فتح بها دكانا أو جهز بها ابنته ثم جلس عطلانا ومعطلا (تقول الدكتورة ناهد عزالدين فى رسالتها للدكتوراه عن العمال ورجال الأعمال إن هناك آلاف العمال كانوا يقفون فى طوابير لتقديم طلبات المعاش المبكر وإن ٨٠ ألفا تقدموا فى البداية وأحيل منهم ٦٠ ألفا ثم وصل الرقم إلى ١٣٠ ألف عامل

خرجوا للمعاش المبكر بعد عام واحد فقط من تطبيق قانون المعاش المبكر ووصل الآن طبقا لأرقام حكومية إلى ٤٥٠ ألف عامل معاش مبكر مع مراعاة أن من تبقى من عمالة فى القطاع العام قرابة الـ ٦٠٠ألف عامل)!

ورغم أننى أدرك تماما أن عددا من مصانع مصر تم بيعها وتفكيكها وكثيرا من عمال مصر معاش مبكر الآن وعلى مقاهى مصر المحروسة، إلا أن هناك مصانع لم يتم بيعها حتى الآن وأخرى يحاولون بيعها ومع ذلك لا يزال العمال بايعين القضية، أعرف تماما أن الحكومة قد أخصت الحركة العمالية النضالية بالقهر والقمع حينا وبالإغراء والفساد أحيانا، وموقن كذلك أن رجالات الحكومة والأجهزة سيطروا على مقاليد التمثيل العمالى وصعدت على مقاعد النقابات العمالية بعض نماذج بعيدة كلية عن تاريخ الحركة النضالى الجرئ وألصق بالوجود الحكومى والسلطوى والرسمى، وواثق كذلك من أن ظاهرة انتخابات العمال وممثليهم باتت قمة فى المسخرة والكوميديا وأن الحركة العمالية أصابها إيدز السياسة المصرية وهو التعيين الحكومى الذى حول البلد كله من انتخاب لممثليها وقياداتها إلى تعيين، سواء العمداء فى الجامعات أو العمد فى القرى، والنكتة الرذلة والسخيفة فى المحليات، وناقص يعينوا أعضاء مجلس الشعب، وهو الأقرب لما هو حادث فى الحقيقة، لكن ومع ذلك وبالرغم من هذا الموات السقيم والمؤكد الذى تعيشه الحياة العمالية فى مصر فقد كنت متوقعا أن تتحرك قلوبهم وتهتز عقولهم ويستيقظ وعيهم وضميرهم السياسى (لا داعى أن أقول ضميرهم الوطنى رغم أنها على لسانى!!) وينهضوا من سابع نومة ضد عمليات النهب الرهيبة والصارخة والتى لم يسبق لمصر أن شهدتها أبدا إلا فى عهد مبارك الذى أخذ ابنه على عاتقه مهمة تفكيك المصانع وبيع الشركات بأبخس الأثمان وبأسوأ السبل وبأفضح الأشكال (تقول الدكتورة ناهد عز الدين فى كتابها «العمال ورجال الأعمال» إن المتتبع للاحتجاجات التى انخرط فيها العمال منذ مطلع التسعينيات يسهل عليه ملاحظة أن القرارات والتصرفات التى صدرت عن مديرى مشروعات القطاع العام والمملوكة للدولة كانت بمثابة المحدد لتفجير مشاعر السخط لدى العمال، ولذا لم

يوجه العمال أيا من أعمال الاحتجاج ضد الدولة، وهو ما يعود إلى كونهم ظلوا معنيين بالأساس بالقضايا الفئوية والمادية، حيث دارت أغلب مطالبهم حول الأجور والحوافز والمكافآت، وهى مجالات يخضع التحكم فيها فقط وبشكل مباشر للمديرين). وتضيف الدكتورة ناهد فى رصدها «حالات الاحتجاج كانت بمثابة الاستثناءات التى تثبت القاعدة (والقاعدة هنا هى الاستسلام)، فرغم تزايد عدد الاحتجاجات ومعدلات حدوثها، فإنها ظلت محدودة فى مدتها ونطاقها ولم تتجاوز حدود المؤسسة أو الشركة الواحدة»، أى أن العمال حتى عندما احتجوا كان احتجاجهم احتجاجا داخليا قصيرا سريعا على قرارات وليس رفضا وغضبا واحتجاجا على منهج البيع، ثم بفرض احتجاج البعض على البيع كان يحتج وحده فى شركته فلم تعد هناك حركة عمالية وتيار عمالى واسع وشامل، ثم من ناحية أخرى لم تشارك جموع العمال منفردة أو منضمة لآخرين فى أى مطالب سياسية وطنية خاصة بالإصلاح أو المساءلة أو المحاسبة للرئيس ورجاله وقيادات حكمه الذين تورطوا فى الفساد والاستبداد فلم نشهد فى حركة كفاية عمالا ولم نر فى قيادات الأحزاب عمالا ولا فى القوى المطالبة بالتغيير عمالا، ولا أيضا فى حركة الإخوان المسلمين ولا فى المظاهرات ولا فى أى حتة، لم نشهد إلا السيد راشد وهو يجلجل فى مدح السيد الرئيس وكذلك هؤلاء العمال المنافقين الذين يهللون لمبارك كل عيد عمال وكأنه كارل ماركس نصير العمال!

أصبنا بخيبة أمل راكبة جمل فى موقف عمال مصر الذين أثبتت حركتهم أنها مشلولة وأبان ضميرهم السياسى للعميان أنه نائم أو ميت وحاشا لله أن نقول، كما يغرينا الوسواس، أن نقول إن ضميرهم متباع كما بيعت مصانعهم وشركاتهم!

قلت وأقول وعلى رأى عادل إمام وما أكثر من قول قيل أو لم يقال، إننا كنا دائما قلة منحرفة مندسة نسعد بمشاركة عمال مصر فى قلتنا المنحرفة المندسة فى المظاهرات والاحتجاجات وصرخات الضمير، لكن يبدو أنه كانت من ضمن بنود ومواد عقود بيع مصانع القطاع العام فقرة تنص على بيع الضمير السياسى أو على الأقل تسريحه أو إحالته على المعاش المبكر، ومن تبقى من عمالنا لم يعودوا كما

كانوا، كما أن قادتهم صاروا بكوات وباشوات وبتوع حكومات ونسوا البدلة الزرقاء والأسطى حسن، ويا عمال العالم اتنيلوا اتحدوا، وهكذا خرج ضمير العمال ولم يعد، ولم تحركه مذابح الحكومة ضد ثروة البلد ولم يحسوا على دمهم حتى بعدما خرج أولادهم وأحفادهم فى مظاهرات واحتجاجات ولم يرقوا إلى شجاعة ووعى وبراءة عيالهم!!

اسألوا الرئيس!

قبل أن تحققوا مع ممدوح إسماعيل كيف أغرق المصريين فى عباراته الفاسدة، اسألوا حسنى مبارك رئيسكم ورئيسه، كيف تركت هذا الرجل يمتلك العبارات والبواخر المتهالكة وكيف تركته يغرق الفقراء والغلابة والطيبين الذين تصوروا أنك رئيسهم فتحميهم من الفساد والإفساد، كيف تركته يحتكر كل هذه السنوات الملاحة فى البحر ويمنع أى منافس؟ كيف تركته يشارك كبارا فى دولتك ورئاستك؟ كيف عينته أمينا لحزبك الحاكم المتحكم فى دائرتك الانتخابية؟ وكيف منحته الحصانة فى مجلس الشورى الذى تعين بإمضائك نصف أعضائه؟ وأين كان سيادتكم وهو يسافر هاربا خارج مصر؟ ألم تسأل عنه، ألم تقل لرجالك وحراس نظامك قولوا لممدوح ما يسافرش اليومين دول؟ كيف سافر هاربا من تطلبه مصر كلها للتحقيق؟ كيف يأمن الفاسدون كل هذه السنين فى هذا الوطن؟

لا تحققوا إذن مع ممدوح إسماعيل فقط.

وقبل أن تحققوا مع إبراهيم نافع عن ثروة كونها وخسائر مذهلة صنعها وديون متلتلة حققها فى مؤسسة الأهرام وصفقات وشركات وشركاء وحسابات جارية، اسألوا حسنى مبارك رئيسكم ورئيسه، كيف وضعته فى رئاسة الأهرام أربعة وعشرين عاما لم تمسه أو تلمسه؟ كيف أبقيت عليه قرابة ربع قرن ولم تراقب ما يفعله أو تعرف ما يصنعه؟ هل غابت أجهزتك؟ وهل لا يقدر رئيس الجمهورية الذى يعين رئيس جريدة لمدة قرابة ربع قرن على معرفة ممارساته وأفعاله أم ترى اكتشفت كل هذا فجأة؟ أين كانت التقارير وأين كانت الملفات وأين كانت الرقابة والمحاسبات؟ أنت وحدك الذى كنت تعينه وتبقيه على عرش المؤسسة وتجدد له فى بقائه على المقعد بل وجعلته بقرارك أنت وحدك لا أحد غيرك يتجاوز كل

االقواعد القانونية فى الاستمرار على الكرسى بعد سن المعاش وكنت وحدك يا سيدى الرئيس الذى يمد له فى خدمته وتوليه رعايتك وتزوره فى مؤسسته.. ألست أنت يا سيدى الرئيس الذى عينته بتوقيعك الكريم فى مجلس الشورى ومنحته الحصانة؟ ألم يصل لمسمع سيادتكم خبر عن ثروته وأمواله وممارساته؟

أليس سيادتكم الذى كان يشيد به فى الطائرة أثناء اجتماعك المعتاد مع رؤساء صحفك الذين منحتهم مناصبهم ورضاك ربع قرن من الزمان فتأتى الآن أجهزة حكمك لتقنعنا أنها وأنت عرفتم هذه المعلومات متأخرا، متأخرا جدا......؟

أليس سيادتك الذى كان يقرأ مقالاته الذى كان يدبجها حبا فيك (لا نقول لا سمح الله نفاقا لك) وكنت تدلى له بحوارات خاصة وظل يسافر فى كل رحلاتك (وهى كثيرة) إلى كل أنحاء المعمورة؟ هل من المعقول أن رئيسا يظل أربعا وعشرين سنة لا يعرف أن موظفا لديه (موظفا أثيرا عنده) على هذا النحو من الممارسات؟!

لا تحققوا إذن مع إبراهيم نافع فقط!

لا تحققوا مع وزير الإسكان السابق محمد إبراهيم سليمان، بل اسألوا الرئيس مبارك من الذى عين سليمان هذا ومن أبقاه رغم كل النقد ومن أصر عليه رغم كل الحقائق ومن أجلسه على مقعده غصبا عن الرأى العام؟

لا تحققوا مع عبدالرحمن حافظ، بل اسألوا الرئيس حسنى مبارك.. ألم يصلك خبر عن ممارسات الرجل، عن ثروته، عن قراراته، عن صفقاته، عن علاقاته، عن وزرائه؟

لا تحققوا مع إيهاب طلعت عن ديونه للتليفزيون وللمؤسسات الإعلامية، بل اسألوا الرئيس مبارك الذى كانت تحتفى بطلعت كل أجهزته وكان إيهاب طلعت يتعامل ويتعاون مع كل رجاله وأدار حملة الرئيس الإعلانية فى الانتخابات الوهمية التى جرت العام قبل الماضى.

لا تحققوا إذن معهم فقط!

لا تحققوا مع وزير الداخلية عن التعذيب فى الأقسام والسجون وعن قتلى

الانتخابات والمظاهرات، ولا تحققوا معه عن آلاف المعتقلين عشوائيا فى المعتقلات، ولا تحققوا مع وزير الداخلية عن التنصت والتجسس على تليفونات المعارضين والمثقفين ورموز التيارات الوطنية، ولا تحققوا معه عن انتهاك خصوصية المعارضين وملاحقتهم وضربهم والاعتداء عليهم، بل اسألوا الرئيس حسنى مبارك، فهو من عين وزير الداخلية وقربه وأبقاه وآثره وضمه إلى خاصته وأعلن رضاه عنه فى كل حوار ومقام.

لا تحققوا مع الذين نهبوا وينهبون مصانع وشركات القطاع العام وبددوا ثروة الأمة واختلسوا وسمسروا وسرقوا، لا تحققوا مع الذين اقترضوا المليارات وهربوا، بل اسألوا الرئيس حسنى مبارك فكل مسئولى الفساد كانوا من اختياره وكل مسئولى الفساد من مرؤوسيه وكل مسئولى الفساد من حزبه الحاكم وكل رجل أعمال اقترض وهرب يملك صورا مع الرئيس فى مصانعه أو معارضه.

لا تحققوا إذن مع كل هؤلاء فقط!

أليس كل ما يجرى فى بلدنا بناء على تعليمات الرئيس وطبقا لتوجيهاته؟ لكن المؤسف أنه لا يوجد أى نص ولا أى مادة فى الدستور المصرى الدائم (رغم أنه لا دائم إلا وجه الله) يبين لنا من فى هذا البلد من حقه أن يسأل الرئيس!

لقد اقتصر الدستور على نص بمحاكمة الرئيس، ولكن فى ظروف شبه مستحيلة وعن طريق شبه ميئوس منه، تقول المادة ٨٥ من الدستور (يكون اتهام رئيس الجمهورية بالخيانة العظمى أو بارتكاب جريمة جنائية بناء على اقتراح مقدم من ثلث أعضاء مجلس الشعب على الأقل، ولا يصدر قرار الاتهام إلا بأغلبية ثلثى أعضاء المجلس ويوقف رئيس الجمهورية عن عمله بمجرد صدور قرار الاتهام، ويتولى نائب رئيس الجمهورية الرئاسة مؤقتا لحين الفصل فى الاتهام. وتكون محاكمة رئيس الجمهورية أمام محكمة خاصة ينظم القانون تشكيلها وإجراءات المحاكمة أمامها ويحدد العقاب، وإذا حكم بإدانته أعفى من منصبه مع عدم الإخلال بالعقوبات الأخرى).. هذه هى المادة الوحيدة التى تتضمن شيئا عن محاسبة الرئيس وتشتمل على نقطة مهمة وهى أن ثلث أعضاء مجلس الشعب يملكون

اقتراح محاكمة الرئيس أو بمعنى أدق اتهامه بارتكاب جناية ولا أعرف كيف سيعرف هؤلاء مثلا أن الرئيس ارتكب جناية، نحن نحتاج أن نحاسبه فى السياسة ونسائله فى قراراته وليس عن طريق البحث الجنائى، لكن هل تعد أمور السياسة جرائم جنائية مثلا؟، ثم نجد هذا الشرط الواضح لضرورة توافر ثلث الأعضاء لإمكانية طرح هذا الاتهام والذى يكشف المحاولات المستميتة التى تقوم بها حكومات مصر وحكامها منذ العمل بهذا الدستور لتزوير الانتخابات والتحكم فى عدد أعضاء المعارضة بحيث لا يمكن أن يصل عددهم لثلث عدد أعضاء المجلس (١٥٢عضوا) كما أن هناك قتالا حكوميا شرسا مثلما رأينا فى الانتخابات البرلمانية الأخيرة لمنع أى تيار سياسى من الوصول إلى أكثر من ثلث مجلس الشعب بما يهدد أغلبية الحزب الحاكم التى تسمح له بأن يعطل أى إجراء مثل إمكانية اتهام الرئيس ومحاكمته، هذا فضلا عن قدرة أغلبية هذا المجلس على منح الرئيس تفويضا على بياض مذهل لعقد صفقات لا يعلم عنها أحد شيئا سوى الرئيس ومن وقع معه العقد من الجهات الخارجية! ثم إنه فى المحصلة لم يصدر قانون أبدا لتحديد شكل محكمة الرئيس التى يفترضها الدستور، المهم أن هذا لا يشغلنا هنا بقدر ما يشغلنا حق الشعب فى مساءلة الرئيس ومحاسبته سياسيا،، نحن نتحدث عن السياسة، عن القرارات السياسية، وعواقبها (الوخيمة)، نحن لا نتحدث عن مستحيل بل نتحدث عن واقع وهو أن الرئيس (أى رئيس) لابد أن يكون مسئولا أمام شعبه وأمام جهات تمثل شعبه وتحاسبه من خلالها على الإجراءات والقرارات والاختيارات التى يتخذها خصوصا مع هول صلاحيات الرئيس المطلقة التى ينص عليها الدستور والتى تصنع من أى رئيس فرعونا وإلها، لابد أن نجد أحدا قادرا على أن يقول للرئيس: قف لقد أخطأت، أو هيا بنا نتحاسب، ونحن لا نطلب الكثير بل هو أول ما نص عليه أول حاكم فى الإسلام حين قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: «راعونى بأبصاركم، فإن استقمت فأعينونى، وإن زغت فقومونى، وإن أطعت الله فأطيعونى، وإن عصيت الله فاعصوني»، هذا هو ميثاق أبو بكر الصديق، وبيانه إلى الأمة، هل هناك أكثر من ذلك احتراما لإرادة

الناس، حريتهم، وحقهم فى سؤال الحاكم ومساءلته؟ عندما بويع أبو بكر الصديق للخلافة أغلق بابه ثلاثة أيام، وكان يخرج إليهم فى كل يوم فيقول: «أيها الناس لقد رددت بيعتكم، فبايعوا من أحببتم»، لا نريد حقا فى مساءلة الحاكم ومحاسبته أكثر مما قاله بشير بن سعد لعمر بن الخطاب: «لو وجدنا منك ميلا قومناك تقويم السهم»، فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «الحمد لله الذى جعلنى فى قوم إذا ملت عدلونى وقوموني».

نحن نريد حقا فى سؤال الرئيس مثل كل الدول المتقدمة المحترمة كما يحدث كل يوم فى فرنسا وأمريكا وألمانيا وغيرها، الذين لا يقدسون رئيسهم وحاكمهم ولا يعبدونه من دون الله، الذين لا يصنعون تماثيل لرئيسهم ولا يحتفلون بعيد ميلاده وعيد توليه العرش ولا يعاملون أولاده كأنهم ولاة عهد وأمراء قصر، والذين لا يضعون صور الرئيس فى ملاعب الكرة وصالات الرياضة وملصقات الشوارع والميادين، نحن نريد حقا فى سؤال الرئيس عن كل هؤلاء الفسدة وكل هذا الفساد الذى صال وجال وكبر وانتفخ وتمدد وبدد وزاد وغطى فى عهده، أين كان وأين كانت عينه الساهرة على مصالح الشعب وأين كان قسمه على رعاية مصالح الجماهير، وأين كانت رقابته وأجهزته ومدى مسئوليته عن كل ما يجري؟ ومن الذى تورط وتواطأ، ومن الذى صمت وشارك؟..

إذا أخطأ الرئيس يا جماعة (والخبر المهم هنا أن الرئيس بشر وليس ملاكا أو نبيا، والخبر الأهم هنا أن البشر يخطئ،) فمن إذن من حقه أن يسأل الرئيس؟ ومن الذى يمكنه أن يسائل الرئيس؟ ثم فى النهاية من هو الذى يملك أن يحاسب الرئيس؟..

من يملك أن يسأل الرئيس ويحاسبه على الذى حدث ويحدث من قرارات وقوانين واختيار مسئولين والإبقاء على فسدة وفشلة؟! فى مصر الجميع يتعامل مع الرئيس كأنه منزه منزل مقدس مؤله فوق المناقشة والنقد والحساب ويطالبه الجميع بالتدخل والتصرف فى فساد فاسد أو انحراف منحرف أو قانون مشبوه وكأن الرئيس لا دخل له بأى شيء سيئ أو سلبى أو كارثى مما جرى، برئ تماما والكل

متهم، إذا أصابتنا حسنة قالوا من عند الرئيس وإذا أصابتنا سيئة قالوا من عند أى حد غير الرئيس، إذن طبقا للوضع الحالى فإن الوحيد القادر على أن يسأل الرئيس ويحاسبه هو الله سبحانه وتعالى!

لا أحد منا ولا فينا!

لا مجلس الشعب ولا مجلس الشورى ولا كائن ولا مخلوق بل الخالق الواحد الأحد هو الذى يمكن أن يسأل الرئيس ويسائله ويحاسبه والخبر الجيد هنا أن الله عادل والخبر السيئ أننا لن نعرف نتيجة المحاسبة حيث يفر المرء يوما من أبيه وأمه وأخيه فلن نجد وقتا للانتباه ومعرفة النتيجة ثم إنها لن تهمنا ساعتها!

فأغرقناه ومن معه....جميعا!

همس فى أذنى:

- هل تعرف أنه مريض بالسرطان؟

شعرت ساعتها بالذهول:

- وحياة ربنا، بتتكلم جد؟!

قال حاسما:

- بالسرطان.

رديت بقوة.

- مستحيل!

استغرب جدا من كلمتى ما هو المستحيل فى أن يصاب شخص بالسرطان؟

لم يكن هذا ما أفكر فيه، كنت أفكر فى شئ واحد طغى على كل خلايا مخى، كيف يكون مصابا بالسرطان وهو يعرف حقيقة مرضه بل ويتلقى علاجا كيماويا ثم لا يعمل لآخرته بل ويبدو متشبثا بمنصبه ونفوذه لهذا الحد، إنه مسئول مهم فى الدولة، مهم لدرجة أنه يملك إدانة وفضح فساد وكشف عورات النظام وجرائمه، مهم لدرجة أن أحدا لا يستطيع أن يزيحه عن مقعده، ومع ذلك فهو لا يكف عن خدمة السلطة والسلطان، لا يتورع عن مساندة الاستبداد والفساد، لا يتردد فى ممالأة الحكم والحاكم، لا يتهيب العصف والعسف مع المعارضين، يصدم الناس بحماية من يطلب الشعب معاقبتهم، يروع الرأى العام بستر ما يسعى الشعب لكشفه وتعريته، فإذا كان هذا كله وهو الرجل المريض شافاه الله وعافاه، وإذا كان هذا كله والرجل لا ينتظر من عمره إلا ما وهبه الله عز وجل من منحة قصرت وإن طالت، فما السر؟

ما السر أنه لا يدرك أو ينتبه أو يفكر فى أنه سيلقى وجه رب عادل منتقم جبار يسأله عن قراراته ومواقفه وأوامره؟

ألا يغفو فى جلسة الكيماوى فيتخيل نفسه يمشى على الصراط وحيدا لايجد رئيسا يسانده ولا رئيس وزراء يساعده ولا أمين لجنة سياسات يدعمه ولا صحافة تخشاه ولا برلمان يتواطأ معه...لا شئ ولا أحد، فقط رب منتقم جبار؟ فلماذا لا يعمل حسابا لهذا اليوم وكلنا نعلم أن المبتلى والممتحن بمرض السرطان يكون أكثر لجوءا لله سبحانه وتعالى وتقربا من الله عز وجل فإذا بهذا المسئول يكاد يتقرب للرئيس وليس لله، للوالى وليس للمولي؟!

وهناك مسئول آخر لعله عطل ضمير مصر المستقل عن العمل طيلة عشرين عاما، كان نائما على فراش المرض بين الحياة والموت فى غرفة العناية المركزة يعانى من خرطوم التنفس الصناعى فى فمه وأسلاك مغروزة فى ذراعيه وعيون أهله معلقة على الخط الأخضر فى جهاز قياس النبض منتظرين فى رجفة ورعشة استقامة الخط عن التعرج وضياع النبض وطلوع الروح وشافاه الله بعنايته الإلهية فخرج المسئول بعد ثمانى وأربعين ساعة فقط من باب غرفة الإنعاش حتى مقاعد البرلمان ليلوح بيديه المرتجفتين وبشحوب وجهه المريض مدافعا عن تمرير قانون مشبوه ويلهج بشكر الرئيس الذى رد للبلد روحه بينما نسى الله الذى رد روحه إلى قلبه. ثم مسئول آخر أجرى عملية قلب حرجة ودقيقة حيث دخلت أصابع الجراح إلى شرايين قلبه الذى توقف عن النبض وغامت روحه بين يدى الله ثم نجحت العملية وخرج صاحب القلب المشقوق ليتخذ قرارات ويمرر قوانين ويشارك فى فساد ويكتب نفاقا، وهناك من أوشك على الثمانين من عمره ومع ذلك يتشبث بالسلطة لا يريد أن يرحل عنها أو يتزحزح منها كأنه كل هذا العمر لم يشبع من النفوذ والفلوس!

ما السر؟

لماذا نجد فى مصر مسئولين وموظفين دولة خلت مواقفهم من الذكورة والرجولة، يتشبثون بمقاعدهم ويلحسون أحذية الحاكم وينافسون محجوب عبدالدايم

لا يتورعون عن تسليم سعاد حسنى لأحمد مظهر ولا يتعظون من مرض ولا اعتلال صحة؟ لماذا لا نرى رجالا تستقيل وعواجيز فى السلطة (وفى الأحزاب) تعتزل أبدا، ولا مسئولين ينتقدون حكما أو قرارا؟!، لماذا نرى المسئول من أول المحافظ لغاية رئيس الوزراء مسحوبة شخصيته، مكسور ظهره، وعينه ملزوقة على كرسيه لا يتحدث إلا نفاقا للسيد الرئيس ولا يقول إلا مدحا للسيد الرئيس ويصلى فى اتجاه القبلة ويركع فى اتجاه كوبرى القبة؟!، تعال نحاول تفسير الأمر، إننا فى مجتمع غير ديمقراطى يقوم على عبادة السيد الرئيس وتقديسه ومن ثم لا مكان فى الدولة وعلى مقاعد السلطة إلا بالنفاق ومزيد من النفاق ووجود هذا الشخص على هذا الكرسى يأتى نتيجة ولائه للرئيس ومسح بلاط النظام و وجوده فى السلطة ليس بسبب الكفاءة والموهبة والمقدرة وليس بسبب الولاء للشعب ولا للوطن بل لأنه خادم للنظام، فهذا الوزير يعلم يقينا أنه ليس سياسيا بل مجرد موظف وأنه موجود على هذا الكرسى لأن الريس عايزه أو لأن ابن الريس بيحبه إذن.. ولاؤه لحسنى مبارك وولده ويتحرق أم اللى خلفوا الشعب ولا نفرق نحن معه ببصلة، طيب إذا كان هذا سبب نفاقه لبقائه وسبب تحول مسئولين كثيرين لمماليك وخصيان قصر، فلماذا يتشبثون بمقاعدهم حتى الموت؟

من الطبيعى جدا أن معظم هؤلاء المسئولين دخلوا دائرة السلطة بالولاء والثقة وليس بالكفاءة والاستحقاق الشعبى فاندمجوا مع الوسط الفاسد وفسدوا مثله أو انعاصوا بالفساد بحيث من المستحيل أن تجد وزيرا لاتضبط له مخالفات مالية ومعاملات مشبوهة وتجاوزات إدارية وتورطات مع شركات ورجال أعمال، فإذا خرج من السلطة يصبح معرضا فى كل لحظة لأن يتم التضحية به ككبش فداء وملفاته أكثر من الهم على القلب وبإشارة من إصبع أصغر عضو فى شلة أمانة السياسات يمكن لهذا المسئول أو الوزير أن يقضى بقية حياته (وبالقانون) فى السجن، لهذا فإن المسئول إما أن يحاول البقاء بكافة السبل حتى لو اقتضى الأمر أن يعمل عجين الفلاحة أو يقبل الحذاء كى يبقى فى مقعده حتى يموت، أو أن هذا المسئول عندما يخرج من منصبه يظل خداما فى القصر منحيا ومحنيا ويبالغ فى

نفاقه وتذلله حتى يبقى فى كنف السادة يأمن شر الفضيحة والتجريس والسجن، بات إذن من الصعب أن تجد من يعاف المنصب أو يتعفف عن البقاء فى الكرسى أو يسترجل فيستقيل أو يغسل ضميره ويتطهر ويعترف بوجود فساد أو ينقلب ويعارض ويواجه الاستبداد أو ينتقم من السلطة التى هجرته وطردته فيفضحها وينشر أسرارها، أبدا لن تجد مسئولا واحدا لا على هذا النحو ولا ذاك بل على العكس ترى أذلاء مذلولين لو أمرهم سيدهم السامرى أن يعبدوا عجلا له خوار لفعلوا وعبدوا، أضف إلى هذا أن معظم (ومعظم هنا للتخفيف والأدق أنه كل وليس معظم) المسئولين فى كافة المجالات الحكومية وتلك المناصب التى تسمح لصاحبها بلقاء الرئيس مباشرة يتم اختيارهم عبر تقارير أجهزة الأمن ليس للتأكد من نظافة أصحابها بل العكس للتأكد من أنهم تحت السيطرة وبالتعبير السياسى المعتمد «مجرحين» فالذى يصل لمقعده يجب أن يضمنوا ولاءه وهو غالبا مجند من أجهزة الأمن منذ نعومة أظافره (حوافره السياسية!) ويتم جلب معظم المسئولين من دوائر الجامعة أو الإعلام أو الحزب أو أجهزة الدولة وهؤلاء كانوا إما طلاب مباحث يكتبون تقارير أمنية عن زملائهم أو مدرسين بالجامعة مجندين فى هيئة التدريس ضد زملائهم أو مخبرين على رفاقهم فى أى مجال عمل، أو أصحاب صلات قديمة مباشرة بأمن الدولة، ولعلنا على يقين أن أيا من مسئولى مصر الحاليين لم يكن يشتغل بالسياسة فى الجامعة أو غيرها على الإطلاق وإن كانوا جميعا على علاقة وطيدة بالأجهزة الأمنية كل فى حقل عمله، وكل فى صعوده الوظيفى، إذن يكون الاختيار محصورا فى رجال الأمن والمخبرين من ناحية أو من المجرحين بالفساد من ناحية أخرى فهذا ممسوك عليه قضية رشوة وذلك تهرب ضريبى وهذا مذلول بقضية تحرش وآخر كان قمرتى أو ابنه مدمن، كل هذا ضمن الشروط الأساسية لاختيار العناصر التى تشارك فى إدارة البلد ومن ثم لا تنتظر من أى واحد فيهم بطولة أو رجولة أو تمردا أو تمنعا أو ترفعا أو تراجعا!

ستقول لى معقولة كلهم هكذا، أقول لك هل لديك تفسير آخر لهذا التهافت على البقاء فى المناصب والذل أمام السلطة، والتذلل للرئيس وابنه والتواطؤ فى

الاستبداد والفساد، نعم كلهم هكذا والاستثناء صعب للغاية (لم أقل مستحيلا). هذا هو المنهج الذى يلد لنا النخبة الحاكمة فى مصر وبالمناسبة هذا الكلام ينطبق باللفظ والحرف على زعامات أحزاب أمناء الشرطة التى تسمح بها الدولة (عبر القضاء أو لجنة الأحزاب) وكذلك على بعض القيادات فى الأحزاب التقليدية (المصابة هى الأخرى بداء الشيخوخة)، ماذا يعنى ذلك؟، يعنى ببساطة أنه لا أمل على الإطلاق فى الطبقة الحاكمة ولن نحصل من أى شخص فى حزب مبارك أو ابنه على أى إصلاح من أى نوع بل تفصيل لقوانين وضيعة السمعة (القوانين سيئة السمعة كانت أرحم) ومحاولة تنفيذ لسيناريو التوريث الفاسد السقيم ومزيد من الاستبداد والفساد فهى طبقة كلها من بعض، تحكمها قوانين شبكات الجريمة السياسية المنظمة، لا مراهنة ولا رهان على هذه المجموعة كلها فهى فضلا عن كونها فاقدة للشرعية حيث اغتصبت السلطة بتزوير الانتخابات وتزييف إرادة المواطنين فهى كذلك أشبه بطبقة الإقطاع منزوعة الصلة عن وجدان ومصالح فقراء الشعب، مجموعة من المليارديرات يقودهم المليونير جمال مبارك (إذا لم تكن شركته برأسمال ستمائة مليون جنيه كما قال هو بنفسه وعظمة لسانه لصحيفة أجنبية ولم يكذبها بعدها فما هى حقيقة ثروته وحجمها؟.. إذا كان شفافا بجد فليقل لنا من يملك الطائرة الخاصة التى يتنقل بها؟ هل هى ملكه (بكم ومنين؟) أم مأجرها (من مين، وبكم؟)، أو هدية (من مين وليه؟) أم من ممتلكات الدولة وهو يستخدمها (إزاي؟)».

لا تغيير ولا تقدم ولا تطور إلا بإزاحة هذه الطبقة الحاكمة كاملة، فلا فرق بين فرعون وقومه، بين فرعون وآله، بين فرعون ومن معه، إن الله سبحانه وتعالى من فوق سبع سموات أخبرنا أنه لا خلاص لهذا البلد تحديدا سوى بالتخلص من فرعون والذين معه، قال تعالى فى سورة الإسراء آية ١٠٣ (فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا) لم يستثن الله أحدا ممن معه، ولم يكتف بإغراق فرعون فقط، بل إن الذين معه لا يقلون خطرا عنه ويستحقون غرقا معه....فأغرقناه ومن معه...جميعا، واخد بالك، جميعا!.

رئيس الطوارئ

تفتكر لما الرئيس الراحل أنور السادات قرر يقبض على جميع المعارضين له ويزج بآلاف من معارضيه ومثقفى وسياسى مصر وشيوخها وقساوسها فى المعتقلات فى سبتمبر ١٩٨١، تفتكر هل قال له نائبه حسنى مبارك وقتها كلمة واحدة (كلمة وليس جملة) يراجعه فيما قرر أو يعارضه فيما ذهب إليه أو يناقشه (بلاش يراجعه أو يعارضه!) فيما يقدم عليه السادات، هل أوضح له نائبه مبارك خطورة ما يفعل؟ هل دافع عن حرية هؤلاء المعارضين فى التعبير عن آرائهم وأفكارهم؟ هل قال له إن هذا انقلاب على الديمقراطية، هل طالبه بأن يسمع هؤلاء ويناقشهم ويفكر معهم، هل كشف له خطورة إغلاق صحف وحل أحزاب وجمعيات وسجن مفكرين وسياسيين؟ هل قال له إنهم وطنيون يحبون مصر مثلى ومثلك (مثل سيادتكم)؟ هل أخبره أن المعارضة المدنية السلمية هى أمل أى بلد ديمقراطى فى محاسبة ومراقبة الحكام وأن الخطر فقط هو الإرهاب المسلح؟ من المؤكد أن مبارك لم يقل هذا على الإطلاق للرئيس السادات؟ بل أيد ووافق ودعم ونفذ بمنتهى الإخلاص الوظيفى، ففى ١٩٨١/٩/١٩ وفى الصفحة الأولى للأهرام أصدر حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية والأمين العام للحزب الوطنى توجيهاته بأن يكون بيان الرئيس السادات (الذى شرح فيه لماذا قبض على الآلاف من المعارضين وأغلق صحفا وجمعيات) دليل عمل فى المرحلة القادمة وأكد حسنى مبارك ضرورة الامتثال للقيادة الحكيمة للرئيس أنور السادات (واخد بالك أى رئيس يبقى قيادة حكيمة على طول) وكان السادات(الأهرام ٨-٩-١٩٨١) قد عين محمد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية رئيسا للجنة الوحدة الوطنية، طبعا لا حد فاكر ما هى هذه اللجنة وماذا فعلوا بها وفيها؟ والمدهش أن الأقباط دائمو

الشكوى من تمييز عصر مبارك ضدهم (!!) رغم أنه رئيس لجنة الوحدة الوطنية!، ثم ألقى مبارك بيانا فى مؤتمر الحزب الوطنى باعتباره أمينه العام مدح قرارات الرئيس (سجن الآلاف ومصادرة وإغلاق صحف وجمعيات) وتحدث عن حكمة الرئيس واتخاذه هذه الإجراءات لحماية مصر، ليس هذا فقط بل إن السيدة جيهان السادات تؤكد لنا فى كتابها «سيدة من مصر» وهى تصف أحداث سبتمبر واعتقال المعارضين للسادات: (وقد حظى قرار أنور باحتجاز عناصر الشغب أخيرا بتأييد مطلق من جانب وزراء زوجى وأعضاء حزبه.... صفحة ٥٤٢).

إذن مبارك كان مؤيدا تماما للقبض على عقول وقيادات مصر الفكرية والسياسية من كتاب ومثقفين وأساتذة جامعات وحزبيين وشيوخ وقساوسة، وأمامنا تفسيران لهذا التأييد المباركى الذى لا نشك فيه لحظة لقرارات الحبس والاعتقال، الأول: أن مبارك لم يكن ليقدر على معارضة السادات ومواجهته أبدا بأى موقف معارض ولم يفعل ذلك أبدا فى أى لحظة أو بأى طريقة (وهو حال جميع رجال حكم مبارك الآن ولا تصدق أى كذاب لو كتب فى مذكراته بعد سنوات يزعم أنه كان يعارض مبارك فى مواقف أو قرارات أو يقول له لا يا سيدى الرئيس، أو أنه راجعه أو ناقشه فى شيء، فهم جميعا لا يعرفون سوى السمع والطاعة والحديث عن حكمة الرئيس ورؤيته وعقليته الفذة وعبقرية قراراته وهذا هو سبب جلبهم وتقريبهم للرئيس وشرط بقائهم).

الثانى: أن مبارك لم يدر فى ذهنه إطلاقا ولا كلمة مما تخيلناها عن الحرية والديمقراطية لأنه حقا كان يوافق السادات من كل قلبه وعقله على هذه القرارات وكان شايف فعلا أنها قرارات حكيمة رائعة لصالح الوطن والمواطنين ولا جاء فى باله أى حاجة من الكلام الفارغ بتاع الديمقراطية والمعارضة المدنية وحرية الرأى والتعبير، (رأى إيه وهو فيه رأى غير رأى الرئيس!).

لهذا فالرئيس مبارك منذ اللحظة الأولى لرئاسته وبعد أن أطلق سراح المعتقلين توطيدا لحكمه وتمهيدا لعرشه، لم يفعل شيئا طيلة سنوات حكمه إلا ما يظن أنه يخدم حكمه ورئاسته واستمرار عرشه، وإذا حسبنا أكثر كلمة رددها فى

حياته الرئاسية ستتنافس كلمتان على المركز الأول، كلمة الاستمرار وكلمة الاستقرار، ومن هنا فإن القرارات الباطشة التى يتخذها نظام مبارك هذه الأيام ومعاداة القضاة والصحفيين وأساتذة الجامعات والإخوان المسلمين وجمعيات وحركات حقوق الإنسان (لا يعرف المرء وسط إجراءات البطش اليومية هل سيكون حرا أو حيا فى مقال تال أم لا؟ كله على الله)، هى تعبير عن قناعة مبارك القوية والعميقة بأن المعارضة يجب ألا تصل إلى حد مواجهة قراراته ورغباته وأن حدود المعارضة هى استرضاؤه والالتماس له والاستنجاد به، أما أن يكون هو بمنصبه الرئاسى موضعا للنقد وللهجوم السياسى والمعارضة فهو ما لا تحتمله قائمة المسموحات عند الرئيس وهو قد قارب الثمانين من العمر وجلس على مقعد الرئاسة قرابة ربع قرن وباتت قناعته الأكيدة أن أحدا لا يعرف مصلحة البلد سواه ومثله، وأن من يعارض مبارك فإنه يعارض مصر شخصيا وأن من يطالب برحيل مبارك عن الحكم إنما يريد الفوضى والانهيار لمصر (كأن مصر تقف على فرد حتى لو كان عبدالناصر أو السادات أو مبارك) وبعد خمس وعشرين عاما من تنزيه الرئيس عن الخطأ والسهو البشرى وبعد ربع قرن من وضعه فى مصاف الأولياء والأنبياء التى لا يسألها ويسائلها أحد وبعد تحويل الرئيس (بمنصبه) إلى رمز مقدس للدولة لا يجوز المساس به عكس أى دولة ديمقراطية فى الوجود الإنسانى، ها هى قوى وطنية تتعامل مع مبارك كما تتعامل الشعوب مع رئيس دولتها، تعارضه وتحاسبه وتحمله المسئولية مباشرة من غير طقوس العبادة الفرعونية ولا خدم وخصيان المماليك الذين يحولون الرئيس من منصب إلى عرش، من بشر إلى إله، من مواطن إلى رمز، وهذا ما يفسر الضرب المتتالى (والعصبى والعشوائى) من النظام الذى يبدو بطله حبيب العادلى كما كان بطله النبوى إسماعيل تماما، وحين تسمع كلاما من نوع أين عقلاء النظام لإطفاء هذا الحريق الذى يشعله النظام نفسه توقن فورا أنه لم يكن هناك أساسا عقلاء للنظام فلم يكن هناك أصلا تحدٍ للنظام يستحق وعيا وعقلا، فقادت هذا النظام مجموعات الولاء والسمع والطاعة وتمكنوا بالقمع الأمنى الشرس من تخفيض مستوى الإرهاب لفترة حتى عاد من

جديد، لكن عندما ظهر التحدى السياسى وبدت المعارضة الحقيقية والامتحان الفعلى للنظام ظهر فراغه من العقل والرشادة وبانت شيخوخة الحكم وبوليسيته فى مواجهة صرفة بين الاستبداد والحرية، بين نهم الاستمرار وصيحة كفاية، بين وزير العدل والعدل، بين جمود الحكم وحركة الشارع، فلجأ مبارك فورا إلى التراث الذى يعرفه وهو اقبض، اعتقل، احتجز، اتهم، حقق، احبس، دخّل السجن، اقفل، ارفت، افصل، صادر، حاصر، اضرب، دغدغ، لم، كما كنت، اسحب كل الوعود (وهى كانت وهمية أساسا وتجميلية وتخديرية) بإلغاء قانون الطوارئ، ويخرج الحزب الوطنى ورجاله فى سابقة سوف تسجل فى التاريخ دليلا مذهلا على الحضيض السياسى حين يهتفون عاش قانون الطوارئ، أو حين يتهم قادة الحزب الوطنى خصومهم بأنهم يريدون الوصول للحكم، وكأن الوصول للحكم جريمة، كأن بقاء هذا الحزب المزور جاثما على قلب مصر قدر سرمدى أبدى، وهو ما يؤكد مرة أخرى للواهم أو المتوهم أنه لا أمل فى هذا الحكم فهو لن يصلح ولن يتغير ولن يغير وأن الاستبداد يجرى فى عروق هذا النظام مجرى الدم فى العروق (مع الاعتراف بالشك فى وجود دم أصلا) جاء قانون الطوارئ ليكشف الجميع، أمانة السياسات بوعودها الكذوبة، جمال مبارك بادعاءات الإصلاح المزعومة، نظافة نظيف من السياسة والديمقراطية، وطاقم مسح بلاط الرئاسة سواء فى البرلمان أو فى الوزارة، كل هؤلاء تشاركوا فى العدوان على الشعب وعلى الحرية باستمرار قانون الطوارئ!

الرئيس مبارك على قناعة راسخة وهو رئيس من الصعب أن يغير قناعته، أنه لم يصنع هذا الاستمرار لرئاسته ولا هذا الاستقرار الذى يظنه إلا قانون الطوارئ، فلا شك أن الرئيس مبارك هو رئيس الطوارئ، لم يعش مبارك على مقعد الرئاسة يوما ولم يحكم مصر ساعة واحدة مجرد ستين دقيقة من غير قانون الطوارئ، لم يحكم مبارك مصر إلا تحت حماية قانون استثنائى موضوع لأيام الكوارث ولحظات المصائب وأوقات الأزمات فكأن ربع قرن من حكم هذا النظام لم تخل من كوارث ومصائب وأزمات (حكم هذا النظام نفسه كارثة واستمراره مصيبة وتغييره أزمة)!

بجدارة شديدة يصبح مبارك ربما الرئيس الوحيد فى الكون الذى يحكم بلدا بقانون طوارئ كل هذا العمر، كل هذا الزمن، كأن حكم مبارك لا يمكن أن يحيا طبيعيا أبدا ولا قدرة عنده على الاستمرار بدون مثل هذه القوانين، ولا يمكنه أن يبقى على عرشه ومقعد رئاسته وولايته إلا بقانون يمنع الحرية ويقيد المعارضة ويصادر الرأى ويزج بالآلاف للسجون والمعتقلات ويسحل الشبان وينتهك الشابات فى المظاهرات ويقمع القضاة ويحرم أساتذة الجامعات من حرياتهم ويمنع المهندسين عن نقابتهم ويشل نقابات العمال بمنافقيه ويلغى الانتخابات على مناصب العمداء والعمد ويزور الانتخابات ويعذب المعارضين ويكمم الأفواه ويخنق المحترمين ويهدد الصحف الحرة ويتنصت على المكالمات الهاتفية وينتهك الخصوصية ويصور غرف النوم ويلفق التهم (للمختلين وللعقلاء) ويصطنع الأشرطة والأسطوانات المتلصصة ويسرق القطاع العام ويرشو ويرتشى ويحمى منتهكى الأعراض ومعذبى السجناء، ويحول مؤسسات الصحافة الحكومية والتليفزيون إلى دور نفاق وتضليل ويرتع منافقوه فى الفساد والإفساد!

ويبدو واضحا استمرار قانون الطوارئ مع رئيس وحزب الطوارئ الحاكم متمشيا تماما مع طريقة الحكم الاستبدادى الفردى الفرعونى الذى يحكم فيه حاكم لا حسيب عليه ولا رقيب، منفردا بحكم بلد للأبد!

تبدو إذن المواجهة محتومة بين حكم طوارئ وشعب طوارق!

نعم إذا كان مبارك يحكم مصر فإن لمصر رأيا، وإن لمصر شعبا، وإذا كان نظام مبارك ظل لطول البقاء وامتداد العمر فى الحكم يظن أن مصر خانعة خاضعة وأنها محكومة بالطوارئ فهى تنهض من رقدتها بالطوارق كذلك، وما أدراك ما الطارق؟ الطارق هو المحذر المنذر الموقظ المفاجئ المنبه.

وأكثر طارق لمصر هو اكتشافها أنها بلد منهوب مظلوم مسروق مستغل ومغلول ومرمى فى قاع دول العالم فى الاقتصاد والتنمية، منزوع عنها حريتها وديمقراطيتها، وتولى أمرها إما فاسد أو جاهل، وطوارق هذه الأمة هم قضاتها وأحرارها من المثقفين والمعارضين الجدد!

هى طوارق جديدة للشعب تنبه وتوقظ وتحرك وتحفز، طوارق فى مواجهة الطوارئ!

رئيسنا الطيار وبلدنا الطائرة!

قريبا جدا سوف يقول الرئيس مبارك عن معارض له هذه الجملة بنصها وحرفها سيقول: أهو مرمى فى السجن زى الكلب!

التعبير نفسه هو الذى استخدمه الرئيس الراحل أنور السادات قبل شهور من رحيله فى وصف أحد معارضيه الذى سجنه مع آلاف غيره وقتها، نعم فى لحظة معينة يصبح الرئيس المصرى عند هذه الدرجة من الفرعونية والعظمة، وهذه اللحظة بدت أشد ما تكون وضوحا فى حوار الرئيس مبارك مع قناة العربية (النص المنشور فى جميع الصحف المصرية معدل ومتظبط ومحذوف منه الكثير من الموجود فى الحوار الأصلى)، حتى لو كنت قادما من المريخ فلا يمكن أن تخطئ وأنت تتابع هذا الحوار فى معرفة أن هذا الرئيس الذى يتكلم، يجلس على مقعده منذ ستة وعشرين عاما، سماته وصفاته، ألفاظه وإيماءاته وابتساماته وأداءاته، كلها تشى بأن هذا المتكلم رئيس لدولة فى العالم الثالث يحكم (نائبا ورئيسا) منذ ثلث قرن، إزاى.. أقولك إزاي؟

كان الرئيس مبارك طيلة الحوار على قدر هائل من الشعور بالاستخفاف بأية مشكلة أو أزمة سواء داخلية محلية أو خارجية، استخف الرئيس بكل شيء بدءا من علاقته الحميمة بالأمريكان والبيت الأبيض واستخدم تعبيرا يوجه فى نقده مباشرة ونقد زياراته السنوية للعاصمة الأمريكية حيث قال: يعنى لازم أجى لأمريكا! وهو أمر ليس جديدا على الرئيس فقط ولكنه كذلك متوقع جدا، فحالة التحسب والتدبر فى التصريحات والكلمات والأوصاف لن تكون مثلما كان الرئيس بعد خمسة أعوام أو حتى عشرة من رئاسته، بل كلما مضت سنوات الحكم ممتدة والبقاء على المقعد أبديا فللرئيس أن يقول بحريته ويتصرف من وحى إلهام اللحظة ومزاج

الساعة،كأن الرئيس يقول: إن مصر ـ تحت رئاسته لم يعد يهمها شيء وإن أحدا ـ مهما قدر ـ لا يقدر على مصر مبارك!

تجد روحا من التأفف والتعالى واللامبالاة عند سماع سؤال نقدى يتم توجيهه له، فما بالك لو كان ما يوجه له معارضة وهجوما واتهاما؟ الاستخفاف نفسه كان فى الحديث عن ملايين من السودانيين المسلمين الذين قتلهم مسلمون عرب آخرون فى دارفور، كأن كلام مبارك وحواره ليس عن دماء بريئة مراقة من ملايين المسلمين، لم يظهر الرئيس تعاطفه مع هؤلاء الضحايا أساسا، لم يقم بإدانة ما جرى، ولا أى شيء، ما قاله كان استخفافاً بالكارثة وتخفيفاً من المأساة وتشكيكاً فى كل الحقائق طالما لا يرضى عنها ولا ترضيه، ذات الاستخفاف بالشيعة فى العراق ودول الخليج فقد اتهم عبر كلام كثير وإجابات متعددة ملايين الشيعة فى العراق والكويت ودول الخليج بل فى العالم كله بالعمالة والولاء لإيران، وهو ما سبب تقريبا أزمة عربية عميقة استخف بها النظام بعد ذلك، وأتحدى أن شخصا فى الرئاسة أو المحيطين بمبارك جرؤ أن يقول له: إنها تصريحات خاطئة ولم تكن موفقة ولابد من الاعتذار عنها، بل ستجد كثيرا من منافقى الدولة يخرجون بكتابات وتصريحات تنتصر لكلام مبارك كى لا يبدو أن الرجل يمكن أن يقول ما لا يصح أن يقال وما لا صحة مما قيل فيه، هذه هى علامات الخلود الطويل على مقعد حكم بلد، فالرئيس مبارك تعود على سماع وقراءة المنافقين الذين لا يكفون عن الحديث عن عبقريته وحكمته وعظمته ولم يختلف معه أحد ولم يعارضه معارض على مدى كل سنين حكمه بل كان العزف الدائم على تقديس الرئيس وتنزيهه عن أى خطأ والتعامل معه كأنه ليس كائنا بشريا ومواطنا بدرجة رئيس جمهورية بل باعتباره ولياً أو نصف نبى، ومن يبقى ستة وعشرين عاما فى الحكم بلا معارضة ولا مناهدة ولا مناقشة بل السمع والطاعة والتلبية والإجابة والتنزيه والتقديس، من الطبيعى إذن أن يشعر بما أدركه الجميع فى حواره، واضحا ناصعا ساطعا، الرئيس يشعر أنه يملك الحقيقة المطلقة التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، كل ما يقوله هو الحقيقة وكل ما يقوله الآخرون كذب وافتراء، ثم

إنه لا يقر بخطأ ولا يعترف بأى خطأ أو مشكلة ولا يرى أى شيء فعله سلبيا، الرئيس يبدو بعد ثلث قرن فى الحكم -منها ربع قرن رئيسا- أنه حاكم مطلق لبلد اسمه مصر، فكلما أجاب عن سؤال حول مصر يتحدث كأن كل شيء بيده وكل أمر بأمره وهذا صحيح فعلا، فقد وصلت مصر إلى حد أنه مفيش حد يملك من أمر مصر شيئا إلا الرئيس وحده، ولا فيه مؤسسة ولا مجلس ولا مستشارين ولا رأى عام ولا أى حاجة تملك أن تغير رأى الرئيس أو قراره أو موقفه، فالرئيس لا يرى أحدا غيره فى صناعة القرار، يقول (تعودت طول حياتى اللى يبقى قائد طيارة يبقى طائر لوحده وعليه يأخذ القرار، يا إما قرار ينفذ مهمة أو قرار قد يودى بحياته، فما يخافش. إذا الطيار ارتجف مش رح ينفذ المهمة ومش رح يطلع فى الطيارة، رح يخاف ويقعد على الأرض، فلازم الطيار يكون جريئاً جداً، ويقدر يقدّر الموقف ويقدر يأخذ القرار فى الوقت المناسب.) وأضاف (أن الطبع مشى معايا كرئيس)، وأنا أندهش من كلام الطيار حسنى مبارك فهو يعلم ما نعلمه جميعا أن الطيار لا يتخذ قرارا فى مسار الطائرة بدون علم وتعليمات برج المراقبة ومركز الملاحة وغرفة العمليات الأرضية، ونحن نسأل من هؤلاء عند الرئيس مبارك الآن؟ وهل يخبرونه بما يعظمه ويؤلهه أم بالحقيقة كما هى فى الأحوال الجوية (العالمية) والأرضية (المحلية)، أم أن الطيار حسنى مبارك بعد ستة وعشرين عاما من رئاسته لمصر أصبح هو الطيار والمراقبين الجويين وغرفة العمليات والطائرة والركاب وكل شيء؟ فضلا عن جوهر خلاف كبير وضخم سيدى الرئيس بين قيادة طائرة حربية فى قتال أو تدريب بفريق محدود من جنود تحت إمرتك أو وحدك منفردا وبين قيادة طائرة مدنية فيها مئات المواطنين الذين ركبوا الطائرة ولم يضعوا فى حساباتهم عوامل الموت والشهادة، ولا هم فى حرب أو قتال، بل حياة مدنية يريدون الذهاب إلى أهاليهم وأعمالهم وأوطانهم على متن طائرة آمنة يقودها طيار مسئول مع طاقم محترم تحت إشراف مراقبة جوية وقيادة أرضية تستطيع أن تحاسب وتسأل وتعاقب الطيار، لا أكاد أصدق أن الطيار من وجهة نظر مبارك يطلع بالطائرة ويعمل بها ما بداله، من يقول هذا وفى أى علم؟! خلاص فهمنا أن

الطيار شجاع وحاسم ماشى، طيب، وما علاقة هذا بأن يسمع الكلام ويبنى حركته على مؤسسة تعمل وتخطط وترى الخريطة كاملة، ثم أنا على علمى المحدود بالطيران فهناك طيار آلى ممكن أن تضبطه على تعليمات وتتركه يقود الطائرة بمفرده وأظن أن الرئيس مبارك قد اعتمد نظرية الطيار الآلى على قيادة مصر، ضبط البلد على كده منذ ستة وعشرين سنة وساب الطيار الآلى يطيرها، وهذا ما يفصح عن سر الجمود الذى نحياه ويفضح التصلب الذى نعيشه، بلد يحكمها فرد لا يواجهه أحد ولا يمس قراراته وآراءه شخص، بلد السمع والطاعة والعبادة، فى كل مكان يذهب له مبارك فالجميع يهتف بأسمه ويهلل بنفاقه، وتجد رجالا كبارا ببذل وجلاليب فى عمر عمك أو خالك يقفون ويهتفون بأصوات مبحوحة بالروح والدم يا ريس ويقبلون يده ويفتخرون بذلك ويرصون قصائد المدح والتقديس ويجلجل شباب وطلبة فى حضور الرئيس بكلمات تقطر نفاقا وتأليها وتمجيدا، يحفظونها عن ظهر قلب كتبها لهم أساتذة منافقون وأفاقون يعلمون تلاميذهم الرياء والنفاق، ويتمتم كل وزير ومحافظ أمام الرئيس بكلمات من نوع بفضل تعليمات سيادتك وتوجيهات عظمتك وحكمتك وقدرتك وكل هذا القاموس المهين للضمير، من هنا أصبح الرئيس الذى لا يخطئ والزعيم الذى لا يتراجع والقائد الذى لا يسأله أحد، تضاءل أمامه الشعب وتقزم فى مواجهته الرجال وصار الأول فى كل شيء والواحد فى كل أمر والفرد المفرد فى كل حاجة، فكان طبيعيا والحال هكذا أن يعد مبارك بوعد فيلهجون بشكره ثم يتراجع عن وعده فيسبحون بحمده، وينتشر الفساد فى البلاد والعباد فيتحدثون عن حكمته ويعم خراب البطالة والفقر والفاقة فيمدحون زعامته وتنحدر مصر اقتصاديا فيركعون لقدرته، يدخل الألوف المعتقلات ويزور جهاز الأمن الانتخابات فيمجدون ديمقراطيته، يفقد العالم العربى كل ذرة من كبريائه فيروجون لزعامته ووساطته، أصبح النفاق منهج حكم وأسلوب إدارة وروح نظام وسيرة وطن، وها هو حوار مبارك يكشف عما لا مشقة فى اكتشافه أن هذا الرئيس حاكم مطلق لا رأى لنا إلا ما يرى، وأنه كما قلنا ونقول لا يغير ولن يتغير، لكن إلى متى تظل مصر تسمع وتطيع ويقودها فتنقاد؟ متى يخرج المصريون

ليقولوا لمبارك ما قاله مواطن أمريكى للرئيس الأمريكى جورج بوش فى وجهه وأمام قادته وأركان حكمه وفى حضور عشرات القنوات والمحطات التليفزيونية وعلى مسمع من الدنيا كلها؟ كان بوش يدلى بخطابه يوم الثلاثاء ٤ أبريل ٢٠٠٦ أمام أكثر من ٩٠٠ مستمع من الطلاب الجامعيين غالبيتهم من المتعاطفين معه فى ولاية نورث كارولاينا. ولكن بينما وقف على المسرح شرع أحد السائلين فى شن هجوم لاذع على بوش، وقال الرجل صاحب الخمسين عاما بهدوء غير محتم ولا مبال لوجود الصحفيين والمصورين قال لبوش: (لم أشعر فى حياتى بالخجل والخوف الذى أشعر به اليوم من قيادتى فى واشنطن بما فيها الرئاسة ومجلس الشيوخ) لكن لم يتمكن الرجل من إكمال جملته بسبب ارتفاع هتافات الاحتجاج من الجمهور، فتدخل بوش نفسه ليقول (لا، انتظروا لحظة، دعوه يتكلم) وتابع الرجل (يهيأ لى أنه بالرغم من خطابك فإن ذلك التعاطف والمنطق سقطا خلال ولايتك وآمل أن تتحلى من وقت لآخر بالتواضع والفضيلة لكى تخجل من نفسك فى أعماقك)، ساعتها لم يأت أمن حبيب العادلى وسحل الرجل واللى خلفوه وأهل اللى جابوا أهله، ولم يقطع تليفزيون الفقى المنافق (التليفزيون وليس الفقى) الإرسال ولم يخرج بلطجية وضربوا الرجل ولا خرج محووسون وشتموه كالكلاب السعرانة ولاشيء، قال الرجل كلمته المعارضة الرائعة فى وجه جورج بوش الذى رد بجملة واحدة (واضح أننى لست الشخص المفضل لديك) وخلاص كمل بوش خطابه وروح المواطن بيته وسمع العالم وشهد!

قلت لصديقى وأنا أروى له هذه الحادثة مبهورا: تخيل فعلا أن قام مواطن فى حفل أو محفل وقال لرئيسه اخجل من نفسك سيدى الرئيس تحلّ بالتواضع والفضيلة والصدق واعترف بما فعله نظامك فينا ويكفينا ما حكمته فينا، سيدى الرئيس اذهب واسترح واترك هذا الوطن حرا من حزبك وحكمك ونفوذ ابنك!

رد صديقى منه لله وقال مندهشا: أما مواطن حمار صحيح، بوش عنده بنت مش ولد!

وطن المختل!

هى كارثة حين يصبح أعظم انتصار للمسلمين فى مصر أن تعلن مراهقة مسيحية إسلامها!!

يهلل الكثيرون لإسلام فتاة مراهقة أو سيدة تسعى للطلاق من زوجها، ويتحول الأمر إلى نصرة قوية وفرحة عظيمة كأننا غزونا أوروبا بعلومنا وصادراتنا، كأننا اخترعنا دواء للفيروس سى أو اكتشفنا معادلة فيزيقا سوف تغير شكل العلم والعالم، كأننا انتصرنا على إسرائيل، نعم يقاتل شباب متحمس من أجل هذه المرأة أو الفتاة كأنهم فى غزوة مع الرسول صلى الله عليه وسلم ويبشرنا إعلام طائفى مقيت وتافه بهذه الأخبار كل يوم معبرا عن مشاعر الفرحة ومغذيا مشاعر الشماتة، أو تبقى كارثة لما تكون حركة المسلمين ومظاهراتهم ليست من أجل رفع ظلم دولة ولا محاسبة فسدة ومسئولين حرامية كبار يسرقون بلدنا بل تهتز قرية وتتحرك بلد بكاملها لأن المسيحيين فكروا أو هموا وشرعوا فى بناء غرفة فى كنيسة أو وضع جرس على سور كأن الإسلام ساعتها فى خطر والأمة الإسلامية تتعرض لكارثة فينبرى الآلاف لهدم الكنيسة أو ضرب المسيحيين والاعتداء عليهم وكأن بناء كنيسة هزيمة للإسلام وانتصار للمسيحية مما يستدعى جهادا فى سبيل الله!

تلاقى مواطنا مسلما عاطلا مش لاقى ياكل وبدلا من أن يواجه دولة تحرمه من حقوقه وبدلا من مجابهة حكومة فاشلة وظالمة تنهبه وتسرقه يركز كل كراهيته وعدوانه على جاره المسيحى أو الواد فلتس ابن القسيس اللى على أول الشارع، وتجد موظفا مرتشيا من رأسه حتى قدميه ومع ذلك كل ما يشغله هو إثبات أن الأقباط كفرة وحيروحوا النار، بل ترى بنتا مايعة دلوعة ولا عمرها ركعت ركعة

لكنها لا تطيق أن تأكل فى بيت مسيحى أو تلاحظ ضابطا يعذب المعتقلين ويشوى بالكهرباء أعضاء الجماعات الإسلامية ويعتدى على الإخوان المسلمين ويقتل مساجين داخل المعتقلات ومع ذلك يتحدث عن المسيحيين الكفرة والأقباط اللى يستاهلوا الحرق،(حكى لى أحد المعتقلين السابقين أن ضابط أمن الدولة كان يعذبهم تعذيبا وضيعا وحقيرا وحين يحين أذان الظهر يصرخ فيه قوم يا ابن الكلب صلى بينا إمام، فكان يصلى المسجون والضابط يصلى وراءه مع العساكر!!) تجد مسئولا فاسدا ومستحمى فى بحر رشوة وسرقة ونهب ومع ذلك ينتقد ويهاجم المسيحيين الذين اغتنوا وأثروا، أو ترى بلطجيا أكثر ما يعرفه عن الدين هو سبه فى الخناقات ومع ذلك رأيه أن أصوات المسيحيين علت فى البلد ولازم يقفوا عند حدهم! وفى المدارس وبين طلبة الجامعات والمصالح الحكومية والأندية وتجمعات النخب ومحطات الأتوبيس ومحطات التليفزيون ودور العبادة ودور الصحف وفى أجهزة الدولة الحساسة والأجهزة اللى معندهاش إحساس، تجد هذا المناخ الطائفى العدائى ضد الأقباط، كذلك الأقباط تجمعت داخلهم مشاعر المقت والرفض والإحساس بالاضطهاد فبادلوا الكره كرها والعداء عداء والتعصب تعصبا!

هو فيه إيه؟

فيه فتنة طائفية تسود مصر تعبر عن نفسها بين لحظة وأخرى، وبموقف وآخر، وبمصيبة والتانية، بحدث أو حادثة تعبر عن عنف وكراهية دموية موجودة وكامنة تظهر وتختفى لكنها حاضرة تماما!

هناك مناخ طائفى قائم على كراهية متصاعدة ومتنامية بين المسلمين والمسيحيين فى مصر وتوتر محموم وصدام مقموع يبرز فى توهجات مفاجئة ويكمن معظم الوقت تحت الجلد وفى عمق العقل والقلب يزداد اشتعالا ويتغذى بثقافة كراهية وعدوانية تبث وتذاع كل يوم فى الجوامع والكنائس والتليفزيون والصحف!

لا هى قلة مندسة ولا أيد أجنبية ولا متعصبون على الجانبين ولا أطراف تشعل الفتنة، مثل هذه التحليلات النعامية (نسبة إلى النعام الذى يدفن رأسه

فى الرمل حتى لا يرى الحقيقة) هى سر امتداد هذه الفتنة وانتفاخ هذا المناخ الطائفى الذى نعيشه (أو نموته) هذه الأيام، المظاهر يومية وتفصيلية وواضحة وها هى حوادث القتل والتحريق والتوليع تنتقل من الصعيد إلى بحرى إلى الإسكندرية وفى أى وقت ولأى سبب يمكن أن تنفجر حادثة فتنة طائفية سواء من أجل امرأة أو من أجل دورة مياه أو كنيسة قصاد جامع ولا واد مسلم طرى أحب بنتا مسيحية مايصة! تنزف دماء ويموت أبرياء من أجل صغائر ومساخر مثل هذه وأكثر تفاهة وأشد هيافة!

لماذا تحول مجتمعنا إلى هذا المجتمع الطائفى الكاره والكريه ؟

لماذا أصبح اللى فى القلب فى القلب يا كنيسة ؟

١- أظن أن هناك حالة من الهزيمة العامة والشخصية تملأ نفوس المصريين، مجتمع محزوم أمام العالم الغربى الذى يبدو متفوقا فى كل شيء ومالكا لكل شيء، فكيف يشعر المجتمع المصرى انه أحسن وأجدع، إزاى ومن منين وعلى مين؟ تماما كما هزيمة المواطن فى وجه الحكومة التى تسلبه كل شيء وتقمعه وتفلسه وهو لا يقدر عليها ولا على مقاومتها فيستسلم لهزيمته المادية والحضارية لكن لابد له من الشعور بالكرامة والتفوق، وكما يحدث حين يهزأ المدير الموظف عنده ويطلع عينه فيذهب الموظف ويطلع عين مراته ويضربها حتى يشعر بقوته فما يكون من الزوجة إلا تقطيع العيال ضربا حتى تشعر هى الأخرى بتفوقها وقوتها فضلا عن إنزال العقاب بأحد احتجاجا على وضعها وضعفها، بنفس الدائرة الجهنمية تلك يقوم المجتمع المصرى المهزوم بتطليع روح الأقباط عدوانا وكراهية حتى يشعر أنه أفضل من آخرين، فإذا كنا مذلولين ولا قيمة لنا فعلى الأقل نحن أحسن من الأقباط اللى فيهم وفيهم، وبدلا من مواجهة واقعى وضعفى استقوى على الضعيف وافترى عليه وعلى اللى خلفوه بحثا عن نصر وتفوق يعيد لى بعض الكبرياء.

٢- أظن أن سيادة نمط من التدين المغشوش والمنقوص فى الروح المصرية مسئول هو الآخر عن بث الكراهية والعدوان بين المسلمين والأقباط فالتدين السائد تدين لا يأخذ من الدين سوى الشكليات والقشور من المصحف الذهبى

فى السلسلة على الصدر إلى الصليب فى ذات السلسلة، الدين لدى قطاع مذهل فى ضخامته فى مصر هو مجرد طقوس وشكليات وتمائم وتمتمات ومن ثم يعتمد التدين الشكلى على إظهار التدين وليس ممارسته فليس مهما الخشوع فى الصلاة بقدر زبيبة الصلاة وليس مهما الصوم عن الفسوق والمنكرات بقدر الصوم يومى الإثنين والخميس وليس ضروريا العمل بالقيم النبوية بقدر ادعاء محبة النبى بالصلاة عليه بين كل جملة وجملة، التدين المنقوص، تدين الشكل، يستهدف دائما مواجهة الشكل المنافس والمضاد، ومن ثم يحتم التدين القشرى على المتدين أن يكره رؤية الصليب، أن ينزعج من ملابس قسيس، أن يرفض بناء كنيسة فى الحى أو الشارع بتاعه أو يجمعوا مئات الألوف من الجنيهات لبناء جامع فى مواجهة مبنى كنيسة قديم! مبنى أمام مبنى، شكل أمام شكل!

٣- أظن (لا أنا متأكد من هذه!) أن النفاق العام فى مصر واحد من ثوابت المناخ الطائفى ومسبب هائل من مسببات ومفجرات الفتنة الطائفية، والنفاق فى صورته الجلية أن يكون الشخص فاسدا ومرتشيا ولكى يغطى فساده يبالغ فى إظهار تقواه وإيمانه ولكى يعوض موبقات النهب والرشوة والسرقة فهو يفرط فى الزكاة والتصدق أو التشدد والمغالاة فى إظهار التدين ومنه النقمة على المسيحيين والطعن فى الأقباط، وقد علمتنا التجارب أن أكثر المتحدثين عن الشرف هم اللصوص وأكثر المسبحين والمصلين إظهارا لصلاتهم وتسبيحهم هم النصابون وأكثر الناس تصدقا معلنا هم تجار المخدرات والراقصات وأكثر المساجين فى تهم الرشاوى والنهب يحملون لقب الحاج فلان! النفاق بالتدين الظاهر المتحمس ضد المسيحيين يغطى أخطاء وجرائم بحثاً عن مغفرة محتملة لإثم مؤكد، فتجد كثيرين مستعدين للتبرع بشقة من أجل بنت مسيحية أسلمت وفجأة يجد عاطل مسيحى وظيفة محترمة حين يعلن إسلامه! وهكذا.

٤- أظن أن الجهل يلعب دورا تأسيسيا فى ظاهرة الفتنة الطائفية فأغلب الناس فى مصر تأخذ ثقافتها الدينية عن طرق الأنف والأذن والحنجرة وليس عن طريقة القراءة والبحث، سمعيا وصوتيا عن طريق وعاظ وخطباء الجمعة وأغلبهم

جهلة فى الحقيقة، أو عن طريق برامج متناثرة فى تليفزيون أو إذاعة وشرائط، أو ثقافة متداولة شفويا بدس الأنف فى موضوعات دينية غير دقيقة تنتقل من شخص للتانى على طريقة سمعت ومرة قال شيخ وقالوا لى ومثل هذه الأفكار السماعية التى لا تستند على علم ولا فقه ولا تاريخ، فيفتقد الناس الأصول من المراجع والكتب ويصبحون عبيدا لفكرة واحدة ونص مبتسر مبسط حتى التسطح ولا يبذل الكثيرون من أبناء هذا الوطن عموما أى جهد فى المعرفة والتثقيف الدينى الحقيقى وهم أسرى ما يسمعون وما يحبون أن يسمعوا ويفهموا ومن السهل بالجهل أن تصبح متطرفا ومهووسا!

٥- أظن أن الفراغ السياسى الذى يعيشه المصريون واحد من أعمدة الخيبة الطائفية التى نتعايش معها تلك الأيام، فلا توجد حياة سياسية فى مصر وغير مسموح للناس بممارسة السياسة وحكمنا فرعونى طاغوتى طغيانى وحكومتنا قامعة قاهرة فاسدة وأحزابنا تافهة فارغة مسنة عجوز ومخرفة والجامعة محرمة على نشاط الطلبة السياسى والشباب ممنوع من انتخابات حرة شريفة فى المدارس أو الجامعات وكل شيء فى مصر محتكر للرئيس أو ابن الرئيس أو حزب الرئيس وإبنه، والانتخابات السياسية مزورة ومزيفة ولا أمل فى التغيير، فيلجأ الناس الى الجامع والكنيسة، وينتقلون هنا من الكلام فى السياسة وهى شيء نسبى دنيوى مسموح فيه بل واجب الخلاف والجدل إلى الكلام عن الدين وهو الثابت المقدس، ومن منافسة بين حزب وفكرة سياسية إلى منافسة بين دين وآخر، من هو الأحسن والأجدع ومن فينا سيفوز ويدخل الجنة ومن يخسر ويدخل النار؟، يدخل الناس الجوامع والكنائس من باب البحث عن الشبع الروحى والامتلاء النفسى ثم تتطور الأمور أو تتدهور من التماسك النفسى إلى التمسك المتعصب إلى التشدد إلى التطرف إلى الكراهية والعدوان.

٦- أظن أن الإعلام فى مصر طائفى والتعليم متطرف لا يتسم بسماحة ولا انفتاح أفق وأجهزة الأمن فى مصر متعصبة ومهووسة ومن ثم تسود فى مصر ثقافة كراهية ضد الآخر المختلف عنا سواء الغرب الخارجى أو المصرى على غير ديانتها

أو المسلم على غير مذهبنا، فكل الناس كفرة وكلاب ما عدانا نحن، الكل سواء الأقباط المصريين والأمريكان الصليبيين والأوروبيين المنحلين والشيعة المارقين والسعوديين الوهابيين والخلايجة البدو والفلسطينيين اللى باعوا أرضهم واللبنانيين العلوج والهنود بتوع البقر واليابانيين بتوع بوذا وكله على كله مفيش أحسن منا ولا أشرف منا ولا أجدع منا ولا حد يدخل الجنة غيرنا.

من الطبيعى إذن مع كل ما نراه أن يختل مختل فالكل مختل وكل واحد فينا ماشى والكسرونة فوق رأسه!

قضاة حق عند سلطان جائر

أكثر ما أدهشنى أن يلجأ البعض لمناشدة الرئيس مبارك كى يتدخل وينهى موقف الدولة المخزى الفج والمخجل من القضاة الشرفاء الذين كشفوا عورة فساد وطن وفضحوا استبداد وتزوير دولة وضبطوا سلطة متلبسة باغتصاب إرادة الناس.

عجبت لك يا زمن!

أن يناشد البعض الرئيس للتدخل وكأن الرئيس ليس هو رئيس من أحال القضاة للتحقيق وكأن الرئيس ليس هو رئيس الدولة التى تنتقم من القضاة وكأن ما يحدث للقضاة يحدث فى بلد عاصمته القاهرة بينما الرئيس رئيس دولة عاصمتها شرم الشيخ، كيف نناشد الرئيس التدخل وهو فى حكمه ونظامه هو الذى أمر ونهى وأضحك وأبكى واعتقل وأسجن وهو الذى لا تُفعل فى مصر فاعلة إلا طبقا لتوجيهاته وبناء على تعليماته؟!

بدت قديمة وسخيفة لعبة اللجوء للرئيس من أجل أن يعفو عن قرار وزيره الذى هو فى الأصل قرار رئيسه، قديمة حكاية أن يتلقى الوزير اللوم والتوبيخ ثم نحيي الرئيس على تدخله ورفعته وعدله بينما نهاجم وزير عدله!

هذه عادتنا ولنعرف أننا لم نشترها من أحد بل ورثناها عن جدودنا وجدود آبائنا، أن نلعن الحجاج وننسى سلطانه وخليفته عبد الملك بن مروان، أن نكره الحجاج ونهاجمه وندعو عليه، ونغفل ونتجاهل ونصهين على عبد الملك بن مروان، والوزير الحجاج أو غيره هو الذى ينفذ أوامر السلطان بكل إخلاص فى القمع وبكل ولاء فى القهر وبكل حقد على المواطنين الذين يبلغ بهم الجبن أنهم يلعنون الحجاج ويبلغ بهم الغباء أنهم يشكونه للسلطان.. يا دى الخيبة!!

عموما أظن أن معركة الانتقام من القضاة ستظل ممتدة فالنظام فى مرحلة الشيخوخة لا يقوم بعمليات سياسية ولكن عمليات سيادية، لا يحب أن يظهر بمظهر الذى يحتوى ويحاور بل يلح على مظهر الذى يعاقب أو يعفو، لا يحب أن يبدو وكأنه يسمح ولكن يلح على إظهار أنه يتسامح، ونظام مبارك واضح منذ خمسة وعشرين عاما أنه لا يريد رجالة فى البلد، هو لا يسعى ولا يحتفى ولا يوافق إلا على وجود مماليك وخصيان سياسيين يحركهم كالأرجوزات ويتلاعب بهم كورق الكوتشينة، ألا يثير اندهاشك أن الحزب الوحيد الذى حياه مبارك ومدحه فى حواره الشهير مع محطة العربية هو حزب التجمع؟! وللمفارقة هو الحزب الذى حصل على مقعد واحد من بين ٤٤٤ مقعدا فى انتخابات مجلس الشعب الأخيرة وكأن نموذج احترام مبارك للمعارضين أن يفشلوا هذا الفشل الساحق الماحق العظيم!

نظام مبارك لا يريد نماذج للشرف فى البلد ولا رجالا أحرارا، ولهذا هو يعاند ويهاجم ويعارض القضاة، لأن قضاة نادى القضاة صاروا مثلا ومثالا ناصعا ساطعا رائعا باهرا على أن مصر فيها رجالة وأن البلد لم يخل أبدا من الضمير اليقظ الصاحى، حين أصبح نادى القضاة كعبة الحرية والديمقراطية (وليس نقابة الصحفيين ولا المحامين - قطعا - ولا أى حزب سياسى آخر) يحج له عشاق مصر وشبابها الباحث عن المثال والنموذج، عن قدوة وقوة، الباحث عن أنقياء مستقلين أحرار، تسير المسيرات وتتجه المظاهرات وتهتف الحناجر وتلهج القلوب للرمز، للمثل والمثال، لشيء نظيف فى ظل حكم مبارك ونظيف، لكيان محترم فى عصر يسود فيه غير المحترمين، أهم ما فى نادى القضاة وحركتهم التى حملت على جسرها أحلام وطن بالحرية والاستقلال عن حكم غاصب ومن حكم محتل للسلطة أنها حركة جاءت من باب القانون ومن جهة القانونيين ولم تأت من عالم السياسة فقد أثبت السياسيون الذين أفرزهم عصر مبارك فى الحكم والمعارضة الفشل السقيم، أخلى مبارك مصر من الرموز المحترمة التى يمكن الرهان عليها، وأفنى الرجال الذين يمكن أن يمثلوا أملا للأمة، فألقى بهم فى غياهب الجب أو

السجن أو المرض، فإذا بالقضاة يخرجون له من حيث لم يحتسب، بل من المكان والمكمن الذى ظن أنه قد أمنه وآمنه، من المنطقة التى كاد يتصورها حديقة قصره الخلفية، هنا بات ضروريا لدى هذا النظام أن يقوم بالعصف بالنموذج، الضرب بكل ما لدى النظام من غباوة وغشامة (وغشاوة) فى القضاة، واشتغل جهاز أمن الدولة بفرعيه فى لاظوغلى بوزارة الداخلية وفرع الصحافة والإعلام فى تشهير السمعة ففشل هذا السلاح فشلا مريعا فى انتخابات نادى قضاة القاهرة والإسكندرية والمنصورة وفاز قضاة مصر العظام النبلاء، فامتطوا السلاح الثانى، سلاح الطابور الخامس ثم العقاب والتأديب، المستهدف هنا أن يؤدبوهم (كما سمعوا الأمر ربما بالنص من الباب العالى). تأديب القضاة هو المطلوب لسببين، الأول وليس الثانى هو ضرب النموذج وإجهاض أمل الناس فلا يصح أن يكون لدى المواطنين أمل فى أن أحدا يمكن أن يكسب معركة ضد فساد واستبداد نظام مبارك، لازم الناس تفهم أنه ممكن للرئيس مبارك أن يتنازل، ويتواضع، ويقبل بمطالب القضاة لكن مش بلوى الدراع (يفهمون مطالب الأمة على أنها لوى دراع، شايف الديمقراطية المتغلغلة فى عمق أعماق النظام، شفتم حكمة الرئيس التى يحدثونك عنها) لكن أن يطالب القضاة اليوم بحقوقهم فنعطيها لهم كده، يا سلام نلعب احنا حكشة بقى، النهارده القضاة وبكره الصحفيين وبعده المحامين والأطباء وإيشى أحزاب وجمعيات، كل واحد يطلب حقه نعطيه له دى متبقاش دولة دى تبقى فوضى، ومنبقاش حكام الشعب نبقى خدامه (وهو ما لا يفهم نظام مبارك بكل رموزه أنه هدف أى حاكم أن يكون فى خدمة الشعب كما نص الدستور - لعل أحدا لايزال يتذكره - أما أن يكون البلد كله فى خدمة السيد الرئيس فهذا أمر الطغاة فقط!

ثم يأتى السبب الثانى (وليس الأول) لتأديب القضاة وهو خدمة خدام النظام فلا يمكن أن يظهر النظام أمام رجاله وعبيده وخدامه وقد كافأ معارضيه وأرضى منتقديه على حساب الخدم والحشم الذين أخلصوا له إخلاص مرجانة لعلى بابا!

فلا صحة إذن لأن الرئيس لا يعرف ما يجرى للقضاة ولا صحة إطلاقا أنه يمكن

أن يتدخل فهو متدخل من الأصل وبالفصل، والذى لا يريد من باب الأدب المزعوم أو الخوف المعروف أو التردد المفهوم أن يقول إن خصومة القضاة مع الرئيس مباشرة، إنما يشكك فى أن مبارك يمتلك مقاليد الأمور كلها، فقد سألنى صديق صادقا:

ـ من يحكم مصر الآن؟

فرددت عليه رد صديق على صديق صادق:

ـ ويحك ثكلتك أمك، ومن يحكمها غير الرئيس مبارك؟! خسئت وخسئ سؤالك!

الحقيقة أن المتأمل لما يجرى فى مصر الآن لا يجد أى مشقة فى إدراك أن هذا البلد يحكمه فعلا مبارك، رئيس منذ خمسة وعشرين عاما وصل إلى الثامنة والسبعين من عمره يجلس فى مقعد نائب الرئيس والرئيس منذ ثلاثين عاما، رئيس يحكم منفردا وفردا وبصلاحيات إلهية وأحلامه أوامر ولا يوجد رجل واحد حوله يستطيع أن يرد له كلمة أو يناقشه أو يحاوره فى موقف ولا قرار، اختارهم مبارك منذ سنوات طويلة بعناية فائقة أن يكونوا مجرد مماليك لا يملكون سوى الطاعة والعبودية لا يناقشون ولا يفكرون سوى فى إرضائه وطاعته، مكروهون من الشعب كله لا ولاء لهم إلا لسيدهم، لا يقومون حتى بما يقوم به خادم البطل فى الأفلام المصرية حين يصبح صديقه وناصحه، تحول هؤلاء من خدام الشعب إلى خدم بلاط الرئاسة، ثم يحكم مبارك مصر بدون أن تقدر أى مؤسسة أن تقول بم أو تخالفه أو لا تنفذ تعليماته حرفيا، مجلس الشعب تحول إلى مجلس فتحى سرور، ليس مهما مناقشات ولا معارضة ولا إخوان ولا مضابط، المهم تحويل أحلام مبارك إلى أوامر، فتحى سرور ومفيد شهاب آخر من يراهن عليهما وطن كى يتقدم أو يتطور، هناك مسئولون ووزراء فى مصر أقرب ما يكونون إلى وزراء للخليفة الأموى أو العباسى، ينحنون أمام الخليفة ويكادون يركعون أمامه وأمام طلباته وأوامره، تخلو مصر من مؤسسات تحكم بل هى كلها سكرتارية لمبارك، يأمرها وينهرها ويمدحها ويزجرها، حكومة نظيف مثل أى حكومة لغير

نظيف، لا يملك وزير واحد يوحد الله أن يقول لمبارك كلمة تؤرقه أو تزعجه أو لا تضمن رد فعل هادئاً فى مواجهته، ومن ثم يتم حكم مصر بالطريقة ذاتها التى كانت تحكم بها فى عصور المماليك، يمضى السلطان ومعه مسرور السياف أو صاحب الشرطة والوزراء المحيطون به مهمتهم فقط جلب المال وتسيير الأعمال، وفرض المكوس والضرائب والزج بالمعارضين فى السجون ومراقبة خطب صلاة الجمعة!

لهذا يبدو طبيعيا تماما ما نراه على الساحة.. رئيس يحكم ويعلن فى حوار تليفزيونى أنه مرتاح قوى، وشعب محكوم يعلن بكل وضوح أنه مش مرتاح خالص!

وهذا بالضبط عنوان مصر فى تلك السنوات التى لا يعلم أحد متى تنتهى!

رئيس يحكم منفردا وفات أوان أن يسمع كلاما معارضا من تقارير مرفوعة له أو شخصيات حوله، فبعد خمسة وعشرين عاما من الحكم وسماع النفاق والمدح والتأليه والتنزيه والتهليل لحكمته ورؤيته وسياسته لن يصدق مبارك أى كلمة أخرى ولا تنفذ أى حروف نقد أو معارضة إلى مسامعه، فهو لن يصدقها ثم هو لن يطيقها وسوف تتحول إلى غضب عارم وتنكيل فورى، فأية دولة يتم حكمها بمؤسسات سياسية هادئة وجماعية التفكير ورزينة التأمل وديمقراطية القرار ما كان لها أن تتخذ كل هذه الإجراءات التصعيدية الاستبدادية فى عدة أيام ولا يمكن إلا لسياسة عنيدة ضيقة الصدر ملولة وعصبية أن تأمر بعقاب قضاة أحرار أشراف موضع تقدير واحترام العالم كله وليس الشعب المصرى فقط، سياسة لم تعد ترى العالم ولم تعد تزن الأشياء ولم تعد يهمها أحد ولم تعد تسمع أو تفكر أو تدبر، سياسة لا تتصور أن أحدا يمكن أن يراجعها أو يردعها، سياسة من يشعر بأنه يملك البلد بمن فيه ومن عليه، سياسة من يرى فى كل من حوله خدما أو رعية، سياسة الرغبة فى الانتقام والتنكيل، سياسة مرتاحة قوى لأن البلد خانع خاضع ولا تتصوره أبدا بلدا حرا وشعبا حرا، سياسة إن أنتم إلا عبيد احساناتنا وجايين تقولوا لى انتخابات مزورة واستبداد وفساد وتقليص صلاحيات، بعد ده كله يا لمامة، بعد كل ما فعلناه للبلد بعد ما أكلتكم وشربتكم وماكنتوش لاقيين

حتى المجارى، مسرور، فين مسرور السياف، هاتوا مسرور على التليفون، مسرور: فسحوهم!

لن يقبل نظام مبارك أن ينتصر القضاة وهى معركة طويلة إذن، ولن يتوقف نظام مبارك عن التصعيد ضد القضاة (وضد الجميع) وهو أمر واضح تماما أنه عصبى وعنيد لا تحكمه السياسة بقدر ما تحكمه العواطف العصبية والمنفعلة، والانتقامية والشخصية، وفى مقابل ألا يشعر الرئيس بأن أحدا يلوى ذراعه كما قال فى حواراته الكاشفة فالنظام مستعد بعناد يثير الشفقة أن يكسر رءوس وأذرع كثيرين فى هذا البلد وليس أحط من ذلك مثلا أن ترسل وزارة البلطجية برجال بلطجية الاستفتاءات والانتخابات إلى الشباب المعتصم مع قضاة مصر حول ناديهم ليضربوا هذا الشباب بالمطاوى والسنج، سنج البلطجية تماما مثل سنج القوانين التى تسنها الدولة، وهؤلاء السادة قصار القامة المهذبون الذين يدعون علما وأستذة وهم يطبخون سم القوانين ويطرزون قرارات الاستبداد يشبهون تماما البلطجية الذين يهاجمون المتظاهرين والمعتصمين والمعارضين بل البلطجية أكثر شرفا من هؤلاء، فعلى الأقل البلطجية لم يتعلموا ولم يقل لهم أحد يا دكتور ومجبرون كذلك لأكل العيش على الاستجابة لضباط المديرية فى الضرب والاعتداء على الشرفاء، أما الدكاترة والأساتذة الذين يعملون بلطجية قوانين وقرارات وتأديب وفصل ورفت فيجب أن نطمئنهم بأن مزبلة التاريخ لن تحرمهم مكانا!

معركة القضاة معركة يجب ألا تكون بحثا عن حل بل بحثا عن حق، ليست سعيا لنصر بل سعيا لمصر، ومن ثم ليس مهما النتائج النهائية لتكن ما تكون، الأهم أن الغاية تحققت وهى كلمة الحق والعدل، كلمة الحق فى وجه سلطان جائر وسلطة جائرة. قال النبى صلى الله عليه وسلم «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» ولم يقل النبى - صلى الله عليه وسلم - شيئا عن نتيجة كلمة الحق عند أو فى وجه السلطان الجائر، إذن هى تكفى جهادا وحدها، ليس نتيجة كلمة الحق فلا جائر سوف يتعظ ولا متجبر سوف يتراجع، فقط الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر.. وقد قالها القضاة!

نظـــــام دكـــــــر!

هل يريد هذا النظام أن يفهمنا أنه قوى وجامد ومحدش يقدر يقف قدامه فيقبض على ثلاث بنات ويدخلهن السجن ويوجه لهن تهمة إهانة الرئيس؟ لهذا الحد النظام الراجل قوى والجامد خالص مفزوع ومرعوب من تلت بنات؟ إيه الرجولة دى كلها؟! ثم كذلك النظام لا يطيق نقدا وصياحا مسرسعا من ثلاث بنات فى مظاهرة مؤيدة للقضاء، ما هذا النظام الذى تحرش بالبنات فى المظاهرات ثم قبض على البنات فى مظاهرات أخرى؟ إنه نظام دكر فعلا!

نظام يملك مئات الألوف من اللواءات والضباط والمخبرين وعساكر الأمن المركزى ويرتجف من ثلاث بنات يتظاهرن مع زملائهن ويصرخن بصوت متحمس رغم نعومته ضد الفساد والاستبداد.

نظام بمدرعاته ومصفحاته وخوذاته وعصيه الكهربائية وقنابله المسيلة للدموع وللدخان يخشى من عشرات المتظاهرين الشبان والكهول تتوسطهم مجموعة بنات خرجن كالضمير فى مواجهة نظام شرير ضرير.

نظام يبلغ عدد أفراد وزارة الداخلية فيه طبقا لدراسة الخبير الاقتصادى عبدالخالق فاروق حوالى ٧١٥ ألف فرد منهم حوالى ٩٠% بنظام كادر الشرطة الخاص والباقى عمالة مدنية وموظفون مدنيون يتوزعون فى ديوان عام وزارة الداخلية (حوالى ٥٠٣٣٣ ضابطاً وأمين شرطة)، ومصلحة الأمن والشرطة (٦٢٣ ألف ضابط وأمين وفرد)، أما فى مصلحة السجون فعددهم ٢١ ألف ضابط وأمين وفرد.

هذا العدد المرعب والضخم، وهو الأكبر فى وزارات مصر (بعد وزارة التعليم)، تجده هشا محزوزا ومرعوبا من مظاهرات طلبة وأساتذة جامعة ونشطاء

حقوق إنسان وكفاية وشايفنكو، هذا الجيش العرمرم من قوات الشرطة المزودة بأغبى ما أنتجته الإنسانية من مخترعات التعذيب والعدوان يقف أمام ثلاث بنات يلقى بهن فى السجن كأن كل بنت فيهن بمقام الآلاف من حراس نظام عجوز وعصبى.

فى مصر عدد الرتب العليا بجهاز الشرطة حوالى ٢٠ ألفاً، عشرون ألفاً ما بين عقيد وعميد ولواء فى مواجهة حركة كفاية لحماية نظام مبارك بضرب بنات والتحرش بفتيات وسجن طالبة وسكرتيرة وصحفية، بخ بخ يا أمن مصر، حلاوتكم فى قلب الوطن يا عشرين ألف لواء وعميد وعقيد وأنتم تنفذون التعليمات بانتهاك عرض بنات بلدكم، نسمى هذه الوظيفة إيه؟ هل هذا طريق لأكل العيش؟! لقد كانت أجور ومكافآت وزارة الداخلية أقل من ٣٠٠ مليون عام ٨٢/٨١ حين تولى مبارك حكم مصر، ثم فى آخر ما تحصلنا عليه من دراسة الخبير عبدالخالق فاروق فقد تضاعفت فى أزهى عصور ديمقراطية وحرية مبارك إلى أكثر من عشرة أضعاف، وقد وصلت اعتمادات وزارة الداخلية وحدها عام ٢٠٠٢/٢٠٠١ لأكثر من أربعة مليارات جنيه، هل انتهاك البنات وسحل الشباب والقبض على المتظاهرين والاعتداء على القضاة وسجن النساء وسيلة لأكل رجال الشرطة عيشا (وشاليهات)؟!

فى وطن مثل هذا وفى زمن مثل ذلك، ممكن جدا أن يكون آكل العيش مغموسا بالعار فعلا!

عار ضرب البنات وانتهاك عرضهن وسجنهن، وسيلة الرئيس مبارك الجديدة للحفاظ على مقعد الرئاسة أو الطريقة المبتكرة للإصلاح على طريقة أمانة السياسات، أمانة تزوير الانتخابات وتفصيل القوانين وبيع مصر جملة وقطاعى والاعتداء على حرية الرأى والتعبير وكمان الاعتداء شخصيا على البنات.

فى جهاز الداخلية، فى الحزب الوطنى، فى حكومة نظيف، دعونا نسأل هؤلاء: ماذا تقولون لأمهاتكم وزوجاتكم وخطيباتكم فى مساءات السهرات يا سادة؟ لقد نجحنا فى ضرب بنات وهتك عرضهن، لقد أدبن فتيات المعارضة

وبهدلنا نسوان المعارضين!!

معقولة نظام بمنافقيه وأفاقيه ونصابيه ولاحسى حذائه وقطعان مواسليه يرتعب من هتاف بنات لا يملكن سوى شجاعة الحق فى مواجهة وقاحة الباطل، نعم إن قبض النظام الفاسد والمستبد على بنات وشابات فى وحشية مثيرة للاشمئزاز واصطناع قضية ضدهن (مع آخرين من زينة شباب ورجال مصر) دليل آخر على نظام فقد نخوته وشرفه!

أن يزج نظام بفتيات ونساء إلى السجن بتهم سياسية، فهذا يعنى أنه نظام فى لحظة ضعف وهشاشة وارتباك وفقدان أعصاب ويكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويعنى فى الوقت نفسه أن الوطن وصل لمرحلة من الغضب والغليان والفوران أدخلت البنت المصرية بقوة فى معركة ممتدة وواسعة ضد الطغيان وأظهر دخول البنات إلى السجن مشهدا تاريخيا فى حياتنا تكرر فقط مع لحظات التحول والتجدد، مثلما كان ظهور المرأة فى النضال الوطنى فى ثورة ١٩١٩ كذلك فى مظاهرات الطلبة العاتية والرائعة فى ١٩٦٨و١٩٧٢ والتى كانت واحداً من أسباب حرب أكتوبر، ثم فى مشهد أخير كبير فى حياتنا فى مظاهرات ١٨و١٩ يناير وقمته بعدها دخول سجينات من شريفات سيدات مصر ونبيلاتها ضمن المعتقلين فى أحداث سبتمبر عام ١٩٨١، وهذه المؤشرات تقول بصراحة إن النظام الحاكم عندما يستغبى ويعيد أخطاءه فإن التاريخ لا يرحمه!

يقينا ضباط أمن الدولة يكرهون الثقافة ولكن كراهيتهم تبلغ حدا من العتو والغلو مع المثقفات.

يكره الضابط البنت المثقفة والسيدة المناضلة والمشتغلة بالسياسة كراهية عميقة ولكنها غير مستغربة فإلى كون الضابط شخصاً غير مثقف ومبرمج على تعليمات وأوامر وتربى على السمع والطاعة والتنفيذ دون مناقشة ونشأ على تقديس أوامر وتعليمات رؤسائه فهو غير مؤهل لاحترام اختلاف وجهات النظر أو حق الجدل والنقاش أو امتلاك رؤية مستقلة. يقول الدكتور محمد المهدى أستاذ الطب النفسى فى دراسته حول التعذيب إن واحدة من أهم صفات ضباط التعذيب (أو

غيرهم) هى المسايرة وتعنى أنهم يستجيبون لأوامر رؤسائهم استجابة تتسم بالاستلاب والخضوع والمسايرة، ولا يناقشون هذه الأوامر ولا يعرضونها على عقل واع أو ضمير حى، فهم فى هذه الحالة يطيعون رؤساءهم طاعة عمياء وينفذون أوامرهم فى التعذيب دون بصيرة، وغالبا ما يكون هؤلاء المسايرون المنفذون من أصحاب الذكاء المحدود والثقافة الضحلة أو المنعدمة، ومن الذين يسهل إقناعهم واستهواؤهم والإيحاء لهم بأن ما يفعلونه فيه مصلحة للبلد أو للبشرية أو لقضية ما. هذه الصفة التى تحدث عنها الطب النفسى تتجلى فى ضباط القبض والتعذيب والملاحقة والمطاردة للنساء، فالضابط ينظر للعالم كله باعتباره أوامر وتعليمات وطاعة ومن ثم تستفز السيدة المثقفة كل كوامن العدوانية لدى ضابط أمن الدولة فى المجتمع القمعى مثل مصر لأنها فضلا عن كونها امرأة وهى بمثابة الكائن الأدنى من وجهة نظر الضابط فهى تتحدى وتواجه وترفض وتناقش مما يجعل الضابط متصاغرا أمامها شاعرا بالنقص والتدنى فيصبح أكثر عنفا وعدوانية ضدها، فيطلق عليها فورا ألفاظا بذيئة سواء بينه وبين نفسه أو مع زملائه ورؤسائه، حتى يشعر فورا بقوته أمامها فهو يدارى شعور النقص بعدوانية اللفظ، ثم هو يحاول إهانتها وتجريحها بالإيماء أو الإيحاء أو الملاحظة الفجة الفظة أنها مش لاقية راجل يشكمها (وكأنه هو الرجل المؤهل لذلك) ثم كذلك يبذل ضباط أمن الدولة دورا هائلا فى دس بلطجيات أو نساء مسجلات خطر وآداب للتحرش وضرب سيدات المظاهرات وتطور الأمر إلى حد استخدام بلطجية تحت إشراف رجال الأمن للتحرش بالمتظاهرات منذ عامين (٢٥مايو ٢٠٠٥تحديدا)، الضابط فى مواجهة البنت الطالبة أو السيدة المناضلة يواجه كل نقائصه ورجولته المقهورة المطمورة بتنفيذ التعليمات مثل الولايا، من هنا يكون أكثر قسوة وخسة فى الحرب ضد المرأة المثقفة ذات الرأى، واللحظة التى سمح فيها رجال الشرطة المصرية لأنفسهم بخطف الأمهات والأخوات رهائن من أجل حضور أو تسليم الشاب المتهم بالإرهاب نفسه، عند هذه اللحظة فقد الأمن شرعيته تماما، فقد تحول إلى عصابة أمنية وليس مؤسسة أمنية، لقد صار كأنه

الوضع اليومى لدى أفراد أمن الدولة الذين يذهبون للقبض على شاب متهم فى خلية إرهابية (وأغلب الظن أن الأمر كله ملفق كالعادة) فلا يجدون الشاب فى بيته فما يكون منهم سوى سحب العائلة بالكامل بناتها ورجالها واحتجازهم كرهائن حتى يأتى المطلوب، وتتعرض البنات والسيدات على هذا النحو لإهانات حقيرة وظروف نفسية مذلة وقامعة، ويمارس الأمن هذا السلوك العدوانى الرخيص بشكل عادى وروتينى، لأن هذا الأسلوب على تدنيه وحقارته وعدم قانونيته يثبت فاعلية شديدة مع المتهمين فلا يطيق أخ أو زوج أو أب على أسرته هذه المهانة فيسلم نفسه ليحمى عرضه، لكنه فى الوقت نفسه يضمر شرا وكراهية كفيلة بتفجير الشر داخله بل وأن يتطرف إذا لم يكن كذلك حتى حينه، هذا السلوك الأمنى المعتاد (لاحظ أننا نعيش أزهى عصور الديمقراطية وأن القبض على أسرة بالكامل وعلى أخوات وبنات أمر تجيزه مواد قانون الطوارئ) كان سببا مباشرا فى التفجيرات الإرهابية (الانتقامية على الأرجح) فى سيناء حيث سجن الأمن وخطف واحتجز هناك عشرات السيدات من نساء العائلات والقبائل التى كان يسعى جهاز الشرطة لتلفيق التهم ضدها الأمر الذى جعل رجال البدو فى سيناء يتجهون إلى الثورة ضد الجهاز الأمنى فضلا عن انتماء شباب هذه العائلات والقبائل إلى التنظيمات التى تلقى الشرطة مسئولية الحوادث عليها حتى الآن، وأنتجت سياسة انتهاك المرأة دخول الشباب المصرى ظاهرة تفخيخ الذات وتفجير النفس على طريقة العمليات الانتحارية.

كذلك اعتداء جهاز أمن مبارك على النساء ليس أمرا مقتصراً على البنات والسيدات المثقفات والمناضلات فى العمل السياسى اللاتى يبغين تطور وتقدم مصر وحصول الشعب على حريته وعتقه من عبودية لفرعون لم يكن هناك رجال فى مواجهته زمنا طويلا، هذا العدوان الأمنى على المرأة واضح تماما فى مجال حرب مبارك على التيار الدينى، خاصة الإخوان المسلمين، صحيح أنه لم يقبض على فتاة أو سيدة إخوانية حتى الآن لكن التصرفات الحمقاء والانتحارية التى يقدم عليها النظام تشى بأنه من الوارد جدا أن تتكرر تجربة القبض على زينب الغزالى

والأخوات المسلمات، لكن المؤكد أن الحصار والاعتداء على سيدات وبنات الإخوان فاق كل الحدود فى انتخابات البرلمان الأخيرة فضلا عن أن القسم الغليظ الذى أقسمه نظام مبارك على عدم نجاح أى امرأة إخوانية فى الانتخابات واضح الدلالة فهو نظام يخشى النساء الحرات، يخشى من المرأة المعارضة، المثقفة المناضلة، ومن ثم فالنظام لا يفرق بين جيهان الحلفاوى وليلى سويف، وبين مكارم الديرى وعايدة سيف الدولة!

نظام مبارك أعلن أنه لا حدود فى الدفاع عن بقائه على العرش بعد ربع قرن من الحكم ودخوله سن الثمانين، لا حدود ولا خطوط حمراء ولا حد أدنى من القيم، حسنا، هذا وقت النساء فعلا!

كيف؟

فى واحد من أسوأ أشكال الدكتاتورية فى العالم كانت دول أمريكا اللاتينية تعيش وتعانى، لكن هذا التحول الديمقراطى العظيم الذى جعل من هذه الدول الآن واحة ديمقراطية بدأ بالأدب، حيث ظهرت روايات ضد الاستبداد وروائيون أدباء حولوا مقاومة الاستبداد والدكتاتورية إلى فن يهز وجدان الدنيا ويحرك عقلها، كذلك ظهرت أمهات ساحة مايو (place de mai) هذا الميدان فى العاصمة الأرجنتينية (حاجة كده زى شارع عبدالخالق ثروت) كان عبارة عن مكان تجمع أمهات المعتقلين والمخطوفين على يد النظام الدكتاتورى، فى كتاب «أم ضد الدكتاتورية» تقول دانييل ميتران (.... سوف يكنسن الدكتاتوريات وجلاديها... يواجهن، يثرن، يتظاهرن، يستفزن الرأى العام بدون خوف، يشجع بعضهن بعضا فيصبح صعبا تجاهلهن، يرغمن الجميع على احترامهن فيثرن قلق الجنرالات، يجمعن مؤازرة المنظمات الدولية ويجذبن كل أشكال التضامن، إن قوة حب أم مجروحة فى لحم أولادها ستعرفون وزنه وإن كنتم جلادين!) استطاع تجمع نساء ساحة مايو أن يقود ضمير الأرجنتين كله للتمرد والثورة والحركة المدنية الرائعة التى أدخلت الأرجنتين عصر الديمقراطية والتعددية والانتخابات الحرة ومواجهة الفساد.

حين تتحرك النساء للمقاومة ضد محتل (جميلة بو حريد مثلا)، أو ضد

استمرار حرب (حركة النساء الأربع فى إسرائيل من أمهات الجنود اللاتى أجبرن رئيس الوزراء باراك على الانسحاب أمام مقاومة حزب الله فى جنوب لبنان) أو ضد الدكتاتورية (حركة أمهات ساحة مايو مثلا) فإن هذا يعنى نجاحا حقيقيا قادما وأكيدا، لقد تعرفنا والتقينا فى حياتنا بعتريس وعتاريس كثيرين، لكن الأهم أن تظهر فؤادة..

نحن جميعا فى حاجة إليها..

إلى أم عمارة الأنصارية.

كانت أم عمارة الأنصارية ممن ثبت بجوار النبى صلى الله عليه وسلم لما هرب مسلمون وانهزم آخرون فى معركة أحد، وقفت أم عمارة مع أبنائها ثابتة شامخة مقاتلة تدافع عن نفسها حينا وعن النبى صلى الله عليه وسلم أحيانا أخرى، وشهدت الحرب وشاركت مقاتلة مع زوجها وابنيها حبيب بن زيد وعبد الله بن زيد وقد أبلت بلاء حسنا وجرحت اثنى عشر جرحا حتى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - فى غمار المعركة وغمرة الحرب قال لها (ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة) وقد ظلت أم عمارة فى القلة الثابتة المحيطة بالنبى - صلى الله عليه وسلم - تدافع عنه بالسيف والسهم ولما صرخ ابن قمئة عندما وجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقد ولى الناس عنه قائلا دلونى على محمد فلا نجوت إن نجى، فتقدمت أم عمارة بكل ما فيها من قوة إيمان واعترضته على نحالتها وضخامته، تمنعه عن الوصول للنبى - صلى الله عليه وسلم - فضربها ابن قمئة ضربة وحشية فجعل النبى - صلى الله عليه وسلم - يصيح: يا ابن عمارة أمك أمك، وروى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان يقول: ما التفت يمينا ولا شمالا إلا وأنا أراها تقاتل دونى.. ولما انتهت المعركة وعاد النبى الكريم - صلى الله عليه وسلم - إلى بيته أرسل يسأل عنها فرجعوا إليه يخبرونه بسلامتها، فسعد النبى - صلى الله عليه وسلم - وسر وابتسم وقد قال عن أم عمارة وأسرتها (اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة).

لا نصر فى حرب ضد الشرك أو الاستبداد أو الفساد إلا بأم عمارة الأنصارية.. وقد ظهرت!

الشعب والفرعون

يقول الرئيس مبارك لتابعيه وموظفيه من رؤساء التحرير الحكوميين الذين يصحبهم معه فى الطائرة الرئاسية إن مصر تتعرض لحملة من قوى دولية فى الخارج لأنها (مصر يعنى) ترفض الخضوع!

وهذا أمر طيب أن يعترف الرئيس أخيرا بأن هناك حملة فى الخارج ضد مصر، فقد تعود طول الوقت هو ومن معه (أو بالأحرى من حوله ومن تحته) أن ينفوا وجود أى هجوم عليه من الخارج ويتحدثوا عن الصداقة العميقة والمصالح الاستراتيجية، ها هو مبارك أخيرا يتخلى عن أهم ما فى سياسته وهو الإنكار فهو ينكر دائما وجود أى مشاكل أو أزمات أو معارضة أو مواجهات أو أى غضب ضده وضد سياسته وسيادته، ويلح دائما على أنه مرتاح قوى!!

ولأن الرئيس مبارك يعتبر نفسه ونظامه مصر فهو يرى أن هناك حملة على مصر! بينما الصورة الواضحة الساطعة أن الحملة ضد مبارك شخصيا وضد نظامه وممارساته وليست ضد مصر أبدا فهل مصر لا سمح الله هى التى نزلت من بيتها بآلاف العساكر والجنود وضباط الأمن المركزى لتضرب وتسحل وتعتقل المتظاهرين المتضامنين مع القضاء؟! هل مصر التى يرسمها رسامو الكاريكاتير على هيئة سيدة جليلة جميلة وبملابس بيضاء هى التى ضربت المواطنين فى الشوارع واحتلت البلد كما يحتلها جيش دولة غاصبة غاشمة مثلما جرى فى بلدنا (ويجرى) فى الشهور الماضية؟ هل الست مصر التى فعلت ذلك فتستحق حملة من الأمريكان أو الأوروبيين أو غيرهم أم هو نظام مبارك وأوامر مبارك وقوات أمن مبارك هى التى ارتكبت مخالفات وجرائم وانتهاكات ضد حقوق الإنسان وضد المواطنين المصريين ومن ثم لا يستحق هذا النظام حملة سياسية ضده بل أكثر

من ذلك فقد ينال محاكمة دولية يستحقها تماما على الفظائع التى ارتكبها ويرتكبها!
الحقيقة أن الرئيس مبارك هو رئيس مصر ولكنه ليس مصر!
وأن الهجوم على نظامه وحكمه ليس حملة ضد مصر بل هو حملة ضد رئيس ونظام يمارس سياسة مستبدة ضد شعبه وضد معارضى حكمه!
إن الهجوم على جورج بوش ليس هجوما على أمريكا ولا الشعب الأمريكى، كذلك النقد والهجوم على تونى بلير ليس نقدا للشعب الإنجليزى بل لرئيس وزرائه، والشاب الأمريكى الذى يخرج فى مظاهرة ضد بوش مرتديا قناعا يبين بوش على أنه مصاص دماء ليس شابا كارها لبلده أمريكا بل هو كاره لرئيس أمريكا وإدارته، ولم يخرج فى يوم من الأيام أى رئيس دولة محترمة وديمقراطية فى العالم فاشتكى أو عاتب أو حاسب (دعك أساسا من أن يحاكم) أحدا لأنه انتقده أو هاجمه أو وصفه بأى وصف أو سمت، ولم توجه دولة ديمقراطية محترمة فى أى مكان فى العالم يوما تهمة إهانة الرئيس لأى متظاهر أو معارض أو مواطن أو كاتب أو صحفى، بينما فى دولة مثل مصر تقدس حاكمها وتحاول أن تجعل رئيسها إلها: (فَاسْتَخَفَّ قَوْمه فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) سورة الزخرف ٥٤، يوجهون تهم إهانة الرئيس بينما عندما كنا نهاجم ونفضح وننقد صدام حسين فنحن لم نكن نهاجم العراق وشعب العراق ولكننا كنا (وكان العالم كله) يهاجم رئيس بلد ولا يهاجم البلد نفسه، إنما تحويل رئيس كل بلد إلى كونه هو البلد نفسه وذاته فهو أمر لا نراه إلا فى الدول الدكتاتورية المستبدة مثلما الحال فى مصر تماما رغم أن مصر بالذات والدول الدكتاتورية كذلك لا يحق لرؤسائها الزعم بأنهم جاءوا عبر اختيار حر مباشر نزيه من شعوبهم فجميع انتخاباتهم مزورة ومزيفة والله يرحم الـ ٩٩والـ ٩٨والـ ٨٨% وتلك النسب المزورة التى لم تكف مصر عن الاستعانة بها، فى بلد لا يقدر مواطنوه على اختيار رئيسهم بحرية فليس لرئيس أن يدعى من أساسه أن الهجوم عليه هجوم على بلده ووطنه!
لقد كان الرئيس الراحل أنور السادات يعتبر كل معارضيه معارضين لمصر وأنه مصر ومصر هو، تماما كما يريد أن يقنعنا حسنى مبارك أنه مصر (وَنَادَى فِرْعَوْن

فِى قَوْمه قَالَ يا قَوْم أَلَيسَ لِى مُلْك مِصْر وَهَذِهِ الْأَنْهَار تَجْرِى مِنْ تَحْتِى أَفَلا تُبْصِرُونَ) الزخرف ٥١، فإذا تعرض لهجوم وحملة عليه من الكونجرس الأمريكى أو الاتحاد الأوروبى أو منظمات حقوق الإنسان أو الصحف العالمية والإعلام الغربى يسارع هو ورجاله إلى وصف هذا الهجوم بأنه هجوم على مصر، أو استهداف لمصر، لكن أحدا لم يتكرم علينا ويعبرنا ويقولنا مصر (التى هى الرئيس مبارك من وجهة نظره) مستهدفة ليه؟

بالذمة حد يجاوب؟

مصر مستهدفة ليه؟ ومن مين؟ وإزاي؟

جايز مصر كانت مستهدفة لما كنت صغيراً وهى كبيرة، لكننى الآن كبرت وصغرت مصر، فأريد أن أعرف لماذا يستهدف العالم والقوى الخارجية مصر.

مبدئيا مش قادر أقتنع أن مصر مبارك (كما يحب المنافقون أن يصفوا مصر فيجعلونها بنت أو حفيدة مبارك) مستهدفة من الغرب وهى تتلقى منه معونات مالية ضخمة ومنحا مالية وفنية وصناعية وتكنولوجية هائلة، بل إن مصر وإسرائيل أكثر بلاد الدنيا تلقيا لمعونات أمريكية فى السلاح والاقتصاد، ومصر تتلقى معونات ومنحا من ألمانيا وفرنسا والدنمارك واليابان والصين وروسيا وإيطاليا وكندا وانجلترا وكوريا، إذا كان كل هؤلاء يمنحون مصر كل هذه المنح يستهدفونها بأمارة إيه؟

بلاش خالص حكاية المنح والمعونات والقمح والدواء والكبارى والمجارى والمترو والكمبيوتر والأنفاق، دعك من كل هذا!

احتمال هناك من يستهدف مصر لأنها دولة قوية؟

كويس جدا..

قوية فى إيه إن شاء الله؟!

هل تنتج مصر أخطر الأسلحة مثلا؟ هل تملك قوى نووية تخيف أحدا؟ لا.

طيب هل تملك أهم مخترعات علمية سوف تبدل الكون ومن ثم الكون خايف من علوم وعلم مصر، لأ، بلاش، ممكن تكون مصر عندها تكنولوجيا جبارة من

الإبرة للصاروخ ومن ثم العالم كله بيفرفر وركبه بتخبط فى بعض فزعا من تكنولوجيا مصر، الإجابة لا، إذن أكيد مصر عندها تعليم وجامعات خطيرة فظيعة علمية معملية فذة سوف تسحق جامعات العالم كله ولهذا فالقوى الخارجية البشعة الكلبة تستهدف مصر من أجل هذه الجامعات، لكن المؤسف أن جامعات مصر ليست خطرا سوى على جامعات الصومال هذا لو فى الصومال جامعات أساسا، آه، أمال مصر مستهدفة ليه؟

احتمال لأنها تملك مخزونا هائلا من حقول النفط وستعوم على بحيرة من بترول لدرجة أن الناس ستجدف بالمراكب الشراعية فى بحور البترول قريبا، للأسف لا يوجد مخزون بترول يستاهل أن تستهدفنا جيبوتى وليس العالم بأسره، آه فهمت، أكيد مصر مستهدفة عشان النيل، ماله النيل، نحن أساسا مصب للنيل ولسنا منبعا له ونحن الذين نخاف أحسن يمنعون عنا الماعون والنيل ومن ثم إحنا اللى خايفين ولا نخيف أحدا، إذن فعلا وحقا وصدقا، لماذا يستهدفون مصر إذا كانت مصر دولة عادية مديونة بثلاثين مليار دولار للخارج ولا تصدر للعالم كله إلا بحوالى من أربعة إلى ستة مليار دولار (معظمهم بترول) وهى قيمة أقل بكثير مما تدره أفلام هوليوود من إيرادات من خارج أمريكا؟!

ما الذى تهدد به مصر هذا العالم وتلك القوى الخارجية حتى تلبد هذه الدول لنا فى الدرة وتستهدفنا؟

ربما لأن مصر مبارك شامخة الهامة لا تنحنى ولا تخضع فى سياستها أبدا، احتمال، لكن مرة أخرى بأمارة إيه؟

الرئيس مبارك يتصل بإيهود أولمرت رئيس وزراء إسرائيل كل يوم جمعة (قبل الصلاة) ودعاه لزيارة مصر بدل المرة عشرة ثم إن مصر تشارك أمريكا وإسرائيل وأوروبا فى حصار الشعب الفلسطينى وتمنع عنه تحويل مليم أو فلس واحد من بنوكها (محدش قال أصلا إنها تتبرع بل مجرد تسيب فلوس التبرعات تتحول)، إذن مصر ليست سبع البرمبة الذى يعطل سياسة إسرائيل وأمريكا بل هى تشاركهم لحظة بلحظة ودقيقة بدقيقة فى حصار حماس والشعب الفلسطينى ثم هى مصر

وليس أحد غيرها من يتوسط طول الوقت ويضغط على حماس كى تعترف بإسرائيل، فلم تعطل مصر جدار إسرائيل العازل ولم تمنع رصاصة من مسدس إسرائيلى ضد طفل فلسطينى بل وأسوأ من هذا وأفدح أن مصر هى التى تزود دبابات العدو الصهيونى بالبترول والنفط الذى تمشى به وتسير وتسافر وتقتحم الدبابات والطائرات الإسرائيلية فلسطين شعبا وأرضا لتقتل وتدمر الفلسطينيين وفلسطين (أيهما أقرب!)، نعم أيها الشعب الكريم فإن ٨٠% من البترول الذى تستورده إسرائيل تستورده من مصر، من حقول بترول سيناء، آه والله العظيم، وإذا كانت الحكومة يمكن أن تنصب علينا وتقول إن توريد وتزويد بترول مصر لإسرائيل إنما هو طبقا لمعاهدة السلام مع إسرائيل (!!) فالرد الباتر الحاسم أن مدة هذه الاتفاقية ببنودها العلنية والسرية تنتهى بعد عشرين عاما من توقيعها أى أنها انتهت فعليا عام ١٩٩٩فلماذا ما زلتم تزودون دبابات وطائرات ومدرعات وسيارات قتلة إسرائيل بالبترول المصرى وكذلك بالغاز المصرى الذى تلتزم مصر بتزويد إسرائيل به بل وبأقل من سعره فى السوق العالمية بفروق مذهلة؟!

السؤال لماذا تستهدف إسرائيل هذا الصديق والشريك المصرى إلا إذا كانت إسرائيل هبلة وعندها مختلين أكتر منا (تخصص كنايس!)؟!

نفس السؤال: ولماذا تستهدف أمريكا مصر وهى التى تمولها وتمنحها كل هذه المنح؟ هل عطلت مصر قرارا لأمريكا بل هل أغضبتها ذات مرة أو حتى اتدلعت عليها شوية وساقت العوج؟ إطلاقا، لقد سمحت مصر لستة وثلاثين ألف طلعة رحلة جوية أمريكية عسكرية بالعبور والمرور من الأجواء المصرية لضرب أفغانستان والعراق، فى الوقت الذى رفضت فيه تركيا تماما أن تمر طائرة أمريكية واحدة فى سمائها، لقد رأينا ماذا فعلت تركيا الدولة الديمقراطية، تركيا رفضت ستة مليارات دولار منحة كاملة من أمريكا كى تسمح بعبور طائرات أمريكا أجواءها رفضت تركيا هذه الرشوة لأنها بلد ديمقراطى حر ولم تذعن للترغيب ولا للترهيب (أردوجان لا يريد توريث ابنه الحكم)، ثم إن الرئيس مبارك لا يكف هو ووزير خارجيته عن التحذير من خروج قوات الاحتلال الأمريكى من العراق ثم مصر لا

تكف عن التحذير من امتلاك إيران قنبلة نووية وهو ما تلح على رفضه أمريكا وإسرائيل معا،! ثم مبارك ذات نفسه الذى لم يكف عبر ستة وعشرين عاما عن التصريح بأن مصر (مصره) تقف على الحياد بين الفلسطينيين والإسرائيليين، كأنهما طرفان على حق ومصر بلد محايد بينهما (سويسرا يا إخواتى)، أى حياد بين الحق والباطل، بين الظالم والمظلوم، بين القاتل والمقتول؟! وتشهد كل السنوات الماضية أن مصر لم تغضب فى يوم من الأيام ولم تزعل أبدا حكام إسرائيل بل إن مبارك وبوش وحدهما دونا عن العالم بأسره هما اللذان مدحا شارون واعتبراه رجل سلام!

إذن من الذى يستهدف مصر؟

وليه فعلا؟

ثم إزاي؟

استهدفوها إزاي؟ عملوا إيه يعني؟

إن الشيء الوحيد الذى فعلوه هو الإبقاء على هذا النظام الحاكم!

ما فعلوه هو تدعيم هذا النظام المستبد الدكتاتورى الذى ما كان يمكن أن يبقى سنة واحدة على عرشه دون دعم وحماية من العالم الغربى والأمريكى، لكنهم أوشكوا الآن أن يروا نهايته على يد الإسلاميين أو الإرهابيين فخافوا واهتزوا وقرروا الضغط على هذا النظام كى يجرى إصلاحات سياسية ويتحول إلى الديمقراطية.

هنا فقط وأول ما وصل الموضوع للكرسى إذا بمبارك وحكمه ونظامه يرفعون شعار إننا لن نخضع للضغوط والحملات!

هنا فقط قالوا لن نخضع!

لأنهم ولأول مرة أصبحوا مطالبين ومضغوطين للخضوع لشعوبهم ولإرادة شعوبهم من أجل الإصلاح والديمقراطية (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى) طه ٧٩.

ومبارك عند كلمته فعلا وأنا أصدقه فهو لن يخضع أبدا (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ

وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) آل عمران ١١، لن يخضع لإرادة الأمة فيغير الدستور ويلغى المادة ٧٧ التى تنص على أبدية الحكم، ولن يخضع ويتنازل عن صلاحيات الفرعون الإله التى يتمتع بها فى الدستور، ولن يخضع ويطلق حرية تكوين الأحزاب وإصدار الصحف، ولن يخضع ويتوقف حزبه وحكومته عن تزوير الانتخابات ولن يخضع ويعطى للقضاء استقلاله ولن يخضع ويكف عن اعتقال وضرب وسحل وتعذيب المعارضين، ولن يخضع ويتوقف عن تسليم مقاعد الحكم لرجال الأعمال والمليارديرات ولن يخضع وتتوقف عمليات بيع القطاع العام ونهبه، لن يخضع مبارك ومتى خضع أى حاكم عربى لإرادة شعبه؟ (فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ) القصص ٢٨.

مبارك لن يخضع: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يا أَيهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيرِى) القصص ٣٨.

بقى فقط أن نعرف هل سيخضع الشعب؟

أشك، فالشعب المصرى قام من غفوته، وتمرد على غفلته، فترقبوا واجلسوا أمام التليفزيون وستشاهدون ما سيحدث!

لقد حرص مبارك ونظامه على إحياء مادة كانت ميتة فى القانون بحكم موت الشعب وحين استيقظ أيقظوا المادة واتهموا بناء عليها المتظاهرين فى ميادين القاهرة الذين اعتقلوهم بتهمة إهانة رئيس الجمهورية وأظن أن النظام يعتقد يقينا أن معارضة مبارك إهانة له، فرئيسهم منزل منزه كالأنبياء ومعصوم كأولياء الله، ومن ثم ربما لا تقتصر التهمة الموجهة للمعارضين على إهانة الرئيس بل ربما تلحق بها تهمة ازدراء الأديان، فنفاق الرئيس دين وزرائه ومسئوليه ورجال بلاط حكمه! (وَقَالَ فِرْعَوْن يا هَامَان ابْن لِى صَرْحًا لَعَلِّى أَبْلُغ الأَسْبَاب) غافر ٣٦.

حسنا لقد وجهوا للمعارضين تهمة إهانة الرئيس فماذا عن تهمة إهانة الشعب؟!

أليس الاعتداء بالضرب والسحل على المواطنين إهانة؟!

أليس هتك عرض البنات إهانة؟!

أليس انتهاك حرية المواطن وحقوقه إهانة؟!

أليس خطف الشباب ورميهم فى السجون إهانة؟!

أليس تمزيق علم مصر إهانة؟!

إن المسئولين المصريين فى حد ذاتهم باستبدادهم واغتصابهم للحقوق وللأعراض إهانة لمصر!

وعندما تشعر مصر بالإهانة فعينك ما تشوف إلا النور (وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يصْنَع فِرْعَوْن وَقَوْمه وَمَا كَانُوا يعْرِشُونَ) الأعراف ١٣٧.

الفيل والنمل!

هل تعرف كيف مات عنترة؟

عنترة بن شداد فارس بنى عبس وبطل العرب المغوار وشاعرها الذى حررته فروسيته وبطولته من العبودية، كبر عنترة وشاخ وصار فى الثمانين من عمره ولكنه كان يصر على الغزو والضرب بالسيف واللعب بالرمح، حتى إنه غزا قبيلة مع قومه، فانهزمت قبيلته عبس التى يقودها ويتزعمها، فخرّ عن فرسه وسقط متهاويا ولكنه حاول القيام للقفز على ظهر الفرس فلم يقدر من الكبر والشيخوخة أن يعود فيركب، فدخل ما يشبه المغارة زحفا، فلمحه شاب من القبيلة المنافسة فنزل إليه، واجه فارسا مسنا عجوزا زالت عنه الهيبة وراحت عنه القدرة وفرت قبيلته وقد نسته من الجزع أو الخجل، لكن الشاب أشفق على عنترة، ورفض أن يأخذه أسيرا ذليلا، فكيف لمثل هذا الفارس العظيم التاريخى الشامخ المهاب وقد تقدّم فى السنّ وأصابه من الكبر ضعف وعجز، كيف يتحمل أن تستعرضه العامة ويشمت فيه الناس وتهينه العيون؟ ساعتها ما كان من هذا الشاب إلا أن رمى عنترة بسهم فقتله.

عنترة الفارس العظيم جاء اليوم الذى قتله عدوه شفقة وعطفا عليه!

وكأن مصر العظيمة الكبيرة وقد تحولت إلى عنترة فى شيخوخته وهرمه، لا تقدر على الصعود إلى الفرس مرة أخرى من ضعف وشيخوخة وعجز أصاب وطنا بفعل حكامه!

والغريب أنك تسمع من مسئولين كثيرين لغوا ورغيا كثيرا فى لوم وتأنيب أو فى السخرية والتهكم من الذين يتحدثون عن ضرورة مواجهة ضعفنا وعدونا ومقاومة الطغيان والاستعمار من الخارج والاستحمار من الداخل فيقولون ناصحين

لهؤلاء الباحثين عن الحرية: ابعدوا بقى عن العنتريات دى! أو يصفون كل مناهض لحكم ظالم واستبداد باطش بأنه من أصحاب العنتريات الفارغة!

وكأنهم لا يريدون قيم عنترة بن شداد من الكبرياء والتمرد على العبودية والدفاع عن العرض والبلد، بل يريدون هذا العنترة القعيد فى نهاية أيامه الذين نجحوا فى تحويل وطننا على شاكلته تماما، تشعر أن مصر كأنما هى جدة عجوز تطلب دهان ركبتها من الروماتيزم!

تعالوا نقارن مصر بما وصلت إليه عدوتها إسرائيل (لو لم تكن متفقا معى فى أن إسرائيل عدو لمصر أو ممن شعروا بالأسى من يد أيهود أولمرت على كتف الرئيس مبارك فتحمل المقارنة باعتبارها دولة منافسة يا سيدى).

يسرد العالم المصرى الدكتور نبيل على فى كتابه الفجوة الرقمية (بالمشاركة مع الدكتورة نادية حجازى) مراتب إسرائيل عالمياً فى مجالات العلم والتكنولوجيا فأورد قائمة بالمراتب التى تحتلها إسرائيل عالمياَ: ـ المرتبة الأولى: فى نسبة حجم الإنفاق على البحوث والتطوير إلى إجمالى الناتج المحلى، وقد اختلفت الدراسات فى تحديد هذه النسبة ما بين ٣.٧ فى المائة و٤.٤ فى المائة.

ـ المرتبة الثانية: بعد ألمانيا، فى عدد المهندسين بالنسبة إلى عدد السكان.

ـ المرتبة الثالثة: فى مستوى أودية السيليكون المنتشرة عالمياً، المتخصصة فى تكنولوجيا الاتصالات والانترنت فلا يفوق ـ وفقاً لآراء الكثيرين ـ وادى السيليكون الإسرائيلى ما بين حيفا وتل أبيب والقدس إلا وادى السيليكون الأمريكى.

ـ المرتبة الرابعة: فى التأثير على توجهات تطوير تكنولوجيا الاتصالات.

ـ المرتبة الأولى: فى نسبة صادرات السلاح إلى إجمالى الصادرات.

ـ المرتبة الخامسة: ما بين عمالقة الدول المصدرة للسلاح.

ـ المرتبة الثامنة: فيما يخص نظم الدفع الصاروخى لحمل الأقمار الصناعية إلى مداراتها فى الفضاء الخارجى.

ـ المرتبة الثانية: بعد الولايات المتحدة، من حيث عدد الشركات الصغيرة

المدرجة فى قائمة شركات التكنولوجيا المتقدمة التى يتم تداول أسهمها فى بورصة نيويورك.

- المرتبة السادسة: فى عدد براءات الاختراع المسجلة بالنسبة لعدد السكان وهى تفوق فى ذلك دولاً متقدمة مثل فرنسا وبريطانيا وألمانيا.

- المرتبة الرابعة: فى عدد براءات الاختراع المسجلة فى أوروبا وأمريكا.

- المرتبة رقم ١٢: فى مؤشر الجاهزية الشبكية (البنية التحتية لمجتمع المعلومات) وهى تسبق فى هذا دولاً متقدمة مثل سويسرا وفرنسا واليابان وإسبانيا وإيطاليا والنرويج.

- المرتبة الأولى: فى تطوير نظم حماية أمن البيانات وتحصين مواقع الإنترنت ضد الاختراق.

هل انحرق دمك بما فيه الكفاية؟

ما يقوله دكتور نبيل على والدكتورة نادية حجازى فى كتابها ليس دعوة لليأس ولا رغبة فى تعظيم إسرائيل، بل رغبة فى المعرفة والوضوح واستنهاضاً للهمم من أجل المواجهة التى لم تعد مواجهة بالسلاح (ولم تكن مكاسبنا من خلاله كثيرة) بل مواجهة بالديمقراطية والعلم والعقل، الحقيقة أن معرفة قوة العدو أفضل كثيرا من الاستهبال والغفلة أمامه، لكن كى ندرك حرب القامات بيننا وبين أعدائنا تعالوا نستكمل مع كتاب الفجوة الرقمية (د.نبيل على، د.نادية حجازى) بعض مؤشرات الفجوة الرقمية بين العرب وإسرائيل(بضعة مؤشرات): نسبة استخدام الإنترنت لعدد السكان فى إسرائيل ١٦ فى المائة فى حين تقل هذه النسبة عن ٣ فى المائة فى المتوسط العربى.

- عدد المالكين للكمبيوتر يبلغ فى إسرائيل ما يقرب من ٤٧ فى كل مائة فرد، فى حين يبلغ هذا العدد ٤ لكل مائة فى عالمنا العربى.

- تحتل إسرائيل المركز رقم ١٢ من حيث مؤشر الجاهزية الشبكية، فى حين تحتل أعلى الدول العربية، وهى تونس، المركز رقم ٣٤، تتلوها المغرب فى المركز رقم ٥٢، فالأردن فى المركز ٥٧ فمصر فى المركز «٦٥».

- الناتج المحلى الإجمالى للفرد فى إسرائيل يفوق نظيره فى البلدان العربية مجتمعة وتزداد السعة بينهما عبر الزمن.

- فيما يخص النشر العلمى يبلغ ١١.٧ بحث منشور لكل عشرة آلاف فى إسرائيل، بينما يبلغ هذا المعدل «ثلث» بحث لكل عشرة آلاف فى العالم العربى.

- يبلغ عدد الكتب المترجمة إلى العبرية سنوياً ١٠٠ كتاب لكل مليون إسرائيلى فى حين يبلغ عددها بالنسبة للعالم العربى ٣ كتب تقريباً لكل مليون عربى.

- يبلغ حجم الشركات التى تعمل فى مجال تطوير تكنولوجيا الاتصالات ما يزيد على ٢٠٠٠، وهو أعلى من عددها فى الدول العربية مجتمعة.

وإذا كنت تعتقد أن إسرائيل قد نجحت فى كل هذا نجاحا مذهلا لأن أمريكا والغرب يدعمانها، فعندك حق، أمريكا والغرب تدعمان إسرائيل ولا شك ولكنهما كذلك يدعمان مصر بلا أدنى شك، وإذا كانت معونات أمريكا قد ساهمت فى بناء مجتمع إسرائيلى متقدم تكنولوجيا إلى هذه الدرجة لكن إسرائيل استطاعت استثمار هذه المساعدات فى استراتيجية متكاملة للتنمية العلمية والتكنولوجية على حد رأى الدكتور محمد أشرف البيومى، ثم هى فرصة لتسأل نفسك عن معونات ومنح العرب وأوروبا وأمريكا لمصر وماذا فعلت بها (فضلا عن أن إسرائيل ليس لديها بترول ولا غاز ولا قناة السويس ولا أهرامات وأقصر وربع آثار العالم..كما أنه ليس لديها قوة بشرية وسكان وعمالة مثل مصر تلك التى يستهين بها رئيس دولتنا ويصر على أن أزمة مصر الاقتصادية سببها نسل المصريين وخصوبتهم رغم تلك النسبة المتصاعدة للعقم فى هذا الوطن!) كذلك ماذا فعل العرب جميعا بثروتهم التى بددها الحكام فى الفساد والاستبداد (مع استثناءات محدودة)؟

لا رغبة لدينا فى الانبهار بإسرائيل ولكنها الحسرة على بلد بدأ مجرد وعد فصار دولة، وعد من وزير بريطانى تحولت بعده إلى دولة تحتلنا وتتحدانا وتتفوق علينا وتحولنا نحن من دولة (كفلسطين) إلى مجرد وعد، انتظار مجرد وعد من رئيس أمريكى أو رئيس وزراء إسرائيلى بدولة تسمى فلسطين!

هذا عار العرب وشنارهم، ومصر الشقيقة والرائدة والعميدة، ماذا فعلت إلا أن تحولت إلى عنتر القعيد، ولكن كيف نجحت إسرائيل فيما فشلنا فيه؟ اسأل عن الاستبداد والطغيان الذى يحكم مصر، على مدى خمسة وعشرين عاما جاء رؤساء وزراء لإسرائيل وتبدلوا وتغيروا وراحوا وجاءوا بينما التعددية فى مصر مفقودة ومنتهية، انتخابات إسرائيل الحرة ونحن نعيش انتخابات التزوير والتزييف، فى إسرائيل يسجنون العرب ويعذبونهم وفى مصر نرحب بالإسرائيليين ونسجن المصريين من كفاية والإخوان واليسار، فى إسرائيل يحاكمون ابن شارون وفى مصر يرشحون الأبناء للوراثة فى السلطة والمدد والبلد، فى إسرائيل تتصارع الأحزاب وتتقاتل فيما بينها وتتحالف وتتآلف وفى مصر يقهرون الأحزاب ويحلونها ويطاردون الواعد منها ويسمحون بأحزاب المباحث وأمن الدولة!

الديمقراطية إذن والحرية فرق وفارق بيننا وبينهم.

إذن فلنفعل فعلهم!

ألم يقل ابن عباس رضى الله عنهما: قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم عاشوراء فقال: ما هذا؟ قالوا: يوم صالح، نجى الله فيه موسى وبنى إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى، فقال صلى الله عليه وسلم "أنا أحق بموسى منكم " فصامه وأمر بصيامه (متفق عليه).

نحن نقتدى بنبينا إذن حين نقول نحن أولى بالحرية والديمقراطية منهم، نحن أولى بالمساواة والحرية والعدالة وعدم تقديس الرئيس منهم، نحن أحق بموسى وبالحرية منهم!

كيف إذن نخرج من هذه الحفرة؟

الحل فى الحرية والعلم والعقل.

لا حرية اقتصادية نافعة ولا تنمية شافعة من غير حرية وديمقراطية ولكن كيف نحصل على الحرية والديمقراطية من أنياب الطغيان والتمسك بالسلطة والخلود الأبدى على مقعد الحكم والقوانين المقيدة للحريات وأمن الدولة والمباحث والخوف من السجن والمعتقل والفزع على لقمة العيش؟!

الإجابة عن هذا السؤال تستحق قراءة قصة «على ظهر فيل» وهى قصةعبقرية للأديب الفذ محمد المخزنجى.

القصة (وأنا أرويها بتصرف) عن مجموعة من الأشخاص فى إحدى الدول الآسيوية لجأوا إلى حل للتغلب على الفيل بأن يضعوا فى أذنيه الكبيرتين نملا، عشرات، مئات، آلاف من النملات، تمشى فى أذن الفيل، دبيب النمل وأصواته وحركاته ومشيه على ضعفه وهشاشته وهوانه التام قادر على إزعاج الفيل ثم يشتعل الطنين فى أذنه فيشتد الصداع فيتحول إلى جنون وانهيار فيتخبط ويخبط ثم يسقط مذعورا مدحورا، هذا الكائن الهائل، المغتر بقوته المتقوى بغروره المتعالى على الضعاف قليلى الحيلة يمكن أن يتهاوى ويسقط، فقط يتجمع النمل فى أذن الفيل!

ولا تنسوا أن النمل هو الذى دل الناس على موت سليمان!

فَفَسَقُوا فِيهَا

احسبها معى..

زعم محمد رشيد وزير الصناعة فى تصريح معمم على الصحف الحكومية ونشرته الأهرام يوم السبت ٢٧مايو ٢٠٠٦ أن الحكومة سوف تنشئ ١٧٠٠مصنع خلال ١٨شهرا، فإذا تأملت هذا العبث الرشيدى الحكومى المبارك الذى تم نشره على سبيل الفرح والولع بالتقدم الصناعى البضاعى الفظيع الفزيع ستكتشف كم الهجص والنصب الحكومى الذى صار سمة من سمات حياتنا والذى تدار به أكبر عملية تضليل وكذب على الشعب المصرى لحسبة بسيطة نقسم فيها الألف وسبعمائة مصنع على الثمانية عشر شهرا إذ نفاجأ بأن تلك الحكومة الخايبة الفاشلة، قال إيه، سوف تنشئ ٩٤مصنعا فى الشهر الواحد أى أكثر من ثلاثة مصانع فى اليوم، شفتم الكذبة المفضوحة السخيفة التى لا تخيل على عيل، كيف لدولة فى العالم -وليس فى بلد نام نائم مفسود برجال حكمه كمصر- تقدر على بناء ثلاثة مصانع فى اليوم حتى لو كانت مصانع لب وسودانى وغزل بنات وعسلية؟! أى مجنون فى عالم الاقتصاد والصناعة يصدق أن هناك مصنعا يتم انشاؤه فى ثلاثة أيام أو أن ثمانية عشر شهرا كفيلة ببناء ألف وسبعمائة مصنع حتى لو كانت هذه المصانع شققا أو جحورا؟! ثم يتحفك التصريح الرشيد من رشيد بك حين يقرر أن هذه المصانع سوف توفر ٣٣ ألف فرصة عمل فإذا انتهزت فرصة أن ابنك معاه آلة حاسبة بمناسبة الامتحانات وحسبت عليها قسمة ٣٣ ألف فرصة عمل على ١٧٠٠مصنع ستكتشف أن المصنع الواحد يضم فى المتوسط ١٩عاملا فقط، مصنع إيه ده اللى فيه ١٩عاملا؟! لو ورشة فى الموسكى ولا فى دمياط عدد العاملين بها أكثر من مصنع السيد رشيد الذى يتم بناؤه بناء على تعليمات السيد الرئيس!

أليس من الغريب أن ينحدر النظام فى مصر إلى هذا الحد من النصب؟! أليس هذا دليلا على أنه نظام كذوب مضلل لا مهمة له سوى الفشل والفساد والاستبداد؟!

ينشغل النظام المصرى فى تسويق أكذوبة كبرى ممطوطة ورذلة ومكررة لا تتوقف عن الإلحاح عليها خطابات الرئيس مبارك وحوارات نجله جمال وهى أن الإصلاح الاقتصادى له الأولوية وأن نظام مبارك يسير فى طريق الإصلاح الاقتصادى، ولا يمكن أن تفهم من هذا الإلحاح سوى أن مبارك ونجله ورجاله يريدون أن يقولوا للشعب والمواطنين، سيبكم من الإصلاح السياسى والكلام الفارغ بتاع الناس الفاضية ومظاهرات القلة المنحرفة المندسة التى تعطل المرور (وهى تعطل فعلا المرور...إلى كرسى الحكم) وسيبكم من خوتة الدماغ بتاعة الجرايد الخاصة والمغرضين العملاء وخليكم فى أكل عيشكم فنحن مهتمون (نظام مبارك هو الذى يقول) بخبزكم وأكلكم وشغلكم ورزقكم والذى لن يتحقق بالشعارات ولابمظاهرات تعديل الدستور ولا بإلغاء الطوارئ (وقد بلغت جرأة جمال مبارك على الحق أنه زعم أن قانون الطوارئ موضوع غير شعبى ولا تهتم به سوى النخبة وكأن جمال مبارك يعرف الشعب وقابل الشعب وهمس الشعب فى أذنه وأخبره (الشعب) قائلا أنا الشعب يا أستاذ جمال بيه ومش مهتم بقانون الطوارئ! بالذمة جمال مبارك شاف الشعب فين؟ فى النادى، ولا فى الجونة، أم التقى به صدفة فى شرم الشيخ، أم أن جمال مبارك يكلم الشعب فى التليفون؟!)

النظام يسعى إذن لإقناع الشارع المصرى عبر كل هذا اللغو الذى يقولونه أن الإصلاح الاقتصادى هو الأهم وهو الأولى، ليس هذا فقط بل يترجمون هذا الكلام للغة الإنجليزية ويرددونه للأمريكان وللجهات الغربية التى تسأل (لا أقول تلح أو تضغط) عن الإصلاح السياسى، يقول لهم جمال مبارك وإيشى نظيف وإيشى رشيد (وهم يلتقون المسئولين والإعلاميين الغربيين سواء فى الخارج أو فى القطامية هايتس) إن مصر تقوم بإصلاح اقتصادى سريع ومتنام فى مقابل بطء متعمد للإصلاح السياسى حتى لا تقع البلد فى قبضة الإخوان المسلمين إذا ما

أجريت انتخابات حرة وديمقراطية في أجواء الفقر والعوز المادى الذى يعيشه المواطن، ويبدو أن هذه النظرية الفجة تمشى وتخيل على البعض ومن ثم تتكاثر صياغاتها على ألسنة المسئولين المصريين بالعامية المصرية وبالإنجليزية ذات اللكنة الأمريكية، وحقيقة الأمر المر أن هذا ليس فقط كذبا بل هو كذب رخيص وساذج!

دعونى فقط أذكركم أن الرئيس مبارك (فى شبابه) حين تولى حكم مصر منذ ربع قرن عقد مؤتمرا فى فبراير ١٩٨٢أى بعد حوالى أربعة أشهر من توليه الرئاسة وحمل المؤتمر اسم المؤتمر الاقتصادى ولم يتحدث فيه بنى آدم واحد عن الإصلاح السياسى ولا تعديل أو تغيير الدستور، مبارك الذى دعا للمؤتمر وشارك فيه ٣٣من كبار اقتصاديي مبارك وعهده وعدد كبير من الوزراء ورجال الدولة (كما تصف جريدة الأهرام وقتها) قال فى افتتاحه (وقد حضر جلساته فى اليوم التالى كذلك) إن هدفه تصحيح المسار الاقتصادى وقال سيادته (لا جدال فى أن ترسيخ قاعدة الاقتصاد الوطنى على أسس سليمة يأتى فى طليعة المسئوليات القومية لأننا إذا كنا نريد أن تكون مصرنا الحبيبة عزيزة قوية -وقد عاهدنا الله على ذلك - فلابد أن تكون قوتها فى اقتصاد قوى سليم وأن نعمل على تحقيق الرخاء للمجتمع ككل وللأفراد الذين يؤدون حق الوطن عليهم فكان حقا علينا أن نحقق لهم الحياة الحرة الكريمة التى تجعل كلا منهم آمنا على يومه وغده متطلعا إلى المستقبل بطمأنينة وتفاؤل)..

هذا ما قاله مبارك فى ١٣فبراير ١٩٨١فى المؤتمر الاقتصادى، وأنا أسأل أى مواطن سايق عليه النبى يجاوب، هل تحقق لك فى الأربع والعشرين سنة (منذ هذه التصريحات والوعود المباركية) الرخاء والحياة الحرة الكريمة؟ هل أنت آمن أيها المواطن (الذى اختبرك الله بالعيش أربعا وعشرين سنة تحت حكم ووعود مبارك)؟ هل أنت آمن على يومك وغدك؟ بلاش يومك وغدك خليك فى اللى إنت ملهى فيه، دعنا نسألك: هل أنت فعلا وحقا تتطلع الى مستقبلك بطمأنينة وتفاؤل؟

الحقيقة تقول إن مبارك لم يعد أحدا بشيء فى هذا الوطن منذ جاء لحكمه الأبدى اللانهائى سوى بالإصلاح الاقتصادى، فهل نجح مبارك ؟

لن أتحدث عن نسبة وعدد العاطلين فى مصر، لن أفتح بقى بكلمة عن ديون مصر الداخلية والخارجية والتى تمثل جرسة لنا بين الأمم، لن أفصل وأفسر فى عجز ميزان المدفوعات والفجوة الهائلة بين استيرادنا وتصديرنا ولن أُهوِّب ناحية قيمة الجنية المصرى فى مواجهة العملات الأجنبية بل إننى لن أستغل الحقيقة المؤسفة التى تؤكد أن ٤٤%من الشعب المصرى تحت خط الفقر!!

لن أقول هذا الكلام إطلاقا بل فقط سأترك موظفا يقبض ٦٠٠جنيه فى الشهر ومراته بتقبض ٣٥٠ جنيهاً يجيب، بعد أن يدفعا ٨٠٠ جنيه قيمة الدروس الخصوصية لعيالهم! كيف تأكل العائلة، ومن أين تشرب وتلبس وتخرج من بيتها أساسا ؟

سأدع آلاف الشباب الذين يتزاحمون على وظيفة بمرتب ١٥٠جنيهاً يقولون لنا ماذا ستفعل لهم المائة وخمسون جنيها ؟

سنسأل موجها فى منطقة تعليمية بمرتب ٦٠٠جنيه فى الشهر، وزوجته موظفة فى السنترال تتقاضى ٢٨٠جنيها كيف يوفر أدوية الغسيل الكلوى التى تتكلف ٤٠٠جنيه شهريا ويعيش بالباقى مع عياله؟

لن ترد الأرقام على مبارك (وهى بليغة وقاسية وحاسمة) بل يرد الواقع الذى ينحدر وينهار مبارك ونجله يعدان الناس بإصلاح الاقتصاد من اجل حياة كريمة، طيب والذى لم يصلح هذا الاقتصاد منذ أربع وعشرين سنة كيف سيصلحه الآن؟ كان فين ده كله؟ ولإمتى الناس ممكن تستني؟ لغاية ما تأكل بعضها!

الإصلاح الإقتصادى قبل السياسى جملة وفكرة ومنهج فاسد وتدليس يقوله الحكم ويدعيه ويردده من خلفه المستفيدون والمرتشون والأفاقون والمنافقون والجامدون والمستهبلون والنهابون والحكوميون والمشتاقون، والحقيقة المؤكدة أننا نسمع ونرى ونقرأ ونشم ونلمس منذ عام ١٩٨٢ فى مصر هذا الكلام الهرائى عن الإصلاح الاقتصادى ومؤتمرات وراء أخرى وسياسات انفتاح وتعليمات صندوق

النقد والبنك الدولى وتعويم الجنيه وتغريق اقتصاد مصر وكل هذا الذى يجرى فى حياتنا تحت شعار ودعوى الإصلاح الاقتصادى، فأين هو هذا الزفت الإصلاح الاقتصادي؟! نحن عمى صم بكم لا نفهم ولا نعرف، قولوا لنا أنتم، هل ما نعيشه من فقر وارتفاع جنونى للأسعار وبطالة مزرية وانهيار للجنيه المصرى ونهب للبنوك ورشاوى، هل هذا هو الإصلاح الاقتصادى الذى هرتونا كلاما عنه ونظريات حوله،وبعد هذه الخيبة المتلتلة ينفضون عروقهم هؤلاء الكذبة ويتحدثون عن ضرورة الإصلاح الاقتصادى، يا نهار أسود، وماذا تسمون كل هذا الهباب الذى فعلتوه فينا كل هذه السنين؟!

لم ولن ينصلح الاقتصاد المصرى أبدا فى عهد مبارك ولا فى ظل حزب ابنه طالما انه اقتصاد بلا سياسة!

الحقيقة أن أى محاولة لإصلاح الاقتصاد لا يمكن أن تحقق شيئا طالما غابت الرقابة والمحاسبة والشفافية والديمقراطية، نعم ولا إصلاح اقتصاد العالم سوف يفعل معنا شيئا إلا لو هناك انتخابات حرة حقيقية وعدم احتكار للسلطة وتداول للحكم وحرية تكوين الأحزاب من غير لجنة حكومية فظة وفاشية تمنع أى حزب حقيقى من الظهور، عندما تكون هناك حرية إصدار صحف لا يتحكم فيها أجهزة أمن ولا تقارير أمنية ولا رضا الحكومة والحكام، عندما تتحرر الصحف القومية من ملكية الدولة ورئاسة المخبرين...الصحفيين)، عندما تكون هناك محطات تليفزيون خاصة وليس تليفزيون واعلام أمن الدولة، غير كده إبقوا قابلونى لو تقدمت البلد خطوة، أو حتى سنتيمتراً، وسنبقى متخلفين فى الاقتصاد والسياسة، مرميين على رصيف الحضارة!

الإصلاح السياسى هو الذى يضمن إصلاح الاقتصاد، ولو كان هناك إصلاح سياسى ما تمكنوا من بيع القطاع العام بأبخس الأثمان وبكل الفساد والنهب الذى جرى، كانت مصر المنصلحة سياسيا ستجابههم وتواجههم وتعاقبهم، ساعتها نبقى عارفين مين بيبيع إيه ولمين وفين، وليس تحت الترابيزة وبعمولات ولحاسيب وبكل هذا التواطؤ والفجور فى التقييم المتدنى لقيمة تلك المصانع والشركات المباعة ومن ثم

لن نجد عمالاً يتشردون ولا موظفين يبقوا معاش مبكر ولا بطالة بل استيعاب للشباب والعمالة الجديدة، لو كان هناك إصلاح سياسى وديمقراطية لن نترك رئيسا لمؤسسة قاعد على تلها لما يخربها ويعمل شركات لابنه وأبناء شركائه وينهبون فى المؤسسة حتى تتساقط مديونة بالمليارات، لو فيه إصلاح سياسى لن نجد أى رئيس مؤسسة يقعد برضا مبارك بل كان سيبقى بذمته المالية وإدارته النزيهة وليس بولائه ونفاقه، إذا كان هناك إصلاح سياسى لم يكن صديق النجل يصبح متحكما فى البرلمان والحزب ومحتكرا لسلعة استراتيجية ويشترى ويصير ثرياً من القطاع العام واحتكاره الذى يرفع الأسعار بجنون من غير ما بنى آدم يقول له تلت التلاتة كام (واحد!) لو كان هناك إصلاح سياسى لاستطعنا أن نحاسب يوسف والى وعاطف عبيد!ولمنعنا أى مسئول فاسد أو وزير مترج أو مرتش!

لوفيه إصلاح سياسى لن تصدر القوانين التى تتحكم فى أكل عيش ورزق الناس لصالح قلة وشلة.

لهذا كله يحاول نظام مبارك ومنتخب نجله فى الحكومة والحزب إقناع الناس بأن الإصلاح السياسى هو مجرد كلام عن قانون الطوارئ والرغى بتاع الأحزاب ورذالات المثقفين، بينما يزعمون أن قلبهم على الناس فيتكلمون عن الاقتصاد ويريدون إصلاحه وبينما هم أنفسهم الذين خربوا الاقتصاد وجابوه لمس أكتاف يؤخرون ويعطلون الإصلاح السياسى لأنه ببساطة سوف يكشفهم ويضرهم ويوقف حالهم ويمنع مكاسبهم المخفية وثرواتهم المنتفخة، الديمقراطية إذن هى الضمانة الوحيدة (ولا شيء غيرها) كى تحيا الناس حياة اقتصادية شريفة كريمة (ومنى وليلى كمان).

أما الكذب الذى يسوقه هؤلاء حول رغبتهم فى إنشاء المصانع (الوهمية والباذنجانية التى يتحدثون عنها) فيتجاهل تماما أنهم الذين يبيعون مصانع القطاع العام، طيب منين تبيعون مصانع جاهزة وشغالة وعمالة فيها بالآلاف ومنين بتنشئوا مصانع اسم النبى حارسها (١٩عاملا فى مصنع...المصنع الوحيد الذى يستوعب ١٩عاملا فقط هو مصنع الأكاذيب ونقترح إنشاءه

بجوار مبنى الحزب الوطنى على كورنيش النيل)!

أنا لا أعرف كيف تقرأ الآية القرآنية (وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا)، الإسراء ١٦..

فالآية لها قراءتان، أن تقرأ كلمة " أَمَّرْنَا " بِالتَّشْدِيد، أَى سَلَّطْنَا شِرَارهَا فَعَصَوْا فِيهَا، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَهْلَكْنَاهُمْ. أما القراءة الثانية فهى " أَمَّرْنَا " بِتَشْدِيدِ الْمِيم،أى جَعَلْنَاهُمْ أُمَرَاء مسَلَّطِينَ، وَتَأَمَّرَ عَلَيهِمْ تَسَلَّطَ عَلَيهِمْ.وتقرأ أيضا كما فى تفسير الطبرى الذى نعتمد عليه هنا " أَمَرْنَا " جَعَلْنَاهُمْ أُمَرَاء.

إذن الآية تقول إن الله سبحانه وتعالى عندما يريد إهلاك قرية (بلد -وطن - دولة) جعل المترفين فيها (من الأغنياء حتى الترف، المرفهين حتى السفه، المليونيرات أو رجال أعمال ممن لا يخشون الله، أكابر كبرا وغرورا) جعل هؤلاء المترفين حكاما وأمراء ووزراء وولاة أمر ومسئولين عن هذا البلد (سيطرة رأس المال على الحكم). وَالُمتْرَف : الُمنَعَّم. (المرفه الغنى غنى متوحشا المالتى مليونير) إذن الآية تقول إن الله إذا أراد أن يهلك قرية جعل أغنياءها المترفين المرفهين أمراء وحكاما عليها فيفعلون ما يخبرنا الله بحتمية وقوعه وهو أن يفسقوا فيها ومعنى الفِسْق كما جاء فى القاموس المحيط هو: التَّرْكُ لأَمْرِ اللهِ تعالى والخُروجُ عن طَرِيقِ الحَقِّ، أو الفُجور، والظلم أى ليس المقصود هنا الفسوق الأخلاقى بل الفسوق بمعنى الظلم والاستبداد.

والآية تؤكد أنَّ ولاية المترفين سبب الهلاك، وها هم تولوا وترأسوا وتورثوا وملكوا وتأمروا... ففسقوا!

أما عن الهلاك فكما ترى سعادتك بنفسك، بلد مملوك وشعب هالك!

لكن رحمة ربنا الواسعة لم تشأ حتى الآن أن تدمرنا تدميرا بل ما نراه ونحياه هو الدمار الأصغر فقرا وخوفا وجوعا وضعفا ومرضا ونقصا فى الأموال والأنفس والثمرات.... ويارب يجيب العواقب سليمة!

حكـــــم عائـــلى!

بعض البلاد العربية التى تحكمها قبائل وعائلات بدأت تتحول إلى دولة، بينما مصر وهى الدولة القديمة العتيقة بدأت تتجه نحو حكم القبيلة!

مصر الآن تحكمها قبيلة بكل ما فى المعنى من مغازى ومخازى، مصر الدولة التى كانت تفخر بأنها صاحبة أقدم حكومة فى التاريخ صارت الآن مجرد بلد تدير حكومته أهداف عائلية ومصالح القبيلة ويتم تفصيل قوانينه وتشريعاته حتى تنطبق وتليق وتتماشى مع أفراد عائلة تحكم وتدير وطنا فى الاقتصاد والسياسة بمجموعة من الأصهار والنسايب والأقارب والأصدقاء!

لا يوجد طريق بيزنس فى هذا البلد الآن إلا وينتهى عند قريب أو نسيب أو صهر أو نجل!

لا توجد مشروعات إصدار قوانين وصناعة تشريعات إلا وتجدها عمولة ومعمولة لصالح ابن يرث أو أصدقاء تشاركوا فى النفوذ والسلطان.

وفوق ذلك كله هناك التعامل مع الرئيس ليس كموظف دولة ولا صاحب منصب منتخب بل باعتباره السيد الأعلى الذى لا يمكن مناقشته ولا مساءلته ولا يثق إلا فى الأبناء والأتباع وحراس القبيلة المخلصين، وهو يمنح كل شيء فلا يوجد فى عرف التعامل معه حقوق للشعب ولا حق للمواطن بل أمة تقف على أطراف رجليها تطلب منه المنح والعفو والرزق والنظرة!

ورغم أن القبائل التى كانت تحكم دول الخليج تمكنت من إدارة دفة بلادها إلى حيث الرخاء والرفاهة والكفاية(عدد السياح الذين يزورون دبى سنويا أضعاف عدد السياح الذين يزورون مصر فى نفس الفترة مع فارق ستة آلاف سنة حضارة ووجود ربع آثار العالم فى مصر)، ثم انتقلت هذه القبائل كذلك إلى دول

تحكمها دساتير واضحة (الكويت وقطر والإمارات والبحرين) وتشريعات ليبرالية (انتخابات وجماعات سياسية وحق تظاهرات وتنافس حزبى وأداء برلمانى بامتياز) وحرية صحافة بلا سجن للصحفيين، ولا مطاردة وملاحقة أوتعذيب دموى لسجناء رأى وتقديم إعلام غير حكومى مفتوح ومنفتح، وعلاقات بالعالم الخارجى سوية وندية، ليس معنى ذلك أن شيوخ القبائل التى تحكم هذه البلدان هم قمة فى المثالية (لا يوجد بشر كذلك أصلا) ولا أن هذه الدول جنات للديمقراطية (فلا جنات على الأرض هى جنة واحدة وفى السماء) ولكنهم شيوخ قبائل استطاعوا بالفعل وبصرف النظر عن النظرة الاستعلائية التافهة التى نتعامل بها مع شعوب هذه الدول (وهى شعوب تنخفض فيها نسب الأمية بالمناسبة وترتفع أعداد متعلميها والحاصلين على درجات علمية رفيعة من أعظم بلدان العالم علما فضلا عن رقى جامعاتها العلمى والعالمى) دول بنت مشروعها فى التنمية البشرية والاقتصادية والسياسية وهو مشروع لم يكتمل وبه من النقائص ما به لكنه يتطور وينمو ولم يعد جائزا على الإطلاق أن نطلق عليهم تعصبنا السقيم ونسميهم بدوا، فالحاصل أننا فى مصر نتجه بقوة وبقسوة نحو البداوة فى الدين (ماذا تسمى التطرف والتعصب والطائفية؟) حتى السياسة (ماذا تسمى الولاء والطاعة والتقديس للرئيس؟) ونتصحر (ثقافيا ووجدانيا) ونتراجع فى الوقت الذى يتقدمون هم فيه فوزا وقفزا!

لكن كيف انتقلت مصر للبداوة ولحكم القبيلة؟

أظنك فى حاجة إلى إزالة التراب عن المرآة لترى حقيقتنا!

فى الحكم القبلى شيخ القبيلة يأمر فيطاع، يرشد ويوجه ولا حياة للقبيلة بغير إرشاداته وتوجيهاته، يعود له الفضل فى كل شيء ولا يمسسه خطأ ولا تشوبه شائبة، شيخ القبيلة لا شريك له ولا منافس أمامه، يملك كل الصلاحيات وهو ملجأ من لا ملجأ له، وهو الذى يمنح الشرعية مع البركة والرضا مع الخيمة، والزوجة مع النخلة، والأمل مع الإبل، كما يمنح الغضب مع اللعنة، والسجن والنفى والنبذ والهجر.

يقول الدكتور إمام عبدالفتاح فى كتابه (الأخلاق والسياسة، دراسة فى فلسفة الحكم) إن فكرة الدولة تمثلت فى مصر القديمة فى مملكة يقوم فيها الإله الطيب وهو الملك مع وزرائه ومستشاريه بالسهر(كل رؤساء مصر ينامون بدرى ومع ذلك السهر هى الكلمة المستخدمة نصا فى مهام الرئيس فى دستور ٧١ الدائم رغم أنه لا دائم إلا وجه الله) على رعاية شئون البشر والبلاد رعاية الأب لولده وهو أب تمجده رعاياه ويخشاه أعداؤه ويوقره الكهنة وعلى هذا النحو تتجمع عند الملك جميع الخيوط السياسية والدينية والأخلاقية التى تندرج فى وحدة واحدة لا تمايز فيها فالملك هو الحاكم المطلق ويقول أحد وزرائه إن جلالته عليم بما يحدث وبما يقع ليس فى الدنيا شيء لا يعلمه (تكاد تشعر أنك تقرأ افتتاحية جورنال حكومى!!).

هذا ملك أو إله أو فرعون أو شيخ قبيلة مصر القديمة كما هو بالضبط فى مصر الجديدة (قبل المطار بشوية) لا ينتظر تصويتا ولا مداولات ولا يتراجع ولا تنزل كلمته الأرض أبدا وهو الذى تلقى عليه قصائد المديح وافتتاحيات الصحائف ويرمى صرر الدرر على صدور الشعراء والمداحين، شيخ القبيلة يظل شيخها حتى يموت (أو تموت القبيلة) لكن أحدا لا ينازعه المنصب ولا يسحب عنه الثقة،وعلى جميع أفراد القبيلة أن يقدموا البيعة ويدينوا بالولاء والطاعة لشيخ القبيلة ولابنه فهو ابن شيخ القبيلة، الذى يصير هو نفسه شيخ القبيلة، سيدنا هو ابن سيدنا الذى يرث الأرض والبلد وأفراد القبيلة!

أليس هذا هو حالنا؟!

الفرق فقط هو أننا نرتدى بذلات أفرنجية وكرافتات، لكن رئيسنا يملك كل الصلاحيات التى ربما لم يكن يملكها شيوخ القبائل، مطلق اليد، كامل السلطة، بلا منافس ولا شريك!

المانح المانع، الواهب العاطى، بطل الحرب والسلام!

القوانين حسب الرغبة..

وتعديل الدستور وفق الهوى..

والتشريعات تحت الطلب..

والسلطات كلها رهن الإشارة وفى القبضة والقدرة!

مصر تحت حكم الحاكم المطلق هى إذن فى قبضة الحكم القبلى العائلى.

ها هو حكم عائلة الأصهار والنسايب والأقارب والأصدقاء في السياسة والاقتصاد حيث ترصد الدكتورة سامية سعيد فى كتابها (من يملك مصر ؟) مجتمع ما قبل ثورة يوليو الذى قدم نموذجا مفاده أن الثروة تؤدى إلى السلطة وأن الاقتصاد يؤدى إلى السياسة فإذا عهد ما بعد يوليو يبرز أن السلطة تؤدى إلى الثروة وأن السياسة تؤدى إلى الاقتصاد فإذا بكبار رجال الدولة يسعون لتكوين الثروات مستغلين السلطة والنفوذ ومدعمين ذلك بعلاقات من القرابة والنسب وكانت نتيجة ذلك منذ حقبة السبعينيات أن الوزراء ورؤساء الوزراء ووكلاء الوزارة والمحافظين وكبار رجالات القطاع العام وغيرهم من أولئك الذين تقلدوا مناصب ووظائف عالية فى السلم الحكومى يتحولون إلى رجال أعمال.

الجديد فيما بعد رصد الدكتورة سامية سعيد أن أبناء رجال الدولة ورثوا عن أهاليهم النفوذ السياسى واستغلال القوة فعملوا فى الاقتصاد وعالم البيزنس والمال وجمعوا الحسنيين، السلطة والمال معا، وليس غريبا أن يكون نجلا رئيس مصر شخصيا من أبرز رجال الأعمال والمال فى البلد وهو ما يكشف عن طبيعة الاندماج بين المال والسياسة فى أيامنا المباركة وهو ما يفسر كذلك هذا الاندفاع المحموم من جميع أبناء المسئولين (الكبار وذوى النفوذ والبقاء الطويل فى السلطة) الذين يعملون فى البيزنس بمنتهى الوضوح الذى كان يمكن أن نسميه فى زمن سابق منتهى الصفاقة، وبينما تطرح الدكتورة سامية سعيد فى الكتاب نفسه سؤالا محوريا حول ما إذا كانت السمة العائلية سمة ملموسة فى الواقع السياسى والاقتصادى المصرى وإذا كانت شبكة التداخلات والتشابكات العائلية سواء على مستوى علاقات الأعمال أو علاقات المصاهرة والنسب برزت بصورة واضحة منذ منتصف السبعينيات وحتى الآن، فهى تجيب بنعم وتصل لنتيجة مؤداها أن معظم الشركات التى ضمنتها الدراسة هى شركات عائلية لكنها تسأل

عن معنى العائلية ومفهومها هل العائلة الضيقة الزوج والزوجة والأبناء القصر والبالغون أم مفهوم العائلية الواسعة بمعنى الزوج والزوجة والأبناء البالغين والقصر وأشقاء الزوج وأشقاء الزوجة وزوجات الأبناء وأزواج البنات..إلخ؟ وإذا كان لنا أن نجيب عن تساؤلات دراسة د.سامية سعيد فهى أن مفهوم العائلة الذى يدير حياتنا المصرية الآن يشمل هذا المعنى الواسع للعائلة من الزوج والزوجة إلى أزواج البنات والحموات كذلك، مصر فى فخ عائلات كبيرة تتشابك وتتشارك ماليا وتتحالف فى البيزنس والسياسة لكن الجديد الجدير بالدهشة هو الانتقال العكسى فبعد أن كان رجل السلطة يبحث عن الثروة والمال إذا بنا نجد رجال الأعمال المليارديرات يسعون للسلطة السياسية وسطوة الحكم وتجسد هذا بلا شك فى جمال مبارك رجل الأعمال الذى يعمل (ويلعب) بالسياسة وهو نفسه رجل السياسة الذى يعمل بالأعمال والأموال وتحت رعاية حثيثة وقدوة ماثلة منه صار هذا الذى كنا نسميه سيطرة رأس المال على الحكم، كان هذا التحول هو نقلة مصر من العالم المنقرض إلى العالم الافتراضى حيث القرابة بالدم أو بالمال..

المصاهرة بالنكاح على سنة الله ورسوله..

أو الشراكة على عقد هيئة سوق المال..

النسايب بالزواج أو بنسب فى الشركات..

القسمة والنصيب، القسمة فى عقود شرعية والنصيب فى عقود تجارية..

لا فرق، ولا فارق، قرابة ومصاهرة وأنصبة ونسايب ونسب تقود الحزب وتدير وتملك وتبيع وتشترى فى الشركات والمصانع والبورصات والأراضى والمزارع والشواطئ والداء والدواء والمصل والنصل والسيارات والطائرات والطيور!

أشهر الصفقات والأسهم والمساهمات والمبايعات والعمولات والسمسرة بين أيدى العائلة!

المشهد كله يحرق الدم، مصر الدولة العربية الكبيرة صارت مسنة.. تصبغ شعرها..

مصر الزعيمة سياسيا صارت مزعومة سياسيا.. مثل الملاكم المعتزل يتكلم ولا يلاكم..

مصر الرائدة باتت راكدة

نورت مصر!

مصر الدولة أصبحت مصر القبيلة وحكم العائلة!

والعائلة هى وحدها المسئولة عن أن حوالى نصف الشعب المصرى تحت خط الفقر، مسئولة عن أن حوالى ربع الشعب يعانى البطالة، مسئولة عن تضاؤل وتراجع ثروات البلد، مسئولة عن أن مصر صارت بيئة ملوثة ومياه نيلها غير صالحة للشرب، مسئولة عن ١٢.٥ مليون مصرى مصاب بفيروس سى، وعن عدد قريب من هذا مصاب بأمراض نفسية، عن ٢٢ ألف معتقل كأكبر بلد عربى يضم معتقلين بل ويعذبهم ويهتك أعراضهم وينتزع إنسانيتهم فى بشاعة توضح مدى رقة النظم القبلية وسماحتها، ومع ذلك فالعائلة مصرة على مصر، ويزعم أفرادها أن مصر هى الأقوى والأغنى والأعظم تحت حكمهم!

الأمر كله يذكرك بفيلم إسماعيل ياسين وهو يلتقى فى مستشفى المجانين برجل ضخم الجثة أسود البشرة مهيب الطلعة هائل الحجم يرتدى ثياب الفروسية ممتشقا سيف الفرسان ومطلقا لحية كثيفة والجميع يغنى له هاتفا:

عنتر أوعى يجيلك عنتر، عنتر!

فإذا بإسماعيل ياسين يقترب منه يبحث عن هذا العنتر فإذا بهذا الفارس الضخم ينطق بصوت ناعم مخنث رفيع نسائى، فيذهل إسماعيل ياسين من هيئته وهيافته، من ضخامته وخنوثته، فيستفهم مستغربا: إنت عنتر؟! فيصر هذا الفارس المخنث على أنه عنتر!

ونضحك نحن من المفارقة اللى تجنن!

لكننى أخشى أن المشهد نفسه ينتقل من الشاشة إلى القاعة..

من السينما إلى الواقع..

من الخيال إلى الخبال..

حيث نجد دولا ضخمة كبيرة عملاقة الحجم عميقة التاريخ ذات الشنة والرنة يوحى شكلها وتشى ملامحها بالمهابة والرهبة فإن نطقت وتصرفت، فإن حكمت وقررت، فإن نافست وواجهت، تصيح بصوت مسرسع مؤنث مائع لا يخيف أحدا ولا يرهب بلدا ولا يحرك شعبا، بل يثير الأسى والسخرية.

هناك دول تحسبها عنتر تطلع عبلة!

أشياء لا تُشترى

أكثر ناس مهتمة بأن يقتنع الشعب المصرى أن إسرائيل لم تنهزم فى حربها على حزب الله.. هم أهل الحكم فى مصر من كبيرهم لصغيرهم!

لو رجعت فلاش باك شوية لاكتشفت أن نظام الحكم فى مصر يروج ويسوق لشعبه ولشعوب المنطقة طيلة الوقت أن إسرائيل أقوى من العرب جميعا وأن إسرائيل هى قوى عظمى فى المنطقة تملك إمكانيات وأسلحة رهيبة وأننا لا ولن نقدر على إسرائيل وأن الواقعية السياسية تقول إننا لازم نطاطى لإسرائيل فنحن لا نقدر عليها، يهتم جدا النظام المصرى بترويج هذه الأسطورة ربما أكثر من اهتمام إسرائيل نفسها، وتسأل نفسك كيف يفعل نظام حكم هذا فى نفسه وفى شعبه ولماذا يبدو حريصا على العمل فى دور السنيد للبطل الإسرائيلي؟!، بل تنحصر كل مهمة مصر فى كونها سويتش تليفونات وساعى بريد بين إسرائيل والفلسطينيين، وليس أدل على ذلك من رئيس يردد مكررا وملحا أن مصر على الحياد فكأن إسرائيل صاحبة حق مثل فلسطين ولبنان وبينما مصر بينهم على الحياد! كأن هناك حيادا بين الحق والباطل، بين الصح والغلط، بين القاتل والمقتول، بين المجرم والضحية، إذن سنرى إلحاحا مذهلا فى سماجته ولجاجته خلال الأسابيع المقبلة من النظام ورجالته وتابعيه على تقليل خسائر إسرائيل من حربها على حزب الله ولبنان والتهوين من المقاومة الرائعة التى أذلت أسطورة الجيش الذى لا يقهر والدولة التى لا تنهزم، لصالح تعظيم فى مكاسب إسرائيل ونفخ فى قدراتها وبث اليأس من إمكانية عربية للانتصار عليها، بل والتخفيف من مذابحها ومجازرها فى لبنان وفلسطين، وسيادة اللغة الطرية فى التعامل معها وزيادة إيقاع تصريحات تفخيمها ومواصلة عمل النظام المصرى فى الفريق الدعائى

والطبل والزمر لقوة إسرائيل وقدراتها!

لماذا ؟..

لأن الحكم فى مصر ودول عربية أخرى بات يستمد شرعيته من رضا أمريكا وإسرائيل عليه، وهو يستمد بقاءه واستمراره على العرش والكرسى ليس من شرعية انتخابات ولاديمقراطية ولاجماهيرية وشعبية بل من دعم إسرائيلى وأمريكى واضح وفاضح، ثمنه الوحيد هو الاستسلام والتسليم بهيمنة إسرائيل والعمل على تفوقها وسطوتها على الوضع العربى!

إذن دلنى على حاكم عربى واحد من الجالسين على عروشهم جاء إلى مقعده بانتخابات حرة نزيهة وعبر تنافس شريف وحقيقى مع مرشحين على منصب الرئاسة ضده، دلنى على هذا الحاكم وساعتها سوف أؤكد لك أننا سوف نسحق إسرائيل ونهزم عدونا ونقف أندادا لأى تحدٍ أمريكى، لكن والحال هكذا كما ترى، حكام لا يمثلون شعوبهم بل يمثلون بشعوبهم، جاء معظمهم بانقلابات عسكرية أو شبه عسكرية، وآخرون بقانون الوراثة على الشريعة العربية، ويظل الجميع على عروشهم أبد الدهر ؛ يركبون على أنفاس شعوبهم ويفسدون فى سياسة واقتصاد بل ويمرمغون استقلال أوطانهم فى الوحل ويبددون الثروة الوطنية ويكنزون المليارات فى الخارج ويزرعون عائلاتهم فى الحكم والمال والنفوذ..ثم تريدنا أن ننتصر، يا أخى.. ولا بلاش!!لقد تعرت النظم العربية أمام الدنيا كلها وبانت عورات الحكام والنظم العربية التى بدت كالفئران وفى أفضل الأحوال كالأرانب أمام حكام الصهاينة من أجل عروش وكروش الحكام وعروش ولادهم وثروات العائلة!.. وتتحرق الشعوب!

لقد سلط هؤلاء الحكام مجموعة من رجالهم وميكرفوناتهم وموتسيكلاتهم السياسية والصحفية من عتاة إجرام الكتابة فى الوطن ليقولوا كلاما من نوع أن المظاهرات التى تخرج احتجاجا على ضرب لبنان تصدر عن جماهير مضحوك عليها؛ وفى كتابات وتصريحات أخرى يؤكد بعضها على أن عمليات حزب الله وخطب زعيمه السيد حسن نصرالله تلعب على عواطف الجماهير أو أنها

تستهوى البسطاء ؛ ولا يتورع آخرون عن وصف مظاهرات التعاطف أو الاحتجاج بأنها مظاهرات غوغاء أو عاطفيين أو مشعلى حرائق وأن الناس المتعاطفة والمتضامنة والمحبة والمنتصرة والمستنصرة بحزب الله جماعات مضحوك عليها وأن الرأى العام أهبل.

هنا سأترك القمامة السياسية التى يرميها منافقو النظام الحاكم فى وجوه الناس حين يسبون ويشتمون السيد حسن نصرالله ببذاءة تليق بخدم وبودى جاردات كباريهات نظم الحكم فى العواصم العربية وسأركز على تلك الرؤية الوجيهة والخلاف العميق الذى يطرحه الجانب المحترم من المثقفين والسياسيين حول حزب الله بدعوى أنه يقود الوطن إلى حرب دينية وأنه حزب عقائدى يقود صراعا قد تهلك معه لبنان، هنا أعود إلى شيء مما سبق وقلت وكتبت فى عدة كتب لى حين قادتنى الذاكرة إلى هذا الهتاف الذى كان يخرج حارا وصادقا فى مظاهرات الطلاب الإسلاميين (خيبر خيبر يا يهود جيش محمد سوف يعود) كان فريق من اليساريين والليبراليين يستنكر الهتاف ويستنكفه، لقد كان ولا يزال رهان البعض على إخراج الدين من معادلة الصراع العربى الإسرائيلى حيث أننا أبدا لسنا عنصريين بحيث نكره اليهود لكونهم يهودا ولا يجب أن ننساق لجعل الحرب حربا دينية وليست حربا وطنية لتحرير أرض!

وأحسب أن هذا الرأى القائم على إخراج الدين من المعادلة هو المسئول عن ضعف وتهرؤ العمود الفقرى لمواجهة إسرائيل، فالواضح أن الدين الإسلامى لم يكن سلاحا عنصريا طول مرحلة الصراع مع الصهيونية وعلى سبيل المثال فالتيار الإسلامى الأهم وهو الإخوان المسلمون رغم أن ذيوع هذه الجماعة الأكبر توازى مع بوادر ثم نذر ثم وقائع المواجهة العربية الصهيونية فإن الخطاب الدينى والسياسى للإخوان (وقد شاركوا فى حرب ١٩٤٨) يخلو من أى نظرة عنصرية لليهود وكان هناك استنكار ورفض تام لأى مساس بأى مؤسسة يهودية إرهابا أو انتقاما على مدى سنوات الوجود اليهودى البارز فى القاهرة أو العواصم العربية وهو ما يؤكد غياب الروح العنصرية تماما وكلية عن الظاهرة الإسلامية السياسية وقتها لم يكن

الوطن العربى من الأطراف التى انتقمت من أقلية داخلها ضحية دخولها فى حرب مع طرف على نفس دين وعرق الأقلية، فالمؤكد أن الولايات المتحدة الأمريكية حاربت واضطهدت أقليتها ذات الأصل والجنس اليابانى أثناء محاربة أمريكا لليابان فى الحرب العالمية الثانية (تكرر الأمر مع اضطهاد العرب الأمريكان بعد أحداث ١١سبتمبر) وهو ما يدل من اللحظة الأولى للصراع أن العرب لم يخوضوا حربا عنصرية ودينية، لكن هذا لايعنى أبدا أن التاريخ الوجدانى للمسلمين والعرب لا يحتفظ بمشاعر غير طيبة أو فيها مسحة عدائية لليهود والمراجع الإسلامية تحفل بغمز ولمز ضد مؤامرات متكاثرة منسوبة لليهود تربصا وترصدا وعداءً للإسلام والدولة الإسلامية، لكن المؤكد هنا أن التاريخ الإنسانى كله والمسيحى تحديدا لاينسى لليهود تورطهم فى صلب المسيح عليه السلام طبقا للاعتقاد المسيحى ثم إن التاريخ الحديث يحفل بكراهية لا محدودة من قبل مسيحيي أوروبا لليهود لكن الظاهر الطاهر أنه منذ وقت الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب (آخر مواجهة إسلامية مع اليهود بطردهم من العاصمة الإسلامية) وإلى بعد تلك السنين بأكثر من ١٢٥٠ سنة أى على مدى أكثر من ١٢ قرنا لم تحارب أى دولة مسلمة اليهود ولم تشن حربا على أى قبيلة أو عائلة أو مدينة أو حيا يهوديا بل عاشوا مواطنين (أغلب الوقت) أو رعايا حتى جرى ما لم يكن سوى الخيانة العظمى من اليهود للإسلام والعروبة وللإنسانية وهو احتلال اليهود فلسطين العربية المسلمة..

دعنا نذكر كذلك بأن الناصر صلاح الدين عامل اليهود معاملة راقية خلال الحروب الصليبية بل وهو الذى أعادهم إلى القدس بعدما طردهم وأجلاهم عنها الصليبيون كذلك كان طرد المسلمين من الأندلس بعد سقوطها هو فى نفس اللحظة التاريخية طردا لليهود وانتقل المسلمون مع اليهود هروبا فى سفن واحدة إلى البر المغربى فرارا من جيوش المسيحيين المنتصرة وفر اليهود هروبا من اضطهاد المسيحيين وتقتيلهم لليهود فى شوارع المدن الإسبانية عقابا لهم على معيشتهم الهانئة والكريمة والمتفاعلة مع المسلمين فى الأندلس!

فلماذا نريد استبعاد الدين من أسباب وحسبة الصراع مع إسرائيل كأننا نخشى

دخول الدين المعركة حتى لا نوصم بالأصولية رغم أن المعركة كلها تقف على أعمدة الدين والذى أرادها هكذا وأسنها كذلك هم اليهود مثلما يملكون تماما الأسلحة النووية والذرية ويهددون بها العرب ثم يرفضون ويحاربون من أجل ألا يمتلك العرب سلاحا نوويا، إنهم يحاربون باليهودية ثم يصرخون لو حاربتهم بالإسلام والمؤسف أن بعضنا يصرخ معهم دون أن يدرك الفاصل الهائل بين الدين كسلاح احتلال وعنصرية عند اليهود والدين كسلاح مقاومة وعدل عند المسلمين فالحقيقة أننا لا نحارب اليهود فى إسرائيل لأنهم يهود ولكن لأنهم محتلون، المشكلة أنهم محتلون لأنهم يهود!

يقول المفكر العظيم د. جمال حمدان فى كتابه «جغرافية العالم الإسلامي» (غير أن الصهيونية إلى ذلك استعمار دينى طائفى بحت، ودولة إسرائيل دولة دينية يهودية تهويدية متعصبة تقوم على حشد وتجميع اليهود، واليهود فقط، فى" جيتو" سياسى واحد أكبر. وهى إذا كانت تفرض ذلك بقانون الغاب ومنطق القوة الرجعية الغاشمة، فإنها أيضا تعيد إلى الحياة فلسفة الدولة الدينية. إسرائيل تأتى بتعبير مباشر كغزوة مقدسة: إنها تفرض من طرف واحد "حربا دينية" ليس الطرف الآخر مسئولا عنها أو عن إثارتها أو طبيعتها، وتبعث بذلك شبهة صليبيات جديدة فى العالم الإسلامى الذى لم يعرف سوى التسامح الدينى تقليديا. بل إن الصهيونيات أسوأ من صليبيات جديدة، فما كانت الصليبيات فى العصور الوسطى إلا استعمارا استغلاليا فقط تخفى وراء الصليب. أما الصهيونيات التى تتخفى وراء النجمة السداسية فاستعمار استيطانى استهدف اقتلاع وتصفية الشعب الأصلى تصفية جسدية ويعمل على تهويد الأرض وتغيير طبيعتها ومعالمها إلى الأبد. وبالمقارنة فإنه تجمُع بين أسوأ ما فى الصليبيات وشر ما فى المغوليات الوثنية من تخريب وبربرية والتى كان طوفانها المدمر أكبر خطر تعرض له العالم الإسلامى فى العصور الوسطى)، حسنا الإسلام يطلب من المسلم أن يحترم حرية عقيدة الآخرين واختيارهم الدينى وهو أيضا يجبر المسلم الحق على إعلان أن لكم دينكم ولى دين وأن نؤمن بعيسى وموسى ومحمد لا نفرق بين أحد من رسله..كل

تلك الحقائق نذكرها للإعادة والإفادة لكن عندما يأتى أصحاب دين اليهود ليقولوا لنا إن الأرض التى نحيا نحن عليها ونعيش نحن فوقها قد وعدهم الله بها وإن أرض فلسطين والعرب هى أرضهم الموعودة وإن دينهم يقول لهم اطردوا الفلسطينين منها..اذبحوهم وأخرجوهم وشردوهم، ودينهم يقول لهم إن المسجد الذى نقدسه ونحج إليه إنما هو معبدهم وحائطهم المقدس ونروح نحن فى ستين داهية، ما المنتظر منى ساعتها؟ أن أحضن أصحاب تلك العقيدة أن أترك لهم أرضى وعرضي؟ ؛ يقولون ديننا يأمرنا باحتلالكم فنقول لهم لكن قرار٢٤٢ لا يقول.!
أم نقول لهم وديننا يأمرنا أن نموت من أجل كل شبر فى تلك الأرض؟.

الدين الإسلامى هنا لا يضطهد ولا يتعصب إنه يقاتل من أجل الحق ومن الطبيعى أن نسمع هنا البعض يقول: ولكن الصراع بلا نهاية أبدا على هذا النحو! هى حرب لن تنتهى أبدا..ليكن فإذا كان ثمن نهايتها أن أتخلى عن الحق وألا يتخلى هو عن الباطل الذى يظنه حقا فليس هناك أى ضرورة لنهاية الحرب..نحن هنا لا نتصارع على ملكية قطعة أرض بل نتصارع على الحق..

هل ترى هى أشياء -كما قال لنا الشاعر الراحل أمل دنقل- لا تُشترى؟.

ثم هل هناك غير الدين وقوة الإيمان أعطا للعرب قوة ونصرا كما حدث مع حسن نصرالله وكما لم يحدث فى كل الحروب العلمانية مع إسرائيل التى انتهت كلها -أقول كلها- بهزائم عربية، فكيف يطلب منى اليسارى الحكيم والليبرالى المتين أن أتخلى عن الدين سلاحا أصيلا ومشاركا فى قوتى وذخيرتى...وجنتى أيضا، ما الذى يضر أحدا فى أن يكون الموت فى سبيل الوطن هو كذلك موت فى سبيل الله، واستشهاد فى سبيل الجنة؟

هل هذا يعنى أننى أطالب العرب بالحرب على اليهود لكونهم يهودا ويصبح ذلك مبررا دينيا لقتل اليهود فى أى حدب وصوب؟..

إطلاقا وأبدا... ولا يمكن، فحين يقول جمال حمدان (وعند هذا الحد لابد أن نستدرك فنقول أنه ليس من مصلحة قضيتنا الفلسطينية أن نصورها أو نحولها إلى حرب دينية مقدسة أو إلى صراع أو جهاد بين الإسلام واليهودية) فإنه يعود

ويؤكد (غير أن هذا لا يغير أو يقلل مع ذلك من الحقيقة الواقعة، والتى لا حيلة لنا فيها، وهى أن العدو الإسرائيلى الصهيونى يأتينا سافرا كدعوى طائفية دينية، رجعية كما هى مكذوبة، وأنه هو وحده ولسنا نحن الذى يفرض بذلك لونها الدينى المعلن من جانب لونها العنصرى والاستعمارى المحقق. وبهذا كله فإن الصهيونية، التى حققت أكذوبة " ضد - السامية " الخادعة، تأتينا وهى فى الحقيقة وتحت الجلد وحتى النخاع "ضد - الإسلامية").

إننا ندرك الآن دون معاناة وببعض الاجتهاد لا الجهد أن الدين هو الذى فجر ويفجر مقاومة كثير من المقاومين ورغم داء التنازل ومرض التفريط لم يجرؤ أى زعيم عربى مهما بلغت درجة قربه من قلب أمريكا ومهما بلغت درجة انفكاك عظام ساقيه عند ذكر كلمة الحرب لم يجرؤ على التنازل بشبر أو بدرجة عن حق المسلمين فى المسجد الأقصى وكان هذا هو الخط الأحمر الواضح الذى لا يمكن تجاوزه أو التنازل عنه أو التفريط فيه.. إذن الدين هو الشيء الوحيد الذى منع الحكام من التفريط والمفاوض من التهاوى والتنازل.

قلنا بدل المرة ألفا إن الديمقراطية هى طريق تحرير فلسطين من الاحتلال الإسرائيلى، وهى باب النصر المؤكد على عدو يحتل ويهيمن ويذبح ويسيطر، فالديمقراطية تحررنا لنملك تحرير فلسطين، والديمقراطية واجبة وحتمية فى البلاد العربية كلها كى نخرج من دائرة العجز وطوق التخلف وحظيرة العبودية لحكامنا وحكوماتنا، والحقيقة إن أبعد ما تريده إسرائيل فى منطقتنا العربية هى ديمقراطية تصعد بحكام منتخبين شرعيا إلى مقاعد رئاسات الدول والحكومات، حيث أن الكفيل والضامن لحالة العجز والهوان والهزيمة والرخاوة العربية هو الطغيان الحكومى الجمهورى والملكى وتزييف إرادة الشعوب وعبودية وتأليه الحكام وتوريث الحكم والحكومات وغياب الديمقراطية وانعدام تداول السلطة فى بلادنا تماما!!

لكن إعلاء قيمة الديمقراطية وتصورى الكامل أنها باب الانتصار على إسرائيل واسترداد كرامة وكبرياء العربى فى وجه محتل عنصرى غاصب لأرضنا لا يعنى أبدا

استبعاد الدين من قلب الصراع، بل هو جزء من لحم ودم القضية العربية فى مواجهة العدوان الإسرائيلى!

حزب الله حزب عربى إسلامى شيعى لم يكفر أحدا ولم يمارس إرهابا أبدا ولم يقتل عربيا أو مسلما يوما ولا يوجه سلاحه إلا إلى العسكر الإسرائيلى فلا يمكن وصمه بالإرهاب ولا يتصور أحد وسمه بالتطرف، قام بعملية فى منتهى الكفاءة والمهارة تدعو للفخر وخطف أسيرين فأطلقت إسرائيل عدوانها على لبنان، حزب الله على حق فى مواجهة دولة عنصرية يهودية على باطل فلا يجوز أبدا تحميل حزب الله مسئولية الدمار كمن يضع مسئولية الاحتلال البريطانى لمصر على ثورة أحمد عرابى، ومهما كانت التضحيات فقد جعل حزب الله كل عربى يدرك أننا قادرون على هزيمة وسحق إسرائيل فقط ليرحل عنا الخديو توفيق!

الغُمة العربية

مواطن مجنون من يصدق رئيسا عربيا؟

الرئيس أنور السادات قال: إنه ديمقراطى.. وقام بتعديل الدستور ليصبح رئيسا مدى الحياة!

الرئيس حسنى مبارك قال لنا عيانا بيانا: إنه لن يرشح نفسه أكثر من دورتين (قال تحديدا: كفاية قوى.. فكان أول من أطلق شعار كفاية!) وعاد ليرشح نفسه ثالثة ورابعة وخامسة.

الرئيس التونسى زين العابدين بن على وضع موادا فى دستور تونس تقول إنه لا ترشيح لرجل فوق السبعين، وحين وصل للسبعين قام بتعديل الدستور حسب عيد ميلاده!

الرئيس الجزائرى بوتفليقة نص فى الدستور أنه لا تمديد لرئيس بعد دورتى حكم، وها هو رغم مرضه (فى الحقيقة كل الرؤساء مرضى باعتبار العمر والسن!) يوافق على تعديل الدستور حتى يستمر فى ولاية ثالثة!

الرئيس اللبنانى إميل لحود قام بتمديد ولايته فى الدستور حتى يبقى فى حكم لبنان!

الرئيس حافظ الأسد بدل رجاله الدستور فى ربع ساعة فقط كى يكون مناسبا لابنه بشار!

الرئيس السودانى عمر البشير قال ما قاله عن زهده فى الرئاسة ثم مد فترة حكمه حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا!

الرئيس اليمنى على عبدالله صالح أعلن أنه لن يرشح نفسه بعد ثمانية وعشرين عاما من الحكم.. وزعم زهدا وتمنعا ثم عاد وأعلن بعد ساعات

ترشيح نفسه لسبع سنوات أخرى!

وفى ليبيا كان الرئيس القذافى الذى يصر على أن يسمى نفسه الأخ القائد رئيسا منذ سبعة وثلاثين عاما ولم يقل فى الحقيقة إنه لا يريد السلطة ولم نسمعه يوما يقول إنه قرر الرحيل عنها!

ثم صدام حسين الذى حصل على مائة فى المائة فى استفتاء فاجر وكان يريد الولاية مدى الحياة ويستعد لتوريث ولديه!

والأسد أورث ابنه!

والقذافى يضع ابنه فى صفوف الحكم الأولى لتوريثه

وحسنى مبارك زى ما سعادتك شايف بالضبط!

وعبدالله صالح يعد ولده لوراثته!

وزين العابدين ليس له أولاد لكن فتونس هى جنة حقوق النساء فى الوطن العربى فمين عارف!

ما هذه الجمهوريات الأبدية الوراثية العسكرية؟ بالمناسبة جميع رؤساء الجمهوريات العربية عسكر وجنرالات حتى إن بشار الأسد الذى كان طبيبا عينه والده قبل مماته جنرالا فى الجيش!، كلهم عسكر، والمصيبة أننا أمة وغمة عربية، وطن محزوم ومسحوق من أعدائه بينما كل رؤسائه جنرالات(!!)، يضع هنا الفيلسوف المصرى الكبير دكتور فؤاد زكريا يده على المرض المذل المفجع الذى يصيب به حكام العسكر أوطانهم وشعوبهم حين يقول فى كتابه خطاب إلى العقل العربى (فى الأنظمة التى تستولى على الحكم بانقلابات عسكرية، وما أكثرها فى وطننا العربى، فإن مبدأ الأمر والطاعة يصبح هو المسيطر بلا منازع، ذلك لأن تكوين شخصية الضابط أو الجندى المحارب فى الجيش يعتمد أساساً على تعويده أن يصبح إنساناً مطيعاً، وانتزاع كل جذور النقد والتساؤل من شخصيته، فالجيش مؤسسة تقوم كلها على ترتيب هرمى يسود الرتب المختلفة فيه نظام صارم من الأمر والطاعة. ولكن المشكلة الحقيقية تبدأ حين ينقل هذا النظام

الصارم من ميدانه الأصلى، ويصبح أساساً لحكم مجتمع كامل، بحيث تغدو علاقة الحاكم بالمحكوم مماثلة لعلاقة الضابط الآمر بالجندى المطيع، فمثل هذه العلاقة تؤدى حتماً إلى تخريب عقل المواطن وضياع قدرته على المشاركة فى حل مشكلات مجتمعه، وتولد لدى الحاكم إحساساً متضخماً بذاته، حتى ليتوهم أن الوطن كله قد تجسد فى شخصه وما أكثر ما يمكن أن يقال عن النتائج المأساوية المترتبة على تطبيق الأنظمة العسكرية الصارمة على مستوى المجتمع بأكمله، وتحويل مؤسسات الدولة إلى نماذج مبكرة للثكنات الحربية.) هذا هو حالنا ومآلنا فى الوطن العربى، وهذا هو حال الوطن العربى من المحيط اسم النبى حارسه الهادر إلى الخليج اسم الله عليه الثائر!

والمشكلة أن الرئيس (أى رئيس، وكل رئيس) يزعم أنه قاعد على قلب شعبه استجابة لرغبة قلب شعبه الذى يتأجج بحب رئيسه ويترجاه ويبوس رجله كى يبقى حاكما و رئيسا عليه فالمواطن هو الذى يتمسك بالرئيس، والرئيس يتعفف ويزهد فى المنصب لكن الوطن يا حرام مش طايق ابتعاد رئيسه ولن ينام الليل من غير ما رئيسه يتعطف ويتنازل ويتكرم ويوافق وهو دايس على قلبه ياعينى عليه ويوافق على الاستمرار فى الحكم، هذه المسرحية الرخيصة والبليدة يقولها أى رئيس وكل رئيس فى بلده وهو يتغافل أو يغفل أو يستغفل الحقيقة، تلك الحقيقة المرة العلقم أن الرئيس ذات نفسه الذى يزعم أنه الزاهد فى الحكم زهد رابعة العدوية فى نصفها التانى فى الدنيا هو الذى يسجن عشرات الألوف من معارضيه وهو الذى يسحل ويعتقل ويعذب مناهضى حكمه ومعارضى بقائه وهو الذى يملأ سجون دولته بالمعارضين والسياسيين وهو الذى يمنع ويصادر ويضع القوانين على مزاجه ويفصل مواد الدستور على هواه أو هوى ابنه أو هوى بطانته، هذا هو الرئيس الذى يدعى أنه يحكم بناء على طلب شعبه وتمسك مواطنيه، «كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا

كذبا»، فالشعوب مقهورة مقموعة مغصوبة على الطاعة كما يقول دكتور فؤاد زكريا فى الكتاب نفسه (الأنظمة الدكتاتورية المتسلطة لا تريد من المواطن إلا أن يكون «مطيعاً» لأوامر الحاكم، وأداة «طيعة» فى يده، وقد تتخذ هذه الدعوة إلى الطاعة شكلاً سافراً، فتتولى أجهزة الإعلام المأجورة أو المنافقة تصوير الحاكم بأنه مصدر الحكمة ومنبع القرار السديد، ومن ثم فإن كل ما على المواطنين هو أن يوكلوا أمورهم إليه ويعتمدوا عليه، فهو الذى يفكر بالنيابة عنهم، وهو الذى يعرف مصلحتهم خيراً مما يعرفون، وهو الذى يعفيهم من مغبة اتخاذ أى قرار. وفى مقابل ذلك فإن أى نقد أو اعتراض أو تساؤل يوصف بأنه «عصيان»، هو إثم لا يغتفر، فكبيرة الكبائر هى «شق عصا الطاعة» ـ لاحظ الارتباط، فى التعبير اللغوى التراثى بين «الطاعة» و«العصا» ـ أى مماحكتهم وتساؤلاتهم فى الأمور التى ينبغى أن يترك زمامها للحاكم).

ما محصلة هذا الوضع الاستبدادى الدكتاتورى العربى، إلى أى منزلق زحلق هؤلاء الحكام بلادنا إليه، ها هو تقرير التنمية الإنسانية الذى تصدره الأمم المتحدة (تقرير ٢٠٠٤) يكشف أن مجمل الناتج الاقتصادى المحلى والعربى فى نهاية القرن العشرين (وهو نحو ٦٠٤ مليارات دولار) يتعدى بالكاد ناتج دولة أوروبية واحدة مثل إسبانيا (٥٥٩ مليار دولار) وهى دولة أوروبية ليست محسوبة على الكبار كما أنها تخلو من موارد خام مثل البترول أو الغاز مما تمتلئ به البلدان العربية، أما الناتج القومى الإجمالى للفرد فى قوة العمل فإنه يقل فى مجمل البلدان العربية عن نصف مستواه فى دولتين ناهضتين فى العالم الثالث هما كوريا الجنوبية والأرجنتين ولا نقول لا سمح الله أوروبا ولا أمريكا!

ويكشف التقرير نفسه عن أن البلدان العربية تنتج مجتمعة ٥٦٠٠ كتاب مقابل ١٠٢٠٠٠ كتاب فى أمريكا الشمالية، و٤٢٠٠٠ فى أمريكا اللاتينية ودول الكاريبى!

أى خزى وفقر وجهل أوصلنا له الطغيان والحكام الذين لا يريدون أن يتخلوا عن مقاعدهم وعروشهم!

خذ عندك: ما يقوله تقرير التنمية الإنسانية:

أولاً: حجم البطالة فى العالم العربى يبلغ أكثر من ٢٥ مليون نسمة.

ثانيا: ٥١% من الشبان العرب عبروا عن رغبتهم فى الهجرة من بلادهم.

ثالثا: ترتفع نسبة الأمية إلى ٣٥% فى عموم العالم العربى.

رابعا: ٦.١% فقط من العرب يمكنهم استخدام الإنترنت.

خامسا: ٤.٤ كتاب مترجم لكل مليون عربى مقابل ٩٢٠ كتاباً مترجماً فى إسبانيا وهى من الدول متوسطة التقدم.

سادسا: ينفق العالم العربي٠.٢% من الدخل المحلى على البحوث والدراسات العلمية فى حين تصل هذه النسبة إلى ٢.٧% عند إسرائيل و٣.١% عند أمريكا. (المعدل العالمى ١.٤%).

بقاء رؤساء الجمهوريات العربية على الحكم مؤبدين أو مورثين ينتهى بالأوطان على مستوى العيش والمعيشة إلى ما تفضحه أرقام ومؤشرات البحوث والتقارير العالمية، كما أن بقاء وخلود هؤلاء الحكام بدون حساب أو محاسب، بدون تداول للحكم ولا مساءلة للرئيس، بدون مدد أقصى ونهائية ينتهى بالشعوب إلى أن ينطبق عليها ما أوضحه وفضحه المفكر العربى الرائد عبدالرحمن الكواكبى فى كتابه طبائع الاستبداد وهو يصف وضع الشعوب المغلوبة على أمرها (ألفنا أن نعتبر التصاغر أدبا، والتذلل لطفاً، وقبول الإهانة تواضعاً، والرضا بالظلم طاعة، والإقدام تهوراً، وحرية القول وقاحة، وحرية الفكر كفرا وحب الوطن جنوناً، ترضون بأدنى المعيشة عجزاً تسمونه قناعة، وتهملون شئونكم تهاوناً وتسمونه توكلاً، تموهون عن جهلكم الأسباب بقضاء الله وتدفعون عار المسببات بعطفها على القدر ألا والله ما هذا شأن البشر).

أما هذا البقاء وذلك الخلود الأبدى على مقعد الرئيس فهو يفسد الحاكم فيصنع منه طاغية، ويفسد الشعب فيجعله منافقا يائسا، ويفسد البلد.. والولد..

لاشك أن صراعات السلطة تتعاظم فى دائرة الحكم حتى تصل للمنازلة والمصارعة أحيانا بين الحاكم وابنه، بين الرئيس الذى لايريد أن يرحل وبين الابن الذى يريد أن يحكم، هنا تتفجر ذات القصة المكررة القديمة للمعتضد بن عباد ملك إشبيلية فى الأندلس والتى يحكيها المؤرخ العظيم محمد عبد الله عنان فى مجلده الموسوعى (دولة الإسلام فى الأندلس) حيث تمرد إسماعيل بن المعتضد على والده، فأغلظ له أبوه فى القول، وألزمه بقراراته، وأنذره بالقتل إذا نكل، (فعندئذ ثارت نفس إسماعيل، وعول على الفرار مع بعض خواصه. ويقال إن الذى شجعه على ذلك وزير أبيه وكاتبه، فحسن له العقوبة والعصيان، والسير إلى أطراف المملكة، حيث ينفرد بنفسه، وعندئذ دبر إسماعيل أمره، وانتهز فرصة غياب أبيه إلى مكان متنزهه فى حصن الزاهر، فى الضفة الأخرى من النهر، فحزم قدراً كبيرا من المال والذخائر والمتاع، وأخذ أمه وحرمه، وخرج من إشبيلية تحت جنح الليل، ومعه الوزير، وثلة من نحو ثلاثين فارساً، وسار فى طريق الجزيرة الخضراء، وعلم أبوه بالخبر بعد وقت، فبادر بإخراج عدة من فرسانه فى أثره، وبعث ينذر قواد الحصون.

وبادر أحدهم فكتب إلى المعتضد بحصول إسماعيل فى يده، وأنه نادم على ما فعل، ورجاه فى العفو عنه، فسر المعتضد، واستجاب إسماعيل لدعوة أبيه إليه بالعودة، ودخل إشبيلية بسائر ماله ومتاعه، فاعتقله أبوه فى بعض الدور، واسترد المال والمتاع، وعجل بإعدام الوزير لفرط حنقه عليه، وقتل معه نفراً من خواص إسماعيل، فلم يشك إسماعيل عندئذ فى مصيره ودبر مؤامرة لدخول القصر والفتك بأبيه والجلوس مكانه، واستطاع بالفعل أن يدخل القصر ليلا مع بعض أعوانه، ولكنه سقط مرة

أخرى فى يد أبيه الساهر الحذر. وعندئذ قرر المعتضد قتل ولده، وقتله بنفسه، وأخفى جثته، فلم يقف أحد على أثره، وعذب شركاءه أشنع عذاب، وقطع أطرافهم، ثم أعدمهم، وأعدم كذلك نفراً من حرمه ونسائه، حتى قطع دابر كل من كانت له بولده علاقة أو صلة، وكتب المعتضد بيانا يبرر فيه تصرفه فى إزهاق ولده «الخائن الغادر» حسبما يصفه، قال فيه: «إن الغوى اللعين، العاق الشاق، إسماعيل ابنى بالولادة، لا بالوداد، ونجلى بالمناسب لا بالمذاهب، كنت قد ملت بهواى إليه، وقدمته على من هو أسنى منه، وحبك الشيء يعمى ويصم، والهوا يطمس عين الرائى، إذ يلم، فآثرته بأرفع الأسماء والأحوال، ووسعت عليه فى خطيرات الذخائر والأموال، وأخضعت له أكابر رقاب الجند ووجوه الرجال، ودربته فى مباشرة الحروب، وأجريته على مقارعة الخطوب، وقد تفتن الآباء بالأبناء، فأعجب يا سيدى لأبناء الزمن، وأبناء الفتن، وانقلاب عين الابن المقرب الودود، إلى حال الموتور الحسود، والثائر الحقود، وجمع هذا اللعين فى إرادته ومحاولته، بين الشاذ والنادر، والمنكر الدائر والناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم، وأصدق من هذا قوله تعالى: «إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم»!

هكذا تفعل السلطة فى الأب.. وابنه!

فى الحاكم ونجله!

فى المورث والوارث!

وقد شهدنا فى أيامنا العربية القريبة أولياء عهد ينقلبون على آبائهم الملوك وينتزعون منهم السلطة والسلطان، فهل يقترب الأمر إلى انقلاب الأبناء على آبائهم الرؤساء؟

ليه لأ!

قانون الرئيس

لا أفهم الذين يطلبون من مبارك التدخل والذين يتحدثون عن الالتفاف حول وعد الرئيس بإلغاء حبس الصحفيين، ولا أفهم الذين يرفعون شعارات التسول والتوسل للرئيس وكأنهم لم يقرأوا توقيعه الواضح الجلى على المشروع المقدم لمجلس الشعب الذى يجعل من مهنة الصحافة مهنة قاصرة على المنافقين والموافقين والماشين جنب الحيط والساكتين عن الحق والكاتمين للصوت والمتعاملين (لا أقول العملاء) لأجهزة الأمن، هؤلاء فقط الذين يخدمهم مشروع القانون الذى قدمه مبارك لمجلس الشعب والذى سيحوله أصحاب الأغلبية المزورة فى البرلمان إلى قانون بعد أيام، قانون كفيل بسجن كل صحفى يحاول أن يعارض ويحاول أن يكشف حقيقة الفسدة والفاسدين.

هنيئا للأفاقين..

ومرحى بالمنافقين..

وحلال عليهم المخبرون والضباط واللواءات فى بلاط صاحبة الجلالة التى اغتصبها قانون ظالم فى حكم مستبد فى واقع فاسد!

هذه مصر واحدة من ثلاث أو أربع دول متخلفة فى العالم تسجن الصحفيين، شكرا يا مصر!

القانون الذى يريده مبارك وقدمه باسمه وصفته يضع مادة لسجن الصحفى لا تقل عن ستة أشهر كحد أدنى، ولم يكن هناك حد أدنى للعقوبة من قبل، أى يمكن أن تكون الآن سنة أو اثنتين أو ثلاثا حسب رؤية (أو هوى) القاضى، أو حسب التليفون الذى تتلقاه الدوائر المسئولة قبل الحكم!

تخيلوا قانوناً يقدمه مبارك لمجلس الشعب يرفع ويزيد فى مدة سجن الصحفى،

فما بالك ببقية المواد وما يمكن أن يحدث للصحفيين المصريين المعارضين والمستقلين؟ (صحفيو الحكومة والحزب ومندوبو الداخلية فى مأمن محصنين بحصانة الموافقة والمنافقة).

هذا القانون الذى يسجن الصحفى بلاحدود كأنه لم يكتف بالسجن بل ربما يسعى ليكون سجنا طوال الحياة، سجناً كبيراً يحيط بمكاتبنا أو نعشاً للحرية الميتة، يجعلنا نقضى بقية عمرنا إن كان له بقية فى مزرعة طرة أو الواحات فى أزهى عصور الكذب والخديعة!

مشروع مبارك لسجن الصحفيين جاء فى توقيت تتواطأ فيه الولايات المتحدة الأمريكية مع مبارك الأب و الابن، وفى الوقت الذى بدأ فيه جمال مبارك ممارسة صلاحياته كرئيس بزيارة وافتتاح المصانع وإصدار التوجيهات والتعليمات!

إن ما يجرى يؤكد بوضوح قاطع لأى شك أنه لا توجد ذرة أمل واحدة فى هذا النظام بل الأمل الوحيد فى تغييره، إنه لا مستقبل لهذا الوطن فى وجود هذا الحزب الحاكم بحكامه بل المستقبل الحقيقى يبدأ حين يرحل هذا الحزب بحاكمه وحكامه!

إن الخطة المرسومة فى مكاتب الحزب الوطنى وبين رجال جمال مبارك هى إخلاء الساحة المعارضة له تماما برمى الصحفيين المعارضين الرافضين للتوريث فى السجن وإغلاق أو تكميم الصحف المستقلة التى تمثل رأس الحربة فى مواجهة الاستبداد والفساد والتوريث وهى خطوة تتم عقب تحطيم استقلال القضاء والسيطرة المطلقة على أحزاب المعارضة الهشة واعتقال عشرات ومئات من أعضاء حركة كفاية وحزب الغد وتكسير عظام جماعة الإخوان المسلمين وبناء تحالف سافر سياسى واقتصادى مع إسرائيل والحصول على دعم مباشر من زعامات الكيان الصهيونى للنظام الحاكم فى مصر وقبل هذا كله شراء الرعاية الأمريكية بتسهيلات تحكى عنها وثائق الأمريكان ونصوص جلسات الكونجرس الأمريكى التى كشفت عن حقائق مريعة حول التواطؤ المصرى الرسمى مع الأمريكان فى استهداف العراق وأفغانستان وفلسطين والعمل وكيلا أمنيا

للأمريكان فى المنطقة!

مطلوب إذن دم الصحفيين الشرفاء المستقلين وغير مسموح سوى بالمائع الزائغ المرتجف، أو بالصحفيين الموالين والتابعين والركع السجود الذين يمثلون الطابور الخامس الذى يرشد الغزاة والطغاة إلى أماكن المقاومة وأسماء المقاومين!

والعجيب الغريب أنه ورغم كل هذا الوضوح لايزال البعض يطالب ويطلب ويلتمس ويتلمس من الرئيس التدخل وهو ما حذرنا منه منذ اللحظة التى طبل وهلل فيها بعض من أهل الصحافة وصفقوا لوعد الرئيس مبارك بإلغاء قانون حبس الصحفيين، أدركت فورا أن شيئا ما مؤسفا وكريها قد تغلغل إلى قلب الجماعة الصحفية، فإلى هذا الحد وصلنا من الرضا بالوعود، مجرد الوعود، والى هذه الدرجة البائسة أصبحنا ضعافا خفافا ننتظر المنح من فوق ونشكر الذين سجنونا وخنقونا وأفسدوا فينا وكموا وهددونا وباعوا واشتروا فينا لأنهم ترفقوا وتعطفوا ووعدونا بأن يرفعوا السكين عن أعناقنا! (بدءا من هذا السطر كثير من كلامى معاد ومكرر مما كتبته من قبل) كان المشهد معبرا تماما عن الواقع الصحفى الذى صار يشبه السجين حين يفرح بلوح حلاوة طحينية بالمكسرات عندما يأتيه فى السجن فيشكر السماح له بالحلاوة الطحينية وينسى أن من قدم له الحلاوة هو من رماه فى الزنزانة! صار الواقع الصحفى والسياسى كله أسيرا فى أيدى الدولة التى تختار رجالها مستبدين فاسدين وتوافق على معارضيها الطيبين المتعقلين، نفس الساحة السياسية التى ترى فيها صفوت الشريف حاضنا رفعت السعيد» وفتحى سرور باشا هاشا مع رموز المعارضة، بينما تتواصل ابتسامات ووعود الدولة للمعارضة المتوافقة الحنونة لتواصل استبدادها وقوانينها الفاشية ضد المعارضين الحالمين بحرية وديمقراطية لهذا الشعب الذى لا يريد له نظام مبارك حرية سوى حرية مدحه والحمد له والشكر!

وعد الرئيس وتهلل إخوتنا الكبار فرحا وتهليلاً، ثم ماذا جرى ؟

لم يف حسنى مبارك بوعده وطبعا خرجوا يقولون لنا إن قوى الظلام هى التى عطلت تنفيذ وعد الرئيس، وهو أمر جميل جدا أن نعرف أن الرئيس عنده

قوى ظلام ولم يبددها وأن هناك فى البلد من هو أقوى من الرئيس، والمؤكد أن الرئيس فى مصر هو الكل فى الكل ولا أكبر تخين فى البلد يقدر يعطل قراره ولا وعده، لكن الحقيقة أن نظام مبارك تعامل مع الصحفيين بمنطق ليه تدفع أكتر مادام ممكن تدفع أقل؟! يعنى الصحفيين غلابة وساكتين والنقابة طيبة وهادئة والمعارضة مستكينة ومسكينة وصحف الحكومة تؤدى خدمات قوات الأمن المركزى وإخلاص رجالها فى الضرب أكثر حماسا من عساكر الأمن المركزى، وأمريكا لا تأتى بسيرة الصحافة ولا تضغط على الحكومة من هذه الناحية، ليه بقى تفرط الدولة فى قدرتها على مسك أى صحفى من زمارة رقبته، ومن هنا ظل الوعد وعدا لأكثر من ثلاثة أعوام ، لأن المنهج الذى يتبعه الصحفيون منهج مستسلم وخاطئ، مهادن ومتوسل، يخشى المواجهة والمصادمة، ينتظر منحة الرئيس، لكن كلما كان صاحب الحق قطة سيامية تهدهد رأسها فى حجر سيدها فلا حق ولا يحزنون، لقد علمنا أجدادنا أن الحداية لا ترمى كتاكيت وعلمتنا الحياة الراهنة أن الدولة لا ترمى للشعب حرية!

دعك من الحداية والكتاكيت وكليلة ودمنة وحكاياتها وانظر حولك، كل ما تقوم به الدولة من إصلاحات وهمية وزائفة، كل ما تسنه من قوانين سيئة ومقيدة، كل ما تعد به الناس كذبا، كل ما تقدمه لوطنها فسادا مدمرا وسرطانا مبيدا، الوطن يغلى وهى باردة، العالم يتحرك وهى جامدة، الزمن شاب وهى عجوزة، المرحلة تستدعى يقظة ومانعيشه الزاهيمر!

المؤسف حقا حين يلتزم المحترمون بمناهج ضعيفة، حين يخوض الكبار معاركهم بالخيال القديم البائس الذى أوصل الأمر إلى مأساة وملهاة مخجلة تدعو للانفجار وليس للهدوء الذى يصل إلى حد البرود والجمود من الجماعة الصحفية، فالذى حصل وصل إلى درجة أن السجن لم يتم إلغاؤه بل زادت القوانين التى تسجن الصحفيين وغرسوا فى القانون الجديد (قوى الظلام طبعا التى هى أقوى من شبكة كهرباء قصر العروبة!) مواد تسجن الصحفيين إذا انتقدوا انتفاخ ثروة مسئول أو تحدثوا عن حجم أموال ابن مسئول أو تساءلوا عن شركة جمال مبارك

أو عن ثروة أحمد عز أو عن بيع القطاع العام أو أى شيء أو لا شيء، بل أصروا على أن يسجنوا الصحفى لو أشتكى منه سفير إسرائيل أو أمريكا أو أى دولة أجنبية، إن السفير الإسرائيلى قادر وفق القانون الجديد أن يسجن نصف الصحفيين فى مصر، وهكذا نجحت سياسة التوسل والتسول والشكر والمدح والإشادة بالرعاية والحكمة لدرجة أن زاد السجن سجنا، هل هناك كراهية لحرية الصحافة أكثر من هذا؟!، هل هناك خداع وكذب أكبر من هذا؟! ثم تخرج صحف الأمن المركزى تتحدث عن إلغاء الحكومة لعقوبة السجن، أى صفاقة وانحطاط مهنى أفجر من هذا؟!

ولأن المشرحة ناقصة قتلى، فها هى نفس حالة الالتماس بالتدخل كأننا الطفلة آلاء نتمنى عطفا وتعطفا لتصحيح الدرجات والنجاح فى امتحان النقل (حتى الطفلة لم تفعلها وتعتذر وهم يكذبون ويقولون فعلتها!) كأنها العقيدة سياسة المهادنة والتعقل المتهاون والتوسط والتوسل السياسى المهين والتسول العاطفى....المنحة ياريس!

أعرف أن أيام الصحفيين الشرفاء المستقلين عن الحكم والمعارضين للحاكم أيامهم خارج السجن باتت قصيرة لكننى أتمنى أن نتمثل ونقتدى جميعا بالإمام ابن حنبل حين وقف مقيدا ومكبلا ومضروبا بالسياط ومخنوقا بدوائر الحديد أمام الخليفة المعتصم قال له: يا أمير المؤمنين اذكر وقوفك بين يدى الله كوقوفى بين يديك.. فسارع المحيطون بالخليفة من المثقفين والكتبة ومداحى السلطان ووعاظه يتنادون : يا أمير المؤمنين، إنه ضال مضل كافر يرفض طاعتك وحكمتك ورؤيتك وخطابك..فأمر الخليفة بأن يرموا ابن حنبل فى السجن يقوموا بجلده وتعذيبه..وفى قلب الليل البهيم دخل على ابن حنبل زنزانته رفقة من العلماء ومفكرى العصر يحاولون إقناع ابن حنبل بعدم معارضة الخليفة و إعلان طاعته واستشهد أحدهم وهو المروزى بقول الله تعالى «ولا تقتلوا أنفسكم» ادعى بأن إصرار ابن حنبل على المعارضة يعنى بقاءه فى السجن مع الجلد والتعذيب والموت فكأنه قتل نفسه (شوف الضلالي؟) فرد عليها ابن حنبل : اخز يارجل (يعنى اختشى وخلى عندك

دم.!.) ثم طلب منه أن ينظر خارج السجن ليرى ما حوله، فخرج المروزى فرأى المئات من الشباب يمسكون بأقلام ومحابر فى أيديهم فسألهم : إنتوا هنا بتعملوا إيه ؟ فأجابوه : ننظر ما يقوله أحمد بن حنبل فنكتبه..فعاد فقال لابن حنبل : فيه جماعة قاعدين ماسكين أقلاما و ورقا منتظرين أى حاجة تقولها فيكتبوها..فقال له ابن حنبل :...أقتل نفسى ولاّ أضل هؤلاء كلهم!.

يارب اجعلنا من القابضين على الجمر واجعل آخر أيامنا فى الدنيا يوم نطمع فى الدنيا وما فيها..

اللهم نجنا من القوم الظالمين..

اللهم نجنا من فرعون... وعمله..

وقوانينه!

اربط الحمار!

الناس بتعمل إيه فى الزمن المهبب ده؟

السؤال يبدو وجيها ويوميا تسأله لنفسك الأمارة بالسوء، أو يسأله مواطن رذل لك بغرض إفحامك!

هذا واقع يسيطر عليه الفساد ويحكمه الاستبداد، لقد تحالف الفساد مع الاستبداد وكبسا على صدر البلد من ربع قرن وإذا تلفت فى الرايحة والجاية ستجد هذا السؤال موجها لك، إذا كان ما يحدث فى مصر هو ما تصفه وتخوت دماغنا به فى سطورك فكيف يعيش كل هؤلاء المواطنين فى هذا البلد؟

لدى إجابة رخمة مستفزة وهى أن الناس مش عايشة أساسا وهل هذه اسمها عيشة؟

الشعب المصرى هو ملك الحلول الوسط فقد قرر أن يفعل مثلما فعل الشيخ حسنى فى فيلم الكيت كات، هو أعمى لكنه لا يتصرف على أنه أعمى خالص! ورغم طرافة وروعة هذا الحل إلا أنه لا يغير حقيقة أن الشيخ حسنى أعمى!

وهكذا الشعب المصرى غطسان حتى أنفه فى الفساد والاستبداد ومع ذلك بيتصرف كأنه ليس موجودا، سواء هو، أو الفساد والاستبداد!

لكن طالما سألتنى ماذا يفعل الشعب المصرى وكيف يحل معضلة العيش فى هذا الواقع الظالم والقاهر فاسمح لى لو كان عند حضرتك وقت أشرح لك!

الحل الذى يلجأ إليه المواطن والحل الأكثر شعبية وجماهيرية فى هذه الفترة الحرجة التى تمر بها أمتنا (كل الفترات التى مرت بها أمتنا حرجة لدرجة محرجة لأى شعب محترم!) هو شعار: خلينا فى حالنا عايزين نربى العيال، وهو موقف يلتزم به كثير من المصريين ويؤمنون به إيمان يهود هارون بعجل السامرى الذى له خوار،

نعم فمصر فى معظمها من بتوع نظرية نربى العيال ورغم أن السعى على الرزق والعمل والكفاح من أجل تربية كريمة لعيالنا هدف شديد الاحترام والنبالة ولكن الحاصل طول الوقت أن عيالنا مبيتربوش، عيالنا، أى شباب مصر فى نظر كثيرين مش متربى، فليس هناك عصر انتشر فيه الزواج العرفى السرى الورقى بين الشباب أكثر من هذا العصر، والحقيقة التى نخجل جميعا من مواجهتها أن نسبة هائلة من الشباب (عيالنا) قد تعاملوا سواء أن تزوجوا عرفيا أو شهدوا على زواج عرفى أو شاهدوا زواجا عرفيا إلى حد أن هناك صيغا من هذه العقود تنتشر بين الشباب، ثم إن ظاهرة تعاطى البانجو هى الأكثر حضورا فى الساحة المصرية الآن من أى وقت مضى، ولن أتحدث هنا عن الجرائم العائلية ولا العقوق والتمرد على الأهل بل فقط نضع دائرة حول جرائم الشرف التى زادت وغطت، إذن على المستوى الأخلاقى فلا أظن أن عاقلا فى مصر يقول إن هذه فترة ذهبية للأخلاق بين الشباب (عيالنا الذين نربيهم).

نتنازل عن مناقشة ومساءلة حكامنا ونمنع أنفسنا خوفا ورعبا من معارضة الدولة أو الإتيان بسيرة مبارك أو ابنه أو الانسحاب من أى نشاط سياسى وحزبى من أجل أن نتمكن من تربية العيال وتوفير اللقمة والوظيفة لهم، لكن النتيجة لهذا كله أن العيال لا يعملون ولا يتوظفون فى قطاع عام أو خاص معدل البطالة فى مصر طبقاً للتقرير الاقتصادى الاستراتيجى ٢٩٪ من قوة العمل، أى حوالى ٨ ملايين عاطل من بينهم ٩٩٪ شباب، فضلا عن أن عددا هائلا من الشباب يعملون فى مهن متواضعة وبأجور حقيرة ولا يملكون قدرة على الزواج وبناء أسرة وشراء شقة، إذن ما هو سر نجاح نظرية خلينا نربى العيال رغم كل فشلها الساحق هذا؟ لا تربية أخلاقية واضحة ولا وظائف مأمونة ولا مستقبل مطمئن، ثم يبقى السؤال: وهل تكون تربية العيال وهى مكلفة جدا فى ظروف المعيشة الزفت اللى عايشينها على حساب القيم والمبادئ؟

يعنى بنربى عيالنا بإيه؟

بالرشوة..معظم عائلاتنا من الموظفين ومحدودى الدخل ومعدومى الدخل

كذلك، ولكى نوفر لعيالنا اللقمة والهدمة وفلوس الدروس الخصوصية ووصلة الدش وكارت المحمول، نرتشى مثلا!

وهناك أشكال كثيرة للرشوة مقنعة وواضحة، مستورة ومفضوحة، هل يصح أننا نربى العيال بفلوس حرام ونتغافل عن حرمتها بدعوى أننا نعمل إيه، هيه العيشة كده والبلد كده؟!

ثم لو فرضنا أننا أشرف من الشرف فالسؤال مرة أخرى:

يعنى بنربى عيالنا على إيه؟

على نفاق مدرسهم وناظرهم ورئيسهم فى العمل.

على الكذب والمشى جنب الحيط.

على الخوف والرعب وإحناء الرأس والدوس على الكرامة عشان نعيش، يا أخى يلعن أبو العيشة لو عن طرق النفاق ومسح الجوخ والجبن.

عموما يبقى أن هذه النظرية هى الأنجح والأنجع وأكاد أقول إن أصحابها هم حزب الأغلبية فى مصر.

فى الأهمية والجماهيرية يأتى الحل الثانى وهو اللجوء للدين، والحقيقة أن العيش فى دولة كل رأسمالها هو الفساد والاستبداد حاجة تكفر أى بنى آدم أو تدفعه للتطرف الدينى، والحمد لله أن كثيرين فى مصر اختاروا أن يتطرفوا أحسن من أن يكفروا، ومن ثم نرى هذه الحالة الظاهرة من التطرف، وبالمناسبة التطرف حاجة والعنف حاجة تانية (كما أن الحب حاجة والزواج حاجة تانية).

التطرف أفكار والعنف سلوك والاثنان موجودان بعون الله.

دعنا أولا نركز على التطرف فهنالك حالة (أو حاجة) محمومة لدى كثيرين فى الوطن للفرار من البؤس والفساد اللذين يعيشونها باللجوء للدين وهذا أمر محمود ومشكور ولكن التدين يأخذ نتيجة الغضب على الواقع (أو بالأدق الغضب من الواقع) شكلا عدوانيا وناقما على الآخرين، فلأن الناس محبطة ومنزعجة وطالع عين أبوها (أدركت ذلك أم لم تدرك) فهى توجه النقمة على الآخرين فبالضرورة القبطى فى نظر المسلم كافر والمسلم فى نظر القبطى كافر وهكذا، ثم تطرف أكثر فى الحكم

الأخلاق على الآخرين حتى لو من دينهم، فالعلمانى كافر رغم أننى أحلف على المصحف أن ٩٩% (إشمعنى أنا) من المصريين لا يعرفون معنى الكلمة ومع ذلك رأيهم أن العلمانى كافر والغرب منحل والشيعة روافض وبيعبدوا سيدنا على والبهائيين المفروض يتحرقوا وهكذا سلسلة من التطرف المتوالى المتتالى، إذن ينطرف المصريون باعتباره حلا فى مواجهة عجزهم (التطرف يشمل أغنياء وفقراء فهو حل فى مواجهة العجز وليس فى مصادمة الفقر!)، وتصبح الكراهية سلاحا ومنهجا ومقاومة.

ندخل على العنف الذى ليس هو التطرف، فليس كل تطرف عنفا ولكن كل عنف بالضرورة تطرف (لو لم تفهمها مش مهم، كمل فهى ليست حصة منطق) والعنف حل يأخذ أشكالا متعددة، العنف الداخلى والخارجى، الداخلى هو العنف مع الذات والأهل والأسرة وتعبر عنه مئات من حوادث القتل العائلى البشعة واليومية والخارقة للتصور والناسفة لكل القيم العائلية والإنسانية وأظن أن أى قارئ لصفحات الحوادث يكشف تلك الحقيقة وأظن كذلك أن حرص الدولة على عدم نشر تقرير إحصائى سنوى عن عدد جرائم القتل وغيرها فى مصر دليل على خوفها العميق من اكتشاف موثق لحجم التصاعد الرهيب فى الجريمة ليس فقط جرائم القتل العادية بل جرائم القتل العائلية..والبشعة، العنف الداخلى كذلك يتبين فى تصاعد عمليات ومحاولات الانتحار (زيارة بالصدفة لقسم الاستقبال بقصر العينى توضح لك الحجم الحقيقى لمحاولات الانتحار هذا مع الاعتبار أن كثيرا من حالات الانتحار ومحاولاته يفضل الأهالى إخفاءها والتستر عليها) ثم ينتقل العنف الداخلى إلى دائرة أخرى وهى الضرب والاعتداء البدنى سواء داخل الأسرة أو فى الشارع ولعل تزايد حالات البلطجة وسيطرة البلطجية على الواقع المصرى أمر لم يعد فيه شك ولا تشكيك!

الضفة الأخرى من العنف هو العنف الخارجى ومركزه الرئيسى العنف الدينى ومنذ سفر آلاف الشباب لأفغانستان فى نهاية السبعينيات ونحن نعيش حالة الحل العنيف والإرهابى والذى يلجأ لهذا الحل هو من يعتقد أن هذا الوضع

الفاسد والاستبدادى (الطاغوتى) الذى نعيشه لا يمكن إلا أن يكون نتيجة لنظام كافر يحكمنا ويخلط هؤلاء بين النظام الظالم والنظام الكافر وبينما يحاولون مقاومة الظالم فإنهم يحاربونه على أنه كفر فيزيد العك والبلاء والخبط والرزع والجهل والتخلف!!

نأتى لحل آخر وهو حل الوطن الموازى، هناك فى بلدنا قطاع واسع مش فى بلدنا أساسا، بمعنى أن شرائح كثيرة فى مصر(ليست كلها أغنياء بل فيها متوسطو الطبقة والثقافة كذلك) تعيش فيها وتعمل بها وترتزق من أعمالها ووظائفها ولكنها تعيش فى وطن مواز، صنعته هى بنفسها منفصلة عن مصر يأسا منها ومن أحوالها وخلاصا من التورط فى البحث عن حلول للوطن أو مشاركة فى تغيير هى ليست قده كما أنها لا تضمنه، هذه الشرائح تعيش جسدا فى البلد وروحا خارجه، فهى قد تعلم أولادها فى مدارس أجنبية وبعضها الكثير لا يعرف شيئا عن الثانوية العامة، وهى كذلك تشاهد قنوات الشو تايم والأوربت والقنوات الأجنبية وهى تشجع مانشستر وتشلسى وبرشلونة ونجومها هم توم كروز وبراد بيت ومسلسلها المفضل فريندز، وتتابع انتخابات الرئاسة فى أمريكا وفرنسا وغيرهما ولا تهتم حتى بمعرفة هل أحمد نظيف نظيف أم لا؟ وتخلق حياة على النت وتعيش فى مساحات من المدونات والشات ولا علاقة لها بصحف محلية وتظن أن شرم الشيخ هى عاصمة مصر!

الحل المطروح كذلك لدى قطاع ليس محدودا فى البلد هو أن نهج من البلد واللى شايف سفرية يسافرها واللى شايف هجرة يهاجر وهجرته إلى ما هاجر إليه، والمدهش وسط كل الرغى والرغو الذى نسمعه عن كراهية الشعب المصرى لأمريكا فهناك حسب عدد من المصادر أكثر من نصف مليون مصرى يتقدمون بطلبات هجرة سنويا لأمريكا وكندا وآلاف آخرين لاستراليا ونيوزلندا، وهو الحل المفترج لدى عديدين لا ينافسه سوى حل السفر للخليج!

هذه الحلول التى يلجأ لها المصرى تتحول إلى حيل، وتعريف الحل هو الأمر الذى تنهى به مشكلة أما الحيلة فهى الأمر الذى تفعله مع مشكلة لن تستطيع

حلها، ومن الحل للحيلة جاء الخلاص العبقرى الذى يمارسه المواطن المصرى تيسيرا لمشاكله وتسييرا لأحواله هو حل: اربط الحمار مطرح ما صاحبه عايزه!

وإذا كانت هناك ميزة أساسية للشعب المصرى فهى أنه يعرف تماما الحمار وصاحبه!

مصــــــــر تتصــــــل!

الذى تأمل تصريحات الرئيس مبارك عن العدوان الإسرائيلى على لبنان ومن قبلها ومعها وفى إثنائها غزة، يدرك أن مصر لا تفعل شيئا سوى الاتصال بإسرائيل، كل مهمة مصر باتت قاصرة على الاتصال بإسرائيل حتى تتصور أن مصر صارت «سنترالا» وليست دولة!

مصر لا تضغط على إسرائيل ولا تواجهها سياسيا (حاشا لله أن نغامر ونقول عسكريا) ولا تثير غضبها ولا تلوح فى وجهها، مصر تتصل! وكأن سياسة مصر الخارجية يحددها اشتراكها فى كارت آلو!

ورغم أن القضية الفلسطينية والوضع العربى ينحدر طوال الوقت من سيئ إلى أسوأ ومن نيلة إلى أنيل إلا أن الآلة المنافقة لا تتوقف عن الإشادة بدور مصر وحكمة رئيسها فى المنطقة!

وقد كان الرئيس مبارك واضحا جدا حين حكى عن دوره (الذى هو طبعا دور مصر) فى الأزمة الأخيرة حيث قال بالنص طبقا لجريدة الأهرام ١٧-٧-٢٠٠٦: إنه اتصل بإسرائيل للانتظار والتفكير فى الخطوة التالية التى يتعين القيام بها بعد عملية حزب الله.. (لم يقدم الرئيس أو مصر اقتراحا محددا لإسرائيل) ورد الإسرائيليون أن اجتماعا للحكومة الإسرائيلية سيعقد وسيتم الإعلان عن الموقف الإسرائيلى فى هذا الشأن انطلاقا من أن الحكومة الإسرائيلية حكومة جديدة وترغب فى أن يأتى قرارها متفقا مع الجهات السيادية فى الدولة. (وهو كلام يصدر عن الرئيس مبارك الذى لم تعقد حكومته اجتماعا لدراسة الموقف فيكفى دور واتصالات الرئيس مبارك) وقال مبارك: إن الإسرائيليين طلبوا منحهم فرصة للرد غير أن المسألة تصاعدت بسرعة.(لم يقل الرئيس كيف تصاعدت وهو قد

طلب منهم التهدئة؟ ولماذا لم يسمعوا نصيحة مصر؟).. مشيرا إلى أن جهود مصر فى هذا الشأن شملت الاتصال (الاتصال!) بسوريا لكى تتحدث مع حزب الله.

وقال الرئيس: لم تتوقف مصر عن الاتصال بالإسرائيليين أكثر من مرة يوميا (مصر بتتعب فعلا!) موضحا أننا أبلغنا الإسرائيليين أن ضرب المدنيين خطأ (وهى حقيقة كانت إسرائيل لا تعرفها قبل أن تقولها مصر لها فى التليفون) ويضيف الرئيس مبارك فى تصريحاته: خاصة أن الشعب اللبنانى أعزل (وهى حقيقة غائبة طبعا عن إسرائيل!) ويتعين عليهم التوقف عن تدمير البنية الأساسية فرد الإسرائيليون بأنهم يضربون البنية الأساسية لحزب الله (لم يقل لنا الرئيس مبارك بماذا ردت مصر على هذه النقطة الجوهرية التى كشفتها إسرائيل لمصر فى المكالمة؟! هل اقتنعت مصر، هل وافقت، هل رفضت؟).

وتواصل الأهرام التى أنقل منها بالنص والحرف: أضاف الرئيس مبارك فى معرض شرحه لبداية تفجر المشكلة أن مصر واصلت اتصالاتها ومشاوراتها بمختلف الأطراف وكانت حريصة على منع دخول الإسرائيليين إلى بيروت الأمر الذى كان سيترتب عليه عمليات تدمير المدينة ولو كنا تركنا الموضوع لكانت بيروت دمرت. (وكأن بيروت لم يتم تدميرها يا سيادة الرئيس! ثم كأن دورنا هو تخفيف حجم الدمار وليس إيقافه!).

وقال الرئيس مبارك إننا ندعو لوقف إطلاق النار حتى يتسنى التفكير بهدوء وترو فيما يمكن أن يتخذ من خطوات بشأن المشاكل مع لبنان أو فلسطين. (مشاكل، هل ما يجرى مشاكل، مجرد مشاكل مع لبنان أو فلسطين؟!).

ثم جاء الرئيس مبارك على الجزء المفضل للحكام العرب فى هذه الأيام وهو تلبيس حزب الله القضية، فقال: إن على الدولة فى لبنان أن تبسط سيطرتها على جميع أراضيها، وبالتالى فإنه فى حالة قيام أى طرف بأى عمل فإنه يتعين عليه أن يتشاور مع الدولة حتى يتجنب توريطها وحتى تكون الحكومة اللبنانية على دراية بما يحدث وتأخذ الاحتياطات اللازمة.

وردا على سؤال حول ما يتردد من مخاوف من جر دول أخرى إلى هذا

الصراع... قال الرئيس مبارك: إنه لابد من إعمال العقل والتفكير السليم فى الخروج من الوضع الراهن وعدم الجرى وراء الأفكار المتسرعة التى قد تورط المنطقة فى مثل هذا الوضع. (يتحدث الرئيس وكأن كل القرارات والمواقف التى تجرى إنما هى وفق اللحظة وابنة ساعتها وكأن الدول العربية لا تعرف الخطط بعيدة المدى ولا البدائل المدروسة الجاهزة، كأن السياسة العربية تدار على طريقة: يا ترى من يعيش وإحنا ولاد النهاردة!).

وحول إمكان استجابة إسرائيل لوقف إطلاق النار قال الرئيس مبارك إن من يعتقد بأنه يستفيد من الحرب فهو مخطئ بل ستؤدى هذه الحرب إلى تنامى الروح العدائية لإسرائيل فى أنحاء المنطقة العربية (هل هذه هى النتيجة التى تزعج مصر يا ترى؟! أليس للروح العدائية لإسرائيل ما يبررها من اغتصاب أرض واحتلال أوطان وقتل شعوب؟!) يضيف مبارك: وستخرج قوى متطرفة كثيرة ضد إسرائيل وبالتالى لن تكون إسرائيل رابحة من وراء هذه الحرب ولكنها ستكون خسارة لإسرائيل والمنطقة.. (والسؤال هل ما تفعله إسرائيل لا يستحق قليلاً من الشدة والتطرف لدى المعتدلين العرب؟! ألا يستحق قتل المدنيين وتدمير بلد عربى أن يظهر العرب بعض أنيابهم ولو الزائفة لإسرائيل؟! إن التطرف ضد الحكام والرؤساء العرب هو الذى سيزداد فى الحقيقة وهو الذى يخشاه الحكام، لكن عموما من فيكم ينتظر من إسرائيل أن تسمع نصيحة صديقتها مصر؟!).

إذن، إذا كان هذا الكلام هو ما تسمعه إسرائيل من أصدقائها الحكام العرب فهل تتوقع لها أن تتراجع عن ضرب لبنان وفلسطين بأعتى وأحقر الأسلحة، إن أى مواطن إسرائيلى متوسط الذكاء يسمع هذه البيانات والتصريحات يتأكد تماما أن الحكام العرب لن ينفخوا ريشة فى مواجهة إسرائيل فكل ما يملكونه هو مزيد من الاتصالات التليفونية وطلبات والتماسات بتخفيف الضرب والاعتداء!

المشكلة ليست فيما فعله حزب الله بل فيما يفعله الحكام العرب، فإذا افترضنا أن ما أقدم عليه حزب الله مغامرة فهل الحل لدى الحكام العرب هى تلك البيانات

والتصريحات والمواقف التى تمحو الهامش الفاصل بين العقل والجبن، بين السلام والاستسلام، بين الحكمة والخضوع!

ألم يكن ممكنا استغلال هذه العملية الشجاعة والماهرة والمبهرة التى نفذها بكفاءة حقيقية حزب الله بتهديد إسرائيل أن استمرار احتلالها لفلسطين والأرض العربية وسفك دماء واغتصاب أراضى العرب سوف يجعل الحكومات والدول نفسها تقوم بما قام به حزب الله، ألم يكن واضحا لدى حكامنا الجوانب الرائعة التى احتوتها عمليات حزب الله.. مثلا:

١- ضرب حزب الله الكبرياء الإسرائيلى فى مقتل حيث انهارت نظرية عدم قدرة العرب على مساس أمنه وحدوده.

٢- أنهت العملية أى أسطورة وهمية عن تفوق الموساد الإسرائيلى والمخابرات العسكرية فقد اخترقت عملية حزب الله هذا التفوق المزعوم وأركعته!

٣- أوصلت للشعب الإسرائيلى أنه ليس فى مأمن من الموت والقتل والاعتداء عليه فى بيته ومساكنه وأنه لا آمان بدون استرداد حق اغتصبته دولته!

٤- أكدت أن العرب ليسوا فئرانا ولا أرانب وليسوا كائنات مذعورة يشحت ويتسول حكامهم الآمان والسلام من إسرائيل!

٥- إذا كان حزب الله وهو مجرد تنظيم قد نجح فى اختراق إسرائيل وتهديدها فما بالنا لو فعلته دول وحكومات؟! أليس هذا ما يجب أن نقوله للصهاينة متطرفيهم ومعتدليهم؟!

لا أحد من هواة الحرب لكن لا يجب أن نكون كذلك من هواة الذل والضرب بالجزم من الإسرائيليين كل يوم سواء على حدود رفح أو فى الضفة وغزة أو فى لبنان أو سوريا، دون أن يستخدم ويستغل المعتدلون ما أقدم عليه المتطرفون، فدولة مثل إسرائيل تلعب دائما بفكرة التوازن داخلها بين الصقور والحمائم (المتشددون والمعتدلون) بينما فى مصر والدول العربية غير مسموح سوى بالحمائم وربما الأرانب أما الصقور أو من تتوهم الحكومات أنهم كذلك ترمى بهم فى

السجون والمعتقلات فالمطلوب من الشعوب والسياسيين العرب أن يكونوا أحذية وقفازات فى قدم ويد الحاكم، أما أن يختلفوا ويعارضوا فالتشهير والتخوين هو ما يتوعدهم والحبس والسجن والتعذيب هو ما ينتظرهم!

أما هذا الذل الذى يظهر مع كل إيماءة ولفتة وكلمة من الحكام العرب فهو ذل يكشف دونما عناء أن إسرائيل هى التى تحمى عروشهم وأنظمتهم سواء بتشغليهم فى دور الوساطة والوكالة والسمسرة السياسية أو بمنحهم رضاها ودعمها عند الرئيس الأمريكى حتى يسند عروشهم ووجودهم الأبدى على مقاعد الحكم وتوريث أولادهم حكم الأوطان!

لكن الذى يدعو للتساؤل فعلا إذا كان هؤلاء الرؤساء والحكام العرب أصدقاء لإسرائيل ولا يملكون سوى التوسط لديها وإبداء الاستشارة والنصح لها فلماذا ينفقون كل هذه الأموال على شراء الأسلحة وكل هذه المليارات الطائلة على الإنفاق العسكرى فالشرق الأوسط المنطقة الأكثر تسليحا فى العالم مع أن واحدا من الحكام العرب لا يريد أو يتوقع أو يقدر أو يستطيع أو يملك أو يفكر أو يحلم بمحاربة إسرائيل ؟!

والغريب أن منطقة الشرق الأوسط تحتل المرتبة الأولى على الصعيد العالمى من حصة النفقات العسكرية من إجمالى الناتج المحلى، حيث وصلت هذه النسبة كما يرد فى التقرير الاقتصادى الاستراتيجى الذى يرأس تحريره الخبير أحمد النجار ويصدر سنويا عن مؤسسة الأهرام إلى نحو ٦.٧% بالمقارنة مع ٢% فى غرب أوروبا، و٣.٦% فى أمريكا الشمالية، وتزيد النسبة فى منطقة الشرق الأوسط بأكثر من ١٦٠% عن المعدل العالمى، الذى كان يقدر بـ ٢.٥% لعام ٢٠٠٣، والأكثر أن منطقة الشرق الأوسط تحتل مرتبة متقدمة أيضاً من حيث نصيب الفرد من الإنفاق العسكرى للدولة، ويتحدد هذا المقياس من خلال قسمة إجمالى الإنفاق العسكرى للدولة على عدد سكانها، بحيث يتضح حجم العبء الواقع على عاتق الفرد الواحد من هذا الإنفاق.

وفى الشرق الأوسط ـ كما جاء فى البيانات المتاحة لدى معهد إستكهولم

الدولى لأبحاث السلام التى اعتمد عليها تقرير الأهرام - كان نصيب الفرد من الإنفاق العسكرى عام ٢٠٠٤ يقدر بنحو ٢٤٨ دولاراً، وبالنظر إلى متوسط الدخل الفردى فى المنطقة، يتضح أن نصيب الفرد من الإنفاق العسكرى فى الشرق الأوسط يمثل نحو ٥.٤% من دخله، فى حين إن نسبة ما يمثله نصيب الفرد من الإنفاق العسكرى فى غرب أوروبا يقدر بنحو ٢و٢%فقط (مع الفارق الواسع بين دخل محدود وربما معدوم فى الوطن العربى ودخل مواطن غرب أوروبا).

كل هذه الأرقام ومع ذلك يتحدث الرؤساء العرب عن استحالة مواجهة إسرائيل، طيب.. لماذا تكديس الأسلحة وتزايد الإنفاق العسكرى إذن؟! صحيح ما الحكمة وقد تعودنا أن كل حكام العرب عند منافقيهم حكماء؟!!

إن اللافت للانتباه أن سلطنة عمان التى لم تقل كلمة حاسمة أو غاضبة فى إدانة ما تفعله إسرائيل ضد لبنان تأتى فى المرتبة الأولى من حيث نسبة الإنفاق العسكرى من إجمالى الناتج المحلى، حيث وصلت النسبة إلى ١٢.٢% فى عام ٢٠٠٣، وتتبادل السعودية والكويت والأردن وإسرائيل المراكز الأربعة التالية، بنسب تتراوح ما بين ٨ و١٤%، (رغم أن السلام يعم ويرفرف بين الأردن وإسرائيل مثلا ثم لا حرب دائرة ولا منتظرة بين السعودية وإسرائيل) وتأتى بعد ذلك سوريا واليمن والبحرين ولبنان وإيران والإمارات، وتعتبر مصر أقل الدول من حيث هذا المعدل، حيث حافظت على نسبة من الإنفاق العسكرى تتراوح بين ٢.٥ و٢.٦% من إجمالى ناتجها المحلى.

وفى ضوء البيانات نفسها المتاحة لدى معهد إستكهولم الدولى لأبحاث السلام، نجد أن إجمالى الإنفاق العسكرى لمنطقة الشرق الأوسط قد وصل إلى نحو ٦٢.٥ مليار دولار، دون أن تتضمن هذه القيمة النفقات العسكرية لكل من العراق وقطر، لعدم إتاحتها، وأيضاً بدون أن تشتمل على ما تحصل عليه بعض دول المنطقة (مصر وإسرائيل والأردن) من مساعدات عسكرية من القوى الكبرى. ولدى توزيع هذه القيمة على الأقاليم الفرعية فى الشرق الأوسط، نجد أن

منطقة الخليج تستحوذ وحدها على نحو ٥٣.١% من إجمالى الإنفاق العسكرى للشرق الأوسط ككل وهى أموال وأسلحة يبدو أنها موجهة ضد إيران أكثر من إسرائيل أو موجهة من دول الخليج ضد بعضها! كما لا يعقل هذا الإنفاق فى دول ليس فيها جيوش بل معظم جنودهم وضباطهم مُؤجّرون (لا أقول مأجُورون) من دول غربية وأجنبية!! هذه الدول التى لم تحارب يوما تنفق سنويا ما قيمته ٣٣.٢ مليار دولار، فى حين تأتى دائرة الصراع العربى - الإسرائيلى فى المرتبة التالية بنسبة ٣٢.٥٥% بإنفاق قيمته ٢٠.٣٥ مليار دولار، (ونعلم جميعا أن حرب أكتوبر كما تحلف مصر هى آخر الحروب فضلا عن سوريا التى لم تطلق رصاصة منذ ٣٣عاما على إسرائيل والأردن كما ترى وليبيا كما لا تحب أن ترى) بينما تأتى منطقة المغرب العربى فى المرتبة الثالثة بنسبة ١٤.٣% بإنفاق قيمته ٨.٩٤٩ مليار دولار. وبمناسبة الموقف السعودى الواضح من حزب الله فإن الشيء بالشيء يذكر فالأرقام تذكر أنه ربما تكون السعودية قد وصلت لأعلى نسبة للإنفاق العسكرى من إجمالى الإنفاق الحكومى وقد وصلت النسبة أحيانا إلى أكثر قليلا من ٤٠%، (أى أن السعودية فى سنوات كانت تنفق ما يقترب من نصف إنفاقها السنوى على شراء الأسلحة) وتشير هذه الأرقام إلى أن نسبة الإنفاق العسكرى السورى من إجمالى الإنفاق الحكومى السورى وصلت إلى نحو ٦٤.٢٣%. أى أكثر من نصف ما تنفق بكثير، (تجدر الإشارة هنا إلى أن نسبة الإنفاق العسكرى الإسرائيلى من إجمالى الإنفاق الحكومى حوالى ٢٩.١٨%).

عمومًا حزب الله نجح فى قهر إسرائيل التى فشلت كل الدول العربية فى مواجهتها، لأن الدول العربية يحكمها هؤلاء الذى انتزعوا الحكم واغتصبوا الشرعية وزوروا الانتخابات ونهبوا الثروة وسرقوا الثورة وورثوا الأبناء، هؤلاء الذين دربوا شعوبهم أن تكون قرودا أمام حكامها تلعب لهم عجين الفلاحة! ونصبوا عليهم كذلك وأوهموهم أن الشجاعة حماقة وأن الكبرياء بلاهة وأن العزة شطط وأن الحرب هزيمة وأن العدو أسطورة وأن إسرائيل لا يمكن أن تُهزم وأننا لا يمكن أن ننتصر. وتحول الحال إلى أن الشعوب التى تسجد لحاكمها الظالم لا تجد مشكلة فى أن تركع

أمام عدوها الغاشم.

لا أمل فى نصر على إسرائيل قبل الانتصار على الاستبداد والفساد الذى يحكم الوطن العربى، لكن متى النصر على العدو؟، أقول لكم متى: حين تكون الأمة العربية أمة حرة فى الرأى والفكر ونستطيع إجراء انتخابات حرة شريفة (بلاش نزيهة) ننتخب فيها من أكبر مسئول إلى أصغر نائب، عندما تكون هناك حرية إصدار صحف وبرلمان يستطيع أن يحاسب ويعاقب ويرفد وزراء ورؤساء! عندما نتوقف عن التعامل مع الحاكم والرئيس على أنه مقدس أو نبى أو ولى!

الحكام العرب لا يبحثون عن الحق والعدل بل يبحثون عن راحة الدماغ، الهدف الأسمى هو السعى العربى الرسمى لاستقرار الحكم، أنهم لا يبحثون عن حق بل عن حل والفرق شاسع هائل، والحل المطروح هو الاعتراف بقوة وقدرة إسرائيل، شعار الحكام العرب الخضوع لإسرائيل مقابل البقاء والاستمرار فى الحكم وعلى العرش، طيب إذا كان الكل موافق بالصلاة على النبى مانقرا الفاتحة، آه هناك مشكلة مؤرقة للجميع وهى الجماعات والمنظمات الرافضة للتسوية الإسرائيلية مما يفشى عجلة السلام، الحل إذن أن تقوم إسرائيل وتشيل الليلة تعتدى وتحتل وتسجن وتغتال وتخطف وتطرد وتضرب فتحقق غاية الأرب لحكام العرب: تركيع الحركات الرافضة للتسوية وطحن عظامها والتلويح لغيرها بنفس العاقبة وتنزيل مستوى الطموحات والمطالب العربية؟ فبعد أن رفض العرب قرار التقسيم (منذ حوالى ٦٠عاما) عليهم الآن بعد كل هذا العجز والعار والهوان الرضا بالمقسوم.!

كل يوم عاشوراء.. وكل أرض كربلاء!

المواطن الطبيعى الذى يذهب كل يوم إلى عمله ويعود مجلوكا وممزقا من تعب السعى على الرزق وانتزاع مئونة أولاده من فم الأيام السود، يأكله الأسى والغضب على ما يجرى فى لبنان وفلسطين وهو يرى شعوبا تموت وأرضا تضيع ودولا عاجزة وحكاما يكذبون!

وحين يجلس على الكنبة أمام التليفزيون منكمشا وربما مرتعشا محموما ومكدودا ومحروقا دمه (إذا كان عنده دم أصلا!)، يدرك أنه أمام كل ذلك بلا حول ولا قوة، الغضب يتملكه تماما والرغبة الهائلة فى نصرة أبناء دينه وعروبته تسيطر عليه كلية، لكن فى تلك اللحظة يسأل نفسه أوتسأله زوجته ماذا يفيد أن تجلس وتأكل فى لحمك ونفسك وأعصابك وأنت لا تملك أن تفعل لهم شيئا، إذا أردت أن تتظاهر فى الشارع فالتظاهر ممنوع (التظاهر الوحيد المسموح به فى مصر هوالتظاهر بالسعادة!) والأمن المركزى سوف يضربك ويعدمك العافية وربما تترمى فى التخشيبة ويسخر منك الضابط ويقولك «فاكر نفسك وطنى ياروح أمك، وعايز تبقى بطل وتحرر فلسطين وتحارب مع نصر الله يا خرع» التظاهر فى أوطاننا حتى لإعلاء الصوت وإعلان الرأى ممنوع وعواقبه لا يتحملها إلا الصيع بتوع السياسة والإخوان المسلمين (هكذا تقول لك زوجتك أوأمك وأنا أعرف أنك ممن يسمعون كلام أمه وزوجته)، مالك أنت بيهم، تريد أن تتضامن وتتبرع للشعب اللبنانى مثلا وماله لكن منين يا حسرة ثم إنت بتتبرع بشريط نانسى عجرم اللى الواد ابنك بيشتريه، دروس أولادك الخصوصية ومصاريف المصيف كرباج على ظهرك يمنعك من التهور والتبرع بالمال، تريد أن تقاتل فى سبيل الله طيب ومن يقاتل فى سبيل عيالك؟، وتصور أنك سوف تتجاهل العيال فلمن تذهب؟

وإلى أين ومع من؟ لا أحد ولا شيئ ولامكان ولا حدود، وربما يعتبرونك إرهابيا وقد ينهال عليك الضابط ضربا وهو يسألك إنت من أى جماعة يا وله؟!

أعرف أن هذا حال كثير أوقل معظم أو بالأمانة كل المواطنين فى بلدنا لكن هذا كله رغم أنه حقيقى ومنطقى ويثير التعاطف والتقدير لا يغير النتيجة، أننا جبناء وضعاف ولا ننتصر للحق..ولا نقف ضد الظلم، نعم أنا موافقك تماما، كل ما شرحته من أسباب للعجز حقيقية لكن وجود أسباب قوية لا تغير من النتيجة، والنتيجة أننا نختبئ تحت السرير بينما نحرك الريموت كنترول على أخبار عاشوراء ونشاهد كربلاء فى النشرة!

إذا لم تكن هذه هى عاشوراء وإذا لم تكن هذه هى كربلاء فبالله عليكم ماذا تكون؟

ألا يجتمع عناصر الشر والشره والنفوذ والسلطنة والقوة والغطرسة والظلم والاستبداد بجحافل من الجيوش والترسانات والأسلحة لتقتل رجلا واحدا وبضعة عشرات من أنصاره وشيعته...ونحن نتفرج!

أليس حكام ورجال مبارك وعبدالله الثانى وعبدالله الأول وعبدالله من غير أول ولا ثان والقذافى وزين العابدين والبشير وغيرهم يقفون الآن فى جيش يزيد بن معاوية يطلبون دم الحسين مقتولا ومغدورا وشهيدا.. ونحن نتفرج؟!

أليس نحن شعوب العالم العربى الذين نتفرج على ما يحدث لحزب الله من حصار وضرب وقتل وذبح وتوغل وتغول دون أن نفعل شيئا ودون أن نتحرك ودون أن نقاوم ودون أن ندعم ودون أن نخرج من تحت السرير؟!

نحن نشهد ونتفرج كما لوكنا أهل الكوفة والعراق نتابع حصار جيش يزيد للحسين فى الصحراء يمنع عنه الماء والزاد ويحرق خيام النساء ويرمى السهام على الأطفال!

تماما كأن كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء!

حتى لولم تكن ترى ضرورة للمقاومة، حتى لوكنت تعتقد أن حزب الله زودها وانشق عن حكومة لبنان، حتى لوكنت كارها لحزب الله ولا تطيق حسن

نصر الله، لكنه فى النهاية يقاوم عدوا، والعدو يقتل مدنيين ويحطم الزرع والأرض، حسن نصر الله لم يقتل مسلما ولا مسيحيا ولا عربيا ولم يفجر سيارة مفخخة أمام قهوة سياح، ثم إنه يضحى بروحه من أجل استرداد أرض عربية وليس لمغنم ولا مكسب ولا رصيد فى بنك ولا توكيل سيارات أو محمول أواحتكار حديد أو أسمنت، مهما كانت مشاعرك السلبية تجاه حزب الله أفلا يكون واجبا نصرة الضعيف والتصدى للمتكبر المتجبر المفترى خصوصا لوكان محتلا لأرضك ووطنك، نحن نرى لبنان تتحطم وأطفالا تموت (٣٠٪من ضحايا العدوان الثلاثى «إسرائيل -العرب- أمريكا» على لبنان من الأطفال)، والعدو يدهس بلدا عربيا وشهداء فى جنوبها يقاومون العدوان الثلاثى يحاربون وحدهم مخلصين ومرفوعى الهامة طلبا للشهادة على أرض كربلائية ونحن نتفرج!

جيش يزيد بن معاوية بقيادة شمر بن الجوشن يملك سلاح الطيران خمسمائة من الرماة، رشقوا خيل اثنين وثلاثين فارسا من رجال الحسين بالنبال والسهام فلم تلبث أن عقرت جميعها وصار جميع أصحاب الحسين فرادى راجلين واقفين على أقدامهم فوق الأرض البطحاء التى رويت بدمائهم الزكية وعلى حين كانت الأحصنة تهدر بالتراب والغضب، تحمل الألوف ضد أفراد جيش الحسين محدودة العدد والعتاد، والمترجلة على التراب اشتعلت النيران فى خيام الشهداء وأحرقوها عن آخرها، هجم أحدهم على فسطاط الحسين حتى طعنه برمح فكاد يهوى على نسائه وأبنائه وإخوته فصرخت النسوة، ومزق صراخهم نياط القلب حين نادى متوحشا:

أتونى بالنار حتى أحرق هذا البيت على أهله..

فصاح به الحسين:

«حرقك الله بالنار».

التفت رجال الحسين، رجال المقاومة، صحبة الحسين من حزب الله أمام جنود حزب الشيطان والطغيان والفساد والاستبداد، رجال المقاومة قلة يعدون على أصابع اليد الواحدة باتوا لا يستطيعون أن يمنعوا حسينا ولا أنفسهم،

فتنافسوا فى أن يستشهدوا بين يديه.

اقترب من الحسين أحد أصحابه قائلا:

أفلا نروح إلى الآخرة ونلحق بإخواننا؟!

فقال الحسين:

رح إلى خير من الدنيا وما فيها وإلى ملك لا يبلى.

فهتف به:

السلام عليك يا أبا عبد الله صلى الله عليه وعلى أهل بيتك وعرّف بيننا وبينك فى جنته..

قال الحسين:

«اللهم آمين »

فقاتل حتى قُتل..

ثم قُتل على الأكبر بن الحسين (ألم يمت كذلك ابن سيد حزب الله!)، مضيئا منطلقا، رافعا سيفه على الظلم وفرسانه والدنيا وزينتها، بين لحظة وأخرى ينظر لأبيه فيشرب يقينه ويمتص رحيق جهاده، ويعدو على العدو يقتل ويصرع حتى اجتمع حوله حشد من سيوف جيش يزيد التى تزاحمت فوق جسد الشاب ابن حفيد رسول الله، وأعملت فعلها الوحشى السافر فى الفتى..

اقترب الحسين محتسبا الأجر عند ربه ولثم ولده (جدته هى أعظم نساء الأرض فاطمة بنت محمد التى قال عنها نبينا «من أحب فاطمة فقد أحبنى ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني» فمابالك بمن يقتل حفيد فاطمة؟!) بكى الحسين ابنه بدمعه الطاهر المطهر وهمس الحسين:

- قتل الله قوما قتلوك يا بنى، ما أجرأهم على الرحمن وعلى انتهاك حرمة الرسول، على الدنيا بعدك الفناء..

ثم التفت ..

احملوا أخاكم...

اندفع ساعتها غلام من آل الحسين، عليه إزار وقميص، مذعورا من صوت

السيوف ولون الدماء وعصف الجثث، يلتفت يمينا وشمالا باحثا عن حضن دفيء ينقذه من بشاعة ما يحدث، فإذا بجندى من جيش يزيد بن معاوية يقبل راكضا بفرسه، حتى إذا دنا منه..مال عليه..وقطعه بالسيف!

وبينما وقف صبى من أبناء الحسين فى حجره محتمياً بأبيه حفيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد حاول أن يغمض عينيه مبتعدا عن الدم المسكوب والجرح المفتوح، إذ رماه أحدهم بسهم - فذبحه فى حجر الحسين..فتلقى الحسين دمه فى كفيه ثم صب الدم على الأرض وبيده الملونة بدماء ابنه رفعها لربه : «رب إن تك حبست عنا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير وانتقم لنا من هؤلاء الظالمين...».

مرت دقائق القتال عصيبة ودنت الشهادة حتى أعناق الرجال وعطش الحسين واشتد به العطش، فاقترب ليشرب من الماء، فرماه واحد من جيش يزيد بسهم فوقع فى فمه فجعل يتلقى الدم من فمه ويرمى به إلى السماء:

«اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا

ولا تذر على الأرض منهم أحدا..».

ودخل الحسين معركته الأخيرة عطشان..

للماء..والشهادة.. ولقاء ربه..

وحيدا الآن..

وحيدا جدا..

الحسين أمام أربعة آلاف مقاتل إلا قليلا..

وحيدا فى الصحراء والرمال والقتال والعدل والنقاء والبقاء وحيدا تماما..

النساء يقفن أمام الخيام، ينظرن باكيات مروعات مفزوعات لهذا المشهد اللانهائى.

على بن الحسين طفله الصغير العليل المريض فى حضن السيدة زينب ينظر وهو معروق محموم هذا المشهد المفجع..

وحيدا جدا...

خيل سقطت وأخرى وقفت مجهدة مرهقة، مدلاة الأذن والرءوس، أجساد ألقت..ودماء انتثرت وأعضاء بعثرت، وسيوف تكسرت ورماح تحطمت وثياب تمزقت وخيام أحرقت..

وحيدا تماما..

والكل يعرفه..

وحيدا جدا..

نادى قائد الجيش فى الناس:

ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل... اقتلوه..

فحمل عليه من كل جانب.. وضربه سيفا فى كفه اليسرى ثم ضرب على عاتقه، وانفضوا عنه وهو ينوء ويكبو..

وحمل عليه أحدهم فطعنه بالرمح..

فوقع ..

جثا على ركبتيه وكتفيه.. وصدره..

التفوا واستداروا وعبثت خيولهم بالرمال..

واندفعوا..

وانهالوا بالسيوف على جسده..

ثم هتفوا:

احتز رأسه..

فنزل أحدهم عن فرسه وذبحه واحتز رأسه..

ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة فى جسد الحسين ورأس مقطوعة لشهيد ذبيح.

تقدموا فانتزعوا سيفه وثيابه..

وسرقوا سراويله (...)

وبقى وحيدا..

وحيدا تماما، عاريا على الأرض المنكوبة..

ثم تقدم القتلة بخيلهم فداست على عظامه ولحمه ومرت على جسده وضغطت على أطرافه وحطمت بدنه وأصابته بالكسور والرضوض والجروح.

حوافر الخيل فوق صدر الحسين الوحيد الشهيد ابن بنت رسول الله!

يومها كان الأمراء والولاة ورجال المال والأعمال من التجار متحالفين ومنضمين ومتضامنين مع يزيد بن معاوية وهو يأمر بقتل الحسين حتى لا يسمع بعد ذلك كلمة عن المقاومة الشريفة للطغيان، عن مواجهة الاستبداد والفساد، كانوا مع الأمير والسلطان يزيد ضد الثائر المقاوم الحسين بن على، كأن تحالف الملوك والرؤساء العرب مع إسرائيل هو نفسه لذات الأسباب، من أجل العروش والنفوذ والثروة والتجارة!

أما نحن الشعوب فقد خذلنا بضعفنا وخوائنا وتذللنا كل حس للمقاومة الحسينية فى كربلاء أوفى لبنان، لأننا نريد الدنيا (حتى لومغموسة بالعار والذل والهوان التى تعودنا عليها من حكامنا ورؤسائنا ومن أعدائنا كذلك)، لأننا جبناء، لأننا لا نقدر على مواجهة ومجابهة الطاغية الذى يحكمنا ويشد اللقمة من جوفنا، لأننا نخشى عسكرى الأمن المركزى ومخبر القسم فكيف نظن أننا سنواجه عسكرى المحتل!

ليت ما يجرى يشبه فقط كربلاء! بل إنه يماثل ويشابه بل ينطبق تماما على ما جرى مع الحملات الصليبية!

إن أصحاب الجلالة والفخامة الملوك والرؤساء العرب مع إسرائيل وأمريكا لضرب حزب الله والمقاومة فى فلسطين هم أحفاد بعض الذين هادنوا وتحالفوا مع الصليبيين فى غزو وضرب واحتلال الدول والمدن المسلمة أثناء الحملات الصليبية مقابل ألا يدمر الصليبيون مزارع الفواكه وأشجار العنب التى يملكونها..آه والله العظيم حصل!!

كان الوطن العربى والإسلامى ممزقا كالعادة، إمبراطوريات مفكوكة الأوصال (والمفاصل)، دول مشردة ومشرذمة، حلب،حمص، الموصل،بيروت، عكا، حيفا، القاهرة، دمشق، كله على كله، يحاربون بعضهم ويقتتلون فيما بينهم، دخل

الصليبيون بعد حصار طويل إنطاكية ثم بدأت الدول تسقط وتتساقط تحت سنابك وبنادق وقنابل الصليبيين وبدأ كل أمير عربى يطلب الأمان،أمير يصالحهم على أساس تقديم بعض المرشدين والإمدادات فى مقابل عدم التعرض لأراضيه (التعاون المخابراتى والأمنى) وآخر يصالحهم على مال يدفعه لهم وثالث (خد بالك من تلك والنبى) يصالحهم على أن يكون لهم ظاهرا «خارج» المدينة وأن يكون له داخلها (المهم أن يتركوا له داخلها!) وعندما مر الصليبيون بمدينة (دويلة) أصاب أهلها الرعب من هدم الحدائق والبساتين فسمحوا لهم بالمرور وتسليمهم معونات وهبات مقابل عدم المساس بالشجر أوهدم تكعيبات ومزارع العنب! أما أحد الحكام فوعدهم بتسليم مملكته لو تمكنوا من احتلال القدس!!

إن أخيب حاجة هى الاعتقاد أن هزيمة حزب الله الهدف الوحيد للعدوان الثلاثى (إسرائيل -العرب- أمريكا) على لبنان، الهدف أعمق وأبعد من ذلك!

الهدف هو ضرب روح الكبرياء والكرامة داخل الوجدان العربى، وتحطيم رغبة الانتصار لدى المواطن العربى!

والأطراف الثلاثة تكسب تماما ونهائيا فى هذه المعركة:

إسرائيل تكسب سيطرة وهيمنة وقوة عليا فى المنطقة وإعلانها الملك المتوج والباب العالى للشرق الأوسط، تمسك بمقاليد العالم العربى الذى يخضع لها بضعفه العسكرى وخنوعه الوجدانى وتخلفه التكنولوجى وتراجعه الحضارى واستبداده السياسى، أمة من القاهرة حتى الرياض ومن دمشق حتى مراكش لا تملك حق النطق أمام القوة والهيمنة الإسرائيلية!

السادة أصحاب الجلالة والفخامة الملوك والرؤساء العرب سيكسبون تحطيم روح المقاومة والكبرياء فهذا كفيل بشعب من النعاج وقطيع من الأغنام يسلم لحكامه بأبدية على العرش ووراثة للأوطان وتحويل الشعوب إلى خصيان فى قصورهم لا رغبة ولا قدرة، ثم توقف أمريكى عن المطالبة والضغط بالإصلاح السياسى وتعميق حالة التحالف الاستراتيجى بينهم وبين الأمريكان فتحصل النظم الحاكمة فى القاهرة والرياض وعمان وطرابلس وتونس وشتى العواصم العربية على

الرضا الأمريكى بدون إزعاج ولا مماحكة حول الإصلاح والديمقراطية، فضلا عن أن ملك الغابة الإسرائيلى سيحتاج معاونين فى المنطقة من ثعالب وذئاب وكلاب ويمكن لإسرائيل أن تقتطع لكل نظام دوره ومهمته (هذا ينبح وذلك يعض)!

أما أمريكا فتكسب ما كسبته إسرائيل والحكام العرب وما خسره العرب!

قلت وسأقول إن التحالف العربى الرسمى مع شروط وتعليمات وأوامر إسرائيل فى إنهاء حزب الله ليس مقابل تسوية بعيدة بليدة لقضية فلسطين والحصول بعد كام سنة على قطعة أرض ممزقة الأوصال ونسميها فلسطين بل لأن المهم لدى الحكام العرب هو أن تهدأ الأوضاع وينطفئ الحريق وربنا يعمل اللى فيه الخير، فقط يظل عرش الحكام ثابتا، أولا من ناحية الشعوب، فتهدأ وتتلم واللى فاكر نفسه راجل بكره نلبسه طرحة! ومن ناحية أمريكا، فتخف وترضى علينا كونداليزا ومفيش داعى للنقرزة كل شوية فساد، دكتاتورية، تزوير انتخابات، تداول سلطة، حقوق إنسان وقلة القيمة مع الأخ جورج بوش!

خلاص خدوا راحة بال إسرائيل وهيمنتها وسيطرتها وتغور حماس وحزب الله واتركونا أحرارا مع شعوبنا ياكش نولع فيهم بجاز، مالكوش دعوة!!

حُكم الديناصورات

عندما تسمع أكثر من مسئول حكومى يرغى ويثرثر بكلام يتخيل بسذاجة سياسية مفرطة أنه كلام قوى وثورى حين يقول إن مصر لو تعرضت لعدوان على حدودها أو لتهديد على أراضيها فإنها لن تقف ساكتة بل سترد وتحارب دفاعا عن نفسها، والسؤال هنا هو: وما البطولة فى ذلك (يا ناصح يافالح) وما الشجاعة أو الجسارة فى مواجهة عدوان على حدودك وأرضك؟! وهل أنت منتظر أقل من ذلك؟! وماذا تفعل أى حكومة محترمة (بعيد عن السامعين!) حين يهاجم أرضها وحدودها عدو إلا أن تدافع عن نفسها؟ ما الذى يدعو للإعجاب بمثل هذا المسئول الذى يقدم نيته للدفاع عن أرضه لو تعرضت لهجوم عسكرى كأنها فضل وقوة وبطولة، يا نهار أسود ما أحسن يكون فاكرها شجاعة وشيئا لم يأت به الأوائل من الشعوب والجيوش؟ وهل هو متصور أننا ننتظر من حكومتنا عندما نتعرض لهجوم وعدوان أن تنعق بما تصر أن تنعق به دوما، رعبا وفرقا وفزعا من أن سلامنا خيار استراتيجي؟

لكن ببغاوات وغربان السياسة والصحافة لا يزالون يرددون هذا الكلام الغث والفارغ وهم متحمسون له جدا فى تعصب وكأنهم أتوا بالتايهة، لكن تعالوا أولا نعد إلى موقف مصر الذى بدا من اليوم الأول للعدوان على لبنان موقفا متواطئا مع العدو ولعل ما كتبته مجلة نيوزويك (عدد ١-٨-٢٠٠٦بقلم ريتشارد وولف) يوضح حقيقة الموقف المصرى دون لبس أو التباس، تقول نيوزويك (تركيزه حتى الآن (يقصد بوش) يتمحور حول كسب دعم الأصدقاء من الزعماء العرب، بوجود هاتفه المؤمن أمامه يتدرب بوش على ما يحتاج قوله لملك الأردن عبدالله والرئيس المصرى حسنى مبارك ورئيس وزراء لبنان فؤاد السنيورة،

يقول بوش للزعماء إنه يحاول تهدئة الوضع بتحذير إسرائيل من إسقاط الحكومة اللبنانية حديثة العهد ويطرح عليهم المخاطر كما يرى أن إيران تحاول السيطرة على المنطقة وإسرائيل قد تسقط حكومة بيروت، وسوريا قد تسيطر ثانية على لبنان ومع ذلك فهدفه الرئيسى هو الحصول على موافقة منهم بأن حزب الله هو الشرير ويقول لهم: المجرم الحقيقى فى هذه الحالة الجناحان العسكريان لحماس وحزب الله، تسير المكالمات على نحو جيد ويتفق الزعماء العرب مع الرئيس ويرفع هادلى "مستشار الأمن القومى " إبهاميه باتجاه الرئيس للدلالة على النجاح وتبتسم رايس ابتسامة عريضة وهما يصغيان عبر هاتفيهما الخاصين) ليس غريبا إذن أن يتهم البعض حكومة وحكم مصر بالتواطؤ مع الأمريكان والإسرائيليين سياسيا لضرب حزب الله وتدمير لبنان (من أجل الخلاص من حزب الله كما تدمير غزة والضفة للخلاص من حماس) ومع هذا الاتفاق منذ اليوم الأول مع بوش فى التليفون يبدو كل تصريح أطلقه مبارك وكل كلمة قالها الوزير الحقل أحمد أبو الغيط بديهيا جدا ووفق تحالف (أو سمه ما شئت) مع الأمريكان فضلا عن أننا ربما سنعرف المزيد عندما يكشف أولمرت أو حكومته أو صحافته عما دار كذلك فى مكالماته مع الزعامات العربية لندرك أبعادا نحسها ونلمسها لكن إسرائيل كفيلة بتقديم أدلة دامغة أوضح وأكثر من مجرد تصريح زعاماتهم أن حكاما عربا طلبوا منهم التخلص من حزب الله، وحين يعلن أى مصرى رفضه التام والمطلق لمنهج الحكم المصرى فى التعامل مع العدوان الإسرائيلى على لبنان، يسارع أهل الحكم وتابعوهم بالهجوم على منتقديهم ومعارضيهم ووصفهم بأنهم لا يعرفون ولا يجيدون سوى حرب الميكرفونات فى الفضائيات، وهو تعبير يقولونه وهم فرحون به جدا كأنهم لقوا كنزا وعثروا على منجم ذهب، والغريب أنه تعبير يفضحهم أكثر مما يفضح غيرهم فإذا كان معارضوهم يخوضون حرب ميكرفونات فماذا يفعل السياسى المصرى سوى أن يحارب حرب المكاتب المكيفة! أو أى سياسى أو كاتب من كتبة الحكومة الرسميين يكتب حرفا أو يصرح بأمر أو يلتقى بشخص إلا وهو فى غرفة مكيفة وتحت يده ريموت كنترول لينتقل بين المحطات التليفزيونية! فأين هى

الحرب التى يخوضونها وفى أى شيء تختلف عن حرب الميكرفونات؟! فضلا عن أن مسئولينا كذلك يخوضون حربا أخرى هى حرب التليفونات فى مواجهة حرب الميكرفونات فكل ما يفعله نظام الحكم هو مكالمات تليفونية إشى لوزيرة خارجية أمريكا ونائب كونجرس أو زعيم كتلة برلمانية فى سنغافورة أو سكرتير مسئول فى الأمم المتحدة أو زعيم دولة شقيقة نحكى له فى التليفون عن الكام تليفون اللى أجريناهم!! وهكذا تفرق فى إيه حرب الميكرفونات عن حرب التليفونات؟! حتى إن مبارك يحدثنا طول الوقت طيلة الحكم عن دوره (التليفونى) فى الوساطة بين الفلسطينيين وإسرائيل لكن ما النتيجة؟ الرئيس مبارك لا يستطيع حتى أن يضغط على إسرائيل لفتح معبر رفح ولم يستطع يوما أن ينتزع من رابين أو نتنياهو أو شارون أو أولمرت شيئا (لا أقول نصرا) لصالح فلسطين والأوضاع تتحدر وتنهار والسؤال مرة أخرى لماذا؟ لأن إسرائيل لا تخشى مصر ولا تخافها بل تتعامل معها باعتبارها الدولة الوسيطة وليست الدولة الضاغطة من هنا حين يصرح مبارك -ياللهول- أنه قد سحب السفير المصرى من تل أبيب مرتين منذ سنوات ولم يحدث شيء فهذا يجيب عن السؤال الأهم ماذا حدث لمصر؟ لماذا لم تعد كبيرة مؤثرة؟ لأنها أصبحت قليلة الحيلة عاجزة عن فعل أى شيء أو أى جديد! هى خامدة خاملة استسهلت دور ساعى البريد وتمشى وراء أمريكا أينما ذهبت بها بل تتبنى عداء سافرا تجاه إيران لأن إيران تسعى أن تكون كبيرة فى الوقت الذى تصغر فيه مصر مبارك وتلوم الآخرين على أنهم يكبرون.

قلت من قبل إن مصر تحولت من دولة كبيرة فى الشرق الأوسط إلى سنترال، وتختلف فى إيه حرب التليفزيونات عن حرب التكييفات؟ ثم إن الحكم يشن فى تليفزيونه هجوما دعائيا تمجيديا للرئيس وحكومته وسياستهم الحكيمة فى أزمة لبنان، بل يخرجون فى التليفزيون نفسه وأمام الميكرفون ذاته ليهاجموا حرب الميكرفونات والفضائيات (دعنا نذكر أن إسرائيل لم تستطع على مدى شهر كامل من الحرب ضرب أو تدمير أو تخريب أو تعطيل بث محطة المنار التابعة لحزب

الله)، والحقيقة أنه يثير الرثاء على مصر التى باتت تدافع عن نفسها بالتليفزيونات الفاشلة فى مواجهة التليفزيونات الناجحة!

لكن الاحتقار البادى فى كلام مسئولى حكوماتنا عن الميكرفونات والفضائيات يكشف فيما يكشف عن جهل بقواعد الصراع العالمى وأدوات العصر فى إدارة معارك الأمم (الكلمات السابقة تحتاج مدرسا خصوصيا لشرحها لمسئولينا!!) فالإعلام الآن هو أحد أهم أسلحة الحرب السياسية والعسكرية ويلعب دورا مذهلا فى صناعة القرار السياسى بل العسكرى وليس أدل على ذلك من الحرص الإسرائيلى والأمريكى المذهل على تقديم إسرائيل فى موضع الضحية وعمليات الغسيل اليومية لقلب وفكر الشعوب الأمريكية والأوربية ومنع الصوت والصورة اللبنانية والفلسطينية عن الظهور فى وسائل الإعلام ومحاصرة أى صحيفة أو محطة تليفزيونية تبدى موضوعية أمام ما يجرى فى لبنان وفلسطين بل منع نقل صور شهداء مجازر ومذابح إسرائيل، والأوامر والتعليمات لحكامنا العرب بالكف الفورى عن موجات العداء لإسرائيل فى الفضائيات، أليس هذا دليلا على أهمية الإعلام وخطورته وضرورته؟ وأنه يمكن بل هو ممكن وحادث وحالى وجارى أن يكون الإعلام حربا وسلاحا عقليا وعسكريا فى الوقت ذاته، ويمكن بل هو ممكن وحادث وحالى وجارى حاليا بنجاح ساحق أن تحولت الميكرفونات إلى دبابات وطائرات وقنابل وليست موضعا لتهكم وسخرية فارغة من سياسيين قاصرين عن فهم تطورات العصر ومقتضيات الزمن صاروا مثل ديناصورات متحف الأحياء المائية أثرا على ما كان وليس تأثيرا على ما يكون!

لكن هذا التهوين والتحقير الذى يبديه الإخوة المسئولون تجاه الإعلام والدعوة والفكر والمظاهرات وصيحات البطولة وصراخ الوطنية يبدو تعبيرا عن احتقارهم للرأى العام والجماهير ورأى المواطنين، لاشيء مهم لديهم سوى مدح وتمجيد وتقديس وتعظيم كل قرار وموقف للسيد الرئيس، حيث يلغون عقولنا وأفكارنا ومطالبنا ولا يعترفون إلا برأى الرئيس وموقف الرئيس وتوجيهات الرئيس وقرار الرئيس وطائرة الرئيس والرئيس نفسه ومؤخرا ابن الرئيس، وكأن مواقف مصر

وقراراتها كلها فى يد الرئيس يفعل فينا وبنا ما يشاء وقتما شاء، كأن مصر وشعب مصر مصروفان للرئيس على سبيل الأمانة حتى يستلمها بعد عمر طويل رئيس آخر يوقع على التركة ويستلم العفش مع الشعب! كأننا لسنا بلدا يبنى قراراته بحرية وباختلاف واتفاق بناء على رأى عام وتوجه أمة ومطالب شعب وشروط وطن ومشاركة تيارات ونواب المواطنين لكن الذين ينافقون الطغاة لا يعترفون سوى بالرئيس وكل من يعارضه إما ممووساً أو مأجورا أو أهبل (هو بالتأكيد أهبل فمن الذى يعارض رئيسا فى بلد يقدر رئيسه على أن يرمينا فى السجن كما يرمى عشرات الآلاف من الشباب سنين طويلة بلا محاكمة ولا حتى اتهام).

هؤلاء يضعون مستقبل وحاضر الأمة فى يد الحاكم وليس فى يد الوطن!! رأيهم أن القرار لصاحب القرار والشعب "قفاه يقمر عيش " أو يروح بعيد يلعب فى الطينة!! فمن الطبيعى إذن أن يكون الرأى العام المصرى والعربى ووجهات نظر الخبراء ونظريات المفكرين ومظاهرات الجماهير والنخبة لا تساوى لديهم شيئا ولا يعيرونها انتباها ويتعاملون مع المعارضين والمعارضة (أتحدث عن المعارضة الحقيقية سواء حركة كفاية أو الإخوان المسلمين أو الاشتراكيين الثوريين وليست المعارضة التى يتم شحنها فى طائرة جمال مبارك حين تقرر حكومة مصر التى قتلت القتيل بالتواطؤ والتجاهل والتحايل والتهادن مع إسرائيل والتبعية لأمريكا أن تمشى فى جنازته) يتعاملون مع المعارضة الحقيقية وليست المعارضة الراكبة على أنها قلة مندسة وشوية عيال (ومع ذلك يعملون عقلهم بعقل العيال ويعتقلونهم ويغتصبونهم بلا رحمة وبلا ضمير والمؤسف بلا محاسبة وبلا معاقبة من المجتمع!!) أو أنهم شوية إخوان إرهابيين (فيعتقلونهم ويطاردونهم ويهاجمونهم فى كل محفل) ويتعاملون مع الرأى العام على أنه حرب ميكرفونات وأقلام مأجورة مع أنه إذا كانت هناك أقلام مأجورة فمن باب أولى أن تكون الأقلام الرسمية والحكومية التى صار أصحابها السابقون واللاحقون مليونيرات ويملكون القصور والفيللات والشاليهات وأسهم الشركات والبورصات وأولادهم (ما أقولكش على أولادهم وأموالهم وبيزنسهم!!) هذه هى الأقلام النهمة الشرهة التى يسيل لعابها على طعام السادة

وموائد الملوك والسلاطين فتأمل من صرر الدرر وأموال الغلابة!

ولا يكف حشد من المسئولين وتابعيهم وعرضحالجية جرائدهم عن استغرابهم من أن هناك قوى ومجموعات سياسية وناساً مندسة منحرفة وشبه منحرفة تشكك فى الحكم وكفاءته والنظام وقراره ومواقفه من العدوان على لبنان وفلسطين، ويكاد لايصدق هؤلاء الساسة والكتبة أن هناك أشخاصا محرطقين مثلنا تنتقد وتهاجم وتعارض أصحاب القرار (أو الفرار) يوم المعركة بينما المطلوب - كما يقول هؤلاء- أن نقف جميعا خلف قيادتنا الحكيمة مثلما يحدث بالضبط فى إسرائيل هذه الأيام حيث يتكاتف الشعب كله خلف أولمرت وحكومته!! والحقيقة أن ما يقولونه عن إسرائيل وشعبها ربما صحيح إلى حد كبير، لكن ليه الشعب واقف وراء الحكومة؟ لأنها حكومته وليست حكومة الحاكم والزعيم!! وهى مسألة تفرق جدا، إزاي؟ أقول لكم هوه أنا ورايا حاجة غيركم!

أولا: لأنها حكومة منتخبة وحكام منتخبون فى حرية كاملة وبلا تزوير وبلا تدخل أمنى وبلا تزييف لإرادة الناس! ومن ثم فهى حكومة منتخبة شرعا وشرعية وديمقراطية ونزيهة تماما بدون طعون انتخابية ولا محاكم دستورية ولا قراره ولا سيد ولا سيدة! كما أنها ثانيا: حكومة تمثل كل تيارات وطنها السياسية والفكرية من اليمين الرجعى إلى المتدين المتطرف والإرهابى إلى اليسارى والعلمانى والاشتراكى، أى أنه برلمان غير مزور ويمثل كل تيارات البلد كذلك حكومة تضم كل التيارات والجماعات والقوى والأحزاب ومن ثم تقف كل إسرائيل وراء حكومتها، أما نحن فنصبح مجرمين فى حق وطننا لو وقفنا مع حكومتنا، فالحكومة جاءت دون إرادة المواطن ودون أن يشارك فى اختيارها ولا انتخابها ولا بقائها ولا رحيلها!!

كما أن الحكومة لا تمثل كل التيارات ولا حتى أى تيار..وكل القوى السياسية مقموعة ومقهورة وغير ممثلة وليست صاحبة قرار ولا تشارك فى صناعة موقف وآخر من يعلم بأى حاجة فى البلد دى (طبعا عندما يحتاجون المعارضة الأليفة يأخذونها معهم فى الطائرة فالمعارضة الماشية فى المظاهرات حاجة والمعارضة الراكبة

فى الطائرات حاجة تانية)، التيارات المعارضة الشعبية والحقيقية محاصرة ومطاردة ومسجونة، الحكم فى مصر لا يريد ولا يوافق ولا يسمح إلا بأن نسبح بحمد حاكمنا وهاين على البعض أن يطلب منا أن نقبل بلاط العرش، وكمان يريدوننا أن نسكت عن نقدهم بحجة الظروف العصيبة التى نمر بها ويرفعون شعار كلنا إيد واحدة يا مرسى (هل تذكر مسرحية مدرسة المشاغبين؟) إنهم تحت المقاعد يختبئون من أولمرت ويريدون أن نتحدث عن شجاعتهم وحكمتهم ورؤيتهم وخيارهم!! بينما فى إسرائيل فإن أولمرت الذى يحارب ويشخط فى الحكام العرب تقف ضده جماعات وتيارات وتعارضه فى عز حربهم القذرة وتطالب بالتحقيق مع قيادات فى الجيش وربما محاكمتهم!

لن نلتف حول هذه الحكومات أيضا. لن نقف معها، فهى حكومات مزورة وغير شرعية وفاشلة..وزاد وغطى أنها جبانة أيضا..تبحث عن شجعان فى هذه الأنظمة العربية يواجهون إسرائيل فلا تجد أحدا، تلتفت وتنادى وتصرخ فلا يجيبك أحد منهم، ساعتها لا تملك إلا اليأس منهم ولا تملك إلا الشفقة عليهم فتنادى: خلاص ياجماعة أنا غلطان وآسف جدا، ولا يهمكم خلاص اخرجوا من الدولاب، اطلعوا من تحت السرير!

العـــــــــــار

كى تعرف موقف مصر من إسرائيل (أو بالأدق مع إسرائيل) فقط نذكر (لنتذكر) أن أشهر صديق للرئيس مبارك هو رجل أعمال محنته (أو مهمته) هى التجارة فى البترول والغاز والسياحة وأنه صاحب أكبر الشركات المصدرة للبترول والغاز المصرى لإسرائيل.

ثم نضيف أن أشهر أصدقاء جمال مبارك نجل الرئيس، هو رجل أعمال يتاجر فى الحديد والأسمنت، وأن تجارته يتم تصديرها لإسرائيل لتذهب فى بناء عماراتها وبيوتها وجدارها العازل!

لكن دعنا من الأصدقاء رغم أهمية الحديث عن دور الأصدقاء فى حياة رجال السياسة والحكم ولنتأمل دور مصر فى الحرب الإسرائيلية على لبنان وحزب الله، والتى يحاول النظام أن يضع مساحيق لتجميل دوره القبيح فيها ويهددنا طول الوقت فيصف أى مناقشة لهذا الدور المتواطئ بأنها مزايدة، أحيانا يضيف مزايدة رخيصة وأحيانا يكتفى بكلمة مزايدة فقط، لكننا نقول بوضوح أخلاقى كامل وبلا تردد إن مصر لم تكن فقط منحازة لإسرائيل فى هذه الحرب وهاجمت وطعنت حزب الله المقاوم فى ظهره بل هى شاركت فى هذه الحرب بشكل غير مباشر كما شاركت فى كل ضربة إسرائيلية على العرب سواء فلسطينيين أو لبنانيين، نعم هكذا وبمنتهى الصراحة واللى مش عاجبه هو حر!

أى حرب عسكرية لا يمكن أن تتم بغير وقود، غاز وبنزين و بترول، لن تتحرك الدبابات ولن تطير الطائرات ولن تنطلق الصواريخ بدون التزود بالوقود، طيب، من أين تأتى إسرائيل بالبترول الذى يزود طائراتها وأسلحتها ودباباتها (وباقى مظاهر الحياة المدنية فى إسرائيل)؟

لا يوجد بترول فى أرض فلسطين المحتلة ومن ثم تستورد إسرائيل كل احتياجاتها من الوقود والتى تصل إلى ١٠.٥مليون طن سنويا، وتدفع فى مقابله أربعة مليارات دولار سنويا، إذن أى دولة التى تصدر لإسرائيل البترول؟
أقول لسعادتك!

مصر حاليا - يا أستاذ- تحتل المركز الثانى فى تصدير البترول لإسرائيل، نعم نحن ثانى دولة بعد الكومنولث السوفيتى فى تصدير البترول لإسرائيل طبقا لإحصائيات المعهد الاقتصادى لجامعة تل أبيب التى أعتمد عليها فى سرد هذه الأرقام (الحقائق)، بل كانت مصر وحتى عام ١٩٩٩تصدر ثلث احتياجات إسرائيل من البترول ووصلت كمية البترول التى تصدرها مصر لتل أبيب رقما قياسيا فى تاريخ الدولتين عام ١٩٩٧ حيث تنقذ مصر إسرائيل دائما فى أزمة احتياجاتها العاجلة للبترول!

وستسمع هنا إفكا وتضليلا من رجال الحكم وأذنابه الذين سيردون بأمرين :الأول أن هذا طبقا للاتفاقية والمعاهدة المصرية الإسرائيلية ومن ثم فهذا التزام سياسى قانونى، والإجابة عن ذلك الزعم أن الاتفاقية لم تتضمن بندا سافرا ملزماً وأبدياً مثل هذا، ثم أن الاتفاقية انتهت مدتها أساسا ولم يتم تجديدها!

الزعم الثانى الذى ستسمعه أن كمية البترول التى نصدرها لإسرائيل ليست مهمة لهذه الدرجة ويمكن لإسرائيل أن تستوردها من غيرنا، والإجابة هنا وحتى لو كانت كمية كبيرة فكيف نصدر سلاحا قاتلا لإسرائيل تستخدمه ضد العرب والعروبة وضد الإنسانية ثم لو كانت صغيرة لماذا تصدرونها أساسا، أما أن إسرائيل سوف تستورد هذه الكمية من غيرنا، ما تغور فى ستين داهية وتستورد من غيرنا!

كيف لعربى مسلم أن يقدم لإسرائيل وقودا يشارك فى سلاحها الغادر والقاتل، كيف لإنسان محترم أن يعاون القاتل على القتل، والمغتصب على الاغتصاب؟!، ليس الأمر أن مصر تتفرج على ما تفعله إسرائيل من عدوان وقتل وتقتيل وتدمير فى فلسطين ولبنان بل إنها تشارك فى هذه الحرب وذلك العدوان بنصيب مخز

ومذل ومقرف، لا نفهم معنى أن تمنع السلاح وتهريبه عن الفلسطينيين فى حماس وكتائب الأقصى بينما تعطى لإسرائيل البترول والغاز اللذين يمكنان دباباتها وطائراتها من ضرب وقتل كل فلسطينى ولبنانى، أين الخجل وأين الضمير ثم أين الشعب؟

هل نظل نتفرج على النظام المصرى وهو يمد إسرائيل بوقود قتل العرب فلسطينيين ولبنانين ولا نعرف من غدا وأين بعد غد؟

ليس هذا فقط بل لقد جاءت اتفاقية تصدير الغاز المصرى لإسرائيل عارا واضحا وتحالفا مثيرا للتقزز فى دعم إسرائيل فى حروبها ضد العرب، إنها تتيح لإسرائيل نهب موارد مصر من الغاز بأسعار متدنية بما يدعم اقتصاد إسرائيل ويقوى شوكته ويزيد من قدرته على تمويل تطوير القوة العسكرية الإسرائيلية التى تهدد مصر وكل البلدان العربية كما يؤكد ويقول الخبير الاقتصادى الكبير أحمد النجار فى كتابه الانهيار الاقتصادى فى عصر مبارك ويضيف (وإذا كانت هذه الاتفاقية المشينة قد تلاها تخفيف الضغوط الابتزازية الأمريكية على نظام مبارك بشأن الإصلاح السياسى، فإن ذلك يوضح الثمن الحقيقى الذى تلقاه النظام مقابل التفريط فى المصالح الوطنية المصرية بالتطبيع الاقتصادى الساخن مع إسرائيل ومنحها جزءا من موارد مصر من الغاز بأسعار متدنية ولأجل طويل يقيد مصر بالتزامات لا يوجد أى مبرر وطنى لها. لكن هذا السلوك من قبل نظام مبارك يعكس ضعف إدراكه لحقيقة أن المطالبة بالديمقراطية وحقوق الإنسان هى قضية مصرية تماما كافح الشعب المصرى ونخبته الثقافية وقواه الحية وجمعياته الأهلية وبعض أحزابه الوطنية من أجلها منذ عقود، ووصل الأمر إلى حد أن أصبحت هذه القضية حياة أو موتاً بالنسبة لمستقبل مصر).

ولكن ماذا تحمل هذه الاتفاقية وكيف تدعم القوى العسكرية لإسرائيل؟ هنا يجيب الخبير أحمد النجار (كعادتها فى التعتيم على كل شيء وفى حرمان الشعب من حقه فى العلم بما تفعله حكومته فى تصريف الشئون الداخلية والخارجية لم تعلن الحكومة المصرية تفاصيل اتفاق الغاز، ولم تقدم وزارة البترول سوى ما أعلنه

المتحدث باسم مجلس الوزراء عن هذا الاتفاق، بينما لم نتمكن من الحصول على أى وثائق رسمية تفصيلية بشأنه. وعلى أى الأحوال فإن الحكومة أعلنت أنه سيتم تصدير نحو ١٦٠ مليون قدم مكعب من الغاز يوميا إلى إسرائيل أى ما يوازى نحو ١.٧ مليار متر مكعب من الغاز فى العام لمدة ١٥ عاما قابلة للمد إلى ٢٠ عاما. كما تم الإعلان عن أن هذا التصدير سيتم من خلال خط أنابيب يمتد من الشيخ زويد حتى عسقلان.

ووفقا لهذا الإطار العام الذى تم إعلانه فإنه سيتم تصدير نحو ٢٥.٥ مليار متر مكعب من الغاز لإسرائيل على مدار ١٥ عاما بقيمة ٢.٧ مليار دولار بواقع ١٠.٦ سنت أمريكى لكل متر مكعب كأسعار ثابتة على مدار الـ ١٥ عاما وهذا السعر يعنى أن السعر سوف يكون نحو ٢.٨ دولار. وهذا السعر هو بمثابة كارثة وسطو صريح على موارد مصر، لأن السعر الآنى سوق لندن هو ٦.٢ دولار، بينما تبلغ الأسعار الآجلة للشحنات التى ستسلم مستقبلاً نحو ١٣ دولاراً فكيف يمكن تثبيت السعر لمدة ١٥ عاما عند مستوى ٢.٨ دولار ؟!).

خدت بالك مما يقوله الخبير النجار، معنى ذلك أن مصر تدعم إسرائيل بالغاز، أى والله العظيم، كأنها منحة أو إتاوة، السعر العالمى الآن أكثر من ستة دولارات ونحن نبيعه لإسرائيل بحوالى ثلاثة دولارات وبينما سيصل سعره لثلاثة عشر دولارا سنظل نبيعه لهم بثلاثة دولارات!!، ما هذا التواطؤ والتحالف وإهدار ثروة مصر وطاقة وطن؟! نبيع لعدو يقتل العرب ويغتصب أرضهم غازا ووقودا كى نساعد جيوشه وأسلحته على مزيد من القتل وبأسعار مخفضة ومدعمة فى الوقت الذى نرفع فيه سعر البنزين على المواطن المصرى لأن حكومة جمال مبارك ورجالته لم تعد تتحمل دفع الدعم للمواطن المصرى بينما يدعم جمال مبارك ورجالته المواطن الإسرائيلى!

هل هناك جريمة أكثر من تلك الجرائم حتى يسقط نظام فى سلة مهملات التاريخ؟

أعود إلى دراسة الخبير الكبير أحمد النجار وهو يصف اتفاقية رجال مبارك

ونجله مع إسرائيل لتصدير الغاز على أنها (نموذج لإهدار موارد الشعب المصرى وإمداد دولة معادية بها بأبخس الأثمان على حساب مستقبل مصر وقوت أبنائها، فهل هناك سلوك لحاكم ائتمنه الشعب على موارده، أسوأ من هذا السلوك وهذه الاتفاقية المشينة واللصوصية التى عقدها نظام مبارك دون عرضها على نواب الشعب ؟! ومثلما تهرب نظام مبارك من عرض اتفاقية الكويز على مجلس الشعب فإنه تهرب هذه المرة أيضا مستخدما نفس الادعاء بأنها ملحق لاتفاقية التسوية السياسية المعقودة عام ١٩٧٩ بين إسرائيل وبين نظام حكم الرئيس السادات الذى قتل عام ١٩٨١، وهو ادعاء فاسد تم اختلاقه لتبرير العدوان الغاشم من السلطة التنفيذية على حقوق الشعب ونوابه.وقد بررت الحكومة هذا الاتفاق بأنه يستهدف تنويع أسواق تصدير الغاز، لكن هذا التبرير الواهى والسمج يفتقد لأى مصداقية لأن أسواق العالم طولا وعرضا مفتوحة أمام صادرات مصر من الغاز كمصدر للطاقة النظيفة وغير الملوثة للبيئة، ولن يتوقف الأمر على السوق الإسرائيلية الصغيرة).

لكن فعلا يبقى السؤال، لماذا يصر حكم ونظام مبارك (أو مبارك نفسه) على هذه العلاقة الاقتصادية الداعمة والمدعمة لإسرائيل ؟

حتى الحياد الذى يزعمه نظام مبارك طيلة حكمه ليس حقيقيا فهو ليس محايدا رغم أن الحياد كما قلنا بين الحق والباطل وبين القاتل والقتيل جريمة سياسية وأخلاقية، ولكن هذا النظام لم يكتف بجريمة الحياد بل انحاز سافرا وبتواطؤ وتحالف مذهل مع إسرائيل حيث يقدم لها دعما مدعوما من البترول والغاز، ولم يراع هذا النظام ضميرا ولم يقلقه مقتل الفلسطينيين ومذابح اللبنانيين فقرر أن يحس على دمه و يرد الجميل للعالم العربى الذى وقف بجانب مصر فى حرب أكتوبر ١٩٧٣حين استخدم سلاح منع البترول عن أمريكا وأوروبا لدعم مصر وسوريا فى حربهما الأمر الذى كان أحد أسباب الانتصار المصرى فى أكتوبر، لماذا لا يتحرك نظام مبارك ويقرر أمام العدوان الصهيونى على لبنان وفلسطين ويحرم إسرائيل من تصديره البترول لها ويمنع عنها الغاز ؟

الواحد يتعجب ويتحسر عندما يرى مبارك أو الوزير الحقل أحمد أبو الغيط أو النجل جمال مبارك وهم يتحدثون عن الدور المصرى، وأظنهم يتحدثون عن دور فى فيلم سينمائى وليس دورا سياسيا فى واقع عربى وعالمى، إنهم دون أن ترمش عيونهم يتحدثون عن دعم مصر للبنان ودورها الفظيع الفزيع فى دعم القضية الفلسطينية بينما هم الذين يدعمون إسرائيل ليس بالتواطؤ السياسى فقط ولا بتعظيم وتفخيم قوة إسرائيل والترويج لقدراتها العسكرية من أجل إنزال الرعب والفزع فى قلوب المصريين والعرب وتبرير الخيابة المصرية فى مواجهة ما يحدث، بل هم يدعمون إسرائيل فى حربها بالبترول والغاز!

قلتم لن نحارب ولن نقاطع ولن نطرد أو نسحب سفيرا، وضربتم مواطنى مصر المتظاهرين الغاضبين وأعلنتم فى مذلة أن سلامكم سلام إستراتيجى وأنكم ستنهزمون لو حاربتم وأن سيناء يمكن أن تضيع مرة أخرى لو هاجمتنا إسرائيل، وكل هذا جبن صار طبيعيا ومفهوما فمتى كنتم غير ذلك؟ أنتم أبطال علينا، فرسان ضدنا، بواسل أمامنا وليس على أو ضد أو أمام العدو الإسرائيلى!

لكن كله كوم وأن تكونوا موردا رئيسيا لبترول مصانع و أسلحة و طائرات ودبابات ومدرعات إسرائيل فهذا ما لا يطيقه أحد، لا تدافعون عن لبنان، عن فلسطين.. ماشى، أن تضغطوا على المقاومة كى تلقى سلاحها و ترون نصر حزب الله هزيمة..مش أول مرة!!، لكن أن تشاركوا فى قتل اللبنانيين و الفلسطينيين فهذا العار كامل ومكمل!!

نحن الشعب المصرى للأسف نشارك بثروتنا من البترول والغاز بأوامر حكومتنا فى قتل العرب فى لبنان وفلسطين وكل دبابة ترمى بمدافعها منزلا أو مواطنا فلسطينيا إنما يجلس فى مخزن وقودها مواطن مصرى يحمل فى راحة كفيه بترولا، نحن شركاء للقتلة الصهاينة نحن نقتل أعظم المناضلين والشجعان الفلسطينيين واللبنانيين، والمدنيين الأبرياء فى فلسطين ولبنان، نحن نشارك ببترولنا وغازنا فى الحرب الإسرائيلية ضد العرب!!

ألسنا نحن المصريين أول من استخدم تعبير سلاح البترول؟ ونحن العرب

أول من جعلنا البترول سلاحا فى حرب عسكرية، فكيف بهذا النظام المصرى (هل أنت متأكد أنه مصري؟ للأسف متأكد!) يتخلى عن العرب بل يساند ويدعم عدوهم؟!

أنا راضى ضميرك وذمتك فى أن تصف لنا دولة عربية تقول عن نفسها إنها الزعيمة الرائدة والعميدة العقيدة للعرب بينما هى بشحم ولحم مسئوليها تصدر لإسرائيل مئات الألوف من أطنان البترول التى يستخدمونها فى الدبابات والطائرات والمدفعيات التى تقتل وتضرب وتذبح الفلسطينيين واللبنانيين...ومن يتلوهم؟ وهى ذات نفسها التى تصدر لإسرائيل نحو ٧و١ مليار متر مكعب من الغاز لإسرائيل سنويا لتستخدمه فى حروبها ضد العرب!

كيف تصف هذه الدولة وكيف لا يخجل هذا الشعب من أن هذه هى حكومته وهؤلاء حكامه؟

ربما تقول لى إن الذى رمى مصر على المر الأمر منه، وإن مصر جاعت حتى اضطرت أن تأكل بثدييها، وتبيع لإسرائيل سلاحا ضد العرب!

أقول لك ساعتها إذن مصر ليست حرة فالحرة تجوع ولا تأكل بثدييها، ثم من قال إن مصر جاعت؟ فإن كانت قد جاعت فالذى جوعها هم حكامها الذين نهبوها وأضاعوها وأغنوا سويسرا وبنوكها! لكن المسألة ليست جوعا ولا فقرا ولا حاجة واحتياجا، بل هى رغبة حكام مصر فى البقاء على مقاعدهم للأبد، وتوريث حكمهم للنجل والابن، و التوريث فى حاجة إلى بيضة والبيضة عند الفرخة (أو النسر الأمريكى) والفرخة عايزة قمحة والقمحة عند إسرائيل التى ترضى وتوافق، ومن ثم فالنظام المصرى يبيع حزب الله والمقاومة العربية الإسلامية بالتحالف مع أمريكا والتواطؤ مع إسرائيل فى انتظار الحصول على البيضة، أقصد الثمن، عرش الأب لأبيه مهما كانت الدماء العربية و المصرية التى تنزف فى طريق الابن إلى العرش!

أرقـــــام تشـــــــل!

محدود العقل فقط هو الذى يصدق أن سياسة الرئيس مبارك تهتم بمحدود الدخل!

الحقيقة أن المواطن محدود الدخل فى مصر لم يشهد فى عصر مبارك إلا أسود أيامه وأكثر فترات حياته تعاسة، فربع القرن الأخير الذى انفرد بحكمه مبارك هو عصر رجال الأعمال والأغنياء الذى كان مبارك يقول فى وضوح يستحق التأمل أنه يعطى للأغنياء كى يمنح الأغنياء للفقراء ولا أعرف لماذا لم يفكر الرئيس فى أن يعطى مباشرة للفقراء بدلا من رأس الرجاء الصالح الذى انتهى بنا إلى أن محدود الدخل أصبح كى يعيش وينفق على أسرته أمام أمرين إما أن ينتحر وكثيرون منهم فعلوا ويفعلون أو أن يسرق ويرتشى والأكثر منهم فعلوا ويفعلون؟! وحسب تقرير التنمية البشرية التى تصدره الدولة ذات نفسها فإن مبارك أفقر المصريين أكثر، ففى عام ١٩٩٢ كان الوجه البحرى الذى يشكل ٤٣,٤%من إجمالى سكان مصر يعانى ٤٦,٩% من سكانه من الحياة بدون مياه نظيفة مأمونة، فما الذى وصلت إليه النسبة الآن مع آخر تقرير تنمية بشرية وفى ظل اهتمام السيد الرئيس وحكومته بمحدودى الدخل، وصلت النسبة إلى ٥٠.٧%، أى أن أكثر من نصف سكان الوجه البحرى بلا مياه مأمونة، الوضع يتدهور والنسبة مروعة وبينما هبطت النسبة فى الوجه القبلى (٣٦.٧%من إجمالى سكان مصر)، من نسبة ٥١.٤% لا يجدون مياها مأمونة فى الصعيد إلى ٤٧.٥% إلا أن الكارثة فى الصعيد أنه بعدما كانت نسبة السكان الذين لا يحصلون على خدمات الصرف الصحى عام ١٩٩٢ قد وصلت إلى ٦٣.٨% وصلت هذه الأيام طبقا لتقرير الحكومة ذاتها إلى ٨٥.٤%، أتفهم معى ما تقوله الأرقام، تقول إن البنية الأساسية

فى مصر أكذوبة كبيرة وإن الانحياز لمحدودى الدخل لا يتجاوز جوف من يصرح ويدعى، أما الحقيقة المرة أن مصر تتدهور وأن إجمالى الفقراء فى الوجه البحرى انخفض على مدى ١٢عاما من ٣١% كما تقول الحكومة إلى ٢٨%، أى مجرد ٣%خلال كل هذه السنوات فى الوقت الذى زادت نسبة الفقراء فى الوجه القبلى فى نفس الفترة وبنفس مصادر الحكومة ذات نفسها من ٤٩.٣% إلى ٦٣.٧% وهو تراجع مخيف يجعلك مذهولا من هذا الحكم الفاشل والفاشى الذى لا ينجح سوى فى إفقار مواطنيه وزيادة نسبة الفقر فى بلد إن لم يكن غنياً بأى شيء (وهذا ليس صحيحا) فهو غنى بناسه وأولاده الذين يشن عليهم حكم حزب الرئيس ونجله حرب الإفقار الرهيبة.

يبقى هنا بمناسبة محدود الدخل أن تقارير البنك الدولى تشير إلى أن ٤٣.٩% من المصريين يعيشون بأقل من اتنين دولار للفرد فى اليوم بما يعنى أنهم تحت حد الفقر بالمعدل العالمى (المعجزة التى تحدث فى العائلة المصرية يوميا أن أحدا يمكن أن يعيش بحوالى ثلاثمائة جنيه فى الشهر وهى معجزة تشبه تشبث الغريق بالحياة بعد ما عدى البراميل!)، وهكذا يقول لنا البنك الدولى الذى يموت فى هواه وعشقه الدكتور بطرس غالى ورجال جمال مبارك فى أمانة السياسات إن حوالى ٣٠مليون مصرى تحت خط الفقر، وهناك حوالى اتنين مليون آخرين يعيشون بأقل من دولار فى اليوم يعنى ليس فقيرا بالمعايير الإنسانية العالمية بل ضايع تماما (من الذى يمكن أن يعيش أو حتى يموت فى مصر بدخل مائة وستين جنيها فى الشهر) أما الذى يؤكد انحياز الرئيس مبارك فعلا لمحدود الدخل هو أن أغنى ١٠% من المصريين يحصلون على ٢٩.٥% من دخل مصر، يعنى مجموعة ملاك فيلات الساحل الشمالى وسكان القطامية هايتس والتجمع الخامس وأصدقاء جمال مبارك وعائلات الوزراء المليونيرات، يحصلون على ثلث دخل الوطن سنويا، بينما أفقر ١٠% من المصريين يحصلون على ٣.٧%من الدخل وأفقر ٢٠%يحصلون على ٨.٦% من دخل مصر كما تقول بيانات التقرير الاقتصادى الاستراتيجى الذى تصدره مؤسسة الأهرام، وهى أرقام تخزق عين

الجميع إلا الذى فى قلبه مرض النفاق وفى عينه رمد السلطة، فلوس مصر تنام فى سرير المليونيرات أما الفقراء محدودو الدخل فليركبوا العبارة أو القطر ومن لم يمت بالغرق مات بالدهس والحرق.

أرجوك سيدى الرئيس كفاية انحياز للفقراء إذا كان الانحياز لهم بيعمل كده فيهم، ممكن تنحاز للأغنياء شوية، نبوس إيديكم بطلوا حكاية محدود الدخل والبنية الأساسية اللى هريتوا بها جتت هذا الوطن، بعد حادث قطارى قليوب لا نريد أن نسمع من أكبر رأس فى البلد لأصغر مسئول تلك الكلمات المستهلكة السخيفة عن حرص مبارك على محدود الدخل أو العبء الذى تتحمله دولة مبارك فى إقامة البنية الأساسية، وكأن رصف الشوارع وإنشاء الكبارى وحفر المجارى هو بمثابة معجزات إلهية أو إلهاما سماويا وهو ما تكشف كل حادثة قطار عن كذبه وكل زحام فى فصل دراسى عن خديعته وكل انفجار ماسورة مجارى عن زيفه وكل مصيبة فى مستشفى حكومى عن تلفيقه، بل لو نزلت شوية مطرة على مصر كما قلت وأقول فإذا بالشوارع غرقانة والمواصلات واقفة ومدن وقرى بالكامل مغلقة والبلاعات مسدودة والبلد فعلا غرقانة (بالمعنى الفعلى والمجازى)، هل سمعت أبدا عن بلد فى العالم يتم تعطيل الدراسة فى معظم مدارسه ولا يذهب الموظفون إلى أعمالهم والطلبة إلى جامعاتهم لأن الدنيا مطرة!! هل هناك دولة فى العالم تتعطل وتصاب بالشلل لو المطرة مطرت ساعتين تلاتة بغزارة.. وبعدين يجى يقولك بنية أساسية!! أين هذه البنية بسلامتها؟

أول ما تسلم وزراء رجال الأعمال وزارتى الصحة والنقل وكل يوم يعلنان عن تأففهما من وضع المستشفيات والمواصلات والطرق، أليس هذا دليلا على هراء كل ما كان يردده السادة الأفاضل عن عظمة مبارك فى إقامة البنية الأساسية للبلد، أى بنية بقى وحياة والدكم والصحة مدمرة والتعليم فاشل وحاله عدم والمواصلات والطرق والسكة الحديد كارثة، لا مبرر إذن لمعايرة الشعب بالكبارى والمجارى مثل الثرثرة السمجة حول بناء مئات الكبارى بينما فى مصر أصبح فى كل مدينة وربما فى كل حى كوبرى يطلق عليه كوبرى الموت من فرط الحوادث التى

تجرى فوقه، وكل يوم نقرأ حادثا عن كوبرى موت آخر، بل هناك كذلك طرق موت، لقد صار تعبير كوبرى الموت وطريق الموت تعبيرا ذائعا ومشهورا ودخل فى المجموعة نفسها نفق الموت ومزلقان الموت ولم لا فمصر تشهد سنويا حوالى ٢٢ ألف حادثة طرق وكبارى حصيلتها طبقا لأرقام مجلس الشعب نفسه قرابة الخمسة آلاف قتيل سنويا وهو رقم يقترب من عدد شهداء مصر فى حرب أكتوبر!! وهناك قرابة ١٨ ألف مصاب وجريح كل سنة من جراء هذه البنية الأساسية، وهى البنية نفسها التى يقدمها حزب الرئيس كأنما جاب الديب من ديله (بس على الله يكون له ديل) بينما يكفى الحزب الوطنى ورئيسه وحكامه شنارا يستحق الاستقالة أن تقرير التنمية البشرية يفضح لنا بنيتهم الأساسية حين يؤكد أن ٧٧.٩%من العائلات فى ريف الدلتا تعيش على مرحاض بلدى من غير سيفون، وأن نسبة الأسر فى الدلتا كلها التى تعيش بدون سيفون وصلت إلى ٦٣.٧% من عدد عائلات الدلتا كلها ريفا وحضرا ومدنا، ووصلت النسبة فى الصعيد كله إلى ٦٧% يعيشون بدون سيفون لكن الأكثر وضوحا فى عصر مبارك هو ما يجرى فى ريف الصعيد الذى يعيش ٨٠.١%من عائلاته بمرحاض بلدى بدون سيفون ولكن هناك كذلك ٥.٩% من العائلات تعيش بمرحاض حفرة و٥.٣% من العائلات تعيش بدون مراحيض أساسا هذا إذا اعتبرت هذا عيشا!

رب البيت بالدف ضارب!

تانى يوم ما سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه تولى خلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصار خليفة المسلمين، تانى يوم الصبح تفتكروا عمل إيه، أخذ شوية حاجات من بيته وراح يبيعها فى السوق، قابله سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال له: أين تذهب يا خليفة رسول الله؟ فأجاب عليه أبو بكر: أبيع وأشترى (فمن أين أحيا وكيف ننفق على أهلينا؟)، قال سيدنا عمر لا والله لا يجلس خليفة رسول الله فى السوق كى يبيع ويشترى لأكل عيشه لنحدد لك مخصصا ونصيبا من بيت المال، وهكذا ظهر لأول مرة فى تاريخ الإسلام للخليفة وللأمير وللرئيس مرتب محدد مقابل رئاسته وكان مرتب أبى بكر الصديق خليفة رسول الله دينارا واحدا فقط لا غير!

أنا العبد الفقير إلى الله أعرف المرتب الشهرى لسيدنا أبى بكر الصديق وهو الخليفة الأول والإمام الأعظم وأعرف كذلك الدخل السنوى بالدولار والسنت للرئيس الأمريكى الحالى الذى يحكم العالم، ليس هذا فقط وأى عيل عابر فى حوارى شيكاغو أو فى أزقة الزقازيق عارف الرئيس الأمريكى بيقبض مرتب كام...............!

الراتب السنوى للرئيس الأمريكى (بدءا من يناير ٢٠٠١) أصبح ٤٠٠ ألف دولار، أما نائب الرئيس فراتبه السنوى ٢٠٢,٩٠٠ دولار. ويصل معاش التقاعد للرئيس السابق بيل كلينتون إلى ١٥١ ألف دولار سنويا، بالإضافة إلى ١٥٠ ألف دولار أخرى سنويا ليصرف على مساعدين ومكتب له. إلا أن زوجته هيلارى كلينتون لا تتلقى ٢٠ ألف دولار سنويا كما هو مقرر بالنسبة للسيدة الأولى بعد خروجها من البيت الأبيض لأنها انتخبت عضوا فى مجلس

الشيوخ وبالتالى لها راتبها السنوي- نحو ١٦٠ ألف دولار- نظير قيامها بهذه المهمة، كما أننى أعرف بنقرة على جهاز الكمبيوتر دخل ومرتب كل عضو فى الكونجرس الأمريكى، وكمان معروف بالنكلة والفلس ما هو مرتب ودخل رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير فهل فيه بنى آدم واحد فى مصر يعرف مرتب رئيسه أو رئيس وزرائه، أو دخل قرينة السيد رئيس الجمهورية أو ثروة السيد ابن السيد رئيس الجمهورية؟! لا أحد يعرف ولا يقدر يسأل ولا ممكن حتى يصدق، هذا عن الرؤساء ورؤساء الوزراء عندنا!

خد عندك مثلا مخصصات الأسرة المالكة فى إنجلترا وهولندا وإسبانيا كل ميزانيتها معروفة ومحفوظة وكل صغير وكبير فى بلادهم عارف دخل ومرتب أكبر كبير فيها، خد عندك الوطن العربى هل فيه أسرة مالكة واحدة حد عارف دخلها كام ولا ثروتها إيه ولا بتجيب منين وتودى فين، ابقى قابلنى، بلاها الرؤساء والملوك ندخل على المماليك، أنا وإنت والناس الجدعان "اللى مشرفينا" يعرفون بنات الرئيس الأمريكى ما هى وظائفهن وماذا يشتغلن ومن أين ينفقن وماذا يملكن؟ وبنت كلينتون وابن أى وزير أو رئيس فى الغرب كله (كلاته)، أما إحنا فى الوطن العربى الكبير الذى يصغر من أفعاله وحكامه لا نعرف أى حاجة فى أى حتة عن أى نجل من الأنجال أو أى ابن أو بنت من البنات.

هذا هو الفرق بيننا وبينهم، اسمه إيه ده الشفافية، هنا فى بلدنا كله مستخبى فى الضلمة وفى السر، هناك كله على كله فيه (اسمه إيه ده) النور، تسأل نفسك هل لهذه الدرجة ولا واحد من حكامنا بيعبر أهلنا ويقول لشعبه حجم ثروته وهو الموظف الذى يشغل مقعد الرئيس، من أين يأتى بأمواله وثرواته، نحن نفهم (على الأقل معظمنا معاه الإعدادية) ونعرف أن هناك أساس المرتب وفيه بقى سعادتك فوق هذا كله المخصصات والعلاوات وبدل اللبس وبدل الانتقال وبدل التمثيل وبدل الإخراج وبدل ماحد تانى ياخدهم، لكن أحدا لا يعلن مرتبه ولا دخله ولا إقرار ذمته المالية، صحيح فالمسئولون فى مصر فى عصر مبارك الذين قعدوا على قلبنا ربع قرن فى صحبة ومعية حكمة السيد الرئيس لم نضبط أحدا منهم يتحدث

عن شيء اسمه إقرار الذمة المالية (حاجة أصفرا كده) المفروض أى وزير أو مسئول مهما كان كبيرا يكتبها ويقر فيها بكل ما يملك قبل وأثناء وبعد الوزارة والمسئولية (هل نعرف ثروة صفوت الشريف، كمال الشاذلى، عاطف عبيد، زكريا عزمى،؟ ما ثروة ودخل هؤلاء وأملاكهم وملكياتهم ومن أين لهم هذا وذاك وذلك؟) واضح أن هذا الإقرار صار شكليا ولا حد واخد باله منه ولا مهتم بيه، وكما أكد كثير من القضاة الذين أنيط بهم فحص إقرار الذمة المالية لعدد من الوزراء والمسئولين فالمكتوب فى هذه الإقرارات كلام عائم غائم ولا حد بيفحص ولا يدقق ولا يحاسب، فضلا عن أننا وقد مر عام على تمثيلية انتخابات الرئاسة التى أخرجتها فرقة أمانة السياسات المسرحية ولم نسمع عن إقرار الذمة المالية الذى قدمه المرشح حسنى مبارك حتى الآن، بل كى تتأكد من أن الوضع فى البلد وضيع سياسيا فهناك قانون صادر من مجلس الشعب بمد خدمة مسئول فى القصر الجمهورى بعد المعاش ومواد القانون نفسه تترك تحديد مرتب هذا المسئول للسيد رئيس الجمهورية، يعنى يحدد له ما يريد ولا الشعب ولا مجلس الشعب يعرف حاجة عن هذا المرتب، بيقبض كام، علمى علمك، ثم إنت مال أهلك، هذه عزبة سيادتهم والمحصول محصولهم وليس للمواطن فى عزبة الباشا الحاكم سوى الترعة والبلهارسيا وفيروس سى..السيد، ورغم أنه لايوجد بنى آدم واحد (ولا حتى ثلاجة) فى البلد ممكن يصدق أن هناك وزيرا يعيش من مرتبه ويكفيه كى يجلس ويربع ويستريع ويجذر ويفرع على كرسيه فكيف يصرف على عياله وعلى جامعة ومدارس وأكل وشرب ومواصلات وسفر وفسح وسعادة الوزير راح وسعادة الوزير جه وفيلا مارينا وشاليه شرم الشيخ وشيروكى الواد (ومرسيدس المدام)، ومع ذلك فلا يوجد ما يحتم قانونا الكشف عن هذه الدخول والثروات فضلا عن أن هؤلاء يلتزمون بما يلتزم به رئيسهم، الكتمان والتكتم وعدم الإفصاح والإعلان عن الثروة والدخل كأنه سر الأسرار وقدس الأقداس وكأنما هنالك خوف (هل هذا النظام يخاف ويختشى...أشك) من معرفة الناس للحقيقة، وهكذا تظل الأمور سايبة وتبقى الأحوال غامضة بينما على الحدود الشمالية للوطن حيث

إسرائيل، الدولة العدو للشعب المصرى والصديقة للرئيس المصرى نرى حسابا عسيرا وسؤالا وتحقيقا حول ثروات مسئوليها وتصرفاتهم المالية وقد سبق توجيه اتهامات مالية للوزراء والقيادات البارزة حاييم رامون، وشيمون بيريز، وتسحى هنجبى، وموشيه كتساف (رئيس الدولة)، ودان حالوتس (رئيس أركان الجيش).
وسبق لإسرائيل أن حققت مع رؤساء الوزراء: إيهود باراك فى قضية تمويل غير قانونى لحملته الانتخابية، كما تم التحقيق مع أريئيل شارون لعلاقته برجال أعمال لهم مصالح خاصة فى اليونان، وكذلك إسحق رابين لتحويل زوجته دولارات بشكل غير قانونى (وهى الفضيحة التى دفعته للاستقالة)، فى حين تمت إدانة آرييه درعى وزير الداخلية الأسبق بالسجن، وإدانة نجل شارون عمرى لتورطه فى قضايا فساد.
بجانب التحقيق مع زوجة رابين لاستبدالها شمعدان فضة هدية بآخر حتى تتمكن من الاحتفاظ به وفقا لشروط قبول المسئولين للهدايا الرمزية فى إسرائيل.
التحقيقات طالت من قبل وزير الدفاع الإسرائيلى إسحق مردخاى وأكثر من وزير عدل مثل يعقوب نئمان وتسحى هنجبى. بينما نحن فى مصر المحروسة بشعبها المنحوسة بحكامها نرى المتهمين بالفساد المالى المريع يخرجون من مقعد الوزارة لتسلم أوسمة التكريم الجمهورى، تكريم الفسدة بلاش الفسدة المتهمين بالفساد فبدلا من التحقيق معهم نكرمهم ونعطيهم القلادات والأوسمة، (هى دى مصر يا هبلة)، ثروات المسئولين وحكامهم تتصاعد وتكبر وتنتفخ وتتحول إلى الهرم الرابع فى الجيزة ومع ذلك الكل سكتم بكتم، وقد حكى لى صديق إن هناك مثلا شعبيا يقال فى كوريا الجنوبية مفاده " إذا ارتفع أحد السياسيين إلى منصب رفيع، فإن عائلته ستؤمن ماليا لثلاثة أجيال قادمة " فضحكت على هؤلاء السياسيين الكوريين التعساء فالحق أنه فى مصر إذا صعد أحد السياسيين إلى منصب رفيع فإنه لا يترك المنصب نفسه لثلاثة أجيال قادمة ويغتنى أهله حتى سابع جيل، مصر منهوبة ولا رجل فينا يريد أن يأخذ بيدها من الحفرة التى سقطت فيها، ولا واحد منا يريد أن يسترجل ويواجه الحرامية الذين يوئدون مصر منذ ربع قرن،

والحقيقة أن الشعب عندما رأى أن الحكاية كده وقفش أهل الحكم وهم ينشلون الوطن فى الأتوبيس سقطت كل حصون مقاومته للفساد وتزلزل الضمير العام فى البلد وتدين الناس بدين ملوكهم فهات يا سرقة ورشوة واختلاس ومال حرام فإذا كان رب البيت بالدف ضاربا فشيمة أهل الشعب الرقص، وياريت تيجى على الرقص بس!!، الفساد الحكومى الثابت والمنتظم والمنظم لم يكن ليستطيع أن يعيش وينمو ويتكاثر إلا مع سياسة (حكيمة كالعادة) إفساد الناس من أول عسكرى المرور والمندوب أو الأمين الذى يوقفك فى الكمين بكل تناحة ورذالة ليضربك مخالفة وهمية ولكنك بكل استنطاع تسأله: أنت أولى ولا الحكومة، يقولك أنا، فتعطيه الخمسة جنيه ويسكت عن كتابة مخالفته وتكمل أنت مشوارك، هذا السؤال الذى نقوله لعسكرى المرور الذى يبتسم غلبانا ومقهورا ومتوسلا رغم نظرات الاستئساد المصطنعة هو قلب ما جرى فى حياتنا، صرنا نقرر الرشوة والحصول على المال الحرام بدل ما الحكومة تأخذه، وإذا كانت الحكومة شيخ منصر فكيف لأفراد الشعب ألا يكونوا لصوصا!

ألم تلتق أبدا برجل فى مدخل مصلحة حكومية يعرض عليك إنهاء خدمتك فورا بعد أن تكون غلبت فى السعى وراءها ويطلب منك خمسين جنيها تشهق وتستنكر معقولة كتير قوى فيرد بمنتهى الواقعية هو إنت فاكر إن الخمسين ليا أنا لوحدى، دى بتتوزع على الكل، نعم الكل، لقد رضينا بأن نقتسم الرشوة الواضحة والمقنعة فخرسنا على الحرامية الكبار لأن عيوننا انكسرت، فلا يوجد متر مربع واحد فى مصر الآن ليس فيه لون من ألوان الفساد، فساد كبير من الحكام وعيالهم ورجال أعمالهم ووزرائهم وفساد صغير من المواطنين وأفراد الشعب، وقد سمعت كثيرا هذا السؤال السقيم لماذا لا يثور الشعب ضد الحكم كما فعل فى ١٧و١٨ يناير ١٩٧٧فقد خرج الناس بالملايين مظاهرات واحتجاجات لأن الأسعار زادت تعريفة وخمسة قروش، آه والله العظيم كاد الرئيس الراحل أنور السادات يفقد عرش حكمه من جراء زيادة سعر أنبوبة البوتاجاز شلنا وزيادة كيلو السكر قرش صاغ، واضطر السادات أمام الغضب العارم أن يتراجع عن

رفع الأسعار، وكانت المظاهرات تهتف أيامها، سيد بيه يا سيد بيه كيلو اللحمة بقى بجنيه، تخيلوا كانوا يثورون لأن كيلو اللحمة صار بجنيه واحد فقط لاغير، بينما الآن كيلو اللحمة بأربعين جنيهاً والأسعار زادت بتوحش رهيب ومع ذلك لم يخرج الناس ولم ينفعلوا ولم يتذمروا ولم يتظاهروا ولم يثوروا، صحيح أن السبب المهم هنا أن القمع الأمنى والاعتقالات والضرب والسحل والتعذيب الذى تمارسه سلطة مبارك على الناس يمنعهم من الحركة وربما من النطق إلا أن السبب الأهم الذى لا يدفعهم لتحدى القمع ومواجهة زيادة الأسعار أن الناس بتتصرف، الناس بترتشى وبتخلص أمورها، وهو الذى يعطل أى تغيير ديمقراطى سلمى جماهيرى فى السنوات الحالية حيث أن نظام مبارك كما أفقر ملايين المصريين وسجن واعتقل عشرات الآلاف منهم فقد سهل لهم الرشوة وتساهل مع الفساد المالى والاختلاسات وقنن العمولات والسمسرة، أليس هو الرئيس الذى سأله مذيع ذات مرة عن عسكرى المرور الذى يتلقى فلوس من الناس فى الإشارة يا ريس فأجاب الريس نفسه قائلا، عسكرى غلبان ح يعمل إيه، وكانت كأنها مفتاح الفهم للجميع، كلنا غلابة ح نعمل إيه، ح نعمل عساكر مرور!

وكما أتاح النظام الفاسد للناس الفساد الصغير فقد أباح النفاق وكافأ المنافقين له ولسياسته (ولحكمته) فأعطى لهم المناصب والمحافظات وعضويات البنوك والقروض والحصانة بحيث صنع المحيط الآمن للنظام من دائرة قريبة هى العائلة وأصحابها ثم دائرة أوسع وهى مسئولون وكبراء ووزراء ورجال أعمال من ذوى المصلحة المشتركة فى بقاء الحكم واستمرار النظام ثم دائرة أوسع من ترزية القوانين وطباخى السياسات السامة المنافقين والفاسدين المستفيدين من الحكم والمتشاركين معه، ثم دائرة أوسع من المجرحين والمتلبسين بالفساد من فسدة مناصب كبار رجال الدولة ومؤسسات مثل الصحافة والإعلام والقضاء والبنوك ومؤسسات الدعوة والدين والأجهزة الحساسة الذين يخدمون النظام مقابل مكافأة بالبقاء فى المناصب والاستفادة والإفادة المتبادلة فضلا عن أن النظام يعرف فسادهم واستغلالهم النفوذ ورشاويهم واختلاساتهم وشيلنى وأشيلك، ثم الدائرة

الأكثر غلبا والأوسع عددا والأكثر هطلاً وهم جموع الشعب الساكتة الخانعة التى تتميز بفساد القطاع الأكبر فيها وبخوف القطاع الآخر داخلها فيحمون النظام ويحافظون عليه سواء لفسادهم أو لخوفهم!

السؤال إذن وكيف ننزع عن هذا القنفد أشواك حمايته التى وضعها وزرعها وصنعها عبر سنوات طويلة حتى كاد الجميع ييأس من أى قدرة على التغيير وكاد حكام القنفد وزعامات النظام يعتقدون أنهم باقون للأبد فى مقاعدهم وقادرون على توريث أولادهم حكم هذا الوطن المسالم والمستسلم؟!

إذا كنت تعتقد أن لدى الإجابة فثقتك فى شخصى غالية وأقدرها ولكنها مبالغ فيها فأخففها وأخبرك أننى شخصيا أفضل أن تقوم القيامة ونخلص!

ولكن طالما أن الساعة علمها عند ربى فالحل الذى أطرحه مستمد من أننى فلاح من قويسنا ومن مشاهدتى لبرنامج عالم الحيوان، الحل أن تقلب القنفد، كى تصل لرأس القنفد وجسمه الحقيقى اقلبه كى يكون الشوك مغروسا فى الأرض بينما وجهه مكشوف وعارى فى مواجهتك، وربنا يجيب العواقب سليمة!

القرضاوى وأسئلة الشيعة!

خلينا صرحاء مع بعض، وبدون لف ودوران ومراوغة وملاوعة أنت حاسس إن الشيعة مش مسلمين قوى، صح، صحيح أنت تحب حسن نصرالله وتراه أرجل واحد فى الوطن العربى وأحسن من كل الرؤساء والملوك الذين أهانوا الوطن العربى واستسلموا لأمريكا وترتعش ركبهم أمام إسرائيل، وأنا عارف كذلك أنك منبهر بحزب الله وشجعانه ورجاله وكان يخفق قلبك كلما رموا صاروخا على إسرائيل فأفزعوها وهزموها بينما ترى رئيسك يصادقهم وابن رئيسك وحزبه يمالئهم ويتحالف معهم ويتعاون مع قادتهم ويمدهم بالغاز والبترول، ومع ذلك ففى قلبك شيء من ناحية الشيعة، متوغوش منهم، طول عمرك تسمع (وتصدق) أنهم كفرة وخارجون عن الملة، أليس كذلك؟ ففى المدرسة سمعت هذا الكلام، وفى الجامع والبيت والشغل، كل الناس تقول هذا الكلام وأكثر، من صغرك وأنت تتعرض لهذه المقولات والأحكام تجاه الشيعة ومن المؤكد أنك أو قريبك أو حد من أهالك سافر السعودية وعاش هناك وعمل لفترة يعود ويسب لك فى الشيعة كما سمع من الوهابيين فى السعودية وكما تعلم وعاش وتعايش مع الغلاة والمتطرفين، والحقيقة أن أجهزة الأمن فى مصر ومن رجال النظام ومخبريه وخدمه من جهة والوهابيين فى السعودية الذين يمولون الجمعيات الدينية فى مصر ومعاهد الدعاة والمراكز الإسلامية والذين يسيطرون على المحطات الدينية الفضائية وكذلك أمراء وأسرات حكم فى الخليج تعمل على تصعيد دعاوى تشويه هذا المذهب ووصمه بالكفر! فقد أذهلت عواصم الحكم العربى تلك الشعبية الجارفة والمحبة اللافتة التى أظهرها المصريون والعرب لحزب الله فى مقاومته للعدوان الإسرائيلى وثباته وإثباته شجاعة و كفاءة رائعة فى التصدى للعدو الإسرائيلى، وقد أحست مصر أن ما حاولت

أن تقنع به شعبها من عظمة وقوة إسرائيل تبريرا لضعف النظام المصرى وهوانه وتهاونه أمام تل أبيب قد اهتز وانهار مع ما فعله حزب الله و السيد حسن نصر الله فانطلقت على محورين : الأول التهوين من نصر حزب الله بل والوصول إلى حد أنه انهزم وهو ما لم يقله الصهاينة حتى الآن بينما تكاد تنفجر حنجرة الحكوميين وحلفائهم سعيا لإقناع الناس بذلك (ثم يشتمون هم الشعب المصرى والشعوب العربية عامة ويقولون إنها هبلة وعاطفية ومضحوك عليها ومريضة بالوهم لأنها تصدق انتصار حزب الله!!) أما المحور الثانى فهو الأخطر والأكثر لعبا بالنار وهو اتهام الشيعة بالكفر حتى يسحب ذلك من شعبية ومصداقية حزب الله، وهذا تحديدا هو ما يروج له الوهابيون فى الجزيرة العربية حيث أن غالبية الشعوب فى دول الخليج شيعية المذهب (ماعدا السعودية) ومن ثم أى ديمقراطية حقيقية كفيلة بأن يحكموا أوطانهم، كما أن الشيعة يعيشون فى السعودية فى أكثر المناطق غنى بالبترول وحقوله ومن ثم لو رفع الشيعة رءوسهم واستقووا بما فعله حزب الله ولو تدعموا بانتصاره فطالبوا بحقوقهم المهدورة لسقطت عروش دول كثيرة فى الجزيرة العربية (إحدى الدول هناك قبضت على كل أفراد مظاهرة خرجت لتأييد حزب الله أثناء الحرب، كلهم يعنى كلهم، فردا فردا) إذن التقى الجميع على قلب رجل واحد فى الحرب ضد الشيعة بتكفيرهم خصوصا فى أكثر البلاد العربية تعاطفا وانتصارا لحزب الله، هنا فى مصر تحديدا، لذلك تجد حكوميين يكرهون الشيخ يوسف القرضاوى كراهية عميقة رغم هذا التقطوا تصريحاته التى تحدث فيها عن الشيعة ولمز أن حسن نصر الله متعصب وغمز أن الشيعة لايعترفون بالمصحف الذى نعرفه، وباتوا يروجون لهذه اللمزات التى خرجت عن الرجل (رغم تصحيحه وتراجعه عنها)، فضلا عن تعليمات أمنية واضحة بالهجوم على الشيعة فى خطب المساجد الخاضعة لسيطرة كاملة من جهاز أمن الدولة وطبع وترويج وتسويق والتغاضى عن عدم ترخيص كتب وشرائط كاسيت لا هم لها سوى تكفير الشيعة، وأمام هذا العصف السياسى الراهن وخلال هذا الأداء الحكومى الذى يلعب بالنار ولا يهمه سوى النفخ فى عظمة رئيسه ومهابة حكمه

التى اهتزت بشدة وبعنف أمام ما جرى من بطولة المقاومة فى لبنان وبدت مصر الرسمية فى عصر مبارك كما هى تماما، متعاونة محادنة متحالفة ومتواطئة و داعمة (بالغاز والبترول) لإسرائيل وعملياتها القذرة ومجازرها البشعة، فقد اشتدت حملات تكفير الشيعة حتى ظن البعض أن اليهود صاروا أقرب لحكامنا من الشيعة سواء شيعة لبنان والعراق أو شيعة إيران!

لكن أمام كل هذا الضباب وداخل ذلك الدخان الذى يعمى العيون أين هى الحقيقة؟ هل فعلا الشيعة كما تعودنا أن نعرف ونقول هل المذهب الشيعى خارج عن الإسلام؟ كى أريحك تماما من الحيرة فأنا لن أعتمد فى إجابتى سوى على الشيخ يوسف القرضاوى، نعم هو نفسه الذى سمعت عنه أو منه ما أوغر صدرك وألعب الفأر فى عبك من الشيعة؟ تعالوا نسأله ولنتركه يجيب فقط، هذه الإجابات كتبها هو نفسه بخط يده وطبعها فى كتاب باسمه ووزعه ليقرأه الناس ويأخذون عنه، ليس كلاما عنعنة كأننا سمعناه فى ندوة وننقله، أو كأنه كلام شفوى قد يختلط أو يلتبس، لا، هذه الإجابات أنقلها عنه نصا بالحرف وبالنقطة من كتابه (مبادئ فى الحوار والتقريب بين المذاهب الإسلامية) والذى صدر عام ٢٠٠٥ أى أنه كتاب حديث طازج من شيخنا العلامة يؤكد فى مقدمته إنه كتبه فعلا عام ٢٠٠٤، ولنبدأ بالسؤال الأهم والتهمة الأفظع، هل يرى الشيعة أن القرآن قد تم تحريفه وأن القرآن الصحيح هو ما يسمونه مصحف فاطمة (نسبة للسيدة فاطمة رضى الله عنها بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم)؟ يقول القرضاوى فى كتابه (هناك من علماء الشيعة من قالوا إن القرآن الكريم محرف، بمعنى أنه ناقص، وليس كاملا، وألفوا فى ذلك كتبا، ولكن هذا الرأى ليس متفقا عليه، فهناك من علمائهم من رد عليه، وفند شبهاته، وهذا هو الذى يجب أن نعتمده، ولا نعتمد الرأى الآخر. والذى يجعلنا نعتمد رأى نفاة التحريف فى القرآن جملة أمور:

١- إن الشيعة جميعا متفقون على أن ما بين دفتى المصحف كله كلام الله، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٢- إن المصحف الذى عند الشيعة فى كل العالم اليوم هو المصحف الذى يوجد عند أهل السنة، فالمصحف المطبوع فى إيران هو نفسه المطبوع فى السعودية وفى مصر وفى باكستان والمغرب وغيرها من بلاد العالم الإسلامى.

٣- إن هذا القرآن هو الذى يفسره مفسرو الشيعة من قديم إلى اليوم، لا يوجد قرآن غيره يقومون بتفسيره، وهو الذى يتحدثون عن بلاغته وإعجازه إلى اليوم.

٤- إن هذا القرآن هو الذى يستدلون به على معتقداتهم فى كتبهم العقائدية، وهو الذى يحتجون به على الأحكام فى كتبهم الفقهية.

٥- إن هذا القرآن هو الذى يعلمونه لأولادهم فى المدارس الدينية والحكومية، وعلى شاشات التلفاز وغيرها).

انتهت إجابة القرضاوى عن هذا السؤال وهو ما يجعلنا نسأل هل نأخذ الشيعة بلغو وهرتلة قالها بعض غلاة منحرفين منهم فى قديم الزمن حين كانوا يتعرضون لاضطهادات سياسية من خلافة سنية وسلاطين قهرة، بينما نتغاضى عن حقائق كالشمس منيرة وساطعة أن قرآن السنة والشيعة واحد واضح هو نفسه بلا حرف زيادة ولا نقصان، هذه أدلة دامغة قدمها القرضاوى لا لبس فيها ولا التباس.

وخذ مثلا قضية حرص الشيعة فى صلاتهم على السجود على حصاة، يقول الشيخ القرضاوى : (الشائع عندنا ـ أهل السنة ـ أن الدافع إلى ذلك هو تقديس الشيعة لهذه الحصاة، لأنها من طينة كربلاء التى قتل الحسين، أو دفن فيها رضى الله عنه. وقد كنت أنا شخصيا أعتقد ذلك فى أول الأمر، حتى زارنا فى الدوحة فى الستينيات من القرن العشرين الإمام موسى الصدر الزعيم الشيعى المعروف فى لبنان، ورئيس المجلس الشيعى الأعلى بها، وقد تباحثنا فى بعض الأمور، ومنها هذه الحصاة، فعلمت منه أن الشيعة الجعفرية يشترطون أن يكون السجود على جنس الأرض، فلا يجيزون السجود على السجاد أو الموكيت، أو الثياب أو نحوها، ونظرا لأن أكثر المساجد أصبحت مفروشة بما لا يجوز السجود عليه فى

مذهبهم، فقد حاولوا أن يوفروا لكل مصل حصاة من جنس الأرض يصلى عليها، وليس من الضرورى أن تكون من طينة كربلاء، ولا من غيرها. وقد عرفت ذلك بالقراءة والدراسة فى كتب الجعفرية، وعندى عدد منها، من «المختصر النافع» إلى «جواهر الكلام». وعندما زرت إيران سنة ١٩٩٨م تأكدت من ذلك، فقد زارنى كثير من العلماء فى حجرتى فى الفندق الذى أنزل فيه، وصلوا عندى ولم يكن معهم هذا الحجر، بل وجدتهم أخذوا ورقة كلينكس، ووضعوها أمامهم، ليسجدوا عليها، بدلا من الحجر أو الحصاة، واعتبروا الكلينكس من جنس الأرض، لأنه ليس من المنسوجات كالسجاجيد ونحوها. المهم أن فكرة «الطينة المقدسة» التى كانت ثابتة عندى قد زالت بسؤال العلماء الثقات، والأخذ عنهم، والاطلاع على المراجع العلمية الموثقة، بدل الأخذ بما يشاع عند عوام الناس دون استناد إلى بينة أو دليل. وهذا المبدأ (حسن الفهم) كما أطالب به أهل السنة فى موقفهم من الشيعة أطالب به من غير شك الشيعة فى موقفهم من السنة، وضرورة تفرقتهم بين الأصول والفروع، وبين الفرائض الأساسية والنوافل الهامشية، وبين المتفق عليه بين أهل السنة والمختلف فيه بينهم، وما أكثره، وبين الشائع عند العوام والحقيقة عند أهل العلم الثقات، وبين عمل الناس وما يوجبه الشرع).

خلاص خلصت الحكاية السخيفة الرخمة بتاعة إن الشيعة بيصلوا على حجر من كربلاء رغم أن هذا أمر لا يودى ولا يجيب، لكن هذه هى حقيقته كاملة كما شرحها الشيخ القرضاوى، تعال ننتقل معه إلى أهم نقاط الاتفاق بين السنة والشيعة وهى كما يؤكد (الالتزام بأركان الإسلام العلمية: من الشهادتين، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت. فالفريقان ـ سنة وشيعة ـ يؤمنون بهذه الأركان أو الفرائض، وإن وجد خلاف بينهم فى بعض الأحكام، فهو كما يحدث بين مذاهب السنة بعضها البعض، فكم من فرق بين المذهب الحنبلى مثلا والمذهبين الحنفى أو المالكى، وكم من مسائل انفرد بها المذهب الحنبلى عن المذاهب الأربعة، عرفت باسم (مفردات المذاهب) ونظمها بعضهم فى منظومة

معروفة.. وإذا كان هذا واضحا بينا فى العبادات، فهو أبين وأوضح فى المعاملات. وإذا كانوا هم لا يعترفون بكتب أهل السنة التى تعد مراجعهم فى الحديث النبوى، مثل الكتب التسعة: الموطأ ومسند أحمد وصحيحى البخارى ومسلم، وسنن أبى داود والترمذى وابن ماجة والدارمى، وغيرها من الكتب، فإن معظم ما ثبت عندنا بالسنة ثبت عندهم من طريق رواتهم، إما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه، وإما عن طريق إمام من أئمتهم الذين يعتبرونهم معصومين. والمهم: أن الفقهين فى النهاية ـ فقه السنة وفقه الشيعة ـ يتقاربان إلى حد كبير، لأن المصدر الأصلى واحد، وهو الوحى الإلهى المتمثل فى القرآن والسنة، والأهداف الأساسية والمقاصد الكلية للدين واحدة عند الفريقين، وهى: إقامة عدل الله ورحمته بين عباده. وكثير من الآراء التى تعتبر شاذة عندنا من أحكامهم، نجد بين أهل السنة من قال بها إذا أجدنا البحث والتنقيب).

من هنا نصل إلى قصة (أو قضية) زواج المتعة وهو ما يريد أن يجعله البعض خلافا قاتلا، يقول الشيخ القرضاوى عنه (زواج المتعة، فقد قال بها عالم السنة حبر الأمة ابن عباس، وإن قيل إنه رجع عنها، ولكن ظل عدد من أصحابه فى مكة وفى اليمن يفتون بها، مثل: عطاء وسعيد بن جبير وطاوس رضى الله عنهم جميعا).

لكن تبقى المشكلة الأثقل وطئا وهى سب الشيعة للصحابة، خصوصا الكبار منهم، الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض، مثل الخلفاء الراشدين: أبى بكر وعمر وعثمان، رضى الله عنهم،يكتب الشيخ القرضاوى (هذه هى النقطة الحساسة، بل شديدة الحساسية بيننا وبين إخواننا من الشيعة، وقد تحدثت مع عدد من علماء الشيعة، ممن أعرفهم من ذوى الأناة والحكمة، وقلت لهم: إن هذه القضية هى الحاجز الأول أمام التقارب، ولابد للعقلاء أن يحاصروها أو على الأقل يخففوا من آثارها، فإنها إذا تركت لغرائز العوام المشحونة بالغضب والحقد جديرة بأن تأكل الأخضر واليابس، ولا تدع لأهل العلم والحكمة فرصة فى التوحيد أو التقريب. والحق أقول إن هؤلاء العقلاء ـ أمثال آية الله محمد على

التسخيرى، وآية الله واعظ زاده وغيرهما - وافقونى تماما على ذلك، وأكدوا لى أن هذا الاتجاه يقوى عندهم وينتشر شيئاً فشيئاً، حتى إن المناهج الدراسية الجديدة فى إيران تذكر فى بعض كتبها مواقف تاريخية لأبى بكر وعمر فيها تمجيد لهما وثناء عليهما. قلت لهم: هذا ما يجب أن يتبنى ويتوسع فيه فى مؤسسات التربية الحكومية، وفى مجال التربية الأسرية الخاص، فإن الثقافة الشيعية الشعبية كثيراً ما تحمل بأوهام ومبالغات وخزعبلات، لا تثبت أمام النقد العلمى، ولكنها عند العامة حقائق - أو معتقدات - تحرك سواكنهم وتثير كوامنهم. والحقيقة أن هذه القضية الخطيرة فى حاجة إلى تمحيص ومصارحة، لتصفيتها وجلاء الغبار عنها، أو على الأقل للوقوف موقفا إيجابيا حكيما منها.) ورغم أن هذه الفعلة الشنيعة المنسوبة لغلاة الشيعة أو بعض عوامهم تضاءلت وتراجعت فى القرن الأخير لكن التأكيد على رفضها وذمها ومحاربتها واضح من علماء الشيعة الذين اجتهدوا كثيرا فى القضاء على تلك الروح العدائية التاريخية البغيضة لكن الشيخ القرضاوى يقر ويقرر فى فتواه بكتابه ص٧٧ (إن سب الصحابة وإن كان أمرا جللا فلهم فيه شبهة وتأويل يبعدهم عن الكفر وقد يدخلون فى فسق التأويل) ثم يعود الشيخ القرضاوى فيقول قاطعا (وأما دعوى عصمة الأئمة عند الشيعة فنحن نخطئهم فى ذلك، ولا نرى فى هذا (كفرا بواحا) فإن ما جاء عن أئمتهم إما أنها عندنا أحاديث نبوية، وإما أنها (آراء اجتهادية) ككثير مما روى فقهاء المدينة السبعة، وأمثالهم من فقهاء الحجاز والعراق واليمن والشام ومصر وغيرها، وما جاء عن الأئمة الأربعة وغيرهم، ولذا كانت ثمرة هذا كله الفقه الجعفرى بما فيه استنباط واختلاف، وهو لا يفترق فى مجموعه عن الفقه السنى، إلا كما تختلف مذاهب السنة بعضها مع بعض) بعد أن قرأنا فصل الخطاب للشيخ القرضاوى.

يبقى أن الذين يصرون على التطرف وبث الكراهية بين المذاهب الإسلامية من متعصبين مدفوعى الأجر سيقولون إن هذا كله تقية من الشيعة، والحقيقة أن اتهام الشيعة بأنهم يخفون ما لا يظهرون هو بمثابة شق قلب وتفتيش ضمائر وحكم على النوايا يذهب بصاحبه إلى مخالفة شرع الله وسنة رسوله صلى الله

عليه وسلم فليس لنا سوى الظاهر والباطن لله، مالنا نحن به، لكن المؤكد أن مفهوم التقية كان موجودا فى زمن ماض سحيق كان فيه آلاف الشيعة فى السجون أو تحت الأرض خوفا وهربا من الحكام والسلاطين أو مطاردين مضطهدين أما الآن وقد عزوا وكبروا وانتشروا وسادوا دولا فلا مبرر للتقية ولا سبب لها ومع ذلك ليكونوا ما يكونون مال أهلنا نحن، لنحترم خلافنا المذهبى بلا منافسة أو منابذة ويجب ألا ننشغل أو أن يشغلنا حلفاء الاستبداد والفساد من المتطرفين أو المنافقين عن القضية الأهم لدى المسلمين جميعا سنة وشيعة وهى تحرير الأوطان العربية من الظلمة والفسدة والقهرة من حكام وحكومات اغتصبوا حق الأمة وأضاعوا ثروتها وأضعفوا قوتها وأذلوا كبرياءها، مهمتنا ليست مصارعة حرة بين السنة والشيعة بل كفاح مدنى سلمى من أجل الحرية والديمقراطية والإصلاح السياسى والدينى، وموسى نبى وعيسى نبى ومحمد نبى وكل من له نبى يصلى عليه!

النحاس مات!

هل حكيت لك هذه القصة من قبل؟

لا أعرف فأنا أكررها كثيرا حتى أننى أتوقف فى منتصف الحكاية كل مرة وأسأل صاحبى الذى أتحدث معه، أنا قلت لك الحكاية دى كتير مش كده؟ وعلى قدر أدب المستمع ساعتها يرد لكننى أفهم كم هى حكاية مؤثرة فى نفسى ومهمة فى فهمى لدرجة أننى أستشهد بها لأدلل على أن مصر لم تكن أبدا بلدا بليدا عابدا للحاكم يبوس يده ويتعامل معه كأنه النبى أو الولى، ولم تكن مصر ولا شعبها ولا مثقفوها ولا سياسيوها على هذا القدر من النفاق الذى يسمونه أدبا، ومن الخضوع الذى يعتبرونه احتراما، ومن التذلل الذى يسمونه رقى لغة الحوار، ومصر كانت يوما بلدا لزعماء ديمقراطيين حينما كانت وطنا لمعارضين شجعان، آه، أخذتنى الحماسة ولم أبدأ الحكاية، شوف يا سيدى (وإذا كنت سمعتها قبل ذلك أو قرأتها منى جاملنى واعمل فيها إنها أول مرة!).

كان مصطفى النحاس واقفا فى محطة القطار (إذا كان سنك أقل من خمسين سنة فأنا مضطر أفكرك مين مصطفى النحاس).

حاول أن تتذكر معى مصطفى النحاس رئيس حزب الوفد (قبل أن تحله ثورة يوليو) وزعيم الأمة حين كانت أمة تنتظر أو تحتاج أو تستحق زعيما.. معالى دولة رئيس الوزراء مصطفى النحاس باشا..

أما ملامحه فيمكن أن تستحضر شكل وملامح أى مفتش لغة عربية دخل عليك الفصل زمان فى المدرسة، ألبسه طربوشا يبقى مصطفى النحاس قامة مفرودة مع بعض الميل نتيجة السن والسمنة وبذلة تقليدية فيها براح ومبهوقة قليلاً وطربوش مضبوط على الرأس بانحناءة على الجبهة وبعض الحول البارز فى عينه

اليسرى وفقط.

هذا هو مصطفى النحاس طبعا وراءه تاريخ طويل ممتد من النضال العظيم ضد الاحتلال الإنجليزى وضد التعسف والاستبداد الملكى ومحاولة الملك إطلاق يده الطويلة فى الحياة النيابية.

خلصت حصة التاريخ بتاعة تانية تانى، نرجع للحكاية.

كان مصطفى النحاس واقفا فى محطة القطار (وليه واقف وليه محطة القطار؟)

آه.. سنعود ونبدأ من الأول خالص.

قد يسأل سائل وقد يقول قائل ولماذا يركب مصطفى النحاس القطار أصلاً؟! ولماذا يذهب إلى المحطة أساسا؟! ألم تقل إنه رئيس الوزراء أين مواكب السيارات وأين الحراسات أين السيارة المصفحة والموتسكيلات أو الهليكوبتر لو المشوار بعيد فى الصعيد أو حتى طيارة الرش على أيامهم؟

ما الذى ذهب بمصطفى النحاس باشا ياباشا إلى المحطة؟

أقول لك فى الحقيقة كانت هناك سيارة طبعا بسائق أيضا لرئيس الوزراء.

لكن لم تكن هناك مواكب أو موتوسيكلات أو إخلاء للشوارع أو تعطيل للمرور أو حرس يرعب العابرين أو رشاشات من النوافذ أو نوافذ سوداء وجيب شيروكى وتوكى توكى ياشعوب يلعن أبوكى وكهربة فى الجو وتوتر وضباط يزعقوا فيك وسع ياجدع (للدقة وسع ياحمار) لم يكن هناك كل هذا لماذا؟

ربما كانت الظروف لاتسمح ربما كانت خزينة الدولة لاتسمح ربما كانت الزعامات لاتسمح ربما كانت الضمائر، وكانت موجودة لم تمت ولم تمرض بالشيخوخة مثلما يحدث الآن، ربما كانت الجماهير لاتسمح فلم تكن قطيعا طائعا نائما أيامها، لكن المؤكد أن مصطفى النحاس تعرض لمحاولات اغتيال منها محاولة فاشلة شارك فيها الرئيس اللاحق أنور السادات، وإذا كان مصطفى النحاس يريد أن يتلكك بالأمن والظروف الأمنية لفعلها.

لكن النحاس باشا رغم ذلك لم يطلب حراسة ولم يؤمن مواكباً ولم يعطل مرورا ولم يعذب شعبه مرا ومرارا ومرورا.

عموما كان النحاس فى جولة انتخابية للدعاية والدعوة لحزب الوفد لما كان حزبا ولما كان وفدا ولما كانت انتخابات ولذلك كان يستقل القطارات من محافظة إلى أخرى، وكان يعدى عليه الليل فينام سواء على الرصيف فوق أى دكة خشب أو فى عربة القطار، معه رفاق الرحلة وبعض أفراد من الحزب وبلا حراسة حتى ولو بندقية لعبة.

انتهت حصة التاريخ لسنة تانية تانى ودخلنا حصة التاريخ بتاعة تالتة تالت بينما كان مصطفى النحاس خارجاً من أحد مساجد القاهرة بعد عودته من إحدى رحلات القطار فإذا بشاب غر غرير بلغة وقتها، قلة منحرفة بلغة ما بعدها، إرهابى متطرف بلغة مابعد بعدها، يقترب منه فى اندفاع ويقول له إنت مصطفى النحاس رئيس الوزراء.

يرد النحاس بطيبة وهدوء:

- أيوه يابنى أنا..

يقوم الواد مقرب أكثر ويمد يده ويصفعه بالقلم على وشه..

وش مين؟

وش مصطفى النحاس.

رئيس الوزراء.

آه رئيس الوزراء..

يعنى كان مصطفى النحاس واقفا بطوله وعلى حيله ولوحده تقريبا وبدون حراسة مشددة أو مخففة واستطاع هذا الشاب الغر الغرير القليل المنحرف الوصول إلى رئيس الوزراء ووقف قدامه وجها لوجه هكذا دون أن يخاف أو يمسكه ضابط الحراسات فيمسح باللى جابو أهله الأرض ويروح وراء الشمس إن كان هناك متسع أو مكان فاضل له وراء الشمس، وكان أن سكع هذا الشاب معالى رئيس الوزراء قلما على وجهه آه والله العظيم تلاتة حصل.

هذه الحادثة فى غاية الأهمية والخطورة.. لكن الأهم والأخطر هو ماحدث بعدها ماذا فعل مصطفى النحاس معالى دولة رئيس الوزراء؟

كونه غضب فهذا مؤكد.. كونه تأثر فهذا حقيقى كونه أحس بالإهانة فهذا طبيعى.. كونه انفجر غيظا فهذا محتمل.

لكنه فعل مالم يفعله أحد بعده أبداً.

لقد أخذ نفسه وهز طوله وذهب إلى قسم شرطة الأزبكية ومعه الشاب الذى ضربه وطلب من الضابط النبطشى أن يفتح محضرا واشتكى معالى دولة رئيس الوزراء من الشاب الذى ضربه بالقلم وحكى الواقعة وسجل الحادثة وهو يمسح عرقه والإهانة على وجهه، نعم أبلغ السيد معالى دولة رئيس الوزراء مصطفى باشا النحاس زعيم الأمة فى القسم عن الشاب الذى ضربه بالقلم على وجهه عيانا بيانا ووقع على المحضر فى ساعته وتاريخه وتوكل على الله يلحق القطر، لم يتم اعتقال الشاب ولا سجنه ولا رميه وراء الشمس ولا تلفيق تهمة انتماء لتنظيم وهمى ولم يتم سحله ولا التحرش به ولا تعذيبه فى القسم، بل رئيس وزراء يتعامل مع مواطن بمنتهى الاحترام للمواطنة وبكل ما فى الدستور من مساواة ويشكوه فى القسم وخلاص، نعم خلاص، انتهت كل حصص التاريخ.

بقيت فقط حصص القراء الحرة ماذا لو حدث هذا الحدث الآن.

أولا: لايمكن أن يستطيع أى مواطن الوصول إلى معالى دولة رئيس الوزراء مصطفى باشا النحاس لأن النحاس باشا مات.

ثانياً: لايمكن أن يستطيع أى مواطن الوصول إلى معالى أى دولة رئيس الوزراء بعد مصطفى النحاس لأنه أى المواطن ح يموت قبل مايوصل قارن هذه الحادثة التاريخية المذهلة (والتى كتب بعدها الكاتب العظيم عباس محمود العقاد مقالا ناريا ينتقد فيه ويهاجم النحاس باشا لأنه حرر محضرا لهذا الشاب الوطنى ـ سماه هكذا ـ الذى يعارض سياسة النحاس).

قارن ما جرى بما يجرى وأجرى على الله، قطعا أنا لا أدعو لضرب أحد قلما على وجهه لإثبات الديمقراطية ولا أظن أن هذه هى الديمقراطية لكن دعنى أذكرك أن فى إسرائيل وقف متظاهرون ضد رئيس الوزراء أولمرت ساحبين حمار معاهم واصفين أولمرت به، وفى روسيا هناك مواطنة بصقت فى وجه جورباتشوف فى

جولة انتخابية ولم يرموها للكلاب تنهش لحمها وفى لندن رموا البيض على بلير وفى ألمانيا وإسبانيا رموا زعماءهم بالطين فى المقابلات الانتخابية والنماذج أكثر من أن تحصى ومع ذلك فليس هدفى إثبات أن المناخ الديمقراطى يبدأ بضرب الزعماء بالقلم أو البيض ولكن أتحدث عن مجتمعات بمن فيها مصر ما قبل يوليه ١٩٥٢ لا تقدس رؤساءها وزعماءها ولا تتعامل مع المعارضين بهذه الوحشية والبوليسية والقمع والتعذيب الذى شهدته مصر طول عهد نظام يوليه ثم زاد وغطى وفاض وباض فى ربع القرن الأخير الذى يحكمنا فيه الرئيس مبارك والذى لم يسجل نظام مثل ما سجل فى عمليات التحرش والانتهاك والسحل والنفخ والتعذيب لمواطنيه سواء المواطنين العاديين الذين لا يعملون فى السياسة (ولا يعملون إطلاقا) أو المعارضين السياسيين من الإخوان المسلمين أو اليساريين أو الليبراليين، ولكن يبقى السؤال، لماذا أصبحنا هكذا؟

لماذا وصل بنا الحال من أن صفع مصطفى النحاس عمل غير مجرم مفهوم ومغفور له سياسياً إلى أن نقد مبارك، مجرد نقد سياسته ونظامه، عمل خارق للناموس الكونى ويهتز له عرش السماء والأرض من وجهة نظر مؤيديه ومنافقيه؟!

أسأل نفسى كل يوم هذا السؤال، وألوم نفسى كل يوم لأننى مازلت أسأله، بل لأننى مازلت مهتما بالبحث عن إجابة عنه.

لقد وضعت ثورة يوليو من ضمن أهدافها الستة (كان آخر الأهداف) إقامة حياة ديمقراطية سليمة! وكأن هناك حياة ديمقراطية مكسورة ومريضة وأخرى سليمة معافة! وكانت هذه هى الكذبة الكبرى التى زرعها نظام يوليو واستمرت حتى مؤتمر الحزب (الحزن) الوطنى الذى ينعقد هذه الأيام رافعا نفس رايات الكذب والتضليل السياسى، أصبح الحكام وأبناء الحكام هم الذين يقررون ما هى الديمقراطية السليمة والمريضة! وجعلوا أنفسهم أوصياء على الشعب والمواطنين فهذا معارض عذب فرات وهذا ملح أجاج، هذا سليم وذلك مكسور، هذا الأخ ديمقراطى سليم وهذا ديمقراطى مريض،! كأن الديمقراطية السليمة المطلوبة هى الديمقراطية التى تعترف بأن الرئيس هو أعظم الحكام وأن رئيسنا من الملهمين

الراشدين وأن الوطن يضيع من غيره والشعوب تنهار لو تركنا، الديمقراطية المطلوبة والمسموحة وفق تصور رجالات الحزب الوطنى وتابعيهم هى التى لا تشاغب ولا تعارض ولا تحرك ولا تتحرك ولا تتظاهر ولا تغير رئيسا ولا تسقط وزيرا ولا تحرك شارعا ولا تطمع فى حكم ولا تفكر فى سلطة.

ثم ظهرت الأكذوبة الأكبر وهى أن الشعب ليس مستعدا للديمقراطية ومازلنا نعلمه ونفطمه واحدة واحدة وخدى اللقمة ياكوتوموتو ياجماهير! وكخة ياوطن، وتاتا تاتا يا شعب! كأن الحكام يمنعون أبناء الوطن من مسك سلك الكهرباء أو اللعب فى الفيشة السياسية، كأننا وطن من الأطفال فى حاجة إلى شرب اللبن قبل أن نام! وقد استمرت هذه الأكاذيب لتنتج واقعا سياسيا مشوها وهزائم وأزمات لا تنتهى وضعفا أمام العالم والغرب الذى يعاير بلادنا بالتخلف والعبودية للحكام وتوريث الحكم وأولدت لنا ديمقراطية شكلية هشة ومضعضعة وعبارة عن مجرد لهو ولغو فارغين نضحك بهما على العيال حتى يكبروا! الجميع يتحدث عن خطوات الديمقراطية وليس الديمقراطية، عن الضمانات من أجل الديمقراطية وليس حقوق الديمقراطية!

ويبدو أنهم يصرون على إقناع الشعب بأنه طفل وعيل فعلا فى حاجة إلى بزازة الحكومة الأم والحاكم الأب حتى يستمر الوطن أكثر استعدادا للعبودية وللوصاية وندخل فى دائرة القبول بالأمر الواقع والرضا بالقسمة والمقسوم، فترك الشعب (خوفا أو يأسا أو سلبية) رئيسه ورجال حكمه وحزبه ينفردون بإدارة البلد حتى تحولت مصر إلى ذلك البلد الذى يصفه الكاتب الراحل نجيب محفوظ فى آخر ما كتب من رؤى ورؤية فى كتابه «أحلام فترة النقاهة»، يقول: (فى ظل نخلة على شاطئ النيل استلقت على ظهرها امرأة فارعة الطول ريانة الجسد. وكشفت عن صدرها ونادت يزحف نحوها أطفال لا يحصرهم العد. وتزاحموا على ثدييها ورضعوا بشراهة غير معهودة وكلما انتهت جماعة أقبلت أخرى وبدا أن الأمر أفلت زمامه وتمرد على كل تنظيم. وخيل إلى أن الحال تقتضى التنبيه أو الاستغاثة ولكن الناس يغطون فى النوم على شاطئ النيل. وحاولت النداء ولكن الصوت لم

يخرج من فمى وأطبق على صدرى ضيق شديد. أما الأطفال والمرأة فقد تركوها جلدة على عظم. ولما يئسوا من مزيد من اللبن راحوا ينهشون اللحم حتى تحولت بينهم إلى هيكل عظمى. وشعرت بأنه كان يجب على أن أفعل شيئا أكثر من النداء الذى لم يخرج من فمى وأذهلنى أن الأطفال بعد يأس من اللبن واللحم التحموا فى معركة وحشية فسالت دماؤهم وتخرقت لحومهم. ولحنى بعض منهم فأقبلوا نحوى أنا لعمل المستحيل فى رحاب الرعب الشامل انتهى حلم نجيب محفوظ ويحلل ويفسر الدكتور محمد المهدى العالم النفسى الكبير هذا الحلم وتلك الرؤية للأستاذ نجيب محفوظ فيكتب عن تداعيات هذا الحلم(رقم ١١):

(كنت أتصور ـ سذاجة ـ أن مصر تعرضت وتتعرض للنهب، ولكن هذا الحلم الكابوس أفزعنى على حقيقة أن الأمر تجاوز مرحلة النهب ووصل إلى مرحلة النهش، ولم يتوقف الأمر عند ذلك بل إن «النهّاشين» حين فرغوا من النهش راحوا ينهشون بعضهم البعض.

فمصر العظيمة التى تمدد ـ ريانة الجسد ـ على شاطئ النيل تكشف عن صدرها المليء بالخيرات لأبنائها، يتزاحم عليها أطفالها الكثيرون ببراءة (فى البداية) يرضعون من هذا الصدر العذب، ولكن ما لبثت براءتهم أن تحولت لشراهة، وتحول الأمر إلى نهب شديد وفوضى محددة. وبدا للعقلاء من أهلها أن الأمر يحتاج لتنبيه أو استغاثة ولكن أهل مصر ـ كعادتهم ـ يغطون فى نوم عميق ويتغيبون فى حالة من السلبية واللامبالاة، ويغرقون فى بحر من الأمان الكاذب، ويتصورون خداعاً وزيفاً أن بلدهم المعطاء لا ينفد خيره. وحاول العقلاء إيقاظ النيام وتنبيه الغافلين إلى خطورة ما يحدث، ولكن الخوف كتم أصواتهم داخل أفواههم، وكتم حسرتهم فى صدورهم. وفى هذا الجو الفاسد والمضطرب الخالى من صوت عاقل أو تنبيه رشيد واصل الناهبون والناهشون عملهم فى امتصاص خيرات البلد حتى جفت منابعها وأصبحت جلداً على عظم بعد أن نهشوا لحمها حين جف ضرعها.ومرة أخرى يشعر العقلاء والصالحون من أهل مصر بالندم والحسرة والخجل، فقد تأخروا كثيراً فى التنبيه والتحذير، ووقفوا مكتوفى الأيدى

حتى حلت الكارثة واشتد الصراع وعمت الفوضى، ولجأ إليهم بنو وطنهم لينقذوا الوطن من الخراب والفوضى ولكن الوقت كان قد فات ولم يبق إلا الرعب الشامل الذى يلفح الناهشين والساكتين على السواء).

هذا السيناريو المخيف لما بعد النهش الذى وصفه محفوظ وفسره دكتور المهدى هو ما نخشى منه فقد وصل الحال إلى درجة أن تقريرا منسوبا لهيئة سوق المال نشرته إحدى المجلات الحكومية يقول إن ألف عائلة تملك وتدير ٥٠% من حركة الأسواق فى مصر وتسيطر على ٩٠% من شبكات التوزيع الداخلى و٦٠% من وسائل النقل و٨٠% من الأراضى الزراعية و٦٥% من النشاط الصناعى و٩٠% من قطاع السياحة، هل أصابتك هذه الأرقام بالقلق على بلدك الذى يتم احتكاره عبر عائلات تحكم مصر فى السياسة والاقتصاد، ضع هذا إلى جانب أن الرئيس مبارك والسيدة قرينته والسيد ابنه يتحكمون ويحتكرون ١٠٠% من سلطة الدولة والحزب والوزارة، وصار المواطن المصرى مفعولا به لا فاعلا، تابعا لا قائدا، مطيعا لا آمرا، عاطلا لا عاملا، مسروقا لا مستورا، وهذا أمر طبيعى جدا فما هو مصير شعب تم احتكاره سوى أن يتم احتقاره!.

درع النبـــــــــــــى

لم أصدق أبدا أن النبى صلى الله عليه وسلم مات ودرعه مرهونة عند يهودي ؟

درع النبى، سلاحه فى الحرب والقتال يسلمه رهنا ويتنازل عنه فقرا ولمن، ليهودي ؟

أنا أقول لك: إن هذا مستحيل؟ ستقول: إن هذا حديث فى البخارى، على عينى ورأسى البخارى لكن النبى لم يرهن سلاحه لا فى حياته ولا قبل وفاته ولا ليهودى ولا لمجوسى!

لنعود للحديث المنسوب للسيدة عائشة رضى الله عنها فى صحيح البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد، قالت عائشة:

(توفى رسول الله ودرعه مرهونة عند يهودى بثلاثين صاعا من شعير).

وفى مسند أحمد من حديث أنس نجد جملة إضافية على كلام عائشة:

(فما وجد لها ما يفتكها به).

أى ما وجد للدرع ما يفتكها به (ويفتكها هنا بمعنى يفك رهنها) من اليهودى وتوفى على ذلك (صلى الله عليه وآله)؟!

وفى حديث الترمذى عن ابن عباس وأنس:

أن الدرع رهنت بعشرين صاعا؟؟.

وليس بثلاثين؟؟. وفى أحمد:

بوسق من شعير؟.

ولا أستطيع أن أصدق هذا الكلام ولا يدخل عقلى على الإطلاق كما أننى لا أفهم سره، فالمؤكد أن النبى صلى الله عليه وسلم فى أيامه الشريفة الأخيرة لم يكن

محتاجا فقيرا يمد يده لأحد حاشا لله أن يمدها طلبا بل يمدها عطاء ومنحا، فهناك نصيب النبى صلى الله عليه من غنائم الحروب والغزوات وهو ما يشكل رصيدا للإنفاق النبوى سواء على المعاش اليومى أو التصدق والتكرم على فقراء ومحتاجى المسلمين بل والهدية والتهادى كذلك، ثم إن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن ملكا يتطلب عرشه مالا وأموالا ونفقات ومصروفات، بل كان نبيا عظيما يعطى المثل والمثال فى التقشف والرضا فلم تكن احتياجات بيته كبيرة متضخمة لا تسدها الموارد حتى أن تفرغ غرف زوجاته من عشرين أو ثلاثين صاعا من الشعير، فضلا عن إن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى تلك الشهور الأخيرة من حياته يعد جيشا بقيادة أسامة بن زيد لغزو الروم فكيف لقائد يجهز جيشا أن يرهن درعا أو يبقى على درعه مرهونة ؟ ثم لو افترضنا أن النبى فى حاجة ماسة لثلاثين صاعا من الشعير (حوالى ١١٥كيلو شعير) فمن باب أولى أن يرهن أو يقترض من مليارديرات الإسلام الصحابة العظام الذين كانوا موجودين على ذات الأرض ودعموا ومولوا وساندوا دعوة الإسلام بأموالهم وثرواتهم؛ فهناك عبدالرحمن بن عوف رضى الله عنه وهو من هو فى الغنى والثراء بل هو الذى قام بتمويل جيش النبى وبعض من غزواته بل وجيش أسامة بن زيد نفسه، فهل يعرف الصحابة وأثرياؤهم سواء ابن عوف أو عثمان بن عفان أو طلحة الخير بأن النبى صلى الله عليه وسلم قد رهن درعه (دعك حتى ليهودى أو لغيره) ويسكتون بل يسارعون لفك الرهن وتقديم الأموال (والثلاثين صاعا من الشعير) للنبى وأهله!

ثم إن النبى الكريم (صلى الله عليه وسلم) فى سنواته الأخيرة وما بعد فتح مكة قد بدأ حربا شاملة على اليهود الخونة فى المدينة المنورة وخاصة من قبائل خيبر وقريظة ليس فقط لأنهم خانوا النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) حين نقضوا وأخلوا بالاتفاقية المبرمة بينهم فى المدينة المنورة والتى نصت بعض بنودها بعد التأكيد على حرية وحق الإقامة لليهود وحرية دينهم وشعائرهم، قد أقرت معاهدة مواطنة مدنية من طراز رفيع تقول مادة فيها (وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب هذه الصيغة ـ المعاهدة ـ وأن بينهم النصح

والنصيحة والبر دون الإثم وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه وأن النصر للمظلوم وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين) لم ينقض اليهود معاهدة ودستور المواطنة فقط بل كذلك تجسسوا على النبى وجيوشه وجنوده وتحالفوا مع أعدائه وحاولوا اغتياله فما كان ممكنا إلا الحرب الضروس ضدهم (لم يمنع ذلك من أن النبى صلى الله عليه وسلم قد أعاد صحائف التوراة التى كان يهود خيبر يحتفظون بها، فقد ردها النبى لهم بعد استيلاء المسلمين عليها احتراما لحرية العقيدة، ويمكن الرجوع إلى تفاصيل أوسع فى كتاب الدكتور محمد سيد طنطاوى بنو إسرائيل فى القرآن والسنة)، كل هذا يؤدى إلى السؤال الكبير هل يمكن أن يرهن والحال هكذا نبى الله درعه عند يهودي؟!.

ثم تأتى علامة الاستفهام الأهم (وربما علامة التعجب) إذا كان النبى قد مات ودرعه مرهونة عند يهودى فما مصير هذه الدرع؟ فلم نجد كتابا ولا سيرة ولا تاريخا حكى لنا عن أبى بكر الصديق وقد استرد الدرع وسدد رهنها ولا عن عمر بن الخطاب أنه أعاد درع النبى من اليهودى خصوصا أنه أجلى آخر من تبقى من اليهود فى الجزيرة العربية عنها، وقبلهما إمام المتقين على بن أبى طالب ابن عم النبى ودرة أهله وزوج ابنته أيسكت عن رهن درع النبى وحاجته لثلاثين صاعا من الشعير لأكل أهله؟!، أيعقل؟

لا يستطيع أحد أن يتصور أن رهن النبى للدرع -إن حدث- كان سرا بل يتباهى به اليهودى قطعا وينشر خبره ليصل إلى المسلمين، ثم لو افترضنا أن الدرع فعلا كانت مرهونة، أيصمت على بن أبى طالب بعد وفاة النبى ولا يسترد درعه من اليهودى أو أهله لو كان اليهودى قد مات؟، أما أن تسكت كتب التاريخ جميعا عن سيرة الدرع ولا تذكر لنا إطلاقا مصير هذه الدرع وهى التى لم تدع شعرة للرسول إلا وتتبعتها فمعناه أن درع النبى صلى الله عليه وسلم ظلت موجودة عند اليهود! أبدا ولا يمكن، ما كان النبى ليفعلها وماكان ابن عوف ليتفرج على حاجة نبيه ويسكت وما كان إمام المتقين على بن أبى طالب يسكت على رهن درع نبيه وابن عمه ووالد زوجته أو على بقائها فى يد يهودى أو غيره!

ليقل البخارى ما يقول لكنها رواية لا تصح ولا يجب أن تصح، لا تاريخا ولا عقلا ولا نقلا ونملك من الثقة أن نقول: إن النبى الذى تركنا على المحجة البيضاء لن يترك لنا مغزى ومعنى يقضى بجواز رهن سلاحنا لدى أعدائنا، ثم هل الغرض من تلك الرواية أن يبدو اليهود وكأنهم كسروا عين المسلمين وكبرياءهم فهذا الدين الذى انتشر وهذا الإسلام الذى طردهم من المدينة المنورة وهذا النبى الذى انتصر، رهن درعه لديهم فهم طرف أعلى ويد عليا فوق الإسلام والمسلمين!

ثم إننا عندما نقرأ فى السيرة النبوية حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى ابنته خير نساء الأرض السيدة فاطمة رضى الله عنها فى اللحظات الأخيرة قبل وفاته لا نجد ولا نعثر على وصية للنبى صلى الله عليه وسلم لها أن تفك رهن درعه، الوصية والحوار لم يكن فيها فك رهن ذلك الدرع ولم تأت الزهراء الجليلة على ذكره، كما أنه لم يثبت -كما قلت- أن الإمام على بن أبى طالب وأهل بيت النبوة قاموا بفك رهن الدرع المزعوم بعد وفاة الرسول الكريم (انظر السيرة النبوية لابن هشام وكذا حياة محمد لمحمد حسين هيكل).

ومع احترامى الشديد لاجتهاد العلماء من وراء هذه الرواية بأن أفتوا بجواز الرهن مع اليهود (والمسيحيين) وجواز تمكين الذمى من السلاح (..) فربما تكون الفتوى طيبة سائغة ومقبولة لكن أصل الرواية مشكوك فيه ومرفوض فيما أظن، قد نستدل بشراء الرسول السلاح من يهود المدينة على جواز التعامل مع أهل الكتاب فى البيع والشراء للأسلحة وربما نستدل بالمواثيق والعهود النبوية مع اليهود على جواز الصلح معهم، لكن هذا لا علاقة له برهن النبى لدرعه، وهى رواية وحديث نرى فيه ما نراه فى حديث آخر بدا وكأنه قاطع ومحسوم بينما الدخول بالعقل إليه يحتم نفيه بل وأقول رفضه بداهة، ففى البخارى ومسلم.(بينما لم يروه فى أى كتاب حديث آخر من كتب الحديث التسعة.) قال البخارى حدثنا عبد الله بن محمد المسندى قال حدثنا الحرمى بن عمارة قال حدثنا شعبة عن واقد بن محمد قال سمعت أبى يحدث عن ابن عمر أن النبى قال:

(أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله

ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله). وفى رواية لمسلم من حديث أبى هريرة أن النبى قال (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله)، ولعل ما وصل إليه الباحث الدكتور محمد حازم دعبس فى كتابه الضخم «النبع الصافي» عن هذا الحديث يضيئ ما نقول؟ فهذا الحديث يؤكد مقولات تصدر من غرب وشرق أن الإسلام انتشر بالسيف ولعل هذا الحديث دليلهم الدامغ على اتهامهم السافر، ورغم ذلك اتفق الشيخان (البخارى ومسلم) على صحة الحديث رغم غرابته ورغم عدم وجوده فى أى كتاب آخر. (وقد استبعد بعض العلماء صحة الحديث). ويقول الدكتور حازم دعبس إنه قد حاول علماء أهل السنة تبرير الحديث لأنه ورد فى البخارى ومسلم فقالوا لعل الإذن بأخذ الجزية والمعاهدة من أهل الكتاب جاء متأخرا عن الحديث. فإن صح ذلك يكون الحديث قد نسخ بحكم الجزية والمعاهدة!!.

وقالوا أيضا لعله من العام الذى خص منه البعض. أو من العام الذى أريد به الخاص. فيكون المراد من قوله: أقاتل الناس أى المشركين من غير أهل الكتاب؟؟. لكن الواضح الجلى أن هذا الحديث يتعارض مع الآيات المحكمة فى كتاب الله ويتعارض مع فعل رسول الله من قبول الجزية من أهل الكتاب ومعاهدة المشركين!!. قال سبحانه فى سورة البقرة:

«لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم».

وقال سبحانه وتعالى فى سورة الممتحنة:

«لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين».

لم يتلق النبى الكريم أمرا بقتال الناس وقتالهم بل كانت الأوامر القرآنية واضحة جلية فى (لكم دينكم ولى دين)، (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) كذلك القاعدة التامة المتممة (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا

يحِبُّ الْمُعْتَدِينَ).

الحقيقة أنه بينما نغضب من الإهانات التى تلاحق الإسلام والمسلمين من بعض متطرفى الغرب والصهيونية زعما بأن الإسلام دين العنف والدم والغزو فإن العقل المسلم الذى يعيش الآن ويسيطر على ساحات الدعوة والوعظ (التليفزيونى وفى خطب الجمعة وكتب السخافة والتسطح) وبما يردده ويذيعه ويصدقه الناس يثبت أننا نعانى فعلا من سقم فكرى وبلادة عقلية وانحراف عاطفى وسأعود إلى عالمى الأثير الدكتور محمد المهدى أستاذ الطب النفسى وهو يشرح فى دراسته عن (البناء النفسى للمسلم المعاصر) أنواع التدين المرضى الذى يصيب الإسلام فى مقتل بينما يظن أنه يدافع عنه ويحميه ويقويه، فيكتب الدكتور المهدى: (ونخص بالذكر هذه الأنواع التالية من التدين المرضى:

أ ـ التدين النفعى (المصلحى): حيث يلتزم الشخص بالكثير من مظاهر الدين الخارجية للوصول إلى مكانة اجتماعية خاصة أو تحقيق أهداف دنيوية شخصية. وهذا الشخص يستغل احترام الناس للدين ورموزه فيحاول كسب ثقتهم ومودتهم بالتظاهر بالتدين ويسخر الدين لخدمته، وتجده دائماً حيث توجد المكاسب والمصالح، وتفتقده فى المحن والشدائد.، ب ـ التدين الانسحابى (الهروبى): وهو يحدث فى الأشخاص الذين يشعرون بالعجز فى مواجهة متطلبات وضغوط الواقع فيلجأون إلى الدين احتماء من مواجهة الصعوبات التى عجزوا عن مواجهتها، وإيثاراً للراحة فى ظل بعض المفاهيم شبه الدينية، فتجد الشخص من هؤلاء قد أهمل دراسته أو عمله أو مسئولياته وتفرغ لممارسة بعض الشعائر الدينية التى لا تتطلب جهداً أو مشقة، وهدفه ـ غير المعلن ـ من ذلك هو تغطية قصوره وعجزه والهرب من المواجهة الحقيقية والشريفة مع الواقع. جـ ـ التدين الذهانى: ويظهر فى بعض المرضى النفسيين حيث يصطبغ المرض ببعض المفاهيم شبه الدينية الخاطئة فيعتقد المريض ويعلن أنه ولى من أولياء الله، أو أنه نبى بعث لهداية الناس، أو أنه المهدى المنتظر، ويتصرف على هذا الأساس وهذه الحالات تحتاج إلى العلاج الدوائى والنفسى. د ـ التطرف: وهو المبالغة الشديدة فى جانب أو أكثر من

جوانب الدين بما يخرج الشخص عن الحدود المقبولة شرعاً. وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

التطرف الفكرى: حيث يصعب النقاش مع هذا الشخص حول ما توصل إليه من أفكار، وينغلق على فكره فلا يقبل فكرا أو رأيا آخر.

التطرف العاطفى: حيث تصبح عواطف الشخص كلها متركزة فى عاطفته الدينية، ويصبح شديد الحساسية من هذه الناحية، شديد المبالغة فى الانفعال بها.

التطرف السلوكى: وهنا نجد الشخص يبالغ مبالغة شديدة فى أداء الشعائر الدينية الظاهرية بما يخرجه عن الحدود المقبولة شرعاً وكأن هذه الشعائر هدف فى حد ذاته، لذلك نجدها تخلو من معناها الروحى. وهو لا يكتفى بذلك بل يقوم بإجبار الآخرين على أن يحذو حذوه وإذا خالفوه ربما يعتدى عليهم).

أعلم أن كلام الدكتور محمد المهدى (وهو متدين ملتحى بالمناسبة) شارح جارح، لكن المفاجأة الحقيقية أن هذه الأشكال من التدين المرضى هى التى تقود الساحة الإسلامية فى السنوات الأخيرة فانتهى بنا الحال إلى دين رحب رحيم تحول إلى تدين منغلق متطرف، إسلام علم وعقل لكن مسلمين جهل وخرافة، عقيدة حرية وتقدم وعقائديين مكبلين متخلفين، دين جوهر وضمير فحولوه دين شكل وشعائر وطقوس وتمتمات وهمهمات، وكأننا فعلا قد رهنا درع النبى وسلمنا سلاحه لأعدائه، صحيح بعض المسلمين فى حاجة إلى فضائل التقوى بينما كثير من المسلمين فى حاجة إلى أقراص الدواء!

قَـــــــوْلاً لَيِّنــــــــاً

لا أظن أن كثيرين منا باتوا يتذكرون يوم بكى حسنى مبارك وأدمع فى خطابه الأول على منصة مجلس الشعب حين ذكر اسم الرئيس السادات وقال إنه لم يكن يتصور أبدا فقدانه أو العمل بعده، تعاطف الناس يومها مع رئيسهم العاطفى الدامع فى لحظة تأثر حقيقية تشبه تلك التى أصابت الرئيس السادات نفسه يوم جنازة جمال عبدالناصر حتى إنه أغشى عليه ونقلوه محمولا بعيدا عن الجنازة من فرط البكاء والتأثر على جمال عبدالناصر!

تعال انظر الآن للرئيس مبارك هل هو نفسه الرجل الذى كان منذ ستة وعشرين عاما واقفا على منصة البرلمان فى أول خطبة رئاسية له، هل هو ذلك الرجل الذى نهر المصورين لأنهم أكثروا من التقاط الصور له، هل هو الذى قال فصفق الناس أن الكفن مالوش جيوب، هل هو الذى قال إن مدتين كفاية قوي؟ آه، معقولة ده طلع الرئيس مبارك أول من قال كفاية!!

ومع ذلك انظر الآن وأعد البصر كرتين للرئيس مبارك وهو يعتقد أن مصر ستنهار لو مضى وتنحى عن الرئاسة وأنه يحكمنا ليس محبة فى الحكم ولا غراما بالسلطة ولا تمسكا بالنفوذ ولا تشبثا بالرئاسة بل من أجل مصلحة مصر واستقرارها، تبدل الرجل تماما على مدى ستة وعشرين عاما وقد ساهم الشعب فى هذا التبدل والتغير وفى تراجع تواضع الرئيس وتضاؤل زهده فى السلطة، ساهم حسنى مبارك نفسه فى تغيير نفسه وشاركه صفوت الشريف وزكريا عزمى وكمال الشاذلى وفتحى سرور ومفيد شهاب ومصطفى كمال حلمى وإبراهيم نافع وسمير رجب وإبراهيم سعدة وكل وزراء الداخلية ومديرى جهاز أمن الدولة، كل هؤلاء الذين استفادوا بالبقاء فى الحكم وتحت ضوء ونفوذ وفلوس السلطة هم الذين

شاركوا مع الرئيس فى تحوله من الرئيس المتواضع الزاهد فى السلطة والسلطان إلى الرئيس الأبدى المستبد، (يفسر الباحث نبيل هلال فى كتابه «الاستبداد ودوره فى انحطاط المسلمين» مصطلح الاستبداد السياسى بأنه هو الاستيلاء على السلطة والاستئثار بها ومنع تداولها سلميا وإساءة استغلالها والتوصية بها لابن ولأخ أو من يختاره المستبد بنفسه والاستبداد هو مصادرة حق الأمة فى أن تختار بنفسها من يحكمها وحرمانها من أن يتولى قيادتها أصلح أبنائها من الذى تجمع عليه إرادتها وفى ذلك مصادرة لحق كل مواطن،أى مواطن فى أن يتولى قيادة الأمة إن أرادت ذلك وصلح هو.) وستسألنى وهل سطا مبارك على السلطة؟ أجيب وبماذا تسمى الـ ٩٩%والـ ٩٨%وتعديل خصوصى ملوكى تفصيل عند چورچ آرمانى للمادة ٧٦فى الدستور، ألا تسمى التزوير سطوا على السلطة أنا أسميه اغتصابا للسلطة وللوطن؟!).

ثم إن هذا الشعب الذى يلعب دور الضحية الآن هو الذى صنع قبل الجميع وبعدهم بخوفه وجزعه وخضوعه وسكوته ونفاقه فرعونية وفرعنة الحاكم، تحول الرئيس من الرئيس المواطن إلى الرئيس الفرعون! فانتهى بنا الأمر إلى ما نحن فيه الآن من رئيس كل شيء فى الوطن لا يتنفس ولا يتحرك إلا بإذنه وسلطته، بالمناسبة أنا أكتب هذا الكلام وأنشره ليس اعتمادا على حرية يكفلها دستور ولا قانون، فهذا القانون وذلك الدستور تحت أمر السيد الرئيس وهو وحده الذى يمكنه أن يتركنا دون سجن أو قتل أو نفى أو طرد أو غلق وهو الذى يمكنه بإشارة أو إيماءة من طرف إصبعه الصغير أن يرمى بنا فى جب عميق بالقانون وبالمحكمة، ستقول ساعتها والله ده رئيس رحيم أقولك جايز لكنه ليس ديمقراطيا، فلا توجد ديمقراطية تسمح أن تصبح الحرية فى يد رئيس يمنحها لمن يشاء ويمنعها عمن يشاء، لا يوجد قانون فى بلد يتم استخدامه حسب رغبة الرئيس (فى الوسطين السياسى والصحفى يخافون حتى من أن يسموا الأشياء بأشيائها فيقولون عن الرئيس مؤسسة الرئاسة وينسبون القرارات والأوامر الغليظة التى تصدر عنها بأنها قادمة من زكريا عزمى كمن يهاجم الحجاج وينسى يزيد!).

لهذا كله لن يغير الرئيس مبارك مواد الدستور ولن يتنازل ولو بشبر ليلبى مطالب ونداءات واستغاثات الناس بأن يعدل المادة ٧٦ ويجعل انتخابات الرئاسة مفتوحة بين متنافسين حتى لا يحول دون انفراد ابنه بالترشيح، ولن يغير المادة ٧٧ التى تسمح له ولغيره بالحكم مدى الحياة ولن يغير شيئا لأنه ليس محمد حسنى مبارك ١٩٨١بل هو محمد حسنى مبارك ٢٠٠٧، كيف يتراجع ويتنازل، كيف يتراجع ويتواضع، كيف يمتثل لإرادة الجماهير وهو يرى أنها تعيش من فضلة خير حكمه، كيف يرحم مصر وهو يراها ستموت لو ترك حكمها؟!

وكيف نفرض عليه أن يفعل ونحن شعب خامل بعد ستة وعشرين عاما من حكمه بالحديد والنار والإغواء والإغراء والطوارئ والتعذيب والاعتقالات والنفخ فى الأقسام والسجون وبانتشار الرشوة بين الناس وبانسحاق الفقراء وسطوة الأغنياء، كيف نفرض عليه شيئا؟!

هذا ليس بثا لليأس فى النفوس بل استنهاضا للهمم برفض ما هو كائن وفرض ما سيكون!

لقد نجح جمال عبدالناصر فى طرد الإنجليز من مصر..

ونجح أنور السادات فى طرد الإسرائيليين من مصر..

ونجح حسنى مبارك فى طرد المصريين من مصر..

نعم طرد المصريين من مصر، طرد روح المصريين وليس أجسادهم، إرادة المصريين وليس أبدانهم، طرد كبرياء المصريين وعزتهم وكرامتهم! والمطلوب والمفروض والمحتوم هو عودة هذه العزة فى مواجهة الطغيان الذى اختصر الوطن فى اسمه ولخص الشعب فى ضغمة حاكمة تحيطه وتحرسه من الناس ومن الحقيقة!

لقد حول الوطن العربى انتخاب الرئيس إلى استفتاء عليه وحده حتى ولو كان انتخابا من بين مرشحين ومنافسين، انظر لليمن السعيد ومصر السعيدة وتونس المسعدة حيث شعار الحكام أنه لا يوجد أحد يمكنه منافسة الآلهة (من المجنون الذى يتصور أنه سيكسب انتخابات فى مواجهة فالق الإصباح والنوي؟) الحاكم ومنافقوه وسجانوه حولوا الانتخابات إلى مبايعة وبيعة كأنها القرون الوسطى أو

كأنها القرون من غير وسطى!

ثم نأتى إلى السؤال الجوهرى فى المأساة الملهاة الحالية وهو: لماذا لا يريد الحكام ترك مقاعدهم وهناك أكثر من إجابة يمكن أن تختار من بينها الإجابة المناسبة:

أ ـ لأن الحاكم يصاب بفعل نفاق من حوله وخوف من تحته بحالة من الإحساس بالعظمة بحيث لا يتصور أنه يخطئ أبدا ويرى فى نفسه من أثر نفاق الصحافة ونفخ الإعلام وتذلل الساسة وتعبد المسئولين، أنه إله ونبى ملهم ويوحى إليه.

ب ـ لأن الحاكم يخشى إذا ما رحل عن مقعده أن يحاسبه من يخلفه أو يحاسبه شعبه على فساده هو وأسرته وأولاده (وربما جيرانه!!) ويخرج من القصر إلى السجن..ومن كرسى الحكم إلى حبل المشنقة!

ج ـ لأن الحكام السابقين له فعلوا ذلك وبقوا فى الحكم حتى ماتوا وهو ليس أقل منهم بل هو (كما يقرأ فى افتتاحيات صحف بلاده الحكومية كل صباح وتلك التى تهنئه بعيد ميلاده!) أعظم وأحكم!!

لقد كان الرئيس السادات رحمه الله يغضب ويزعق إذا ما وصل إلى مسامعه كلام خشن الذى كانت المعارضة تردده ضده وضد سياساته وبعضه كان قصائد شعر مدوية وبعضه كان نكتا وبعضه كان نقدا سياسيا عميقا وجذريا فأيامها كانت هناك معارضة حقيقية وكان هناك معارضون شجعان يقولون حقا حتى لو كان خشنا ويتحملون خشونة الثمن الواجب دفعه، عموما وكما كتبت فى كتابى (اذهب إلى فرعون) فقد قال الرئيس السادات للمفكر الكبير دكتور سعد الدين إبراهيم (كما حكى لى د.سعد الدين) إن المعارضة دى قليلة الأدب ولا تعرف تخاطب رئيس الجمهورية حيث يجب أن يلزموا حدودهم.. ثم ضرب السادات مثلا بالقرآن الكريم فى سورة طه، حين خاطب المولى عز وجل النبى موسى وهارون أخاه آمرا: (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) (آية٤٣ و٤٤) شايف يا سعد حتى ربنا قاللهم كلموا فرعون بلين وبأدب.. ده فرعون برضه!! والغريب أن الرئيس السادات بينما كان يطلب الرفق واللين فى

مخاطبته طبقا للآية القرآنية فإنه اعترف طبقا للآية نفسها أنه فرعون وأنه طغى..ولعل الرئيس السادات كما روى عنه الراحل العظيم أحمد بهاء الدين(فى كتابه محاوراتى مع السادات)، كان واضحا مع نفسه تماما حين قال له: أنا (أى السادات) وجمال (عبدالناصر) آخر الفراعنة، وأغلب الظن عندى أن السادات هو آخر فرعون لا يرى بأسا من إعلان فرعنته..لكن شجرة عائلة الفراعنة لا تتوقف عن النمو والولادة والشجرة ذاتها نمت وترعرعت وشعشعت فراعنة كبارا ومبتدئين!

لكن هذه الأفكار ذهبت بى إلى تفسير القرآن الكريم ولسورة طه حيث الآية الكريمة التى استشهد بها الرئيس السادات رحمه الله لنفهم فعلا هل يأمر الله موسى ومن ثم عباده أجمعين بالقول اللين للفرعون الطاغي؟! خصوصا أن الأرض المصرية تعلم أبناءها معاملة الحكام الطغاة على أنهم آلهة وفراعنة يجب أن نكون مذبين مؤدبين أمامهم نركع لهم بالكلمات إن لم يكن بالرأس والقامة، نسجد لهم نفاقا بالمدح والتقديس إن لم يكن بانحناء الرأس وغمسها فى التراب، نتلمس عند حكامنا الطغاة الحكمة والوحى!

يقول الإمام القرطبى فى تفسيره إن القول اللين يوجه «لمن معه القوة وضمنت له العصمة» أو «إذا كان الكافر وجيها ذا شرف وُطمع فى إسلامه وقد يجوز ذلك وإن لم يطمع بإسلامه» وقيل «إن القول اللين قول موسى يا فرعون أنا رسول ربك فأسماه بهذا الاسم(فرعون) لأنه أحب إليه مما سواه» وفى تفسير ابن كثير «فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَينًا لَعَلَّهُ يتَذَكَّر أَوْ يَخْشَى» هَذِهِ الآية فِيهَا عِبْرَة عَظِيمَة وَهُوَ أَنَّ فِرْعَوْن فِي غَايَة الْعُتُوّ وَالاِسْتِكْبَار وَمُوسَى صَفْوَة اللَّه مِنْ خَلْقه إِذْ ذَاكَ وَمَعَ هَذَا أُمِرَ أَنْ لَا يخَاطِب فِرْعَوْن إِلَّا بِالْمُلَاطَفَةِ وَاللِّين وَعَنْ عِكْرِمَة فِي قَوْله «فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَينًا» قَالَ لَا إِلَه إِلَّا اللَّه وَقَالَ عَمْرو بْن عُبَيد عَنْ الْحَسَن الْبَصْرِى «فَقُولَا لَهُ قَوْلَا لَينًا» أَعْذِرَا إِلَيهِ قُولَا لَهُ إِنَّ لَك رَبًّا وَلَك مَعَادًا لِأَنَّ بَين يدَيك جَنَّة وَنَارًا، وَقَوْله «لَعَلَّهُ يتَذَكَّر أَوْ يَخْشَى» أَى لَعَلَّهُ يرْجِع عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنْ الضَّلَال وَالْهَلَكَة أَوْ يَخْشَى أَى يوجِد طَاعَة مِنْ خَشْية رَبّه. ورغم هذا التفسير الذى يبين ويفصح عن

رقة ولين كانتا مطلوبتين من موسى وهارون تجاه فرعون إلا أننى أظن أن القول اللين لفرعون مرده أن وراء فرعون شعبا هم المصريون ينقادون إليه ويطيعون أمره ويعبدون اسمه فإن أسلم فرعون أسلموا جميعا ومن ثم كسب موسى بقوله اللين شعبا وأمة (وهو ما لم يحدث) ومع ذلك فإن موسى وهارون أجابا أمر الله تعالى بقولهما «قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغي» معنى هذا الرد أنهما كانا يعلمان أن فرعون لا ينفع معه قول لين ولا خشن بل ربما يفرط أى يعجل ويعتدى ويبادر بعقوبتهم ومع ذلك تأمل ماذا قال فعلا موسى وهارون حسب آيات الله عز وجل فى قرآنه الكريم؟ قالا حسب الأمر الإلهى (فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ، إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى) سورة طه آية ٤٨,٤٧، هل تأملت معى هذا القول اللين؟ ما أوضحه! وما أقواه، إنه مباشر ومستقيم، حاد ومبين، إذن القول اللين هو هذا، ما أجمله! فهو ليس مهادنة ولا لفا ودورانا بل المعنى الأمين بلا مجاملة ولا تجميل، ثم وهذا هو الأهم فقد ثبت بآيات الله المعجزات أنه لا ينفع مع فرعون إلا الغرق!!

ما أريد أن أقوله إن النظام فى مصر لن يسمح بالتغير أو التغيير فى الدستور أو فى طرق الانتخاب إلا بأعلى (أو بالأحرى أوطى) وسائل التحايل والتلفيق حتى يتمكن هذا النظام بسادته وساسته ورجاله من البقاء فى الحكم، أما الرهان على تعقل النظام أو اعتداله وعلى القول اللين فهو رهان مقامر فاشل، والذى يتصور أن الرئيس سوف يتنازل عن أبدية حكمه أو انفراده بالترشيح للرئاسة واهم تماما حتى ولو استجدى ولو شحذ وتسول من الرئيس العطف والتعاطف، الكرم والتكرم، فالشعوب لا تحصل على حقوقها بهذا الأداء المتمسكن المستضعف الذى يتم على طريقة «وتفضلوا بقبول فائق الاحترام»، لكن فى مصر التى دخل معارضوها الحظائر منذ ربع قرن وتعلم رجالها الركوع فى غير اتجاه القبلة لم يتعلموا أبدا أن المهاودة والمهادنة مع السلطة المتجبرة الغاشمة لا تأتى بنتيجة إلا على دماغ الشعب والأمة، وأن ستة وعشرين عاما من مناشدة الرئيس انتهت بأن مصر فى

قاع الدول وقد فقدت فى الداخل القوة والهيبة وبقى منها البطش والغشومة وفقدت فى الخارج القيمة والقيم وها هى الدولة الكبيرة فى المقام وقد تحولت إلى دولة كبيرة فى السن ينطبق عليها ما ينطبق على الدول المسنة من الشفقة وليس هناك أسوأ من تصابى العجائز سوى تصابى الدول!

المغيرة يعيد نفسه!

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد عزل المغيرة بن شعبة عن ولاية الكوفة لأن قوما شهدوا عليه أنهم وجدوه على ريبة مع امرأة. أى أنهم شاهدوه يضاجع امرأة غير امرأته وهى مسألة عجيبة أن يضاجع والى الكوفة شخصيا امرأة على مرأى ومسمع من أربعة رجال كأن فى هذا حماقة تشبه الهوس أو إهمالا يقارب الهطل، لكن الغريب أن الواقعة حدثت لم ينكرها المغيرة ولكنه فقط قال إنها زوجته، لكن أربعة شهود أقروا أنهم شاهدوه يواقع امرأة غير امرأته أى يلزم تطبيق حد الزنى عليه لكن المغيرة بن شعبة أصر أنه قد التبس الأمر على الناظرين لشبه بين المرأتين (أى شبه؟ أين كانوا ليتحققوا من ملامح المرأة، ثم ما أوجه الشبه فى لحظة مثل هذه بين امرأتين؟) وصمم المغيرة أنه كان مع زوجته وهى واقعة من أغرب وقائع التاريخ الإسلامى فى عهد عمر بن الخطاب وتروى بعض كتب التاريخ أن سيدنا عمر قد حاصر الشهود حتى أربكهم فلم تثبت التهمة حيث تراجع شاهد وهو محمد بن أبى بكرة عن الشهادة (وهو بالمناسبة راوى الحديث المنسوب عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم الذى يقول إنه لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة!) وقال الشاهد: إنه يشك فيما رآه، فجلده عمر (جلد الشاهد) وأعفى المغيرة بن شعبة من التهمة لأنها لم تثبت عليه ثبوتا يوجب إقامة الحد (الحد يستوجب شهادة الأربعة) لكن التهمة أيضا لم تسقط عن المغيرة سقوطا يزيل الشبهة فكان الأمر يستحق هذا القرار العمرى بعزل المغيرة بن شعبة وأبقاه عمر بن الخطاب رضى الله عنده زمنا بغير عمل على الإطلاق كأنه يريد استتابته حتى قرر أن يعيده فدعاه إليه وشدد عليه أن يتجنب الشبهات ثم ولاه الكوفة مرة أخرى وهو أمر يستدعى الدهشة من إصرار عمر على تولية الرجل الذى لم تمنعه مكانته من إتيان امرأة فى وقت ومكان يسمح لآخرين أن يروه بل ويتحققوا من

الفعل كله، لكن يبدو أن دهاء المغيرة وقدرته السياسية جعلته رجل دولة لا يستغنى عنه عمر بسهولة دعته إلى الحفاظ عليه من تطبيق الحد كما يذهب فى ذلك عدد من المؤرخين (يمكن العودة إلى كتب الطبرى وابن كثير فى التاريخ فضلا عن كتاب العظيم عباس العقاد عن معاوية وكتاب الدكتور طه حسين عن الفتنة الكبرى) فلما تولى عثمان بن عفان رضى الله عنه الخلافة عزل المغيرة وعندما قتل عثمان وبويع لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه بالخلافة فى المدينة ذهب إليه المغيرة بن شعبة للتقرب إليه زلفى ونصحه أن يقر معاوية بن أبى سفيان المطالب بدم عثمان بن عفان على ولاية الشام ليدين له بالولاء وبعد أن تمر الأزمة يعزله متى شاء لكن الإمام على بن أبى طالب رفض أن يقره على ذلك وبعد أن انتهت الأمور بمقتل سيدنا على بن أبى طالب قرر المغيرة بعد رجحان كفة معاوية أن يذهب إلى الشام وينتمى لحزب معاوية فولاه إمرة الحج وكان المغيرة بن شعبة ينظر إلى ولايته الأولى للكوفة كما نظر عمرو بن العاص إلى ولايته الأولى لمصر بمعنى أن ولاية الكوفة كانت مهمة وعزيزة وقريبة وتمثل طموحا دائما وحلما مراودا للمغيرة بن شعبة مثلما كانت مصر لعمرو بن العاص فلما أراد معاوية أن يعهد بولاية الكوفة وقد أصبح أميرا للمؤمنين وخليفة للمسلمين لعبد الله بن عمرو بن العاص وهو من الأتقياء الأنقياء فى التاريخ الإسلامى تدخل المغيرة بن شعبة بدهائه وذكائه السياسى وقرر أن يخوض فى الأمر بكل ما يملك من فطنة وسياسة وطموح لولاية الكوفة فذهب إلى معاوية بن أبى سفيان وقال له : «أتستعمل عبد الله بن عمرو بن العاص على الكوفة ووالده على مصر؟ إنك بين نابى الأسد» فاستمع له معاوية وعزل عبد الله بن عمرو وولى المغيرة مكانه على الكوفة فسمع عمرو بهذا الخبر وتلك المكيدة فردها بمثلها فلم يطلب إعادة ابنه عبد الله إلى ولاية الكوفة وإنما قنع بحرمان المغيرة من ولاية الخراج (جباية وجمع وتحصيل وتوزيع الأموال، وزارة المالية يعنى) فقد قال للخليفة الجديد معاوية: «إنك تستعمل المغيرة على الخراج فيأخذه ولا تستطيع أن تنتزعه منه فأرى أن تولى على الخراج رجلا يخافك ولا يبالى بأحد إلا بك وتؤمر المغيرة بن شعبة على الصلاة والإمارة فلا يقوى

عليك بغير مال» فكانت الاستجابة من معاوية واتبع مشورة عمرو فهى لم تكسبه السيطرة الكاملة على أموال الكوفة فحسب وإنما أربحته عداء وتنافس المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص أيضا وهو لا يستطيع أن يأمن أن يتحالف الاثنان عليه ثم استقر الأمر لمعاوية ومرت الأيام ولم يعد يهتم بالمغيرة فقرر عزله وعندما وصل المغيرة بن شعبة أن معاوية قرر عزله ليصبح أسدا بلا أنياب أشفق المغيرة على نفسه من مذلة العزل فآثر أن يذهب إلى معاوية بن أبى سفيان وأن يدافع عن نفوذه وسلطته وكيانه وذهب إلى دمشق عاصمة الخلافة الإسلامية وقتئذ ولكنه لم يلتق بمعاوية وإنما التقى بابنه يزيد الأمير المرفه ابن الخليفة الذى لم يشتهر بعلم أو تقوى بل كان سكيرا عربيدا لا يعرف له أحد فضلا ولا علما. التقى المغيرة بن شعبة بيزيد بن معاوية ووسوس إليه أن يطلب إلى أبيه تسميته لولاية العهد وبدأ المغيرة أول خطوة انهيار كبرى فى تاريخ المسلمين لمجرد رغبته فى الاستمرار فى منصبه. بدأت فكرة ولاية العهد وتحويل الخلافة الإسلامية إلى ملك عضود والى ملك وراثى، وإلى ديكتاتور كبير يورث ابنه الديكتاتور الصغير وتحولت الأمة الإسلامية من خلافة الشورى والانتخاب والديمقراطية إلى المملكة المستبدة الأبدية لأن شخصا أراد أن يظل واليا على إمارة ومحافظا على منصب وثروة، (تذكر معى النساء اللاتى كن خادمات للديكتاتورية حين قدمن اقتراحا فى البرلمان المصرى بتعديل الدستور ليصبح الرئيس رئيسا مدى الحياة؟ وتأمل معى من الذى ينصح ويتناصح ومن أجل مقعد وزير أو ثروة ومال ونفوذ يدفع من أجل توريث مصر وتحولها من جمهورية إلى مملكة!). رجل ذكى قرر أنه لا خير من بيع الأمة كلها مقابل أن يظل فى مكانه، فى مقعده، فى سلطته ولتذهب الأمة كلها إلى الجحيم، إلى التوريث، قال المغيرة بن شعبة إلى يزيد بن معاوية: «إن أصحاب النبى وكبراء قريش قد ذهبوا وبقى الأبناء وأنت أفضلهم فلا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة» فلمعت المسألة وبرقت فى عين يزيد وقال له: «أترى ذلك ممكنا؟» فقال المغيرة بن شعبة: «نعم». ما حدث بعد ذلك طبيعى ومنطقى وهو أن دخل يزيد على أبيه معاوية بن أبى سفيان وأخبره بمقالة المغيرة فأرسل

معاوية فى طلب المغيرة من فوره ليناقشه فى حقيقة الخبر والعرض الذى قدمه إلى يزيد فقال له: «ما هذا الذى تقوله ليزيد؟» فقال المغيرة: «إنى يا أمير المؤمنين قد رأيت ما رأيت من سفك الدماء بعد عثمان ويزيد منك فأحضره واعقد له البيعة فلا تكون فتنة» فقال معاوية: «ومن لى بهذا؟» فقال ابن شعبة: «أكفيك أنا أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بين هذين المصرين أحدا يخالفك» طابت الفكرة فى ذهن معاوية واستوت فأمره أن يرجع إلى الكوفة وأن يتحدث مع ثقاته فى ذلك. ويرجع تحديد ابن شعبة للبصرة والكوفة إلى أن العراق كان هواه منذ اللحظة الأولى مع على بن أبى طالب وكانت تنتصر له صحيح أنها خذلته هذا الخذلان الكبير لكن ظلت هذه المشاعر والقناعات لدى أهل العراق لذا كان تركيز المغيرة بن شعبة على هذين المكانين باعتبارهما من بؤر الخطر. أما المشهد الجلل فى التاريخ الإسلامى فكان عندما جمع معاوية بن أبى سفيان أمراءه ورجاله ليستفتيهم فى عقد البيعة لابنه يزيد باعتبار أن ما يفعله سينقذ الأمة الإسلامية من الفوضى (..) وسفك الدماء والاضطرابات فى هذا التوقيت الحرج والظروف الدقيقة والعصيبة للدولة التى يستهدفها الأعداء (نفس الكلام، نفس الكذب، نفس النفوس). ولنقرأ المشهد كما نفهمه من كتاب المفكر عبدالله العلايلى (من أيام النبوة) إذ يقول: كان معاوية قد وجه دعوة عامة إلى أمراء الأمصار، فاجتمعوا لديه ينتظرون سماع المفاجأة التى جمع لها معاوية كل هؤلاء السادة والساسة والولاة والأمراء وما هى إلا لحظات مرت كالدهر وتكلم المغيرة بن شعبة، وكانت السن قد كبرت به وبدلا من أن يحترم شيخوخته إذا به كما عهدنا من كل صاحب سلطة ومقعد أن يظل حتى النفس الأخير، حتى اللفظ الذى يسبق نطقه بالشهادة، يظل منافقا للحاكم (كم مسن فى حياتنا المصرية يلتصق بالحاكم وينافقه كأنه فى حزن الختام لا حسنه، كأن لا أحد يتعظ بأفول عمره بل يتشبث حتى ساعاته الأخيرة بالحكم والسلطة والنفاق، لم يكن صوت المغيرة يتضح أو يبين، لكنه كان حاسما ومصمما حين قال: تعرفون أنكم الأقرب لأمير المؤمنين، فعليكم يعتمد، وأنتم البطانة التى عليها يتكل، فمصالحكم مرتبطة، وأمركم بأمره

متصل، وقد اتجه رأى الأمير معاوية بن أبى سفيان إلى أمر خطير أحب أن يفاوضكم به، ويستشيركم قبل أن يعتزمه ويعقده.... فاشرأبت أعناقهم وتطلعوا فى إصغاء مرهف، وواصل المغيرة: ـ رأى أمير المؤمنين أن لا يترك الناس، بعده، سدى (كالضأن لا راعى لها) وقد اختار ابنه الرشيد يزيد، ومن أكفأ بأعباء هذا الأمر منه؟! ورماهم بنظرة فاحصة متحدية، وراحوا ينظر بعضهم إلى بعض، ولفهم صمت طويل قطعه زياد بقوله: ـ «إن أمة الإسلام وضمان أمنها وقوتها أمر عظيم، ويزيد صاحب نزوات وتهاون، مع ما قد أولع به من الصيد، فمتهم فى الأمر»، وما كاد الرجل يكمل كلامه حتى قذفه المغيرة بنظرة غاضبة صاعقة، وقال: ـ أكنت تظن أن المشورة هنا معناها إبداء الرأي؟ وهل نحن بحاجة إلى رأى أمثالك؟ (أنت بتستهبل يا جدع إنت وفاكرنا بنسألك بجد ياروح والدتك!!) إن المشورة معناها السماع والتنفيذ والطاعة فقط وحسب. فهب عبيد بن كعب، وكان مستشار زياد، يشرح كلامه وما قصد إليه، فقال: ـ نعم. هو ما تقول فليس علينا إلا السمع والطاعة، وزياد لم يرد أن يفسد على الأمير رأيه ويمقت إليه ابنه. وإنما قصد أن يخوف يزيد من خلاف الناس لهنات (ونقاط ضعف) ينقمونها وينقدونها عليه، فإن تفاداها كان للأمير الحجة على الناس، ويسهل له ما يريد. فقال معاوية: نعم ما قلت، ونعم ما ذهب إليه زياد ولم يكن زمن طويل حتى أعلن ذلك فى مسجد دمشق على الناس، وكان معاوية قد احتفل به، وطلب الوفود من كل الأمصار فى مؤتمر عام وجلسة طارئة، (و قرأ على الجموع عهده، وفيه عقد الولاية ليزيد)، فأصيب بعض بمثل الذهول، وبعض بمثل الطيش، وكان بين هؤلاء صنائع النفاق من أعضاء الشعب والشورى ورجال المال والأعمال والثقافة والإعلام فذهبوا يطربون ويزينون، فقام الضحاك بن قيس فقال: ـ يا أمير المؤمنين : إنه لا بد للناس من وال بعدك، والأنفس يغدى عليها ويراح، وإن الله قال: (كل يوم هو فى شأن)،. ويزيد ابن أمير المؤمنين فى حسن معدنه وقصد سيرته، من أفضلنا حلما وأحكمنا علما، فوله عهدك، واجعله لنا علما بعدك. فإنا قد عشنا الجماعة، فوجدناها أحقن للدماء وآمن للسبل وخيرا فى العاقبة والآجلة

(بذمتك ودينك مش سمعت مثل هذا الكلام تحديدا ممن ينافقون الرئيس من أجل توريث ابنه؟ يكاد يكون بالحرف والنقطة والفصلة!!). وقال عمرو بن سعيد:

- أيها الناس إن يزيد أمل تأملونه، وأجل تأمنونه، طويل الباع، رحب الذراع، إذا صرتم إلى عدله وسعكم، وإن طلبتم فضله أغناكم. سويق فسبق، وموجد فمجد، وقورع فقرع. (أى أنه سبق الجميع فى سباق القوة والمجد والمقارعة، أى مواجهة الآخرين والفوز عليهم). فقال معاوية: اجلس، أبا أمية، فلقد أوسعت وأحسنت. (طبعا، نفاق منقى ابن بلده). فقال الأحنف بن قيس: يا أمير المؤمنين: أنت أعلم بيزيد فى ليله ونهاره، وسره وعلانيته، ومدخله ومخرجه، فإن كنت تعلمه لله رضى ولهذه الأمة، فلا تشاور الناس فيه، وإن كنت تعلم منه غير ذلك، فلا تزوده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة. ثم تحمس يزيد بن المقفع، فوثب مرعدا مبرقا، وقال: أمير المؤمنين هذا وأشار إلى معاوية، فإن هلك فهذا وأشار إلى يزيد، فمن رفض فهذا.. وأشار إلى السيف. فقال معاوية: اجلس فأنت سيد الخطباء........

ومن يومها يا عم الحاج كله من ده!

شالوم يا مصر!

لم نسمع من الرئيس مبارك ولا من ابنه ولا من الوزير الحقل أحمد أبوالغيط وزير الخارجية ولا من كهنة وكهان الحزب الحاكم شيئا عن خطر إسرائيل على مصر والوطن العربى! ولا كلمة ولا حرف! ليس لأن إسرائيل عند مبارك وصحبه وأهله فى الحكم دولة جارة وصديقة! وليس لأن من يحيطون بجمال مبارك لا يجدون أى مشكلة على الإطلاق فى إقامة علاقات تجارة وبيزنس مع إسرائيل، وليس لأن أقرب أصدقاء الرئيس ونجله ممن يرتبطون بعلاقات اقتصادية مع اليهود والإسرائيليين، وليس لأن النظام المصرى يرتجف وترتعش ركبه من سيرة أى مواجهة ولو دبلوماسية مع إسرائيل التى يراها أقوى منا وأشد مناعة ومنعة وأسدا يملك الغابة العربية، ليس لهذه الأسباب فقط ولكن لأن النظام المصرى يدين بالفضل لإسرائيل فهى التى تدعم بقاءه وترفض الضغط الدولى عليه وتحمى التوريث وتريده وتؤيد النظام المصرى فى مواجهة الضغوط عليه واتهاماته بالاستبداد والفساد! في٢٧ سبتمبر الماضى استعرضت وزيرة الخارجية الإسرائيلية أمام حكومتها مواضيع سياسية فى أعقاب زيارتها الأخيرة لواشنطن ومشاركتها فى مداولات الأمم المتحدة؛ وحسبما نشرته الخارجية الإسرائيلية على موقعها على الإنترنت فقد أطلعت وزيرة الخارجية مجلس الوزراء الإسرائيلى على ما جرى فى ٣٠ اجتماعًا مع وزراء خارجية دول مختلفة، منهم عشرة وزراء خارجية لدول إسلامية أو عربية. أجرت معهم اجتماعات جماعية ومنفردة فى نيويورك وبات واضحًا خلال هذه الاجتماعات كما قالت الوزيرة أن هناك قاسمًا مشتركًا بين بعض الدول العربية الإسلامية التى تَعتَبر التهديد الإيرانى مشكلة مشتركة لها وليس القضية الإسرائيلية. وأن «الدول العربية المعتدلة تدرك المصالح المشتركة لها مع

إسرائيل إزاء العناصر المتطرفة فى المنطقة»!! وقد أضافت واستفاضت مصادر إعلامية وسياسية إسرائيلية فى الحديث عن هذا التوافق الإسرائيلى المصرى فى مواجهة إيران والذى كان داعيا إلى ثقة الوزيرة الإسرائيلية الشديدة فى الإفصاح عن أن مصر والأردن والسعودية يرون فى إيران خطرا عليهم أشد من إسرائيل وجاء هذا مقدمة واضحة لحضور وزيرة الخارجية الأمريكية للقاهرة واجتماعها الشهير مع وزراء دول الخليج ومصر والأردن وتأسيس حلف عربى إسرائيلى أمريكى ضد إيران، يقول الباحث الفلسطينى أحمد الحيلة فى دراسة له منشورة على موقع عرب ٤٨ (فى المسألة أن تذهب هذه الدول إلى حد الشراكة مع واشنطن وتل أبيب فى مواجهة مع قوى الممانعة والمقاومة فى المنطقة والتى أسمتها واشنطن بقوى «التطرف»، وهذا ما أشارت إليه بعض التقارير الصحفية المنشورة حول اجتماع العقبة فى الأردن، والذى ضم رئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس، ومسئولا مصريا رفيع المستوى، وشخصيتين رفيعتين من دولتين خليجيتين يعتقد أنهما السعودية والإمارات، إضافة إلى رئيس المخابرات الأردنية الذهبى، وذلك بحضور رئيس جهاز المخابرات الإسرائيلية الشاباك يوفال ديسكن، إذا كان الأمر قد وصل حتى هذا التخطيط السياسى والأمنى المشترك بين من نظن أنه عدونا إسرائيل مع من نظن أنهم حكامنا فيبدو طبيعيا جدا بعدها أن تخرج علينا أصوات تنعق بأن إسرائيل ليست العدو بل إيران وأخرى تنبح بأن الشيعة أخطر من اليهود وبعضا وصل به المغالاة العبثية إلى أن الإسرائيليين أقل خطرا من الإخوان المسلمين! ووصل النظام المصرى إلى حد الغليان والكمد الحقود تجاه حزب الله بعد انتصاره فى حربه ضد إسرائيل إلى درجة أن عداء الحزب الوطنى ورجاله وإعلامييه وساسته لحزب الله بات أكثر عنفا وتطرفا من عداء إسرائيل شخصيا لحزب الله، لقد نشرت صحيفة «يديعوت أحرونوت» فى ٤ أكتوبر الماضى لقاءات أجرتها مع خبراء فى الإعلام والاتصال وحاورتهم حول هذا الرابط بين حرب أكتوبر ٧٣ وحرب حزب الله، ويقول تقرير يديعوت: «الحرب ليست نفس الحرب، وهذه ليست نفس الدولة، وهؤلاء ليسوا نفس الجنود

وبالتأكيد ليس نفس العدو. ٣٣ سنة تفصل ما بين حرب الغفران وبين حرب لبنان الثانية. الأولى حرب وجود أمام الجيوش العربية، والثانية حرب اختيارية أمام تنظيم. لماذا يتحدث الكثيرون فى إسرائيل هذه الأيام على إحساس مشابه للكسر فى المجتمع، والصدمة؟». ويضيف التقرير: يعتقد د.دافيد غوربيتس، رئيس قسم الاتصالات فى معهد الإدارة، أن حرب٧٣ وحرب لبنان الثانية متشابهتان من ناحية التصدع الذى حصل لصورة إسرائيل القوية والمهيمنة. وقال: «لم تهزم إسرائيل فى أى من حروبها ولكن تضررت صورتها كثيرا فى حرب٧٣ وفى حرب لبنان الثانية» ربما ما جاء على ألسنة الإسرائيليين هو ما يفسر هذا الهوس الدائم بالطعن فى حزب الله وحسن نصرالله وهذا الرخص فى اتهام كل مواطن شعر بالفخر بما فعله حزب الله فى عقله ودينه ومذهبه، بل صار حزب الله من هموم ومهام أجهزة الأمن المصرية الآن حتى صار أمن دولة مصر وثيق الصلة بأمن دولة إسرائيل! يقول شالوم كوهين سفير إسرائيل المخضرم لدى مصر لمجلة نيوزويك عدد ١٠أكتوبر الماضى كانت العلاقات بين إسرائيل ومصر فى أدنى مستوياتها على الإطلاق منذ سنوات. لقد كانت مجمدة بشكل أساسى. أما اليوم فهى أفضل جدا بالرغم من الحرب الضارية على لبنان الصيف الماضى، التى زادت من الحقد الشعبى على إسرائيل بين المصريين والعرب الآخرين «ها هو الإسرائيلى يعترف بما لا يعترف به رجال الحزب الوطن وجهازه لأمن الدولة..سبحان الله». ويضيف المؤرخ الإسرائيلى مايكل بى أورن فيصف علاقة إسرائيل مع القاهرة بأنها: «أفضل من أى وقت منذ عام ١٩٨١». لقد سارع نظام مبارك للحصول فورا على تزكية اليهود والصهاينة له أمام إدارة بوش بفتح حضن مصر لإسرائيل، كانت الرسالة الواضحة والعملية التى قدمها نظام مبارك ونجاله، أننا مستعدون لعمل أى شيء مع إسرائيل، نحن مستعدون للتعاون الاقتصادى الفورى والكامل والمتسيب والمتساهل، وقعوا على اتفاقية الكويز التى كانوا يتملصون منها، وقعوا اتفاقية تصدير ألغاز بمليار ونصف المليار دولار بأرخص وأبخس الأسعار بما يكاد يكون الأمر دعما لإسرائيل، وضعوا شرطة مكثفة لحراسة الحدود مع غزة،

استسلموا لقتل العساكر والجنود المصريين فى رفح بدون حتى ما يحصلوا على تعويض شيكل واحد، بدأت حسب كل البيانات الإسرائيلية والدولية مشروعات اقتصادية وسياحية وزراعية جديدة مع إسرائيل، بدأ وزراء مصريون كما تؤكد المصادر الصحفية الأمريكية فى السفر لتل أبيب رايح جاى، أيدت مصر علنا وبفجر وفخر غير مسبوق إسرائيل فى الحرب على حزب الله، كل هذه الخدمات لمجرد أن توافق الإدارة الأمريكية على التوقف عن الضغط من أجل الإصلاح السياسى! النظام المصرى هنا لا يقدم نفسه لا سمح له باعتباره خادما للأمريكان والإسرائيليين بل يقدم نفسه باعتباره خداما للسلام!! بينما لا غرض لديه من تحالفه مع الإسرائيليين سوى الرضا الأمريكى عليه والذى يسمح له بالبقاء (والتوريث فى الحكم)، خذ دليلا مما يقول جون الترمان مدير برنامج الشرق الأوسط فى مركز الدراسات الدولية والاستراتيجية ومقره واشنطن وكمل إنت بمفهوميتك معنى هذا الكلام، يقول (رأيت مسئولين مصريين بارزين وهم يخوضون نقاشات صعبة مع الولايات المتحدة بشأن الإصلاح السياسى فى مصر وقد زاغوا من تلك الانتقادات بالحديث عن قضايا إسرائيلية فلسطينية، إنهم يشعرون أنه إذا تم تخيير الأمريكيين بين السلام العربى الإسرائيلى والديمقراطية فى مصر فإنهم يختارون السلام). والحقيقة أن أبعد ما تريده إسرائيل فى منطقتنا العربية هو ديمقراطية تصعد بحكام منتخبين شرعيا إلى مقاعد رئاسات الدول والحكومات، حيث إن الكفيل والضامن لحالة العجز والهوان والهزيمة والرخاوة العربية هو الطغيان الحكومى الجمهورى والملكى وتزييف إرادة الشعوب وعبودية وتأليه الحكام وتوريث الحكم والحكومات وغياب الديمقراطية واستحالة تداول السلطة فى بلادنا تماما!! الحقيقة أن أكثرما يفيد إسرائيل ويقويها فى المنطقة هو هذا الاستبداد والفساد الذى يحكم مصر فيسمم شعبها بالماء الملوث وبالخضار والفاكهة المسرطنة ويقتل مواطنيها فى السكة الحديد والبواخر ويمتهن كرامة الناس ويعتقل عشرات الألوف ويقوم بإعدام مئات المحتجين والمعارضين الإسلاميين ويطارد بقانون الطوارئ وحبس الصحفيين عشرات المعارضين غير الإسلاميين،

ويزور الانتخابات ويغتصب السلطة ويورثها، هذا الحكم فى مصر هو سر ضعف مصر وقوة إسرائيل فتنهب فى الأرض العربية وتقتل وتذبح الفلسطينيين واللبنانيين على حس ضعف هذا النظام وتحالفه معها، هذا النظام هو قرة عين إسرائيل فتتبناه وتدافع عنه وتتوسط له عند الأمريكان، هؤلاء الذين يتوجه إليهم مبارك ونجله للحصول على تأشيرة البقاء والاستقرار والاستمرار فى السلطة، وتوجه الأب هو ذاته مقصد الابن، والحج المصرى الرسمى للبيت الأبيض تحول إلى عمرة لذات البيت، يقول الباحث باراج خانا مؤلف كتاب «العالم الثاني» فى مقال له بمجلة «فورين بوليسي» بعنوان أبناء الرؤساء العرب: «ماذا لو دافع مبارك خلال زيارة سرية إلى البيت الأبيض عن قمع المعارضين المصريين أمام حشد يتضمن جورج بوش وديك تشيني وكونداليزا رايس وستيفان هادلي؟ هذا ما فعله جمال مبارك». نعم ذهب جمال لواشنطن فى زيارة سرية انكشفت فى خيبة واضحة لكل الأطراف ليدافع فيها عن قمع المعارضة فى مصر، ويمضى الباحث قائلا «القذافى ومبارك والأسد ومحمد وعبد الله كلها أسماء لن تختفى من العناوين الصحفية لعشرين أو ثلاثين سنة على الأقل حتى بعد غياب الرجال الذين ترتبط أسماؤهم بالسلطة حاليا. إن أبناء الحكام الذين كانوا إما دمى وعرائس أمريكية أو آفة العلاقات الخارجية الأمريكية يبلغون الآن سن الرشد كقادة جدد وطموحين». لا يتورع الباحث فى وصف بعض هؤلاء الرؤساء وتلك الأنظمة بالدمى والعرائس الأمريكية ثم يعود ويسأل عن أبناء الرؤساء العرب، من هم إذن؟ ويجيب («إنهم رجال معروفون بأنهم أثرياء منغمسون فى الملذات لديهم ميول عنيفة ويحملون شهادات من الغرب لكن فى الحقيقة ليسوا غريبى الأطوار ومسلين بقدر آبائهم». ويصل الباحث إلى مصر وجمال مبارك فماذا يقول تفصيلا، كتب بالحرف «مصر لطالما اعتبرت نفسها البلد العربى الأبرز وينعكس ذلك بدءا من طموحاتها الدبلوماسية ووصولا إلى هيمنتها التليفزيونية والسينمائية فى المنطقة، لذا فإن مفهوم الديمقراطية العربية على المحك فى الخلافة المصرية، حتى لو صمد حسنى مبارك المريض البالغ ٧٩ عاما حتى الانتخابات الرئاسية التالية عام ٢٠١١ فثمة أمران

مؤكدان لن يترشح مجددا وكذا حتى ذلك الحين هو والسيدة الأولى سوزان مبارك الامبراطورة الدائمة سيبذلان قصارى جهودهما ليحرصا على أن يخلفه ابنه جمال البالغ من العمر ٤٣ عاما» ثم يضيف باراج خانا واصفا نجل الرئيس (جمال الذى كان مبعدا عن السياسة خلال معظم حياته ثم أصبح بسرعة - لكن بدون ضجة كبيرة - واجهة المؤسسات السياسية منذ صار نائب أمين عام الحزب الوطنى الديمقراطى، أصبح المصرفى الاستثمارى السابق يدعم تعيين عددا من الوزراء الشبان الإصلاحيين ويساعد على إلغاء الضوابط الحكومية على الاقتصاد ويمكن أن يعزى الفضل إلى جمال مبارك فى دفع والده للتخلص من نظاراته الشمسية السوداء التقليدية). هل تتذكر هذه النظارات الشهيرة لمبارك؟ عموما يصل الكاتب إلى نقطته الخطيرة حين يقول (لكن مهما فعل جمال فإن أسمه يثير امتعاض الكثير من المصريين المتتبعين للشئون السياسية. ليس نظام مبارك حامى الجماهير الضعيفة إنما هو نظام فاسد ومنحط إلى أقصى الحدود ومعظم المصريين لا يأبهون إن جرفه نهر النيل بعيدا. ها هم الأمريكان والباحثون والمفكرون والكتاب هناك يعلمون جيدا تشريح الشارع المصرى ويدركون تماما صفات ووصمات النظام الذى يحكم القاهرة ويعلمون حقيقة مشاعر الناس تجاه جمال مبارك (الامتعاض) وتجاه حزبه ونظامه (إياكش يغرق) ولا يمكن أن تقرأ فى أمريكا شيئا عن مصر إلا واحتشد بالهجوم الكاشف على نظام مبارك، لكن البحث والإعلام شيء والحكومة شيء آخر، فاللوبى الصهيونى هناك يدعم نظام مبارك فى القاهرة والإدارة الأمريكية تسمع النصيحة الرسمية الإسرائيلية الملحاحة والفجة وهى (احموا نظام مبارك من السقوط بأى شكل فأى شخص بديل خطر على إسرائيل).
ومازلت أكرر لأؤكد أن أمريكا ورغم كل الدعايات والمبادرات لدعم الديمقراطية وهى التى تثبت كل يوم مدى هشاشتها فإن أمريكا تتصرف كأن المطالبة والضغط بحكاية الإصلاح السياسى للحكم العربى مجرد أداة ابتزاز للحكام الطغاة من أجل مزيد من التنازلات عربيا والاستسلام الناعم والدائم لسياسة ومصالح إسرائيل وأمريكا فى المنطقة وملعون أبو الديمقراطية على أبو المواطن العربى، فأمريكا تفهم

الشعب العربى جيدا وتعلم أنه نائم أو ميت، منافق أو موافق، فاسد أو يائس وهى تفهم جيدا الحكام العرب، تعرف أن الحاكم من هؤلاء لو شعر أن عرشه يهتز أو أنه لن يستطيع ترك منصبه لولده من بعده فإنه يسارع بتقديم تنازلات فادحة ويوقع على أى اتفاقية ويقوم بأى مبادرة ويوفق أى رأسين فى الحلال ومن ثم سيصبح دم معارضى إسرائيل مطلوبا ومباحا أمريكيا مهما كانوا ليبراليين وديمقراطيين أوحتى علمانيين وسيكون قهر وسجن واستعباد واستبعاد المثقف العربى المناهض للصهيونية موضع رضا أمريكى، ولن تفتح فمها ضد إغلاق صحف مناهضة لسياسة أمريكا وإسرائيل أو سجن معا رضين أو انتهاك حقوق إنسان، الإدارة الأمريكية حلف أساسى للطغيان وأوله الطغيان العربى ومؤسسات المجتمع المدنى فى أمريكا ومنظمات حقوق الإنسان هناك تعرف وتدرك وتفضح ذلك لكن أن يكون الحاكم العربى طاغية على شعبه وفاسدا فى حكمه مقبولا أمريكيا ومسنودا صهيونيا طالما أنه يطبع ويسلم ويستسلم لإسرائيل، أما لو كان الحاكم ديمقراطيا ومحترما لحقوق الإنسان ولكنه ضد إسرائيل واحتلالها وعنصريتها فهو حاكم مكروه ومطلوب انكساره ودمه لدى أمريكا (تأمل ما يحدث مع حركة حماس). من هنا فما يريده الأمريكان من حكامنا ليس إصلاحا ولا ديمقراطية ولا حرية انتخابات ولا حقوق إنسان، مطلوب الاستسلام أمام إسرائيل..وبعد كده لتذهب الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان العربى إلى أقرب مقلب زبالة!! والحقيقة أن النظام المصرى ينفذ الطلبات بمنتهى السرعة واللهفة فقد وصل إلى حد من الغرور والغطرسة والبطش والعنف الذى يصل لدرجة التعذيب والاعتقال وتلفيق القضايا والسجن والتشويه والتشهير للمعارضين والضرب والتحرش بالمتظاهرين وغيرها من أدوات القهر والقمع ما جعله مطمئنا إلى أن شيئا أو أحدا فى الداخل لن يتمكن من تغييره ورميه فى النيل، بل هو قادر بسياسة الإغراء والإغواء على شراء أحزاب المعارضة وقياداتها ومتمكن بحبائل القانون على سجن الصحفيين وعلى قمع حركات مثل كفاية والإخوان والاشتراكيين الثوريين، ومن ثم فلا خوف لديه على نفسه واستقراره سوى من الخارج والخارج

يعنى أمريكا وأمريكا تعنى بمنتهى الوضوح إسرائيل، وها هو النظام المصرى بيتكلم عبرى، شالوم يا مصر.. الجديدة!

حَكم المماليك

حَكم المماليك مصر ولم يكونوا مصريين ثم حَكم مصريون مصر وهم مماليك فى الحقيقة! ومماليك الماضى دافعوا عن الإسلام والعروبة ومصر أكثر مما دافع عنها مماليك الحاضر، مماليك البحرية والقلعة انتصروا على الصليبيين وحرروا القدس بينما مماليك عابدين والقبة تصالحوا معهم وخدموهم وعملوا لديهم! ولكن شيئا مشتركا وقويا مازال يجمع بين المماليك الذين حكموا مصر فى الماضى والذين يحكمونها فى الحاضر، تعالوا نعد إلى عصر قنصوة الغورى آخر سلاطين المماليك قبل الغزو العثمانى لمصر (إذا اعتبرنا أن طومان باى كان بطلا مقاوما أكثر من كونه سلطانا رسميا) ويروى لنا ابن زمبل الرمال فى كتابه آخرة المماليك (طبعة الهيئة العامة للكتاب) أن رجلا مغربيا كان قد أتى إلى مصر حاملا معه بندقية أوروبية إلى السلطان الغورى (وكان المماليك لا يعرفون من الأسلحة سوى السيف والرمح والسهم) وأخبره أن هذه البندقية ظهرت فى بلاد البندق (مدينة البندقية غالبا) وقد استعملها جميع العسكر الروم والعرب وحاول التاجر أن يقنع قنصوه الغورى بأهمية هذا السلاح العصرى فأمره الغورى أن يعلمها لبعض مماليكه وجيء بهم فرموا وأطلقوا الرصاص فى حضرة الغورى ووجوده (وكان الغورى مسنا عجوزا) فساءه ذلك ويبدو أنه انخض وفوجئ وقال للتاجر المغربى نحن لا نترك سنة نبينا ونتبع سنة النصارى (تخيلوا جمود العقل!)، ويروى الكتاب نفسه على ألسنة أمراء المماليك أن البندقية حرام واستخدامها لا يدل على الشجاعة والفروسية فلو رمت بها امرأة لأصابت وكيف يرفعها مسلم على مسلم وكيف توجه النيران إلى من يشهد بالوحدانية رغم أن المماليك فى نفس الوقت كانوا يقطعون رؤوس المسلمين بالسيف ويبقرون بطونهم بالرمح ويهتكون أجساد معارضيهم تحت أرجل الخيل أو

بالحرق والغرق، لكنه عمى القلب والجمود ذاته الذى نسمع عنه ونرى حكامنا يرفضون الديمقراطية ونزاهة الانتخابات وتداول السلطة باعتبارها أسلحة النصارى (الغرب والأجانب) وكما سقط قنصوة الغورى أمام العثمانيين المسلمين الذين كانوا يستخدمون البندقية سيسقط مماليك هذا الزمان بذلك السلاح الذى يرفضون التسلح والتزود به! لكن الكارثة أن الأمر أصبح أبعد من الحكام وجمودهم وتصلب شرايينهم الذى يضيع البلد بل وصل حتى شرايين وعروق المجتمع المصرى نفسه الذى بات يرفض العقل والحرية، أحيانا أشعر أن بعض الناس لا يملكون سنتيمترا واحدا فى دماغهم تستطيع أن تمرر له فكرة جديدة أو رؤية مختلفة، الناس فى الغالب مبسوطة كده (ومرتاحة كده) لما عرفوه وتعلموه أكان صحيحا أم خاطئا، بل يتصورون أن كل ما يعرفونه هو الصحيح وكل ما لا يعرفونه هو الخطأ، فضلا عن أن كل ما يتكرر أمامهم وعليهم من كلام هو بالضرورة صائب بينما ما كان نادرا أو غريبا أو جديدا لم يصادفوه فهو بالقطع خاطئ، ومن ثم مجتمعاتنا عصية وعاصية جدا على تقبل الأفكار الجديدة (المختلفة) جامدة جدا لحد أنها تكره الحركة، صلبة للغاية لحد أنها ترفض مرونة الاستماع والتفهم لأى شيء جديد لا تعرفه، لهذا من الصعب أن نرى فى بلدنا مخترعا أو مكتشفا، فنحن لا نخترع لأننا لا نجرب فالتجربة محاولة لكسر المألوف والمعتاد، هل عمرك سمعت عن اختراع مصري؟! حتى لو كان هناك شخص يفكر فى الاختراع فى مصر فالمجتمع تكون مهمته الأساسية هى كسر مجاديفه وإحباطه وتعطيل عمله وشل تفكيره! نحن موظفون نسير وفق قواعد بيروقراطية وروتين متبع وصارم، ولدينا روتين فى المصلحة الحكومية وفى المحاضرات والدروس ومناهج التعليم وروتين فى السياسة وروتين فى الدين وروتين فى الروتين، حياتنا كلها روتين من الأفكار والعادات والتصرفات، ومن ثم فلا أحد منا يفكر أن يخترع فهو أمر لا نفعله ولو على رقبتنا، لا نخترع فكرة ولا نخترع دواء ولا نخترع سلاحا ولا نخترع جهازا، ثم نحن لا نكتشف فالاكتشاف خيال وحلم ومغامرة ومجتمعنا المصرى مربى على الركود والجمود، بل جاء نظام مبارك وحكمه على مدى خمسة وعشرين عاما ليدعم ويعمق

الركود والجمود فى حياتنا وفى كل شيء فنحن نعرف أن الرئيس مبارك رجل لا يغير ولا يتغير، يعشق الجمود والركود ويسميه استقرارا واستمرارا، لا يحب الحركة ولا الحيوية ولا يعرف التغيير ولا يريده بل يخشاه ويقلقه، ومن ثم اكتست مصر كلها بالجمود الفكرى والسياسى وتجاوز السياسة ليصبح جمودا فى الدين والعلم والعقل والتعليم والفن والصحافة والثقافة، وصارت مصر كلها متصلبة الشرايين فى حاجة ماسة إلى دواء الهيبارين الذى يزيد من سرعة السيولة فى الدم، فمصر المتخشبة التى نعيشها الآن تقود الوطن العربى كله إلى موت سياسى وموات إنسانى، ولعل ما تجده من ضعف مصرى دولى وعربى هو ثمرة الجماع الحرام بين الجمود السياسى على مدى ربع قرن والجمود الفكرى والدينى الذى زاد وغطى وفاض وباض على حياتنا، الأصل فى مجتمعاتنا أنها ترفع شعارا جاهليا هو (هذا ما وجدنا عليه آباءنا) أرذل ما تعيشه مصر (والمجتمع العربى عموما) هذه الأيام هو هذا التشبث بالجمود، هو استمراء الوضع راقدا نائما فى التاريخ والجغرافيا، لا يوجد أحد يريد أن يتغير ويتطور أو على الأقل يتنور ويقبل بالجديد أو يستمع إليه أو يطيق الخلاف، أو يحترم الاختلاف، معظمنا نائمون على الكنبة ولا نريد أن يوقظنا أحد من غفلتنا أو من رقدتنا، وهى ليست نومة راحة بعد تعب بل رقدة مريض معتل يخشى النهضة ويرتجف النهوض، وكلما صادف الناس ما يختلف عن أفكارهم وما يناقض مسلماتهم وما يتصادم مع ما تعلموه أو عرفوه من آبائهم أو من المدرسة أو من واعظ الجامع تتلبسهم رعدة وعادوا بنا إلى ما حاربه الإسلام وما جاء النبى محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم لينسفه كالعرجون القديم، يقول المولى عز وجل فى سورة (البقرة آية ١٧٠). (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَينَا عَلَيهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يعْقِلُونَ شَيئًا وَلَا يهْتَدُونَ) وكذلك فى سورة (المائدة آية ١٠٤). (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يعْلَمُونَ شَيئًا وَلَا يهْتَدُونَ) وفى سورة لقمان آية٢١ (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيهِ آبَاءَنَا). فِي تَأْوِيل قَوْله تَعَالَى نقرأ فى تفسير الطبرى: أَجَابُوا مَنْ دَعَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ، أَنْ يقُولُوا:

حَسْبنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيهِ منْ قَبْلنَا آبَاءَنَا يعْمَلُونَ بِهِ، وَيقُولُونَ: نَحْنُ لَهُمْ تَبع وَهُمْ لَنَا أَيِّمَة وَقَادَة، وَقَدْ اِكْتَفَينَا بِمَا أَخَذْنَا عَنْهُمْ وَرَضِينَا بِمَا كَانُوا عَلَيهِ مِنْ تَحْرِيم وَتَحْلِيل. قَالَ اللَّه تَعَالَى لِنَبِيهِ مُحَمَّد صَلَّى اللَّه عَلَيهِ وَسَلَّمَ: وَلَوْ كَانَ آبَاء هَؤُلَاءِ الْقَائِلِينَ هَذِا الكلام لَا يعْلَمُونَ شَيئًا. لم يراجع شعب بالكامل نفسه ويسأل هذا السؤال العميق الجذرى الصريح طيب ولو كان آباء هذا المجتمع من شيوخ وساسة، من زعماء ووعاظ، لا يعلمون شيئا ولا يهتدون، يبقى نوافق عليهم ليه وإزاي؟ من قال إن ما تعلمناه من مدرسى التاريخ صحيح وحقيقى، من يتصور أن ما تقوله أجهزة ومؤسسات الحكم ومناهج تعليمهم هو الحق والصح، يقول د. توفيق الطويل فى كتابه (من تراثنا العربى والإسلامى) وهو يتحدث عن الواقع الفكرى فى مصر: (إن كل قطاعات حياتنا الفكرية تستلهم العقل المسالم، ونقصد بهذا العقل الذى يفكر دائما فى إطار من المألوف للناس، لا يصدم عرفا شائعا وإن كان مخطئا، ولا يتعارض مع رأى ذائع بالغا ما بلغ فساده. وهذا وإن كان أدعى إلى الاستقرار فإنه يعوق التطور ويمنع التجديد). هناك أكاذيب كبيرة جدا فى حياتنا وكلما كبرت الأكذوبة أصبح من الصعب نفيها، أو رفضها، بل إن الأكاذيب المعروفة والمشهورة فى حياتنا أصبحت أرحم عند الناس من الحقائق المختفية والمجهولة، والمشكلة الحقيقية أن المصريين لا يجهدون أنفسهم أبدا فى محاولة معرفة الحقيقة إنهم لا يقرأون وهى فضيحة نخجل منها أمام الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، فالأمة التى كان أول أمر تلقاه نبيها محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو أن «يقرأ»، أمة أجهل من الجهل، كلها تعتمد على سمع نهاوند سواء من مدرس فى فصل أو واعظ فى جامع أورئيس فى خطبة، مفتٍ فى تليفزيون أو داعية فى شريط كاسيت، أكاد لا أجد مواطنا يقرأ لأحد الكتاب رأيا فيبحث فى كتاب عن صحة الرأى أو عدمه بل هو يسأل صديقا مقربا أو واعظا عابرا أو يسمع شريطا جاهلا، لكن لا توجد أى محاولات من المصريين كى يقرأوا كتابا أصليا فى التاريخ أو مرجعا فى الفقه أو دراسة فى السياسة، طبقا لإحصاءات دكتور شعبان عبدالعزيزخليفة رئيس لجنة الكتاب بالمجلس الأعلى للثقافة فإن مصر فى عهد جمال عبد الناصر كانت تنتج ٧٠% من

كتب العالم العربى وفى عهد الرئيس السادات ٥٠% من كتب العالم العربى والآن فى عهد الرئيس مبارك ونجله تنتج ٣٣ % فقط من كتب العالم العربى، الشعب المصرى بات لا يطيق القراءة عموما، ألا ترى التلميذ فى المدرسة يترك الكتاب ويعتمد على الملخص ثم يهجر الملخص ويعتمد على الأسئلة والإجابات النموذجية؟ حتى هذا التعبير الفج والسمج «الإجابة النموذجية» كأن المطلوب صم وتسميع إجابة بنفس الألفاظ والحروف لا أن يجتهد التلميذ ويفكر بنفسه ويبحث ويكتب ما يريده وفق ما فهمه وبطريقته، هذا غير مسموح به أبدا، المطلوب هو أن نكرر كلنا نفس الكلمات ونحفظها صما ونطرشها فى الامتحان وكده تبقى إجابة نموذجية وهى فعلا نموذجية ولكن نموذجية فى الجهل وصناعة القطيع وشل تفكير العيال، بل الأنكى أن التلاميذ تركوا الآن الأسئلة والأجوبة وركزوا على نماذج الامتحانات، كمان، بلا فهم بلا وعى بلا بحث بلا علم بلا كلام فارغ فهذا مجتمع يريدك أن تجاوب كما وجدت عليه آباءك ومدرسيك، والمؤكد أن مصر تنحدر بهذه الطريقة التى انطلقت من التعليم إلى السياسة، ومن العلم إلى الدين، مبارك وحزبه وحكمه لا يريد منك سوى أن تسمع الكلام وتحفظه وتعتقد أنه الصواب والحق وأى حاجة تسمعها من غيرهم ليس فيها ما يوافق الإجابة النموذجية يبقى هؤلاء من أعداء الوطن أو أعداء الدين، ولهذا أصبحت مصر بلا خيال فى السياسة وبلا اجتهاد فى الدين وبلا مراجعة فى التاريخ وبلا إبداع فى الفن وبلا ٤-٤-٢فى كرة القدم! انهار جدار برلين، تحول الاتحاد السوفيتى أثرا بعد عين، أطلالا بعد حصون، تحولت أوروبا الشرقية إلى ديمقراطية وحرية وتعددية سياسية حقيقية ومستمرة، تجاوزت الهند مخاطر طائفيتها وحافظت على ديمقراطيتها بشكل مذهل، جددت الصين نفسها وتنازل رجال الحكم فيها عن مقاعدهم لخلفائهم تنازلا سلميا وهادئا، تحولت إيران وتركيا إلى منظومة ديمقراطية تشبه إلى حد كبير وبتحد كبير بناء الديمقراطية الغربية مع حركة إصلاح تنمو وتخوض معركتها فى البرلمان والصحافة وحتى مقعد الرئاسة الذى يصعد له رئيس بالانتخاب وليس بالمبايعة والنفاق المزرى، دخلت الكرة الأرضية عصرا جديدا

وبقيت مصر على حالها الميئوس منه. ومصر لم تنفرد وحيدة بالأنظمة الاستبدادية، فمناطق أخرى من العالم عانت ولفترات متفاوتة من الديكتاتورية. لكن فى مصر (وفى العالم العربى) تمر السنون بلا حس ولا خبر ولا حركة ولا بركة، حكام متصلبون ومثقفون منافقون ورجال أحزاب تافهون وأمة ميتة وشعب خاضع خانع، رعايا لا مواطنون، لم تشهد المجتمعات العربية حركات واسعة فى سبيل الحرية والديمقراطية، بل الذى ينتشر كالوباء مثل كوليرا سياسية خبيثة ومدمرة هو فقط دوائر الانتهازية وماسحو الجوخ والمنافقون الكثيرون ورجال السياسة المتلاعبون بالعقول والمرتشون من الحكومات والأنظمة أو جماعات الوهابية والجماعات المتطرفة التى ترى الديمقراطية كفرا وضلالا وترى الإسلام معاديا لحرية الناس فى إقرار واختيار ولا تزال الملكيات المترفة الجاهلة والأنظمة العسكرية المتنكرة بالزى المدنى فى الوطن العربى (وفى مصر) تمسك بزمام السلطة ومقعد السلطان وورثة الحكم وخلافة العرش، بعد وفاة جمال عبدالناصر نشرت الصحف عندنا رسما فى بعض الصفحات الأولى لجنازة تضم جموعا من المصريين يشيعون زعيمهم الراحل ولكن وجوه المشيعين كلهم هى نفس وجه عبدالناصر، كل الوجوه عبدالناصر تودع عبدالناصر ومكتوب التعليق تحت الصورة طبعا:كلنا جمال عبدالناصر، والمذهل أن نفس الرسمة تقريبا تم نشرها عقب وفاة أنور السادات فكل الوجوه التى تحمل نعش السادات فى اللوحة هى وجه السادات نفسه والتعليق هو ذاته كلنا أنور السادات، والحقيقة أنه لا شيء يكشف عوار مصر وانحدارها إلا هذه اللوحة والإصرار عليها ويكفى أن تقرأ الترهات ومقالات الزواحف من منافقى مبارك ورجاله لتعرف أنها ذات المأساة فالمطلوب من المواطن المصرى أن يكون قطعة بولبيف مقطوعة بنفس الشكل الموحد وموضوعة فى نفس العبوة وعليها نفس الملصق ومحمولة فوق نفس الرف، المشكلة أن هذا هو هدف وغايات الحكام الذين لا يريدون منا سوى أن نكون قطيعا أمامهم يهشون علينا بالعصا، وكل مختلف أو معارض هو ضأن شارد، والهدف نفسه يتكرر مع رجال الدين والتعليم فى حياتنا، يريدون من الناس أن

يكونوا صفا وطابورا وقطيعا يمشون وراء أفكارهم وتعاليمهم يحفظونها دون مناقشة ولا اختلاف وهم فى ذلك حلفاء الطغيان والاستبداد، يقول أبو حامد الغزالى فى كتابه إحياء علوم الدين (فساد الرعايا بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه عليهم ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل فكيف على الملوك والأكابر ؟!). عنده حق!

مفيش فايدة

أشهر وأسهل وأكثر جملة يرددها المصريون هى (مفيش فايدة)، لم أجد ولم أقرأ عن شعب يحب أن ييأس أكثر من الشعب المصرى، يتهمه كثيرون باللامبالاة والسلبية لكن جوهر وسبب وجذر هذه التناحة أمام الفساد التى يعيشها المصريون هى اليأس، لا يتصور الشعب أنه قادر على أن يغير رئيسه أو يحاسبه أو يسائله، أو أن يطيح بالحكم أو يصوت فى انتخابات لسقوط رئيس أو حزب حاكم، تسمع كثيرا من كثيرين إجابة واحدة يومية ومتكررة: يا عم اللى عايزينه ح يعملوه والواد ح يجيبه أبوه، طوال الوقت يصر المواطن المصرى على إعلان يأسه بتصميم يثير الريبة، تقوله انتخابات يقولك ح يزوروها، تقوله مظاهرات يقولك ح يضربوها، تقوله قول لأ يرد يا عم هوه حد ح يسمع كلمتى ولا ح يعبرنى، دى بلدهم مش بلدنا! عظيم، ليس هناك شيء يحبه حسنى مبارك أكثر من هذا، لا شيء يثلج صدر جمال مبارك ورجالته أكثر من ذلك، فالحزب الفاسد والنظام المستبد لا يعيش ويستمر ويحكم إلا بهذه السلبية وهذا اليأس الذى توطن مع الفيروس سى والبلهارسيا والفقر والماء الملوث فى كبد وعقل المصريين! يتفذلك زبانية الحزب الوطنى وهم يحدثونك عن أن الشعب المصرى مش مهتم بالإصلاح السياسى والكلام الفارغ ده لأن همه أكل عيشه، الناس عايزة تاكل وتلاقى لقمة عيشها، أسمع هذا الكلام من جهابذة من الحزب الوطنى وعدد لا بأس به من كتبة المباحث كأنهم يلومننى وكأننى أنا الذى أمنع المصريين من أكل عيشهم! والحقيقة أن المواطن الذى يظن أن أكل عيشه يقتضى السلبية واليأس والخنوع والخضوع لحسنى مبارك هو حر خليه فى اللى هو فيه وحلال عليه حسنى مبارك ربع قرن وابنه من بعده وربنا يوفقه! لكن المشكلة أن هذا المواطن

الفقير الغلبان الذى لا هم له سوى أكل العيش هو الوحيد المضروب بالقديمة من حزب حسنى مبارك ونظامه وحكومته، أنا شخصيا مازلت أستطيع شراء كيلو الطماطم أبو سبعة جنية، والحمد لله ربنا مقدرنا وبنشترى اللحمة أم خمسة وثلاثين جنيه والبيضة التى وصل سعرها لثمانين قرشا بل بالصلاة على النبى ومن غير حسد فنحن نشترى كرتونة البيض بـ ٢٦جنيها، وكيلو الفراخ الذى زاد من ستة لثمانية لأحد عشر جنيها ومع ذلك رأيى ومبدئى أن الحزب الوطنى خرب مصر وأن مبارك وسياسته ونظامه أفقروا الشعب المصرى ودحدروه إلى قاع الأمم، حسنى مبارك بعد خمسة وعشرين عاما من حكم مصر الذى لا يريد أن يتخلى عنه سوى لابنه أوصل الشعب المصرى إلى أن ٦٧%من أفراده ومواطنيه لا يملكون سيفون حمام فى بيتهم (٧٧%من ريف الدلتا يعيش بدون سيفون و٨.%من ريف الصعيد حسب تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٥)، شعب مصر الذى يقول مفيش فايدة ويحب أن ييأس وتضبطه أحيانا يقول ما هو اللى نعرفه أحسن من اللى منعرفوش أحب أن أزف إليه هذا النبأ المؤسف إن اللى منعرفوش أحسن لأن اللى نعرفه جعلنا نشرب المجارى فحسب تقرير التنمية البشرية فإن مياه الصرف الصحى تصب فى معظم المجارى المائية إما مباشرة من الوحدات السكنية أو من سيارات تفريغ المخلفات أو بصورة غير مباشرة من خلال الصرف الصحى المحمل بمياه الصرف وتعتبر مياه المجارى المنقولة خلال الأنابيب مصدرا ثابتا لتلوث مياه النيل ومياه الصرف والبحيرات والمياه الجوفية - اشرب يا سيدى - بل ومازال ٢.%من الصرف فى المناطق الحضرية و٩٢%من الصرف فى المناطق الريفية لايتم من خلال المجارى، هل هذا هو مقابل سكوت وطيبة وغُلب المصريين وموافقتهم على مبارك ونظامه، تشربوهم مجارى وتأكلوهم «سم»! طيب نظام مبارك يتهمنا بأننا كذا وكذا وولاد ستين فى سبعين وسوف يعاقبنا هذا النظام الكريه بالسجن هذا الشهر أو اللى بعده أو اللى بعد بعده، فهمنا عاقبونا وموافقين أن ندفع ثمن هذه المعارضة لكن الشعب الضائع المسكين الذى لا يهش ولا ينش ولا بيقولكم بم وكمان بيتخبط فى نافوخه وبيقول إنكم

أحسن من اللى ميعرفهمش، لماذا تعاملونه هكذا بكل قسوة وخسة، طيب كافئوه على طيبته وبلاهته ووفروا له اللقمة النظيفة وبق المية غير الملوث والهدمة الرخيصة والعافية والصحة، أبدا، كأن هذا النظام يعاقب الشعب على قبوله وخضوعه له بعذاب أكبر، لقد تسلم مبارك حكم مصر ونسبة الإصابة بالفشل الكلوى ١٠ حالات فى المليون فوصل بها عام ٢٠٠٤ إلى ٢٢٥ حالة فى المليون، هل هذه هى مكافأة الشعب الطائع الخاضع، وهل مكافأته كذلك أن ٢.% من إجمالى وفيات الأطفال تحت سن الخامسة نتيجة الإسهال التى يسببه سوء حالة الصرف الصحى: (راجع تقرير التنمية البشرية الذى تصدره حكومة مصر شخصيا بالتعاون مع الأمم المتحدة). هؤلاء المواطنون الطيبون الذين ينحنون أمام مدرائهم فى الشغل والضابط فى القسم ويبتعدون عن السياسة ولا يقرأون الصحف السوداء (إحنا يعنى) حتى لا يثيرون غضب السيد الرئيس وابنه وحزبه وحتى يربوا عيالهم فقرر الرئيس نفسه ونجله أن يردا لهم التحية والحنية بأحسن منها فجعلا العيال الذين يشقى من أجلهم الآباء ويطفحون الكوتة عاطلين تماما، نعم وكأن نظام مبارك مستقصد الغلابة السلبيين فعلا وينتقم منهم ومن فلذات أكبادهم فالحقيقة أن بيانات الجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء فى مصر تشير إلى أن ٩٩% من عدد العاطلين هم شباب ممن تتراوح أعمارهم بين ١٥ و٤٠ سنة، وقد تركزت البطالة بشكل أساسى فى الفئة الأكثر شبابا ممن تتراوح أعمارهم بين ١٥ و٣٠ سنة حيث يشكل العاطلون منهم وفقا للبيانات الحكومية الرسمية نحو ٨٨%من عدد العاطلين فى مصر، والأغبر من كده أن المتعلمين يشكلون وحدهم نحو ٩٣%من المتعطلين فى مصر، أى أن الشباب الذى صرف عليه أهله من دمهم النازف وضحوا لأجلهم بالمال وعزة النفس وطاطاوا لمبارك وحكمه كى يعلموا الولاد إذا بهذا الحكم يجعل من عيالهم عاطلين، يعنى ولادك أيها المواطن الطيب السلبى اللى مالكش دعوة بالسياسة ويجوز أنك لا تصدق أنه سيحكمنا غير الرئيس مبارك هم ضحايا الرئيس ذات نفسه (لمزيد من أسى البيانات راجع تقرير الاتجاهات الاقتصادية الصادر عن مركز الأهرام الاستراتيجى ٢٠٠٦). ألا

تلاحظ معى أن كل المصائب على دماغ الفقراء فقط، هل المعتمرون والحجاج الذين سافروا فى الطائرات عانوا من غرق العبارات المدعومة من زعامات الحزب الوطنى وأصدقاء أصدقاء القصر الجمهورى، هل عانوا بالآلاف المؤلفة من التكدس فى الموانئ والعطش فى الصحارى والبهدلة وقلة القيمة؟! إنهم الفقراء فقط الذين سافروا بالبواخر، هل من مات فى قطار الصعيد أو فى قطارى قليوب أو فى حوادث القطارات اليومية أو من عانوا وتعذبوا فى السكك الحديدية من تعطل وتأخر وزحام وإهمال وتسيب إلا الفقراء، فقراء مبارك هم الذين يذلهم نظامه بينما هم لا يتكلمون فى السياسة ولا يعرفون المعارضة ولا يتجرأون على الحلم بتغيير مبارك ومستعدين يبوسوا إيد جمال مبارك لو جاء ومع ذلك طالع عين اللى خلفوهم من حزب مبارك وأمانة النجل، هل الذين ماتوا بالسم الهارى الذى توزعه الحكومة على الزرع والأكل وتلقيه فى النهر والماء إلا الفقراء؟! وقد أفادت دراسة لجامعة الأزهر كما نشر موقع محيط على الإنترنت أن موائد الرحمن التى تشهدها مصر فى شهر رمضان الكريم فى القاهرة وحدها تتكلف ما يزيد على مليار جنيه (يدفعها الموسرون للفقراء) بينما ينفق أهالى المحافظات الأخرى على تلك الموائد مليار جنيه، وأشارت الدراسة نفسها إلى أن عدد المواطنين الذين يأكلون على موائد الرحمن يبلغ ثلاثة ملايين شخص يوميا مع العلم بأن الجهات التى تنظم موائد الرحمن أو عدد الأشخاص يصل إلى عشرة آلاف جهة أو طرف. وتضيف أن هناك اتساعا لظاهرة توصيل الطعام للمنازل من موائد الرحمن فى عدد كبير من الجمعيات الخيرية الإسلامية تصل إلى ١٠ آلاف وجبة من جمعية رسالة و١٠٠٠٠ وجبة من مسجد التوفيق وغيرها من عشرات الجمعيات والمساجد وموائد الرحمن فى مسجد مصطفى محمود يتم تقديم الإفطار لهم فى رمضان ٥٠٠ إلى ٥٠٠٠ وجبة توزع يوميا وتبلغ قيمتها حوالى ٨٥٠ ألف جنيه يتبرع لها أهل الخير، هذا ماقاله الموقع نقلا عن الدراسة لكن تردد عبر عدة مصادر بحثية أخرى أن عدد الذين أفطروا على موائد الرحمن فى القاهرة هذا العام حوالى ستة ملايين مواطن، وإذا كان لهذا الرقم دلالة فهى أنه لايزال بيت المحسنين فى مصر عمار

وأن هذا النظام نظام فاسد بلا قلب فأن يلجأ الناس للأكل على الأرصفة فقرا وحاجة فهذا لا يعنى سوى أن هذا الحكم قد أضاع شعبه وأفقر ناسه، أن يأكل قرابة العشرة فى المائة من المصريين (إذا استبعدنا عدد الأقباط) وحوالى نصف أهل القاهرة من الصدقات فهذه والله علامة من علامات يوم القيامة حتى لو كانت الأرقام مبالغا فيها والتقديرات بأن ثلاثة ملايين فقط هم الذين يأكلون على موائد الرحمن فهذه إشارة تخزق العين على المدى الذى وصل إليه فقر المصريين، (نعرف أن البنك الدولى يشير إلى أن ٤٤%من الشعب المصرى تحت خط الفقر) لكن النظام الذى أوصل مصر إلى هذه الحفرة وصلت به الغطرسة والعزة بالإثم إلى أنه لا يريد أن يعترف بكوارثه بل ويعايرنا بما قدمه لنا ويا خيبة وكارثة ما قدم وما أخر، فأنت تلتفت لتسأله وتسأل نفسك، ما هو آخر اكتشاف علمى قدمته مصر للعالم؟ ما هو أحدث اختراع قدمته مصر للوجود الإنساني؟ أين هو الدواء الذى اكتشفه فريق علمى مصري؟ ما هو البحث الذى قدمته جامعة مصرية فهز العالم وغير فى العلوم؟ أين هو السلاح الذى اخترعه المصريون فأعادوا تشكيل خريطة القوى فى الشرق الأوسط؟ أين هى المعادلة الرياضية التى أعلنها قسم فى كلية مصرية فأحدثت دويا؟ ما هى العملية الجراحية التى أجراها فريق طبى مصرى فصارت هدية جديدة للإنسانية؟ بل أين هى الفتوى والاجتهاد الدينى الذى قدمه شيخ وفقيه مصرى فصار المسلمون خلفه وصلوا وراءه؟ أين هى الجامعة المصرية التى يندفع إليها طلاب العرب وأفريقيا طلبا للعلم فيها والهندسة منها والطب على يديها؟ أين هى محاصيل القمح التى زرعها المصريون فأكلوا منها؟ أين هو القطن الذى كان ذهبا أبيض فذهب مع الريح؟ لا حول ولا قوة إلا بالله! ألهذا يريد نظام مبارك أن يستمر ومبارك أن يبقى وجمال مبارك أن يرث؟ لا أعرف هل تعرف الشاعر الراحل الكبير صلاح عبدالصبور وقرأت له أم لا لكن عموما للرجل مسرحية شعرية بعنوان (ليلى والمجنون) كأنها كاشفة لمصر ولشعبها تماما تقدم حالنا الشعبى فى كل حال سياسى، قال على لسان سعيد الشاعر والصحفى فى المسرحية (ياخرابى لما تسمع هذا الشعر بصوت وأداء الفنان

العظيم محمود ياسين على المسرح كأنك لن ترى شيئا مذهلا ورائعا كهذا حتى تموت!) قال: لا.. لا.. لا أملكُ إلا أن أتكلم يا أهلَ مدينتِنا يا أهلَ مدينتِنا هذا قوْلى: انفجروا أو موتوا رعبٌ أكبرُ من هذا سوف يجيء لن ينجيكُمْ أن تعتصموا منه بأعالى جبل الصمتْ أو ببطون الغاباتْ لن ينجيكُمْ أن تختبئوا فى حجراتكُمُ أو تحت وسائدكُمْ، أو فى بالوعات الحمّاماتْ لن ينجيكُمْ أن تلتصقوا بالجدرانِ، إلى أن يصبحَ كلُّ منكم ظلاّ مشبوحاً عانق ظلاّ لن ينجيكُمْ أن ترتدّوا أطفالا لن ينجِيكُمْ أن تقصر هاماتكمُو حتى تلتصقوا بالأرض أو أن تنكمشوا حتى يدخل أحدكمو فى سَمِّ الإبرةْ لن ينجِيكُمْ أن تضعوا أقنعة القِرَدَةْ لن ينجيكم أن تندمجوا أو تندغموا حتى تتكوّن من أجسادكم المرتعدة كومةُ قاذوراتْ فانفجروا أو موتوا انفجروا أو موتوا يناشدنا صلاح عبدالصبور بأن نتحرك، ونرفض ونغير ويحذرنا أنه لن ننجو من الظلم والقهر حتى ولو عملنا فيها قرودا واستخبينا تحت السرير ويطالبنا إما بأن ننفجر غضبا وتغييرا أو أن نموت، انفجروا أو موتوا، ويبدو أن المصريين من قرأ أو شاهد مسرحية صلاح عبدالصبور ومن لم يقرأها قرروا الأخذ بالاختيار الثانى، قرروا أن يموتوا، منهم من مات بالهجرةِ من البلد (بالجسد والعقل أو بالعقل فقط) ومنهم من مات بالكلى والكبد والسرطان ومنهم من مات كمدا ومنهم من مات صمتا ويأسا ومنهم من مات من الضحك، فقد أثبت حكم حسنى مبارك ربع قرن أن المصريين يفضلون الموت على الانفجار...الشيء الوحيد المسموح له بالانفجار فى مصر، هى المواسير!!

مصر من تحت!

هل يمكن أن يحدث أسوأ مما نحن فيه؟ قطعا ممكن، أن يستمر ما نحن فيه، مع مزيد من الفقر، ومزيد من العنف، ومزيد من حكم مبارك! لأن الرئيس حسنى مبارك طيار فلم يعد يرى الواقع على الأرض، يرى كل شيء صغيرا ضئيلا بلا أهمية فهو يراه من فوق، ومن بعيد! ولأن جمال مبارك الحاكم الفعلى لمصر وابن الرئيس فتى تربى منذ نعومة أظافره فى قصر الرئاسة لم يركب أتوبيسا ولا ميكروباص فى حياته ولم يقف ليشير لتاكسى ولم يتجادل مع سائق تاكسى على الأجرة ولم يقف فى طابور عيش أو طابور جمعية أو حتى طابور سينما، وحين يلتقى بالفقراء يلتقى بمخبرى أمن الدولة! ولأن مجموعة المنتفعين وشلة الحكم المحيطة بالرئيس ونجله مجموعة من المليارديرات والأغنياء غنى فاحشا وثراء سفيها وهم من أبناء طبقة المال والنفوذ والحكم ومعظمهم وكلاء لأجانب فى أعمال البيزنس والتجارة والصداقة، لأن هذا ما كان فإن ذلك ما يكون! انفصل الحكم تماما عن الواقع وصارت تحكم مصر مجموعة عائلات مغلقة على نفسها عبارة عن طبقة من نبلاء الإقطاع المالى (مع ملاحظة أنهم لا يملكون أراضى وآلاف الأفدنة فى مصر مما يسهل سفرهم خارجها بسرعة وكما يعنى أن أموالهم سائلة وموجودة فى بنوك أمريكية أو أوروبية ساعة اللزوم ليس لهم فى مصر سوى قصرين ثلاثة سوف يبيعونها عبر المحامى وكام شاليه وفيلا على الساحل الشمالى قد يتركونها لأولاد خال أو عم) ولا يربط حسنى مبارك ونجله عمليا بالواقع وبالشعب إلا مباحث أمن الدولة، هذا الجهاز الذى يحكم مصر تقريبا هو رئة مبارك فى الحكم وقبضته فى السيطرة وهو أيضا وسيلته الوحيدة التى يعرف بها شئون الناس والبلد، وهو وسيلة وحيدة مأمونة لديه ويثق هو فى إخلاصه له وهو ما يفسر امتداد حبيب

العادلى فى ولايته على وزارة الداخلية لأكثر من عشر سنوات دون غيره من سابقيه وسلفه فى المنصب، الأمر يعود بقوة أولا إلى سن الرئيس مبارك الذى لم يعد يحب التغيير فضلا عن أن من طباعه السياسية أنه مع الاستقرار حتى الجمود ومع الاستمرار حتى الركود، وثانيا لأن مبارك يعتمد على أجهزة أمنه وجهاز أمن الدولة تحديدا الذى تحول إلى جستابو النازى وسافاك شاه إيران الآن وصار متضخما فى قدراته التى تتحكم فى مقدرات البلد كلها وتسيطر على كافة شئون البلاد سواء الأحزاب السياسية أو الجامعات والجوامع أو الإعلام والصحافة (ومنها عدد من الصحافة الخاصة مع كل الصحافة الحكومية)، كل شيء، البلد كله تقريبا حتى إن مباحث أمن الدولة أقوى من أى وزير فى وزارته ولا يستطيع أحمد نظيف أن يفتح فمه فى مواجهتها، ثم هى التى تملك تنفيذ أى أحكام قضائية أو تعطيلها وهى المسئولة عن ملف الأقباط فى مصر والشيعة والمعارضة والإخوان المسلمين وكفاية وهى المنوط بها تمرير التوريث، كل هذا لأن نظام مبارك جعل هذا الجهاز هو عينه التى يرى بها وأذنه التى يسمع بها ولسانه الذى ينطق به، لا يعرف الرئيس شخصيا عن البلد والناس والفقراء والغلابة والسياسة وتوجهات الصحافة وفلان ده كويس ولا ابن ستين فى سبعين إلا من أمن الدولة والتقرير الذى يسمعه مبارك شفاهة ولا يقرأه غالبا أو يكتفى بقراءته زكريا عزمى وصارت قرارات الرئيس، نسجن هذا أو نعفو عن هذا، نصدر القرار الفلانى أو نؤجله، كله مرهون بتقرير أمن الدولة، وهى التى تخبر الرئيس إنه كله تمام وإن فلان لازم يتعاقب وإن الشارع متأمن وإن الناس راضية ومبسوطة وإن الواقع بمبى وفل وعال العال ماعدا رعاع الصحافة وكفاية ونوصى بكذا وكذا (سجن، ضرب، تشويه، دهب، ياقوت، مرجان اللى تؤمر بيه) وأننا قادرون على ضرب الإخوان المسلمين وأنهم يخططون لقلب نظام الحكم ونوصى باستمرار سجن عصام العريان وهلم جرا..إلى السجن، ولا أظن أن الرئيس مبارك خالف توصيات أمن الدولة فى الفترة الأخيرة أبدا ربما زاد عليها من توصيات حاكم لم يعد يعتقد أن شعبه قادر على تغييره أو أن شعبه قادر على أن يفكر أساسا فى تغييره ويتصرف مبارك

فى البلد بصلاحيات إلهية كل ما يريده يفعله والقانون تحت أمره والدستور ملك يمينه، أما الشعب الذى يعرفه فليس هو شعب جمهورية مصر العربية بل شعب تقارير مباحث أمن الدولة التى يقرأها أو يسمعها. ولأن النظام لا يتعلم من أخطائه وبات كذلك ضعيف الذاكرة فقد نسوا أن قيادات من الحزب الوطنى طلبت مقابلة أطراف من الإخوان المسلمين كى تعقد اتفاقا مبدئيا قبيل الانتخابات البرلمانية الأخيرة مؤداه أن تترك أجهزة الأمن ثلاثين مقعدا للإخوان دون أن تتدخل بتزوير هذه الدوائر مقابل أن يكتفى الإخوان بترشيح خمسين مرشحا فقط، وقبل أن يوافق حسنى مبارك طلب تقريرا من أمن الدولة وكان رأيها أن الإخوان يبالغون فى قدراتهم وشعبيتهم وأن الأمن قادر على تحجيمهم ولجم أى نجاح لهم ومن الممكن ألا يصلوا لخمسة عشر مقعدا ومن ثم لا نوصى بإجراء أى اتفاق معهم وعدم منحهم ثلاثين مقعدا! ووافق مبارك على ما وصل إليه أمن الدولة ورفض أى مفاوضة مع الإخوان ثم جاءت نتيجة المرحلة الأولى فى الانتخابات البرلمانية مدوية فى نجاح الإخوان وكاشفة لهراء تقارير الأجهزة الأمنية، وبدلا من عقاب صارم وبدلا من إعادة نظر فى الاعتماد على العسس والمخبرين وضباط التعذيب فى حكم البلاد وفهم طبائع الشعب وتصرفاته، بدلا من إزاحة نفوذ أمن الدولة قرر الرئيس أن يعتمد عليها لإنقاذ حزبه وطلب منها قمع نجاح الإخوان ثم كان ما كان وتقلصت فرص الإخوان فى الوصول إلى ثلث أعضاء البرلمان إلى ٨٨عضوا فقط! تم تلخيص الأمن فى مصر إلى أمن الدولة وتوحش هذا الجهاز حتى صار مركز قوى أسوأ مليون مرة مما كانوا يقولون عن حمزة البسيونى أو صلاح نصر، مركز قوة يحكم مصر بل الأسوأ من ذلك أنه يحكم الرئيس والرئاسة كذلك فرغم تصور وتأكد مبارك من أن جهاز أمن الدولة هو جهازه الشخصى الآمن والحارس فإن هذا الجهاز صارت له مصالحه ونفوذه التى يحميها وعجزه الذى يداريه وحرصه على أن يكون جهاز الرئيس وليس حتى جهاز أمن الدولة (وقد تجاهل منذ زمن أنه جهاز لأمن الشعب لا الرئيس ولا الدولة حتى) فتحول إلى جهاز يخدم نفسه ويسيطر على قرارات الرئاسة بما يغذيه من تخويفات أو تطمينات ومعلومات أو

تعليمات (توصيات) تنتهى إلى ما نراه من فقدان النظام لبوصلة شعبه تماما والضغط على البلد بقرارات ومواقف وقوانين ح توديها فى داهية ويذهب معها كل من خاف من مجيء هذه الداهية! لقد انهار الأمن الجنائى فى مصر لصالح سيادة وسيطرة الأمن السياسى وهنا الخطر الذى سيطيح بنا جميعا حكاما ومحكومين، رئيسا ومعارضة، لقد تراجعت درجة الأمان على النفس والمال والجسد فى مصر لصالح أمان حسنى مبارك على عرشه وربما على فرصه فى توريث ابنه بينما الضربة سوف تأتى ممن تصور مبارك أنهم ليسوا خطرا عليه، من العامة والدهماء، من فقراء ومحرومين لا يتحدثون فى السياسة ومن ناس لا يسمعون أساسا عن وجود دستور فما بالك بجهلهم بإمكانية تغييره أو تعديله! منذ سنوات كنا نعرف شيئا اسمه تقرير الأمن العام، كان يصدر سنويا عن مصلحة الأمن العام التابعة للداخلية بطبيعة الحال ويشمل إحصائيات عن جميع الحوادث والجرائم التى ضبطتها أجهزة الأمن وكنا نعرف من خلالها تزايد جرائم بعينها أو انخفاض معدلها ومدى نشاط أو خمول أجهزة الأمن فى تتبع قضايا (خصوصا المسجلة ضد مجهول)! أين هذا التقرير الآن؟ اختفى ولم يعد يصدر أو لم يعد منشورا ومتاحا للرأى العام وهى دلالة كاشفة لهذه الرغبة العميقة فى إخفاء الحقيقة عن الناس والحمد لله أنهم لم يفكروا فى إصداره مزورا ومزيفا بأرقام وإحصاءات غير حقيقية، لكن الدلالة المؤكدة أن اختفاء التقرير فى سنوات وزارة العادلى يوضح مدى الإخفاق الأمنى الجنائى الذى نعيشه مع استغراق نظام مبارك حتى كتفيه فى قضايا الأمن السياسى الأمر الذى جعل عدد المعتقلين فى مصر يتراوح بين ١٦ ألفا و٢٢ ألف معتقل سياسى (وزير الداخلية بابتسامة ضابط أمن دولة لا تختفى من على شفتيه أثناء التحقيق مع متهم قال فى البرلمان إنه لا يعرف عدد المعتقلين لأنه فيه ناس داخلة وناس خارجة!! كأنه لا إحصاءات ولا بيانات ولا أرقام ولا سجلات للمعتقلين الخارجينة والداخلين عندهم) نحن لا نملك إذن إحصاءات محددة للمعتقلين السياسيين ولا لجرائم القتل والمخدرات والخطف والاغتصاب فى مصر لكننا نستطيع أن نقول باطمئنان شديد إن موجة من العنف الظاهر والمكتوم

تنتشر لدينا بشكل هوسى ووحشى،خذ عندك ما نشرته جريدة الجمهورية في٢٢ أكتوبر الماضى (تكثف أجهزة الأمن بالقليوبية جهودها لسرعة كشف غموض مقتل طفلة عثر على جثتها مقتولة وعارية تماماً ومصابة بعدة إصابات مختلفة بأنحاء الجسم ومشوهة وسط حظيرة مواشى بكفر شكر. تم حصر جميع الأشقياء والخطرين ومناقشتهم. وكذا البحث عن أى خلافات لأسرة المجنى عليها.. وإن كانت التحريات المبدئية تشير إلى أن الجانى تخلص من المجنى عليها بعد اغتصابها.. وعندما تعرفت على ملامحه قرر التخلص منها بهذه الطريقة الوحشية!! لم يتهم والد الطفلة أحداً فى محضر الشرطة وقرر أن علاقاته جيدة بالجيران والأهل.. وأكد أن ابنته سوية ولا توجد بينها وبين الأسرة أى مشكلات.. وأنه أبلغ عن غيابها قبل العثور على جثتها بساعات). مغتصب فى ريف وليس فى مدينة، فى بحرى وليس فى قبلى، ثم يغتصب ويقتل، ثم لا يكتفى بالقتل بل يشوه ويقطع، ثم يتركها عارية...إلى هذه الدرجة من العدوان! مثلا جريمة أخرى نشرتها جريدة الجمهورية فى ٢٣أكتوبر الماضى وهى غاية فى التعبير عما وصلت إليه مصر من تفسخ وعنف وعدوانية (تفجرت مفاجآت مثيرة فى حادث «كتيبة الإعدام العائلية» بالجيزة التى تتكون من الأم م، أ،ح «٤٥ سنة» وابنيها م «١٩ سنة» عاطل وش «١٧ سنة» ربة منزل وشقيقها ع «١٧ سنة» وقريبها إ «١٥ سنة» عاطل قتلة العاطل ش أ ع «١٩ سنة» قرروا تنفيذها للانتقام من المجنى عليه الذى حول حياتهم إلى جحيم بعد أن خطب «ش» وأقام علاقة محرمة مع والدتها «م» وأنجب منها طفلة فاضطرت الأم إلى الزواج منه. لكنه لم يترك الابنة «ش» فى حالها وحاول إقامة علاقة معها. ولذلك اجتمعت «م» مع ابنيها وشقيقها وقريبهم وأصدروا حكماً بإعدامه. وأكدوا أنهم غير نادمين على ارتكاب الجريمة البشعة. لأن المجنى عليه يستاهل القتل والحرق. إنهم نفذوا الجريمة فى آخر رمضان ليحرموه من فرحة العيد. روى المتهمون قصة جريمتهم. فقالت "ش" إن السباك حضر من منطقة دار السلام وأقام فى منزلهم. ومع مرور الوقت بادلها الحب والإعجاب. وأخبرته أنها لا تستطيع أن تعطيه أى شيء سوى بالحلال. فتقدم لخطبتها ووافقت

الأم لأن والدها متوفى. ومضت الأيام سريعاً. واعتاد التردد على شقتهم فى حضورها وغيابها واكتشفت أنه أقام علاقة غرامية مع والدتها. تواصل اعترافاتها إن صدمتها الأكبر كانت عندما اكتشفت أن والدتها حامل من خطيبها وكان لابد من الحل وقررت والدتها أن تتزوج منه وبعدما أنجبت طفلة. وأصبح خطيبها زوج أمها فى نفس الوقت ولذلك طالبته بالابتعاد عن طريقها لكن دون جدوى فقد ظل يعاكسها كلما شاهدها ويطالبها بأن ترفع له الراية البيضاء. إلا أنها كانت ترفض ولا تتصور أن العاطل كان يريد أن يجمع بينها ووالدتها. تتذكر "ش" نقطة التحول فى تنفيذ هذا الحادث عندما رفضت حب زوج أمها فى أحد الأيام فألقى عليها ماء النار وهددها بالقتل وعلمت والدتها بما حدث. فاجتمعت مع عدد من أفراد العائلة. وفى هذا الاجتماع تم اتخاذ القرار الصعب بإعدام الشاب الذى حول حياة العائلة إلى جحيم. وقال شقيقها إنه اشترى ساطوراً من أجل تنفيذ العملية بعد أن اختاروا وقت تنفيذها قبل العيد مباشرة. حتى يتم حرمانه من «فرحة العيد» وفى الفجر استغلوا نومه وانهال عليه الخمسة بساطور وبالسكاكين ضربة رجل واحد وحاول المقاومة والاستغاثة لكنهم سرعان ما أجهزوا عليه. خلال وقت قصير وقطعوا جثته للانتقام منه حتى يكون عبرة لكل من يحاول فرض بلطجته على الناس بهذه الطريقة. أما خالها فقال إنهم قرروا تنفيذ العملية منذ شهر عندما ألقى شعبان ماء النار على «ش» وهددها بالقتل إذا لم توافق على إقامة علاقة محرمة معه. رغم زواجه من أمها وإنجابه طفلة منها. وحددوا موعدا لتنفيذه فى رمضان وقبل العيد أثناء نوم المجنى عليه، حتى يتمكنوا من تنفيذ الجريمة لأنه بلطجى وليس فى إمكانهم مواجهته وهو فى وعيه ولذلك انهالوا عليه بالبلطة والسكاكين حتى الموت. ولم يتمكن من الاستغاثة بالجيران حتى مات. أما الشقيق الآخر فقال إنهم رغم تنفيذ الجريمة وتقطيع جثة المجنى عليه فإنهم طلبوا من ش أن تلقى على وجهه وجسده ماء النار بعد موته للانتقام منه مثلما فعل فيها. ولذلك فهم ليسوا نادمين على ارتكاب الجريمة بل يشعرون بالسعادة للانتقام) اللافت هنا أن سن الولد المقتول ١٩سنة فقط فضلا عن أن الخال والشقيقين بدوا وكأنهم قبلوا

بزنا الأم مع خطيب ابنها دونما رفض كبير، ثم باتت القصة أفدح من مجرد كونها جريمة شرف فالحاصل أن الشرف هو آخر ما تسأل عنه فى هذه الجريمة ولكن الأخطر هى هذه الحالة العدوانية العنيفة الكارثية فقتل شاب بالسم من زوجته أمر أسهل وأقل عدوانا من مشاركة خمسة فى قتله ثم ذبحه ثم تشويهه بمية النار!! وفى جريمة اخرى نشرتها جريدة المصرى اليوم فى ١٧ أكتوبر الماضى أيضا نقرأ (تبين من المعاينة وجود جثة لفتاة ١٥ سنة داخل شقة بمدينة أخميم بها إصابات ظاهرة وجروح قطعية فى الوجه والرأس والصدر واحتراق جزء كبير من الجسد والملابس، دلت التحريات على أن والدتها «٤٥ سنة» أرملة دست لها الحبوب المنومة وانهالت عليها ضربا بمفتاح أسطوانة البوتاجاز وسكين.. للتأكد من وفاتها سكبت عليها كمية من الكيروسين). ليس فقط قتل أم لابنتها بل قتلا رباعيا، تخدير وضرب وذبح ثم حرق، ثم ننتقل إلى الصعيد حيث تمثل المرأة (أو من المفروض) العرض والأرض والمصونة المكنونة إذا بانقلاب القيم تماما فى حادثة أخرى منشورة فى الجمهورية فى ١٨ أكتوبر نفسه (لاحظ هذا أكتوبر فقط وهذا بعض مما قرأته فقط وهذا بعض مما نشر وهذا بعض مما حدث ولم ينشر وفى شهر واحد فقط أكرر (بلاغ من «م.ح.م» بقرية أتليدم بأبو قرقاص بقيام أحد أبناء القرية ويدعى «س ف م» «٢٦ سنة فلاح» أو أم (ع) «٢٢ سنة» بائع متجول و(ص س ك) «٢٢ سنة» فلاح، بتهديدها بأسلحة بيضاء واصطحابها إلى منزل الأول والاعتداء عليها ثم نقلها لمنزل شقى آخر الذى احتجزها ٦ أيام واعتدى عليها. تم القبض على المتهمين وقررت النيابة حبسهم ٤ أيام على ذمة التحقيقات. وفى واقعة أخرى تمكن رجال الأمن من إنقاذ ث أ ع «٢٠ سنة» من محاولة اعتداء من ٣ أشخاص وسط الزراعات بعد أن اختطفوها من (سيارة أجرة). ليس على حسنى مبارك أن يخاف من المعارضين ولا أن يخشى من الإخوان المسلمين على عرشه وحكمه بل أظن أن عليه أن يخاف ويخشى من القتلة ومختطفى النساء ومغتصبى البنات على حكمه وعرشه فالفوضى القادمة فى مصر لن يكون فيها معارض ولا إخوانى سيكون فيها فقراء ومطحونون ومحرومون

ماديا وجنسيا اشتد بهم الغضب إلى درجة العنف والقتل والعدوان، ولن يحطموا يومها واجهات محلات أو كبارييهات شارع الهرم كما حدث من قبل بل سيصعدون إلى العمارات والبيوت وسيحطمون كل شيء فى طريقهم..وأول ما سيتحطم ساعتها هو استقرار حكم مبارك!

كرسى الحكم

يقول الله عز وجل: «إن أرادنى الله بضرّ، هل هنّ كاشفات ضرّه، أو أرادنى برحمة، هل هنّ ممسكات ررحمته، قل حسبى الله، عليه يتوكّل المتوكّلون».

كرسى الحكم

يضرب البعض كفا بكف ويقول طيب وآخرتها إيه؟ الناس تقول (مش معقول حسنى مبارك يتغير أو يمشى أو يرحل هو ونظامه) ثم تضيف أسوأ من هذا يأسا حين تقول (مش معقول إننا إحنا اللى نقدر نغيره)، أن يتغير حسنى مبارك ويأتى رئيس آخر ليس ابنه هذا بمثابة الخيال والخبال عند كثير من الناس، تعودوا مبارك وتعاملوا معه كما يتعامل البشر مع ظواهر الطبيعة كالمطر والزلازل والبراكين والليل والنهار باقية دون فناء حتى يرث الله الأرض ومن عليها وقد تصدر للناس إحساس الخلود والبقاء الذى يبديه الرئيس ورجاله ونظامه كأنهم ضد الفناء السياسى والبيولوجى، من كثرة السنين التى عاشها مبارك رئيسا ومن استمرار حكمه أكثر من ربع قرن باتت الناس لا تتصور أنه سيرحل عنها أبدا وبعضهم من فرط الاستسلام للأمر الواقع (على رأسه) صار لا يصدق أن هناك رئيسا بعد مبارك وأن الذين يهتفون (نبايعك للأبد) إنما يقصدون بالأبد يوم القيامة وليس أى شيء آخر! ومن ثم صارت المهمة صعبة للغاية أن نقول للناس لا، إن مبارك ونظامه ونجله يمكن أن يتغيروا ويرحلوا ويبدلنا الله أفضل منهم أو حتى أسوأ بشرط أننا نملك فى أى لحظة أن نحاسب أى رئيس ونعاقبه أو نغيره متى شئنا أو أردنا، والأصعب أن تقنع الناس أنهم هم وحدهم القادرون على تغيير مبارك ومنع ابنه من الوصول إلى عرش أبيه فيجلس عليه ربع قرن آخر تفنى فيه مصر

وتضيع كما ضيعها السيد الوالد، وأن يأتوا برئيس جديد منهم يرضونه ويقبلونه ويحاسبونه ويسائلونه لا يتأبد على مقعد الحكم ولا يتصرف كأنما فرعون موسى يحكم شعب مصر! البعض منا الذى لا يزال لديه أمل أن هناك رئيسا أكيدا غير مبارك سوف يحكمنا وأن مبارك ليس نهاية التاريخ المصرى لكنه ينتظر معجزة من السماء تذهب بالمستبدين والفاسدين من حكام هذا البلد إلى حيث ألقت، لكنه طول الوقت يسأل من البديل؟ من غير مبارك؟ وهو سؤال ذليل سقيم كأنما مبارك ملاك من السماء وقد توقفت الملائكة عن الهبوط إلى الأرض، وكأن رئاسة مصر وحمة على كتف ثلاثة رجال (عبدالناصر والسادات ومبارك) ولدوا بها فلا أحد غيرهم يقدر عليها (ومع الخراب الذى نعيشه مازلنا نعتقد أن لن يقدر عليها سواهم)، أو كأن رئيس مصر ليس كمثله شيء، إن أى مصرى يرى فى نفسه القدرة والقوة والعقل والحماسة ليحكم مصر فليتقدم ويعلن ويعرض نفسه على الناس فنختار من نراه أكفأ وأفضل، هذا هو بديل مبارك أم أن يتحول مبارك إلى معجزة بشرية لا يماثله أحد ولا يساويه شخص حتى يدفعه عن مقعده فى انتخابات رئاسة فهذا من الأوهام المزروعة فى ذهن المصريين تماما مثل القصة البديعة للعظيم يوسف إدريس (حمّال الكراسى)، اقرأ معى شيئا منها لتعرف مقصدى ومبتغاى، يقول (صدقوا أو لا تصدقوا، فمعذرة لا يهمنى أبداً رأيكم، يكفى أننى رأيته وحادثته وقابلته وشاهدت الكرسى، كرسى هائل تراه فتظن أنه قادم من عالم آخر أو أقيم من أجل مهرجان.. ضخم كأنه مؤسسة، واسع القاعدة، ناعم، فرشه من جلد النمر، ومسانده من الحرير، وحلمك كله إذا رأيته أن تجلس عليه مرة أو لحظة.. كرسى متحرك، يتقدم بتؤدة كأنه موكب المحمل حتى لتظن أنه يتحرك من تلقاء نفسه، وتكاد من الرعب أو الذهول تخر أمامه وتعبده وتقدم له القرابين، ولكن فى آخر وقت ألمح بين الأرجل الأربعة الغليظة المنتهية بحوافر مذهبة تلمع، ساقاً خامسة ضامرة غريبة على الفخامة والضخامة، ولكن لا لم تكن ساقاً، كانت إنساناً نحيفاً معروقاً قد صنع العرق على جسده ترعاً ومصارف وأنبت شعراً وغابات وأحراشاً، صدقونى فأنا بالأمانة المقدسة لا أكذب ولا أبالغ، بل أنقل فى عجز ما رأيت، كيف

استطاع نحيف هش كهذا الرجل أن يحمل كرسياً كهذا لا يقل وزنه عن الطن أو ربما أطنان؟ ذلك هو المذهب للعقل وكأنه شغل حواة، ولكنك تتمعن وتعود تتفحص فتجد أن ليس فى الأمر خديعة وأن الرجل حقيقة يحمل الكرسى وحده ويتحرك به.) ثم يكمل يوسف إدريس قصته (كان الرجل بحمله قد أصبح على قيد خطوة منى وأصبحت أرى وجهه الطيب رغم كثرة ما فيه من تجاعيد، ومع هذا لا تستطيع أن تحدد له عمراً، ورأيت ما هو أكثر، فقد كان عارى الجسد لا يغطيه إلا حزام وسط متين يتدلى منه ساتر أمامى وخلفى من قماش قلوع المراكب، ولكنك لابد تتوقف وتحس بعقلك قد بدا كالغرفة الخالية يصنع صدى، إنه يبدو فى لباسه غريباً ليس على القاهرة وإنما على العصر كله، تحس أنك رأيت له شبهاً فى كتب التاريخ أو الحفريات، وفوجئت هكذا بابتسامة فيها ذلة السؤال، وبصوت وبكلام: ـ الله يرحم والديك يا بنى.. شفتش عمك بتاح رع؟ وهجمت عليه: ـ اسمع.. اوعى تقول إنك من المصريين القدماء. ـ لهو فيه قدماء وجداد؟ أنا من المصريين وبس. ـ وإيه الكرسى ده؟ ـ شيلتى.. أمال أنا بادور على بتاح رع ليه؟ عشان زى ما أمرنى أشيله يؤمرنى إنى أنزله، أنا اتهد حيلى. ـ إنت بقالك كتير شايله؟ ـ كتير قوى ماتعدش من أيام ما سموا النيل نيل. وتماماً توقفت كل قدرة أو رغبة فى الدهشة عندى، إن من يحمل كرسياً بهذه الضخامة والثقل للحظة، ممكن أن يحمله لآلاف السنين. لا دهشة ولا اعتراض كل ما فى الأمر سؤال: ـ وافرض مالقيتشى عمنا بتاح رع تفضل شايله؟ ـ أعمل إيه؟ أنا شايله ودى أمانة، خدت الأمر إنى أشيلها أحطها إزاى من غير أمر؟! أنا شايل ودى أمانة وشايل الأمانة ومسئول عنها. ـ لغاية امتى إن شاء الله؟ ـ لما يجينى الأمر من بتاح رع ولكننى صرخت ـ وقد بدأ يتحرك ـ أوقفه، فقد لاحظت شيئاً كالإعلان أو اللافتة مثبتة فى مقدمة الكرسى، بالضبط كانت قطعة من جلد غزال وكان عليها كتابة قديمة وكأنها النسخ الأولى للكتب المنزلة، وبصعوبة طالعت: «يا حمّال الكراسى.. لقد حملت ما فيه الكفاية.. وآن لك أن يحملك كرسى.. هذا الكرسى العظيم الذى لم يصنع مثله لك أنت وحدك.. احمله وخذه إلى بيتك وضعه

فى الصدر وتربع فوقه طول عمرك وحين تموت يكون لأبنائك». وهذا هو أمر بتاح رع يا سيادة شيال الكراسى، أمر صريح صادر فى اللحظة نفسها التى أمرك أن تحمل فيها الكرسى، وممهور بإمضائه وخرطوشه. بفرح عظيم قلت له كل هذا، فرح متفجر كمن كاد يختنق، كنت أتوقع فرحة مماثلة، انفراجة حتى، ولكن وجدت لا شيء. - الأمر مكتوب فوق رأسك أهه ومن زمان مكتوب. - بس أنا ماباعرفش أقرأ. - مانا قريته لك. - أنا ما باصدقش إلا بأمارة.. معاك أمارة؟ ولما لم أجب، غمغم غاضباً وهو يستدير: - أهو ما بينوبنيش منكو غير العطلة.. يا ناس، والشيلة تقيلة والنهار الواحد يدوبك لفة. ووقفت أرقبه وقد بدأ الكرسى يتحرك، حركته المتئدة الوقور التى تظن أنها من تلقاء نفسه، والرجل قد أصبح مرة أخرى ساقه النحيلة الخامسة القادرة وحدها على تحريكه. وقفت أرقبه وهو يبتعد، لاهثاً يئن وعرقه يسيل. وقفت حائراً أتساءل: أألحقه وأقتله لأنفس عن غيظي؟ أأندفع وأسقط الكرسى عن كتفه بالقوة وأريحه رغماً عنه، أم أكتفى بالسخط المغيظ منه؟ أم أهدأ وأرثى لحاله؟ أم أصب اللوم على نفسى أنا لأننى لا أعرف الأمارة؟) هذه خلاصة قصة يوسف إدريس حمّال الكراسى (مجموعة بيت من لحم) التى يحاول أن يشرح من خلالها للمواطن المصرى الذى يضع كرسى العرش فوق رأسه كى يجلس عليه فرعون آخر أو رئيس آخر أن هذا الكرسى كرسى حكم مصر لك أنت يا مغفل، يا أهبل، أنت الأولى به أنت يا صاحب البلد، بدلا من غريب أو عجيب أو طيار أو ابن طيار أو فاسد أو مستبد، كرس حكم المصريين للشعب وليس لرئيس متأله ولا لوريث ملكى يظننا سكان ضيعة أوعزبة ضمن الورث، هذا النظام المصرى الحاكم برئيسه ونجله وأمانة سياساته وسياسته التى أذلت المصريين وأفقرتهم ورمت بهم تحت أقدام الدول، عدو يدوس وشقيق يهين وآخرون يبيعون ويشترون فينا، لن يرحل بالمعجزات السماوية لن نصحو من النوم فنجد رجاله قد مضوا وانتهوا، بل هم جالسون جاثمون قاعدون ومدلدلون رجليهم طالما نحن لا نعمل ولا نجتهد فى رمى هذا النظام فى سلة قمامة التاريخ، كرسى حكم الشعب يملكه الشعب، بتاع الشعب،

وليس ملكا لشخص أو لوريث، كى نبنى وطننا بدون فساد ولا استبداد ولا فرعون إله يحكم مصر ولا ولى عهد يطمع أن يرثنا مع القصر والثروة ونصوص الوصية، يجب أن نقتنع أننا مُلاك هذا البلد ومُلاك هذا الكرسى وليس السيد الجالس أو الابن الوارث، لا تقعد تقولى مين وامتى وفين وإزاي؟ والبديل والدليل وهذا الكلام الساكت بل أنت يا مواطن صاحب الأمر والنهى وتجيب اللى تجيبه وتمشى اللى تمشيه والأمر ليس مستحيلا ولا بعيدا فالله سبحانه وتعالى قد قال فى كتابه العزيز «سيجعلُ اللّهُ بعد عسرٍ يسراً».وقال: «ومن يتّقِ اللهَ، يجعل له مخرجاً، ويرزُقْهُ من حيث لا يحتسب، ومن يتوكّل على الله فهو حسبُهُ». المطلوب توكل لا تواكل، عمل لا ملل، إيمان لا يأس، جهد لا قعود، ويجعل الله بعد عسر يسرا وبعد شدة فرجا، ليس بعيدا أبدا أن تتطهر مصر من حكم فاسد وأن تقوم مصر بعد رقدة وأن تصحو بعد نومة. لقد قال تعالى: «أو كالّذى مرّ على قرية، وهى خاوية على عروشها، قال أنّى يحيى هذه الله بعد موتها، فأماته الله مِائةَ عامٍ، ثم بعثه، قال: كم لبثتَ، قال: لبثتُ يوماً أو بعض يومٍ، قال: بل لبثتَ مِائةَ عامٍ، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنَّهْ، وانظر إلى حمارك، ولنجعلك آية للنّاس، وانظر إلى العظام كيف ننشزها، ثم نكسوها لحماً، فلما تبين له ذلك، قال: أَعْلَمُ أَنّ اللهَ على كلّ شيء قدير». يقول الإمام التنوخى فى كتابه (الفرج بعد الشدة) لقد أخبر الله تعالى: أن الذى مر على قرية، استبعد أن يكشف الله تعالى عنها، وعن أهلها، البلاء، لقوله: أنى يحيى هذه الله بعد موتها، فأماته الله ثم بعثه... إلى آخر القصة، فلا شدة أشد من الموت والخراب، ولا فرج أفرج من الحياة والعمارة، فأعلمه الله عز وجل، بما فعله به، أنه لا يجب أن يستبعد فرجاً من الله وصنعاً، كما عمل به، وأنه يحيى القرية وأهلها، كما أحياه، فأراه بذلك، آياته، ومواقع صنعه. وقال عز وجل: «أليسَ اللّهُ بكافٍ عبدَهُ، ويخوّفونك بالذين من دُوْنِهِ». ولا والله لا نخاف أبدا بالذى دون الله من بشر فان ولو تأله بقوانينه الجائرة وقوات أمنه الغاشمة ومنافقيه ومدلسيه، نسلم لله أمرنا ولا نستسلم لحاكم أو رئيس جعل نفسه خالدا لا يرحل وملكا لا يرحم وفرعونا لا

يخشع، أنت تسأل ومن ينجينا ينجّيكم من ظلمات البرّ والبحر، قل الله ينجّيكم منها، ومن كلّ كرب، اصبرى يا مصر وثابرى، واعملوا أيها العاملون ضد فاسد ومستبد وسيمن الله علينا كما قال عز وجل: «ونريد أن نمنّ على الذين استُضْعِفُوا فى الأرض، ونجعلهم أئمّة، ونجعلهم الوارثين، ونمكّن لهم فى الأرض، ونُرِى فرعونَ، وهامانَ، وجنودهما منهم، ما كانوا يحذرون». لن يترك الله أناسا يعملون فى سبيله دفاعا عن الحرية فى مواجهة من يريدون مواطنى هذا البلد عبيدا لرئيسهم وحزبه وابنه من دون الله، الذين يدافعون عن الأمة وحقها فى القوت والرزق دونما سرقات ونهب وتبديد لثروة البلد واعتداء على المال العام، بيت مال الأمة، والذين يقاتلون ضد استبداد الحكم الذى جعل كل شيء رهن إشارة إصبع رئيس وتحت أمر رمشة من عين حاكم وجعله قادرا على أن يقول للشيء فى هذا الوطن كن فيكون كأنما يقتص من حق الله يقتل هذا ويسجن هذا ويدبر مكيدة لذلك ويعصف بهؤلاء ويعذب هذا دونما أن يرده قانون فهو مفصل على هواه ولا يردعه دستور فهو موضوع تحت قدميه، هذا النظام الذى جعل الحاكم سرمديا أبديا لا يمشى ولا يمضى إلا بالفناء وقدر القضاء، يتربع ربع قرن ويزيد دون إرادة الأمة التى زيفوا بيعتها، الذين يحاربون هذا الظلم وتلك الألوهية يبغون من الله عونا فيجيبهم، لينتبه هذا الشعب المبتلى بالظلم والقمع والحاجة والفاقة إلى أن الله لن يضيع عملهم إن عملوا لمواجهة هذا الظلم والتصدى لذلك الافتراء حتى ولو كان كثير منا خائفا جزعا قلقا على نفسه وأهله، قال تعالى: «ولنبلُّونكم بشيءٍ من الخوف، والجوع، ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات، وبشّر الصابرينَ الّذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا إنَّا لله وإنّا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون». أهناك غيرنا مبتلٍ بالخوف من الاعتقالات والتعذيب وتلفيق القضايا وتزوير الانتخابات وبطش حكم عجوز، أهناك غيرنا مبتل بفقر يصل لنصف المصريين وأكثر ومرض ممض يعشش فى أكبادنا وأجسادنا وتعتل منه جموع المصريين من فيروس سى وسرطان وفشل كلوى وكبدى وسكر وضغط، أهناك غيرنا لا يزرع قوت يومه ويستورد من الغريب والأجنبى ما يسد

جوعه من الثمرات، نعم نحن هؤلاء فمالنا إلا أن نهتف كما جاء فى الآية الكريمة: «وما كان قولهم إلاّ أن قالوا ربّنا اغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا فى أمرنا، وثبّت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين، فأثابهم الله ثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة، والله يحب المحسنين» صدق الله العظيم.

الانحناء لله!

يقول الرئيس مبارك إنه لن ينحنى لغير الله، عظيم جدا فقط الأمر يختلط على عقلى المحدود لهذا أسأل هل يعتقد الرئيس أنه مكلف بحكم مصر من الله تعالى فلا ينحنى إلا له أم من صناديق الانتخابات فلابد من الانحناء أمام إرادة الجماهير؟ إذا كان الرئيس يعتقد أن الله هو الذى اختاره ومن ثم يوجهه فهذه كارثة تؤدى بنا إلى أن مبارك يحكمنا بنظرية التفويض الإلهى وهو ما يبرر كذلك تمسك مبارك المذهل بحكم مصر إلى الأبد وحتى آخر نبضة فى قلبه كأنما كل ما نسمعه عن زهده فى السلطة كان هشيما تذروه الرياح وكل ما يردده عن تعبه وملله ورغبته فى الراحة كان فض مجالس وحوارات! ومع ذلك فأحدا لا يطالب مبارك إلا بما ألزم به نفسه على الأقل منذ أيام (دعنا مما ألزم به نفسه فى أول عهده وتراجع عنه تماما وبلا خفقة تردد وبلا ذرة من أسى مثل ترك الحكم بعد ولايتين وحكاية الكفن وجيوبه) ما ألزم به مبارك نفسه هو الانحناء لله عز وجل فهل الله يأمر بتعذيب المعتقلين والمساجين؟ هل الله سبحانه وتعالى يأمر بسجن الناس بلا محاكمات عشرات السنوات؟، هل الله عز وجل يأمر بإلقاء ٢٢ألف معتقل فى السجون وتعذيب المواطنين فى أقسام البوليس ومقرات مباحث أمن الدولة؟ هل الله سبحانه وتعالى يأمر بالتنصت والتجسس على الناس؟ هل الله الذى لا ينحنى مبارك إلا له يأمر الولاة بالإفساد فى الأرض وترك المفسدين ينهبون مال الله ومال الأمة؟ هل الله سبحانه وتعالى يأمر حاكما بأن يجعل شعبه فقيرا لا يجد اللقمة ولا ما يسد به جوعه؟ هل الله سبحانه وتعالى يأمر حسنى مبارك بمحالفة اليهود ضد المسلمين؟ هل الله عز وجل يطالبه بتأييد إسرائيل ضد حزب الله فى لبنان ويأمر بألا ينتصر مبارك للمسلمين وأصحاب الحق فى فلسطين وهل يأمر

الله بالفرار يوم الزحف وعدم الوقوف والتأييد والمساندة للفلسطينيين، هل يأمر الله مبارك بأن يقف على الحياد بين إسرائيل والفلسطينيين؟ هل يأمر الله بتسميم عبيده بالماء الملوث والطعام المسرطن؟ هل يأمر الله بموالاة الصهاينة؟ فى الأمم المحترمة وفى الشعوب الديمقراطية الرئيس ينحنى لإرادة الأمة وأصوات الشعب والرئيس المؤمن هو من ينحنى لمواطنيه كما ينحنى لله فى صلاته ويعبده إنما المواطنون هم أصحاب الحق على الرئيس والذى يريدونه يكون أما أن تكون قرارات الحاكم مرهونة بعلاقات سماوية فهذا يجعل نظام مبارك عاريا أمام الإخوان المسلمين تماما فإذا كان الكلام عن تقوى الله والحاكم القوام الصوام فالإخوان المسلمون أولى وأحق بالظاهر فليس لنا سوى الظواهر والبواطن لله سبحانه وتعالي؟، لكن متى كانت آخر مرة انحنى فيها الرئيس مبارك لله؟ هل هو يوم مد قانون الطوارئ؟ هل وهو يلقى الناس فى السجون؟ هل حين عين ممدوح مرعى وحبيب العادلي؟ هل وهو يعانق إيهود أولمرت؟ هل حين مات حوالى ألفين فى حريق قطار الصعيد وحوادث القطارات التالية أم حين غرق أكثر من ألف ومائتى مواطن فى حادث غرق العبارة؟ أم حين هرب صاحب العبارة ؟ أم حين ماتت ضحايا الماء الملوث؟ أم حين تم سجن أيمن نور وطلعت السادات وعصام العريان والمرحوم حسن الحيوان؟ متى انحنى مبارك لله فى غير الركوع والسجود فى الصلاة؟ لقد قال مبارك فى خطاب أمام مجلس الشعب إنه لن يخضع للضغوط ونحن لا نفهم ما الضغوط التى يتعرض لها مبارك بالضبط، ما ينوّر شعبه ويقوله، هل هى مطالبة الشعب بالإصلاح السياسى ورحيل نظامه عن الحكم؟ هل ضغوط القضاة لنيل استقلالهم والصحفيين لإلغاء سجنهم وضغوط أساتذة الجامعة لإنهاء سيطرة أمن الدولة على الجامعة أم ضغوط الصيادلة والأطباء والعمال من أجل حق العيش بكرامة وحرية، هل هى الضغوط المقصودة فعلا؟ أم ضغوط من أمريكا وإسرائيل والحقيقة أننا لا نعرف ما الذى لم يفعله مبارك قد يقلق الصهاينة والأمريكان كى يضغطوا عليه فهو عند الصهاينة قبل الأمريكان نعم الصديق العاقل المتعاون المعتدل، فما هى الضغوط التى يقصدها إلا دعوى

الإصلاح وكيف نقنعه بأن الله تعالى يريد الإصلاح السياسى لمصر ويأمر بالعدل والحرية وتحرير الناس من عبودية الحاكم للعبودية العظمى وهى عبودية الله عز وجل؟ كيف نقنع مبارك بهذا حتى ينحنى لله ويقبل وينفذ طالما أن إرادة الشعب والأمة لا تساوى عنده شيئا يستحق الانحناء، وإذا كان الأمر تدينا من الرئيس وخشية لله عز وجل فلماذا لم يقل لنا ويعمل كما قال وعمل الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنه وأرضاه وهو أكثر تدينا من مبارك وأعظم إسلاما من مبارك ومنا ومن حكام المسلمين جميعا حين قال «يا أيها الناس، إن كنتم ظننتم أنى أخذت خلافتكم رغبة فيها، أو إرادة الاستئثار عليكم وعلى المسلمين فلا، والذى نفسى بيده ما أخذتها رغبة فيها، ولا استئثارا عليكم، ولا على أحد من المسلمين، ولا حرصت عليها ليلة، ولا يوماً قط، ولا سألت الله سرا ولا علانية، ولقد تقلدت أمرا عظيما لا طاقة لى به إلا أن يعين الله، ولوددت أن أعدل عنها، هى إليكم ردة، ولا بيعة لكم عندى، فادفعوا لمن أحببتم، فإنما أنا رجل منكم» لماذا لم يطلب مبارك منا ما طلبه أبو بكر الصديق الذى لم ينحن صدقا وحقا ويقينا إلا لله فها هو ينحنى للشعب ويطلب ترك السلطة والحكم (استمر فى الحكم أكثر من عامين وأقل من ثلاثة أعوام) لم ينحن أبو بكر الصديق رضى الله عنه لغير الله ومع ذلك قال لمواطنى الأمة ما لم يقله مبارك ولم ينطق به أبدا، أبوبكر وهو خير منا ومن مبارك قال «راعونى بأبصاركم، فإن استقمت فأعينونى، وإن زغت فقومونى، وإن أطعت الله فأطيعونى، وإن عصيت الله فاعصوني»، إن من ينحنى لله عليه أن يعى ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ففى الحديث الذى رواه أحمد بن حنبل عن عوف بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن شئتم أنبأتكم عن الإمارة وما هي؟ فناديت بأعلى صوتى: وما هى يا رسول الله؟ قال أولها ملامة وأوسطها ندامة وآخرها خزى إلا من عدل..وكيف يعدل مع قريبه) وعن عوف بن مالك أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول (إنى أخاف على أمتى من أعمال ثلاثة، قالوا وما هى يا رسول الله؟ قال: زلة عالم وحكم جائر وهوى متبع) ويشرح لنا العالم الفقيه الشيخ

محمد الغزالى فى كتابه الإسلام والاستبداد السياسى (إنى لا أعرف دينا صب على المستبدين سوط عذاب وأسقط اعتبارهم وأغرى الجماهير بمناوأتهم والانقضاض عليهم كالإسلام ولا أعرف مصلحا أدب رؤساء الدول وكبح جماحهم وقمع وساوس الكبرياء والاشتهاء فى نفوسهم كما فعل نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم، لقد كسر القيود وحرر العبيد ووضع التعاليم التى تجعل الحاكم يتحرى العدل والمحكوم يكره الضيم، أجل لقد فعل ذلك كله وليس يغض- ينتقص- من حقيقته عمق الفجوة بين الحاكم والمحكوم فى بلادنا المريضة المهيضة، البلاد التى لا تعرف الدنيا اليوم أترف من أمرائها وأتقه من فقرائها). الانحناء لله أشق من مجرد كلمة بليغة والانحناء لله هو انحناء لحرية عباده ومواطنى الشعب والأمة، الانحناء لله هو عدم تولى الحكم مدى الحياة ولا الخلود على مقعد الحاكم والرئيس حتى آخر نفس، إن مبارك يؤكد ما هو مؤكد منذ زمن، أنه يتعامل مع الحكم على أنه حاكم أبدى ملهم لا راد لقضائه وأنه باق كالخلود على كرسى الحكم لا يتصور نفسه خارج كرسى الحكم مترا ولا شبرا ولا يرى أحدا حتى ولو ابنه جالسا على حكم مصر سواه وقد وصل إلى سن الثمانين من عمره ولا يريد أن يغير المادة ٧٧ فى الدستور التى تنص على رئيس مدى الحياة فهو يملك كما يبدو واضحا فى خطبه قناعة أنه يحكم للأبد، إن كلام مبارك وتصريحاته تعبير دقيق وعميق عما أسماه المفكر العظيم جمال حمدان فى مجلده (شخصية مصر) بالفرعونية السياسية، وهو ما يلخص ويشخص مأساة مصر السياسية المستمرة بلا انقطاع طوال التاريخ والمجسد بلا حياء (لقد صارت هذه الكلمة التعسة «السيئة السمعة» علما على الطغيان المصرى البشع البغيض فى كل مرحلة حتى وإن اختلفت التسميات والمسميات أو تطورت الأشكال والشكليات. فالسلاطين والمماليك فى العصور الوسطى هم كما أوشك المقريزى أن يضعها فراعنة ولكن مسلمون،، ومن هنا فلئن كانت مصر الطبيعية حديقة لا غابة فقد كانت على العكس بشريا غابة لا حديقة، إن كانت زراعيا مزرعة لا مرعى، فقد كانت سياسيا مرعى لا مزرعة للأسف. بالتالى فكثيرا ما كانت مصر إلى حد بعيد حكومة بلا شعب سياسيا، وشعبا بلا

حكومة اقتصاديا. وهذا ما يصل بنا فى النهاية إلى ذروة النظام.. وذروة المأساة أيضا لقد كانت مصر أبداً هى حاكمها، وحاكمها هو عادة أكبر أعدائها، وأحيانا شر أبنائها، وهو على أية حال يتصرف على أنه «صاحب مصر»، «ولى النعم» أو الوصى على الشعب القاصر الذى هو «عبيد إحساناته» والمصرى الوطنى الطيب هو وحده المصرى التابع الخاضع، إن لم يعتقد حقا أن المصرى لا يكون مصريا إلا إذا كان عبداً أو كاد! والحقيقة أن حاكم مصر طوال تاريخها الماضى إن لم يكن ينظر غالبا إلى الوطن كضيعته الخاصة وإلى الشعب كقطيع، فقد كان على أحسن تقدير يتبنى فكرة الراعى الصالح والرعية التوابع، أى فكرة الأبوة والأبوة العتيقة الطيبة أو القاسية بحسب الأحوال). هذه الرؤية الكاشفة التى قدمها جمال حمدان وقد انتهى من كتابه عام ١٩٨٤بينما كان الجميع يسعى لتمجيد مبارك والبحث عن مبررات لمهادنته ومنافقته والجلوس تحت قوائم كرسى حكمه والدخول فى حظيرة سدنته وأبواقه، كان جمال حمدان يعرف ويفهم وينذر ويحذر من هذه الفرعونية التى تتكون وتتشكل فى مبارك كما فى سابقيه مع اختلاف درجة الزعامة والكفاءة ويعود جمال حمدان فى الجزء الرابع من كتابه ليشرح لنا منظومة التحول التى جعلت مبارك يحكم ربع قرن ثم يؤكد أنه باق وقاعد وخالد على الحكم حتى آخر نفس يصدر من القلب (نعرف جميعا أن القلب آخر ما يتعطل فى جسد الإنسان وقد تتعطل قبله أعضاء أو وظائف أخرى وليس بالضرورة أن يكون الإنسان قادرا على العطاء حتى لو أنفاسه لا تزال تنبض) نعود إلى جمال حمدان ومنظومته التى يحللها على هذا النحو (وهكذا بقدر ما كانت مصر تقليديا ومن البداية إلى النهاية شعبا غير محارب جداً أو إلى حد بعيد فى الخارج، كانت مجتمعا مدنيا يحكمه العسكريون كأمر عادى فى الداخل. وبالتالى كانت وظيفة الجيش الحكم أكثر من الحرب. ووظيفة الشعب التبعية أكثر من الحكم وفى ظل هذا الوضع الشاذ المقلوب. كثيرا ما كان الحكم الغاصب يحل مشكلة الأخطار الخارجية والغزو بالحل السياسى وأخطار الحكم الداخلية بالحل العسكرى، أى أنه كان يمارس الحل السياسى مع الأعداء والغزاة فى الخارج والحل العسكرى مع الشعب

فى الداخل، فكانت دولة الطغيان استسلامية أمام الغزاة بوليسية على الشعب المصرى. من هذا وذاك ـ كيف لا؟ ـ جاءت لعنة خضوع الحكم العسكرى الاغتصابى الاستسلامى للاستعمار الأجنبى على المستوى الخارجى، ولعنة خضوع الشعب السلبى المسالم للحكم البوليسى فى الداخل وهى جميعا سلسلة متناقضات ساخرة بقدر ما هى قطعة من الاستمرارية المأساوية المحزنة المخجلة). ماذا ننتظر من حسنى مبارك إذن؟ لا شيء. لا إصلاح سياسى جذرى فهذا يهز عرشه. لا تعديل دستورى حقيقى يعطى كل مواطن حق ترشيح نفسه فهذا يهدد بقاءه فى منصبه. لا تقدم ولا تطور فاستقراره جمود واستمرار نظامه ركود! لا محاربة للفساد ولا نهاية للاستبداد. مبارك لن يفعل شيئا أكثر من الحفاظ على مقعد الحكم حتى آخر نفس يتردد للرئيس وليس مهما ساعتها أن يكون الوطن نفسه قد مات!

اختيار رئيس لمصر!

هل تعرف أن الرئيس السادات اختار مبارك نائبا وخلفا له لأن مبارك ضابط مجتهد ولا يشرب الخمر أو يلعب القمار ومن البيت للشغل ومن الشغل للبيت وبياكل كويس وبيلعب رياضة؟ هذه هى الأسباب التى قالها السادات رحمه الله وكمان مبارك.. أسباب بسيطة وطيبة وعادية جدا فكيف لمبارك أن يقول إن السادات كان محظوظا لأنه وجدنى بينما هو (مبارك) لا يجد من يعينه نائبا وكأن مبارك لا يعرف شخصا (وليكن ضابطا) مجتهدا ولا يلعب قمارا ولا يشرب خمرا وبياكل كويس! معقولة مصر خلت من صاحب مواهب وإمكانيات عظيمة (ونادرة) مثل هذه! لكن المشكلة ليست فيمن يختار مبارك بل لماذا يختار مبارك أو من سبقه من الرؤساء رئيسا وريثا لمصر؟، هذه هى الكارثة أن نترك رؤساءنا يتوارثون وطنا كأنه الضيعة وكأنه الضياع! قبل أن أقول لك متى قال الرئيس السادات هذه الأسباب التى اختار على أساسها مبارك تعال نذهب للرئيس جمال عبدالناصر لنعرف لماذا اختار السادات نائبا له، والغريب أن هذا السؤال يزال لا يراوح مكانه منذ تعيين السادات نائبا فلم نجد شيئا شافيا يجيب ولا سببا مهما يقنع، فلم يحك ناصر واختلف المحيطون به على الأسباب باختلاف عواطفهم تجاه الرئيس السادات بين كاره ومستكره، لكن المؤكد أن لدينا شهادة من الكاتب العظيم محمد حسنين هيكل عن اختيار عبدالناصر زكريا محيى الدين خلفا له بعد هزيمة يونيه ونية التنحى التى أعلنها ناصر، والطريقة التى اختار بها عبدالناصر زكريا محيى الدين ربما تكون ذاتها هى الطريقة التى اختار بها السادات فيما بعد وقبل أن أحكم على الطريقة دعنا نعرفها حسب رواية هيكل فى كتابه الرائع (كلام فى السياسة،عام من الأزمات)، يحكى هيكل عن كتابته لخطاب التنحى للرئيس

عبدالناصر الذى أوشك أن يعلنه للناس عقب هزيمة يونيو (كانت الساعة الآن الثامنة وعشر دقائق وسألنى: ماذا كتبت؟ لابد أنك وجدت صعوبة كبيرة فى كتابته؟ وقلت: إن معى الآن مشروعاً لا ينقصه إلا اسم من تراه قادراً على تحمل مسئولية الرئاسة بعدك.. قلت لى أمس إنك مع عبدالحكيم «عامر» اتفقتما على أن يكون شمس بدران هو الرئيس الجديد، ولابد أن أعترف لك أن ذلك «اتفاق» لم أستطع فهمه، إننى حتى لم أستطع فى المشروع الذى أعددته أن أكتب اسم «شمس بدران» فى موقعه من نص الخطاب ـ لماذا «شمس بدران»؟ ثم أضفت: أى رصيد لشمس بدران عند الناس وفى مثل هذه الظروف؟ رد جمال عبدالناصر: شمس مناسب من أجل الجيش.. الجيش بعدما جرى فى سيناء مجروح. ووحداته عائدة من الجبهة غاضبة، ولها الحق، والشعب هو الآخر سوف يصل إلى أقصى درجات الغضب عندما يعرف الحقيقة، والخشية أن يحدث احتكاك يعبر فيه الناس عن غضبهم، ويتصرف الجيش بجرحه، وتحدث مواجهة، مصيبة تزيد على مصيبة.. قلت إننى بصراحة لم أستوعب ما يقول وأضفت: شمس بدران واحد من المسئولين عما جرى بوصفه وزيراً للحربية، ثم هو من جماعة لا رصيد لها عند الناس، وإذا أصبح رئيساً للجمهورية فخشيتى أن غضب الناس سوف يزيد، وسوف يكون الصدام الذى تتحسب له بين الجيش وبين الناس حقيقة مؤكدة وليس مجرد احتمال متوقع. قال رداً على: إننى اتفقت بالأمس مع عبدالحكيم على اختيار شمس للأسباب التى قلتها لك) خدت بالك مبدئيا أن عبدالناصر قعد مع عبدالحكيم يعينوا لمصر رئيسا، كده لوحدهما بينما لا يملك أحدهما أن يختار لابنه عروسة بهذه الطريقة، مهما كانت مكانة وزعامة عبدالناصر وهى كانت حقيقية ومؤكدة لكنها لا تسمح بهذا اللغو والاستهتار باختيار رئيس لشعب ولا كأن الشعب هنا ولاحد سأله أساسا، وقد قيض الله لمصر رجلا حكيما مثل هيكل كى يشارك فى اختيار خليفة، كمل واقرأ يا سيدى (وجدتنى أقول لجمال عبدالناصر: على عينى ورأسى، أنت وعبدالحكيم فكرتما أمس داخل غرفة مغلقة وتحت ضغوط مخيفة تحيط بهذه الغرفة المغلقة، الأمور أكبر من ذلك

بكثير، هذا هو الآن مصير بلد بجيشه وشعبه. مضيت أقول: أنت قررت الاستقالة وهذا قرار سليم، وذلك قرار لا بديل له، والحل بعده، وهو منطق الأشياء، أن تعود الأمور بالكامل للناس، فيكون هناك رئيس مؤقت يلم أجزاء الموقف وشظاياه ثم يقرر الناس بعد ذلك ما يريدون فى استفتاء عام على أساس جديد ودستور جديد. قال جمال عبدالناصر: هل تتصور أن تداعى الحوادث سوف يترك لأحد فرصة لذلك.. لاستفتاء، ودستور؟......قاطع جمال عبدالناصر نفسه سائلاً: كيف تظن وقع الحقيقة على الناس عندما يعرفون.. عندما يسمعون ما سوف أقوله؟!. وأشار إلى ملف وضعته أمامنا على المائدة يحتوى على مشروع خطاب التنحى. وقلت: بالضبط.. وهنا عدم اقتناعى باختيار شمس بدران. وأحسست أنه يريد أن يسمع عن بديل مقنع، قلت: لماذا لا يكون بعدك زكريا محيي الدين؟ وقال مستغرباً: زكريا محيي الدين! وأضاف كأنه يصغى إلى صوت من بعيد «إشمعني»؟ قلت: خطر لى أنه الأقدم بين الأعضاء الباقين من مجلس الثورة، وهذا نوع من استمرار الشرعية، هو أيضاً رجل عاقل. قال: صحيح، لكنك لم تأخذ فى حسابك موقف الجيش ولا موقف الاتحاد الاشتراكى، قلت: الجيش يريد رجلاً يعطيه إحساساً بالاطمئنان بعد كل ما جرى. قال: والاتحاد الاشتراكي؟. قلت: تعرف رأيى فيه، ومازلت مقتنعاً به. قال وكأنه يتحدث مع نفسه: زكريا بالفعل رجل عاقل وموزون. أضاف وصوته يبدو قادماً من بعيد: زكريا أيضاً يمكن أن يكون مقبولاً عالمياً، خصوصاً فى الغرب، هو يعرفهم من زمن طويل، وقد تعامل مع كثيرين هناك عن قرب بعد الثورة، ومع الأمريكان بالذات، خصوصاً عندما كان فى المخابرات. زكريا يختلف عن غيره من القادرين على الاتصال مع الأمريكان إذا اقتضت الضرورات، هو سوف يباشرها من موقف وطنى، ذلك الاتصال فيما أظن سوف يكون لازماً، لكن هناك مشكلة، السوفييت. لاحظ أن موقف السوفيت سوف يكون مهماً لأى رئيس جديد. قلت: فى كل الأحوال فإن شمس بدران لا يمكن أن يكون رجل هذه الظروف. قال: اترك لى الفرصة أفكر.... أضاف: اترك الآن اسم الرئيس المقترح، ودعنا نقرأ

مشروع الخطاب الذى أعددته، وحين نصل فيه إلى الموضع المناسب نعود إلى المناقشة بمنطق سياق الخطاب. أحسست أن ذلك مطمئن، على الأقل لم يصمم على شمس بدران، وإذن أمامنا وقت قبل الوصول إلى يقين!) شفت الرئيس عبد الناصر سأل ليه زكريا وليه مش شمس وبدت الأمور كأنها فعلا تتم بمعزل عن الناس والدستور وكل هذه الاعتبارات، كأنها وظيفة فى دائرة حكومية وليست رئاسة مصر تتحدد فى جلسة بين صديقين وتبدأ بـ «إشمعني»، وتنتهى بـ «سبنى شوية أفكر»، ثم يعود بعدها هيكل بالخطاب للرئيس عبدالناصر وساعتها قال له عبدالناصر (لك حق فإن مسئولية المستقبل تقتضى رجلاً آخر غير شمس، زكريا اختيار معقول، وعندما كنت أنت تواصل القراءة كنت أفكر، وجدته على رأيك أنسب حل، هو عضو مؤسس فى مجلس قيادة الثورة، وهو أقدم الأعضاء الباقين إلى الآن، وطنى عقله منظم، يستطيع أن «يلم» الناس، يستطيع أن يحوز ثقة الجيش، سمعته طيبة بين القوات) ويصف هيكل (كنت أنظر إليه والقرار بأن يخلفه زكريا محيى الدين يصدر عنه فى زحام الكلام، وكانت نظرتى إليه بما معناه سؤالى عما إذا كانت تلك كلمته النهائية، قال: نعم، وأضاف: وأزداد اقتناعاً مع كل دقيقة....... فى عينيه الآن نظرة حزم، خطر لى أنه فى حاجة الآن إلى كل أعصابه. سألنى: متى نقول لعبدالحكيم «عامر»؟ أقدر أنه سوف يجن جنونه عندما يسمع أننى اخترت زكريا محيى الدين، سوف يظن أننى خدعته، وأنت تعرف أننى لم أخدعه. كان رأيى أن يترك عبدالحكيم ليسمع قراره مع إذاعة الخطاب، أى إخطار له قبل هذا الوقت قد يدفعه إلى عمل طائش. قال بصوت بدا قاطعاً: لا يستطيع أن يفعل شيئاً، الأمور تجاوزته، تجاوزتنا جميعاً. عاد جمال عبدالناصر يسألنى: لابد أن أقول لزكريا مبكراً حتى يستعد، أعرف أنه سوف يستهول ما ألقيه عليه، لكنه منضبط ولا يستطيع أن يهرب من واجب. سألنى أو لعله سأل نفسه: متى أقول له؟ كان ردى: بعد أن يسمعه فى الخطاب، لو عرف قبلها فقد يحاول الضغط لتغير قرارك. وافقنى. ثم عاد يقول لى: حاول أن تتصل بزكريا بعد إلقاء الخطاب، واشرح له ما يساعده على فهم الضرورات، وإذا وجدت رد فعله

رافضاً فأقنعه بتأخير إعلانه حتى ألقاه صباح غد) تخيل رئيس مصر المفترض سيعرف من التليفزيون، وتم اختياره فى جلسة بين اثنين (مع احترام وتقدير للقيمة السامقة لعبدالناصر وهيكل)، هل هكذا يتم تحديد مصائر البلد؟!، أظن بنفس الطريقة وذات المنهج تم اختيار أنور السادات نائبا ثم رئيسا، لا تسألنى عن الشعب ولا تفكر فى مؤسسات الحكم ولا تلتفت للأجهزة ولا تعير صناديق الاستفتاء (أو الانتخاب) أى قيمة، الحكاية كده، فردية وشخصية ومزاجية وندفع نحن الشعب بل نحن الأمة العربية ثمن اختيار رئيس سابق للرئيس اللاحق، ومع ذلك يبدو هذا الأمر أفضل كثيرا من الأسباب التى سردها السادات مبررا لاختياره حسنى مبارك نائبا، وحسب ما ذكره الكاتب الراحل الكبير عبدالستار الطويلة فى كتابه (السادات الذى عرفته) فإن السادات لم يسأل صديقا ولم يتشاور مع شخص ولم يطلب رأيا من أحد (الغريب أن الرئيس السادات لم يكتب فى كتابه الأشهر (البحث عن الذات) شيئا من أسباب اختيار حسنى مبارك نائبا كما لم نجد الكثير المذكور عنه فيما يخص مبارك) نذهب لكتاب عبدالستار الطويلة ونقرأ معا (سألته لماذا اختار حسنى مبارك نائباً للرئيس؟ ضحك ضحكة حلوة من ضحكاته العذبة وقال لى: سأقول لك.. أنا برضه كان يتخيل لى أنك ستسألنى هذا السؤال.. شوف حسنى عمل نجاحا كبيرا جداً فى الحرب.. وصحيح قوات الدفاع الجوى هى التى لعبت الدور الرئيسى فى إسقاط الطائرات فى الأيام الأولى للمعركة -الحمد لله هذه شهادة من السادات بأن النجاح فى الأيام الأولى للمعركة كان للدفاع الجوى وليست أول طلعة جوية فقط، الله يرحمك يا سيادة الفريق محمد على فهمى قائد الدفاع الجوى....معلهش ح نعمل إيه أجرك عند الله!!، نعود لكلام السادات وهو يواصل- لكن هو كل المعارك الحربية اللى دخل فيها الطيران المصرى مع الطيران الإسرائيلى انتصر فيها الطيران المصرى وكان الطيران المصرى قبل كده والطيارين المصريين كانوا بيخافوا ساعة ما كانوا يشوفوا الطيارة الإسرائيلية قادمة عليهم، حسنى عرف يربى سلاح الطيران، بحيث إنه يخلق كل يوم عند كل طيار شعوراً بالاعتزاز بنفسه وبالثورة (يقصد السادات ثورة يوليو

بينما لم يسمع جيلنا كثيرا عن إيمان مبارك بالثورة لكن الحمد لله كان بيقول لتلاميذه فى الطيران عنها!) والقدرة على قهر العدو الإسرائيلى، وبعدين هو شاب، وشاب ذكى وعارف شغله كويس ومستقيم أخلاقياً جداً، إنت عارف كثير من الطيارين بيعملوا إيه إنت ما تعرفوش يا عبدالستار.. حسنى ده سمعته زى البرلنت، فى الجيش أخلاقه ممتازة جداً، ودائماً زى ما إنت قلت عاوز يعرف ويتعلم، ومحبوب بين زملائه، ومالوش فى الطمع. وأنا لازم يكون لى نائب رئيس.. ماحدش عارف الأعمار بيد الله.) المفاجأة هنا أن الرئيس السادات اختار مبارك نائبا عام ١٩٧٥أى قبل اغتياله بست سنوات ومع ذلك كان متحسبا لأن الأعمار بيد الله وهو الأمر الذى لم يقلده مبارك فيه ورغم أنه يعرف كما المؤمنين جميعا أن الأعمار بيد الله فهو لم يعين نائبا ربما لأن أعمار الأوطان بيد الله أيضا، نعود لعبدالستار الطويلة وهو يقول (سألته وأنا أعرف أن الحديث يدخل منطقة شائكة... يعنى كان لازم يبقى نائب رئيس الجمهورية من الجيش.. هل إنت سيادتك بتشوف إن لازم إن المؤسسة العسكرية تستمر فى الحكم؟ فقال لى وهو يضحك: مؤسسة عسكرية إيه بلاش خيابة. يعنى إنتم بتوع الكلمات الكبيرة دى.. يعنى أنا مؤسسة عسكرية بقى يا سيدي؟ طيب وعبدالناصر أليس زعيم ثورة مع أنه عسكري؟ والله أنا أتضايق من الزى العسكرى أثناء الاحتفالات.. لو كان على أنا عايز أفضل بالجلابية والعباءة. قلت له بصراحة كده: يا ريس.. لكن حسنى مبارك البعض يقول إنه مالوش أى تاريخ سياسى وظروف السياسة حرجة الآن. رد أنور السادات وقال لى: ما هو علشان كده.. مالوش تاريخ سياسى هذه تمثل ميزة عظيمة.. أنا جبته علشان يشرب نوعية الحكم الجديد. سيلازمنى ويعرف القرارات تؤخذ إزاى.. يبقى فيه مرحلة المعرفة فى الأول.. يعرف القرارات دى تتعمل إزاى.. وبعد كده يشارك فى صنع القرارات هو ويصدر القرارات لوحده ومايبقاش متأثر بحكم الأحزاب القديمة وفساد العهد الذى مضى وفات(هل كان يقصد عبدالناصر أم الملك؟).. هو راجل نظيف وطاهر وشريف.. على فكرة.. أنا عايز أقول لك حاجة.. إيده نظيفة جداً.. لا يلعب قمار

زى كثير من ضباط الطيران.. ضابط الطيران يبقى قاعد فى القاعدة.. لا يعمل شيئا وفى الانتظار وراجل عايش على أعصابه لتلبية نداء الخطر وممكن يموت فى طلعة فيلعب دور كوتشينة للتسلية وتمشى معاه بقى بعد كده.. أو يتسلى بحاجة زى الأفلام السينمائية. حسنى لا يلعب ولا يسكر متماسك من شغله لبيته.. ومستقيم جداً.. وليس له متعة فى حياته غير إنه بياكل كويس ويلعب رياضة وكمان منوفى. سألته: هل حكاية أن حسنى مبارك منوفى تكون داخلة فى قرارك بتعيينه؟ فضحك وقال لى: أنتم ستسمونها الجمهورية المنوفية المتحدة.. أنا صحيح بأحب المنوفيين، وبأحب قريتى.. وبأحب أهل بلدى قوى.. لكن أنا لا أعين واحدا من الشارع فى منصب معين علشان هو منوفى!) هل توقفت مثلى عند المواصفات التى لأجلها اختار الرئيس السادات حسنى مبارك؟ أظنها سهلة التوفر وقد تنطبق على سبعين فى المائة من المصريين، لا يشربون الخمر ولا يلعبون القمار، نظيف طاهر شريف، وبلا أى تاريخ سياسى، سبحان الله ألهذه الأسباب يحكم رئيس بلدا مثل مصر أنه بلا تاريخ سياسى وأنه لا يشرب الخمر؟!، ألهذه الدرجة تصل الأمور عندما تكون فى يد شخص الرئيس يختار بهواه بل وبمزاجه وإحساسه وتفكيره؟!، لا وجود للشعب (شعب إيه بقى بيقولك بلا تاريخ سياسى دى ميزة!!) ولا تواجد للمؤسسات ولا أى حاجة، المواطن والوطن لا قيمة لهما ولا اعتبار ولا أهمية لاختيارهما، نجلس ننتظر وحيا يوحى على عبدالناصر أو السادات أو مبارك ونبصم ونوافق، البلد اللى يتعمل فيها كده تستاهل أن يحكمها ديكتاتور مستبد يستخف بشعبه ويتحكم فى مصائرهم بكلمة من طرف لسانه، شعب مسكين مضروب على ظهره (بلاش قفاه) كى يختار له رئيسه الشخص الذى يحكمه ويتحكم فيه بينما الشعب نائم على الكنبة قصاد التليفزيون، يختار الرئيس من يخلفه ثم يزورون الانتخابات أو الاستفتاء ثم يشرب الشعب من كيعانه، إيه الأوطان المريحة دي؟ لكن أجمل ما يمكن أن تسمعه فى حياتك هو سؤال عبدالستار الطويلة للسادات (سألته وأنا أحاول معرفة المزيد عن طريقة السادات ومقاييسه فى اختيار الرجال: متى يجيد حسنى

مبارك يا ريس فن الحكم إذن؟ قال: بيتعلم..) والحقيقة أننى لست مشغولا بسؤال هل تعلم مبارك فعلا فن الحكم؟ فيكفيه شرفا أنه تعلم فن البقاء فى الحكم فحكم أكثر مما حكم عبدالناصر والسادات معا لكن السؤال بعد كل هذا الألم: هل تعلمنا نحن؟

شـــــيوخ الفســــــاد والاســــــتبداد

نزل من الطائرة الشيخ ذو اللحية الخفيفة المهندمة والذى يرتدى بدلا عصرية فى برامجه وأمسياته أحيانا وفى لحظات وبرامج أخرى يرتدى الجلباب والطاقية البيضاء ممسكا بالسبحة (أنا أقلق كثيرا ممن يتكلم وفى يده سبحة!) فوجئ الشيخ برجال أمن ينتظرونه ويرمون به فى سيارة مع لكمات وشلاليت مفاجئة وحبسوا ضلوعه بين قبضاتهم وألبسوه عصابة سوداء على عينه ودفسوا وجهه بين فخذيه، كان مذهولا ومبعثرا تماما، منذ دقائق كان فى الدرجة الأولى فى الطائرة القادمة من الجزيرة العربية يحيونه الناس على برامجه وتسأله المضيفة عن فتوى ويراجع أحد الركاب معه تفسيره للآية القرآنية التى تعرض لها فى حلقة الأسبوع الماضى على الهواء مباشرة، وفجأة دون حتى ما يتكلم معه أحد، من غير أن يعرفه شخص بنفسه، أخذوه وكبلوه ودفسوه فى السيارة مكمما ومعميا ومع الضرب على القفا والوخز والركل وسبه بالأم والأب شعر بذل مريع وهوان كاسح بدد روحه ومزق أى مقاومة له، المدهش أنه عرف فورا أنهم رجال أمن الدولة،.هل من طريقة التعامل هل من قسوتهم هل من الكلمات التى تصدر منهم توحى بمعرفة ما لايعرفه أحد هل من تعمد الإهانة والكسرة هل من سابق خبرته معهم، المشكلة بالنسبة له أن رجال مباحث أمن الدولة يعرفون جيدا أنه بتاعهم، بل لا يتكلم إلا بما يحبون ولا يتحرك إلا بما يوافقون ولا يفتى فى تليفزيون أو إذاعة أو أمسية أو ندوة إلا بأوامرهم، هو يزورهم باستمرار ويتلقى نصائحهم على أنها أوامر بل واستضافه أكثر من عميد أو عقيد فى حفل ختان حفيده أو فى قراءة فاتحة أو كتب كتاب ضابط شاب، وهو كذلك لا يبخل عليهم بهداياه سواء يتقاسم معهم هدايا قادمة من أمراء أو أميرات أو مشايخ الخليج والسعودية أو هدايا بمناسبة

تسهيلات بزنسة المقاولات التى يعمل بها سواء تصريح هنا أو رخصة هناك أو حتى إعادة رخصة قيادة سيارة مسحوبة، منذ بدأ عالم الصعود التليفزيونى وتم دخوله فى الدعوة الإسلامية والفتاوى التليفزيونية أو التليفونية وهو بتاعهم فهى رسمى نظمى، ليس هناك أكثر من جلسات الفتوى فى مكاتب أمن الدولة حين يدور الحديث عن الزكاة أو الميراث وعندما يجيب على أسئلتهم بجملة " شوف يا فلان باشا الإسلام سمح وسهل " ثم يسهلها الرجل وفق الهوى وحسب الهواية خصوصا حين يذهب الكلام الى الجنس والنساء والزنا وأنواعه ويتندر معهم على حكايات يشوبها بعض الخجل عن بعض الأوائل فيما يخص الجنس والنساء، كل هذا يتبدد الآن فى لحظة، فى ثانية، حين يصل بعد دقائق إلى مبنى جديد فخيم لأمن الدولة (ليس فى لاظوغلى) يحتوى على أربعة أدوار تحت الأرض مزود بتكنولوجيا متقدمة وسرية محكمة ومساحات فسيحة من الرهبة والوحشة، توقع أن يتوقف الإذلال عند مكتب رتبة كبيرة تهزؤه وتخبره بسر ما يحدث ويعتذر ويمضى لكنه فوجئ بإدخاله زنزانة مظلمة ثم تمتد الأيدى لتعريه تماما، وتماما يعنى تماما، بلا لبس ولا لباس يستره، ثم انهالوا عليه بعصيان كهربائية توخز جسده وأعضاءه التناسلية، ودلق ماء رهيب عليه وهو يهمهم : أنا عملت إيه بس ؟

وهم يردون : مش عارف عملت إيه يا.......(وتوقع أنت كل البذاءات الممكنة وضع الكلمات الفاحشة المناسبة مكان النقط).

بالمناسبة كان هذا فى رمضان، وألقى الشيخ فى الزنزانة ثلاثة أيام وليالى عاريا ومضروبا ومذلولا ومهانا...تتناوب عليه الدوريات فى الضرب والركل والاعتداء..وفى اليوم الرابع صعدوا به للباشا.

أول ما دخل عليه المكتب تذكر أنه صلى إماما فى هذا المكتب بهذا الباشا وعدد من مرؤوسيه الضباط وكانت صلاة العشاء وأنه تجلى فى الترتيل فأثار إعجابهم لحد مبهر، (لكنه نسى الآن أين هو اتجاه القبلة)، رموا به على الأرض أمام الباشا الضابط، نظر له الشيخ فوجد وجها غليظا وملامح قاسية وكارهة فانهار الشيخ بالبكاء كالطفل أو أشد ضعفا، بكى وبربر وغرغر وصوت كالنساء وقال

منتحبا:

- أنا عملت إيه بس ياباشا، ده أنا راجلكم، وكل حاجة عنى إنتوا عرفينها وعمرى ما قلت كلمة ضد النظام ولا الدولة..

فشخط فيه الضابط :

- وأنت تقدر يا روح أمك..

فأجاب متذللا:

- ما أقدرش ولا أوعى ياباشا ..

فقال له الباشا:

- خلاص قوم اقعد على الكرسى يا شيخ ياعرة يامهزأ، ده أنا كنت باحترمك وولادى بيتفرجوا عليك ومراتى كلمتك فى برنامج قبل كده عشان فتوى، لكن دلوقت بعد اللى عملته خلاص ولا ح أصلى وراك حتى.. بتزنى ياشيخ..

انتفض الشيخ:

- أنا عمرى ما أزنى ياباشا ..

- أمال لو مكناش مصورينك..

رد وكأنه نجا:

- يعنى الحمد لله الشرايط عندكم وعارفين إلا القلم فى المحبرة..

ضحك الباشا فأحس الشيخ أنه قد جاءه الفرج..

- عموما احنا بنأدبك عشان حكاية الأميرة..

- يا نهار اسود دى هناك مش هنا..

فحسم الضابط الحوار:

- ليه هوه أنت فاكر إن هناك مش منفد على هنا، أمال أحنا عارفين الهدايا الذهب منين والشيكات والجواهر وقعدات القصور وبعدين مش عايزين ولا كلمة ناحية السياسة..

- عمرى ياباشا إلا لو كانت بتأيد سياسة البلد بالحديث الشريف والسنة المطهرة والآيات المحكمات.

رد الضابط الكبير:

- قعدت تمجدهم هناك إنهم كعبة السياسة وحراس الإسلام أمال أحنا مين يا شيخ يا عرة دا أحنا خير أجناد الأرض، خليك فى فتاوى النسوان والحريم وبطلان الطهارة وامسك نفسك شوية اليومين دول..

ثم ضغط على الجرس بجواره وطلب أن يحضروا ملابس الشيخ وحقيبته التى جاء بها من السفر ويعيدوا له تليفوناته المحمولة، حين خرج من مكتب الضابط وجد وجوه الضباط الأقل رتبة تبتسم له وتودعه بجملة واحدة..

- ادعى لنا يا مولانا..

المدهش أنهم قالوا له إن الإفراج عنه جاء مبكرا يوما كاملا من أجل أن يلحق ببرنامجه الأسبوعى وظهر الشيخ الداعية فيه وأخذ يطلق فتاويه بنفس الحماس ولم ينس أن حشر فى كلامه شيئا عن طاعة أولى الأمر فقد كان واثقا أن الباشا الكبير يتفرج عليه أو ربما سيشاهد الشريط صباح اليوم التالى فى مكتبه..

أخشى أن أقول إن هذه الحادثة صحيحة تماما وبلا تزيد وأرويها نقلا عن شهود رئيسيين، لكن أخشى ما أخشاه أن هذه الحادثة هى مفتاح فهم ساحة رجال الدعوة الدينية وشيوخ ودعاة هذه الأيام التى أمم فيها رجال الأمن الدعوة إلى الله، فقد تصور جهاز الدولة المصرى وهو جهاز خدام للديكتاتورية أن مقاومة الإرهاب ومواجهة المعارضة تحتاج إلى الدفع برجال دين يسيطرون على الدعوة ويقدمون صورة ومفهوما لإسلام تابع للدولة ومقدس للرئيس ومهدئ ومخدر لأى غضب، ورغم أن تجنيد رجال الدين فى خدمة السياسة والحكام أمر متعارف عليه منذ زمن لكن ذلك كان يتم فى سياق ما من الاحترام لرجل الدين والاحتفاظ بوقار لازم فى التعامل مع أى شيخ ولو كان مخبرا للدولة والأمن، ويحتفظ الحاضر السياسى المصرى بأسماء شيوخ على علاقة وثيقة كأنها علاقة العمل تماما مع الجهاز الأمنى، لكن المستوى فى هذه المرحلة انحدر من الناحيتين، الأمن والشيوخ، وصارت العلاقة واضحة فاضحة والتبعية قائمة على مذلة رجل الدين فى مواجهة رجل الشرطة، ولعل القراءة السريعة فى دفتر أحوال شيوخ هذه الفترة

تكشف عن شيوخ متهمين بالنصب أو ضرب زوجاتهم أو غصب أموال، أو زنا محارم، أو تزوير فى أوراق رسمية، ويتعامل معهم ضباط أمن الدولة كأنهم عساكر لديهم وقد كسروا أعينهم وجرحوا شخصيتهم وابتزوهم بالفضائح أو بالقبض عليهم لتنفيذ عقوبات الفضائح ومع ذلك فهؤلاء حضورهم طاغ ووجودهم الإعلامى والتليفزيونى ساحق ماحق ويغمرون برامج الفضائيات ويمطرون الندوات والأمسيات!

إلى جانب هؤلاء هناك الطاقم القديم من الشيوخ ممالئى الدولة ومتعاونى الأمن وهم الرسميون الذين صعدوا إلى أعلى المناصب ويخدمون الدولة بالفتاوى والمبايعة ويحصلون على الترقيات والتصعيدات ومكافآت المناصب الشرعية والتشريعية ولعل فى مقولة الفقيه العظيم «سفيان الثوري» رضى الله عنه ما يفصل ويفسر حين قال : "ما أخاف من إهانة السلاطين لى إنما أخاف من إكرامهم فيميل قلبى إليهم".

من هنا كادت تخلو مصر من مشاهير العمائم المستقلة القيمة المحترمة السامقة الشامخة ورحبت وأفسحت الساحة الإعلامية الدينية والوعظية لعمائم أمن الدولة وشيوخ رجال الدولة واستحكمت القبضة على أعناق المصريين بين عمائم السلاطين ووعاظ الرئيس ومشايخ فتاوى السلطة. من جهة وشيوخ الإرهاب والتطرف والجهل من جهة أخرى بل يتشارك شيوخ السلطة مع دعاة الإرهاب على إلغاء قيمة العقل والفكر والاجتهاد فى الإسلام لصالح الطاعة المطلقة لغير الله من ولاة الأمر سواء كان السيد الرئيس ورجاله أو السيد أمير الجماعة وأتباعه، وضاع العقل المسلم فى الساحة المصرية أو يكاد بين خزعبلات تسوقه إلى الجهل وخرافات تقوده إلى التطرف.و عندما تفقد الأمة العالم الجليل المستقل وتسلم نفسها لرجال الدين من خدم الاستبداد وعمائم الفساد فإن العقل المسلم ينفصل عن العصر ويتراجع وينسحب عن العلم والتقدم والتطور ويتقلص العقل أمام الخرافة ويتضاءل العمل أمام التواكل ويتعاظم الدعاء على الأعداء وليس الدعوة إلى مواجهة الأعداء، وقد بات القاسم الأساسى هو إلقاء اللوم على النصارى والغرب

الصليبى ويتم تلخيص الصراع العربى الإسرائيلى بأنه صراع مع أحفاد القردة والخنازير وهذا ما يذهلك من جراء استهبال واستغفال هذا الشعب لنفسه فإذا كان اليهود هم أحفاد القردة والخنازير كما ندعى ونزعم وقد فعلوا فينا كل هذه المرمطة والهزائم المنكرة فمن نكون نحن ساعتها، أحفاد الأرانب والكتاكيت أم أحفاد النمور والأسود (أفتح قوسا لأذكر أن الآية الكريمة (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) (سورة البقرة آية ٦٥) كانت تحكى عن قرية يسكنها يهود فى طبرية أو الطور اصطاد بعض أبناء هذه القرية فى يوم السبت المحرم دينيا على اليهود حيتانا - قد لاتكون الحيتان المعروفة عندنا - فعاقب الله المخالفين بتحويلهم إلى قردة وخنازيرٌ بين يوم وليلة وبعض المفسرين يعتقدون أن الله مسخ قلوبهم فصاروا كالقردة والخنازير فى مشاعرهم وسلوكهم وليس فى صورهم وأشكالهم التى بقيت كما هى ولكن شرحت لنا معظم التفاسير (راجع تفسير ابن كثير تحديدا) إن هؤلاء القلة العاصية المغضوب عليها من ربنا قد هلكت وماتت وأفنيت تماما بعد ثلاثة أيام وعاش بقية أهل القرية من اليهود الذين لم يعصوا الله فى أمان وخلفوا صبيان وبنات ولا قردة ولا شمبانزى..وأغلق القوس) وها نحن قد عشنا وشفنا بفضل شيوخ وعمائم الفساد والاستبداد اختصار الدين وشعائره فى الجلباب القصير واللحية المشعثة والسواك والميكرفون وليس غريبا أن يتحول الميكرفون إلى سلاح تدين فى واقعنا المصرى، فالخطباء يصرخون فى الميكرفونات وكلما كان صوت المؤذن (وهو فى الغالب بواب العمارة) مرتفعا كلما كان أقوى إيمانا وكلما أذاع إمام الجامع (وهو غالبا ضابط متقاعد) الصلاة على الهواء مباشرة بالميكرفون للعمارات المجاورة كلما كان أكثر تقوى مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعرف الميكرفون ولا أمر به، ثم لماذا ينفرد الميكرفون دونا عن أى اختراع آخر عند المسلمين بعدم وصفه بالبدعة وكل بدعة ضلالة؟ ثم من يتأمل الأسئلة التى تتدافع من أفواه المشاهدين طالبى الفتوى فى الفضائيات يجد كارثة للعقل المصرى والمسلم الذى احترف الصغائر وانحشر فى التفاهات وسيطر عليه فقه دورات المياه وبات المصريون وكأنهم

يطلبون من الشيوخ فتاوى جنسية ونصائح لأفضل أوضاع الفراش وإمتاع الزوج أو الزوجة وغاب وعى النهضة واستحضار روح الأمة الوثابة للإعمار والتقدم بين الأمم.

المؤكد أن الإسلام الشكلى المعتمد على الطقوس والمظاهر وقشور التدين وصغائر الأمور هو الذى ساد فى البلاد إلى جانب الإسلام المتشدد المتطرف الذى يكفر الجميع مسلمين ومسيحيين على السواء!! ويدعم الإرهاب والدموية ويقدم المسلمين وقد جفت منهم الرحمة وراحت عنهم إنسانية الإسلام، كل هذا لأن شيوخ وعمائم مصر تحديدا أصبح وكأن لهم رتبا فى أجهزة المباحث والأمن..وصار لا يخشى الله من عباده العلماء بل يخشى أمن الدولة من عملائه العلماء..ومازلت أذكر الشيخ الذى يتولى منصبا هاما حين طلبت منه الظهور فى برنامج تليفزيونى أعد لتقديمه عن فوائد البنوك فأجابنى بسرعة وبساطة:

- "عايزها حلال ولا حرام "..

فأجبته مبهوتا:

- أنا مش عايز حاجة، شوف ربنا عايزها إيه يا دكتور..

فرد واضحا:

- أصل أنا مش عايز أزعل شيخ الأزهر.

إنك ميت

سيادة الرئيس مبارك، سأقول لك ما لم يقله لك مفتيك ولا شيخك ولا خطباؤك ولا فقهاؤك الذين عينتهم وأجلستهم بجوار كرسى عرشك، يبررون ويحللون ما حرمه الله من تعذيب واعتقال وفساد واستبداد ويحرمون ما حلله الله من قولة حق أمام سلطان جائر أو حتى عادل، وسأقول لك ما لم تسمعه من بطانتك التى تنافقك وتمتدحك وتصعد بك إلى مصاف الأبرار المقدسين ولا تنطق إلا بآيات شكرك وحمدك على مناصبهم ونفوذهم وفلوسهم، سأقول لك ما لم تقرأه من كتبتك ومداحيك وطبالى مواكب نفاق السلاطين ومصاحبيك على جناح طائرتك وعرشك، أقول لك سيادة الرئيس إنك ميت... وإنهم ميتون!

أظن أنه فى زحام سلطانك وسلطاتك وفى مشاغل لقاءاتك وتدابيرك وقراراتك ربما نسيت يا سيادة الرئيس أو تناسيت أو تجاهلت أنك ستموت كما سنموت جميعا، فأنت لم تفعل مثلما فعل الفاروق عمر بن الخطاب وهو أمير المؤمنين بعد نبى وخليفة حين نقش على خاتمه هذه الكلمات: (كفى بالموت واعظاً ياعمر) عمر بن الخطاب الذى كان يبكى عند سيرة الموت وهو الصحابى العظيم كان يذكر نفسه وهو الحاكم الآمر الناهى بالموت، كفى بالموت واعظا يا سيادة الرئيس، هل قلتها لنفسك من قبل، هل وعيتها ورددتها؟ ما هى آخر مرة قلت إن الكفن بلا جيوب، تعرف متى، منذ خمسة وعشرين عاما، قلتها فى خطبتك الأولى أمام مجلس الشعب ثم كانت آخر جملة قلتها أمام نفس المجلس وربما ذات الوجوه أنك باق فى الحكم حتى آخر نفس ومع آخر نبض، أين ذهبت سيرة الكفن الذى قلت إنه بلا جيوب ثم انفتحت جيوب الوطن والمسئولين كأنها لن تعرف موتا ولا كفنا، فالبقاء فى الحكم ستة وعشرين عاما تأمر وتنهى وترمى

هؤلاء فى السجون وأولئك فى الغياهب وتمنح مليارات وتمنع ملايين وتعين وتفصل وترفع وتخفض ويمضى قرارك وحكمك فى الناس سيفا قاطعا ولا يناقشك أحد ولا يردك راد ولا يقضى قاض على قضائك، ولا يملك شخص أن يعارضك ويرفضك ويسبح كل من تلقاهم بمجدك وحمدك مما يجعل أى شخص فى مكانك ومكانتك ورغم سنك التى قاربت الثمانين ينسيك الموت، نعم، السلاطين والرؤساء الأبديون ينسون الموت وهذا ما يفسر هذا التمسك المريب بالمادة ٧٧ فى الدستور التى تجعل الرئيس أبديا فى الحكم بلا حد أقصى (مدتين فقط)، فأنت شأن كل الرؤساء الذين يمكثون فى السلطة كل هذه السنوات صرت لا تتصور أن تنزع قميصا ألبسه الله لك كما يتخيل كل حاكم وملك يتمتع بسلطة مطلقة على شعبه الخانع الخاضع، ولهذا كان خلفاء المسلمين مثل هارون الرشيد يستدعى واعظا كل مدة فقط ليذكره بالموت، يقول له يا هارون يا رشيد يا خليفة المسلمين وسلطان نصف الكرة الأرضية أنت ستموت، كان هارون الرشيد يسمع ابن السماك الواعظ المشهور الذى قال له: «يا أمير المؤمنين.. اتق الله واحذره، لا شريك له، واعلم أنك واقف غدا بين يدى الله ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما، جنة ونار» فبكى الرشيد (أخيرا لقينا حاكما عنده دم!) فأقبل الفضل بن الربيع - أحد بطانات الحاكم - وقال للواعظ معاتبا «سبحان الله. هل يخالجك شك فى أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله، لقيامه بحق الله وعدله فى عباده».. هاهو شخص تراه سيادة الرئيس فى صور كثيرين ممن حولك نجدهم بيننا يصعدون بالحاكم إلى مصاف الأنبياء المرسلين الذين يتلقون إلهاما ولا يخطئون أبدا ولا يسألهم أحد عما تفعل، وأشك كلية أنك قد سمعت أحدا من حولك يقول لك إنك أخطأت يا سيادة الرئيس بل إنك لم تعترف أبدا ولم تقل أصلا إنك أخطأت فى كذا وكذا فى يوم من الأيام ولم تعترف ولم تعتذر فاسمع تحذير وحذر الموت ولا تستمع لتخدير وخدر النفاق، دعك من النفس الأمارة فما بالك بنفس رئيس يحكم خمسا وسبعين مليونا لمدة ست وعشرين سنة ولا يسمع منهم كلمة لا، اطرد غواية خيلائك وغرور إحساسك بالبقاء والخلود من طول سلطتك

وانفرادك بالحكم، فأنت ميت وهم ميتون، سيدى الرئيس (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ) «سورة الجمعة: آية٨»، وتذكر يوم مات الرئيس جمال عبدالناصر فى ساعة زمن بين دخول بيته مرهقا ثم صعود سلالم ثم صعود روحه إلى بارئها فى لحظة خلت من الزعامة والرئاسة، اعتبر من مقتلة الرئيس السادات حيث كان فى بروجه المشيدة وحصونه المنيعة وجاءه الموت، لا نتمنى لك هذا ولا نريده فلا حاجة لمصر بإرهاب وقتل ولكن الموت قادم فى فراشك كما فى طريقك كما فى مكتبك لا تعلم بأى أرض تموت، ولكنك ونحن سنموت فتذكر وأنت فى خطبة مجلس شعب أو فى جلسة مع ترزية الدستور وتعديلاته أو فى اجتماع مع وزير داخليتك ووزير عدلك وأنت تتحكم فى مصائر البلاد والعباد تذكر قول الله عز وجل: (كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يوْمَ الْقِيامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ وَما الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاّ مَتاعُ الْغُرُورِ) «آل عمران: آية١٨٥» زُحزح عن النار يا سيادة الرئيس فبيننا وبينها زحزحة إما فيها وقانا الله وإياك جحيمها وجهنمها وإما نتزحزح لننجو ونفوز بالجنة وعدنا ووعدك الله بها وسائر الناس، لتردد قبل كل خطاب أو قرار هذه الجملة القرآنية فمن زُحزح عن النار، ساعتها ستراجع قرارا وتتراجع عن كثير من متاع الغرور فى قصر العروبة أو شرم الشيخ أو فى مبنى لاظوغلى أو فى مقر الحزب الوطنى بكورنيش النيل، فقد تنجو قدم من نار وقد تفوز عين بجنة، وهذا ما أتمنى أن تسمعه يا سيادة الرئيس محمد حسنى مبارك: أنك ميت وهم ميتون،الموت كما قال السابقون هو المصيبة العظمى والرزية الكبرى وأعظم منه وأخطر الغفلة عنه والإعراض عن ذكره وقلة التفكير فيه، قد يطول العمر ولكنه قصير، قد تزيد المدة ولكنها سريعة فاحتسب لنفسك يا مبارك بلا ألقاب ولا أوصاف كما ستُنادى يوم القيامة، «(إِنَّهُ مَنْ يأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يمُوتُ فِيهَا وَلا يحْيى) (سورة طه آية ٧٤) حيث لا حرس شرف ولا تشريفات ولا مواكب تعطل مرور الناس ولا قناصة ولا موتوسيكلات ولا أجهزة لاسلكى ولا هيبة ولا رهبة ولا صف من كبرات البلد الذين وضعتهم على رقاب الناس ينتظرونك ولا سائق تقول له لف وارجع، ولا

عسس ولا مخبرون ولا مخابرات ولا أمن دولة، لن يحرسك حبيب العادلى ولن ينحنى أمامك فتحى سرور ولن يقف خلفك ابن فى وقفة طاووسية ولن يرتجف رئيس وزراء فى حضورك ولن تصل رأس مفيد شهاب حتى يديك ولن يمنع عنك زكريا عزمى صخبا ولا غضبا، ستكون وحدك تماما أمام الله عز وجل،(لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)(النجم الآية٣١) فبئست الدار لمن اطمأن عليها وهو يعلم أنه تاركها وقد وصفها الله ووصف الزعامات والأمراء والعالين فى الأرض بقوله سبحانه (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ) (الشعراء:١٣٠). ومعنى كلمة آية كما جاء فى تفسير الطبرى هى البيت الشاهقة والعلامات البارزة وتعبثون بمعنى تلعبون وتلهون، أما مصانع فمعناها القصور الضخمة، ستترك كل هذا وتبقى وحدك بلا سطوتك ولا عزوتك ولا سلطتك ولا عرشك وحرسك ولا أولادك ورجال أعمالك ولا أصدقاءك أو وزراءك، لا أحد، روى مسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال صلى الله عليه وسلم: «يطوى الله عز وجل السماوات يوم القيامة بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك! أين الجبارون أين المتكبرون؟ ثم يطوى الأرضين بشماله ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون...».

ستكون أنت وحدك أمام الله سيسألك عن هؤلاء الذين ماتوا فى سجونك وأولئك الذين قتلهم رجالك وقراراتك وقوانينك وعن ملايين الجوعى من شعبك وعن الفقراء محدودى الدخل الذين اضطرتهم فترة حكمك للفساد والرشوة حتى يطعموا أطفالهم، وعن سرقة مال الأمة وعن موالاة اليهود والأعداء وعن صحة شعبك التى اعتلت وعن وباء الفيروس سى والتهاب الكبد فى عصرك وعن السرطان والسموم التى زرعها رجالك فى غذاء عباد الله وعن ماء تلوث وعن غرق وحرق وعن وطن تخلف وعن منافقين تحلقوا حولك وبطانة سوء وشر تمكنت من شعبك واحتلت قصرك (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) (الأنعام:٩٤). سيسألك الله

ويحاسبك ولن ينفعك دستور وضعته أو عدلته لصالحك ولمصلحتك، فدستور الله هو الذى سيحاسبك وصراط الله الذى سيمتحنك، فاذكر وتذكر، المشكلة أن الرئيس الذى يسعى للخلود على مقعد ومال وسلطة فى الدنيا يبتعد عنه الخلود فى التاريخ، وقد يقترب منه الخلود فى النار والحاكم الحق هو الذى يفر من استمراره فى الإمارة والرئاسة وليس من يصر عليها ويتشبث بها، يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم (إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة فنعم المرضعة وبئست الفاطمة) (البخارى الحديث رقم ٧١٤٨ كتاب الأحكام) هذه هى الحكمة النبوية المعطرة حين تكشف عن أن أمراء سوف يحكمون وهم حريصون على البقاء فى الحكم ويحذرهم بأنها ستكون ندامة فى يوم القيامة ألا يستحق هذا أن تتأمل سيادة الرئيس فالبخارى الذى أورد الحديث ليس إخوانيا ولا عضوا فى الجماعة المحظورة حتى تنفر منه أو يقبض عليه وزير داخليتك لأنه تجرأ وروى حديثا يحذر حاكما وحكاما من أن الحرص على الإمارة سيؤدى للندامة يوم القيامة وهو قريب منك ومنا وإن بدا بعيدا عن رئيس يتمتع بالسلطة والخلود على المقعد، وعن أبى موسى رضى الله عنه قال: دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم أنا ورجلان من قومى فقال أحد الرجلين: أمرنا يا رسول الله (أى اجعلنا أمراء) وقال الآخر مثله فقال رسول الله: «إنا لا نولى هذا من سأله ولا من حرص عليه (البخارى حديث ٧١٤٩) هذا صوت رسول الله يأتيك كما يأتينا ويأمرنا كما يأمرك بأنه لا ولاية ولا إمارة لمن يطلبها بل ولمن يحرص عليها، فهل هناك أحق من رسول الله حين يقضى ويقرر بأن الحاكم الأمير لا يبقى للأبد فى حكمه فهذا حرص من الحاكم على الإمارة يستوجب نزعها منه وعدم تكليفه بها.
سيدى الرئيس تهيب وتأهب للموت وليوم القيامة واعمل حسابا لتلك الساعة الآتية مهما فعلت ومهما وصل حكمك ومهما بلغت سلطتك، قد تسجننا وقد تسجن مصر كلها لو أردت، قد تمنع وتصادر وتغلق أفواها وصحفا وأحزابا، قد تعدل دستورا وتزور استفتاء، لكنك ستموت كما يموت البشر وستترك هذا كله كما تركه الفانون من قبلك ولن ينفعك بذرة وسيكون حملا عليك يوم القيامة يحيط

بك ويلاحقك وأنت أمام المولى عز وجل، لن نراك ولن نعرفك ساعتها وسنكون مشغولين بمصائرنا بين يدى الرحمن لكنك ستكون وحدك وقد نزعنا عنك حجتك يوم القيامة أن تقول للمولى سبحانه وتعالى إن أحدا من خلقه لم يقل لك وينصحك ويذكرك، بل قلناها لتسمعها (يوْم يفِرّ الْمَرْء مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يوْمَئِذٍ شَأْنٌ يغْنِيهِ) (عبس آية ٣٤ ـ ٣٧) وقد جاء فى تفسير الطبرى عَنْ عَائِذ بْن شُرَيح عَنْ أَنَس قَالَ: سَأَلْت عَائِشَة رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: يا رَسُول اللَّه بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّى، إِنِّى سَائِلَتك عَنْ حَدِيث أَخْبَرَنِى أَنْتَ بِهِ، قَالَ: «إِذْ كَانَ عِنْدِى مِنْهُ عِلْم» قَالَتْ: يا نَبِى اللَّه، كَيف يحْشَر الرِّجَال؟ قَالَ: «حُفَاة عُرَاة». ثُمَّ اِنْتَظَرَتْ سَاعَة فَقَالَتْ: يا نَبِى اللَّه كَيف يحْشَر النِّسَاء؟ قَالَ: «كَذَلِكَ حُفَاة عُرَاة». قَالَتْ: وَاسَوْأَتَاهُ مِنْ يوْم الْقِيامَة! (خافت السيدة عائشة العظيمة الرائعة المبرأة من انكشافها عارية يوم القيامة فماذا كان رد النبى قَالَ: «وَعَنْ ذَلِكَ تَسْأَلنِى، إِنَّهُ قَدْ نَزَلَتْ عَلَى آية لَا يضُرّك كَانَ عَلَيك ثِياب أَمْ لَا»، قَالَتْ: أَى آية هِى يا نَبِى اللَّه؟ قَالَ: (لِكُلِّ اِمْرِئٍ مِنْهُمْ يوْمئِذٍ شَأْن يغْنِيه)، سنكون عرايا حفاة وستكون عاريا حافيا يا سيادة الرئيس...فهل أنت مستعد...عاريا حافيا تذكر!

دعاء المظلومين

اللّهم إنّى من عبيدك من مواطنى مصر التى يريد حاكمها وحزبها الحاكم أن يجعلنا عبيدا لهم لا عبيدا لك وحدك أنت مولانا، نواصينا بيدك، تعلم مستقرّنا ومستودعنا، وتعلم منقلبنا ومثوانا، وسرّنا وعلانيتنا، وتطلع على نياتنا، وتحيط بضمائرنا، علمك بما نبديه كعلمك بما نخفيه، ومعرفتك بما نبطنه كمعرفتك بما نظهره، وأنت العارف بأمر المزورين والمزيفين والمستبدين والمستكبرين والجبارين الحاكمين المتحكمين الغاصبين المغتصبين لحقوق الأمة وحقوق الله،أربع وأربعون فى المائة من هذا الشعب تحت خط الفقر، منهم من يبحث عن اللقمة فى أكوام الزبالة ومنهم من يشترى كيلو عظم الفراخ بستة جنيه كى يؤكل عياله، يا مولانا الذى لا ينطوى عليك شيء من أمورنا، ولا يستتر دونك حال من أحوالنا، ألقوا باثنين وعشرين ألفا من أولاد وشباب ورجال هذه الأمة فى المعتقلات وحوالى مليون طفل فى الشوارع بلا مأوى ولا مسكن ولا مأمن فلا يمنع الظالم من قدرتك وعزتك يا الله سلطانه وعزوته، أنت مدركه أينما سلك، وقادر عليه أينما لجأ، فمعاذ المظلوم منّا بك، وتوكّل المقهور منّا عليك، ورجوعه إليك، ويستغيث بك إذا خذله المغيث، ويستصرخك إذا قعد عنه النصير، ويلوذ بك ٢٢%من عائلات هذا البلد التى تعيلها نساء من أرامل ومطلقات ومهجورات وزوجات عاطلين متعطلين، نساء يشتغلن فى شظف العيش وفقر الحاجة ومذلة السؤال سعيا على الرزق الذى لا يوفره لهن حكم ولا حكومة ولا ينظر صاحب السلطان والصولجان لتلك النساء المعيلات لأسرهن أبدا، وتطرق بابك إذا أغلقت دونه الأبواب المرتجة خمسة فى الألف من المصريين (وأكثر وأنت البصير النصير) الذين تعذبهم سلطات مماليك هذا البلد وشراكسته وأحفاد على خنفس خائن أحمد

عرابى في جهاز أمن الدولة ورجاله في مقراته وسجون مصر، ويصل إليك صوت الذين تعذبوا ونفخوهم في أقسام الشرطة والمعتقلات، وعائلات الشباب الثكلى بهم وهم أحياء كالموتى في سجون هذا الجبروت الذى يحكم الوطن وأطفال وبنات شيوخ وعلماء وأساتذة رموا بهم في السجون والسراديب سنين بدون محاكمات أو بأحكام ظالمة، إذا احتجبت عنا ملوك القاهرة الغافلة فأنت تعلم ما حلّ بنا قبل أن نشكوه إليك، وتعرف ما يصلحنا قبل أن ندعوك له، فلك الحمد سميعاً بصيراً لطيفاً قديراً. اللّهم إنّه قد كان في سابق علمك، ومحكم قضائك، وجار قدرك، وماض حكمك، ونافذ مشيئتك في خلقك أجمعين، سعيدهم وشقيهم وبرّهم وفاجرهم أن جعلت هؤلاء الذين يحكمون مصر على قدرة فظلمونا بها، وبغوا علينا بوزارة داخليتهم ومباحثهم وقوات الأمن المركزى وقوانينهم وبرلمانهم وحزبهم وصحفهم المنافقة وأبواقهم الجوفاء، وتعزّزوا علينا بسلطانهم الذى خوّلتهم إياه، وتجبّر جبارهم ومتكبرهم علينا بعلوّ مقعده الذى جعلته له، وغرّه إملاؤك له، وأطغاه حلمك عليه. فقصدنا بمكروه عجزنا عن الصبر عليه، وتعمّد رجالات هذا الحكم وأعوان هذا السلطان بشرّ ضعفنا عن احتماله، ولم نقدر على الانتصار منهم لضعفنا فقد جعلوا مصر تعانى من بطالة شبابها حتى صار ١٨% من أبنائها يعانون من بطالة فلا مورد ولا رزق ولا وظيفة ولا زوجة ولا زوج، ومنهم من مات مبتورة أعضاؤه بعدما تجمد في ثليج غربة موحشة على حدود بلاد غريبة سعى لها فرارا من فاقة وفزعا من فقر أحياه فيه حكام وطنه، توكلك يا الله عائلات ألف ومائة غريق ماتوا في عبارة بحر غرباء عن وطنهم وحضن عائلاتهم وفى برد وقهر بلا سبب إلا لفساد عهد واستبداد رجال مصوا دماءنا وامتصوا روح رعاياهم، توكّلنا عليك وحدك في أمر حكامنا، فلم تهتز من هؤلاء الحكام الظلمة شعرة ولم تتحرك فيهم نبضة ولم يرتعش لهم جفن حين نتوعدهم بعقوبتك، ونحذرهم من سطوتك، ونخوّفهم من نقمتك، فظنّ كبراؤهم وكبيرهم وجباروهم أن حلمك يا الله عنهم ضعف، وحسبوا أنّ إملاءك وإمهالك لهم عجز، ولم تنههم واحدة عن أخرى، ولا انزجروا عن ثانية بأولى، ولكنّنا نرى من تمادى في غيه،

وتتابع فى ظلمه، ولجّ فى عدوانه، واستشرى فى طغيانه وفيه جرأة عليك يا رب، وتعرّضاً لسخطك الذى لا تردّه عن القوم الظالمين، وقلّة اكترات ببأسك الذى لاتحبسه عن الباغين. فها نحن يا ربى شعب مستضعف فى يديه وإرادته وشجاعته، أفقرونا وأذلونا ودفعوا كثيرا منا لمد أياديهم يقبلون الرشوة كى يصرفوا على عيالهم وقبلوا المال الحرام ليشتروا الحلال شقة أو شهادة ثانوية أو كلية لأولادهم وكيلو لحمة لغذائهم وملابس تستر، لقد أحوجوا الناس للحرام حتى يقدر البسطاء والفقراء ومحدودو الدخل على العيش ومنعوا عنهم التوبة لما أمعنوا فى إفقارهم وغلاء الحياة عليهم، نحن يا ربى شعب مستضام تحت سلطانه، مستذلّ بعنائه، مغلوب مبغى علينا مغضوب وجل خائف مروّع مقهور، قد قلّ صبرنا وضاقت حيلتنا، وانغلقت علينا المذاهب إلاّ إليك، وانسدّت علينا الجهات إلاّ جهتك، والتبست علينا أمورنا فى دفع مكروه حكامنا عنا، فقد ألجم الناس الخوف والفزع من أيدٍ تقبض عليهم وعصى تضربهم وقوات أمن تعتقلهم وعسس ومخبرين يتجسسون عليهم ومعتقلات تضم الطيبين والغافلين والسذج والأبرياء وفلذة الأكباد من الشباب وسجون تحوى المظلومين والمظاليم وقوانين فصلت لسجن كل صاحب رأى وقيود على كل صاحب فكر، فصار الجبن سمة الناس وبات الخوف شيمة الرجال وساد النفاق وتسيد وتعددت صوره وتنوعت، فنفاق حتى يترفع شأن طامع فى وزارة أو طامح لمكانة ونفاق رجل حتى يأمن على نفسه وعياله ونفاق ثالث حتى لا يشك أحد فى أمره ونفاق آخر حتى يترقى ونفاق الخائفين ونفاق من رأى الجميع ينافق فنافق ونفاق الساعين للرزق ونفاق المرعوبين من الغد فصرنا بين نفاق الراغبين فى الصعود ونفاق الجزعين من الهبوط، وأصبحت مصر بلدا للنفاق والمنافقين من نفاق للساسة والسادة إلى نفاق فى الدين من مظهر للتدين إلى جوهر اللصوصية والتعفن، واشتبهت على الناس الآراء فى إزالة ظلم الحاكم، الذى استنصرناه من عبادك خذلنا، والذى تعلّقنا به من خلقك باعنا، والذى توسمنا فيه خيرا سجنوه أو اشتروه، فليس أمامنا إلا أنت ولا سند إلاّ عليك. فرجعت أنا وغيرى إليك يا مولاى صاغراً راغماً مستكيناً، عالماً أنه

لافرج إلاّ عندك، ولا خلاص لى إلاّ بك، انتجز وعدك فى نصرتنا، فإنّك قلت وقولك الحق الذى لا يردّ ولا يبدل : «وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيهِ لَينصُرَنَّهُ اللهُ» وقلت جلّ جلالك وتقدّست أسماؤك : «ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ»، وأنا فاعل ما أمرتنى به لا منّاً عليك، وكيف أمن به وأنت عليه دللتنى، فصلّ على محمّد وآل محمّد الذى قال صلى الله عليه وآله وسلم «اسألوا الله وأجزلوا، فإنّه لا يتعاظمه شيء» فاستجب لنا كما وعدتنا يا من لا يخلف الميعاد ونحن نعلم أنه لا دعاء مع قعود دون عمل، ولا قبول للدعوة من جوف مأكله حرام ولا حق لمن يدعو وقد امتنع عن السعى للتغيير والوقوف أمام الظلم، نحن نسعى وندعوك يا الله، نحن نعمل وندعوك يا الله، عائلات ألفين من المواطنين أحرقهم قطار الصعيد ومئات ممن ماتوا وآلاف ممن أصيبوا فى عشرات الحوادث فى قطارات أو سيارات طرق نتيجة إهمال حكامنا وتقصيرهم وفسادهم، تعلم ونعلم يا رب أنّ لك يوماً تنتقم فيه من الظالم للمظلوم، ونتيقّن أنّ لك وقتاً تأخذ فيه من الغاصب للمغصوب، لأنّك لا يسبقك معاند، ولا يخرج عن قبضتك أحد، ولا تخاف فوت فائت، ولكن جزعنا وهلعنا وضعفنا وقلة حيلتنا لا يبلغون بنا الصبر على أناتك وانتظار حلمك، فقدرتك يا ربى فوق كلّ قدرة، وسلطانك غالب على كل سلطان، وميعاد كلّ واحد إليك وإن أمهلته، ورجوع كلّ ظالم إليك وإن أنظرته، وقد أضرّنا يا ربّ حلمك على حكامنا وحزبنا الحاكم وقادة بلادنا، وطول أناتك لهم ربع قرن ويزيد وإمهالك إياهم كل هذا الوقت، وكاد القنوط يستولى على شعب بكامله لولا الثقة بك، واليقين بوعدك. فإن كان فى قضائك النافذ، وقدرتك الماضية أن ينيب هؤلاء الحكام الغاصبون أو يتوب الظالم، أو يرجع عن ظلم عبادك فى مصر المحروسة أو يكفّ مكروههم عنّا،فأوقع ذلك فى قلبه الساعة قبل إزالة نعمتك التى أنعمت بها عليهم، وإن كان فى علمك به غير ذلك، من استمرار على ظلمنا واستقرار على تزوير إرادة المواطنين وتزييف أصواتهم والعسف بنا ومواصلة الفساد والاستبداد وتوريث الحكم ورمى الناس فى السجون والمعتقلات ونهب أموال البلد وثروات الوطن وإصابة الملايين منا

بالمرض واعتلال الصحة، فأسألك يا ناصر المظلوم إجابة دعوة المظلوم المنتصر بك فإنا مغلوبون فانتصر، وخذهم من مأمنهم أخذ عزيزٍ مقتدر، وأفجئهم فى غفلتهم مفاجأة مليك منتصر، واسلبهم الحكم والسلطة، وفرق عنهم جموعهم وأعوانهم المتكبرين المتجبرين، ومزّق استبدادهم كلّ ممزّق، وفرّق بطانة السوء كلّ مفرّق، واسحب عنهم نعمتك التى لم يقابلوها بالشكر، وانزع عنهم عزّك الذى لم يجازهم بالإحسان، واقصم الذين عذبوا الناس فى المعتقلات وقذفوا بهم فى السجون يا قاصم الجبابرة، وأهلك المتورطين فى الفساد المتعاونين على الاستبداد يا مهلك القرون الخالية والأمم الظالمة، واخذله يا خاذل الفئات الباغية، ولا تدع لأى فاسد نهاب للبلد ثروة إلاّ هتكتها، ولا دعامة من واشنطن أو لاظوغلى إلاّ قصمتها، ولا كلمة مجتمعة لأعوان المستبد فى برلمان أو حزب أو سفارة إلاّ فرّقتها، وأرنا فى أنصاره وجنده ومنافقيه يوما مقنعى الرؤوس بعد الظهور على الأمّة، واشف بزوال أمرهم القلوب المنقلبة الوجلة، والأفئدة اللهفة، والأمّة المتحيرة، والبرية الضائعة. وأرح بزوال تكبرهم وتجبرهم الأقدام المتعبة والأجساد المريضة بفيروس سى والسرطان والسكر والفشل الكلوى والتعب النفسى والأكباد الظامئة واضرب الظلمة الذين ناصروا الصهاينة وتعاونوا مع مجرمى الحرب الإسرائيليين مغتصبى فلسطين على إخوانهم العرب المسلمين والمسيحيين فى فلسطين ولبنان والعراق بنكبة ؟ انتعاش معها، وبعثرةٍ لا إقالة منها، وليرى كل عتل فى الأرض بطشتك الكبرى، ونقمتك المثلى، وقدرتك التى هى فوق كل قدرة، وسلطانك الذى هو أعزّ من سلطانه، واغلبه بقوّتك القوية، ومحالك الشديد.. وابرئه من حولك وقوّتك، وأحوجه إلى حوله وقوّته، وأذلّ مكره بمكرك، وادفع مشيئته بمشيئتك، وخيب أمله، وأزل دولته، وصير كيده فى ضلال، ورجاله إلى زوال، ونعمته إلى انتقال، وسلطانه المستبد إلى اضمحلال، وعافية حكمهم إلى شر مآل وقنا شرّهم وهمزهم ولمزهم، وسطوتهم وعداوتهم، فإنّك أشدّ بأساً وأشدّ تنكيلاً، اللهم أنت الله أنت الرحمن أنت الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الفعال لما يريد مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن

تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء اجعل لنا من أمرنا في مصر وطننا بلدنا الذى نحب والذى يذل ويهان من حكامه ويضعف أمام أعدائه وينهب من لصوص نظامه اجعل لهذا الشعب المغلوب على أمره، الخائف الذى أصابه جبن وأمرضه الخوف من حكامه اجعل له فرجا ومخرجا فإنك تعلم ولانعلم وتقدر ولا نقدر وأنت على كل شى قدير برحمتك يا أرحم الراحمين وآخر دعواهم أن الحمدُ لله ربِّ العالمين.

الغوغاء قادمون

أخطر ما تنتظره مصر فى الفترة القادمة هو تحرك الغوغاء !

ساعتها لن تكون مصر التى نعرفها بل ستصبح هى تلك البلد التى تتمنى ألا تكون قد عرفتها أبداً

هؤلاء الغوغاء يعلفهم نظام مبارك ويزغطهم وهو يعتقد أنهم أكبر حلفائه، بينما هم خطر عليه قبل أن يكونوا خطراً على البلد نفسها، هؤلاء الغوغاء خليط من البلطجية والمسجلين خطر الذين يستعين بهم نظام مبارك وحبيب العادلى فى الانتخابات والمظاهرات للاعتداء والتحرش بالمتظاهرين، وهم كذلك الجماعات التى تخرج مندفعة ومتحمسة وغاضبة لتضرب الأقباط أو تعتدى على كنيسة أو تحرق بيتاً مسيحياً تقرباً من الله وتصوراً أن فى ذلك ديناً وتديناً، وهى نفسها التى تخرج تحرق فى إطارات سيارات وتمنع المرور وترقص فوق السيارات وتشعل النار فى الشوارع وتتحرش بالبنات احتفالاً بفوز مصر أو الأهلى والزمالك ببطولة كروية، وهم كذلك الذين يجرون فى وسط البلد فى أيام العيد المفترجة وراء بنت وخطيبها يتحرشون بهما ويحاولون الاعتداء على البنات وقطع الجيبة أو دس اليد فى الصدر أو المؤخرة !!

هؤلاء هم الذخيرة التى يسعد بها أى نظام بوليسى مستبد، فهى أولاً تضمن له جنوداً فى أى معركة ضد النخبة أو المثقفين أو السياسيين، ويستطيع أن يؤلب هذا النظام مجموعات الغوغاء ضد هؤلاء المفكرين أو المثقفين بمزاعم أنهم ضد الوطن وعملاء لأمريكا وشوية بكوات أغنياء مرتاحين مرفهين وملاحدة كفرة، فيهيج الغوغاء على المثقفين والسياسين ويتمكن فى لحظة باستئجارهم أو استفزازهم وتحريضهم على تحطيم أذرع وأدمغة أى جماعة سياسية باستخدام الغوغاء، ثم يحقق له ثانياً هدفاً مهماً، وهو استغلال الفوضى العارمة التى يصنعها الغوغاء

والدمار الفظيع الذين يسببونه فى إعلان حالة طوارئ أو اتهام فصيل سياسى بهذه الأحداث أو الطعن فى مصداقية وسلمية أى مظاهرة بما جرى فيها من عنف أو شغب، ثم هو يحقق ثالثاً الظهور بصورة المحايد العادل الذى يخشى على سلامة واستقرار البلد !

لكن من هم الغوغاء فعلاً ؟

هم فئة اجتماعية سائبة كما يصفها أحد الباحثين «خارجة على أى ضوابط، منفلتة لا عقل لها ولا وعى، تفور بفتوى وتبرد بفتوى، غضبها كامن فى عقيدتها أو فى حرمانها أو فى جوعها، لديها دوافع الهوس والظلم والانتقام والأوهام والتوهمات وتشفية الغليل، ومن البديهى أن ارتفاع معدل نشاط الدهماء الاجتماعى، وارتفاع نسبة التصريف لطاقة عنفهم وتدميرهم، لا يدين فقط هؤلاء الموتورين الدهماء بقدر ما يدين الذين يجعلونهم ينفثون غضبهم ويوجهونه إلى غير وجهته الأصلية، بل بالأحرى يدين النظام الاجتماعى والسياسى والدينى الذى أنتج هذه الفئة المكتسحة فى المجتمع المصري.«

لكن هذا لا يضعنا أمام تعريف مباشر لكلمة الغوغاء، فنحن نسمع الحكومة ورجالها (إن كانوا رجالاً) فى الصحافة والإعلام يتهمون المتظاهرين ضد مبارك أو جماعات طلابية محتجة أو عمالاً معتصمين أو مظاهرات تطالب بالقصاص من العدو الإسرائيلى أو تهاجم خنوع نظام مبارك أمام إسرائيل بأنهم غوغاء ورعاع، وهو اتهام قديم لأى ثورة فقد أطلق الاستعمار وأذياله على سعد زغلول زعيم مصر الشعبى الأول لقب «زعيم الرعاع»، ومن ثم قد يختلط على حضرتك فهم الرعاع، هل هم خصوم مبارك فى المظاهرات كما يصفهم البعض أم هم حشود مبارك التى تؤيده وتبايعه وتهجم على أى واحد ينتقده على اعتبار أنه عاب فى الذات الإلهية؟ المهم حتى لا تحتار ويحتار دليلك فكما يقول د.سعيد الأفغانى فى بحث لغوى مدهش فإن كلمة «الغوغاء» أول ما وضعت - فيما يرى - للجراد «بعد أن ينبت جناحه ويخف للطيران» أو هى «لشيء يشبه البعوض ولا يعض ولا يؤذى لضعفه» ثم استعملت إضافة لذلك لما يصدر عن هذه الحيوانات «من

صوت وجلبة» قالت المعجمات: «وبه سمى الغوغاء من الناس وهو مجاز» إما تشبيهًا لهم بهذه الأجناس من الحيوان لضعفهم، وإما عن الصوت والجلبة لكثرة لغطهم وصياحهم.

وجرى الاستعمال فى إطلاق (الغوغاء) على «السفلة من الناس والمتسرعين إلى الشر» كما قال ابن الأثير عند تفسيره قول عبد الرحمن بن عوف، لعمر بن الخطاب: «يحضرك غوغاء الناس.«

الغوغاء إذن هم هؤلاء السفلة، والسفلة ليس بالمعنى الأخلاقى فقط بل بالمعنى المكانى أى أنهم ناس من أسفل، ناس من القاع، لكنهم لا يكتفون بأنهم يتحركون وحدهم بل لابد من صحبة الرعاع فأشقى البلاد ما تسلط فيها رعاعها.و من قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «إن الموسم يجمع رعاع الناس...» وعقَّب شارحًا، أى غوغائهم وسقاطهم وأخلاطهم، و ما قاله عثمان بن عفان رضى الله عنه حين تنكر له الناس: «إن هؤلاء النفر رعاع غثرة» والغثرة: السفلة. و قول على بن أبى طالب رضى الله عنه «... وسائر الناس همج رعاع.«

وصناع الاستبداد والفساد لا يستغنون عن الغوغاء والهمج والرعاع، يجندون الأصناف الثلاثة معًا، الأول لقوته فى الشر، والثانى لضعف عقله، فهو أسهل فى الانقياد، والثالث أتباع كل ناعق يجرون وراءه بملء بطونهم. والاستعمال الحديث كما يقول دكتور سعيد الأفغانى وسع مدلول (الغوغاء) فاحتوى الثلاثة معًا.

هؤلاء الغوغاء فى مصر تحت أمر ضباط أمن الدولة وضباط الأقسام والسجون، وملك يمين رجال الأعمال وأصحاب المصالح فى الحزب الوطنى، أعضاء ونواب الشعب والشورى خصوصا الضباط السابقين منهم أو المليونيرات الحاليين، ويتم توريد هؤلاء فى كل أزمة وحادثة سواء لمواجهة المعارضين أو لتأديب المنافسين، لكن المشكلة الحقيقية أن هؤلاء الغوغاء سلاح فى يد المتطرفين والإرهابيين تماما مثلما هم سلاح فى يد الحكومة وقد ينقلبون على الدولة بنفس طريقة استخدام الدولة لهم، فالمؤكد أن الجهلة هم حلفاء الاستبداد لكنهم أيضا

جنود التطرف. لننظر أولا ما الذى قاله عبدالرحمن الكواكبى فى كتابه طبائع الاستبداد لنعرف كيف يكره المستبد والطاغية العلم وكيف يستثمر الجهل، (العوام هم قوة المستبد وقوته. بهم عليهم يصول ويطول؛ يأسرهم، فيتهللون لشوكته؛ ويغصب أموالهم، فيحمدونه على إبقائه حياتهم؛ ويهينهم فيثنون على رفعته؛ ويغرى بعضهم على بعض، فيفتخرون بسياسته؛ وإذا أسرف فى أموالهم، يقولون كريم؛ وإذا قتل منهم ولم يمثل، يعتبرونه رحيما؛ ويسوقهم إلى خطر الموت، فيطيعونه حذر التوبيخ؛ وان نقم عليه منهم بعض الأباة قاتلهم كأنهم بغاة.والحاصل أن العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشيء عن الجهل والغباوة، فإذا ارتفع الجهل وتنور العقل زال الخوف، وأصبح الناس لا ينقادون طبعاً لغير منافعهم كما قيل: العاقل لا يخدم غير نفسه، وعند ذلك لابد للمستبد من الاعتزال أو الاعتدال(

لكن هل يولد الناس من بطون أمهاتهم غوغاء؟

المؤكد لا فكلنا نولد على فطرة العقل السليم والقلب الطاهر حتى تتسلمنا أحضان المجتمعات فتحولنا إلى ما نصير إليه، وفى مصر استطاع نظام مبارك توسيع دائرة الغوغاء على نحو غير مشهود من قبل فقد أدخل فيه أنواعا وشرائح لم تكن من عجينة الغوغاء فى زمن ناصر والسادات، وصار قطاع كبير من المصريين يحمل إمكانية أن يتحول إلى غوغاء فورا فى لحظة غضب أو حاجة أو هوس جماعى، ليه بقي؟ لأن الغوغاء يصنعهم شيئان، الاقتصاد والتعليم، سياسة إفقار المصريين ومنهج تجهيل المواطنين هما الجذر الذى ينبت شوك الغوغائية فى أى مجتمع، وهو أيضا الذى يعيش عليه أى نظام دكتاتورى بأن يحيا الناس لا هم لهم ولا أمل لديهم سوى أن يأكلوا ويجدوا ثمن اللقمة ويصل بهم الفقر إلى درجات من التذلل أو الخضوع التى تسمح بالسيطرة عليهم مع تحطيم طموحاتهم المالية تماما وتخفيض سقف أمنياتهم التى تتحول معها علاوة بخمسة جنيهات إلى أمل و(عمر) وهو ما يجعل كذلك التصارع على عشرين جنيها سببا لقتل زميل أو أخ، هذه الآلية فى السيطرة هى توأم آلية أخرى هى نزع الوعى من الناس من خلال

الوسائط الثلاثة، مناهج التعليم المبتذلة والجهولة، وخطب الجمعة المضللة والمتعصبة ووسائل الإعلام المزيفة والمنافقة، هذا يدفع الناس دفعا للجهل المطبق الذى يتشارك مع الفقر فيصنع قنابل زمنية تمشى فى الشوارع وفى سنوات مبارك لا يمكن أن تخطئ ملاحظة هذه السياسة المنظمة الدؤوبة واليومية من إفقار ملايين المصريين عبر بطالة متزايدة ومنتفخة تطول الأيدى العاملة من محدودى التعليم وحملة المؤهلات المتوسطة وحتى المؤهلات العليا وتمسك بخناق الشباب الذى تصل نسبته وفق إحصاءات تقرير الأهرام الاستراتيجى حوالى ٩٠%من نسبة العاطلين، هذه البطالة إن أضفت لها ضيق ذات اليد وارتفاع الأسعار ستجد شرائح من المحتاجين والمحرومين تكون على أهبة الاستعداد فى أى لحظة للتعبير عن غيظ مكتوم وحنق مدفون بعدوانية شرسة ووحشية بالغة، لكن هذا الغضب المشتعل فى انتظار بنزينه لا يكتمل إلا بالتجهيل الذى يحشو الدماغ المصرية الفقيرة أو المعدمة أو متوسطة الحال محدودة الإمكانيات بالتعصب والتطرف، وعدم احترام الاختلاف والاجتراء على العلم وأصحاب العقول والسقوط فى براثن الخرافة والاستسلام الكامل للغيبيات واحتقار العقل البشرى واستمراء الثقافة الشفوية والانغماس فى تصديق الخزعبلات والأكاذيب التراثية والنفخ فى العدوانية تجاه الأديان والثقافات الأخرى ومن هنا تصبح التربة خصبة تماما لحصاد الجهل والفقر، ومستعدة لتلبية النداء لإشعال فتنة طائفية أو تحرش بنساء أو ضرب متظاهرين !

أخشى من تلك اللحظة القادمة..وهى قادمة لا شك!

ثورة تصحيح التصحيح!

فى ليلة أكثر جمالا من ليلتنا هذه قام الرئيس الراحل أنور السادات بما أطلق عليه منافقوه وتابعوه ثورة التصحيح تلك التى كنا ندرسها فى ابتدائى وإعدادى كأنها أعظم ما حدث لمصر قبل أن يرزقنا الله عز وجل بمنافقين آخرين وتابعين أرذل وأذل جعلوا ضربة الطيران وأول طلعة جوية (التى لا نعرف هل كان لها تانى ولا لأ) هى أهم ما حدث لمصر رغم أن الرئيس مبارك كما هو معروف لم يطلع فى الطلعة إنما كان تحت، ومع ذلك فلاتزال الذاكرة تحفظ شيئا من دروس إعدادى التافهة التى تتحدث عن مراكز القوى التى أنهاها الرئيس السادات فطهر ثورة يوليو ومهد الطريق إلى نصر أكتوبر (لا تنس أول طلعة جوية) لكن الذى يتأمل هذا الحدث بعد كل هذا العمر وقد مرت عليه ستة وثلاثون عاما الآن يدرك أن هؤلاء الذين كانوا متهمين بأنهم مراكز قوى كانوا من أطيب خلق الله بل ومن أطهرهم يدا كذلك وهم وإن كانوا مراكز قوى فعلا وقتها إلا أنها قوى على قدها وغاوية فقر وبتلبس بدلا صيفية وبتركب نصر ١٢٨ بيضاء وكانت مصدقة أنها تعمل لصالح الوطن لكن الوطن نفسه هو اللى مكنش مصدق!

المجموعة التى سميت مجموعة ١٥مايو ومراكز القوى لم تفعل أى شيء للانقلاب على السادات غير أنها قدمت استقالاتها، تخيل لما تكون مراكز قوى تضم نائب رئيس الجمهورية ووزير الدفاع والإعلام والاتحاد الاشتراكى والداخلية ومدير مكتب الرئيس وكل ما تقوم به من انقلاب وإزاحة للرئيس من مقعده هى تقديم استقالاتها بل واعلان هذه الاستقالات فى التليفزيون والاذاعة، خلاص انتهت المؤامرة، آه والله العظيم هذا ما فعلته مجموعة مايو بل الرئيس السادات نفسه وقد أعدت قراءة كل ما قاله عما حدث فى ١٥مايو ركز هجومه عليهم وفضحه لهم على شيئين فقط، الأول أنهم كانوا يراقبون ويتجسسون على مكالمات وبيت الرئيس

نفسه، والثانى انهم حاولوا عمل فراغ دستورى فى البلد بتقديم استقالات جماعية، أما التهمة الأولى فإن الرئيس السادات نفسه راقب معارضيه وتجسس عليهم وهذا آخر ما يقوله حاكم مصرى من اتهام لأجهزته، فهو كذلك الذى سمح لهذه الأجهزة بالدخول إلى كل بيت معارض فضلا عن تطور الأمور حتى وصلت إلى أن الرئيس مبارك أعطى لنا مثلا عظيما، حيث ترك مباحث أمن الدولة تتجسس على الناس بالقانون وبالدستور وتخترق الحياة الخاصة ولأول مرة نرى خصخصة القطاع العام فى نفس وقت عمعمة الحياة الخاصة أى جعلها مشاعا عاما، بل وتنتهك هذه الأجهزة كل خصوصيات الناس وتلفق وتزور شرائط واسطوانات للتشويه والتشهير فهذا كله نتيجة نظام بوليسى تورط فيه جمال عبد الناصر وأنور السادات ثم انفرد الرئيس مبارك بما لم يأت به الأوائل وجعل من التجسس والتنصت منهج حكم لهذا الوطن، لكن كل هذا مدان التجسس على بيت الرئيس كما على أى بيت فى البلد.

نأتى للتهمة الثانية وهى أن مجموعة مايو حاولت عمل فراغ دستورى وهى حاجة تضحك جداً لكنها أيضاً تهمة لصالح مجموعة مايو ولا يمكن أن نخرج منها سوى باحترام هذه المجموعة فردا فردا فهم مسئولون يحترمون الدستور ويستخدمون مواده لتغيير نظام البلد ولم يفكر وزير الحربية فى استخدام الدبابات ولا أخرج وزير الداخلية قوات الأمن، أبدا هم ضغطوا بشكل شريف وغضبوا بشكل نبيل وعفيف و بالمناسبة بشكل هزلى ومهترئ وخايب ولكنه أبدا ليس انقلابا ولا عنفا ولا سفكا للدماء، وقد انتهى الأمر بانتصار السادات عليهم لأنهم كانوا طيبين وعلى نيتهم ولم ينجح إحداث فراغ دستورى لأن الدستور مش ناقص فراغ بل نجح السادات ومن بعده مبارك فى دسترة الفراغ، وصار الرئيس أبديا والدستور فى خدمة الرئيس ديليفرى وتيك آوى، ثم عندما نتأمل هذه الأسماء التى أطاح بها الرئيس السادات نكتشف أن شيئا رائعا ومذهلا يجمعهم جميعا وهو أنهم شرفاء، نعم، شرفاء طاهرو الضمير نظيفو اليد فإذا قارنت رجال مراكز القوة فى عصر الرئيس عبدالناصر والسادات بمراكز القوى فى عصر مبارك

ستجد هذا الفارق الواضح، هناك رجال دولة فى حكم ناصر استأثروا بصناعة القرار واستغلوا ثقة عبدالناصر فيهم، لكن السؤال هل مدوا يدهم على فلوس البلد وثروتها؟ هل أثروا وتوحشوا فى الثراء؟ هل أورثوا عيالهم مصانع وشركات وممتلكات؟ هل اكتشف أحد أن لأى منهم حسابات فى بنوك سويسرا؟ هل صيفوا فى مكان أبعد من عشة فى رأس البر؟

المؤكد أن مراكز القوى كانت على نحو ما قد أساءت استخدام السلطة خصوصا مع غياب الرقابة والمحاسبة السياسية ومع سيطرة هائلة للعقيدة السياسية التى كانت تتحكم فى أفكارهم وسلوكياتهم فتصرفوا باعتبار أن الوطن فى خطر من تربص أعدائه ولابد من حمايته فاشتطوا فى الحماية أحيانا لكنهم لم يستغلوا مناصبهم فى جمع ثروة ولا نهب مصر، شوف من هم هؤلاء أساسا؟

الفريق محمد فوزى الذى عاش رجلا عسكريا منضبطا ومحترما لا تشوب تاريخه ذرة من شبهة مالية، عاش ومات بسيطا وملتزما ومتعففا، وهو نفس حال الراحل على صبرى الذى لم يورث ابنه دينارا ولا درهما بل عرقا وجهدا وتاريخا متعبا ومعوقا، ثم شعراوى جمعة وزير الداخلية الذى كنا نذاكر شتيمته فى الابتدائى والاعدادى كى ننجح، كان رجلا مستورا وموظفا محدود الدخل و الاستثمار الوحيد الذى فعله فى حياته هو تربية أبنائه وبناته على العلم حتى صارت أسرته ذات اسم مرموق فى الحياة الجامعية لكننا لم نره وقد مد يده أو حتى إصبعه لمال أو ثروة ولم يتاجر بمنصبه ونفوذه ولم نره بعد خروجه من سجون السادات سوى هذا الرجل المحترم المعتز بتاريخه، ثم هناك الاستاذ محمد فائق وزير الإعلام الأسبق الذى نعلم جميعا مدى نقاء سيرته ومسيرته من أى اتهامات من أى نوع مالى بل إن السادات وآلة إعلامه وحماس منافقيه باستعداد أجهزته للتلفيق لم تستطع أن تقترب من ذمة هؤلاء الرجال أبدا، خذ عندك الراحل فريد عبدالكريم الذى عاصرناه واقتربنا منه وهو الذى نال حكما بالاعدام من أنور السادات عاد وخففه للسجن، هذا الرجل عاش من مكتبه للمحاماة وكان شريفا وعفيفا كما تكون ذمة الأطهار، وهناك السيد ضياء الدين داوود والذى لم يترك مدينته

فارسكور منذ كان وزيرا (ومراكز قوى) حتى الآن مرتبط بها ومنتم لها لا أثرى ولا اغتنى إلا غنى النفس الذى يملأه شموخا، وغيرهم من رجال ١٥مايو أشرف ألف مرة من مراكز قوى تتحكم الآن فى بلدنا وتسيطر على كل شيء وتثرى وتغتنى من حساب هذا الوطن وتنهب فى قطاع أعماله وعيالهم صاروا مليارديرات من استغلال النفوذ والاثراء من مص دم الغلابة.

مراكز القوى الحقيقية التى تنهب البلد وتسيطر على قراراتها وقوانينها وتستغل مؤسسات الوطن وأجهزته لصالحها هى ما نراه الآن ونعيشه فى عصر مبارك، من أول أجهزة الأمن التى صنعت لنفسها دولة داخل الدولة ورفعت من ميزانيتها حتى انتقلت من ميزانية فى بداية عصر مبارك لا تتجاوز النصف مليار جنيه إلى كونها الآن تدير ميزانية تصل إلى تسعة مليارات جنيه تحت أمر وتصرف وزير الداخلية وميزاينة رجاله، وليس هناك جهاز واحد فى البلد يراقب ثروة الضباط خصوصا من العاملين فى أمن الدولة ويقول لنا من أين ثروة هؤلاء، سواء السيارات التى يملكها ضابط فى الثلاثينيات من عمره أو من أين لهم هذه التليفونات المحمولة الباهظة والجيل الثالث وكيف اشتركوا فى أغلى النوادى واشتروا الشقق والفيللات التمليك والشاليهات فى الساحل الشمالى، هؤلاء اللواءات الذين يديرون البلد كمراكز قوى حقيقية ماذا تقول إقرارات ذمتهم المالية وهل أبلغوا بالشركات التى يساهمون فيها والأنصبة التى يتقاسمونها مع شركاء فى شركات ومؤسسات أم أنهم يعتمدون على أنها بأسماء زوجاتهم وأولادهم، هل نعرف حجم البزنس الذى يشارك فيه ويعمل من خلاله كبار رجال الدولة فى الأجهزة الأمنية وصغارهم ومساعديهم؟ وهو ما يبرر دفاعهم الشرس عن نظام مبارك بكل غل وغطرسة بل وبسلوك غير انسانى من تعذيب واعتقالات واعتداءات وبتصرفات لاأخلاقية من انتهاك للأعراض وتنصت وتجسس، إنهم لا يدافعون عن مبارك بل يدافعون عن بقائهم شخصيا، يدافعون عن ثرائهم ومستقبلهم المادى، يدافعون عن أنفسهم ضد أى تغيير للوضع لقد أصبحوا أصحاب مصلحة فى بقاء مبارك بل وفى توريث حكمه لابنه حتى يستمر الوضع على ما هو عليه، تماما مثل بقية مراكز القوى فى البلد،

حيث رجال أمانة السياسات البارزين الذين جعلوا من وجودهم فى حضن السلطة الدافئ قاعدة لإطلاق صواريخ المال والثروة، هؤلاء الذين يؤلفون القوانين للاستفادة منها ويحتكرون السلع ويشترون مصانع القطاع العام برخص التراب بل ويتولون الوزارات ويبيعون أثاث مصر من مصانع وشركات، وأساس مصر من عدالة وأخلاق، مراكز قوى لا تستطيع أن تقاومها وإلا فرمتك فى سوق المال والأعمال وتبيع وتشترى فيك وتسجنك كما سجنوا ايمن نور وطلعت السادات بل والأغرب كما سجنوا حسام أبو الفتوح وأصحاب توظيف الأموال ووزراء ورؤساء مجالس إدارات اختلفوا على بيعة أو صفقة أو لم يرضخوا لابتزاز مراكز القوى، هؤلاء مراكز قوة كبرى فى البلد تتحكم فى السياسة حتى تصنع لنفسها قوانين وقرارات وتغطى على ما ترتكبه وتسهل ما تفعله، وتتحكم فى الاقتصاد بضرب المتنافسين وتقسيم الأسهم وتوزيع الأنصبة والحصول على إتاوات وتزيح أسماء وترفع أخرى وتتشابك مراكز القوى الآن حتى يصبح من الصعب ضربها أو تفكيكها والأمل الوحيد لإسقاط هذه الشبكة هى غياب قائد قلعتها وزعيم حصنها، فهذه القوى أمسكت بعصب البلد وأعصابه مستخدمة اختراق الجهاز الأمنى بالرشوة المباشرة أو غير المباشرة وبناء علاقات عمل مع مسئولين أمنيين أثناء الخدمة وبعدها أو من خلال علاقات الشراكة بين أبناء الطرفين، ثم هناك التعاون الوثيق والعلاقة اللصيقة بين مراكز قوى مصر الجديدة بالشراكة المالية والمصاهرة والزواج والنسب والجيتو السكنى فى منتجعات وضواحى بعينها فى مصر وخارجها وبعنكبوتية تغلغلها فى شتى نواحى الحياة الاقتصادية فهم ملاك بنوك ومستشفيات وأصحاب توكيلات ومصانع سيارات وشركات مياه وشركات عقارية واتصالات وممثلو شركات عربية ودولية وأعضاء برلمانات ووزراء ولواءات، فمن أين تستطيع أن تواجه وتقاوم وهم يستطيعون فى لحظة أن يسقطوا اقتصاد البلد بنقرة على الكيبورد أو بمكالمة تليفون!

أين مراكز القوى فى عصر جمال عبدالناصر بل وفى عصر السادات من هؤلاء الذين يديرون مصر الآن؟ وبعيدا عن كل هذا أو قريبا من كل هذا تعالى

نقارن بين رجال دولة عبدالناصر ورجال دولة مبارك لنسأل فعلا من هو المرشح كى يكون مركزا للقوى دون الآخر ؟

هل سامى شرف مدير مكتب عبدالناصر كان لديه ما لدى زكريا عزمى الآن من سطوة ونفوذ وسنوات طويلة فى الخدمة بدت بلانهاية بعد أن صار مد خدمته بعد المعاش بيد الرئيس مبارك وحده بل هناك قانون صدر من مجلس الشعب بأن الرئيس مبارك وحده هو الذى يحدد مرتب زكريا عزمى ولا أحد يعرفه أو يحدده ولا سقف له سوى ما يريد مبارك ويشاء!

هل وزير الداخلية شعراوى جمعة كان يحصل على مرتب ودخل شهرى من نسب تحصيلات ومخالفات وخلافه كالتى يحصل عليها وزير الداخلية حبيب العادلى، هل شعراوى جمعة كان متحكما فى ميزانية وزارة على هذا النحو من الثراء والايرادات والنفقات كما يتحكم ويحكم حبيب العادلي؟

ولن أتحدث عن محمد فائق وأقارنه بوزيرى إعلام مبارك سواء السيد صفوت الشريف أو الأخ انس الفقى، ولن يسمح لى خيالى بأن أقارن أعضاء الاتحاد الاشتراكى البارزين المتهمين وقتها بأنهم مراكز قوى بزملائهم فى الحزب الوطنى الذين يتجاوز رقم ثروة أقل واحد فيهم المليار!

وطبعا لن أقارن ثروة الكاتب العظيم محمود السعدنى الذى كان محسوبا ومطرودا باعتباره من مراكز القوى بينما كانت ثروته امتلاكه حق النشوق بهؤلاء الكتاب الصحفيين من مراكز قوى عصر مبارك الذى تصل ثروة بعضهم إلى حد أثار دهشة الرئيس مبارك شخصيا!

إذا كانت مصر تعانى من مراكز القوى فهى تعانى الآن...وإذا كانت مصر تحتاج لثورة تصحيح، فهى تحتاج الآن على الأقل ثورة لتصحيح ما تم تصحيحه!

المحتويات